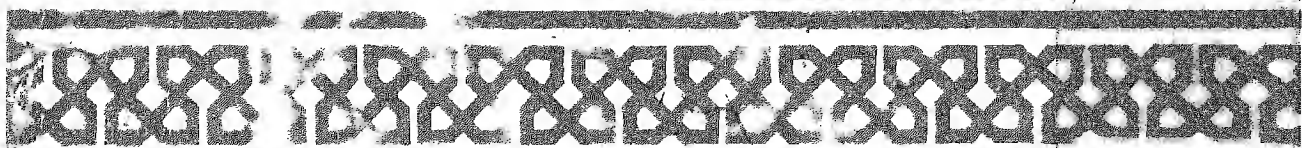
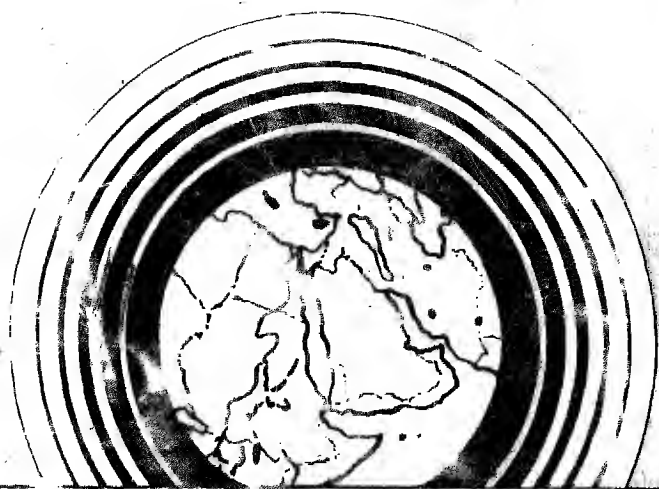


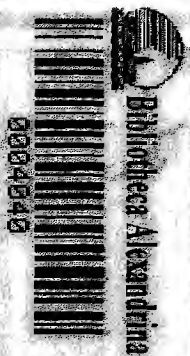
الدولة الإسلامية في الأندلس

في الشرف



عبد الرؤوف الفقي

دار الفكر العربي



الدول الإسلامية المستقلة في الشرق

الدُّوَالِ الْأَمِيَّةُ الْمُسْتَقْلَةُ فِي الشَّرَفِ

دكتور/ عصام عبدالرؤوف الفقي

أستاذ التاريخ الاسلامي
بكلية الآداب — جامعة القاهرة

دار الفكر العربي
١١ شارع جزار ميني - القاهرة
ص ب ١٣٠٢٦٣ - ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم
الأنبياء .

وبعد :

لقد وضعت كتاباً عام ١٩٧٨ عن الدول الإسلامية المستقلة في
الشرق . وبعد مرور عدة سنوات من نفاذ الكتاب ، رأيت أن أضيف إلى
هذا الكتاب دولا أخرى . حتى يستفيد القارئ الكريم فائدة أكبر .

والمعروف أن الدول الإسلامية المستقلة في الشرق لعبت دوراً كبيراً
في ازدهار الحضارة الإسلامية ، وخصوصاً الفكر الإسلامي والثقافة
الإسلامية ، واقترن اسم كل دولة تقريباً من هذه الدول بأسماء أعلام
وفلاسفة كان لهم دور ، بل أدوار بارزة في عالم الفكر .

على أن كتابي هذا قصيراً على النواحي السياسية لهذه الدول ، وأنا
الآن بصدد إعداد كتاب كبير يتضمن التطور الفكري في هذه الدول ، وأعلام
النهضة الثقافية فيها . ولابد للقارئ الكريم أن يقرأ عن سياسة هذه
الدول قبل أن يدرس حياتها الثقافية .

ويتضمن هذا الكتاب دراسة للدول الفارسية كالتاريخية والصغرية
والسامانية والأكراد الكاكويه - أو الدول التركية التي تأثرت بالثقافة
التركية مثل الدولة الغزنوية والسلجوقية والخوارزمية ودول الأتابكة .

كذلك بحثت في هذا الكتاب الدولة المغولية الأيلخانية في العراق
وإيران ، وهي دولة تأثرت بالإسلام ، فهدب الإسلام من نفوس هؤلاء
المغول وثقفوا بالثقافة الإسلامية .

وتناولت بالدراسة أيضاً الدول الإسلامية في الهند قبل الغزو
التموري .

هذا ولقد قضيت في محرابي عدة سنوات أدرس هذا الموضوع الشاق
بلغات متعددة شرقية وأوروبية فضلاً عن العربية .

وأرجو أن يوفقني الله إلى مواصلة البحث والدراسة في التاريخ
الإسلامي والحضارة الإسلامية .

د. عصام الدين عبدالرؤف الفقي

مصر الجديدة ١٩٨٧/٢/٢٠

الباب الأول

الحياة السياسية في شرق الدولة الإسلامية

منذ قيام الدولة الطاهرية حتى قيام الدولة الغزنوية

١ — الدولة الطاهرية

٢ — الدولة الصفارية

٣ — الدولة السامانية

٤ — الدولة البويهية

٥ — الدولة الزيدية في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم

٦ — دولة الأكراد الكاكويه في بلاد الجبل

١ - الدولة الطاهرية

استعان العباسيون بالفرس لأنهم أقاموا دولتهم على أكتافهم ، وقدر الخلفاء العباسيون الأوائل موقف الفرس منهم ، فكان أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) يكرر لأهل خراسان قوله : « أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا (١) » ، كما أوصى ولي عهده بهم بقوله : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فإنهم أنصارك ، وشيقتك ، بذلوا أرواحهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم (٢) . . » ، وازداد نفوذ الفرس في عهد الرشيد (١٧٠-١٩٢هـ/٧٨٦-٨٠٨م) والأمين (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) .

ولما ولي المعتصم الخلافة (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) أساء الظن بالفرس لأنهم طموحون يعملون على تحقيق مطامع قومية ، فاستعان بالترك ويعث في طلبهم من فرغانة وأثروسنة ، واتخذ من حسن هذامهم ، وجمال منظرهم وشجاعتهم ، وتمسكهم بتهاليم الاسلام سببا للاعتماد عليهم ، فأصبح معظم جند الدولة العباسية منهم ، كما أسند إليهم المناصب العسكرية والمخينة الكبيرة في دولته ، وآثرهم على العرب والفرس في كل شيء (٣) وبذلك قوى شأن الترك ، وازداد نفوذهم ، بينما ضعف شأن العرب والفرس (٤) .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٩ ص ١٢٩ .

(٢) نفس المصدر ج ٩ ص ٢١٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من ٢٣-٢٤٠٠ .

(4) Gibon. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Vol: IV, p: 47.

أدى ازدياد نفوذ العنصر التركي في الدولة العباسية واستئثارهم فيها بالنفوذ دون الخلفاء إلى حدوث كثير من القلاقل والاضطرابات في الدولة العباسية ، حقيقة أن الأتراك كانوا يخشون الخليفة المعتمد لقوة بأسه : فلما توفي وولى الواثق الخلافة (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) أخذوا يتدخلون في شئون الدولة ، ولم يستطع الخليفة السيطرة عليهم (٥) ، ولما استخلف المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) عول على سلبهم السلطة والنفوذ ، فتخلصوا منه ، وأصبحت الدولة العباسية مسرحا للفوضى والاضطرابات بسبب نفوذ الترك (٦) .

لم يقف العرب والفرس مكتوفي الأيدي إزاء ضعف نفوذهم ، واستئثار الأتراك بالسلطة والنفوذ دونهم ، بل عملوا على استرداد مكانتهم . فحاولوا الاستقلال ببعض بلدان الدولة العباسية ، فأقام الفرس في شرق الدولة الإسلامية دولا مستقلة عن الخلافة العباسية وهى الدولة الصفارية (٧) (٢٥٤-٢٩٠هـ/٨٦٧-٩٠٣م) وبعد أن انهارت الدولة الصفارية أقام السامانيون الفرس دولة في خراسان وبلاد ما وراء النهر (٨) (٢٦١-٣٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٩م) ، ومن العناصر الفارسية التي سيطرت على بعض أقاليم الدولة الإسلامية بنو بويه — الذين حكموا العراق وفارس والرى وهمدان وأصفهان وبلاد الجبل (٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٥٥-١٠٥٥م) ، ومثلوا دورا رئيسيا في السيادة الإسلامية (٩) .

يجدر بنا أن نذكر أن الدولة الصفارية قامت على انقراض الدولة الطاهرية التي أقامها طاهر بن الحسين في شرق الدولة الإسلامية ، وكان من كبار قواد الدولة العباسية . ولى منطقة بوشنج (١٠) حينما بدأ النزاع بين الأمين والمأمون ، وقاد جيش المأمون ضد قوات الأمين (١١) ، وقام

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣١٧-٣١٨ .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ٦٤ .

(٧) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 4.

(٨) زانجبار : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٩) يزدكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٩٢ .

(١٠) إحدى نواحي خراسان .

(١١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ٢ ص ٢٠١ .

بدوره في قهر الأميين طمعا في المكاسب التي سوف يحصل عليها من وراء هذا العمل فاشتبك مع علي بن عيسى — قائد الأميين — وهزمه وقتله سنة ١٩٥هـ/٨١٠م .

وتقدم طاهر الى بغداد ، واستولى على ما في طريقه من البلاد ، وحاصر بغداد والأميين بها ، وانتزعها من الأميين ، وتخلص منه (١٢) سنة ١٩٨هـ/٨١٣م ، ولقد كافاه المأمون بعد أن استقر في الخلافة بأن أسند اليه ولاية الجزيرة ، وولاية شرطة بغداد (١٣) ، ولم يثما المأمون أن يوليهِ خراسان حتى لا يستقل بها ، إذ لم يرغب عن ذهن المأمون مدى ما يتمتع به طاهر من نفوذ في خراسان (١٤) .

على أن طاهر بن الحسين لم يقنع بولاية الجزيرة ، إذ كان يطمح في اسناد ولاية خراسان اليه ، وما زال بالمأمون حتى أسند اليه سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م (١٥) جميع البلاد شرقي بغداد ، ووطد طاهر نفوذه في خراسان واتخذ من نيسابور حاضرة لدولته . وعلى ذلك استطاع طاهر أن يؤسس أول اماره شبه مستقلة عن الخلافة العباسية (١٦) .

اعزز طاهر بن الحسين الاستقلال نهائيا بدولته عن الدولة العباسية ، ففي سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م أسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة ، لكنه لم يلبث أن توفي (١٧) ، فوافق الخليفة المأمون على تولية طلحة بن طاهر (١٨) ولاية أبيه ، فعلى الرغم من استياء المأمون من الطاهريين فإنه كان يخشى أن انتزع الأمر من أيديهم أن تحدث اضطرابات في خراسان التي قسوى فيها نفوذهم (١٩) .

خلف عبدالله بن طاهر أخاه طلحة سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م (٢٠) وقد اتسع

(١٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٤٨٣ .
(13) Hitti : History of the Arabs. p. 46.

(١٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٥٢٨ .
(١٥) نفس المصدر ج ٨ ص ٥٨١ .
(16) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties. p. 128.

(١٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٥٩٣ - ٥٩٤ .
(١٨) نفس المصدر ج ٨ ص ٥٩٥ .
(19) Noldeke : Sketches from Eastern History. p. 68.

ملكه حتى شمل الري وكرمان علاوة على خراسان نفسها ، وكذلك الأراضي التي تقع شرقيها حتى الحدود الهندية وتمتد شمالا حتى حدود دولته الخليفة (٢١) .

حرص خلفاء طاهر بن الحسين على تحسين علاقاتهم بالخلفاء العباسيين ، وراعوا حقوق الدولة في شئون الحكم والامارة ، بل وقفوا الى جانبهم في القضاء على حركات التمرد والعصيان التي حدثت ضدهم (٢٢) ، لذلك لم يعمل الخلفاء العباسيون على استرداد نفوذهم على البلدان التي يسيطر عليها الطاهريون .

وكان محمد بن طاهر آخر حكام الدولة الطاهرية ، ولم يكن على شاكلة أسلافه ، فقد كان أميرا ماجنا يميل الى اللهو والعبث فضعف أمره كحاكم وعجز عن اخضاع الثورات التي قامت ضده ، ولما ازدادت الاضطرابات في الدولة الطاهرية ، استنجد أهل خراسان بالأمير يعقوب بن الليث الصفار لاعادة الأمن والطمأنينة الى بلادهم ، فوجد الأمير الصفاري الفرصة مواتية لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية ، فزحف بجيشه الى نيسابور سنة ٨٧٣/٢٥٩م وقبض على محمد بن طاهر وعلى أهل بيته (٢٣) وبذلك زالت الدولة الطاهرية .

٢ — التولية الصفارية

كان يعقوب بن الليث الصفار من أمراء المطوعة — وهي تشكيلات عسكرية — تعمل على حماية سجستان وفارس وكرمان من حالة الفوضى التي تعرضت لها من ثورات الخوارج ، وارتفع شأن يعقوب بعد أن ظهرت شجاعته في محاربة الخوارج ، فولى قيادة جماعات المطوعة . ومن ثم عظم أمره حتى أن أهل سجستان استنجدوا به لتخليصهم من الفوضى التي حلت ببلادهم (٢٤) ، فبصار اليهم ، ودفع عنهم الضر ، ولما رأى أهل

(٢٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج٨ ص ٦٢٠ .

(21) Ency. of Islam : Art Tahirid Dynasty.

(٢٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٠ ص ٢٨٩ .

(٢٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج٩ ص ٥٠٧ .

(٢٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٨ ص ٥٠٨ .

سجستان شجاعته واقدامه : وحسن تدبيره ، فملكوه أمرهم ، فضلبط
البلاد : وقويت شوكته ، وقصدته العسكر من كل ناحية (٢٥) .

لم يكتف يعقوب يحكم سجستان بل عول على مد نفوذه الى البلاد
المجاورة لها ، فاستولى سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م على بوشنج وهراة (٢٦)
وما والاها ، ولم يلبث أن احتل نيسابور ، التي كان يحكمها الطاهريون
مخالفا أوامر الخليفة العباسي ، ولم يتوقف عند ذلك الحد بل مد نفوذه
على بلاد فارس وخراسان ، وزبلستان ومكران وكرمان والسند
وطبرستان . والرى وقزوين وأذربيجان وجنديسابور والأهواز (٢٧)،
حتى لقد هدد بغداد نفسها سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م (٢٨) ، وبذلك استطاع
يعقوب بن الليث على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق أن يؤسس ملكا
عريضا في شرق الدولة الإسلامية يشتمل على معظم أرجاء فارس .
بالاضافة الى سجستان التي أقام فيها يعقوب دولته في بداية أمرها وان
كان عمر هذه الدولة ، لم يتجاوز ستة وثلاثين عاما (٢٩) .

اشتهر يعقوب بن الليث الصفار باليقظة وحسن التدبير وكان لا يطلع
أحدا على سره ولا يعرف أحدا بتدبيره وعزمه ، وأكثر نهاده يقضيه خاليا
بنفسه يفكر فيما يريد ، ويظهر غير ما يضر ولا يشرك أحدا فيها يدبره
برأى (٣٠) ، وكان يحسن اختيار رجاله ، كما كان يعد جيوشه أحسن
اعداد (٣١) ، واستطاع بذلك أن يهيئ الاستقرار والأمن في دولته ، ويجبي
منها الأموال الكثيرة حتى عمرت خزينته ويقول المسعودي (٣٢) « كانت
سياسة يعقوب لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلا ممن سلف من
الملوك من الأمم الغابرة من الأفرس وغيرهم ممن سلف وخلف وحسن انقيادهم

(25) Hitti : History of the Arabs. p. 461.

(٢٦) ابن الاثير . الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٥٣ هـ .

(27) Hitti : History of the Arabs. p. 462.

(28) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties. p. 129.

(29) Browne : A Literary history of Persia. Vol. I. p. 476.

(٣٠) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص ٤٧٦ .

(٣١) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١١٦ .

(٣٢) مروج الذهب ج٢ ص ٤٧٥ .

لأمره - واستقامتهم على طاعته ، لما كان قد شملهم من احسانه وغمرهم من بره ، وما لقلوبهم من هيئته » .

عمل يعقوب على التقرب الى الخلافة العباسية بارساله الهدايا اليها حتى اقترته على البلدان التي استولى عليها ، ولكن العباسيين لم يلبثوا ان توجسوا خيفة على سلطانهم من ازدياد نفوذ ابن الليث ، وعملوا على التخلص منه ، فغضب يعقوب من موقف الخلافة العدائي نحوه ، فزحف الى العراق ، ولكن الدولة العباسية وجهت اليه جيشا ، هزمه شر هزيمة سنة ٢٦٢هـ / ٨٧٥م فانسحب الى حاضرتة نيسابور ، وتوفي سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م .

اقترت الخلافة العباسية عمر بن الليث خلفا لأخيه يعقوب على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان ، وأرسلت اليه العهد ومعه العهد والخلع (٣٣) ، واتخذ عمرو مع الخلافة العباسية سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أخيه يعقوب ؛ فتقرب الى الخلافة ، وتودد اليها ، وبلغ من ثقة الخلافة به أن أسندت اليه ولاية شرطة بغداد بالإضافة الى الولايات التي عهدت اليه بحكمها سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م وبذلك قوى نفوذه (٣٤) .

وضع عمرو بن الليث نظاما دقيقا لمراقبة عماله وقواده ورتب موارد الدولة . وعمل على زيادتها (٣٥) ، لكن عمرو لم يقنع باقناع ملكه ، واستقرار أمر دولته ، بل طمع في المزيد من النفوذ ، فأصر على المطالبة بحكم بلاد ما وراء النهر ، ولم يجد الخليفة العباسي بدا من اقراره على حكم هذه البلاد ، لكن الأمير اسماعيل بن أحمد الساماني - أمير بلاد ما وراء النهر - رفض أن يسلمها الى الأمير الصفاري (٣٦) ، وكتب اليه يحثه على عدم التعرض لبلادها ، وقال « انك قد وليت دنيا عريضة ، وأنا في يدى ما وراء النهر ، وأنا في ثغر ، واقنع بما في يدك ، واتركني مهيبا

(٢٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٩ ص ٥٤٥ .

(٢٤) نفس المصدر ج١٠ ص ٧١ .

(٢٥) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١١٨ .

(٢٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج١٠ ص ٦٣ .

بهذا الشعر (٣٧) ، لكن عمرو أصر على تحقيق سياسته الرامية الى توسيع ملكه على حساب الامارة السامانية . ولم يقدر الصعاب التي تقف في سبيله . وتحول دون تحقيق سياسته : فسار على رأس جيش كبير الى بلاد ما وراء النهر ، واشتبك مع الأمير الساماني اسماعيل بن أحمد في معارك ضارية هزم عمرو فيها . بل وقع أسيرا في قبضة غريمه الأمير اسماعيل (٣٨) سنة ٢٧٨/٩٠٠م وتمزق شمل جيشه شر ممزق ، وكانت لهذه الواقعة نتائج حاسمة في مراحل تطور الحياة السياسية في شرق الدولة الإسلامية ، إذ كانت بداية النهاية للدولة الصفارية ، وأمنت الدولة السامانية الناشئة على حدودها من خطر الصفاريين . بل تطلعت الى بسط سيطرتها ونفوذها على بلدان الدولة الصفارية المتداعية (٣٩) .

لما علم الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢) بهزيمة عمرو بن الليث الصفار ، سر لذلك ، وأشاد بذكر اسماعيل بن أحمد ، ذلك لأن ازدياد نفوذ عمرو كان يشكل خطرا كبيرا على سلطان الخلافة العباسية ، ومهما يكن من أمر . فقد سيق الأمير الصفاري الى بغداد ، ويقي بها حتى وفاته (٤٠) ٢٨٨هـ/٩٠١م .

ولى طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار بعد هزيمة عمرو ، وكان غرا صغيرا ، نشأ على اللهو والعبث والصيد وغلب عليه سببك السبكرى — غلام عمرو بن الليث — فاستبد بالسلطة دونه ، ولم يكن لهذا الأمير الصغير من الأمر شيء ولم يكتف سببك السبكرى بذلك ، بل قبض على الأمير الصغير وعلى أخيه يعقوب ٢٩٦هـ/٩٠٨م ، وبعث بهما الى بغداد حتى لا يبقى له شريك في الحكم (٤١) .

على أن الأمور لم تصف للسبكرى بعد تخلصه من الأمير الصفاري ، ففي سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م سار الليث بن علي بن الليث الى فارس وتغلب عليها ، وطرد منها السبكرى . فاستنجد السبكرى بالخليفة المقتدر .

(٣٧) نفس المصدر ج ١٠ ص ٧٦ .

(38) Hitti : History of the Arabs p. 462.

(39) Browne : A Literary History of Persia. Vol. I. p. 345.

(٤٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٢١ .

(٤١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٤١ .

(٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) الذى أمده بجيش يقوده مؤنس الخسادم سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ، أوقع الهزيمة بالليث الصفارى وأسره (٤٢) . وعلى الرغم من وقوف الخلافة الى جانب السبكرى الا أنه امتنع عن ارسال الأموال اليها ، فعلمت الخلافة على التخلص منه ، وانتزعت منه فارس سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م ، فلجأ الى سجستان (٤٣) فقصده الأمير أحمد بن اسماعيل السامانى ، واستولى على سجستان ، وقبض على سبكرى ، وعلى محمد بن على بن الليث الصفار وبعث بهما الى بغداد سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م . ومن ثم ، زالت الدولة الصفارية (٤٤) .

وصفوة القول أن الدولة الصفارية زالت بسبب جهود الخلافة العباسية المتصلة للقضاء عليها ، والهزائم المتكررة التى منى بها الصفاريون من أعدائهم السامانيين ، فقد هزم اسماعيل بن أحمد — كما ذكرنا — عمرو ابن الليث ، وأرسله أسيرا الى بغداد ، وقضى ابنه أحمد بن اسماعيل على البقية الباقية من نفوذ الصفاريين ، ونضيف الى ما سبق تمرد قواد الدولة الصفارية على سادتهم ، وما ترتب على ذلك من ضعف الدولة الصفارية ، وانهارها (٤٥) .

٣ - الدولة السامانية

أقام السامانيون الفرس دولة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر على انقاض الدولة الصفارية ٣٦١/٣٨٩هـ — ٨٧٣/٩٩٩م والسامانيون أصحاب نسب عريق ، اذ أن جددهم سامان ينسب الى بهرام جور (٤٦) ، وكان لأسد ابن سامان أربعة أبناء هم : نوح وأحمد ويحيى والياس ، وقد تجلت شجاعتهم فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، فحينما خرج عليه رافع بن الليث ابن نصر بن سيار فى سمرقند ، أعان هؤلاء الأبناء الأربعة الخليفة فى القضاء على ثورة رافع ، وهذا بال الرشيد من هذا الأمر ، اذ كان يخشى أن يستولى رافع على خراسان (٤٧) .

(٤٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٢٩٧ هـ .

(٤٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٤٤ .

(٤٤) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties. p. 129-130.

(٤٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٧٠ .

(٤٦) Hitti : History of the Arabs. p. 462.

(٤٧) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١١٢ .

لما ولى المأمون الخلافة عرف منزلة أبناء أسد بن سامان وتصدر اخلاصهم للخلافة العباسية : فولاهم على سمرقند وقرغانة والشاش وهراة (٤٨) . وكان أكبر هؤلاء الاخوة والى سمرقند ، ولما توفي صارت سمرقند : لأخيه أحمد بن أسد . وخلفه عليها ابنه نصر سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م . وكان لقوة أواصر الصلة بين السامانيين أثرها في ازدياد قوة دولتهم فقد أخذ الهدوء والطمأنينة يسودان بلادهم بعد أن كانت تقاسى من الاضطرابات (٤٩) .

ازدادت شهرة السامانيين في البلاد المجاورة حتى أن بخارى لما اضطربت أمورها بسبب كثرة الفتن فيها ، وتنازع أهلها فيما بينهم ، استنجد فريق من أعيانها بالأمير نصر الساماني في سمرقند ، فأرسل اليهم أخاه اسماعيل ، وعلى الرغم من الخلافات التي كانت بين أهل بخارى ، فقد أحسنوا جميعا استقبال الأمير الساماني ، بل نثروا الذهب والعطايا الثمينة بين يدي هذا الأمير الذي عرفوا عنه الشجاعة وكرم الاخلاق ، وأقروه واليا عليهم من قبل أخيه الأمير نصر سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م (٥٠) ، وأقام اسماعيل في بخارى الخطبة باسم أخيه نصر (٥٠) . وحذف اسم يعقوب بن الميث من الخطبة . وبذلك آل أمر بخارى الى السامانيين وزال عنها حكم الصفاريين ، ومما زاد في نفوذ الأمير نصر اعتراف الخلافة العباسية بامارته ، إذ أرسل الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٧٠-٨٩٢م) منشورا الى الأمير نصر بحكم بلاد ما وراء النهر ، وفوض اليه حكم البلاد الممتدة من شواطئ جيحون الى أقصى بلاد المشرق (٥١) .

استقرت الأمور في بخارى بعد أن آلت الى الدولة السامانية ، ذلك أن الأمير نصر طهر هذه المنطقة من اللصوص وقطاع الطرق الذين زاد

(٤٨) النرشخي : تاريخ بخارى ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤٩) فاميري : تاريخ بخارى ص ٩٤ .

(٥٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٥١٤ .

Hitti : History of the Arabs. p. 462.

(٥١) أرميتيوس فاميري : تاريخ بخارى ص ٩٥ .

خضرمهم ، واستطار شرهم في هذه المنطقة كما صد هجمات الطامعين في بخارى . فامن البخاريون في عهده على أموالهم وانفسهم(٥٢) .

لم تستمر العلاقات بين الأمير نصر وأخيه اسماعيل على ما كانت عليه من انود والصناء . ذلك أن نصرا فرض على أخيه اسماعيل — والى بخارى من قبله — كل سنة خمسمائة الف درهم من أموال بخارى ، لكن اسماعيل لم يستطع دنع هذا المبلغ بسبب زيادة نفقاته في الحروب الكثيرة التي خاضها ضد أعدائه الطامعين في بخارى . فاستاء نصر من أخيه اسماعيل . واعتقد انه يسعى الى الاستقلال ببخارى عن دولته ، فعول على اخضاعه ، فسار على رأس جيش كبير ، واشتبك الاخوان سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م في حرب انتهت بصلح بينهما بمقتضاه ولى اسماعيل خراج بخارى وعزل عن حكمها . على أن هذا الصلح لم يوضع موضع التنفيذ(٥٣) فبعد خمسة عشر شهرا رفض اسماعيل ارسال الأموال المقررة عليه وفق الصلح المعقود بينه وبين أخيه ، فتجددت الحروب بين الأخوين ، وهزم اسماعيل أخاه نصر سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م ووقع أسيرا في يده(٥٤) ، لكن اسماعيل أحسن الى أخيه ، بل سأل العفو والصفح ، وقال له : أيها الأمير انما اراد الله التي شاعت أن أراك اليوم ، وأنت في الأسر . فرد عليه نصر بقوله : بل هي ارادتك أنت ، اذ خرجت على سيدك ، وأذنت بذلك في حق الله عز وجل . على كل حال أحسن اسماعيل الى أخيه نصر . وبلغ من حرصه على المحافظة على هيئته أن سيره من فوره الى حاضرتة سمرقند قبل أن يصلها أنباء الحادث ، فلا تتعرض بذلك سمعته فيما وراء النهر الى شيء من المهانة(٥٥) .

ولما توفي نصر بن أحمد سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢—٨٩٣م ولى أخوه اسماعيل أمر الدولة السامانية ، وأقره الخليفة العباسى على حكم ما وراء النهر(٥٦) . غير أن الخلافة العباسية كانت تنظر بعين الشك والريبة الى تلك الدولة الفتية الناشئة التي أخذت تزداد قوة ونفوذا في القسم الشرقى

(٥٢) الترغشى . تاريخ بخارى ص ١١١ .

(٥٣) أرمينيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ٩٨ .

(٥٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٧٥ هـ .

(٥٥) المصدر السابق .

(٥٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٠ .

من الدولة الإسلامية ، فاتخذت الدولة العباسية سياسة ذات وجهين .
فبينما فوض الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢هـ) الأمير الساماني
اسماعيل حكم بلاد ما وراء النهر . تأمر عليه سرا . وأرسل الى عمرو بن
الليث الصفار يحرضه على التخلص من الأمير الساماني (٥٧) ولعل الخليفة
العباسي كان يهدف من وراء ذلك الى ضرب خصمين قويين له ببعضهما
بقصد اضعافهما أو شغلها عن الزحف الى دولته . ومهما تكن النتائج
فان الخليفة العباسي هو المستفيد من ورائها ، لأن الحرب بين الخصمين
تضعفهما أو تضعف واحدا على الأقل . وفي ذلك غائدة — كما قلت —
للخلافة العباسية . ومهما يكن من أمر فقد استمرت الحرب بين الأمير
الصفاري والأمير الساماني سنين عددا . انتهت بانتصار اسماعيل (٥٢) ،
وطارد جند اسماعيل ، جند الأمير الصفاري حتى اقتربوا من بلخ ، غاروا
عمرا مع خادمين فقبضوا عليه سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م ، وسبق الصفاري الى
غريمه اسماعيل فأرسله الى بغداد . وظل بها حتى وفاته (٥٩) .

ارتفعت مكانة الأمير اسماعيل بعد هزيمته لعمرو بن الليث ، وضم
خراسان الى حوزته ، وفوضه الخليفة المعتضد حكم هذه البلاد ، وقدم
رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة الى الأمير الساماني فأكرم اسماعيل
وفادته ، ولم يلبث اسماعيل أن ضم طبرستان الى دولته ، بعد أن هزم
أميرها محمد بن زيد العلوي الذي كثرت اغاراته على الدولة السامانية (٦٠)
ولم يكتف اسماعيل بذلك ، بل ضم الري الى حوزته . وبذلك أمن على
حدود بلاده من ناحية الغرب ، واستطاع اسماعيل بفضل شجاعته وقوة
بأسه أن يمنع غارات الترك على بلاده . ويجنبها ويلاتهم (٦١) .

اتخذ اسماعيل من بخارى حاضرة لدولته ، وازدهرت في عهد هذا
الأمير ، اذ أقام فيها المنشآت الضخمة والقصور المنيئة والمدارس ، ووفد
عليها العلماء ، ولقوا كل تشجيع من الأمير الساماني (٦٢) ، وقد حكم

(57) Weil : History of the Khalifs. Vol. II. p. 485.

(٥٨) النرشخي : تاريخ بخارى ص ١١٧ - ١٢٠ .

(٥٩) نفس المصدر ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٦٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٧٢ .

(٦١) فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٠٣ .

(٦٢) فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ .

اسماعيل أكثر من ثلاثين سنة أظهر خلالها العدل والاحسان بين رعايا دولته ، وكان لا يتجاوز مع عماله اذا ظلموا الرعية . ولأول مرة يتحدد ايراقيو الشرق مع ايراني العرب في دولة واحدة متماسكة العرى ذات ادارة قوية ، وكانت خراسان تنقسم الى أربعة أقسام ، قسم عاصمته نيسابور . وقسم عاصمته مرو ، وثالث عاصمته هراة ورابع عاصمته بلخ ، أما بلاد ما وراء النهر فتقسم الى خمسة أقسام : الصفد وله عاصمتان هما بخارى وسمرقند ، والى الغرب من الصفد خوارزم ، والقسم الثالث صفانيان ، والرابع غرغانة والخامس الشاش . وكان لعماله على هذه الولايات سلطات واسعة في ولاياتهم (٦٣) .

لما توفي الأمير اسماعيل ٢٩٥هـ/٩٠٧م أخذت الدولة السامانية في الضعف والانحلال ، فقد انقسم البيت الساماني على نفسه طمعا في السيادة والحكم ، كما أن بعض رجال الدولة عملوا على تحقيق أطماعهم في الوصول الى السلطة ، وضعف شأن أمراء آل سامان حتى أصبحوا العوبة في أيدي كبار رجال الدولة ، وقد أدى ضعف الدولة السامانية الى ازدياد نفوذ الترك ، فارتفع شأنهم بعد أن كانوا مجرد خدم وأتباع (٦٤) ، فلم يتمكنوا من القضاء على السامانيين فحسب بل نشرروا نفوذهم كذلك في الكثير من بلدان الدول الاسلامية (٦٥) .

ولى الأمير أحمد بن اسماعيل الحكم بعد وفاة أبيه ٢٩٥هـ/٩٠٧م وسار سيرة أبيه في العدل والاحسان الى الرعية ، الا أنه لم يكن مثل أبيه في الحنكة الادارية والمقدرة الحربية (٦٦) ، لكنه استطاع اقبحض على عمه — والى سمرقند — الذي خرج عليه ، واستولى على سجستان سنة ٢٩٨هـ/٩١٠—٩١١م وضمها الى دولته (٦٧) ولم يستطع تخليص طبرستان من الأمير الحسن بن على اليزدي الملقب بالأطروش (٦٨) . فقد تغلب على

(٦٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ٨٥ .

(٦٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١١٨ .

(٦٥) Hitti : History of the Arabs. p. 463.

(٦٦) الترمذى : تاريخ بخارى ص ١٢٤ .

(٦٧) نفس المصدر ص ١٢٦ .

(٦٨) Weil : History of the Khalifs. Vol. II. p. 613.

طبرستان وبلاد الديلم ، وهدى الله على يديه الكثير من أهل هذه البلاد
من بقى على الوثنية أو المجوسية الى الاسلام ومن ثم التف أهل هذه
البلاد حوله ، وطرد منها والى السامانيين (٦٩) .

لم تطل ولاية أحمد بن اسماعيل ، فقد راح ضحية مؤامرة سنة
٣٠١هـ/١١٤م (٧٠) بعد حكم دام ست سنوات ، وخلفه ابنه نصر (٧١) ،
وكان فى الثامنة من عمره ، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه ، وتنافس
أمرأ البيت السامانى على الوصول الى الحكم ، فشق عليه عمه اسحق بن أحمد
عصا للطاعة ، وانضم اليه بعض أفراد أسرته على اعتبار أنه أكبر أفراد
الأسرة سناً ، واستقل اسحق بسمرقند عن الدولة السامانية وبإيعه
أهلها ، وخرج ابنه أبو صالح منصور بن اسحق فى نيسابور واستولى على
بعض مدن من خراسان ، لكن لم ينعم هذان الأميران باستقلالهما عن
الدولة السامانية كثيراً ، ذلك لأن الأمير السامانى نصر بن أحمد استطاع
أن يقضى على ثورة عمه وابن عمه ، ويعيد البلاد التى اغتصبها الى
حوزته (٧٢) ، وأهم الحملات التى قادها الأمير السامانى لاستعادة نفوذه
على البلاد التى انتزعت من دولته ، كانت على طبرستان ، فقد زاد خطر
العلويين بها ، ومدوا نفوذهم الى بعض بلدان خراسان فاستطاع الأمير
نصر بن أحمد هزيمة العلويين فى طبرستان سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م وقتل
قائدهم (٧٣) وبفضل هذه الانتصارات استطاع الأمير السامانى استعادة
نفوذ دولته على بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس وطبرستان وكرمان
وجرجان والعراق .

ولقد ذاع صيته بفضل الانتصارات التى أحرزها حتى أن الخليفة
العباسى استنجد به ، واعتمد عليه فى الضرب على أيدي عماله الخارجين
عليه (٧٤) .

(69) Defremery : Histoire des Samanides. p. 136. Arnold : the Caliphate. p. 61

(٧٠) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٢٦ .

(71) Weil : History of the Khalifs. Vol. II. p. 136.

(٧٢) قاميرى : تاريخ بخارى ص ١١٢ - ١١٤ .

(٧٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ .

(٧٤) قاميرى : تاريخ بخارى ص ١١٤ - ١١٥ .

لما توفي الأمير نصر ٣٣١هـ/٩٤٣م ضعفت الدولة السامانية حتى أن الأمراء طمعوا فيها ، فاستقل كل منهم بناحية ، فواجه الأمير نوح بن نصر — الذي حلف أباه — مصاعب كثيرة من جراء ذلك ، فبسر إلى نيسابور ، وقبض على أميرها أبو علي الأصفهاني ، وهزم المتمردين ، وبدد شملهم ، وأسند حكم نيسابور لإبراهيم بن سيمجور . كما أن الأمير أبا اسحق أحمد ، سار إلى بخارى ، وأظهر المصيان ، فعاد الأمير نوح بن نصر إلى بخارى ، واشتبك مع أبي اسحق أحمد ، غير أن نوح بن نصر هزم ، ودخل أبو اسحق بخارى ظافرا منتصرا سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م ، وبايعه جميع أهلها وقرئت الخطبة على جميع منابر بخارى باسم أبي اسحق ، على أنه لم ينعم بالحكم طويلا ، إذ تمرد عليه جنده ، وأعلنوا ولاءهم للأمير نوح بن نصر ، وبذلك فشلت هذه الفتنة ، وعاد الأمير نوح إلى حكم بخارى (٧٥) .

ومن أشد الصعوبات التي واجهت حكم الأمير نوح غزو ركن الدولة البويهى لبلاد الري ، واستيلائه عليها ، ولم يلبث أبو علي — القائد الساماني — أن طرد الأمير البويهى من الري ، على أن أباه على نفسه انقلب على سادته السامانيين ، فطمع في إقليم خراسان ، واستولى عليه ، وأرسل إلى الخليفة العباسي تقيدا بحكم هذا الإقليم عام ٣٤٣هـ/٩٥٤م . وبذلك انحسر النفوذ الساماني مرة أخرى ، فلم يعد يتجاوز بلاد ما وراء النهر (٧٦) .

لما ولي الأمير عبد الملك بن نوح حكم الدولة السامانية سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م كان في العاشرة من عمره ، فجنح أمراء الولايات إلى الاستقلال بولاياتهم عن الدولة السامانية ، ولم يقدروا على عمله من شأنه المحافظة على وحدة دولته ، وتوفي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م فخلفه أخوه منصور بن نوح ، فأخذت الدولة في الضعف بسبب خروج بعض القواد عليها ، وازدياد نفوذ البويهيين الذين امتلكوا ما يقرب من نصف إيران (٧٧) ، كما استقل خلفاء

(٧٥) الترخي : تاريخ بخارى ص ١٢٩ .

(٧٦) الترخي : تاريخ بخارى ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٧٧) نفس المصدر ص ١٢٤ .

وشمكير بن زيار (٧٨) ببلاد جرجان وطبرستان ، بينما اتسعت الدولة البويهية على حساب الدولة السامانية التي أخذت في الضعف والانحلال ، ولم يلبث السامانيون أن القوا بأنفسهم ازاء كل هذه الصعاب التي اعترضت سياستهم في أحضان الدولة الفزنوية الناشئة ، حتى آل أمرها نهائيا الى الفزنويين (٧٩) .

وبذلك انقرضت الدولة السامانية التي ظلت تحكم آسيا الوسطى قرابة مائة وخمسة وأربعين عاما . وجدير بالذكر أن الحضارة الاسلامية ازدهرت في عهد السامانيين حتى كانت بخارى وسمرقند وبلخ تحت حكمهم منارا للعلوم الدينية يفد اليها الطلاب للدراسة (٨٠) ، وقد رحل المقدسي الى اقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر في العهد الساماني ، فامتدح السامانيين في الحكم ، وقال : انهم أحسن سيرة ، وهذا فضلا عما عرف عنهم من إجلال للعلم وأهله ، فقد كان من رسومهم ألا يكلفوا أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم . وقال المقدسي : في وصف أهل خراسان في العهد الساماني : انهم من أشد الناس تمسكا بالحق ، وهم بالخير والشر أعلم . كما أقر بعلمهم الكثير ، وحفظهم العجيب ، واستقرار الأمور في خراسان ، وانتشار الرخاء فيها (٨١) .

لم تقتصر عناية الأمراء السامانيين بالعلوم الدينية ، بل عنوا كذلك بالعلوم الأدبية والطبيعية ، فنبغ في عهدهم الرودكي — أول شاعر غنائى في فارس — وهو مؤسس الملحمة التعليمية التي تعتبر من أخصب قروع

(٧٨) عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمي — أحد قواد أمير قزوين — فطرد حاكمها ، واستولى على بلاده ، ثم فتح أصفهان وجرجان وهمدان ، وبلغت جيوشه نواحي حلوان ، وتد أعرقه الخليفة العباسي على ما بيده من البلاد بعد أن تعهد بدفع مبلغ سنوي من المال . وبلغ من ازدياد طموح هذا القائد أن عمل على الاستيلاء على بغداد ، وإعادة مجد الدولة الفارسية ، ولما توفي مرداويج خلفه أخوه وشمكير على أن ركن الدولة البهويي عمل على انتزاع بلاده ، فاستولى على الري سنة ٢٢٠ هـ كما انتزع الأمير الساماني نصر بن أحمد — كما ذكرنا — طبرستان وجرجان وأرقمه على السير الى بلاد الجبل ، حيث دخل في طاعة الأمير الساماني .

(٧٩) الترخشي : تاريخ بخارى ص ١٢٤ .

(٨٠) فاميري : تاريخ بخارى ص ١٢٤ .

(٨١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

الادب الفارسي (٨٢) ، وفي عهد الأمير منصور بن نوح ترجم الى الفارسية كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري . ونجد أن ابن سينا الفيلسوف والطبيب الذي بدأ يظهر انتاجه في عهد منصور بن نوح ، وبنوع خاص كتاب القانون في الطب الذي كان المرجع الأساسي في علم الطب في أوربا في العصور الوسطى (٨٣) .

٤ - الدولة البويهية

ومن العناصر الفارسية التي سيطرت على شرق الدولة الإسلامية بنو بويه (٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م) وكانوا جنوداً مغامرين من أهالي الديلم ، التحقوا بجيش ماكان بن كالي الديلمي ، واستطاعوا بفضل مكانتهم ومقدرتهم وكفائتهم العسكرية ، أن يصلوا الى مركز مزموق في جيشه ، ولما هزم مرداويج بن زيار ، ما كان بن كالي ، انتقلوا الى خدمة مرداويج الذي لم يلبث أن خشي بأس بني بويه وأطماعهم ، فسار على بن بويه الى أرجان - إحدى كور فارس - واحتلها سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م ، ثم امتلك شيراز في العام التالي ، وتمكن أحمد بن بويه (٨٤) من احتلال كرمان ، ولما قتل مرداويج عام ٣٣٣هـ سنة ٩٤٤م لم يستطع أخوه وخليفته وشريكه الاستيلاء على بلاد الجبل ، فسقطت أيضاً في يد البويهيين ، وظل أحمد بن بويه يتقدم (٨٥) ناحية الغرب ، بينما ظل أخوه على بنارس ، وحكم أخوه حسن بلاد الجبل (٨٦) ، وفي ٣٣٤هـ سنة ٩٤٥م دخل أحمد بن بويه مدينة بغداد ، فأسند اليه الخليفة المستكني منصب أمير الأمراء ولقبه بلقب معز الدولة ، ولقب علياً عماد الدولة ، ولقب حسناً ركن الدولة (٨٧) .

عمل الأمراء البويهيون على إضعاف الخلفاء العباسيين (٨٨) فلم

(٨٢) بوكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ١١٤ .

(٨٣) بوكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١١٥ - ١١٦ .

(٨٤) مسكويه : تجاز الأمم ٢٩٦-٣٠٢ .

Hitti : History of the Arabs. p. 470.

(٨٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٨٦) ناس النصر ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(87) Hitti : History of the Arabs. p. 476.

(88) Noeldeke, Eketches from Eastern History p. 88.

تمض أسابيع قليلة على دخول معز الدولة بغداد حتى بسمل عيني الخليفة ، وعزله ، وولى ابن المقتدر ، ولقبه المطيع ، وأصبح الخلفاء العباسيون العلوية في أيدي البويهيين يولونهم ويعزلونهم كيفما شاءوا (٨٩) .

لما توفي معز الدولة عام ٢٥٦هـ سنة ٩٦٧م خلفه ولده عز الدولة بختيار في حكم كرمان وخوزستان والعراق ، ولم يستطع هذا الأمير السيطرة على جنده ، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة ابن عماد الدولة — من أقدر أمراء بني بويه ، وأبعدهم نظرا في السيادة والادارة ، فأعاد عضد الدولة الأمور إلى نصابها لكنه لم يكن مخلصا لبختيار ، فطمع في أملاكه ، واستولى عليها ، وانتزع أملاك أخيه فخر الدولة . وتمكن عضد الدولة بذلك من توحيد المملكة البويهية كلها تحت سلطانه ، فبلغت في عهده أوج ازدهارها وعظمتها (٩٠) .

ولما توفي عضد الدولة نشب القتال بين أبنائه حول ممتلكات بينهم سنة ٣٧٢هـ سنة ٩٨٣م (٩١) — وانتهى القتال بينهم سنة ٣٨٠هـ سنة ٩٩٠م بانتصار بهاء الدولة ، على أن الدولة البويهية ازدادت ضعفا بعد وفاته سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م فقد انقسمت بين أبنائه الأربعة ، وازداد تمرد ضباط الجيش من الترك والديلم (٩٢) .

أدى ضعف الدولة البويهية إلى سقوط بلدانها في أيدي أمراء البلاد المجاورة ، ففي عام ٣٨٨هـ/٩٨٨م فتح قابوس بن وشمكير جرجان وطبرستان ، ثم استولى الكرد الكاكويه على أصفهان بعد ذلك بعشر سنوات ، وفتحوا همدان ، وفي عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م خلع محمود الغزنوي مجد الدولة عن الري ، وأخذ أسيرا إلى خراسان (٩٣) .

ولما توفي أبو كاليجار سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م استدعى ابنه أبو نصر حسرو فيروز الجند ، واستحلفهم ، واستقر ملكه في العراق وخوزستان

(٨٩) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٢٤٤ - ٢٤٧ .

(٩٠) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٢٦٨ - ٢٧٢ .

(٩١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٧٢هـ .

(٩٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٢٦ وما يليها .

(93) Ency. of Islam, Art Buwaihids.

والبحيرة ، لكن شأنه ما لبث أن ضعف بسبب النزاع الذي نشأ بينه وبين أخوته وأقاربه الذين تطلعوا الى انتزاع بعض البلدان التابعة له ، وفي غضون تلك الفترة ارتفع شأن السلاجقة ، وقوى أمرهم ، وتطلعوا الى توسيع رقعة دولتهم . وكان من اليسير عليهم انتزاع أراضى بنى بويه فى فارس والعراق (٩٤) .

لم يظهر من الأمراء البويهيين من يهتم بتحسين أحوال بلادهم سوى عضد الدولة ، ذلك أن البويهيين انشغلوا فى المنازعات والحروب . أما عضد الدولة فقد انشغل بالعمل على نهضة بلاده ، فعمل على تشجيع القراء والعلماء ، وشيد المساجد والبيمارستانات وغيرها من المنشآت العامة ، وعنى بتحسين أحوال الزراعة ، فأصلح القنوات والآبار ، كما عمل على تيسير سبل العيش لرعاياه ، لكن البلاد لم تنعم بالرخاء التى شاهدها فى أيامه ، فقد ساعدت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية بعد وفاته بسبب ما أضرنا اليه من انشغال الأمراء البويهيين فى الحروب والمنازعات (٩٥) .

يتضح لنا من هذا العرض أن الفرس حققوا حلمهم القديم فى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة ، فأقاموا دولا مستقلة فى شرق الدولة الاسلامية كانت — كما ذكرنا — الدول الطاهرية والصفارية والسمانية والبويهية . ولما قوى شأن الترك ، واشتد بأسهم ، انتقلت اليهم السيادة والحكم فى شرق الدولة الاسلامية فحلوا محل العنصر الفارسى فى السيطرة على هذه المنطقة ، فأقام بنو سبكتكين دولتهم على أنقاض الدولة السامانية كما أسس القره خانيه الترك دولة لهم فيما وراء النهر بعد أن تغلبوا على آل سامان ، وقضى السلاجقة على بنى بويه ، وانتقل اليهم النفوذ والسلطان فى شرق الدولة الاسلامية ، وامتد الى بغداد نفسها .

(94) Hitti : History of the Arabs. p. 471-472.

Hitti : History of the Arabs. p. 471-472.

٥ - الدولة الزيدية في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم

تمهيد :

أطلق العرب اسم طبرستان على «مازندران» وهي ولاية في بلاد فارس ، تكتنفها الغابات الكثيفة ، وبحر طبرستان من الشمال ومن الجنوب سلسلة جبال البرز ، ومن الشرق جرجان . ومن الغرب جيلان ويخترقها عدة نهيرات ، والغالب على هذه النواحي الجبال ، وأرضها خصبة جيدة المرعى ، كثيرة الفاكهة ، ونظرا لكثرة غاباتها ، فإن أهلها قطعوا الكثير من الأشجار ، وعملوا بتصنيع الأخشاب . والزراعة من أهم الحرف التي يعمل بها السكان ، ومن أهم حاصلاتها الزراعية الأرز والكتان والعنب ، ويعملون كذلك بصيد الأسماك وطيور الماء . وقد تخرج من أهل هذه البلاد الكثير من رجال العلم والأدب والفتة ومن أهم مدن طبرستان أمل وساربه وشلوش ووريان وقد تنقلت عاصمة طبرستان بين ساربه وآمل ، وظل أهلها يدينون بالمجوسية بعد الفتح الإسلامي حتى حكمها الأمويون (١) .

وببلاد طبرستان خصبة منيعة ، وكان ملوك الفرس يولسون للحكم زعماءهم اللوراشيين ، ويسمى الواحد منهم أسبهيد أي رئيس الجند (٢) .

أما جرجان فتقع بين طبرستان وخراسان في جنوب شرق بحر قزوين أي في أقصى شمال بلاد الفرس ، ويحد جرجان جنوبا إقليم خراسان ، وشرقا إقليم خوارزم وغربا بحر قزوين وإقليم طبرستان (٣) . ويعتبر هذا الإقليم من مناطق الديلم عاصمته مدينة جرجان ، وقد قيل أن من أحدث

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ١٧ .

(٢) لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤١٧ .

بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وبرز منها الكثير من الأدباء والعلماء والفتهاء والمحدثين ، ومن أهم مصنوعاتهما الإبريسم وثياب الإبريسم وتصدره الى جميع البلدان ، وجرجان على واد عظيم ، ويزرع بها الزيتون والجوز والرمان وقصب السكر ، وبها عدة أنواع من الأحجار الكريمة (٤) .

والجزء الجنوبي من جيلان يسمى بلاد الديلم ، ويسكنها قبيلة تعرف أيضا بالديلم ، ويحده من الشمال جيلان نفسها ، ومن الشرق طبرستان ، ومن الغرب أذربيجان وبلاد الرافدين ومن الجنوب نواحي قزوین ، وجزء من الري ، وكان الديلم وثنيين ، ومن ثم تعرضوا لغارات النخاسين وغلّسوا على هذا الحال حتى دخلوا في الاسلام على أيدي الأئمة العلويين (٥) .

ظهور الاسلام في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم :

بدأ الفتح الاسلامي لطبرستان وجرجان في عهد عثمان بن عفان ، وكان أول من غزاهم من العرب سعيد بن القاص - والي الكوفة في عهد عثمان بن عفان اذ شن على هذه البلاد حملة اشترك فيها بعض الصحابة الاجلاء ، ويؤكد البلاذري (٦) ، اشترك الحسن والحسين في هذه الحملة ، على حين يذكر الطبري (٧) روايتين ، تؤكد احدهما اشتراكهما ورواية لا تذكرهما ، ومهما يكن من أمر فقد فتح سعيد بن القاص بعض بلدان طبرستان واستولى على سهل طبرستان والرويان والدنبلوند (٨) .

ثم سار سعيد الى جرجان في مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان على أرض جيش الموالي والمطوعة ، وابتدأ بقمستان فحاصرها ، وكان أهلها من الترك ، وشدد عليهم الحصار حتى طلبوا الأمان ، فمقد معهم صلحا واستولى على المدينة وغنم المسلمون منهم بغائم كثيرة ثم خرج منها الى جرجان ، واستقبله أهلها بالصلح ، وزادوه وهاجوه وصالح

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج٦ ص ١٧ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) البلاذري فتوح البلدان ص ٣٤٢ .

(٧) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٠ هـ .

(٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٤٢ .

ملك جرجان على مائتى ألف درهم (٩) على أن الفتح الاسلامى لطبرستان وجرجان فى عهد الراشدين لم يكن مستقرا ، فكانت تؤدى للعرب الاتاوة ولا تؤدى تارة اخرى (٧) .

ولما ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة اعتزم اقرار الحكم الاسلامى غير المستقر فى بلاد طبرستان وجرجان ، فأرسل حملة بقيادة مصقلة بن هبيرة على رأس جيش عدته عشرة آلاف مقاتل وقيل عشرون ألفا ، ولكن هذا الجيش أصيب بهزيمة ساحقة ، إذ هلك مصقلة فى معرقات طبرستان ، هو والجزء الكبير من جيشه ذلك أن أهلها أهالوا الصخور على المسلمين فمزقوا شر ممزق . على أن هزيمة مصقلة لم تضعف عزيمة المسلمين ، فعملوا على تحقيق هدفهم الرامى الى فتح هذه البلاد واخضاعها لسلطانهم ، فأرسل عبدالله بن زياد والى الكوفة محمد بن الأشعث بن قيس الكندى الى طبرستان ، فعقد مع أهلها صلحا ، ولكنهم خدعوه ، فلما تم الصلح ، وأوغل هو وجيشه فى بلادهم ، انقضوا على القوات الاسلامية والحقوا بهم الهزيمة (١١) وبذلك تكرر فشل العرب فى فتح هذه البلاد .

ولما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ، أرسل يزيد بن المهلب لغزو طبرستان من جديد واستعادتها ، واستطاع يزيد أن ينجح فى مهمته ، ويعقد صلحا مع الأسيهذ بمقتضاه يؤدى جزية للمسلمين قدرها أربعة ملايين وسبعمائة ألف درهم ، وأن يبيت بأربعين حبل خمار من الزعفران وأربعمائة رجل يحمل كل منهم قوسا وكاسا من الفضة ، وقدر من الحرير واستخلف عليها والياء وضع الجزية والخراج على أهلها (١٢) ، وصالح يزيد الرويان ودينارند على مال وثياب وآنية ، ثم مضى الى جرجان — وكانت قد أعلنت العصيان — فدخل المسلمون البلدة واستخلف يزيد عليها والياء ففرض على أهلها الجزية والخراج (١٣) .

(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٣٠ هـ .

(١٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٠ هـ .

(١١) البلاذرى : فتوح البلدان ج ٢٤٤ .

(١٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٩ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٩٨ هـ .

ظل أهل طبرستان وجرجان يلتزمون بشروط الصلح أحيانا ، ويمتنعون عن تنفيذه أحيانا أخرى ، فيحاربون ويسالمون ، ولما ولي مروان بن محمد الخلافة نقضوا الصلح وأعلنوا العصيان منتهزين فرصة الاضطرابات التي سادت الدولة الاموية في أواخر أيامها (١٤) .

ولما عبّض العباسيون على زمام الأمور لم يتغاضوا عن انفصال طبرستان وجرجان عن الدولة العربية الاسلامية ، فوجه الخليفة المنصور الى هذه البلاد حملة بقيادة خازن بن زيد التميمي ، وبذل هذا القائد جهودا مضنية حتى استولى على هذه البلاد ، وتغلب على كل مقاومة اعترضت طريقه (١٥) وقتح محمد بن موسى بن حفص بن عمر بن العلاء جبال شروين من طبرستان ، وهي جبال صعبة المسالك كثيرة القياقي وذلك في خلافة المأمون والمعتصم (١٦) .

على أن الحكم الإسلامي في طبرستان وجرجان لم يقدر له الاستقرار رغم المحاولات المتكررة التي بذلت بعد أن آلت الى حكم الطاهريين ، إذ اتموا فتحها ، وتغلبوا على كل مقاومة اعترضتهم في السهل والجبل ، وتولاهما عبدالله بن طاهر ، وطاهر بن عبدالله (١٧) .

نشأة الزيدية

الشيعة حزب نشأ بعد وفاة عثمان بن عفان ، وقد للتفوا حول علي بن أبي طالب وناصريه ، وبايعوه بالخلافة على اعتبار أنه أحق بها ، وقد ازداد نفوذهم ، وانتعشوا بتولية علي بن أبي طالب الخلافة ، وانتاخذه الكوفة حاضرة للدولة العربية الاسلامية ، ولم ينته هذا الحزب بوفاة علي بل ظل قائما يناصر ويشايخ آل علي ويطالب ببقاء الخلافة وراثية في ذريته ، واعترضوا على تولية أحد من غير أفراد آل بيت رسول الله الخلافة ، ولقد استأعوا كثيرا من الصلح الذي عقد بين الحسن بن

(١٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٢٩٥

(١٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٤٦ .

على ومعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ والذي بمقتضاه تنازل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية ، لذلك اعترضوا على تولية بنى أمية الخلافة واعتبروهم مفتصبين لها من أصحابها الشرعيين (١٨) ، وأصبحت خطة الشيعة بعد نزول الحسين بن علي عن الخلافة لمعاوية تدعو الى الامام من آل بيت رسول الله ، والانتظار حتى يأمر هذا الامام ، الذي اتخذ المدينة دار اقامة — بالخروج لاستعادة سلطانهم الضائع (١٩) .

ازداد نشاط الشيعة في العراق طوال الحكم الأموي ، وقاموا بعدة ثورات ضد الخلفاء الأمويين حتى ولى هشام بن عبد الملك للخلافة ، فعبد بحكم العراق الى خالد بن عبدالله القسري ، فاتبع سياسة حكيمة مع الشيعة ، فكان يحسن وفادة من يفد عليه من بنى هاشم ، وكان لهذه السياسة أثرها في التزام الشيعة جانب الهدوء والسكينة ، على أن هذا الحال لم يدم طويلا ، فقد خلف يوسف النخعي ، خالد القسري وانتبع سياسة مع الشيعة تخالف سياسة سلفه فأساء معاملتهم ، وتنبههم ، وزج بكل من شك في نواياه في السجن (٢٠) .

وأبرز من تعرض لبطش هذا الوالي ، زيد بن علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب ، وكان زيد من عظماء أهل البيت علما وزهدا وورعا وشجاعة ودينا وكرما ، وكان دائما يحدث نفسه بالخلافة ، ويرى أنه أهل لذلك « وما زال هذا المعنى يتردد في نفسه ، ويظهر على صفحات وجهه وفلمات لسانه » (٢١) وقد اثنى عليه كبار معاصريه فقال عنه الشعبي وما رأيت أفضل ولا أفقه ولا أشجع من زيد ، وقال عنه أبو حنيفة ما رأيت في زمانه أفقه ولا أعلم ولا أبرع جوابا ، ولا أبين قولا لقد كان منقطع القرين وكان يقال له حليف القرآن (٢٢) .

حابت الشكوك حول زيد وهو بالمدينة المنورة ، فقصده يوسف بن عمر احراجه ، وحاول إثارة خلافات بينه وبين بعض أفراد أسرته ، كما ادعى

-
- (١٨) فلهونن : الخوارج والشيعة ص ١٤٧ - ١٤٨ .
 - (١٩) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ص ١٣٢ .
 - (٢٠) ابن طباطبا : الفخرى في الأدب السلطانية ص ١١٠ - ١١١ .
 - (٢١) المصدر السابق ص ١١٨ .
 - (٢٢) المقرئى : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٣٨ - ٤٤٠ .

عليه ادعاءات غير صحيحة ، فاتهمه بأنه أخذ جائزة من خالد بن عبدالله القسرى ، وابتاع أرضاً له (٢٣) — أى القسرى — بالمدينة يعشرة آلاف دينار ، ثم أخذ الجائزة ، ورد الأرض عليه (٢٤) فاستدعى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، زيدا إلى الشام ، وسأله عن الجائزة ، فاعترف بها ، وأنكر ما سوى ذلك وهو الأرض — وحلف لهشام ، ثم حدث نقاش حاد بينه وبين هشام ، وقال هشام : قد بلغنى أنك تطلب الخلافة وتنتمئها ، ولست أهلاً لها وأنت ابن أمة فغضب زيد وقال للخليفة : ليس أحد أولى بالله ولا أرفع عنده منزلة من نبي أتبعته وقد كان اسماعيل ابن أمة لام أخيه ، فاختاره الله عليه ، وأخرج منه خير البشر ، واستاء هشام من هذا الجواب المقنع وأزمع زيد الخروج على حكمهم ، ودعوة أنصاره للالتفاف حوله ، وانتزاع حقه في الحكم من الأمويين ، فلما توجه إلى المدينة ، تبعه أهل الكوفة : وقالوا له أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك ، وليس عندنا من بنى أمة إلا نغر قليل ، ولو أن قبيلة منا صمدت لهم لكفتهم ياذن الله ، وما زالوا به حتى قال لهم : « يا قوم ! إني أخاف غدركم فانكم فعلتم بجدى الحسين ما فعلتم » وأبى عليهم ، فقالوا : فنافسك الله إلا ما رجعت ، إلا ونحن نبذل أنفسنا دونك ، ونعطيك من الإيمان والعهود والمواثيق ما تثق به — فاننا نرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الإيمان الذى يهلك فيه بنو أمة ، فلم يزلوا به حتى رده ، فلما رجع إلى الكوفة ، أقبلت الشيعة مختلف إليه ، يبأيعونه حتى بلغ عدد أنصاره خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة سوى أهل المدائن واليصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة (٢٦) .

تعهد أهل الكوفة بالولاء والطاعة للإمام زيد ونضرت حتى الموت وبأيامه وكانت بيعته : انما تدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسمة هذا الفء بين أهل بيته ، ورد المظالم ، وأفعال الخير ونصرة أهل البيت ، وكان يعاهد من يبأيعه بأن يشترك معه في قتال العدو ، وينصح له في السر

-
- (٢٣) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٩٧ .
 - (٢٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٢ هـ .
 - (٢٥) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٩٧ .
 - (٢٦) الفخرى : الآداب السلطانية ص ١١٨ .

والعلائقية (٢٧) . ولما اكتمل لزيد وخفقت الألوبة على رأسه ، قال
الحمد لله الذي أكمل لى دينى ، والله انى كنت أستحى من رسول الله أن
أرد عليه الحق غدا ولم أمر فى أمته بمعروف ولم أنه عن منكر (٢٨) .

لما علم يوسف بن عمر — والى العراق — بأن زيد بن على يدعو
لنفسه فى الكوفة ، أمر عامله عليها بتتبعه ، والقضاء على حركته ،
والقبض عليه ، لكنه وجد صعوبات بالغة فى مهمته وذلك أن زيدا كان
يقيم (٢٩) فى الكوفة فى بيوت متعددة ، ولا يعلم بتحركاته إلا أنصاره
المقربون اليه .

لكن أهل الكوفة نكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم للإمام زيد ،
فاجتمع به بعض كبار أعوانه ، وسألوه عن رأيه فى أبى بكر وعمره فقال
زيد : يرحمهما الله ، وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتى يتبرا منهما ،
ولا يقول نيهما الا خيرا — قالوا : تطلب اذن بدم أهل البيت ؟ فكان جواب
زيد : يرحمهما الله ، وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتى يتبرا منهما ،
ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا (٣٠) .

اعتقد أنصار زيد حينما استمعوا الى هذا الجواب بأنه خارج على
آراء الشيعة التى ترى أن خلافة كل من أبى بكر ، وعمر بن الخطاب
غير شرعية ، لذا نكثوا بيعته ، وسموا رافضة ، وقال عنهم زيد : الرافضة
حربى وحرب أبى فى الدنيا والآخرة ، مردت الرافضة علينا كما مردت
الخوارج على على عليه السلام (٣١) .

لم يبق مع زيد من أهل الكوفة سوى مائتى وثمانية عشر رجلا كما
أن أهل الكوفة كانوا يفتقرون الى وحدة الصف وكانوا فرقا تناهض الدولة
والحكم الاموى ، بل كان منهم فريق من الخوارج ولا يمكن قبول الرواية
التي تقول ان أنصار زيد قد التفوا حول أخيه محمد الباقر لأنه أحق بالإمامة

-
- (٢٧) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص ١٦٢ .
 - (٢٨) الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١١٨ .
 - (٢٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٢ هـ .
 - (٣٠) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص ١٦٢ .
 - (٣١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٢٢ هـ .

بل ان زيد كان يشك في نوايا اهل الكوفة ، وقال لهم : انى اخاف ان
تخذلوني وتسلموني كفعلكم بابى وجدى (١) كما ان زيدا لم يتجه الى الكوفة
الا بعد ان استدعاه اهلها .

على كل حال اشتبك زيد بن على بجنده القليل مع جند يوسف بن
عمر في شوارع الكوفة عدة ايام ، وانتصر في بعض المعارك ، ولكن الدائرة
في النهاية دارت عليه (٢) .

على ان نهاية حياة زيد بن على لم تكن آراءه ، وأفكاره ، بل ظل
صداهما يتردد في العالم الاسلامى حتى يومنا هذا ، وتجد استجابة لدى
كثير من المسلمين ، فنشأت طائفة الزيدية التى تتخذ من تعاليمه وأقواله
وأحاديثه وفتاويه واتجاهاته الدينية مذهباً يلتزمون بها يشتمل عليه ولقد
بدأ هذا المذهب فى الانتشار أولاً بواسطة تلاميذه الذين عم من الدرجة
الأولى أولاده وأصحابه ومريدوه ، وهؤلاء التلاميذ نقلوا فقه زيد فى الأقاليم
الاسلامية لأنهم لم يستطيعوا البقاء فى المكان الذى تركهم فيه حين
استشهاده ، حتى لا يتعرضوا للأذى والاضطهاد من الأمويين ، لقد كان
فرار هؤلاء التلاميذ الى البلاد الاسلامية المختلفة سبباً فى نشر الآراء
الزيدية ، كما أن الأئمة من آل البيت الذين حملوا أمانة ذلك المذهب
واجتهدوا فيه تفرقوا أيضاً فى الأقاليم وكان له فيها أنصار وأتباع ، وتنقلوا
فى الأمصار الاسلامية فراراً من بطش بنى أمية ، وهم فى تنقلهم ينشرون
المذهب ويفقهون فيه ، لذلك انتشرت آراء الامام زيد فى البقاع الاسلامية
كلها .

كان زيد بن على فقيهاً راوية للحديث .التقى بواصل بن عطاء وأخذ منه
آراءه فى الاعتزال فى البصرة التى كانت مركزاً للفرق الاسلامية حتى أن مذهب
المعتزلة فى الجملة مذهب الزيدية ومن اصول مذهب الاعتزال الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، والزيدية تعتقد كما يرى الشيعة — بأنفراد ابناء على
بعلم ضرورى من غير تعلم ، كما كانوا يقولون على علم مكتوم يأخذه
بعضهم عن بعض ، وهم يتعللون بالتقية أى بضرورة الإدارة ومن مذهبهم
الأذان بـ «حى على خير العمل» ويعارضون التصوف ، ومذهب الزيدية فى

الفقه يعتبر مذهبا خامسا بعد المذاهب الأربعة ، والشروط التي يجب ان تتوافر في الامام أن يكون من اولاد فاطمة سواء كان من أبناء الحسن أو من أبناء الحسين وواجب الامام أن يخرج داعيا لنفسه شاهرا سيفه ، كما أجاز هذا المذهب امامين في قطرين من الفواطم (٤) .

والامام زيد اعتبر الامامة ، اقامة لمصلحة عامة ، وأن الذي يبيع بها معروف بالوصف لا بالشخص ، وانه يطاع الأفضل ، وتجاوز امامة المفضول ولذلك رفضوا فكرة الامام المستور ، أو ما يسمى بالمهدي المنتظر لأن الامام يجب أن يخرج داعيا لنفسه شاهرا سيفه(٣٢) .

والزيدية ترى أن الامام يجب أن يكون واسع العلم وقد طبق الزيدية هذا المبدأ فنلاحظ أنهم كانوا علماء ويتضح ذلك من مؤلفاتهم الكثيرة . ويتمق الزيدية بأنه قد يوجد زمان من غير امام ومن هنا كانت سلسلة الامامة متصلة (٣٣) عبر التاريخ .

ومن هنا يتضح لنا أن الامام زيد كان أول أهل البيت الذي يحمل فكرة ومذهبا انتهج لنفسه سبيلا في الدعوة وخاصة في كل المسائل الدينية التي خاض فيها علماء عصره وطاف بالبلاد الاسلامية واختلط بالفرق الشيعية ، وتعرف على آرائها ورد على المنحرف منها وأبدى لهم آراءه وتعاليمه ، ودون الفقه المروي من عمل آل البيت فلا غرو أن يلتفت حول هذا الامام رجال العلم والفقه ، ولما تخلص عنه أهل الكوفة بقي الفقهاء والقراء والمحدثون وأهل التقى يقاتلون الى جانبه ، حتى انتهت المعركة(٣٤) ولذلك وصفت ثورة الامام زيد بأنها ثورة فقهاء .

والامامية الزيدية من أكثر فرق الشيعة تساهلا وأتربها الى السنة فاتباعها لا يكفرون ابا بكر الصديق وعمر بن الخطاب والصحابية (٣٥)

(٣٢) ابن زهرة الامام زيد، ص ١٩٥ .

(٣٣) الشهرستاني : الملل والنحل ص ٢١٠ .

(٣٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٥ هـ .

(٣٥) البغدادي : الفرق بين الزرق ص ٢٥ - ٢٦ .

وحينما سأل أصحاب زيد عن رأيه في أبي بكر كما سبق أن اشرنا - قال لا أقول فيهما الا خيرا ، وما سمعت أبي يقول فيهما الا خيرا وانما خرجت على بنى أمية الذين قاتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بالمنجنق والنار ، ففارقوه لذلك فمذهب الزيدية لا يكفر الشيخين ، وانما يرى أن عليا كان أفضل الناس بعد رسول الله وأحقهم بالأمر (٣٦) .

على ان الزيدية انقسمت فرقا : وقالت طائفة أن الصحابة ظلموا على ابن أبي طالب وهم الجارودية ، وقالت أخرى ان الصحابة لم يظلموه ، لكن نفسه طابت بتسليم حقه الى أبي بكر وعمر ، انها اماما هدى ، ووقفت بعضهم في عثمان ، وتولاه بعضهم . وجميع الزيدية لا يختلفون في أن الامامة من جميع ولد على ، من خرج منهم يدعو الى الكتاب والسنة وجب سب السيوف معه ، وأوجبوا سب السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اذا لم يكن دافع المنكر الا بذلك (٣٧) ولا يجوز الصلاة خلف الفاسق لأن الله يتقيا من المؤمنين (٣٨) .

وقد رويت بعض المقتطفات التي نسبت الى زيد بن علي ، وتتضمن تفسيراً لبعض آيات القرآن الكريم ، ومسائل الامامة والحج ، وتشمل بصفة عامة مجملات كاملا للفقه ، وتعرض لمسائل في الدين والشريعة السياسية في صورتها الحالية ، ويرجع السبب الى ما فيها من تناقض الى أن الأئمة الذين خلقوا امام زيد قد أضاعوا اليها بعض آرائهم ، وحذفوا آراء تتعارض مع اتجاهاتهم ، وانقسمت الزيدية فرقا كل فرقة لها معتقداتها التي تختلف عن الفرقة الأخرى .

لم تنته الحركة التي قام بها زيد بن علي زين العابدين في الكوفة للتخلص من الحكم الأموي بوفاته ، فظل فريق من أتباعه - الذين عرفوا بالزيدية - موالين له ، فعبد رجل من بنى أسد الى يحيى بن زيد ، قال له : قد قتل أبوك ، وأهل خراسان لكم شيعة ، فالرأى أن تخرج اليها

(٣٦) الشهرستاني : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج٢ ص ٩٢ .

(٣٧) المصدر السابق ج٤ ص ٩٢ .

(٣٨) المصدر السابق ج٤ ص ١٧١ .

(٣٩) المصدر السابق ج٤ ص ١٧٦ .

وطالب من عبد الملك بن بشر بن مروان أن يستضيفه حتى يكف الطلب عنه.
فأذا سكن الطلب خرج في نفر من الزيدية الى خراسان .

ظل يحيى بن زيد مقبلاً في خراسان حتى وفاة هشام بن عبد الملك .
وقد انتف حول الزيدية ، وبايعوه اماماً ، على أن الخليفة الأموي يزيد بن
الوليد ، أمر نصر بن سيار — وإلى خراسان — بتتبع يحيى بن زيد ، وقمع
حركته ، فأرسل فرقة من جيشه اشتبكت معه ومع أنصاره في معركة
أسفرت عن مقتله سنة ١٢٥هـ (٤٠) .

لما قامت الدولة العباسية عارضها العلويون أيضاً ، واعتبروا
العباسيين مغتصبين للخلافة منهم كما كان الحال بالنسبة للأمويين ، ومن
ثم قامت ثورات ضد الحكم العباسي منذ بدايته فثار محمد بن عبد الله بن
الحسن الملقب بذي النفس الزكية ، ضد المنصور ، وثار أخوه إبراهيم
أيضاً وقد أحبط الخليفة المنصور المحاولتين ، وأمعن في التتكيل بالعلويين
ففر كثير منهم الى الأطراف النائية في الدولة الإسلامية ، فمثلاً ادريس بن
عبد الله العلوي بعد موقعة فخ فر الى المغرب الأقصى واستطاع أن يقيم
الدعوة العلوية هناك ، ويؤسس دولة الادارسة ، (٤١) .

وفر أخوه يحيى بن عبد الله الى المشرق سنة ١٧٦ هـ ، ونزل بلاد
الديلم واشتدت ثبوته ، وقوى أمره ، ونزح اليه الناس من الأمصار
والكور ، وأسقط ذلك في يد الخليفة الرشيد (٤٢) ، ورأى أن هذه الحركة
تهدد دولته ، وعول على ضرورة قمعها ، فسير اليه الفضل بن يحيى
البرمكي في خمسين ألف مقاتل (٤٣) ، ومعه صناديد القواد ، وولاة الكور
والجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ، وحملت
الأموال ، فرأى الفضل أخذ يحيى اللين ، بدلا من الحرب ، فكتب
اليه يستميله ، وناشده وخيره ، وأشار عليه ، وبسط أمله ،
وأرسل اليه والى الديلم مالا ، وطلب منه أن يقتنع يحيى بالسير
اليه (٤٤) وما زال بيحيى حتى أجابه الى الصلح ، ووافق على أن يعود

(٤٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث ١٢٥ هـ .

(٤١) السعدي : مروج الذهب ج٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٤٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ١٢٥ هـ .

(٤٣) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ١٠٥ .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث ١٧٦ هـ .

منه انى بغداد بشرط أن يكتب له الرشيد امانا بخطه على نسخة يبعث بها اليه : نكتب الفضل بذلك الى الرشيد ، فسرّه ، وعظم موقعه عنده : وكتب امانا الى يحيى بن عبدالله ، وأشهد عليه الفتياء والنضاة وجلة بنى هاشم وشمايخهم(٤٥) ووصل الامان الى الامام العلوى ، فقدم يحيى الى الفضل ، وسار معه الى بغداد ، وقدم الى الرشيد فأحسن وفادته ، وأمر له ببال كثير ، وأجرى له أرزاقا سنوية ، وأنزله في دار يليق به ، ولكن الرشيد لم يلبث أن توجس منه خيفة ، فزجه في السجن ، ولم يلبث أن تولى بعد ذلك بقليل (٤٦) .

على ان ظهور الامام العلوى في بلاد الديلم والتفاف الناس حوله ترك انطباعا عند أهلها على الرغم من قصر اقامته بينهم — فاقبلوا على التمشيح ، وتحسروا لأهل البيت ، وتطلعو الى اليوم الذى تتحقق فيه ما تصبو اليه نفوسهم : وهو اليوم الذى يحكمهم فيه امام من آل بيت رسول الله — لذلك التنا حول أفراد الطائفة الزيدية التى انتشرت في هذه البلاد فرارا من بطش العباسيين ، وبدأ الاسلام ينتشر في هذه البلاد على أديمهم ، لذلك فلا غرو أن ينتشر الاسلام في هذه البلاد على مذهب الطائفة الزيدية بصفة خاصة ، وهذا هو ما حدث أيضا في طبرستان وجرجان ، فقدم انتشار الاسلام فيها قبل بلاد الديلم ، وجهود الزيود — الذين لجأوا الى هذه البلاد — أثمرت فيها ان اعتنق أهلها المذهب الزيدى(٤٧) .

على أن نفوذ الزيدية قد ازداد بصورة واضحة في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم في النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى ، حيث ظهر بالكوفة ، يحيى بن عمر بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب وأعلن الثورة ضد بنى العباس الذين أساءوا معاملته ، وانضم اليه حشد كبير من الأعراب ، وجماعة من أهل الكوفة ، ودخل يحيى الكوفة في عدد من الفرسان وسار الى بيت مالها وأخذ ما فيه ، وفتح السجن وأخرج من فيها ، ثم خرج من الكوفة الى سوادها وتبعه جماعة الزيدية ، غير أن

(٤٥) الأصفهائى : مقاتل الطالبين ص ٣١٢-٣١٣ .

(٤٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ١٧٦ هـ .

(٤٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٥٠ هـ .

الوالي العباسي ، اشتبك معه وهزمه : وأوقع العباسيون بمن سار معه من أهل تلك القرى ، ولكن يحيى لم يستسلم للهزيمة ، فعاد إلى الكوفة وقوى أمره ، وعظم بأسه بها بمن انضم إليه من الزيدية ، ودعا إلى الرضا بن آل محمد ، وعظم جمعه ، ومن بايعه في الكوفة جماعة لهم بصائر وتدبير على تشييمهم ، وأقام يحيى على الكوفة ، يعد الصدّة ويأهب للقتال وعلى الرغم من ذلك هزمته القوات العباسية في المعركة التي نشبت بين الفريقين ، وقتل ، وحملت رأسه إلى الخليفة العباسي (٤٨) .

على أن هذه الثورة — على الرغم من فشلها — كان لها رد فعل عنيف في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم . ذلك أن الناس في هذه البلاد قد ساءهم إقدام محمد بن عبدالله بن طاهر على قتل الإمام الزيدي ، بل عولوا على الانتقام ، نثاروا على رجال محمد بن عبدالله بن طاهر في هذه البلاد — التي كان الخليفة العباسي قد أقطعه إياها — وطرّدوا عماله من بلادهم ، لكن عمال الطاهريين لم يذعنوا لشورات أهالي هذه البلاد ، بل أغاروا على بلاد الديلم وقتلوا وسلبوا (٤٩) ، فاستنكر أهل طبرستان هذا العمل العدائي على الديلم — الذين هم في موادعة معهم — فعدّوا العزم مع الديلم على التحالف والتعاون والتآزر على حرب سليمان بن عبد الله الوالي الطاهري على بلادهم ، واتجهوا إلى رجل من الملويين في طبرستان يقال له محمد بن ابراهيم ، يدعونه إلى أن يتقبل مبايعتهم له أميرا عليهم ، ولكنه رفض وقال : اننى أدلكم على رجل منا وهو أقيم ، ودلهم على الحسن بن زيد — ومسكنه بالرى — فوجه القوم إلى الرى رسالة إلى الحسن بن زيد يدعونه إلى التوجه إلى بلادهم ، ليلي حكمهم ، ويرفع الظلم والجور عنهم — الذي لحق بهم من بني طاهر — فوافق الحسن بن زيد ، ولقيت هذه الدعوة ترحيبا منه (٥٠) وخصوصا أنها جاءت معبرة عما تطلع إليه الأئمة الزيدية منذ وقت طويل حول تحقيق غايتهم ، وحلمهم المنشود في تولي حكم البلاد — على حسب ما يروونه — وهو أن حكم المسلمين يجب أن ينحصر في آل بيت رسول الله (٥١) .

(٤٨) السعدي مروج الذهب ج٢ ص ٢٤٨ .

(٤٩) ابن الأثير / الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٥٠ هـ .

(٥٠) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٤١٠-٤١١ .

(٥١) الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٥٧ هـ .

على كل حال توجه الحسن بن زيد الى طبرستان ، وأجمع طبرستان وبلاد الديلم أمرهم على مبايعة الامام الزيدى ، والاتفاق حوله ، وقتال الولى الطاهرى سليمان بن عبدالله فطردوا عماله من بلادهم ، وساروا بقيادة امامهم الحسن بن زيد فى هذه البلاد ودخل وأنصاره من أهل هذه النواحي أهل : واشتبكوا مع الجند الطاهرى هناك ، وأوقفوا بهم الهزيمة ، ودخلوا أهل ، واجمع الناس على مبايعة الامام الزيدى ، وتقلد حكم هذه البلاد ، وكان عليه أن يقضى على كل محاولة تعترضه من جانب الجند الطاهرى ، فسار الى سارية سليمان بن عبد الله ، واشتبك معه فى معركة ضارية ، انتصر فيها على أعدائه الطاهريين : وفر سليمان وتوابعه ، واستولى الحسن الزيدى على سارية وبذلك آلت طبرستان كلها الى الامام الزيدى ، وأصبح حاكمها وامامها (٥٢) .

لم يكتف الحسن بن زيد بحكم طبرستان ، بل عول على الاستيلاء على الرى فأرسل فرقة من جيشه وأسند قيادتها الى رجل من أهل بيته ، وتمكنت هذه الفرقة من طرد عمال الطاهريين ، واستخلف بها رجلا من الملويين يقال له محمد بن جعفر . وبذلك اتسعت الدولة الزيدية الجديدة ، وضمت طبرستان والرى (٥٣) .

على أن محمد بن جعفر لم يلق حكمه تأييدا من أهل الرى بل استاءوا منه ، فأستعان بعض أهلها بمحمد بن طاهر بن عبد الله فأرسل إليها قائدا من قبله لاستعادتها يقال له محمد بن ميكال ، فالتقى مع محمد بن جعفر فى معركة خارج الرى ، انتصر فيها القائد الطاهرى على القائد العلوى ، ودخل الرى . على أن الحسن بن زيد لم يتغاض عن الهزيمة التى لحقت بقواته ، وانفصال الرى عن دولته ، بل ارسل جيشا الى الرى انتزعها واستردها من محمد بن ميكال . وبذلك عادت الرى الى حوزة الأمير العلوى (٥٤) .

وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة الزيدية الجديدة تزدد قوة بفضل مساندة أهالى طبرستان والديلم للامام الزيدى ، كانت الدولة الطاهرية

(٥٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٥٧ هـ .

(٥٣) السعوى : مروج الذهب ج٢ ص ٢٩٠ .

(٥٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٥٧ هـ .

تسير في طريق التدهور والانحلال وكانت الخلافة العباسية مشغولة عن هذا كله بثورة الزنج في العراق والاهواز ، لذلك عجزت الخلافة أو شغلت عن القضاء على الدولة الزيدية الجديدة .

وكان الامام الزيدى على علم بهذا كله لذا وجد الفرصة سانحة لتوسيع رقعة دولته ، ففي سنة ٢٥٧هـ قصد الحسن بن زيد جرجان واستولى عليها ، ولما بلغ ابن طاهر — أمير خراسان اعتزام الحسن قصد جرجان ، جمع العساكر ، أعد العدة ، وسار الى جرجان للحيلولة بين الحسن وبين الاستيلاء عليها ، لكن الطاهري فشل في تحقيق غرضه ، وانسك الحسن جرجان ، وقتل كثيرا من الجند الطاهري ، وغنم مغانم كثيرة . وبذلك انضمت جرجان الى الدولة الزيدية (٥٦) .

وكان محمد بن طاهر — آخر حكام الدولة الطاهرية — أميراً ماجناً ، يميل الى اللبؤ والعيش ، ضعف أمره كحاكم ، وعجز عن اخضاع الثورات التي قامت ضده ، ولما ازدادت الاضطرابات في كل الدولة الطاهرية — استنجد أهل خراسان يعقوب بن الليث الصفار لاعادة الأمن والطمأنينة الى بلادهم ، فوجد الأمير الصفارى الفرصة مواتية لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية فزحف بجيشه الى نيسابور سنة ٢٥٩هـ وقبض على محمد بن طاهر ، وعلى أهل بيته وبذلك زالت الدولة الطاهرية (٥٧) .

كان يعقوب بن الليث الصفار من أفراد المطوعة — وهى تشكيلات عسكرية تعمل على حماية سجستان وفارس وكرمان من حالة الفوضى التي تعرضت لها من ثورات الخوارج وارتفع شأن يعقوب بعد أن ظهرت شجاعته في محاربة الخوارج ، فتولى قيادة جماعات المطوعة ، ومن ثم عظم أمره حتى ان أهل سجستان استنجدوا به لتخليصهم من الفوضى التي حلت ببلادهم ، فسار اليهم ، ورفع عنهم الضرر (٥٨) ، ولما رأى أهل سجستان

(٥٥) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٧ هـ .

(٥٦) السعوى . مروج الذهب ج٢ ص ٥٤١ .

(٥٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٨ ص ٥٠٨ .

(٥٨) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٨ ص ٥١٨ .

تشجاعته وحسن تدبيره ملكوه أمرهم ، فضبط البلاد ، وقويت شوكره ، وقصدته السكر من كل ناحية (٥٩) .

لم يكتف يعقوب بحكم سجستان بل عول على مد نفوذه الى البلاد المجاورة ، فطمع في طبرستان . وزحف بجيشه اليها ، بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين الامام حسن بن زيد ، لأنه آوى بعض أعدائه ، ومضى الى الديلم ، ودخل يعقوب سارية وآبل وجبى من أهلها خراج سنة ، ثم سار في طلب الحسن ، لكن الحسن آوى الى بعض الجبال المنيعه في طبرستان ، فلم يتمكن يعقوب منه ، وفشل يعقوب بن الليث في القضاء على الدولة الزيدية بسبب صعوبة مسالكها ، وخرجت من هذه المحنة قوية ظائرة (٦٠) .

وفى الحسن بن زيد سنة ٢٧٢هـ بعد أن حكم دولته أكثر من تسعة عشر عاما ، بذل خلالها ما يبذله عادة مؤسسو الدولة من جهد في توطيد وبناء صرح دولته — والذود عنها ضد الأعداء ومحاولة توسيع رقعتها . وتقوية شأنها . وكان الامام حسن عالما بالفقه (٦١) .

ولى محمد بن زيد حكم الدولة الزيدية خلفا لأخيه الحسن ، وواجه صيريات عديدة تهدف الى النيل من دولته ، ففى سنة ٢٧٢ هـ انتزع ادكوتكين الرى من محمد بن زيد فعول الامام العلوى على استردادها ، وسار في جمع كبير الى الرى ، واشتبك مع ادكوتكين في معركة دارت فيها الدائرة عليه ، وتشتت شمل قواته ، ومزقوا شر ممزق ، فقد محمد ابن زيد الكثير من الأموال والمعدات في المعركة ودخل ادكوتكين الرى ، وأخذ من أهلها أموالا طائلة ، وولى حكمها ، وبذلك فتدت الدولة الزيدية اقليم الرى (٦٢) .

كذلك تعرضت الدولة الزيدية لمؤامرات أخرى أضطفت من شأنها ، ففى سنة ٢٧٦هـ سار رافع بن هرثمة الى جرجان ، وأزال عنها حكم محمد بن زيد ، وسار محمد الى استرابان فحاصره فيها رافع ، وأقام فيها نحو سنتين ، فارتفعت الأسعار ، ونذر

(٦٠) المصدر السابق .

(٦١) الطبرى تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٧٢ هـ .

(٦٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك : حوادث سنة ٢٨٧ هـ .

وتوجد المواد الغذائية بها ، فعم القحط ، وساءت أحوال الناس ، لذلك غادرها محمد بن زيد متخذاً من الليل جملاً ، وغادرها إلى ساريه ، وسارت قوافل رافع في أثره ، فأسرع محمد بن زيد إلى بلاد الديلم ، فتعقبه رافع ، ودخل أرض الديلم ، وفر دنيماً محمد بن زيد . وبذلك فقدت الدولة الزيدية بعض ممتلكاتها ، وضعف أمرها (٦٣) .

وفي غضون ذلك ارتفع شأن الدولة السامانية ، وأضعفوا من أمر الصفاريين ، واعترف الخليفة العباسي المعتمد بالأمر نصر حاكماً على بلاد ما وراء النهر ، وغرض إليه حكم البلاد الممتدة من شواطئ جيحون حتى أقصى بلاد الشرق (٦٤) .

أخذت الدولة السامانية تزداد قوة وتفوز في القسم الشرقي من الدولة الإسلامية وانتصر الأمير الساماني على عمرو بن الليث الصفار ، وضعف أمر الدولة الصفارية سنة ٢٨٨ هـ (٦٥) . وتطلع اسماعيل إلى ضم طبرستان إلى حوزته ، فجذب إليه رؤساء الديلم بالأموال والهبات فأنحاز فريق منهم إليه ، وكان اسماعيل قد أثاره كثرة الفارات التي كانت تشنها قوات الإمام محمد بن زيد على دولته ، فاشتبك في حرب معه ، وانتصر عليه وضم طبرستان إلى حوزته بعد معركة رهيبه خرب فيها الإمام العلوي صريعاً (٦٦) .

انتهت الدولة الزيدية في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم بمقتل محمد ابن زيد ، ولكن ظلت الدعوة الزيدية منتشرة بين أهل هذه البلاد ، وآمن بها كثيرون ، وأقام بينهم الحسن بن علي الملقب بالأطروش نحو ثلاث عشرة سنة بعد مقتل محمد بن زيد يدعوهم إلى الإسلام ، ويؤدون له العشر ، وأسلم من أهل هذه البلاد كثيرون على يديه ، اجتمعوا عليه بعد أن هداهم الله إلى الإسلام . وأقام الأطروش في بلادهم مساجد يذكر فيها اسم الله وكانت بلاد الديلم تخضع — كما ذكرنا — للحكم الساماني وكان السامانيون يستبطلون اليهم رؤساء الديلم بالمنح والهبات ، ثم قطعوها عنهم ، فاستاء الديلم من آل سامان .

(٦٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٨٧ هـ .

(٦٤) المصدر السابق .

(٦٥) النرخي : تاريخ بخارى ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٦٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٨٧ هـ .

وانتهز الحسن بن على الأطروش الفرصة ، فحرض أهل الديلم على التمرد والمصيان على الحكم الساماني ، وفعلا أعلنوا الانفصال عن الدولة السامانية ، ونادوا بالأطروش أميرا عليهم وبذلك بعثت الدولة الزيدية من جديد في بلاد الديلم (٦٧) .

عول الأطروش على توسيع رقعة دولته الجديدة ، فهاجم طبرستان. واشتبك مع واليها الساماني في معركة هزمه فيها وقتل من أصحابه كثيرين ، وامتلك الأطروش طبرستان (٦٨) . وأعطى لأهلها أمانا على أنفسهم وأموالهم وأهلهم سنة ٣٠١ هـ وبذلك اتسعت الدولة الزيدية في عهد الأطروش ، فشملت طبرستان وجرجان وبلاد الديلم (٦٩) .

والأطروش يلقب بالناصر الكبير ، ولم يكن مؤسس دولة فقط ، بل صاحب دعوة ، يذل في نشرها جهودا مضنية ، فقد نشر الاسلام كما ذكرنا — وحرص على نشر الفقه الزيدي بين أهالي دولته لذلك يعتبر الناصر الأطروش محيي المذهب الزيدي من الركود بعد توالي الاضطهاد واستشهاد الكثير من آل بيت رسول الله . وفي ذلك يقول الشهرستاني : لم ينتظم أمر الزيدية ، حتى ظهر بخراسان الناصر الأطروش ، فطلب مكانه ليقتل ، فاخفى ، واعقل الى بلاد الديلم والجبل ، وهم لم يتحلوا بدين الاسلام ، فدعا الناس الى الاسلام على مذهب زيد بن علي فدأوا ذلك ونشأوا عليه وبقيت الزيدية في تلك البلاد ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلى أمرهم (٧٠) .

ولقد أدى الأطروش مهمته في أرض بكر لم تعرف الفرق ولا المذاهب المختلفة ، وكان الناصر رجل سياسة وعلم فقيها ، وكان ذا فهم ومعرفة بالآراء والنحل حتى قيل انه عالم آل محمد ، وأحاطها بالسنة وعلم آل البيت وأقوال وآراء السلف الصالح ، وفقهه يعتمد على الآراء والنصوص وكان له فرقة مستقلة تدعى بالفنصرية . ويرجع اليه الفضل في احياء المذاهب الزيدية في بلاد طبرستان وجرجان والديلم .

(٦٧) المصدر السابق .

(٦٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٠١ هـ .

(٦٩) السعدي . مروج الذهب ج٢ ص ٥٤٩ .

(٧٠) الشهرستاني : الملل والنحل ص ٣١١ .

ولما توفي الحسن الأطروش ظلت الامامة في اولاده واصهاره حتى سنة ٣١٦ هـ حيث انقسم الديلم الى عصبيتين ، عصبية الجبل المثلثة في اسفارين شرويه ، وعصبية الديلم المثلثة في ماكان بن كالى ، وكل طائفة من الناس تجتمع حسب عصبيتها ، وحول رئيسها الذى تتبعه : ومن التزامات هذا الرئيس ان يجد لجذده مجالا للحرب يرتزقون منه ، ولذلك كان بعضهم يخرج على الدولة سعيا وراء امصالح جنده ، فاسفارين شرويه ترك خدمة الامام الزيدى وانضم الى السامانيين ، ثم عاد مرة اخرى الى طبرستان واساء معاملته الامراء الزيدية ، كما اساء الى جميع العلويين الذين كانوا موجودين بطبرستان ، بل جمع الامراء العلويين سنة ٣١٦ هـ في امل وقتلهم ، وسير من بقى في هذه البلاد الى آل سامان في بلاد ما وراء النهر ، على ان اتباعه استاءوا من فعله ، وتزعّم موداويج ابن زيار الديلمى مؤامرة تخلص منه وقتله ، واقام دولة علوية هناك لا امام لها ، بل اعترف بسيادة الخليفة العباسى السنّى على بلاده ، ونكّل المذهب الزيدى سائدا بين أهلها .

٦ - دولة الأكراد الكاكوية الديالسة في بلاد الجبل

تمهيد :

يحد إقليم الجبل من ناحية الشرق فارس ومفازة خراسان ، ومن جهة الجنوب إقليم خوزستان ، ومن جهة الغرب إقليم أذربيجان ، ومن جهة الشمال إقليم طبرستان وجيلان اللذين يدخلان في منطقة الديلم (١) . ويتقسم إقليم الجبل الى خمس مناطق رئيسية : كرمانشاه همذان - أصبهان - الري شرةزوين - والاولى تحل المنطقة الغربية من إقليم الجبل ، وتضم هذه المنطقة عددا من الكور :

الدينور ، شهرزور - طوان . وكانت همذان تلي المنطقة السابقة جنوبا ، وقصبتها همذان (٢) . أما منطقة أصبهان ، فتقع في الطرف الجنوبي الشرقي من إقليم الجبل ، قرب حافة المفازة الكبرى (٣) ، وتضم كورها عددا من الرساتيق التي تحوى عددا من القرى (٤) .

وتعتبر منطقة الري من أشهر مناطق الجبل ، وقصبتها مدينة الري ، وعدت عاصمة إقليم الجبل ، وعلا شأنها بعد أن استولى عليها البويهيون سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، واستطاعوا أن يسيطروا منها على منطقة واسعة من إقليم الجبل (٥) .

(١) الديلم : الجزء الجبلى من جيلان ، وتسكنه قبيلة تعرف أيضا بالديلم ، ويحده من الشمال جيلان ومن الشرق طبرستان ومن الغرب أذربيجان وبلاد الران ومن الجنوب نواحى قزوين ، وكان الديلم وثنيتين ، ومن ثم تعرضوا لغارات النخاعين . ودخلوا في الاسلام عن طريق الائمة الزيدية . (دائرة المعارف الاسلامية) .

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٩٢ .

(٣) لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٢٨٥ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢٦٧ .

الحياة السياسية في بلاد النجبل قبيل أن يحكمها الأكراد الكاكوية

سيطر بنو بويه على شرق الدولة الإسلامية (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-
١٠٥٥م) وكانوا جنودا مفامرين من أهالي الديلم ، التحقوا بجيش ماكان
ابن كالى الديلمى ، واستطاعوا بفضل مكانتهم ومقدرتهم وكفاءتهم العسكرية
أن يصلوا الى مركز مرموق فى جيشه ، ولما هزم مرداويج بن زيار ،
ماكان بن كالى ، انتقلوا الى خدمة مرداويج الذى لم يلبث أن خشي بأس
بنى بويه وأطاعهم (٦) ، واستطاع الأمراء البويهيون بسط نفوذهم على
الكثير من البلدان الإيرانية (٧) ، وسيطر حسن بن بويه على بلاد انجبل (٨) .

وفى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م دخل أحمد بن بويه مدينة بغداد ، غاصد
اليه الخليفة العباسى المستكفى منصب أمير الأمراء ، ولقبه بلقب
معز الدولة ، ولقب عليا عماد الدولة ولقب حسنا ركن الدولة (٩) .

لما توفى معز الدولة عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م خلفه ولده عز الدولة بختيار
فى حكم كرمان وخوزستان والعراق ، ولم يستطع هذا الأمير السيطرة
على جنده ، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة بن عماد الدولة ، من أقدر
أمراء بنى بويه ، وأبعدهم نظرا فى السياسة والادارة — فأعاد عضد الدولة
الأمور الى نصابها ، لكنه لم يكن مخلصا لبختيار ، فطمع فى أملاكه ،
واستولى عليها ، وانتزع أملاك أخيه نضر الدولة ، وتمكن عضد الدولة
بذلك من توحيد المملكة البويهية كلها تحت سلطانه ، فبلغت فى عهده أوج
ازدهارها وعظمتها (١٠) .

ولما توفى عضد الدولة نشب القتال بين أبنائه حول ممثلات أبيهم
سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٣م (١١) ، وانتهى القتال بينهم سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م بانتصار

(٦) مسكويه : تجارب الأمم ص ٢٩٦ - ٣٠٢ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٨) المصدر السابق ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٩) للدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٦٨ - ٢٧٢ .

(١٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٧٢ هـ .

مبدأ الدولة . على أن الدولة البويهية ازدادت ضعفا بعد وفاته سنة ١٠٦ هـ / ١٠١٢ م ، فقد انقسمت بين ابنائه الأربعة ، وازداد تردد الجيش من الترك والديلم (١٢) .

واضح نزع الأسرة المنحدر من فخر الدولة ، فقد خلف مجد الدولة أباه فخر الدولة ، وكان ضعيفا عابثا ، وتفككت دولته وآلت الى الزياريين والاكراد الكاكويه والغزنويين كما سنرى .

قيام دولة الاكراد الكاكويه

حكمت ايران أسرة ديلميه على انتقاض الحكم البويهى ، وهى أسرة الكاكويه ، ومؤسسها علاء الدولة محمد (١٣) وكانت والدته مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، استعملته على أصفهان ، فلما فارقت ولدها مجد الدولة ، نسد حال علاء الدولة محمد ، وغادر أصفهان ، وأقام عند أحد الأمراء البويهيين فى ايران ، ولما عادت أم مجد الدولة الى الرى ، وباشرت شؤون الحكم والادارة فى هذه البلاد ، لضعف ابنها سار علاء الدولة اليها فأسندت اليه حكم أصفهان ثانية ، واستقر بها أمره ، وعظم شأنه ، رقى بأسمه (١٤) .

وليس من المؤكد متى تولى علاء الدولة محمد حكم أصفهان نيابة عن أم مجد الدولة . على أن المؤرخ المحلى لأصفهان ، المفضل بن سعد المخرى ، ذكر أن علاء الدولة حكم أربعين عاما حتى وفاته سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م (١٥) ، وهذا يدل على أن الفترة التى حكمها فى أصفهان تبدأ منذ سنة لا تقل عن ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م .

(١٢) مسكويه : تجارب الامم ج ٢ ص ٣٤٦ وما يليها .

(١٣) وهو أبو جعفر محمد بن شمنزيار ، وانما قيل كاكويه ، لأنه كان ابن خال والدته مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، وكاكويه هو الخال بالفارسية ، وعلاء الدولة محمد ابن أبى العباس رستم شمنزيار بن مرزبان ، وكان يلقب أصبهيد ، دخل الى خدمة البويهيين فى الرى والجيل وجهوده ثبتت أقدام البويهيين فى أراضيهم ضد أطماع الحكام المحليين ، الزياريين وغيرهم .

(ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٨ هـ) .

(١٤) ابن اسفنديار - تاريخ طبرستان ج ٢٢٠ ، ٢٣٨ .

(١٥) محاسن أصفهان ص ١٠٠ .

ضعفت حكومة الري والجليل البويهية في عهد أمجد الدولة ، حتى فقدت سيطرتها على الاقاليم التابعة لها ، واستقل الحكام الكرد بالبلاد التي يحكمونها ، وقد شجعهم على ذلك الديالمسة ، والأمر الحاكم في طبرستان وجرجان مثل الزياريين (١٦) ، وانتهاز علاء الدولة محمد فرصة التدهور السياسي في الامارة البويهية ، وشرع في مد نفوذه غرباً وجنوباً من أصفهان الى الأراضى التي لم تعد خاضعة للبويهيين ، ففي سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م ، تقدم علاء الدولة محمد الى همدان ، وقد سادتها الفوضى والاضطرابات بسبب المنازعات بين الجند الأكراد والجند الترك ، وفشل أميرها شمس الدولة البويهى — أخو مجد الدولة — في السيطرة على زمام الأمور في ولايته ، واستطاع علاء الدولة محمد أن يقضى على فتن الجند ، ويعزل عناصر الشغب في مكان يقال له بورجين (١٧) .

على أن علاء الدولة محمد لم يكتف بذلك بل ترقب الأوضاع في همدان ، ليستيطر عليها ، فلما توفي شمس الدولة البويهى — أمير همدان — سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م ، آلت الى ابنه سماء الدولة ، ولم يستطع إدارة شؤون البلاد بنفسه (١٨) واستحوذ على السلطة الحقيقية ، وزيره الكردي — تاج الملك أبو ناصر بن برهام وقرههذ بن مرداويج — الحاكم المطلق الاقطاعي للمدينة المجاورة بروجرد (١٩) ، فلجأ الأمير البويهى الى علاء الدولة محمد في أصفهان ، وطلب منه أن يعاونه في القضاء على خصومه ، ولكن علاء الدولة كان واسع الاطماع ، يعمل على ضم المزيد من الأراضى الى ولايته ، فسار الى همدان ، وأسقط حكم سماء الدولة البويهى ، وسيطر

(16) Bosworth : Military Organization under the Buyids of Persia and Iraq. p. 153.

عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمى — أحد قواد أمير قزوين — نظرد حاكمها ، واستولى على بلاده ثم فتح الري وأصفهان وطبرستان وجرجان وهمدان ، وبلغت جبرشاه نواحى حلوان وقد اتهمه الخليفة العباسى على ما بيده من البلاد يعد أن تعهد بدفع مبلغ من المال وبلغ من ازدياد طموحه انه اعتزم السيطرة على بغداد واعادة مجد الدولة الفارسية وبخلفه أخوه وشهكير ، (دائرة المعارف الإسلامية) .

(١٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤١١ هـ .

(١٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤١٢ هـ .

(١٩) بروجرد : بلدة بين همدان وبين الكرج ، وهى مدينة خصبة كثيرة الخيرات (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٤٠٤) .

على عميدان والدينور وسابور خواست . وضم كل هذه البلاد الى حوزته .
ولم يستطع مجد الدولة البويهى أن يحرك ساكنا لانقاذ الامارة البويهية (٢٠) .
وبذلك اتسع نفوذ علاء الدولة محمد في ايران .

وفشلت محاولة سماء الدولة البويهى في استعادة همذان والبلاد
التي انتزعيها منه علاء الدولة محمد ، ووطد علاء الدولة حكمه في هذه
البلاد ، وقبض على أمراء الديلم الذين يخشى بأسهم ، وزجهم في السجون ،
وصادر أموالهم (٢١) . وبذلك أمن على استمرار ملكه من بأس هؤلاء
الاضلاعيين ، فزادت هيئته ، وخافه الناس .

الحياة السياسية في بلاد الجبل في عهد علاء الدولة محمد

واجه علاء الدولة محمد عدة عقبات في بداية حكمه لبلاد الجبل ،
ومنهما ثورة الاكراد الجوزقان . ومحاولتهم الاستقلال عن الأمير الكاكوى ،
وقد أرسل اليهم علاء الدولة محمد عدة حملات لاختصاصهم ولكنها فشلت ،
وبل الاكراد على ثورتهم ، حتى عهد علاء الدولة الى على بن عمران
بتأديبهم ، واعادتهم الى الطاعة والولاء ، وقد أدى على بن عمران واجبه
خير أداء ، فأخضع الاكراد الجوزقان واستمالهم ، والتفوا حوله ،
وارتضوا به حاكما عليهم من قبل علاء الدولة محمد (٢) .

على أن تولية على بن عمران على الاكراد الجوزقان لم يؤد الى
استمرار ولاء هؤلاء القوم للأمير الكاكوى ، ذلك أن على بن عمران شق
عصا الطاعة على سيده ، ولكى يؤمن نفسه استعان بأصبهيد — صاحب
طبرستان — ووليك بن وندرين — أحد قواد الديلم — وحثهما على قص

(٢٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤١١ هـ .

(٢١) المصدر السابق حوادث سنة ٤١٤ هـ .

ظل اسم سماء الدولة على عملات مختلفة غرب بلاد الجبل لعدة أعوام بعد سقوطه

(Niles : The Coinage of the Kakwayids Dynasty. pp. 97-100).

(٢٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤١٨ هـ .

بلاد الجبل ، وأرسل منوچهر بن قابوس بن وشكير . واستمدد . وأوهم
الشائدين أن البلاد في يده ، لا رافع له عنها (٢٣) .

وهما يسر مهمة على بن عمران أن أصبهيذ كان معاديا لعلاء الدولة
فسار إلى هذان ، وملكها ، واستولى على أعمال الجبل وطرد منها عمال
علاء الدولة ، وفي غضون ذلك ، وصل عسكري منوچهر بن قابوس وعلى
ابن عمران ، فازداد قوة على قوة ، ودار الحلفاء — أعداء علاء الدولة —
كلهم إلى أصفيهان ، فححصن علاء الدولة بها ودار قتال مرير بين الفريقين .
وفي أثناء القتال ، أرسل علاء الدولة إلى جند العدو الأموال ، وطلب منهم
الانضمام إليه ، وقد نالت هذه الدعوة موافقة الكثير من الجند ، فلبأوا
إلى علاء الدولة ، تاركين جيوشهم ، وقد أحسن علاء الدولة استقبالهم
ومعاملتهم ، وأغدق عليهم عن سعة ، الأمر الذي أضعف من شأن أعداء
علاء الدولة ، وقت في عضدهم ، وزاد أمرهم سوءا حينما ضاقت عليهم
الميرة ، فانسحبوا من مواقعهم ، ولأذوا بالفرار ، لا يلوى أحد على أحد ،
فتتبعهم علاء الدولة واستبال الأكراد الجوزتمن ، فمال إليه بعضهم :
وسار في أثر أعدائه إلى نهاوند ، والنقى بهم في معركة رهيبة انتصر فيها
علاء الدولة على أعدائه ، وقتل ابنين لولنكين بن وندرين في المعركة ،
وأسر أصبهيذ ووزيره وبعض أقاربه ، ومضى ولنكين في نفر يسير إلى
جرجان ، ولأن على بن عمران بالفرار ، وتحصن بقلعة كنكور (٢٦) ،
ولكن علاء الدولة لم يتركه وشأنه ، بل حاصره في القلعة ، وشدد عليه
الحصار . أما ولنكين بن وندرين ، فقد لجأ — بعد المعركة — إلى منوچهر
ابن قابوس ، وعرضه على المسير إلى الري ، واستعادتها ، وهون عليه
هذا الأمر . بسبب انشغال علاء الدولة بمحاصرة قلعة كنكور ، كما أن
علاء الدولة قد تعقدت الأحوال الداخلية في دولته بعد أن انضم صاحب قم
إلى أعدائه . ومهما يكن من أمر فقد سار منوچهر بن قابوس مع حلفائه
إلى الري ، واشتبكوا مع صاحبها مجد الدولة بن بويه ، ولكن الدائرة

- (٢٣) اسم يخفص به ملوك طبرستان . وهو مثل كسرى الملوك الفرس وقيصر الملوك الروم
(يا قوت : معجم البلدان ج١ ص ١٧٢) .
(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حرات سنة ٤١٨ هـ .
(٢٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر .
(٢٦) قلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر من قلاع الأكراد الزوزان (يا قوت : معجم
البلدان ج٤ ص ٤٨٤) .

دارت على منوجهير وأعواته ، وزاد موقفهم حرجا ، بعد أن صالح علاء الدولة ، على بن عمران ، ورفع عنه الحصار (٢٧) وعاد مسرعا إلى الري لانقاذها من أعدائه ، فخشى منوجهير بأس علاء الدولة وعقد معه صلحا . وانسحب عائدا إلى بلاده . وخرج علاء الدولة من هذه الاشتباكات ظافرا منتصرا ، وزادت رقعة دولته ، فقد ضم إليها قلعة كذكور وأقطع على بن عمران بدلا منها مدينة الدينور (٢٨) .

كما أثبتت هذه الحروب عدم مقدرة مجد الدولة التحرك خارج عاصمته الري ، وأظهرت أن علاء الدولة — وليس البويهيون القوة الأعظم في بلاد الجبل في ذلك الوقت ، ولم يعد لمجد الدولة من السلطة إلا اسمها ، أما الحكم الفعلي فكان في أيدي علاء الدولة وليس البويهيون ، بدليل وجود عملة (٢٩) لعلاء الدولة ضربت في أصفهان وبروجرد وأسديباد وهمذان وكرمان ودينور وسابور خواست والكرج والري وجور بافتان ويزد (٣٠) .

وقبل أن يفقد علاء الدولة استقلاله بالبلاد السالفة الذكر على أيدي الترنويين سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م كان يذكر اسم الأمراء البويهيين على عملته ، مثل مجد الدولة أو شمس الدولة أو سماء الدولة حتى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م ويضيف إلى ذلك اسمه دون القاب تفخيم ، وهو محمد بن شهنشيار (٣١) ، ولكنه بعد ذلك حصل على لقب مهم ، يتناسب مع ما عرف عن استقلاله بالبلاد التي سيطر عليها عن نفوذ البويهيين (٣٢) مباشرة من الخليفة التادر — ودون تدخل البويهيين — وقد ذكر صاحب كتاب مجمل التواريخ (٣٣) أن علاء الدولة كاكويه أرسل سنة ٤١٩هـ/١٠١٨—١٠١٩م رسالة إلى بغداد ، يطلب من الخليفة منحه عددا من الألقاب التي كان يمنحها الخلفاء

(٢٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤١٨ هـ .

(٢٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤١٨ هـ .

(29) Miles : The Coinage of the Kakuyids Dynasty, p. 102.

(٣٠) يزدي : مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصفهان ، معدودة من أعمال فارس ثم من كورة اصطخر (ياقوت : معجم البلدان ح ٤ ص ٤٣٥) .

(31) Miles : A Hoard of Kakwayhid Dirhams. p. 171-173.

(32) Bosworth : Imperial policy of the Ghaznavids. p. 64.

(٣٣) مجمل التواريخ ح ٤٠٢ — ٤٠٣ مؤرخ مجهول عاش في أسديباد ، ويلم تبعاً

لذلك بأخبار غرب بلاد الجبل .

يختره الى الأمراء في تلك الايام ، فأرسل الخليفة الى علاء الدولة تقليدا
بضم البلاد التي يسيطر عليها فعلا وبميت اليه بالتاج والطوق والقلادة
والخلع ولقبه عضد الدولة علاء الدولة ، فخر الملة ، وتاج الامة ، وحسام
أمير المؤمنين . على أن اللقب الذي كان يعرف به عادة ، علاء الدولة .
ولم يكتف الأمير الكاكوي بذلك ، بل عهد الى ابنه الثاني أبي كاليجار ،
وولاه همذان ، وحصل له على القاب : المؤيد ، غياث الملة ، فلك الدولة .

على أن ولاية مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه لم تستمر على
الرى ، لأنه كان متشاعلا عن شؤون الحكم باللهر والعبت ، لذلك اضطريت
الأمور في دولته (٣٤) واستنجد أهلها في سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م بالسلطان
محمود الفزنوي لتخليصهم من حالة الفوضى التي حلت ببلادهم (٣٥) ،
فسار الى الرى ، واشتبك مع جندها وهزمهم وضم الرى وساوه وياقت
وغيرها الى حوزته (٣٦) ، وقبض على مجد الدولة ، وسيره الى
خراسان (٣٧) ، وكان كثير من سكان تلك البلاد يعتقدون المذهب
الاسماعيلي ، فقبض محمود الفزنوي على الباطنية ونكل بهم ، ونفى
المعتزلة ، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم ، ونقل الى
غزنه ما سوى ذلك من الكتب (٣٨) .

ولما انتهى السلطان محمود الفزنوي من الرى ، سار الى طبرستان
وجرجان ، وهزم صاحبها منوچهر بن قابوس وأعلن دخوله في طاعة
السلطان الفزنوي ، وأقيمت الخطبة لمحمود في أكثر بلاد الجبل الى حدود
أرمينية (٣٩) وامتلك ابنه مسعود زنجان وأبهر ، وخطب له علاء الدولة
كاكويه في أصفهان ، واستخلف محمود الفزنوي ، ابنه مسعود في الرى
وسار مسعود الى همذان ، وضمها الى الدولة الفزنوية (٤٠) .

(٣٤) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج ٢ ص ١٩٢ .

(٣٥) خوندميز : حبيب السير ج ٢ ص ٢٥ .

(36) Hitti : Hist. of the Arabs, p. 454.

(37) Camb. Med. Hist. Vol. IV. p. 303.

(38) Camb. Hist. of Iran, Vol. 5. p. 12.

(39) IBID. p. 21.

(40) Habib. Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 39.

وبذلك ظهر عامل جديد في سياسة شمال ايران نتيجة لجهود السلطان محمود الغزنوى ، وابنه مسعود ، وأصبحت ايران الطريق المؤدى الى الشرق الأدنى ، وسقطت بقايا الامارات البويهية . وهنا تنفس الخليفة العباسى الاسنى الصعداء من سيطرة البويهيين الشيعة ، وفي نفس الوقت اطمأن الى وجود قوة سنوية كبيرة وصاعدة — أقصد الأتراك الغزنويين — تقف الى جانبه في وجه أعدائه الفاطميين .

وفي خلال حكم علاء الدولة القصير للرى ضرب درهما ، وباهى به — كما فعل مرارا بتشريف الخليفة القادر له — ، وأظهره دون سواه على العملة (٤١) .

اضطربت الأمور في شمال ايران ، وحدث بها فراغ سياسى بعد سقوط حكومتها البويهية التى ظلت تحكم بلاد الرى والجبل قرنا من الزمان . وجاء القضاء على سلطان البويهيين على أيدي الغزنويين ثم السلاجقة ، ورحب أهل الرى بالحكم الغزنوى ورأوا فيه انقاذا لهم من حكم مجد الدولة الفاشم وجنوده الديالمة الظالمين الذين حولوا البلاد الى مسرح للقتال (٤٢) والاضطرابات على انهم لم يهنأوا طويلا بالحكومة الغزنوية ، فقد تعرضوا لغزو الأتراك السلاجقة ، الذين انساحوا الى شمال ايران من صحراء خراسان ، والقره قورم في أنذربيجان وحدود الدولة البيزنطية وقد لاحظ علاء الدولة محمد هؤلاء البدو ، الذين برزوا كقوة ثالثة في هذا الصراع ، استعملهم الأمير الكاكوى ، لتأكيد استقلاله ضد الحكام المحليين الغزنويين (٤٣) .

على ان الغز كثر عددهم في بلاد الرى ، وشكلوا خطرا على علاء الدولة ، الذى سيطر عليها في غفلة مسعود الغزنوى ، بل ضعف أمره أمامهم ، وفقد سيطرته الفعلية على البلاد ، ومقدت البلاد استقلالها بسبب سيطرة الغز عليها ، ففارق علاء الدولة محمود بلاد الرى في جنح الليل وذهب الى أصفهان ، فاضطرب أهل البلاد ، وتبعوا سيدهم في الهرب

(47) Miles : The Numismatic Hist. of Rayy. pp. 178-188.

(٤٢) العتبى : تاريخ اليمى ج ٢ ص ١٧٩-١٨٠ .

(43) Camb. Med. Hist. of Iran. Vol. 5, pp. 12-13.

وبذلك صفت البلاد للغز ، فنهبوا نهباً فاحشاً ، وسبوا النساء ، « وتفرق الناس في كل مذهب ومهرب » وكان السعيد من نجا بنفسه (٤٤) .

لما ملك الغز الري ، حاصروا همدان ، وكان يحكمها أبو كالجبار ، ابن علاء الدولة محمد بعهد من أبيه ، ورأى أن لا قدرة له بمقاومة الغز ، وصدهم عن بلاده ، فانسحب منها ومعه وجوه التجار وأعيان البلد ، وتحصن بكنكور ، فدخل الغز همدان سنة ٤٢٠ هـ ، ونهبوا نهباً منكراً ، لم يفعلوه بغيرها من البلاد ، وامتد نفوذهم إلى أسد آباد وقرى الدينور ، واستباحوا تلك النواحي ، فخرج اليهم أبو الفتح بن أبي الشوك — صاحب الدينور — فواقعتهم واستظهر عليهم ، وأسر جماعة منهم ، فزاسله أمراؤهم في إطلاقهم فامتنع إلا على صلح وعهود ، فاجابوه وصالحوه وأطلقهم (٤٥) .

كما أن الغز بهمدان راسلوا أبا كالجبار بن علاء الدولة وصالحوه . ودلّبوها إليه العودة إلى بلده ، ومباشرة مهامه بها كحاكم عليها ، وتعهدوا بطاعته والولاء نحوه ، فعاد اليهم ولكنهم لم يلتزموا بما تعهدوا به نحوه ، فثاروا عليه ، ونهبوا أمواله وأمتعته . ولما سمع علاء الدولة محمد بما حل بابنه من السلب والمهانة ، أكبر ذلك وأنكره ، فهاجم الغز المنتشرين في بلاد الجبل ، وظفر بهم ، وقتل منهم الكثيرين وأعمل فيهم السيف ، ومزقهم ممزقاً ، ولم ينج إلا الشريد ، ودخل أصفهان ظافراً (٤٦) منصوراً .

انسحب مسعود بن محمود الغزنوي من بلاد الجبل بعد اضطراب الدولة الغزنوية على اثر وفاة أبيه محمود (٤٧) ، فقد خلف محمد بن محمود أباه بعهد منه على الرغم من أن مسعود أكبر أبناء أبيه ، وقد أساء محمد السيرة ، وحكم البلاد حكماً غاشماً مضطرباً ، وكثرت القلاقل والفتن في الامبراطورية الغزنوية خلال حكمه القصير (٤٨) ، فاستنجد كبار رجسـال

(٤٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٠ هـ .

(٤٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٠ هـ .

(٤٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٠ هـ .

(٤٧) تاريخ البيهقي ص ٧١ .

خوندمير : حبيب السير ج ٢ ص ٢٦ .

(٤٨) تاريخ البيهقي ص ٦ .

الدولة الغزنوية بمسعود وطلبوا منه أن يلى مملكة أبيه ، وتقدم مسعود الى غزنه فعلا ، وخلق أخاه محمد ، وباعه رجال الدولة ، وحصل على تقايد من الخليفة (٤٩) العباسى . وفى خلال تلك الفترة المضطربة ، توسط الأمير البويهى جلال الدولة لدى الخليفة العباسى بخصوص وضع علاء الدولة ، وعقد اتفاق وافق علاء الدولة محمد بمقتضاه أن يلى بلاد الري كنائب للسلطان مسعود الغزنوى ويؤدى له الجزية مقابل حكمه لأصفهان ، و قدرت بعشرين ألف دينار ، وعشرة آلاف ثوب ، من صنع أصفهان ، وهدايا المهجران والنوروز ، وعددا من الخيول العربية مهيئة بمعدات الركوب ، وكل أنواع المعدات الحربية (٥٠) . على أن علاء الدولة لم يلبث بعد عودته الى عاصمته القديمة أن عمل على توسيع سلطانه من مركزه فى أصفهان وهمدان حتى الجبل ، وعثر على درهم ضربه فى يزد فى سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠م عليه اسم الخليفة القادر (٥١) ، وأصبحت يزد أبعد مدينة فى الشرق تابعة للخلافة والكاكويه . ويؤكد ابن الأثير (٥٢) أن يزد كانت تابعة لعلاء الدولة فى ذلك الوقت . ولا توضح العملة تبعية يزد للدولة الغزنوية (٥٣) . ومن المحتمل جدا أن ضرب العملة المذكورة تم خلال فترة سحب علاء الدولة طاعته للسلطان الغزنوى . فعلى العملة — كما ذكرنا — اسم الخليفة واسم علاء الدولة محمد فقط .

ووقت الفرصة علاء الدين محمد لتحقيق مطامعه وأهدافه ، فتداضحرت الدولة الغزنوية فى عهد السلطان مسعود . على أن ازدياد قوة السلاجقة ، وسعيهم الى الاستقلال عن الدولة الغزنوية ، وانتزاع بعض أراضيها (٥٤) ، فحرض علاء الدولة محمد أهل أصفهان على الثورة ضد الحكومة الغزنوية ، وقتلوا والى الغزنوى (٥٥) ، وقتلوا بجنده ، ولا بلغ مسعود عصيان أصفهان وتنكيلهم برجاله ، أنكر ذلك ، وعول على القضاء على التمرد والعصيان ، فقصده أصفهان وحاصرها ، وضيق عليها الحصار ،

(٤٩) خوندميز : حبيب السير ج٢ ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥٠) تاريخ البيهقى ص ١٤ - ١٧ .

(51) Miles : The Coinage of the Kakwayid Dynasty, pp. 93-100.

(٥٢) الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(53) Miles : pp. 93-104.

(٥٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(٥٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتلى والخبر ج٤ ص ٣٧٩ .

واستولى عليها عنوة ، ونكل بالشوار . واستخلف عليها واليا عادلا(٥٦). على أن علاء الدولة لم يتفاض عما جرى لأصفهان، بل عول على استردادها والسيطرة عليها ، فأعد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى أصفهان ، وملكها ، ولم يكف بذلك ، بل استولى على همذان وغيرها من البلاد ، وانتزع الري كذلك ، وسار إلى خوار أدرى وديبوند ، واستولى عليهما من حاكمهما أبو شروان بن منوچهر بن قابوس ، غير أنه لم يهتأ بإسراع سلطانته ، ذلك أن السلطان مسعود الفزنوي أرسل جيشا من خراسان لاسترداد الأراضي التي استولى عليها أثناء الدولة ، واستعاد الفزنويون ديباوند وخوار الري ، وحاصر الجيش الفزنوي الري — بعد ذلك — وضيق عليها الحصار حتى فر علاء الدولة من الري ، ودخلها الجيش الفزنوي سنة ٤٢٣ هـ . وضبط القائد الفزنوي الأمور فيها ، وعادت الري إلى الدولة الفزنوية(٥٧) .

ولكن علاء الدولة محمد لم يستسلم للهزيمة بل اعتزم استعادة سيطرته على البلاد التي انتزعها منه الفزنويون على الرغم من الهزائم المتكررة التي لحقت به(٥٨) فسير إليه السلطان مسعود جيشا لاحتياط محاولاته الانتصالية عن الدولة الفزنوية بقيادة علي بن عمران وباغت الجيش الفزنوي أنصار علاء الدولة في همذان ، وهزمهم شر هزيمة ، وأسر كثيرا منهم ، واستولى على أسلحتهم وأموالهم . على أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد علاء الدولة(٥٩) إذ عاد إلى الثورة من جديد ، منتهرا فرصة عودة أنقائد الفزنوي على بن عمران عن همذان ، وأنقض عليها وملكها ، ولما سار على بن عمران إلى أصفهان لاختصاص الثوار — أنصار علاء الدولة — واستعادة السيطرة الفزنوية عليها(٦٠) . لم يمكنه أهلها من تحقيق هدفه ، فعاد عنها والتقى بعلاء الدولة في عدة ممالك ، وحروب ضارية ، أدت إلى هزيمة الجند الفزنوي ، وعاد على بن عمران مع القوات الفزنوية إلى خراسان ، فسار تائب فرائش — لوالى الفزنوي على خراسان — مع على بن عمران إلى أصفهان والتقت القوات الفزنوية

-
- (٥٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .
 - (٥٧) تاريخ البيهقي ص ٤١٦ .
 - (٥٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .
 - (٥٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتلى والخبر ج٤ ص ٢٧٩ .
 - (٦٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .

مع جند علاء الدولة (٦١) بالقرب من أصفهان ، وانتصر للفزنويون على علاء الدولة سنة ٤٢٣ هـ ، وهزموه شر هزيمة ، فمضى علاء الدولة إلى أصفهان ، وتحصن فيها ، وأعد آعدة لمنع القوات الفزنوية من دخولها (٦٢) .

رأى السلطان مسعود الفزنوي ضرورة التخلص من علاء الدولة كأكويه الذي سيطر على بعض بلدان الدولة الفزنوية ، وتصدى لحل المحاولات التي بذلت لاختصاصه وأرسل جيشاً آخر من خراسان بقيادة أبي سهل الحمدوني ، والتقت القوات الفزنوية مع قوات علاء الدولة في معركة حامية الوطيس سنة ٤٢٥ هـ ، دارت فيها الدائرة على علاء الدولة (٦٣) وتحصن في جبل بالقرب من أصفهان ، فأرسل أبو سهل الحمدوني ، يعرض عليه الأمان ، والكف عن التمرد والعصيان ومنحه بعض البلاد . واصلاح حاله مع السلطان مسعود . لكن علاء الدولة لم يقبل الخضوع للدولة الفزنوية (٦٤) وظل يعمل على استعادة ملكه السليب ، واستقلاله ، وتأكيد سيادته على بلاده ، فسار أبو سهل الحمدوني إلى أصفهان وملكها ، وأنهزم علاء الدولة من بين يديه ، ولما استولى أبو سهل على أصفهان نهب خزائن علاء الدولة وأمواله وكان ابن سينا في خدمة علاء الدولة . فآخذت كتبه ، وحملت إلى غزنه ، وضمت إلى مكتبة القصر الفزنوي (٦٥) .

ومما يجدر ذكره أن علاء الدولة محمد جذب العلماء والأدباء إلى بلاطه ، وسار في ذلك سيرة البويهيين والفزنويين ، وأهم إنجازاته العلمية التي أعطته شهرة كبيرة تشجيعه العالم والفيلسوف الكبير ابن سينا على المقام في بلده ، والدخول في خدمته ، بعد أن كان يعمل عند شمس الدولة البويهى في همدان ، وكتب ابن سينا دائرة معارفه في العلوم بالفارسية في كتابه « دانشى نامه » للأمير الكاكوى . ومما أدى إلى تقوية أواصر الصلة بين الرجلين أن الأمير الكاكوى كان يحب الفلسفة ، ولا يجد حرجاً في تشجيع علمائها ، كما كان الحال بالنسبة لبعض أمراء المسلمين في ذلك العصر ، فشجعه على التأليف والتصنيف (٦٦) .

(٦١) تاريخ البيهقى : ص ٤١٦-٤١٧ .

(٦٢) تاريخ البيهقى : المصدر السابق ص ٥٢٠ .

(٦٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ .

(٦٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٢٨٠ .

(٦٥) ابن الأثير : المصدر السابق نفس حوادث السنة .

(٦٦) العروضى السمرقندى : جهر مقاله ص ٨٢-٨٣ .

ظل علاء الدولة محمد يتحين الفرص للعودة الى أصفهان ، ففى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م باغت الجند الفزنوى بالقرب من أصفهان ، والحق بهم الهزيمة (٦٧) وجمع جمعا من الديلم وسار الى أصفهان ، واشتبك مع القوات الفزنوية فى معركة هزم فيها مرة أخرى ، ففارق أصفهان ، وهو لا يلوى على شيء (٦٨) .

رأى علاء الدولة ضرورة تقوية جيشه بعد ازدياد قوة السلاجقة فى خراسان منذ عهد السلطان محمود الفزنوى ، وضم الى جيشه فريقا من الديلم ، وفريقا من التركمان ، وعقد هدنة مع الفزنويين سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م وكانت الهدنة ضرورة بين الطرفين ، بسبب المتغيرات السياسية ، فالسلطان الفزنوى والأمير الكاكوى يواجهان عدوا مشتركا قوى البأس شديد المراس ، وهو الترك السلاجقة ، ولقد ضرب علاء الدولة محمد عملة فى أصفهان فى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م تظهر تبعيته للسلطان مسعود ، اذ نقش عليها اسم مسعود ثم اسمه هو (٧٠) وتوسط فى عقد هذا الصلح الوزير أبو طاهر محمد بن أيوب — وزير الخليفة القائم — وعاد علاء الدولة محمد الى أداء الجزية — التى قررت عليه من قبل الى الفزنويين .

دولة الكاكويه بعد علاء الدولة محمد :

على أن دولة الكاكويه تعرضت للتمزق والانقسام بعد وفاة صاحبها ، علاء الدولة محمد سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م ، فقد خلفه فى حكم أصفهان ابنه ظهير الدين أبو منصور فرامرز — وهو أكبر أولاده — وأطاعه الجند بها ، على أن أخاه كاليجار كرشاسب سار الى نهاوند ، وأقام بها ، وحفظها وضبط أعمال الجبل ، وحكم هذه البلاد مستقلا بها عن أخيه فرامرز الذى أمسك عنه ، ولم يتعرض له بسوء (٧١) وتركه وشأنه . كما أن مستحفظا بقلعة نطنز امتنع عن إرسال الأموال المقررة عليه الى فرامرز :

(٦٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧ هـ .

(٦٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخير ج ٤ ص ٣٨٠ .

(٦٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧ هـ .

(70) Miles : The Coinage of the Kakwayhid Dynasty. pp. 97-100.

(٧١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٣ هـ .

وأظهر التمرد والعصيان فعول فرامرز على سحق تمرده ، فسار اليه مع أخيه الأصغر أبى حرب لينتزعا القلعة منه ، فصعد أبو حرب الى القلعة ، واشتبك مع المستحفظ المتمرّد ، غير أن أبى حرب استقل بالقلعة عن أخيه فرامرز بعد أن سيطر عليها . واشتبك الأخوان في عدة معارك ، دارت فيها الدائرة على أبى حرب بالقرب من أصفهان ، ولم يكتف فرامرز بذلك . بل تقدم الى قلعة نطنز ، وحاصرها ، وشدّد عليها الحصار ، فلما رأى أبو حرب أن لا طاقة له بجند أخيه ، فر من القلعة متخفيا ، وسار الى الملك أبى كاليجار — صاحب فارس — في شیراز ، وكان بها أخوه الأمير فرامرز ، وحاصر البلدة ، وضيق عليها . وجرى بين الفريقين عدة وقائع ، انتهت بعقد صلح بين الأخوين بمقتضاه يعود أبو حرب الى قلعة نطنز ، ويحكمها نيابة عن أخيه فرامرز (٧٢) .

قوى أمر فرامرز بعد أن خضع له أخوه أبو حرب فسار الى همدان وبروجرد ، ولستولى عليها ، ولما رأى أخوه الآخر كرشاسب أن لا طاقة له بالتعرض لأخيه ، كف عن التعرض له ، وصالحه ، وأعلن ولاءه وطاعته له ، وأقام الخطبة له في همدان والبلاد الخاضعة له (٧٣) ، وبذلك اجتمعت كلمة الأخوة الثلاثة أبناء علاء الدولة واتحدوا في دولة واحدة ، تخضع لحاكم واحد هو أبو منصور فرامرز .

على أن دولة الكاكويه لم تكد تفيق من الانقسامات التي حلت بها بسبب الصراع والنزاع بين الأخوة الثلاثة حتى واجهت خطرا أشد وأقسى من سابقتها ، وهذا الخطر يكمن في ازدياد نفوذ الأتراك السلاجقة وتطلعهم الى السيطرة على بلدان دولة الكاكويه (٧٤) .

يرجع أصل السلاجقة الى الترك الذين كانوا يقيمون في السجستان الواسعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين ، وكثرت هجراتهم الى شواطئ جيحون ، وظهروا نشاطا ملحوظا في الجهات

(٧٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .

(٧٣) ابن الاثير : المصدر السابق .

(٧٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .

انتى هاجروا اليها : (٧٥) وظل امرهم فى صعود فى بلاد ما وراء النهر ، (٧٦) وبرز من قادة السلاجقة الاخوة بيغو وطفربك محمد وجغرى بك داود (٧٧) وقد اذن لهم السلطان محمود الغزنوى بالاقامة فى الاراضى المحيطة ببخارى ، ولم يكن هناك خطر على الدولة الغزنوية من ناحية السلاجقة فى عهد محمود الغزنوى (٧٨) ، على أن مسعود بن محمود لم يستطع وقف اطماعهم فى الدولة الغزنوية ، وقد الحقوا به الهزيمة سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م ، واستهان السلطان مسعود بما حدث رغم تحذير مستشاريه — بعدم ترك خراسان لهؤلاء الطامعين المغامرين ، بل عمد الى مصالحتهم بشروط سهلة ، حتى يستطيع التفرغ بعد ذلك لاحدى غزواته فى بلاد الهند (٨٠) وكان من اثر هذه السياسة أن افلتت الأمور من ايدى السلطان مسعود عندما عاد من الهند ، فما لبث ان سيطر طغرل على خراسان بعد ان هزم الغزنويين فى موقعة داندافتان سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠م (٨١) وأصبحت الدولة السلجوقية — على اثر ذلك — حقيقة واقعة .

اتخذ طغرل — أول سلاطين آل سلجوق — سياسة ادت الى تقوية شأن دولته ، فقد عهد الى افراد من ابناء أسرته بحكم ولايات الدولة وأمرهم بالعمل على توطيد الحكم السلجوقى بها ، وتوسيع رقعة هذه الولايات بالعمل على ضم الاراضى اليها (٨٢) .

زحف ابراهيم ينال الى الرى ، واستولى عليها ، ولما وطد اقدام السلاجقة بها ، سار عنها ، وملك البلاد المجاورة لها ، ثم سار الى بروجرد ، وسيطر عليها ، ثم قصد همدان ، فغادرها أبو المهاجر كرشاسب ابن علاء الدولة ، واستولى ابراهيم ينال على همدان ، وطلب أهلها منه

(75) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 1.

(٧٦) الراوندى : راحة الصدور رواية السرور ص ١٤٥ .

(77) Camb. Med. Hist. Vol. IV. p. 303.

(٧٨) براون : تاريخ الادب الفارسى ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٤ .

(٧٩) تاريخ البيهقى : ص ٢٨١ - ٢٨٥ .

(80) Lanc Poole : Medieval India. p. 44.

(٨١) الحسينى : اخبار الدولة السلجوقية ص ١١ .

(82) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 61.

عدم إعادة كرشاسب اليهم ، لما قاسوه من ظلمه وجوره (٨٣) واتخذ طغرل مدينة الري حاضرة لدولته . توجه ابراهيم ينال — بعد ذلك — الى سابور خواست ، وكان كرشاسب قد فر اليها — فصعد الى قلعة البلدة ، وتحصن بها وقا تل القائد السلجوقي أهل البلدة ، ودارت بين السلاجقة وبينهم معارك متعددة ، استبسل فيها سكان سابور خواست وكان يحدوهم خوئهم من سيطرة الغز السلاجقة عليهم لشدة بطشهم ، وظلمهم ، وانتهت المعارك بهزيمة السلاجقة وانسحابهم الى الري (٨٤) .

عاد كرشاسب الى همذان بعد انسحاب السلاجقة منها ، أما طغرل بك — سلطان السلاجقة — فقد تسلم الري وبلاد الجبل من قاداته السلاجقة ، واستولى على قلعة طبرك ، وكان يقيم بها مجد الدولة البويهى ، وأمر بتعمير مدينة الري ، بعد أن لحقها الخراب والدمار من كثرة الحروب ، ثم سار الى همذان ، واستعاد سيطرة السلاجقة عليها من كرشاسب ، ثم عاد طغرل الى الري ، وولى كرشاسب لئرى نيابة عنه . (٨٥) سنة ٤٣٥ هـ وبذلك الت بعض ممتلكات الكاكوية الى السلاجقة .

ولم يكتف السلاجقة بذلك ، بل تطلعوا الى السيطرة على أصفهان ، وانتزاعها من صاحبها أبى منصور فرامرز ، ودارت معارك متعددة بين السلاجقة وقوات فرامرز ، انتصر فيها السلاجقة ، وعقد صلح بين طغرل بك — سلطان السلاجقة — وفرامرز ، بمقتضاه قبل فرامرز الخضوع للسلاجقة ، وإداء جزية سنوية للسلطان وإقامة الخطبة لطغرل بك على منابر أصفهان ، وبذلك خضعت دولة الكاكوية للسلاجقة سنة ٤٣٨ هـ (٨٦) .

على أن ابا منصور فرامرز قد ساء ضياع استقلال بلاده ، وسيطرة السلاجقة عليها وانضواؤه تحت لواء السلاجقة ، بعد أن كان يحكم بلدانه حكما مستقلا، لذلك كان غير ثابت على طريقة واحدة مع السلطان طغرل بك، كان يكثر التلون معه ، تارة يطيعه وينحاز اليه ، وتارة ينحرف عنه ،

(٨٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٢٤ هـ .

(٨٤) ابن الاثير : المصدر السابق حوادث سنة ٤٢٤ هـ .

(٨٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .

(٨٦) ابن الاثير : المصدر السابق حوادث سنة ٤٢٨ هـ .

ويخلع طاعته ، وينحاز الى الملك الرحيم البويهى ، فأخسر له طفرلوت
التخلص منه ، فعاد الى أصفهان لخلع فرامرز منها وتأكيد سيادته عليها ،
وشدد الحصار على أصفهان ، وأعد فرامرز السدة لمقاومة السلطان
السلجوقى ، وظل طفرل يحاصر أصفهان حوالى سنة ، ولما طال الحصار
على أصفهان ، والحق السلاجقة الخراب والدمار بأعمالها ، اشتد الضيق
بالاهلين وارتفعت الأسعار ، وقاسى الناس الويلات من هول الحصار ،
ونفذ صبر صاحبها فرامرز ، لذلك أرسل أهل أصفهان الى السلطان
السلجوقى يذللون له الطاعة والولاء ويعرضون عليه المال ، وكل ما يطلبه
في مقابل الكف عنهم ، ورفع الحصار عن بلدهم ، ولكنه رفض ، ولم يقنع
منهم الا بتسليم البلد (٨٧) . وظل محاصرا لأصفهان ، وشدد عليها الحصار
حتى نفذت منها الأقوات ، وانقطعت عنها الامدادات . ولما ضعفت مقاومة
أهل أصفهان ، أرسل طفرل الى صاحبها فرامرز يدعوه الى التسليم .
ويحذره من العناد ، ويعرض عليه بلدا عوضا عن أصفهان ويقول : مع انك
سليل أسرة حاكمة عريقة ، الا انك لا تمتلك جيشا يستطيع التصدى
لحاريك وعندى جيش أكبر من ان يحصى ، وأنا أرغب فى الاستقرار فى
أصفهان ، والمدينة تسليمها لى أصبح امرا سهلا ميسورا ، فسلم المدينة ،
وأنا أعطيك بدلا منها فى العراق أو أى بلد شئت . فاجاب المنصور فرامرز
لدعوة طفرل بالتسليم ، وطلب منه منحه مدينة يزد وبرقويه ، ينتقل
اليها ويقيم فيها . واصطلى الرجلان على هذه الشروط (٨٨) ودخل فرامرز
يزد بفرقته الديلميه ، وشيد بها قصرا منيعا له وعهد الى قواده بإقامته
سور حول البلدة له أربعة ابواب ، كما شيد المسجد الجامع للمدينة ،
وشيد له مئذنة ، وهذه أول مئذنة شيدتها يزد وأقام فرامرز القنوات فى
المدينة لتيسير وصول المياه الى بيوتها ، وشيد المدارس ، وسرعان ما
انتشر العمران فى يزد ، فأقيمت فيها القصور والدور ، وانتقل الناس من
الترى المجاورة اليها ، وبأشر قواد فرامرز حركة للنشاط العمرانى فى
البلدة . وقام فرامرز بتيسير سبل الترى فى القرى التابعة ليزد ، فازدهرت
بها الزراعة ، وعم الرخاء . كذلك حرص خليفته وابنه على مواصلة
سياسة ابيه العمرانية والاصلاحية فى يزد ، فاعاد بناء المسجد الجامع ،
وأقام به مكتبة كبيرة ، وأنشأ عدة مدارس . وبذلك أدى حكم الكاكويه
يزد الى بعثها من جديد ، فقد كانت بلدا متخلفا لا تمتد اليها يد الاصلاح

(٨٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٨ هـ .

Bosworth : Camb. Hist. of Iran. Vol. V. p. 129.

وبعيدة عن اعين الحكام والولاة ، غلما حكمها الكاكوية ازدهرت عمرانيسا
رئاساديا واجتماعيا وثقافيا ، وكثر عدد سكانها (٨٩) .

دخل طغرل بك اصفهان سنة ٤٤٢هـ (٩٠) ومنع جنده من التمرض
لاهلها ، وعفا عن اهلها ، وخلع ابا منصور فرامرز من اصفهان — كما
قلنا — واسند اليه يزد وابرقويه (٩١) ، وقد احب طغرل اصفهان ،
واستطاعها ونقل اليها ما كان له بالرى من مال وذخائر وسلاح ، وجعلها
دار مقامه . وخرّب اسوارها ودمرها وقال : انما يحتاج الى الاسوار من
تضعف قوته . فاما من حصنه عساكره وسيفه ، فلا حاجة به اليها (٩٢) .

وتحدث مؤرخ فارسي عن وزير فارسي يسمى أبو الفتح الرازي ،
كان وزيرا لعلاء الدولة محمد ثم لابنه فرامرز ، الذي ارسله الى طغرل في
بعثة دبلوماسية ، وأعجب طغرل بحنكته ومقدرته ، وادخله في خدمته ،
فغضب فرامرز لذلك ، وصادر أموال هذا الوزير الذي اعتبره خائنا له ،
ودمر منزله في اصفهان ، ولما استولى طغرل على اصفهان ، عهد الى
الرازي بجمع مائة ألف دينار جزية مفروضة على اصفهان . على ان هذا
الوزير لم يلبث ان تخلى عن خدمة السلاجقة ، ودخل في خدمة
البويهيين (٩٣) .

دولة الكاكوية الثانية :

ومعلوماتنا عن الكاكوية — على اثر انتقالهم الى يزد — شامضة كل
الغموض ، مضطربة غاية الاضطراب ، وكل ما نعرفه عن فرامرز في يزد
تنحصر في انجازاته العمرانية فيها — كما قلنا — واظهارها بإبهى معالم

(89) IBID. p. 129.

(90) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 43.

(٩١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٤٢ هـ (ابرقويه : مدينة قريبة من
يزد ، حصينة ، كثيرة الزحمة ، مشتركة البناء ، ليس حولها شجر ولا بساتين ،
وهي خصبة وياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٧٠) .

(92) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 58

(٩٣) هندوشاه بن سنجر : تجارب السلف — نشره عباس اقبال ص ٢٦٠ — ٢٦١ :
Notes on Early Seljuqid Viziers. pp. 105-110.

الزينة . وهذه المعلومات متناثرة في ما رواه المؤرخون المحليون عن يزيد .
وكان يلقب في السنوات الأخيرة من حكمه بلقب شمس الملك (٩٤) .

وكان الكاكوية في الحقبة الثانية من تاريخهم يحكمون يزيد وأبرقويه —
وكما قلنا فهذه الفترة التاريخية من حكمهم غامضة على العكس من الفترة
الأولى التي حكم فيها الكاكويه أصفهان وهمدان ، فقد كتب ابن الأثير
والبيهقي تفصيلات كثيرة عن هذه الحقبة . أما الفترة الثانية فالمعلومات
عنها مبعثرة في كتب التاريخ المحلية ، وفي كتاب الكامل في التاريخ لابن
الأثير . ومن الثابت أن الكاكوية اللاحقين لم يمتلكوا الحق في ضرب الذهب
والفضة عملة (٩٥) .

ولا نعرف على وجه التحديد سنة وفاة فرامرز ، إلا أنه من المؤكد أنه
توفي بعد عام ٤٥٥ هـ ، ودليلنا على ذلك ما ذكره ابن الأثير (٩٦) « أن
السلطان السلجوقي طغرل بك زار الخليفة العباسي القائم في بغداد سنة
٤٥٥ هـ ومعه بعض الأمراء والقادة ، ومن بينهم فرامرز » .

لما توفي أبو منصور فرامرز ، خلفه في حكم يزيد ابنه مؤيد الدولة
علاء الدولة عضد الدولة على ، وقد حرص على تقوية أواصر الصلة
بالسلالة ، وجدير بالذكر أن الكاكوية المتأخرين كانوا يحظون بمحبة
وتأييد السلالة كورثة لأسرة حاكمة عريقة ، وتواجههم من السلالة .

وفي سنة ٤٦٩ هـ — ١١٧٦ — ١١٧٧ م تزوج علاء الدولة على من
أرسلان خاتون ابنة داود أخى السلطان طغرل وهذه السيدة كانت زوجة
للخليفة العباسي القائم (٩٧) ، وبذلك استبدلت القرشي بالديلمي والامام
بالبربري .

(٩٤) البنداري : تاريخ دول سلجوق ص ١٢٣ .
(٩٥) Miles : The Coinage of the Kakwayhid Dynasty, p. 97.

(٩٦) الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٥٥ هـ .
(٩٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٦٧ هـ ، البنداري : تاريخ دولة آل
سلجوق ص ٢٥ (كان علاء الدولة على تلميذا مخلصا للشاعر السلجوقي محمد بن الملك
النيسابوري وكان هو أيضا شغوفا بالشعر ، ومقربا إلى ملكشاه وقدم الشاعر إلى
السلطان السلجوقي ، وأدى ذلك إلى شهرته ، وقدم ثلاث قصائد للامير الكاكوي مدحا
فيه وفي أسرته) .

على ان انتقال الكاكوية الى يزد ، وتحالفهم مع السلاجقة هيا لهم
سلاما لم يحظ به اباؤهم الاولون ، وهذا السلام أسهم في اصلاح احوال
بلادهم .

أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانحيار بعد وفاة السلطان
ملكشاه ، وتنافس الامراء السلاجقة حول الوصول الى عرش السلطنة .
الأمر الذى احدث انقساماً شديداً بين ابناء البيت السلجوقى ، وبدأت هذه
الخلافات والمنازعات بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ بين
بركياروق — الابن الأكبر للملكشاه — وأخيه محمود ، وانتهى بانتصار
بركياروق وتوليته السلطنة (٩٨) .

على ان الأمور لم تستتب لبركياروق ، فقد طالب عمه تتش —
صاحب الشام — بالعرش ، واستولى على بلاد الجزيرة ، وسار الى
أذربيجان ، ودارت الحرب بينه وبين بركياروق ، وانضم علاء الدولة
على — أمير يزد — الى جانب تتش ، ودارت الحرب سنة ٤٨٨ هـ /
١٠٩٥ م بين بركياروق وتتش بالقرب من الري ، وانتهت بهزيمة تتش
وقتل في الواقعة ، علاء الدولة على — أمير يزد، (٩٩) وخلفه ابنه أبو
كاليجار كرشاسب علاء الدولة عضد الدين فى حكم يزد ، (١٠٠) وكان
يحظى بعطف وتأييد السلطان محمد بن ملكشاه ، وتزوج أخت سنجر
ومحمد سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م (١٠١) ولما توفى محمد بن ملكشاه سنة
٥١١ هـ / ١١١٨ م ، قويت العلاقة بين ابنه محمود ، وأبى كاليجار
كرشاسب ، وابقاه السلطان السلجوقى فى بلاطه كمستشار له ، وكواحد
من أخوته (١٠٢) .

على ان نفوذ أبى كاليجار فى البلاط لم يلبث ان انتضى فقد سعى
بعض رجال الدولة بأمير يزد واقبلوا فى اساءة العلاقات بين السلطان
السلجوقى وأمير يزد ، بل أرسل السلطان السلجوقى حملة عسكرية الى

(٩٨) الراوندى : راحة المصور ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٩٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٨٨ هـ .

(١٠٠) مجمل التواريخ ص ٤٠٩ .

(١٠١) ابن الأثير : المصدر السابق حوادث سنة ١١ هـ .

(102) Camb. Hist. of Iran. Vol. V. p. 115.

يزد ، وتحصن أمبرها أبو كاليجار في إحدى القلاع المجاورة ، غير أن القوات السلجوقية الحقت به الهزيمة (١٠٣) ، وعزله السلطان محمود السلجوقي عن يزد ، وعهد بحكمها إلى قراجة الساقى — أتابك فارس — .

رأى أبو كاليجار كرشاسب أن يتحالف مع سنجر ضد أخيه محمود الذى عزله عن ولايته ، ووافقه الفرصة حين نشبت الحرب بين محمود بن محمد بن ملكشاه وبين عمه سنجر ، وكان سببها أن السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه — أخا سنجر — لما توفى ، خلفه ابنه محمود فى السلطنة ، فاستنكر سنجر ذلك وعظم عليه ، وعول على قصد بلاد الجبل والعراق ، وانتزاعها من أخيه محمود واعد جيشا لمحاربتة ، وانضم إليه علاء الدولة كرشاسب ، وعرف سنجر الأحوال ، وأطرق إلى قصد البلاد ، وما فعله الأمراء من أخذ الأموال ، وما هم عليه من اختلاف الأهواء . والتقى سنجر مع ابن أخيه بالقرب من ساوه فى معركة انتهت بهزيمة محمود بن ملكشاه سنة ٥١٣ هـ / ١١٩ م ، وعقد صلح بين سنجر وابن أخيه ، وكتب سنجر إلى سائر ولايات الدولة السلجوقية بأن تقام الخطبة له قبل محمود بن محمد بن ملكشاه واعاد سنجر خليفه كرشاسب إلى يزد (١٠٤) واستقبله أهلها أحسن استقبال (١٠٥) .

ظل كرشاسب يحكم يزد حتى مقتله سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٨ م وهو يحارب الخطا إلى جانب سنجر (١٠٦)

وهذا يشير بوضوح إلى حقيقة على بن فرامرز الذى توفى وهو يحارب تتش بن الب أرسلان منذ أكثر من نصف قرن ، وتضطرب بعض الروايات ، وتشير إلى أنه كرشاسب الذى نتحدث عنه ، على كل حال حكم كرشاسب

(102) Le Strange : The Lands of the Eastern Calipha.

(١٠٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(١٠٥) مجمل التواريخ ص ٤١٤ .

(١٠٦) البندارى . تاريخ دولة سلجوقي ص ١٣٣ - ١٣٤ (ويذكر ابن الأثير أن سبب هذه الحرب أن سنجر قتل ابنا للسلطان الخوارزمى اتسز فحرض الخطا — الذين يحكمون — وراء النهر وقتل — على قصد مملكة السلطان سنجر . ودار قتال هرير بين سنجر والخطا انتهى بهزيمة السلاجقة ، وقتل من جند سنجر عدة آلاف)
• الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٣٦ هـ .

يزد حوالى ٥٠ عاما وزينت بالحدائق الفناء وأعاد بناء المسجد الجامع (١٠٧) .

حكم يزد بعد وفاة كرشاسب ابنته بعهد من السلطان السلجوقي سنجر ، واقر خليفته أرسلان بن طغرل فى يزد ابنة كرشاسب ، وعين لها أتابكا ، وعليه مسئولية الأمن والطمأنينة فى الدولة ، وهذا الأتابك من كبار قادة السلاجقة ، ويسمى ركن الدين سام بن وردان ، وظل أتابكا فترة من الوقت ، أدار خلالها البلاد فى حكمة وروية ، وعين القواد أخاه عز الدين لشكر سنة ٥٩٠هـ أتابكا خلفا له وهو قائد شجاع ، خاض عدة حروب بكفاءة قتالية . وبذلك انتهى حكم الكاكويه ، وحكم يزد الأتابكة حتى نهاية القرن السابع الهجرى — حيث غزاهم المغول ، واستولوا على يزد وخلصوا آخر أتابكتها طغان شاه (١٠٨) .

ومن دراستنا لتاريخ الكاكويه فى يزد نواجه صعوبات كثيرة ، ترجع الى ان الكتاب المحليين الذين كتبوا عن يزد لم يعاصروا أمراء الكاكويه . بل ان أذربهم انى هؤلاء الأمراء ، هو جعفر بن محمد ، يكتب بعد ثلاثة قرون أو أكثر من حكم هذه الأسرة ، والذي كتب بعده عن يزد ، أحمد بن حسين بن على الكاتب ، ومحمد مفيد مستوفى (١٠٨) ونقل هذان المؤلفان عن جعفر ، وكررا الأخطاء التى وقع فيها ، والمعروف أن محمد مفيد مستوفى يكتب بعد جعفر بن محمد بحوالى قرنين ونصف ، وبعد ست قرون من الأحداث المذكورة ، ومشكلته أنه يستمد مادته من محمد بن حسين وليس مباشرة عن جعفر ، لذلك فمن الملاحظ ان أخطاءه التاريخية أكثر خطورة من أخطاء جعفر (١١٠) وعلى ذلك فنحن تجنبنا للوقوع فى الخطأ ، وحرصا على الوصول الى الحقيقة نضطر الى مطابقة ما أورده هؤلاء المؤرخون المحليون الذين ذكرناهم — مع المصادر المعاصرة أو القريبة من المعاصرة مثل كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير أو كتاب مجمل التواريخ ، فإذا وجدناها مطابقة أخذنا بها واعتمدنا عليها وإذا لم تطابق نرفضها ، ونعتمد

(١٠٧) جعفر بن محمد : تاريخ يزد ص ٢١ — ٢٢ .

(١٠٨) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ج٢ ص ٢٧٩ .

(١٠٩) كتب أحمد بن حسين ، كتاب تاريخ يزد الجديد ، وكتب محمد مفيد كتاب الجامع المفيد .

على الأتق التاريخية المعاصرة أو القريبة من المعاصرة ، لأنها أقرب الى
الصواب من الأتق التاريخية المحلية . وعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر
أحمد بن حسين أن علاء الدولة محمد هو ابن مجد الدولة البويهى . والصحيح
أنه محمد بن شمنزيار . ويذكر أن فرامرز تزوج أرسلان خاتون والصحيح
أن الذى تزوجها ابنه على . ونلاحظ أيضا الخلط بين على بن فرامرز الذى
توفى سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وكرشاسب الذى قتل سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٨ م
فى كتب هؤلاء المؤرخين المحليين .

الباب الثاني

١ - الدولة الفزنوية .

تمهيد : قيام الدولة الفزنوية .

(١) سياسة الفزنويين في توطيد سلطانهم .

(ب) الأحداث الداخلية .

(ج) العلاقات الخارجية للدولة الفزنوية .

(د) النهضة الثقافية للدولة الفزنوية .

(هـ) ضعف الدولة الفزنوية وانهارها .

٢ - الدولة السلجوقية .

٣ - دول اتابكة الموصل والجزيرة .

٤ - الدولة الاسماعيلية في ايران .

٥ - الدولة الخوارزمية .

٦ - سقوط الخلافة العباسية .

السبب الثاني

١ - الدولة الغزنوية

تهديد : قيام الدولة الغزنوية :

قلنا ان السامانيين اعتمدوا على الأتراك في أمور دولتهم ، فكان قوام جيشهم منهم ، ولولهم المناصب العسكرية والمدنية الرفيعة ، فزاد نفوذهم ، وعلا شأنهم في دولة آل سامان . والمعروف أن الأتراك من العناصر التي كانت مصدرا للتلاقل والاضطرابات في الدول التي استعانت بهم ، ومن بينها الدولة السامانية ، فقد اضعفوها ، وعملوا على زوالها (١) .

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين ارتفع شأنهم في الدولة السامانية ، البتكين ، كان يصل في الجيش الساماني (٢) ، وما زال يرتقى في سلك الوظائف حتى ولى منصب حاجب الحجاب للأمير عبد الملك بن فوج (٣٤٣-٣٥٠هـ/٩٥٤-٩٦١م) ، ومن ثم ارتفع شأنه ، وازداد نفوذه في الدولة السامانية حتى أن الوزير كان يأتمر بأمره (٣) ، ويلتزم بتنفيذ تعليماته وتوجيهاته (٤) .

لم تصف الأمور للبتكين ، إذ خشي الأمير عبد الملك بأسه ، فعول على ابعاده عن حاضرة دولته ، فأسند اليه ولاية خراسان في عام ٣٤٩ هـ / ٩٦١م (٥) . ولما توفي الأمير عبد الملك سنة ٣٥٠ هـ سنة ٩٦١م تشاور الأمراء في الدولة السامانية مع البتكين — الذي كان أكبرهم شأن — يراه مناسبا لتوايه أمر الدولة السامانية . فوقع اختيار البتكين على دعم الأمير

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من ٨٥٠

(2) Habib : Sultan Mahmud of Ghazni. p. 12.

(3) E. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 7.

(4) Ency. of Islam. Art Alb-Tegin.

(٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١١٨ .

المثوقى ، ورفض اختيار منصور بن نوح خلفا لأخيه ، لأنه شاب حدث لم تحنكه التجارب . على أن اقتراح البتكين لم يعمل به ، ذلك أن الأمراء ولوا منصورا دون أن ينتظروا وصول رد البتكين (٦) . لذلك نشأ العداء بين الأمير الجديد ، منصور بن نوح وبين البتكين ، الذى رفض اختياره — كما قلنا — أميرا على السامانيين ، ولم تجد محاولات البتكين التودد للأمير السامانى (٧) .

خشى الأمير منصور من انتفاض البتكين عليه فى خراسان فاستدعاه الى بلاطه ، ولما علم البتكين أن الأمير السامانى يضره له السوء ، رفض التوجه اليه ، وأظهر التمرد والعصيان فعزله منصور عن خراسان ، وأسند ولايتها الى أبى الحسين سيمجور ، فقصد البتكين بلخ (٨) . وعول الأمير السامانى على إخضاع هذا القائد الثائر ، فأرسل اليه جيشا ، اشتبك معه وهزمه ، فتوجه البتكين الى غزنة (٩) ، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها السامانى ، أبو بكر لوبك ، ولم يكتف بذلك بل غزا زابلستان وأقام بها إمارة مستقلة عن سادته السامانيين عاصمتها غزنة (١٠) . على أن الأمير منصور السامانى لم يقف مكتوف اليدين إزاء تمرد البتكين (١١) ، فبذل عدة محاولات لسحق تمرده ، باءت كلها بالفشل ، فكف عنه (١٢) . وبذلك قوى شأن البتكين فى إمارته ، وتوطد فيها سلطانه .

ولما توفى البتكين سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م خلفه فى حكم غزنة ابنه أبو اسحق ابراهيم — قائد جيوش خراسان السامانية — غير أنه لم يستطع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنه (١٣) ، اذ ثار عليه أهلها ، وطرده من بلدهم ، فاستجد بالأمير منصور بن نوح ، فأمدّه بجيش مكنه من

(٦) الترشيحي : تاريخ بخارى ص ١٤٣ .

(٧) قاميرى : تاريخ بخارى ص ١٤٣ .

(٨) الترشيحي : تاريخ بخارى ص ١٤٣ .

(٩) قاميرى : تاريخ بخارى ص ١١٢ .

(١٠) الترشيحي : تاريخ بخارى ص ١٤٣ .

(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٣٥١ هـ .

Ency. of Islam. Art Ghaznayids.

(١٢) العروض السمورقندى : جهاز مقياس ٢٣ .

(١٣) العتبى : تاريخ اليميني ج١ ص ٥٦ .

استرداد غزنة ، وحكمها باسم السامانيين (١٤) . وبذلك استرد السامانيون نفوذهم على غزنة .

على أن أبا اسحق لم يلبث أن توفي دون أن يترك وريثا يعقبه في حكم غزنه ، فحكمها بلكاتكين — أحد مماليكه — وضرب النقود باسمه في غزنه سنة ١٦٩/٥٣٥٩م وخلف بيرى بلكاتكين ، وهو فيما يبدو من أهالي غزنه ، غير أنه لم يستطع القيام بعباء الحكم فنار عليه الجند ، وخلعوا طاعته (١٥) ، ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنه ، فلم يروا أفضل من سبكتكين (١٦) لما عرفوه من عقله ودينه وكماله خلال فيه وصرامته . ومما يجدر ذكره أن سبكتكين هو أحد موالى البكتكين (١٧) ، وكان حاجبا لابنه أبى اسحق « وعليه مدار أموره ، وبيده منازم شؤونه » وولى سبكتكين إمارة غزنه سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م (١٨) .

لما أفضى الأمر الى سبكتكين ، استطاع بحسن سياسته ، وبعد همته اكتساب محبة الرعية وأمرأ البلاد المجاورة له ، ولم يلبث الخليفة العباسي أن اعترف بحكومته ، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالمصطفة الشرعية ، وتحققت أمنية له طالما اختلجت في صدره ، فتلقب بناصر الدولة ، وبعث له الخليفة بالمعتد والخلع التقليدي ، وأصبح سبكتكين المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية الشرعية (١٩) . وعلى الرغم من استقلاله الفعلي فقد ظل يظهر ولاءه للسامانيين (٢٠) .

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنه ، بل عمل على بسط نفوذه على البلاد المجاورة (٢١) ، فبسط سيطرته على قصدار القرية من غزنه (٢٢) كما

(14) Ency. of Islam. Art Ghaznayids.

(١٥) ابن خلكان : وفیات الاعیان ج٤ ص ٢٦٤ .

(١٦) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٥٧ .

(١٧) ابن الأثير الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٦٧ هـ .

(17) Cambridge History of Iran. p. 6.

(١٨) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٥٨ .

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ١٢٢ .

(١٩) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٦٣ .

(20) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties p. 286.

(21) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 18.

(٢٢) خوندميز : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ج٢ ص ١٨ .

سيطر على خراسان (٢٣) ، وشرع في غزو أطراف الهند ، وسيطر على كثير من المعاقل والحصون هناك « فانتصت ولايته » ، وعمرت أرض خزانته . وأشرفت النفوس هيباً (٢٤) ، وتوفي ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م وأليه يرجع الفضل في وضع أساس إمبراطورية الغزنويين ، إذ امتد سلطانه إلى ناحية الهند حيث أسس بها حكومة في بشاور ، كما امتد نفوذه باستيلائه على خراسان وما إليها (٢٥) .

على أن الدولة الغزنوية كانت لا تزال على ولائها للأمراء السامانيين ، يلتزمون بالوقوف إلى جانبهم ضد أي اعتداء يقع عليهم ، ولما ازداد ضعف الأمراء السامانيين ، وطمع فيهم أمراء البلاد المجاورة لهم ، لم ير الغزنويون بدا من الاستيلاء على البقية الباقية من ملك آل سامان ، وتوسيع رقعة دولتهم على حساب الدولة السامانية المتداعية (٢٦) .

ذلك أن الأمير الساماني نوح بن منصور استاء من موقف أبي على سيمجور - وأليه على خراسان - الذي رفض إرسال الأموال المقررة عليه للأمير الساماني ، ولما خشي وإلى خراسان من عاقبة تصرفه مع الأمير نوح بن منصور حرص بفراخان - ملك الترك - على غزو بخارى ، وانتزاعها من آل سامان لكن بفراخان بعد أن دخل بخارى ، لم يستطع البقاء فيها ، فسار عنها وعاد الأمير نوح إليها (٢٧) .

على أن أبا على استطاع أن يضم إليه بعض الأمراء المنشقين على الدولة السامانية ، ومن أبرزهم فائق ، وأصبحوا خطراً يهدد سيادة السامانيين ، فاستنجد الأمير نوح على هؤلاء المصاة بالأمير سبكتكين سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م وولاه خراسان ، فاستجاب سبكتكين لمشيئة الأمير (٢٨) الساماني وهب لمساعدته في التخلص من أعدائه ، وأعد العدة لذلك ، أما

(٢٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٦٢ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٦٦ هـ .

(٢٥) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٣٤ .

(26) Browne : A Literary History of Persia Vol. II. p. 371-372.

(٢٧) العتبي : تاريخ اليميني ١ ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٢٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٤ هـ .

أعداء الأمير فاستنجتوا بالأمير فخر الدولة بن بويه وسير الليم عسكرا
كثيفا ، والتقى الأمير نوح ومعه سبكتكين وابنه محمود في معركة ضد أبي
على سيمجور وفائق بنواحي هراة ، دارت فيها الدائرة على أعداء الدولة
السامانية ، سار الأمير نوح وسبكتكين إلى نيسابور . واستولوا (٢٩)
عليها واستعمل نوح على نيسابور وجيوش خراسان ، محمود بن
سبكتكين ، ولقبه سيف الدولة ، ولقب أباه — سبكتكين — ناصر الدولة .
وعاد نوح ظافرا على أعدائه إلى حاضرة دولته بخارى . بينما بقي سبكتكين
في هراة ، وأقام محمود في نيسابور (٣٠) .

على أن أباه على وفائقا لم يركنا إلى الهزيمة ، بل عاد إلى الإغارة
على خراسان ، ففي سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م وفي ظاهر نيسابور اشتبك هذا
القائدان مع محمود بن سبكتكين — وكان في قلة من الرجال — فانهمز
وانسحب إلى هراة ، ملتبجا إلى أبيه بعد أن تكبد خسائر فادحة (٣١) .

انف الأمير سبكتكين من الهزيمة التي لحقت بابنه محمود ، وعول
على إخضاع أعداء الدولة السامانية ، فجمع جيشا كبيرا وسار نحوهم ،
والتقى بهم في طوس ، واقتتلوا يوما كاملا وأنجد محمود أباه بعسكر كثيف ،
وهزم الأعداء وقتل منهم خلقا كثيرا ، ولأد أبو على وفائق بالفرار (٣٢) .

وبذلك أمدت الدولة السامانية من شر هذا العصيان بفضل جهود
الأمير سبكتكين وابنه محمود .

لكن الدولة السامانية لم تنعم بالأمن والسلام طويلا ، فقد أخذت في
الضعف والانحلال مما أطمع أمراء البلاد المجاورة لها في امتلاك بلدانها ،
وشجع هذا السلطان محمود بن سبكتكين على توسيع رقعة دولته على
حساب الدولة السامانية ، فلما ولي الأمير منصور بن نوح ، بكتوزون على
خراسان سنة ٣٨٨هـ / ٩٨٨م ، استاء محمود من ذلك ، وأرسل إلى الأمير
الساماني يذكره بمواقفه في الذود عن الدولة السامانية ومناهضة أعدائها ،

(٢٩) الترخي . تاريخ بخارى ص ١٤٦ .

(٣٠) العيني : تاريخ اليميني ج١ ص ١٩٥ .

(٣١) نفس المصدر ج١ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣٢) الترخي . تاريخ بخارى ص ١٤٦ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتلى والخبر ج٤ ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

ويطلب منه أن يولييه خراسان لكن الأمير منصور رفض طلبه ، وولاه بدلا من خراسان ترمذ وبلغ وما وراءهما من أعمال بسط وهرارة ، فلم يقتنع السلطان محمود بذلك . وعول على تحقيق مطامعه في الدولة السامانية بالقوة المسلحة ، فسار إلى نيسابور (٣٣) .

لما علم يكتوزون — وإلى خراسان — بمسير السلطان محمود إلى بلاده خشي الاشتباك معه ، ورحل من نيسابور ، فدخلها السلطان الغزنوي وامتلكها ، لذلك غضب الأمير منصور من موقف محمود الغزنوي ، وسار إلى نيسابور لاستردادها منه ، هنا حدثت مفاجأة كبرى لم تكن في حسيان الأمير الساماني (٣٤) ، ذلك أن يكتوزون انقلب على سيده ، وانضم إلى بعض القواد السامانيين في التآمر على الأمير منصور ، وقبضوا عليه فعلا ، بن امر يكتوزون بسمل عينيه وأقاموا أخاه عبد الملك مقامه في ملك السامانيين وكان لا يزال طفلا صغيرا (٣٥) .

لما رأى محمود بن سبكتكين مدى ما بلغه الأمراء السامانيون من ضعف ووهن ، ومدى طمع قادة الدولة فيهم ، عول على تنفيذ سياسته الرامية إلى توسيع دولته على حساب السامانيين ، ورأى أن ذلك لا يتيسر إلا بالتخلص من القادة الطامعين في الدولة السامانية ، ومن أمراء آل سامان كذلك ، فالتقى محمود الغزنوي بفائق ويكتوزون ومعهما عبد الملك بن نوح بمرزو ، في معركة ضارية ، دارت فيها الدائرة على أعداء محمود بن سبكتكين ، واستطاع محمود أن يبعدهم عن خراسان ويستولى عليها ، ويضربها إلى حوزته ، ويزيل كل أثر لحكم السامانيين (٣٦) .

على أن الأمير الساماني عبد الملك بن نوح لم يركن إلى الهزيمة التي ألحقها به محمود بن سبكتكين ، بل عول على محاربته وانتزاع خراسان منه ، ففي سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م جمع في بخارى الأمراء المصادين لسلطان محمود وعلى رأسهم فائق ويكتوزون وأعدوا جميعا غفيرا للقضاء على خطي محمود بن سبكتكين الذي أضعف نفوذهم ، لكن خططهم باءت بالفشل ، فقد توفي فائق — وهو من أقوى الأمراء المعادين لسلطان محمود — ففت

(٣٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ .

(٣٤) النرخشي : تاريخ بخارى ص ١٢٣ .

(٣٥) أرمينيوس فاميري : تاريخ بخارى ص ١٢٣ .

(٣٦) النرخشي : تاريخ بخارى ص ١٤٨ .

ذلك في عضدهم ، وأضعف من شأنهم (٣٧) ، وزاد الأمر سوءاً تعرض بخارى لأطماع أخرى ليست من قبل الغزنويين ، بل من الترك ، وذلك ان إيلك خان — ملك الترك سار الى بخارى وأظهر لعبدالمملك أنه لم يقدم الى بلده الا للذود عنه ، والوقوف الى جانبه ضد أعدائه ، فظن عبدالملك صدق قوله ، ولم يحترس منه ، بل أمر بكتوزون وغيره من القواد بالخروج من بخارى واستقباله والترحيب به ، لكن إيلك خان بعد أن استقبله قوا بخارى أحسن استقبال ، غدر بهم ، وقبض عليهم ، ودخل بخارى ، وذهب عبدالملك بن نوح في قلة من الجند ، لذلك كان من ايسير على إيلك خان القبض على الأمير والاستيلاء على بخارى حاضرة السامانيين (٣٨) وبذلك زالت الدولة السامانية .

وعلى الرغم من انهيار الدولة السامانية ، فان بعض أمرائها عملوا على استرداد ملكهم السليبي ، غفى سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م فر اسماعيل بن نوح الساماني من سجنه ، واختفى في أحد بيوت بخارى ، ولما خشي من اكتشاف أمره ، فر الى خوارزم ، وتغلب عليها ولقب بالمنتصر ، والتف حوله بقية قواد السامانيين ، وجمع غفير من الجند (٣٩) ، وبذلك قوى بأسه ، وعظم خطره ، عندئذ رأى الفرصة سانحة لاسترداد ملك آبائه وأجداده ، فسار على رأس جمعه الى سمرقند ، وهناك دحر قوات إيلك خان ملك الترك — وغنم مغانم كثيرة ، قوى بها شأنه ، وشأن أتباعه وأنصاره ، وعاد الى بخارى ، فرحب به أهلها ، وفرحوا واستبشروا ، لعودة السامانيين الى الحكم (٤٠) ، ولم يستطع إيلك خان دفع الأمير الساماني عن بخارى ، فعظم شأن المنتصر الساماني واعتزم استرداد البلاد التي كانت خاضعة لبخارى أيام السامانيين فاستولى على أبيورد ، وجبى أموالها ، وسار نحو نيسابور — وكان يحكمها منصور بن سبكتكين نائباً عن أخيه محمود فاشتبك الأمير الساماني مع الأمير الغزنوي في معركة كان النصر فيها للأمير الساماني ، وفر منصور بن سبكتكين الى هراة لا يلوى على شيء ، واستولى المنتصر على نيسابور (٤١) .

-
- (٣٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ .
 (٣٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتلى والخبر ج٤ ص ٣٦٣ .
 (٣٩) الترشيح : تاريخ بخارى ص ١٤٨ .
 (٤٠) أرمنيوس فاميري : تاريخ بخارى ص ١٢٣ .
 (٤١) الترشيح : تاريخ بخارى ص ١٤٨ .

لما علم السلطان محمود الغزنوى بهزيمة قواته ، واستيلاء السامانيين على بعض ممتلكاته ، سقط في يده ، وخشى أن يعاون السامانيون الى استرداد البلاد التى آلت الى دولته ، مما يهدد دولته بخطر جسيم . لذلك سار على رأس جيش كبير الى نيسابور ، فلما اقترب منها . غادرها الأمير السامانى اذ خشى العاقبة ، ولجأ الى الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان وجرجان — فأكرم وفادته ، وجا يجندر ذكره أن الأمير شمس المعالى كان من أتباع السامانيين (٤٢) المخلصين .

أمد أمير طبرستان وجرجان ، المفتخر السامانى بجيش للمسير الى الرى والاستيلاء عليها من حكامها المتنازعين فيما بينهم ، وفصلا كان من اليسير على الأمير السامانى امتلاك الرى وشغل الفراغ السياسى بها ، لكنه لم يستطع البقاء فى الرى طويلا بسبب الفرقة التى حدثت بين أتباعه ، الا أن المنتصر السامانى لم يكف عن محاولة استرداد ملك آبائه وأجداده على الرغم من الهزائم التى لحقت به ، فاشتبك مع ايلك خان فى معركة دارت فيها الدائرة عليه ، فاتجه الى مرو — وكانت تتبع محمود بن سبكتكين ، فخشى السلطان الغزنوى على امارته من الأمير السامانى ، لذلك سير اليه جندا لمنعها عنه ، فغير الأمير السامانى وجهته اذ عاد الى ما وراء انهر ، لكن جند ايلك خان أجبروه على مغادرة هذه البلاد (٤٣) ، عندئذ ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وظل يضرب فى الأرض ، ويتنقل من مكان الى آخر ، وجند السلطان محمود الغزنوى فى أثره حتى نزل عند قبيلة موالية للسلطان محمود ، فقبض رجالها عليه (٤٤) وقتلوه وبهوته غربت شمس الدولة السامانية .

وعلى ذلك تخلص السلطان محمود من آخر أمراء الدولة السامانية ، وصفت البلاد له ، ولم يعد ينازعه فيها أحد من آل سامان حكامها السابقين .

سياسة الغزنويين فى توطيد سلسلتهم :

عمل حكام الولايات الذين خضعوا لسلطان الغزنويين على استمادة

(٤٢) أرمينيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٢٣ .

(٤٣) الترشى : تاريخ بخارى ص ١٢٥ .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

استقلالهم عن غزنه ، لكن السلاطين الغزنويين لم يألوا جهدا في سبيل
الإنهاء على سلطانهم في تلك الولايات ، لذلك ناهضوا كل حركات التمرد
والمصيان التي اعتزخت سبيلهم . فلما آلت غرشتان (٤٥) الى الدولة
الغزنوية . كان يحكمها الشار أبو نصر (٤٦) ، قتل الخضوع للدولة
الغزنوية ، غير أنه لم يلبث أن تنازل عن حكم غرشتان الى ابنه الشاه ،
لكن الشاه خالف أمه ، وعبد الى الاستقلال ، وظهر ذلك جليا واضحا
عندما اعتزم السلطان محمود بن سبكتكين غزو الهند سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٨م .
واستغفر ولاية أقاليم دولته لإمداده بالقوة اللازمة ، فكلهم استجابوا لندائه
فيما عدا الشاه — حاكم غرشتان — ولم يكتف بذلك ، بل أظهر التمرد (٤٧)
والعصيان . فتفاحى السلطان محمود بن سبكتكين عن عصيانه ، حتى
انتهى من غزوته في الهند ، وعاد ظافرا منتصرا ، وعول على اخضاع
غرشتان لحكمه (٤٨) ، فأرسل اليه جيشا بقيادة حاجبه أبي سعيد
التونقاش ، وأرسلان جاذب — والى طوس — واستطاع الجيش الغزنوي
هزيمة الشاه ، ودخول غرشتان ، غير أن الشاه لم يستسلم للهزيمة ، إذ
لجأ مع نفر من جنده الى إحدى القلاع ، وتحصن بها فحاصر الجيش
الغزنوي القلعة ، وضيق عليها الحصار ، حتى استسلم الشاه ، وقبضت
القوات الغزنوية عليه ، وسبق الى غزنة (٤٩) ، وخضعت غرشتان من
جديد للسلطان محمود ، بعد أن فشلت حركة التمرد التي قادها الشاه (٥٠) .

كذلك حاولت ولاية سجستان (٥١) التخلص من النفوذ الغزنوي أكثر
من مرة ، فقد انضمت الى الدولة الغزنوية منذ عهد السلطان سبكتكين ،
وبذل واليها خلف بن أحمد عدة محاولات للاستقلال عن غزنه ، فلما انتفض

-
- (٤٥) غرشتان : هراة في غربها والغور في شرقها ، وعمر الروذ عن شمالها ، وغزنة
عن جنوبها (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٢٧٧) .
(٤٦) كان كل من يملك غرشتان يسمى شار : وكان الشار أبو نصر قد اعتزل الملك ،
وسلمه الى ولده الشاه ، واشتغل هو بالعلوم ومجالسة العلماء (ابن حوقل :
المسالك والممالك ص ٤٤٣-٤٤٤) .
(٤٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٥٩ .
(٤٨) ابن الأثير : الكمال في التاريخ حوادث سنة ٢٨٩ هـ .
(٤٩) العيني : تاريخ ج٢ ص ١٦١ - ١٤٠ .
(٥٠) خوندميز : حبيب السير ج١ ص ٢٠ .
(٥١) ولاية واسعة جنوب خراسان يتبع نصفها الغربي اليوم ايران ، ونصفها الشرقي
أفغانستان .

سبكتكين بغزو الهند ، زحف خلف بن أحمد إلى بست ، وبسط سيطرته عليها ، على أن سبكتكين استطاع استرداد بست بعد أن عاد من الهند ، وذلك عقب انتصاره على خلف بن أحمد ، ولما أيقن خلف أنه لا يستطيع الوقوف في وجه السلطان سبكتكين ، طلب منه العفو والصفح ، فعفاه سبكتكين عنه ، وأبقاه على ولاية سجستان (٥٢) .

غير أن خلف بن أحمد لم يبق على ولائه للدولة الغزنوية ، بل أخذ يترقب الفرص المناسبة للعودة إلى العصيان (٥٣) ، فلما توفي السلطان سبكتكين سنة ٩٩٧هـ/١٠٠٧م وولى السلطان محمود ، عاد خلف إلى الانتقاض على الدولة الغزنوية ، فأرسل ابنه طاهر إلى قهستان ، فملكها ، ثم سار منها إلى بوشنج (٥٤) وهرارة (٥٥) فانترعهما من واليها بفراجق — عم السلطان محمود (٥٦) .

لم يقف السلطان محمود مكتوف اليدين إزاء خروج خلف بن أحمد عليه ، وانتزاعه بعض بلدان الدولة الغزنوية لنفسه بل عول على استعادة سيطرته على البلاد التي انتزعها خلف بن أحمد واخضاعه لسلطانه فأرسل إليه جيشاً ، اشتبك مع خلف في معركة انتهت بهزيمته . على أن طاهر بن خلف لم يركن إلى الهزيمة بل انتقض فجأة على بفراجق وقتله (٥٧) فلمسا نعى إلى علم السلطان محمود خبر مقتل عمه ، عظم ذلك عليه وأفكره فسار بنفسه على رأس جيش كبير إلى سجستان ، فتحصن منه خلف بن أحمد في حصن مرتفع يناطح النجوم علواً وارتفعاً كما يقول ابن الأثير ولما شدد السلطان محمود الحصار على خلف بن (٥٨) أحمد ، طلب الأمان فأمنه

(٥٢) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٥٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

(٥٤) بوشنج : بلدة نزيهة في واد مشجر من نواحي هراة (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٢٠٤) .

(٥٥) هراة : من أمهات مدن خراسان فيها البساتين والمياه الغزيرة ومحشوة بالعلماء وأهل الفضل . (ياقوت : معجم البلدان ج٨ ص ٤٥٢) .

(٥٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

(٥٧) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٣٥٧ - ٣٥٩ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٦٤ .

(٥٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٩٠ هـ .

بعد أن بذل له أموالا كثيرة ، وعاد إلى الولاء والطاعة للدولة الغزنوية ،
وسلطانها محمود (٥٩) .

لم يلبث خلف بن أحمد أن تنازل عن حكم سجستان لابنه طاهر ،
واعتكف في أحد الحصون المجاورة لسجستان ، حتى وهم السلطان محمود
أنه ترك الحكم ، وأقبل على العلم والعبادة ، ليقطع طمعه عن بلاده . وذا
استعداد خلف قوته ، عاد إلى الانقضاض على السلطان محمود ، وتخلص
من ابنه طاهر واستعاد سيطرته على سجستان ، وأعلن استقلال سجستان
عن غزنه (٦٠) . لكن جند سجستان لم يطيعوه فقد أغضبهم قتله لابنه
طاهر — الذي كان عادلا حسن السيرة — بل انضموا إلى القوات التي
أرسلها السلطان محمود إلى سجستان للتخلص من خلف بن أحمد ، لذلك
استسلم خلف ، وسبق إلى السلطان محمود ، فأكرمه وأذن له بالمقام في أي
البلاد شاء ، فاختار أرض الجوزجان (٦١) وسار إليها ، وقضى بها بقية
حياته (٦٢) . وبذلك انتهت فتنة خلف بن أحمد في سجستان ، وعادت هذه
البلاد إلى الطاعة والولاء للسلطان محمود .

على أن سجستان لم تستمر طويلا على ولائها لغزنه (٦٣) ، فعلى
الرغم من أن السلطان محمود أسند حكمها إلى تغجي الحاجب — أحد قواده
المخلصين — وقد نشر العدل بين ربوعها ، وحسنت سيرته في أهلها —
فان أهل سجستان عادوا إلى محاولة الاستقلال عن الحكم الغزنوي ،
فاعتزم السلطان محمود إخضاع سجستان لنفوذه ، فسار إليها على رأس
عشرة آلاف من خبرة جنده وحاصر المتمردين في سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م (٦٤)
حتى رضخوا واستسلموا ، وقام بتأديب العصاة ، وعلى ذلك عادت
سجستان إلى الطاعة والولاء للحكم الغزنوي وتمكنت هيئة السلطان محمود
من قلوب أهلها ، وعهد بحكمها إلى أخيه نصر ، وجعلها له طعمة مضافة
إلى نيسابور ، فأتاب عنه في حكمها وزيره نصر بن اسحق ، فقام بضبط

(٥٩) خوندميز حبيب السيز ج٢ ص ١١ .

(٦٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٩٠ هـ .

(٦١) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٦٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٩٢ هـ .

(٦٣) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٨٦ - ٢٨٠ .

(٦٤) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٥١ - ٢٥٥ .

أمور الولاية ، وساس أهلها سياسة حسنة (٦٥) ، وانتظمت سجستان دارال عهد السلطان محمود ولم تحدث محاولة استقلالية أخرى في هذا الاقليم .

كذلك أقدمت خوارزم حكومة غزنة بسبب محاولة واليها الاستقلال عنها ، ذلك أن خوارزم خضعت للدولة الغزنوية سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م وظلت موالية لغزنة حتى وفاة واليها التونتاش سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م ولما ولي هرون بن التونتاش حكم خوارزم بعهد من السلطان مسعود بن محمود ، سادت العلاقة بينه وبين وزيره عبد الجبار بن أحمد عبدالصمد — وزير الدولة الغزنوية — الذي تجبر اعتزازا بمقام أبيه الوزير ، ومنع هرون ورجاله من مباشرة مهام الحكم ، بينما استأثر هو بالسلطة دونه ، فضاو هارون ذرعا بذلك ، وعمل على التخلص من وزيره عبد الجبار ورجاله والاستقلال بخوارزم عن الدولة الغزنوية ولتحقيق نواياه الانفصالية اتصل بالسلاجقة المناوئين للسلطان مسعود واتحد معهم على السلطان الغزنوي ، وحذف اسم السلطان مسعود من الخطبة ، وأمر بذكر اسمه فقط ، مما أوقع السلطان مسعود في حيرة شديدة (٦٦) . ذلك أن خراسان كانت مضطربة أيضا في ذلك الحين (٦٧) .

استدعى هرون السلاجقة لنجدته ، فأقبل بعضهم اليه وأنزلهم على حدود خوارزم ، وقال لهم : ينبغي أن تستريحوا قانئ قاصد خراسان وسوف أحارب غير أن السلاجقة لم يطب لهم المقام طويلا على حدود خوارزم (٦٨) ، إذ بعث السلطان مسعود جيشا من بخارى اليهم باغتهم عن حين غفلة منهم ، وشقت شملهم من هذه النواحي (٦٩) ، ولا ريب أن انسحاب السلاجقة من حدود خوارزم أضعف من شأن هرون ، على أن هرون لم يلبث أن قتل في مؤامرة دبرها وزيره عبد الجبار (٧٠) .

(٦٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٠٩ هـ .

(٦٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

(٦٧) تاريخ البيهقي ص ٤٩١ .

(٦٨) خونومير حبيب السير ج٢ ص ٢٢ .

(٦٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٧١ .

(٧٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

لم يؤد قتل هرون الى عودة خوارزم الى الولاء والطاعة للسلطان مسعود ذلك أن غلمان هرون وثبوا على الوزير عبد الجبار وفتكوا به ، وولوا خوارزم اسماعيل بن التونتاش الذى سار على سياسة أخيه هرون الرامية الى التخلص من النفوذ الفزنوى ، والاستقلال ببلادده (٧١) لكن السلطان مسعود لم يقف مكتوف اليدين ازاء موقف اسماعيل ، بل عول على استعادة خوارزم ، فعهد الى شاه ملك — أمير جند من قبله — بالسير الى خوارزم ، واستعادة النفوذ الفزنوى فيها ، وولايتها من قبله ، فسار شاه ملك الى خوارزم ، وهم السلاجقة (٧٢) هناك الذين جاءوا لمؤازرة اسماعيل بن التونتاش في موقفه العدائى من السلطان مسعود . ولما رأى اسماعيل وجنوده أن لا طاقة لهم بالوقوف في وجه القوات الفزنوية ، لاذ اسماعيل بالفرار ، ولجأ الى حلفائه السلاجقة ، وقضى شاه ملك على عناصر الفتنة في خوارزم ، وعادت الى الولاء والطاعة لسلطان غزنة ، وأقيمت الخطية فيها للسلطان مسعود (٧٣) .

كذلك ألقى علاء الدولة كاكويه (٧٤) الدولة الفزنوية . إذ كان يحكم أصفهان وهمدان والرى قبل أن تنضم هذه البلاد الى حوزة الفزنويين . في سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ولما توفى السلطان محمود بن سبكتكين كان ابنه مسعود في أصفهان ، وبلغه الخبر فسار الى خراسان ، واستخلف بأصفهان نائباً عنه في طائفة من (٧٥) الجند ولم يكذب يبعد السلطان مسعود عن المدينة حتى ثار أهلها بتحريض من علاء الدولة كاكويه — حاكمهم السابق — بالوالى الفزنوى عليهم وقتلوه ، وفتكوا بجنده ، ولما بلغ مسعود عصيان أصفهان وتنكيلهم برجاله ، أنكر ذلك ، وعاد اليها وحاصرها ، وفتحها عنوة ، ونكل بالثوار ، واستخلف عليها والياً عادلاً (٧٦) .

(٧١) ابن الأثير : الكامل حواشي سنة ٤٣٢ هـ .

(٧٢) تاريخ البيهقى ص ٧٥١ .

(٧٣) نفس المصدر ص ٧٥٦ .

(٧٤) هو أبو جعفر بن شمنزار .

(٧٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(٧٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٣٧٩ .

كذلك طمع غياضسرو بن مجد الدولة بن بويه في استعادة الرى لما
 نعى الى علمه خبر وفاة السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م اذ جمع
 جيشا كبيرا سار به الى الرى غير أن والى السلطان مسعود على هذه
 البلاد ألحق الهزيمة بالأمير البويهى ، وردده على أعقابته خاسرا (٧٧) . كما
 أن علاء الدولة كاكوية جمع جيشا كبيرا سار به الى أصفهان وملكها ،
 وأستولى على همدان وغيرها من البلاد ، وانتزع الرى كذلك . ولم يكتف
 بذلك بل سار الى خوار الرى (٧٨) وديباوند (٧٩) ، وأستولى عليهما من
 حاكمهما أبو شروان بن منوچهر بن قابوس ، فاستجد بالسلطان مسعود ،
 فأرسل جيشا من خراسان استعاد ديباوند وخوار الرى ، وحاصر الجيش
 الغزنوى بعد ذلك الرى ، وضيق عليها الحصار حتى فر علاء الدولة بن
 كاكويه من الرى ودخل الجيش الغزنوى المدينة ، وأقر الأمور فيها ، وعادت
 الرى الى الولاء والطاعة للسلطان الغزنوى (٨٠)

على أن علاء الدولة كاكويه لم يكف عن العصيان على الرغم من الهزائم
 التي لحقت به ، فسير اليه السلطان مسعود جيشا لاحتياط مؤامراته ضد
 الدولة الغزنوية بقيادة على بن عمران ، وباغت أنصار علاء الدولة في
 همدان ، وهزمهم شر هزيمة ، وأسر كثيرا منهم ، وأستولى على أموالهم
 وأسلحتهم ، على أن هذه الهزيمة لم تقف في عضد علاء الدولة إذ عاد الى
 الثورة من جديد منتهزا فرصة عودة قائد الجيش الغزنوى على بن عمران
 عن همدان ، وانقض عليها وملكها . ولما سار على بن عمران الى أصفهان
 لاختطاف الثوار أنصار علاء الدولة واستعادة السيطرة الغزنوية عليها (٨١) ،
 لم يمكنه أهلها من تحقيق مراده فعاد عنها ، على أنه التقى بعلاء الدولة .
 وحدثت حروب ضارية بينهما ، أدت الى هزيمة الجند الغزنوى (٨٢) وعاد
 على بن عمران مع القوات الغزنوية الى خراسان ، فسار تاش فراش —
 والى الغزنوى على خراسان — مع على بن عمران الى أصفهان (٨٣) ،

-
- (٧٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .
 - (٧٨) مدينة كبيرة من أعمال الرى (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ١٢١ .
 - (٧٩) جبل من نواحي الرى (ياقوت . معجم البلدان ج٧ ص ٧٩) .
 - (٨٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .
 - (٨١) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٣ هـ .
 - (٨٢) نفس المصدر حوادث سنة ٤٢٣ هـ .
 - (٨٣) تاريخ البيهقى ص ٤١٦ .

والتقى الفزنويون مع علاء الدولة بالقرب من أصفهان . وهزه وه شر هزيمة ،
نجسى علاء الدولة الى أصفهان . وتحصن فيها ، وأعد العدة لمذع القوات
الفزنوية من دخولها (٨٤) .

اعتزم السلطان مسعود التخلص من علاء الدولة كاتويه الذى سيطر
على بعض بلدان الدولة الفزنوية ، ووقف فى وجه تل المحاولات التى بذلت
لأخضاعه وأرسل جيشا آخر من خراسان بقيادة أبى سهل الحمدونى والتقت
القوات الفزنوية ، مع قوات علاء الدولة فى معركة حامية الوليس ، دارت
فيها الدائرة على علاء الدولة (٨٥) ، وتحصن فى جبل بالقرب من أصفهان
فأرسل اليه أبى سهل الحمدونى يعرض عليه الأمان . والكف عن التمرد
والعصيان ، ومنحه بعض البلاد ، وإصلاح حاله مع السلطان مسعود ، لكن
علاء الدولة لم يقبل الخضوع للدولة الفزنوية ، وظل على عصيانه ، فسار
أبى سهل الحمدونى الى أصفهان واستولى عليها من أنصار علاء الدولة .
ونهب أبى سهل خزائنه (٨٦) .

ظل علاء الدولة كاكويه يتحين الفرص للعودة الى أصفهان ، وفى
سنة ٤١٧هـ / ١٠٣٥م باغت الجند الفزنوى بالقرب من أصفهان والحقق
بهم الهزيمة ، وجمع جمعا من الديلم (٨٧) ، وسار الى أصفهان . واشتبك
مع القوات الفزنوية فى معركة هزم فيها مرة أخرى ، ففارق أصفهان وهو
لا يلوى على شيء (٨٨) . وبذلك هدت أصفهان وعادت الى الولاء والطاعة
لسلطان غزنه بعد أن أفلقت الدولة الفزنوية سنين عددا (٨٩) .

ولم تسلم الرى من الضر والأذى الذى لحق بها من الخارجين على
الدولة الفزنوية ، وفى سنة ٤٢٤هـ / ١٠٣٢م سار شهر بوش بن ولكن —
صاحب ساوه (٩٠) وتم (٩١) — الى الرى وحاصرها . غير أن الجند الفزنوى

(٨٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٧٩ .

(٨٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ .

(٨٦) تاريخ البيهقى ص ٤١٦ — ٤١٧ .

(٨٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧ هـ .

(٨٨) تاريخ البيهقى ص ٥٣٠ .

(٨٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٠ .

(٩٠) مدينة حسنه بين الرى وهمذان (ياقوت : معجم البلدان ج٦ ص ٢١) .

(٩١) من أعمال الرى (ياقوت . معجم البلدان ج٦ ص ٢٩٦) .

صد هجماته عن الرى ، فعاد عنها . ولم يكتف بذلك بل اعترض طريق الحجاج القادمين من خراسان . وسامهم سوء العذاب ، ونهب أموالهم وأمتعته . ولما علم السلطان مسعود بذلك ، أرسل جيشا لاختصاص هذا المتمرذ (٩٢) ، ولما قصدته الجيش الغزنوى ، لجأ الى قلعة قريبة من قم حصينة عالية المكان ، وثيقة البنيان ، فأحاطوا به وقبضوا عليه (٩٣) ، وأمر مسعود بإعدامه . وبذلك أمنت الرى والبلاد المجاورة لها من شر هذا الرجل .

غير أن الرى تعرضت لفتنة أخرى قام بها رجل من آل بويه فقد أرسل رسولا الى الحسن بن سليمان — والى الغزنوى على الرى — يطلب منه الاعتراف به أميرا على الرى ، وانضم نفر من أهل الرى الى البويهى ، واشتبكوا معه فى عدة معارك مع والى الغزنوى ، رجحت فيها كفة الثوار أكثر من مرة ، غير أن الحسن بن سليمان وجنده انتصروا على البويهى ، ونكلوا بالثوار . وعلى ذلك هدأت الرى وفشلت الفتنة البويهية التى كادت تهدت النفوذ الغزنوى فى هذا البلد (٩٤) .

كذلك لم يأل الصلاطين الغزنويون جهدا فى القضاء على حركات التمرد والعصيان التى قامت ضدهم فى طبرستان وجرجان فقد استغل دارا بن منوچهر بن قابوس — والى طبرستان وجرجان من قبل الغزنويين — انتشغال السلطان مسعود سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م ببعض الغزوات فى الهند والشغب الذى أحدثه الفز فى خراسان ، وأعلن العصيان ، وامتنع عن إرسال الأموال المقررة على ولايته الى غزنه ، وراسل علاء الدولة كاكويه ، وقوى أمره ، فلما انتهى السلطان مسعود من غزواته فى الهند وأخضع الفز فى خراسان ، تفرغ للقضاء على تمرد والى طبرستان وجرجان ، فسار الى جرجان واستعادها ، ثم اتجه الى آمل وطبرستان (٩٥) ، ففازتها واليها . وتحصن مع جنده فى الغياض والأشجار الملتفة ، ضيقة المدخل ، الوعرة المسالك ، فسار اليهم السلطان مسعود ، واقتحمها عليهم وهزمهم ، ولما

(٩٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٤ هـ .

(٩٣) تاريخ البيهقى ص ٢٨٣ .

(٩٤) تاريخ البيهقى ص ٤٩١ هـ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٣٨٠ .

(٩٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

رأى دارا ان لا قيل له بمسعود ، طلب منه العفو والصفح ، فغفا عنه ،
وأعاده الى ولايته(٩٦) . وبذلك غشش دارا في الاستقلال عن الدولة
الغزنوية .

كذلك انتقض أهل كرمان على الحكم الغزنوي لأن الجند الغزنوي
عشوا بأموالهم وممتلكاتهم ، وارتكبوا المظالم ، فذهب وفد من أهل كرمان
الى بغداد ، واستنجدوا بالأمير البويهى فى الحاضرة العباسية وطلبوا منه
تخليصهم من نير الغزنويين ، فبعث الأمير البويهى جندا الى كرمان ، انضم
اليهم أهلها ، واشتبكوا فى معارك مع الجيش الغزنوي انتهت بهزيمته ،
وطرد والى الغزنوي(٩٧) .

كان لاشتداد أمر الأتراك السلاجقة فى خراسان أثر كبير فى ظهور
حركات التمرد والعصيان فى البلاد الغزنوية . فقد شق أهل طوس وأبيورد
عصا الطاعة على السلطان مسعود ، وأحدثوا الشغب فى دولته ، وساروا
الى نيسابور . ونكلوا بأهلها ، ونهبوا أموالهم (٩٨) فسار أمير كرمان
الغزنوي الى نيسابور ، واشتبك مع العائنين من أهل طوس وأبيورد وأسر
كثيرا منهم ، وصلبهم على الأشجار . ولم يكتف بذلك ، بل أحضر زعماء
قرى طوس ، وأخذ أولادهم وأخوانهم رهائن ، وأدعهم السجون . وقال :
ان اعترض متكم واحد الى أهل نيسابور وغيرهم أو قطع طريقا ، فأولادكم
وأخوانكم ورهائنكم مأخوذون بجناياتكم . وبذلك هدأت طوس وأبيورد ،
وأمنت نيسابور من شرور العائنين(٩٩) .

ولم تنعم البلاد الهندية التابعة للدولة الغزنوية بالهدوء والاستقرار
فى عهد السلطان مسعود ، فقد ثار عليه أحمد بن يئالتكين ، وكان السلطان
محمود قد استنابه فيها ، شقة بجلده ، فرسخت قدمه فيها ، وظهرت كفايته
ومقدرته على ضبط الأمور فى هذه النواحي . ولما ولى السلطان مسعود
الحكم . أبقى ابن يئالتكين فى ولايته . لكن هذا الغائب انتهاز فرصة رحيل
السلطان مسعود عن عرشه وأعلن الاستقلال والانفصال عن الدولة

(٩٦) تاريخ البيهقى ص ٤٩١ .

(٩٧) تاريخ البيهقى ص ٤٥٨ .

(٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ .

(٩٩) تاريخ البيهقى ص ٤٥٣ - ٤٥٥ .

الغزنوية (١٠٠) ، والتف حوله كثيرون ، ولما علم مسعود بحركة تمرد هذا
الوالي ، عاد الى ، غزنه ، معترضا المسير الى الهند لاختصاص أحمد بن
ينالتكين لسلطانه ، وأعد جيشا كبيرا لتحقيق هذه الغاية ، وسار على
رأسه ، واشتبك مع أحمد بن ينالتكين في معركة دارت فيها الدائرة على
هذا الوالي (١٠١) ، ولما أيقن أحمد بن ينالتكين عدم استطاعته الخروج على
الدولة الغزنوية ، طالب من السلطان مسعود العفو والصفح ، فعفا عنه ،
وعاد ابن ينالتكين الى الطاعة والولاء للسلطان الغزنوي ، وأبقاه السلطان
مسعود في ولايته ، ولما اطمأن مسعود الى استقرار الأمور في هذه البلاد
الهندية ، سار الى قلعة سرسنتي ، وانتزعها من أصحابها الهنود ، وضمها
الى حوزته (١٠٢) .

على أن أحمد بن ينالتكين لم يبق على ولائه للدولة الغزنوية ، بل
تحين الفرص من جديد للخروج عليها ، والاستقلال بالبلاد الهندية التي
يحكمها من قبل السلطان الغزنوي ، فعد جيشا كبيرا حتى عظمت قوته ،
واشتمد يأسه في هذه الديار ، وأعلن الخروج على غزنه من جديد ، فسير
السلطان مسعود اليه جيشا قويا باغت هذا الثائر وهزمه (١٠٣) ، ففر
أحمد بن ينالتكين من وجه القوات الغزنوية ، وكانت ملوك الهند تمنعه من
الدخول الى بلادهم ، وسد منافذ هربه ، فمضى الى الملتان ، وقصده بعض
ملوك الهند في مدينة بهاطيه (١٠٤) ولحق به جمع كثير من أتباعه ، لكن
البيش الغزنوي لحق به وأوقع به هزيمة أخرى ، قتل فيها ، وتشتت شمل
قواته . ومزقوا شر ممزق ، وبذلك استقرت الأمور في بلاد الهند الغزنوية ،
بعد عودتها الى الطاعة والولاء ، وفشل حركة التمرد والعصيان (١٠٥) فيها .

سار السلطان مودود بن مسعود على سياسة أبيه في المحافظة على
ممتلكات الدولة الغزنوية في الهند والوقوف بحزم وشدة في وجه الخارجين
عليها ، والعمل على توطيد الأمن والنظام فيها ، ففى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م

(100) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 40.

- (١٠١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٤ هـ
- (١٠٢) تاريخ البيهقي ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .
- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٢٨٠
- (١٠٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ
- (١٠٤) تاريخ البيهقي ص ٤٤٨
- (١٠٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٢٨٠

اجتمع ثلاثة من ملوك الهند ، وقصدوا لاهور وحاصروها وضيقوا عليها الحصار ، ولما فشل قائد القوات الغزنوية في تلك الجهات في مقاومة هؤلاء الملوك أرسل الى السلطان مودود يطلب منه النجدة على أعدائه . فأرسل السلطان مودود جيشا الى الهند ، وروع هؤلاء الملوك لما علموا بزحف جند الدولة الغزنوية الى بلادهم ، ففارقوا لاهور ، وأعلن واحد منهم الطاعة والولاء للسلطان الغزنوى . أما الملك الآخران ، فقد سار الجند الغزنوى في أثر أحدهما - ويدعى دوبال - وألحقوا به هزيمة (١٠٦) منكرة ، فسر على أثرها الى إحدى القلاع ، وتحصن بها ، فحاصره الجيش الغزنوى ، وضيق عليه الحصار ، حتى طلب الأمان ، فأمنه الجيش الغزنوى ، واستولى على الحصن وعلى بعض القلاع التابعة (١٠٧) له ، وغنم المسلمون من هذه الفزوة مغانم كثيرة ، وعاد دوبال بعد هذه الهزيمة الى الطاعة والولاء لسلطان غزنة ، وأطلق المسلمون من الحصون التي استولوا عليها ما يقرب من خمسة آلاف أسير من المسلمين (١٠٨) .

لما فرغ الغزنويون من أمر هذا الملك . اتجهوا الى الملك الآخر واسمه ثابت ، فتقدم اليهم ، واشتبك مع القوات الغزنوية في عدة معارك انتهت بانتصار الغزنويين على أعدائهم ، وقتل ملكهم وغنم المسلمون سلاحيهم وأموالهم ، ومن ثم عاد أنصار هذا الملك الى الطاعة للدولة الغزنوية ، ولما رأى باقى الملوك في الهند ما لقيه هؤلاء المخالفون من القتل والخذلان أذعنوا للسلطان مودود ، وأرسلوا اليه الأموال ، وطلبوا منه الأمان ، وأقرارهم على ما بيدهم من البلدان . فأجابهم الى ذلك (١٠٩) .

ولم يكن حكام الأقاليم الغزنوية هم الذين أقلقوا الدولة بحركاتهم الانفصالية ، بل تعرضت الدولة لانتفاضات شعبية قامت بها بعض الشعوب الخاضعة لغزنة ، ومن بينها الأغمان والنور ، وأنصار المذهب الشيعى المناهض لمذهب الدولة الغزنوية السنى ، ففى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م كان النور يقطعون الطريق ويخيفون للسبيل ، ويتخذون من بلادهم الجبلية الوعرة ، ومناورهم الفلقة معصما لهم ، فلما كثرت اغاراتهم ، واستطاع

-
- (١٠٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ
 - (١٠٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٢٨١
 - (١٠٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ
 - (١٠٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٥ هـ

شرهم ، آتف السلطان محمود الغزنوى أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه . وهم على هذا الحال من الفساد والكفر ، فعول على اخضاعهم ، فسار على رأس جيش كبير يجمع خيرة (١١٠) قواده وانتهى الى مضيق قد شحن بالمقاتلة من التور ، واشتبك الفريقان في معركة رهيبة ، هزم فيها السلطان محمود أعداءه (١١١) ، وملك عليهم مسالكهم ، فتشقت شملهم ، وسار الجيش الغزنوى الى ابن سورى — زعيم النور — فانتفى الى مدينته التى تعرف آهنكران ، فبرز من المدينة فى عشرة آلاف مقاتل ، وقاتل الجند الغزنوى ، فمضى السلطان محمود أقوى الناس على القتال (١١٣) ، لذلك أمر جنده أن يولوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ، ولما ظن النور أن ذلك هزيمة ، ساروا فى أثر الجند الغزنوى حتى ابتعدوا عن مدينتهم (١١٣) حينئذ انقض الجند الغزنوى عليهم ووضعوا السيوف فيهم ، فأبادوهم قتلا وأسر ، وكان من بين الأسرى زعيم النور ، ونخل المسلمون المدينة واستولوا عليها وغنموا ما فيها ، وامتلكوا قلاعهم وحصونهم (١١٤) ، ونشر السلطان محمود الاسلام بين النور ، وأبقى فيهم من يعلمهم شرائعه (١١٥) ، وبذلك أمنت الدولة الغزنوية من عصان النور الذين ألحقوا الكثير من الضرر والأذى برعايا الدولة الغزنوية .

ولم تكن الأفغان أقل خطرا من النور ، فقد كانوا يقطنون الجبال القريبة من غزنه ، ويقطعون الطرق المؤدية لها ، فعول السلطان محمود بن سبكتكين على اخضاعهم إذ قصد سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م بلادهم ، وسلك مضايقها . وفتح مغلقتها وخرب عامرها ، وغنم أموالهم ، واكثر القتل فيهم والأسر ، لذلك عاد الأفغان الى الهدوء والطاعة لغزنه (١١٦) .

كذلك حرص السلطان محمود على الوقوف بشدة وحزم فى وجه الحركات الدينية المناهضة للسنة ، حتى لا يؤثر ذلك على تماسك بنيان دولته ، فلما نعى الى علمه أن أبا القتوح — والى الملقان — دعا قومه الى

(١١٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠١ هـ .

(١١١) العتبي : تاريخ اليمى ج٤ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(١١٢) تاريخ البيهقى ص ١١٨ - ١٢٠ .

(١١٣) خوندميز : حبيب السير ج٢ ص ٢٢ .

(١١٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٦٩ .

(١١٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٩ هـ .

(١١٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٧٢ .

اعتناق المذهب الشيعي الذي يعتنقه أجاپوه ، وانضموا اليه في الوثوف من السلطان محمود موقفا عدائيا . غرأى السلطان محمود ضرورة التخلص من والى الملتان حتى لا يحدث فتنة مذهبية في تولته . فسار نحوه ، ولما رأى الأنهار التي في طريقة كثيرة للزيادة ، عظمة المد أرسل الى أندبال — أحد ملوك الهند — يطلب منه أن يبسر له عملية العبور ببلاده الى الملتان : فلم يجبه أندبال الى طلبه ، فابتدأ به قبل الملتان . وقال : نجتمع بين غزوتين ، ودخل بلاده وجاسها ، وعاث الجند الغزوى فيها نهبا وتخريبا ، أما أندبال فقد لاذ بالفرار ، ولما سمع أبو الفتح — والى الملتان — بخبر زحف قوات انسلطان محمود الى بلاده : أيقن أن لا طاقة بالجند (١١٧) الغزنوى ، وأخلى الملتان — ولما بلغ السلطان محمود الملتان رأى أن أهلها قد أعدوا العدة لقتاله ، وحده عن بلاده ، وأنهم على مذهبهم مستمسكين ، فحاصره ، وضيق عليهم ، حتى استطاع فتح الملتان (١١٨) عنوة ، واستسلم له أهلها ، وألزمهم غرامة عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم ، كما أرغمهم على التحول الى المذهب السني ، وبذلك عادت الملتان الى الولاء والطاعة (١١٩) .

ب - الأحداث الداخلية :

لم يتخذ السلاطين الغزنويون سياسة ثابتة في تولية من يخلفهم في الحكم : مما أدى الى حدوث منازعات بين أبناء بيت سبكتكين حول ولاية السلطنة .

فلما شعر ناصر الدولة سبكتكين بدنو أجله سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م مهد الى ابنه اسماعيل بالحكم من بعده على الرغم من أن ابنه محمود أكبر أبنائه سنا، وأمر قواده وجنده بطاعة اسماعيل (١٢٠) ، والالتفاف حوله ، ولما توفي سبكتكين بويع اسماعيل بالسلطنة خلفا لأبيه فاستقر في الملك . وأطلق الأموال للجند ، فحلبت نفوسهم من ناحيته ووقفوا الى جانبه (١٢١) .

(١١٧) تاريخ البيهقي ص ٦١٢ .

(١١٨) العتبي تاريخ اليميني . ج ١ ص ٧٢ - ٧٥ .

(١١٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ٣٦٦ .

(١٢٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ هـ .

(١٢١) خوندميز : حبيب السير ج ١ ص ١٩ .

على أن محمود بن سبكتكين — الذى كان فى نيسابور وقت وفاة أبيه — لم يرض عن اتصائه عن الحكم وتولية أخيه اسماعيل بدلا منه ، فأرسل الى أخيه اسماعيل يذكره بأنه أحق منه فى تولي الحكم لأنه أكبر منه سنا ، وطلب منه مشاركته فى الحكم : وقال : « ان أبى لم يستخلفك دونى الا لكونك كنت عنده ، وأنا كنت بعيدا عنك ، ولو أوقف الأمر الى حضورى ، لغاتبت مقاصده ، ومن المصلحة أن نتقاسم الأموال بالميراث ، فتكون أنت مكانك فى غزنة ، وأنا بخراسان ، وندير الأمور ، ونفق على المصالح ، فلا يطمع فينا عدو : ومتى ما ظهر للناس اختلاف طمعوا فينا (١٢٢) .

على أن اسماعيل رفض طلب أخيه ، وأبى الا الاستئثار بحكم الدولة الغزنوية ، ولم يكن حازما ، لذلك طمع فيه الجند وطالبوه بالسال الكثير فاستنفذ خزائن الدولة فى مرضاتهم (١٢٣) ، أما محمود بن سبكتكين فقصد عول على انتزاع الحكم لنفسه بالقوة بعد أن رفض أخوه اسماعيل مشاركته فى الحكم ، وانضم الى محمود عمه بفراجق ، وسار بصحبته الى بست ، وبها أخوه الأمير نصر ، فانضم هو أيضا الى محمود ، ورحل محمود الى غزنه « فى عمه وأخيه ، وسائر أوليائه وواليه » ولما علم اسماعيل بوجهة محمود خرج من غزنه لصد أخيه عنها ، وفشلت جهود السفراء فى عقد الصلح بين الأخوين ، ولم يعد هناك مناص من القتال ، ودارت حرب بين محمود واسماعيل (١٢٤) ، وانتهت بانتصار محمود على أخيه ، فلجأ اسماعيل الى قلعة غزنه ، وتحصن بها فحاصره محمود ، وضيق عليه الحصار حتى طلب الأمان ، فأمنه محمود ، ونزل من القلعة ، وأحسن اليه ، وتنازل اسماعيل عن الحكم لأخيه محمود (١٢٥) بعد حكم دام سبعة أشهر (١٢٦) ، وولى محمود السلطنة (١٢٧) وهكذا استطاع محمود أن يفتزع حقه فى استخلاف أبيه .

-
- (١٢٢) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج٤ ص ٢٦٢ .
 - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج٤ ص ٢٦٢ .
 - (١٢٣) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .
 - (١٢٤) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .
 - (١٢٥) أبو الفدا المختصر فى أخبار البشر ج٢ ص ١٤٠ .
 - (١٢٦) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٩٠-٢٩١ .
 - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٠ - ٢١١ .
 - (١٢٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٨٩ هـ .

وقد ذكر العتبي (١٢٨) أن الخليفة المباسي القادر بالله أرسل خلعاً إلى محمود بن سبكتكين لم يسمع بمثلاً مع رسول من دار الخلافة ، ولقبه في الكتاب الذي قلده فيه حكم الدولة الغزنوية « يمين الدولة وأمين الملة » . فتبوا محمود سرير الملك وأذاع شعار الطاعة لأمر المؤمنين ، وبذلك قوى نفوذه . وعظم سلطانه واكتسب حكمه الصفة الشرعية .

كذلك أحدث السلطان محمود بن سبكتكين في ولاية العهد ما أحدثه أبوه ، فلم يعهد إلى ابنه الأكبر مسعود ، إنما عهد إلى ابنه محمد ، ذلك لأن السلطان محمود كان مستاءاً من ابنه مسعود ، لأن أمره لم يكن عنده نافذاً ، وسعى بينهما أصحاب الأغراض فزاد أباه نفورا منه . ولما توفي السلطان محمود سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠ كان محمد ببلغ (١٢٩) ، فأرسل إليه أعيان الدولة يخبرونه بموت أبيه ووصيته له بالملك ، ويطلبون منه سرعة القدوم لتولي السلطنة ويحذرونه من نوايا مسعود إذا تباطأ في القدوم إلى غزنه فأسرع محمد إلى غزنه ، وولى السلطنة ، وأجمع رجال الدولة على طاعته ، وفرق فيهم الأموال والخلع النفيسة ، وأقيمت له الخطبة من أقاصى الهند إلى نيسابور (١٣٠) .

كان مسعود بن محمود في أصفهان اثناء وفاة أبيه ، فلما علم بتولي أخيه محمد الحكم دونه ، عظم ذلك عليه وأكرهه ، فاستخلف في أصفهان بعض ثقاته على طائفة من الجند ، واتجه إلى غزنه ، وكتب إلى أخيه محمد يطلب منه الموافقة على أن يمنحه حكم بعض بلدان الدولة الغزنوية مثل بلبرستان وبلاد الجبل وأصفهان ، وأن يقدمه في الخطبة على نفسه ، لكن محمداً رفض طلب أخيه ، وسار على رأس جيش كبير عن غزنه لملاقاة أخيه مسعود واخضاعه (١٣١) .

ولما بلغ السلطان محمد مدينة تكيناباد ، ثار عليه جنده . وكان فريق منهم يميل إلى أخيه مسعود لكبره وشجاعته ، وعظم بالائه ، وخلصوا طاعة

(١٢٨) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٣١٧ .

(١٢٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(١٣٠) نفس المصدر ، حوادث سنة ٤٢١ م .

(١٣١) تاريخ البيهقي ص ٢١ .

خوندمير . حبيب السير ج ٢ ص ٢٦ .

محمد : وقبضوا عليه في قلعة تكيناباد . وأعلنوا ولاءهم لمسعود : وأرسلوا إليه يطلبون منه سرعة القدوم لتسلم السلطنة . وقالوا : أن محمدا لا يستطيع القيام بالأمر لانصرافه الى اللهو والعبث ، وأن على مولانا الذي هو ولي عهد أبيه في الحقيقة ، أن يسارع رابط الجاش ، قري العين الى قاعدة ملكه (١٣٢) .

سار مسعود الى غزنه ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م . وخرج الناس جميعا الى حدود غزنه لاستقباله ، ولما قدم اليها جلس على كرسي الحكم ، واستقبل في محل مهيب ، وقدم له العلماء والفقهاء والأعيان التهانى والتمازى ، ووعد مسعود بالعدل بين الرعية ، والنظر في المظالم ، وأخرج الوزير أحمد بن حسن الميمندى الذى كان وزير أبيه — من سجنه ، واستوزره ، ورد الأمر اليه (١٣٣) .

ولما استقرت الأمور للسلطان مسعود في غزنه أرسل الخليفة العباسى اليه تقليدا بالحكم مع رسول دار الخلافة . وجاء في التقليد أن ناصر دين الله ، وحافظ بلاد الله أبا سعيد مسعود هو أعظم أركاننا وأقواها ، وأمره بأن يقضى على الزنادقة والقرامطة ، وأن يستولى على ما بيد أعدائه من البلاد (١٣٤) .

وأنته رسل الملوك من سائر الأقطار ، واجتمع له ملك خراسان وغزنه وبلاد الهند وسجستان وكرمان ومكران والرى وأصفهان وبلاد الجبل وغير ذلك ، وعظم سلطانه ، وخيف جانبه (١٣٥) .

على أن محمد بن محمود عاد الى تولى السلطنة الغزنوية بعد عشر سنوات من عزله عنها ، ففي شتاء عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م توجه السلطان مسعود الى الهند كعادته في كل شتاء في صحبة أخيه محمد ، فلما عبر السلطان مسعود نهر سيحون ، ثار غلمان مسعود عليه وعزلوه ، ونادوا بأخيه محمد سلطانا ، وقبضوا على مسعود وسجنوه في إحدى القبلاع

(١٣٢) : تاريخ البيهقى ص ٦ .

(١٣٣) خوندميز . حبيب السير ص ٢٦ - ٢٧ .

(١٣٤) تاريخ البيهقى ص ٣٦٠ - ٣٩٣ .

(١٣٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ص ٢٧٨ .

المجاورة للذهر . ولم يلبث أن اغتيل السلطان مسعود بتحريض من أبناء أخيه محمد حتى تصفو السلطنة لأبيهم ، وعاد الى غزنة ، وولى السلطنة . وفوض أمر دولته الى ابنه أحمد (١٣٦) .

لم يتغاض مودود بن مسعود ازاء ما حل بأبيه من النهب والعزل والقتل ، بل عول على الانتقام من قتلته ، واستعادة السلطنة من عمه (١٣٧) ، فقاد خراسان — وكان بها يقاتل السلاجقة — الى غزنة ، فخشى عمه السلطان محمد من انتقامه ، فأرسل اليه — أى مودود — يتبرأ من قتل مسعود ، ويقيم أولاد أحمد بن ينالكين ، فأرسل اليه مودود يقول : أطال الله بقاء الأمير القاسم ، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلا يعيش به ، فقد ركب أمرا عظيما ، وأقدم على اراقة دم ملك مثل والدى الذى لقبه أمير المؤمنين « سيد الملوك والسلاطين ، وستعلمون فى أى حنف تورطتم ، وأى شر تأبطتم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (١٣٨) .

سار مودود بن مسعود — كما قلنا — الى غزنه على رأس جيش كبير فى وقت لم يستطع عمه السلطان محمد السيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة : طمع جنده فيه ، وزالت عنهم هيبتهم ، ونهبوا أموال الناس : وعاثوا فى البلاد الغزنوية نهباً وخراباً حتى غادر الكثير من الأهلىين ديارهم . لذلك لما بلغ مودود غزنه لم يكن من الصعب عليه انتزاع السلطنة من عمه الذى ضعف أمره فاشتبك معه فى معركة هزمه فيها ، وقتله ، ونكل ممن اشترك فى مؤامرة اغتيال أبيه ، (١٣٠) ولكى يخلد ذكرى أبيه مسعود شيد فى الموضع الذى قتل فيه قرية ورباطا ، وسماها فتح آباد ، وولى السلطنة فى شعبان ٤٣٢ هـ سنة ١٠٤٠ م واستوزر أبا نصر وزير أبيه ، وأظهر العدل وأحسن الى الرعية ، وسلك سيرة جده محمود . وبذلك أهبط مودود بمقدرته وشجاعته مؤامرة نقل الحكم الى بيت عمه محمد واحتفظ لنفسه بحقه فى وراثة أبيه فى الحكم (١٤٠) .

(١٣٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

خوندمير : حبيب السير ج٢ ص ٣٠ .

(١٣٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٥ .

(١٣٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 33.

(١٣٩) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٢ ص ١٧٣ .

(١٤٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٨٥ .

على أن الحكم لم يستقر لمودود بعد تخلفه من أمراء بيت سبكتكين الذين انتزعوا السلطنة من أبيه . فقد طمع أخوه مجدود في الحكم ، ولم يرضخ لطاعة أخيه السلطان مودود وكان في الهند وقت تولية أخيه السلطنة . فسار إلى لاهور والملتان وامتلكهما ، وأعد لنفسه جيشا كبيرا لتحقيق أطماعه الرامية إلى الاستقلال ببعض بلدان الدولة الغزنوية ، ونقض طاعة أخيه ، على أن السلطان مودود لم يقف مكتوف اليدين إزاء تبرد أخيه مجدود ، بل اعترى إخضاعه ، وتوحيد بلاده تحت رايته ، فسير جيشا كبيرا إلى الهند لاحتياط محاولة أخيه لاستتلاية في مهبها (١٤١) ، لكن القدر حال بين الأخوين وبين الاشتباك في قتال ، فقد توفي مجدود قبل أن يصله جيش أخيه . وبذلك عادت إلى الدولة الغزنوية وحدتها ، وأطاعت بلدانها السلطان مودود . ورست قدمه في المملكة بفضل شجاعته وحزمه وعدله بين الرعية . وعظمت هيئته حتى أن السلاجقة خشوا بأسه . وراسله ملك الترك في بلاد ما وراء النهر بالانقياد والمتابعة (١٤٢) .

ساعت العلاقات بين أمراء بيت سبكتكين ، وضمنت الثقة بينهم ، حتى أن الأمير متهم إذا ولي السلطنة كان يودع بعض الأمراء الذين يتوجس منهم خيفة على سلطانه في السجون لكي يصفو له الملك ، على أن هذه السياسة كانت نقيضها عكسية ذلك أن الأمراء المعتقلين وأعوانهم كانوا يعملون على التخلص من السلطان للقائم بالأمر ، فلما توفي مودود بن مسعود سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م خلفه ابنه مسعود — وكان غرا صغيرا — ثم عدل الناس عنه إلى عمه على بن مسعود ، فطمع عبد الرشيد بن محمد (١٤٣) في الحكم ، ففر من سجنه الذي كان قد أودعه فيه انس سلطان مودود على مقربة من غزنة ، ودعا الجند إلى المناداة به سلطانا بدلا من على بن مسعود فأجابوه ودخل غزنة ، ففر منها على بن مسعود وتربع عبد الرشيد على عرش السلطنة ، واستقر له الأمر ، ولقب شمس دين الله ، سيف الدولة (١٤٤) ، وهكذا انتزع عبد الرشيد السلطنة لنفسه في سهولة ويسر .

بلغ الانقسام بين أمراء بيت سبكتكين حدا جعل الطمع في الوصول إلى

-
- (١٤١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٢ .
 (١٤٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٤١ هـ .
 (١٤٣) خوندميزر : حبيب السير ج ٢ ص ٢١ .
 (١٤٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٢٨٧

الحكم لا يقتصر على بنى سبكتكين وحدهم بل تجاوزته الى حجاب القصر .
ففى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م (١٤٥) حدثت طغرل — أحد حجاب مودرد —
نفسه بتولى السلطنة . وانتزاعها من السلطان عبدالرشيد ، نقبض طغرل
على عبد الرشيد وقتله ، واستولى على غزنة ، وتزوج ابنة السلطان
مسعود كرها كما يقترب بهذا الزواج الى بيت سبكتكين ، وأعلن نفسه
سلطانا ، لكن خرخيز — أحد قادة عبدالرشيد الأوفياء — عول على احبائه
مؤامرة طغرل ، واعادة الحكم الى بنى (١٤٦) سبكتكين ، وكتب الى زوجة
طغرل ابنة مسعود ، وسائر القواد يستنكر قيام طغرل بقتل السلطان عبد
الرشيد ، وانتزاع الحكم لنفسه على الرغم من أنه لا يمت للمبيت الحاكم —
صاحب الحق الشرعى فى الحكم — بصلة ، ودعاهم للأخذ بئار عبد الرشيد ،
والعمل على التخلص من طغرل (١٤٧) وكان لتحريض خرخيز اثر فعال على
قواد غزنة ، حتى أنهم قبضوا على طغرل وقتلوه ، ولما بلغ خرخيز غزنة ،
ودعا قادتها الى تولية أحد أمراء بيت سبكتكين السلطنة ، فأجمعوا على
تولية فرخزاد بن مسعود بن محمود وكان سجيناً فى بعض القلاع ، فأخرجوه
من سجنه ، وأجلسوه على كرسى الحكم ، وباعه الناس بالسلطنة ، وأقام
خرخيز بين يديه يدبر أمور البلاد (١٤٨) ، وبذلك فشلت مؤامرة طغرل
الرامية الى انتزاع الحكم من بيت سبكتكين لنفسه ، وبقي الحكم فى هذا
البيت العريق .

وعلى الرغم من الأخطار الجسيمة التى تعرضت لها الدولة الغزنوية
من جيرانها الأقوياء — السلاجقة — فان أمراء البيت الحاكم لم يكفوا عن
التنازع فيما بينهم على السيادة والحكم ، بل استعانوا فى خلافاتهم
بالسلاجقة الذين لم يألوا جهداً منذ عهد السلطان مسعود فى انتزاع بلدان
الدولة الغزنوية (١٤٩) .

فلما توفى مسعود بن ابراهيم بن مسعود سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٤ م وخلفه

(١٤٥) ابن الأثير : الكامل التاريخ حوادث سنة ٤٤٤ هـ .

(١٤٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٧ .

(١٤٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٧ .

(١٤٧) خوندميزر : حبيب السير ج٢ ص ٢١ .

(١٤٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٩ هـ .

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 352.

في السلطنة ابنه أرسلان شاه ، قبض على اخوته وسجنهم (١٥٠) لأنه أساء الظن في نواياهم نحوه ، واعتقد أنهم يتآمرون عليه . فاستنكر ذلك أخوه بهرام . وسعى إلى التخلص من حكم أرسلان شاه ، واستعان على أخيه بالملك السلجوقي سنجر ، وطلب منه أن يساعده على التخلص منه . وتوليت السلطنة بدلا منه ، فاستجاب له سنجر ، وسير جيشا كثيفا إلى غزنة لانتزاعها من سلطانها . ولما اقترب سنجر من غزنة ، خرج أرسلان شاه للماقاته في جمع كثير من خيرة جنده ، ودارت رحى معركة عنيفة بين الفريقين ، انتصر فيها السلطان سنجر ، ودخل غزنة ومعه بهرام شاه . فخلع سنجر أرسلان شاه من السلطنة ، وولى بهرام شاه . وأمر الملك سنجر بأن تقام الخطبة للخليفة والسلطان محمد والملك سنجر وبعدهم بهرام شاه . وكان يخطب لسنجر بالملك ولبهرام شاه بالسلطنة ، وحصل أصحاب سنجر من الأموال ما لا يعد ولا يحصى من السلطان والرعايا . وأقام سنجر بغزنة أربعين يوما حتى استقر بهرام شاه في الحكم (١٥٤) وعاد إلى خراسان وهكذا أدى الطمع في الوصول إلى الحكم إلى أن يشعل أمراء بيت سبكتكين الحرب فيما بينهم ، بل ويستعين الواحد على أخيه بالسلاجقة . الذين كانوا يشكلون — كما قلنا — خطرا جسيما على استقلال وسيادة الدولة (١٥٥) انغزونية .

على أن أرسلان شاه لم يركن إلى الهزيمة ، وإنما عول على استعادة سلطانه . ففر إلى هندوستان ، وكثر جمعه ، وعظم جنده بعد أن دعا أهلها إلى طاعته ، وأخذ يتحين الفرص المناسبة للعودة إلى غزنة ، واستردادها من سلطانها الجديد ، فلما غادر الملك السلجوقي سنجر غزنة ، وعاد إلى خراسان ، توجه أرسلان شاه على رأس جيشه إلى غزنة ، فرأى بهرام شاه أن لا طاقة له بأرسلان شاه وجنده ، فاستولى عليه الفزع والهلع ، وفر من غزنة ، ولجأ إلى سنجر . وطلب منه العون فاستجاب له وأعاده إلى مقر حكمه .

-
- (١٥٠) خوندميز : حبيب السير ج ٢ ص ٣٢ .
 (١٥١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٠٨ هـ .
 (١٥٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٠٨ هـ .
 (١٥٣) خوندميز : حبيب السير ج ٢ ص ٣٣ .
 (١٥٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث ٣٢ .
 (155) Lane Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 45.

ج - العلاقات الخارجية للدولة الفزنوية

١ - مع الخلافة العباسية :

ضعفت الدولة العباسية منذ بداية القرن الرابع الهجري بسبب ازدياد نفوذ الأتراك ، واستثنائهم بالسلطة والنفوذ دون الخلفاء حتى أن سلطان الدولة العباسية لم يعد يتجاوز بغداد وضواحيها (١) وفي غضون ذلك ارتفع شأن بني بويه ، ودخل أحمد بن بويه بغداد في عهد الخليفة المستنصر سنة ٣٣٤هـ (٢) سنة ٩٤٥م حيث أكرم الخليفة وفادته ، ولقبه معز الدولة ، ولم يلبث هذا الأمير البويهي أن استأثر بالنفوذ في الحاضرة العباسية دون (٣) الخليفة . وفي ذلك يذكر البيروني (٤) أن الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه .

وعلى الرغم من أن البويهيين استأثروا بالنفوذ السياسي دون الخلفاء العباسيين ، فانهم كانوا ينظرون إليهم على اعتبار أنهم رؤساء المسلمين ، واحتفظ هؤلاء الخلفاء بسلطتهم الدينية (٥) .

ظل البويهيون رغم تنازعهم على السلطة والنفوذ مسيطرين على شؤون بلاد فارس والعراق حتى ولى الملك أرحيم سنة ٤٤٠هـ سنة ١٠٤٨م فنزاعه الأمراء البويهيون السيادة والحكم ، كما استغل خطر

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية والشرق ص ٤٥ .

(٢) Hitti : History of the Arabs: p. 464.

(٣) Camb. Medieval History. Vol. p. 301.

(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٣٣٢ .

(٥) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٢٢ .

البساسيري (٦) في بلاد العراق ، وتقرب بنو بويه من الفاطميين وانضم عدد كبير من الجند الأتراك والديلم الى دعوتهم ، فعمل السلاجقة - الذين ازداد نفوذهم في شرق الدولة الاسلامية وضموا الى دولتهم الكثير من ممتلكات الدولة الفزنوية - على السيطرة على العراق (٧) ، ففي أوائل سنة ١٠٤٨ هـ سنة ١٠٥٥ م أظهر طغرل بك أنه يريد الحج ، واصلاح طريق مكة المكرمة ، والسير الى الشام ومصر ، والقضاء على دولة العلويين بها ، وأذن له الخليفة العباسي القائم بدخول بغداد ، فأزال عنها الحكم البويهي ، وانتقلت السيطرة على مقاليد أمور الخلافة العباسية من البويهيين الفرس الى السلاجقة للترك (٨) .

من هذا يتضح لنا أن الخلافة العباسية سواء في عهد سيطرة بني بويه عليها أو إبان الحكم السلجوقي لبلاد العراق لم تكن من القوة بحيث تستطيع السيطرة على البلدان التابعة لها ، لكن بقي نفوذها الديني على أقاليمها ، فالدولة الفزنوية حرصت على إقامة الخطبة للخليفة ، ونقش اسمه على السكة ، والعمل بالتعاليم الدينية التي يقررها الخليفة ، لكن من الناحية السياسية ظلت الدولة الفزنوية مستقلة تماماً في سياستها عن الخلافة العباسية .

ومما أدى الى تحسن العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الفزنوية

(٦) رئيس الأتراك في بغداد استبد بالسلطة فيها حتى طغى نفوذه على الخليفة ، وتأثر بالدعوة الشيعية ، وانحاز الى الفاطميين بعد أن ساءت علاقته بالخلافة العباسية . وأمه الخليفة المستنصر بالمال والسلاح والخيول ، واستولى على بغداد وأقام فيها الخطبة للخليفة المستنصر ، وحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة ، وبذلك سقطت الخلافة العباسية ، وأخذ يشن الغارات على بلاد العراق ، ويقوى فيها النفوذ الفاطمي ، فاستنجد الخليفة العباسي ورجال الدولة بطغرل بك السلطان السلجوقي - لاعادة الخلافة العباسية والتخلص من أعدائها فسار طغرل بك الى العراق ، ولم يستطع البساسيري التصدي للسلطان السلجوقي ، وضعف أمره خصوصاً وأنه لم ي تلق نجات من الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر ، فخرج البساسيري من بغداد معه جنده ، وعلى ذلك عاد الخليفة العباسي الى بغداد وعهد السلطان السلجوقي الى أحد قهواده فتحقق البساسيري والحق به الهزيمة وقتله ، وبذلك تيسر لطغرل بك القضاء على حركة البساسيري ، واعادة الخطبة الى بغداد الى الخليفة العباسي بعد أن جعلها البساسيري للخليفة الفاطمي المستنصر .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤٤٧ هـ .

(8) Le Strange : Baghdad during the Abbassid Caliphate p 327.

أن السلاطين الغزنويين كانوا سنيين متمسكين (٩) بمذهبهم في وقت كان المذهب الشيعي ينتشر في بلاد العراق وفارس ففي سنة ٤٠٤ هـ سنة ١٠١٣ م أرسل الحاكم بأمر الله رسولا الى السلطان محمود يدعوه الى الدخول في المذهب الاسماعيلي والولاء له (١٠) ، فاستنكر السلطان محمود ذلك ، وأغلظ القول الى الرسول ، وأرسل الى الخليفة العباسي يخبره بموقفه العدائي من الشيعة (١١) .

كذلك أرسل الخليفة الفاطمي الظاهر الى السلطان محمود الغزنوي كتابا يدعوه فيه الى طاعته ، وأرسل اليه الخلع ، فمزق السلطان محمود كتاب الخليفة الفاطمي ، وبعث بالخلع الى الخليفة العباسي القادر ببغداد . فجمع للقضاة والأشراف والجند ، وأخرج الخلع التي أرسلها الظاهر الفاطمي الى محمود بن سبكتكين ، وضرب الذهب منها دنائير ، تصدق بها على فقراء بني هاشم (١٢) .

تجلى خضوع السلطان محمود الغزنوي لتعاليم الخلافة العباسية الدينية في سنة ٤٠٨ هـ سنة ١٠١٨ م حين استناب الخليفة القادر فقهاء المعتزلة ، وأظهروا القبرؤ من الاعتزال ، واستن السلطان محمود بسنته ، فتبض على المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشيبة وصلبهم وحبسهم ونفاهم ، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين (١٣) .

حرص السلاطين الغزنويون على صيغ حكمهم بالصيغة الشرعية ، وكان ذلك لا يتم الا اذا أرسل الخليفة العباسي تقليدا للسلطان السجديد بالحكم ، وهذا التقليد يكسب حكمهم هبة في نفوس رعاياهم ، فأرسل الخليفة العباسي القادر الى السلطان محمود خلعا لم يسمع بمثلا فور توليته الحكم ، ولقبه في كتابه يمين الدولة وأمين الملة (١٤) ، فتبوا السلطان

(٩) الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٠٤ هـ .
(10) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 13.

(١١) العنبي : تاريخ الأيميني ج٢ ص ٢٣٨-٢٥١ .
(١٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ٢٥١ .
(١٣) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٧ ص ٢٨٧ .
الذهبي : تاريخ الاسلام ج٢ ورقة ٢٧٩ .

(14) Hitti : History of the Arabs. p. 464.

Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 36.

K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 14.

محمود سرير الملك ، وأذاع شعار الطاعة لأمير المؤمنين وخليفة رسول
رب العالمين (١٥) ، على أن الخليفة القادر استاء من السلطان محمود
الفزنوى حينما طلب منه القبا كثيرة ، ولما أبى الخليفة عليه ذلك ، كاد
محمود أن يسير إلى بغداد لارغام الخليفة على تنفيذ رغباته ، لكن الرسل
سعوا بينهما حتى عادت العلاقات بين الرجلين إلى ما كانت عليه من الود
والولاء (١٦) .

ولما توفي السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ سنة ١٠٣٠ م وولى ابنه محمد
— وهو أصغر من أخيه مسعود سناً — عيد مسعود — كما قلنا سابقاً —
إلى استعادة حكم الدولة الفزنوية من أخيه محمد فامتلك الرى والجبال
وأصفهان، وفى تلك الأثناء وصله كتاب من الخليفة العباسى يعترف بسيادته
على تلك البلاد ويأمره بالمسير إلى خراسان حتى يشمل حكمه دولة أبيه
كلها ، ولقد كان لهذا الخطاب أثر كبير فى تقوية شأن مسعود أمام خصمه
محمد ، فأمر بأن تقرأ هذه الرسالة على الملأ ، وتنسخ صور منها أرسلها
إلى أصفهان ونواحي الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور وهراة حتى
يتأكد للناس أنه ولى عهد أبيه بإقرار أمير المؤمنين (١٧) .

ولما استوثق الأمر لمسعود ، وغلب على أخيه محمد ، أرسل إليه
للخليفة العباسى اللواء والخلع ، ويتضح مما ذكره البيهقى (١٨) مدى
ما يتمتع به الخليفة العباسى من هبة فى نفوس السلطان ورعاياه ، فقد
وفد رسول الخليفة إلى غزنة فى موكب كبير وألقى الناس على موكبه الدراهم
والدنانير ، فوقف الرجال بأسلحتهم أمام الفرسان ، وأصطف أصحاب
المراتب صنفين وكان القادة والحجاب يلبسون الملابس ذات الركنين ، وحملت
الخلع فى الصناديق على البغال ، وحمل أمام الرسول اللواء معقوداً بيد
فارس ، وطوى المنشور والكتاب فى الديباج الأسود ، وعهد به إلى فارس
آخر ومن أمامهم الحجاب وأهل المراتب وارتفعت أصوات الأبواق والطبول
وعلا صوت الأنفير ، واستقبل مسعود رسل الخليفة بالحقاوة ، وأبلغ
مسعود سلام أمير المؤمنين ، والحقه بالدعاء الجميل ، وقرأ عليه الرسول

(١٥) العتبي : تاريخ البيهقى ج ٢ ص ١٧ .

(١٦) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٤ — ١٥ .

(١٧) تاريخ البيهقى ص ٩٧ .

(١٨) نفس المصدر ٣٩٢ .

تقليد ولايته ، وقال : ان ناصر دين الله وحافظ بلاد الله ابا سعيد مسعود هو اعظم اركاننا واقواها ، وعقد اللواء بيده ، وسلمه الطوق والقلادة والتاج والمنطقة وأهداه بعمامة وبسيف ليقبض به على الزنادقة والقرامطة وليستولى به على ما بيد أعدائه من البلاد ، وأخرجت الخلع من الصناديق ، فنزل السلطان مسعود من على السرير ، وارتنى الخلعة ، وصلى على السجادة ركعتين . وارتنى هذه الخلعة دليل على توريث الخليفة ابيه ملك ابيه كاملا ، ويلخ من تقدير السلطان مسعود لتقليد الخليفة أن كتب الى كافة البلاد بالقابله : ناصر دين الله حافظ عباد الله ، المنتقم من أعداء الله .

وحرص السلاطين الفزنويون على اظهار مدى ما حققوه من نجاح وتوفيق ضد أعداء الاسلام ، فكان محمود الفزنوي يرسل عقب كل غزوة يغزوها في بلاد الهند خطايا الى الخليفة العباسي يتحدث فيه عما أحرزه من نصر للاسلام ، وكان الخليفة بدوره يرسل اليه التشجيع والتعريض ، ففي سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م فتح محمود بن سيكتكين ناردين ، فأرسل اليه الخليفة العباسي القادر بالله يحدد له العهد ولقبه نظام الدين (١٩) ، وفي سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م بعث محمود الى الخليفة القادر كتابا يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند جاء فيه : انتخب العبد ثلاثين ألف فارس وعشرة آلاف راجل ، وانضم اليه جماهير المطوعة ، وخرج العبد من غزنة في العام التاسع ٤٠٩هـ/١٠١٨م بقلب مقترح لطلب الشهادة ، ففتح قلاعاً وحصونا ، وأسلم زهاء عشرين ألفاً من عباد الأوثان وسلموا قدر ألف ألف درهم ، ووافى العبد مدينة لهم عاين فيها زهاء ألف قصر مشيد ، وألف بيت من الأصنام الفضية زيادة على ألف صنم ، ولهم صنم معظم يؤرخون به لعظم جهالتهم بثلاثمائة عام (٢٠) .

كما حرص الخلفاء العباسيون بدورهم على اعتراف الفزنويين لهم بالسيادة على بلادهم ، فلما توفي الخليفة القادر بالله أرسلت الخلافة رسولا الى السلطان مسعود تخبره بوفاة الخليفة وتولية ولي عهده القائم ، فجلس السلطان مسعود للعزاء ثلاثة ايام وأمر باقامة الخطبة للخليفة الجديد (٢١) .

(١٩) ابن الجوزي : المنتظم في اخبار الملوك والامم ج٢ ص ٢٩٢ - ٣٩٣ .

(٢٠) ابن الجوزي : المنتظم في اخبار الملوك والامم ج٢ ص ٢٩٢ - ٣٩٣ .

(٢١) تاريخ البيهقي ص ٣١٥ .

وفي الجمعة التي خطب فيها باسم الخليفة الجديد القائم بأمر الله جلس السلطان ومعه رسول الخليفة بعد الصلاة فجاء خزنة السلطان ووضعوا تحت المنبر عشرة آلاف دينار من السلطان للخليفة ، ثم أخذت الأموال تتوالى بعد ذلك من الأمراء وأنجال السلطان والوزير ، وكبير الحجاب وغيرهم ، وكان الموكلون بجمع تلك الأموال يحملونها إلى رسول الخليفة . وهذا دليل على حرص السلاطين الغزنويين على صلات المجاملة بينهم وبين الخليفة العباسي . ومما يجدر ذكره أن السلطان مسعود كان يطلب من الخليفة تفويضا بحكم خراسان وخوارزم وغيرها ، كما طلب من الخليفة تطع صلته بأعدائه — خانات تركستان — لذلك سخا في هدية الخليفة (٢٢) .

وكان السلاطين الغزنويون لا يترددون في الاستجابة لشفاعة الخلافة العباسية لأعدائهم ، فحينما أرسل الخليفة العباسي كتابا لتعاد أصبهان إلى علاء الدولة كاكويه ، وأن يكون نائب الغزنويين فيها ويقدم كل ما يوضع عليه من مال الضمان ، استجاب له ، وبعد مفاوضات استمرت ثلاثة أيام ، استقر الرأي على أن يكون علاء الدولة كاكويه نائبا للسلطان مسعود في أصبهان (٢٣) كذلك يتضح مدى تأثير الخلافة العباسية في نفوس بيت سبكتكين حينما زاح السلطان مسعود ضحية مؤامرة دبرها بعض أبناء أخيه محمد ، فأرسل مودود بن مسعود إلى عمه السلطان محمد يستذكر هذه المؤامرة ، ويذكره بمدى ما كان يتمتع به والده من تأييد وتقدير الخليفة العباسي ، فقال : لقد ركب ابنكم أحمد أمرا عظيما ، وأقدم على اراقة دم ملك مثل السدي ، والذي لقبه أمير المؤمنين ، سيد الملوك والسلاطين (٢٤) .

نستطيع أن نقول في نهاية هذا الفصل أن علاقة البيت الغزنوي بالخلافة العباسية كانت على خير ما يرام ، يسودها الود والاحترام المتبادل ، وكان كل منهما يعترف للأخر بالسيادة والنفوذ .

(٢٢) تاريخ البيهقي ج ٢٠ .

(٢٣) تاريخ البيهقي ج ٣٥ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ .

٢ - مع البلاد الإسلامية المجاورة

لما ولى ناصر الدين سبكتكين الحكم سنة ٣٦٦هـ/١٧٦م تطلع الى ضم بعض البلاد المجاورة الى حوزته ، فقوى من شأن جيشه ، وواتته الفرصة لتحقيق سياسته حين طلب منه طغان - أمير بست - أن يعيده الى بلده (٢٥) ويخلصه من المتغلبين عليها في مقابل الدخول في طاعته ، فرحب سبكتكين بطلب أمير بست (٢٦) لأنه رأى في ذلك فرصة لتحقيق مخطمعه .

سار سبكتكين على رأس جيشه الى بست ، وثبتت شمل غزاتها ، وأعاد طغان اليها ، لكن طغان نكث بالعهد الذى قطعه على نفسه لسبكتكين ، لذلك حاربه أمير غزنة ، واستولى على بست ، وضمها الى دولته (٢٧) . وواصل الأمير الغزنوى سياسته الرامية الى توسيع رقعة دولته ، فسار الى قصدار ، ولما رأى واليها عدم استطاعته التصدي لأمير غزنة ، أعلن ولاءه له فأقره سبكتكين (٢٨) على قصدار ، وألزمه بأداء مبلغ من المال كل سنة .

ظل سبكتكين يعمل على توسيع رقعة دولته حتى وفاته سنة ٣٨٧ هـ ١٩٨ م فكافت دولته تشتمل على زابلستان بأسرها ، وأهم مدنها كابل وغزنة وبلادنيوم روز (٢٩) وجيال الغور الحصينة ، والسند والملتان (٣٠) .

سار محمود بن سبكتكين على سياسة أبيه في المحافظة على كيان دولته ، فمهد نفوذها الى البلاد المجاورة ، فلما انشغل محمود بحربه ضد اسماعيل بغية الوصول الى السلطنة - كما قدمنا - بسط القائد الساماني بكتوزون سيطرته على خراسان ، فلم يتغاض السلطان محمود عن انتزاع خراسان التي كان يليها من قبل السامانيين قبل أن يلى السلطنة ، فعول

(٢٥) بست من بلاد الأفغان بين هراة وغزنة .

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٦٢ .

(٢٧) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٨-٢٤ .

Habibi : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 31.

(٢٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٦ هـ

(٢٩) انيم روز : ناحية قبيلة فارس .

(٣٠) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٧ - ٢٨ .

على استردادها بعد أن فرغ من أمر أخيه ، فسار إلى نيسابور وبها بكتوزون ، فرحل بكتوزون عنها ، فدخلها محمود بن سبكتكين واحتلها سنة ٣٨٨ هـ ٩٩٧ م لكن محمودا اضطر إلى الجلاء عنها بعد أن نهي إلى علمه أن بكتوزون استنجد بالأمير الساماني منصور بن نوح (٣١) .

ولما تولى الأمير منصور في العام التالي ، عاود محمود محاولته استرداد خراسان ، واشتبك مع بكتوزون في عدة معارك هزمه فيها ، واستولى على خراسان ، وولى قيادة جيوش خراسان لأخيه نصر ، وأمره بأن يتخذ من نيسابور قاعدة له ، واتفق أصحاب بلدان خراسان على طاعته ومن بينهم صاحب الجوزجان وأمير غرستان (٣٢) .

على أن خراسان لم تصف للسلطان محمود إلا بعد أن خاض عدة حروب ومعارك مع أمراء آل سامان وقادتهم ، فانتهاز خلف بن أحمد وإلى سجستان فرصة انشغال السلطان محمود بتلك الحروب وسير خلف — على الرغم من تبعيته للدولة الغزنوية — ابنه طاهرا إلى قهستان فملكها ، ثم سار منها إلى بوشنج — من أعمال خراسان — واستولى عليها ، لكن السلطان محمود ما كاد ينتهي من حروبه حتى عول على استعادة البلدان التي استولى عليها صاحب سجستان فسير السلطان عمه بفراجق إلى طاهر بن خلف فلقية بنواحي بوشنج ، واشتبكا في معارك دارت فيها الدائرة على طاهر (٣٣) ، كما سار السلطان محمود بنفسه إلى خلف بن أحمد ، فتحصن منه لكن السلطان الغزنوي ضيق عليه الخناق حتى أعلن ولاءه لغزنة وافتدى نفسه بمبلغ كبير من المال (٣٤) سنة ٣٩٠ هـ ٩٩٩ م ، غير أن خلف بن أحمد أظهر نواياه السيئة نحو السلطان محمود ونهى إلى علم محمود الغزنوي بأن خلف بن أحمد يستعد للتخلص من الحكم الغزنوي ليبلده فأرسل السلطان

(٣١) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٨ هـ

(٣٢) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٩٦ ، ٣١١ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٦٣ .

(٣٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٩٠ هـ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٦٤ .

(٣٤) خوندمير : حبيب السير ج٢ ص ٢٠ .

خوندمير : حبيب السير ج٢ ص ٢٠ ٢٢ .

الغزنوى الى خلف جيشا باغته فى حصن اعتصم به (٣٥) ، وقبض عليه .
وبذلك تأكد النفوذ الغزنوى على سيجستان (٣٦) سنة ٤٩٣ هـ ١٠٠٢ م .

وفى سنة ٣٩٦ هـ ١٠٠٥ م أظهر ايلك خان الذى امتلك بلاد ما وراء
النهر أطماعه فى بلدان الدولة الغزنوية على الرغم من أنه كان يظهر الصداقة
والود للسلطان محمود ، فانتهاز ايلك خان ابتعاد السلطان محمود عن
حاضرة دولته لانشغاله فى بعض الغزوات فى بلاد الهند ، وسير قائده سباشى
تكين الى خراسان فى معظم جنده ، وسير أخاه جعفر تكين الى بلخ ، ولما
بلغ سباشى تكين خراسان ، رأى واليها الغزنوى - أرسلان الجاذب -
عدم مقدرته الوقوف فى وجه الترك ، فانسحب الى غزنة ، وملك سباشى
هذه البلاد ، وأرسل الى نيسابور من املاكها ، فلما علم محمود ، ورجع
الى غزنه « لا بلوى على دار ولايركن الى قرار » وأعد العدة لتخليص بلاده
من خطر الترك الطامعين فيها (٣٧) : فسار نحو بلخ ، وبها جعفر تكين -
أخو ايلك خان - فغادرها ، واستعاد السلطان محمود بلخ ، وسير الجند
الى سباشى تكين بهزاة ، فلما اقتربوا منه ، سار نحو مرو ليعبر النهر ،
فلقبه التركمان الغزيه ، فقاتلوه وهزمهم ، وقتل منهم كثيرين ، ثم سار
نحو أبيورد ، فتبعه جند السلطان محمود ، وأسر أخوه سباشى تكين ،
وجماعة من قواده ، ونجا هو فى قلة من أصحابه ، وبذلك استطاع السلطان
محمود المحافظة على خراسان (٣٨) - أهم أقاليم نولته .

(٣٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٩٠ هـ .

(٣٦) العتبي : تاريخ اليمى ج١ ص ٢٧٤ .

(٣٧) الترك شعوب مختلفة تفرقت فى مساحات شاسعة تمتد من شرق هضبة ايران الى غرب
الصين بما فى ذلك بلاد تركستان التى تتكون منها حاليا مجموعة الجمهوريات
السوفياتية الاسلامية وبدأ الاسلام يدخل بلاد الترك فى العهد الاموى ، وهاجرت جماعة
منهم غربا الى اراضى الدولة الاسلامية ، وأقاموا ولايات صغيرة متفرقة فى تلك
المنطقة الشاسعة ، الا أن قيام اول دولة تركية قوية ، انما يرجع تاريخه الى وقت
انحلال الدولة السامانية ، ويبدو أن ايلك خان أول من وحد شأنهم ، وقوى أمرهم ،
ويأتى من بعده بغراخان واشتهر بجده فى سبيل نشر الاسلام حتى استطاع أن يحمل
الرفا من البوذيين والمسيحيين على الدخول فى الاسلام ، فقد جمع كل القبائل التركية
المختلفة تحت لوائه لينطلق بهم بعد ذلك فى فتوحات صوب الغرب هادفا اضافة بعض
الأراضى الى ممتلكاته مما بقى فى حوزة السامانيين ، وخرج بغراخان فى جيش كثيف
من كاشغر الى ضفاف زرفشان وقد انضم إليه ترك خوقند ، واستولى على ما وراء
النهر ، أرمينيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٢٠ .

(٣٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٦ هـ

لم يقف ايلك خان مكتوف اليدين ازاء استرداد السلطان محمود خراسان منه ، بل عول على استعادتها ، فاستنجد بقدر خان بن بقرا خان — ملك للختل — لقربة بينهما على محمود ، واستنقر الترك من أقاصى بلادها ، واجتمع هو وايلك خان ، واتجها الى خراسان : ولما علم محمود الغزنوى بذلك ، سبقهما الى بلخ ، وأعد العدة للقتال ، وجمع جيشا كبيرا من الأتراك الغزية والخلج والهند والأفغانية والغزنوية (٣٩) ، ودارت رحى معركة رهيبية بين الفريقين ، انتهت بانتصار السلطان الغزنوى الساحق على أعدائه الذين لاذوا بالفرار ، والجند الغزنوى في اثرهم يقتلون ويأسرون ويغنمون (٤٠) ، وحدث ذلك سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م (٤١) وبذلك لم يستطع الترك اغتصاب خراسان من الدولة الغزنوية بعد هزيمة السلطان محمود لهم (٤٢) ، بل سعوا الى مصالحة السلطان الغزنوى لهم ، فقد توجه طغان — أخو ايلك خان — الى محمود بن سبكتكين يعتذر عما بدر من أخيه ، ويقول : اننى ما رضيت ذلك منه ، وألزم أخاه وحده الذنب ، وتبرأ منه ، فلما علم ايلك خان بذلك ، استاء من أخيه ، وسار في جيوشه قاصدا قتاله ، لكنه لم يستطع الوصول إليه بسبب سوء الأحوال الجوية (٤٣) .

كان لموقف ايلك خان العدائى من السلطان محمود أثره في محاولة بعض الولاة المواليين لغزته ، الاحتماء به ، والاستقلال عن الدولة الغزنوية ففى سنة ٤٠ هـ / ١٠١١ م قطع صاحب قصدار الأموال التى كان يرسلها الى السلطان محمود وفقا للاتفاق بينهما ، لكن السلطان محمود عول على استماده سيطرته على قصدار ، وسار من غزته قاصدا تلك البلدة رغم وعورة الطريق ، وباغت السلطان الغزنوى صاحب قصدار على حين غفلة ، فعجز عن مقاومته ، وطلب الأمان ، فأمنه السلطان الغزنوى بعد أن ألزمه بأداء المال الذى كان قد اجتمع عنده ، وأقره على ولايته بعد أن قدم فروض الولاء والطاعة له (٤٤) .

(٣٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبدأ والخير ج ٤ ص ٣٦٧ .

(٤٠) العتبي : تاريخ اليميني ج ١ ص ٧٩ — ٨١ .

خوندمير : حبيب السير ج ٢ ص ٢١ .

(٤١) العتبي : تاريخ اليميني ج ١ ص ٧٨ — ٨٢ .

(٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٩٧ هـ .

(٤٣) العتبي : تاريخ اليميني ج ٢ ص ١٢٨ — ١٣٢ .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٠ هـ .

خوندمير : حبيب السير ج ٢ ص ٢١ .

على أن ايلك خان لم يتحول عن أطماعه في خراسان على الرغم من الصعوبات والعقبات التي اعترضته ، ففي سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١٢ م أعسد العدة للسير الى خراسان لكنه توفي ، فخلفه في الحكم أخوه طغان ، واتخذ سياسة تختلف عن سياسة أخيه المناوئة للسلطان محمود ، لذلك أرسل الى غزنه يعرض الصلح ويقول : المصلحة للإسلام والمسلمين أن تتسنى للفرزغونى الهند ، واشتغل أنا بفرزغونى الترك ، وأن يترك بعضنا بعضا . فرحب السلطان الفرزغونى بالصلح مع ملك الترك (٤٥) ، وبذلك أمن السلطان محمود على دولته من بأس هؤلاء القوم .

على أن هذا الصلح لم يستمر أكثر من سنة فلم يلبث أن توفي طغان خان وولى بعده أخوه أرسلان خان . وعول على الزحف الى بلاد الدولة الفرزغونية وامتلاكها ، فسار الى بلخ ، ولما علم السلطان محمود بذلك سار للقاء الترك ، واشتبك معهم في عدة معارك هزمهم فيها ، وأجلاهم عن بلاده (٤٦) ، وبذلك أحبط السلطان محمود هذه المؤامرة في مهدها .

عمل الترك بعد أن رأوا قوة بأس السلطان محمود على تحسين علاقته بهم ، وعدم الاعتداء على دولته ، وعلى الرغم من ذلك كان السلطان محمود يتوجس منهم خيفة ويقول : أن الترك أعداء لنا ، يتقربون منا بحكم الضرورة ، وأنهم كلما أوتوا القوة لا يبقون علينا ولا يجاملون (٤٧) .

ولما توفي قدر خان سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م بعد وفاة السلطان محمود بسنة واحدة ، خلفه ولى عهده أرسلان خان في حكم تركستان وكان أخوه بفراخان يلى بعض ولايات الدولة إلا أن صلته به كانت سيئة وعند ظهور ذلك جليا واضحا حينما حاول السلطان مسعود تحسين علاقته بالترك ، حتى يتفرغ لأعدائه السلاجقة ، فأرسل سفارة الى أرسلان خان وبفراخان نجحت بعد مفاوضات طويلة في إبرام عهد بين مسعود الفرزغونى من جهة وبين الثائدين للتركين من جهة أخرى (٤٨) بمقتضاه يلتزم كل من الفريقين

(٤٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٧ هـ .

(٤٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٩ هـ .

(٤٧) تاريخ البيهقى ص ٧٥٣ .

خوندمير . حبيب السير ج ٢ ص ٢١ .

(٤٨) تاريخ البيهقى ص ٧٥١ - ٧٥٢ .

باحترام سيادة الفريق الآخر على أرضه ، لكن بغراخان لم يلبث أن نكث بالعهد ، فأغرى السلاجقة سرا بالسلطان مسعود بن محمود ، وقوى عزائمهم ، وأمدهم بالرجال والأموال ، ولما دخل السلاجقة خراسان عبر عن نواياه السيئة تجاه الدولة الغزنوية فأظهر بهجة وسرورا (٤٩) ، أما أرسلان خان فظل على علاقة ودية مع السلطان مسعود بل كان يقف الى جانبه ضد السلاجقة (٥٠) .

كذلك قاسمت الدولة الغزنوية من غارات على تكين — أخى ايلك خان — وكان يلى بعض نواحى بلاد ماوراء النهر (٥١) ، وكثرت اغاراته على صغانيان وترمد وبلخ وطخارستان وغيرها ، واتفق مع السلاجقة على انتزاع أملاك الدولة الغزنوية (٥٢) ، فأمر السلطان مسعود أبا سعيد التونتاش — والى خوارزم — بقصد على تكين والتخلص منه (٥٣) ، واستطاع التونتاش إخضاع على تكين ، وجمع على تكين أمواله ونخائره ، والتجأ الى قلعة ديويسى — من أعمال الصغد — تاركا بخارى — التى كان يحكمها الى بعض أعوانه ، فسار التونتاش الى بخارى ، واستولى عليها (٥٤) ، وقدم أهلها الولاء والطاعة للدولة الغزنوية ، وقالوا : انا كنا نأمل منذ زمن بعيد أن نكون رعايا السلطان الأعظم ، ملك الاسلام فلفظ بهم التونتاش ، واستعان بهم فى اقتحام القلعة التى تحصن بها على تكين ، واستولى التونتاش على القلعة ، وغنم مغنم كثيرة وتحطمت قوى على تكين ، وبقي فى حيرة من أمره انه تناقص رجاله ووهنوا وضعفوا ، وطلب الصلح من التونتاش ، فعفا عنه ، ولم يعد على تكين بعد ذلك يشكل خطرا على الدولة الغزنوية ، وتوفى سنة ٤٢٤ هـ (٥٥) / ١٠٣٢ م فخلفه ابنه فى حكم بلاد ما وراء النهر ، وسارا على سياسة أبيهما فى مناهضة الدولة الغزنوية ، وانتهزا فرصة ابتعاد السلطان مسعود عن خراسان ، واضطراب الأحوال فيها - وتحالفا مع هرون بن التونتاش — والى خوارزم — فى

(٤٩) نفس المصدر ص ٧٥٤ .

(٥٠) نفس المصدر ص ٧٠٩ .

(٥١) تاريخ البيهقى ص ٣١١ .

(52) Cambridge History of Iran Vol. 5. p. 8.

(٥٣) تاريخ البيهقى ص ٢٥٠ .

(54) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 8.

(٥٥) تاريخ البيهقى ص ٣١١ .

الاغارة على خراسان ففسار هرون الى مرو مع جيش جرار ، واغار ابنا على تكين على صفانيان وترمز ، واجتاحا صفانيان ، وطردها واليها ، وقصدا ترمذ ، غير أنها استعصت عليهما ، فل خرج فرسانها الى ابني على تكين ، وأوقعوا بهما الهزيمة ، ولذا بالفرار ، ولما قتل هرون ضعف شأن ابني على تكين ، فرجعا عن ترمذ ، وسارا الى سمرقند ، ثم أرسلوا الى السلطان مسعود يطلبان الصلح فأجاب الطلب (٥٦) : وكسا عن العدوان على أراضي الدولة الغزنوية وبذلك انتهى الصراع بين الترك والغزنويين .

عظم شأن الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود ، وقوى بأسها بسبب ما أسبغها عليها هذا السلطان من قوة ظاهرة وباطنة فقد أسس لها جيشا قويا لا ينود عنها فحسب ، ولكن يبسط نفوذها على البلاد المجاورة ، ورغب الأمراء الضعاف الانضواء تحت لوائه حتى بكفوا لحكمهم وبلدانهم الأمن والاستقرار ، فلما ولي منوچهر بن قابوس بن وشمكير حكم جرجان وطبرستان وبلاد الجبل سنة ٤٠٣ هـ سنة ١٠١٢ م (٥٧) دخل في طاعة السلطان محمود وخطب له على منابر بلاده ، وبذلك قوى شأنه أمام العناصر المناوئة لسلطانه ، والتزم بأداء خمسين دينار سنويا لحكومة غزنة (٥٨) .

وفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م سار السلطان محمود الى الري لامتلاكها من صاحبها مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه لئذ كان مقتضاغا عن شؤون الحكم باللهو والعيب (٥٩) لذلك اضطربت الأمور في دولته واستنجد أهلها بالسلطان محمود لتخليصهم من الفوضى التي حلت ببلادهم (٦٠) ، ففسار الى الري ، واشتبك مع جندها وهزمهم (٦١) ، وضم الري الى حوزته (٦٢) ، وقبض على مجد الدولة ، وملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة

-
- (٥٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٠٣ .
 أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ١٦٤ - ١٦٥ .
 (٥٧) العيني : تاريخ اليميني ج٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ .
 (58) Cambridge History of Iran. Vol. 5. 12-13.
 (٥٩) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج٢ ص ١٩٧ .
 ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٠٠ هـ .
 (٦٠) خوندميز : حبيب السير ج٢ ص ٢٥ .
 (٦١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث ٤٢٠ .
 (62) Hitti : History of the Arabs. p. 464.

وباءت وغيرهما (٦٣) ، وقبض على صاحبها ، وبسره الى خراسان ، وكان كثير من سكان تلك الجهات يعتنقون المذهب الاسماعيلي ، فقبض محمود على الباطنية ، ونكل بهم ، ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم ، ونقل الى غزنه ما سوى ذلك من الكتب (٦٤) .

وعلى الرغم من أن منوچهر بن قابوس — والى طبرستان وجرجان — أعلن دخوله في طاعة السلطان محمود إلا أنه ساند مجد الدولة ضد السلطان الغزنوي اذ كان غير راض عن ضياع استقلال بلاده ، لكن محمود بن سبكتكين لم يتفاوض عن موقف هذا الأمير العدائي فلما انتهى من أمر الري - عول على التخلص منه ، فتحصن منوچهر في جبال حصينة ، وعرة المسالك ، لكن السلطان محمود باغته في حصنه الحصين ، فهرب منوچهر الى غياض منيعة ، ولما خشي العاقبة ، بذل للسلطان الغزنوي مالا في مقابل أن يعفو عنه ، فأجابته الى ذلك ، ولم يلبث أن توفي منوچهر وولى بعده ابنه أنوشروان ، فأمره محمود على ولايته ، وأقيمت الخطبة لمحمود في أكثر بلاد الجبل الى حدود (٦٥) ارمينية ، وامتلك ابنه مسعود زنجان وأبهر ، وخطب له علاء الدولة كاكويه في أصفهان (٦٦) ، واستخلف محمود ابنه مسعود في الري وسار مسعود الى همدان ، وضمها الى الدولة الغزنوية (٦٧) .

كذلك انضمت خوارزم الى الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود فقد كانت خوارزم قبلا اماره مستقلة يحكمها أسرة بنى مأمون ، ولما توفي مأمون بن محمد — صاحب خوارزم — سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م بايع أصحابه ابنه عليا حاكما على بلدهم ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته ، فخلفه أخوه أبو العباس مأمون بن مأمون ، كانت تربطه بالسلطان محمود الغزنوي علاقة ود ومحبة (٦٨) وإخاء .

(63) Cambridge Medieval History. Vol. p. 303.

(64) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 12.

(٦٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(66) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 21.

(٦٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(٦٨) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

خوندمير : حبيب السير ج٢ ص ٢٢

غير أن السلطان محمود بن سبكتكين اعتزم ضم خوارزم إلى حوزته، فأرسل إلى أميرها يطلب منه الاعتراف بسيادة الدولة الغزنوية على بلاده، وذلك بإقامة الخطبة له، وإرسال مبالغ معينة من المال إلى حكومة غزنة إلى غير ذلك من مظاهر الولاء والطاعة (٦٩)، فجمع مأمون أعيان خوارزم واستشارهم في الأمر، فأظهروا نفورا من ذلك وعدم استجابة وقالوا: نحن أتباعك وأعوانك ما سلم لك الملك عن الاشتراك، فأما إذا وضعت خدك للطاعة، وضعنا السيوف على العواتق خلعا لك، وجهادا فبك، (٧٠). فعاد الرسول إلى السلطان محمود وأخبره بموقف أهل خوارزم المذاهض للانضواء تحت لواء الدولة الغزنوية.

وكان لأمير خوارزم جيش قوى يرأسه كبير الحجاب - البتكين البخاري - فلما علم الجند بنوايا محمود الغزنوي نحو بلادهم وميل أميرهم إلى طاعته صاحوا بأن ليس لمحمود سلطان علينا، وتحركوا بخيولهم، وتخلصوا من الأمير وأنصاره، وأشعلوا النار في قصر الإمارة سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦-١٠١٧ ونادوا بابن أخيه محمد بن علي بن مأمون أميرا على خوارزم (٧١)، وسيطر البتكين على أمور خوارزم، وقد نحى هذا الأمير جانباً، فإنه لم يكن يعرف من أمور الدنيا شيئا، فكان البتكين وأعوانه يعملون باسمه ما يريدون من القتل وسلب الأموال، ونهب البيوت، ويشيعون الضغائن بينه وبين الناس، وظلوا يتحكمون في أمر خوارزم أربعة أشهر ساموا أهلها خلالها سوء (٧٢) للعذاب.

استاء السلطان محمود الغزنوي من موقف جند خوارزم المذاهض لتنعمة البلاد له، ففسار إلى خوارزم على رأس جيش كبير، واشتبك مع جندها في معركة هزمهم فيها، ونكل بقتلة حليفه أبي العباس، وقبض على مثيري الاضطرابات، وأمر بهم، فسيقوا إلى بلاد الهند (٧٣)، وضم السلطان محمود خوارزم إلى دولته، وخلع أميرها الصغير، واستناب بها

(٦٩) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٢٧١.

(٧٠) العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٤.

(٧١) تاريخ البيهقي ص ٨٤٢.

Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 39.

(٧٢) العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٥.

(٧٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٠٧ هـ.

حاجبه ابا سعيد للتونناش (٧٤) ، مضبط امورها ، واعاد الأمن الى نصابه في هذه البلاد الفائية القابضة على حدود الدولة الفزنوية ولقبه السلطان محمود خوارزم مشاه (٧٥) ، واستطاع هذا الوالى الكفء حماية خوارزم من اغارات الترك (٧٦) ، وقبض على جميع افراد الأسرة المأمونية .

على ان أمر خوارزم لم يصف للدولة الفزنوية بعد هذا الانتصار الرائع الذى أحرزه السلطان محمود على ثوارها ، فقد جمع أحد أنصار الأسرة المأمونية جيشا كبيرا ، وانقض فجأة على خوارزم ، واستولى عليها ، ودارت حرب طاحنة بين جند الدولة الفزنوية وبين أنصار الأسرة المأمونية ، وانتهت بسحق أنصار العهد السابق ، وتمزيقهم شرميق ، بعدها عادت هذه البلاد الى الهدوء والسكينة (٧٧) ، وأمن أهلها فى ظل الحكم الفزنوى ، وانتهى الى الأبد حكم آل مأمون لخوارزم .

ظل التوننتاش يحكم خوارزم بحزم حتى وفاته سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٩م فعهد السلطان مسعود الى ابنه هرون بحكم خوارزم ، غير أن هرون خالف إياه فى ولائه للدولة الفزنوية ، فقد اتخذ سياسة مناهضة للسلطان مسعود ، وأعان السلاجقة فى حربهم ضد الدولة الفزنوية ، بل أعد العدة للمسير الى خراسان ، وانتزاعها لنفسه لكنه قتل سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م فخلفه ابنه اسماعيل الذى أعلن الاستقلال عن الدولة الفزنوية (٧٨) ، فعهد السلطان بولاية خوارزم الى شاه ملك — أمير جند — وطلب منه أن ينكل باسماعيل بن التوننتاش وأنصاره وبعيد البلاد الى الطاعة والولاء لفننه (٧٩) .

سار شاه ملك الى خوارزم ، وطلب من اسماعيل وأنصاره إخلاءها ، ولكن اسماعيل أرسل اليه يقول : انه لا يتخلى عن خوارزم الا بالسيف .

(74) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 8.

(75) Ency of Islam. Art Tun Tach.

(76) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 8.

(٧٧) تاريخ البيهقى ص ٧٤٥ .

Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin p. 36.

(٧٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

(٧٩) تاريخ البيهقى ص ٧٥٢ .

Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 19.

فكان لابد من الحرب بين الفريقين ، ونفعلا اشتبك شاه ملك مع اسماعيل في حرب انتصر عليه فيها ، واستعاد الحكم الغزنوي على هذه البلاد ، وولى حكمها من قبل السلطان مسعود (٨٠) .

وكان السلطان مسعود لا يالو جهدا في سبيل توسيع رقعة دولته ، في سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٣١ م سير السلطان جيشا الى التيز (٨١) فملكها . وذلك أن صاحبها بعد أن توفي ، خلف ولدين أبا العساكر وعيسى ، فاستبد عيسى بالولاية والمال ، فسار أبو العساكر الى خراسان ، وطلب من مسعود النجدة فسير معه عسكرا ، وأمرهم بإخلاء البلاد من عيسى أو الاتفاق مع أخيه على طاعته ، فوصلوا اليها ، ودعوا عيسى الى الطاعة فأبى ، وجمعوا جمعا غفيرا بلغ ثمانية عشر ألفا ، وتقدم اليهم ، فالتقوا ، واستأن من كثير من أصحاب عيسى الى أخيه أبي العساكر ، فانهزم عيسى ، ثم عاد وحمل في نهر من أصحابه على أخيه ، ولكنه هزم ثانية وقتل ، واستولى أبو العساكر على البلاد (٨٢) . وحكمها باسم السلطان مسعود ، وفي نفس السنة اتجه الجيش الغزنوي الى كرمان وامتلكها . وكانت قد استعصت على جند السلطان محمود (٨٣) .

وصفوة القول أن السلاطين الغزنويين الأقوياء نجحوا في توسيع رقعة دولتهم حتى اشتملت على مساحات كبيرة في آسيا ضمت أفغانستان وبعض البلدان في إيران وما وراء النهر ، يضاف الى ذلك اقليم الهند .

(٨٠) تاريخ البيهقي ص ٧٥٦ - ٧٥٧ .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٦ هـ .

" خوندميز : حبيب السير ج٢ ص ٢٢ -

(٨١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٧٩ .

(٨٢) تاريخ البيهقي ص ٦٧ .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٢ هـ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٧٩ .

(83) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 13.

٣ - مع بلاد الهند

يرجع اهتمام المسلمين ببلاد الهند الى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد شنوا عدة حملات على أطراف هذه البلاد ، على أن أول حملة نظامية على بلاد الهند بدأت في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، إذ أذن للحجاج ابن يوسف الثقفي - عامله على بلاد العراق - بإنفاد حملة الى الهند ، فأرسل عدة حملات لم تصل كلها الى نتيجة حاسمة (١) ، فأعسد جيشا أسند قيادته الى ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي سنة ٩٢هـ سنة ٧١١م وعنى الحجاج بتزويد هذا الجيش بما يحتاج اليه من المؤن والمعدات حتى الخيوط والقطن المحلوج المنقوع في الخل (٢) .

احتشدت القوات الاسلامية في شيراز ، وزحف الى ثغر مكران ومنه اتجهت جنوبا الى ديبيل ، وانضم الى المسلمين جموع كثيرة من المذ والجات وتسميهم المراجع العربية الزط ، وهما قبيلتان عربيتان هجرت ديارها فرارا من بطش وجور الحكومة البرهمية التي كانت تعتبرهم في عداد المذوذيين ، وتحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء الملابس الراقية ، ولا يمارسون الا أخط المهن (٣) .

قوى شأن المسلمين بالميد والجات ، واتجهوا الى ديبيل ، واشتبك الجيش العربي مع داهر - ملك السند - في معركة عنيفة ، واستخدم المسلمون أسلحة قوية من بينها منجنيقا يسمى العروس يديره خمسمائة جندي ، وانتهت المعركة بهزيمة داهر ، واستولى المسلمون على ديبيل وأقام بها محمد بن القاسم مسجدا . وترك بها حامية تتكون من أربعة آلاف جندي (٤) . واصبحت ديبيل أول مدينة عربية في السند .

غير أن داهر لم يستسلم للهزيمة ، بل عول على مقاومة الزحف الاسلامي ، فأتجه الى الداخل ، وأعد المدة لاستئناف القتال في موضع

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج٢ ص ٢٥٢ .

Lane Poole : Medieval India p. 8.

(2) Chand : Influence of Islam in India p. 32.

(3) Lane Poole. Medieval India p. 8.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٤٣ .

يقع شرق مصب السند ظنا منه أن النهر يعرقل عبور المسلمين له ، لكن محمد بن القاسم تمكن هو وجنده من عبور النهر على عدد من الزوارق . ولما شعر داهر باقتراب القوات الاسلامية منه لجأ الى حصن الرور ، فباغته المسلمون ، وعلى الرغم من استخدام الهنود الفيلة والنبال والنفط فانهم هزموا شر هزيمة (٥) ، واستولى المسلمون على الرور ، وتقدم محمد بن القاسم صوب الشمال ، وتمكنت قواته من الاستيلاء على برهانا باد (٦) . وواصل العرب تقدمهم صوب الشمال يستولون على البلدان التي في طريقهم حتى بلغوا الملتان ، واستولوا عليها عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة (٧) .

كان لاستيلاء العرب على الملتان أهمية كبيرة ، نظرا لأهميتها الكبيرة عند الهنود من الناحية الدينية ، إذ يوجد بها المعابد الكبيرة يحج اليها الهنود من كل حذب وصوب ، ويهدون الأموال الى الصنم المقام هناك ، وينذرون له الذنور ، ويطوفون به ، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ، ويسقط الملتان في أيدي العرب أصبح وادي السند بأكمله في حوزتهم ، ورحب الهنود بحكم المسلمين لهم لأنهم قاسوا كثيرا من ظلم وجور الهندوس ، وتجلّى ذلك في اقبالهم على محمد بن القاسم يدقون الأجراس ، ويقرعون الطبول ، ويرقصون رقصاتهم الشعبية (٨) .

عول محمد بن القاسم بعد أن أقر الأمور في البلاد التي فتحها على غزو مملكة قنوج ، أعظم امارات الهند - لكن مشروعه لم يقدر له أن يتحقق ، ذلك أن الحجاج توفي سنة ٩٥ هـ وبعد ذلك بقليل توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذي كان يعترض على سياسة سلفه ، فعهد بحكم العراق الى صالح بن عبد الرحمن ، وعزل محمد بن القاسم عن السند ، وولى بدلا منه يزيد بن أبي كبشة ، وأمره بالقبض على محمد بن القاسم ، وارساله اليه وسيق فاتح السند مقيدا بالسلاسل الى واسط حيث أودع في السجن ولقى حتفه (٩) بعد ذلك بقليل .

(5) Lane Poole : Medieval India. p. 9.

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٤٤ .

(٧) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٤٤ .

(8) Lane Poole : Medieval India p. 10.

(٩) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٤٦ .

ومما لا شك فيه أن عزل محمد بن القاسم عن السند كان خسارة كبرى أصابت مركز المسلمين في هذه البلاد ، ذلك أن البلاد التي دخلت في حوزة المسلمين ، انتقضت على الحكم الاسلامي ، وانشغل الولاة الامويون في المحافظة على ممتلكات المسلمين في السند ، بدلا من أن ينطلقوا في الفتح ، على أن الحكم بن عوانة كان من خيرة ولاة السند بنى مدينتي المحفوظة والمنصورة على شاطئ السند ، وصارت الأخيرة حاضره للمسلمين فيما بعد ، وقد سار في الناس سيرة حسنة ، وأطلق للهنداكسة جرية العبادة (١٠) .

ولما سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، حافظ خلفاؤها على بلاد الهند الاسلامية ، وعملوا على توسيع رقعتها ، فعلى عهد الخليفة المنصور ، دخلت كشمير في حوزة العباسيين ، وأكد العباسيون سيطرتهم على الملتان (١١) ، وتتابع غزوات المسلمين في بلاد الهند ، فعلى عهد الخليفة المهدي سنة ١٥٩هـ استولى المسلمون على مدينة باريد ، وأحرقوا تمثال بوذا ، وما زالت فتوحات المسلمين تتابع في بلاد الهند في عهد المأمون والمعتمد حتى سيطر المسلمون على البلاد الواقعة بين كابل وكشمير والملتان (١٢) .

ولما ضعفت الدولة العباسية ، عجزت الحكومة المركزية عن السيطرة على أطرافها ، لذلك استقل حكام الأقاليم عن بغداد ، وقامت في السند امارتان مستقلتان ، احدهما في الجنوب وعاصمتها المنصورة ، وامارة في الشمال وعاصمتها الملتان ، واستقرت أمورها نقيجة لتحسن أحوالهما الاقتصادية ، والنشاط التجاري بين السند والشرق والغرب وازدهرت فيها العلوم والحضارة ، وآوى اليهما الفارون من بطش الخلافة (١٣) .

أهمل الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الثاني شأن اقليم السند حتى أن الخليفة الضعيف المعتمد أقطعها ليعقوب بن الليث

(١٠) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٩ .

(١١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٩ .

(١٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٥٠ .

(١٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٥٦ .

الصفار مع بعض البلدان المجاورة ، حتى لا يتطلع الى السيطرة على العراق (١٤) .

وترتب على اهمال الخلفاء لبلاد السند نشاط الاسماعيليين بها . فقامت في الملتان حكومة اسماعيلية في القرن الرابع الهجري ، اذ كانت أرضا خصبة راجت فيها المبادئ الاسماعيلية ، ووجد فيها الدعاء الاسماعيليون استجابة قوية ، والتف حولهم القرامطة الذين قدموا الى السند من البحرين وبلاد فارس ومكنوا القائد الاسماعيلي جلم بن شيبان من السيطرة على مقاليد الأمور في الملتان (١٥) . أما إمارة المنصورة فقد تعرضت لكثير من الاضطرابات نتيجة لضعف حكامها واختلافهم على أنفسهم .

ظل الهنود في مأمن من الغزو الاسلامي حتى النصف الأخير من القرن الرابع الهجري ، اذ قوى شأن الأتراك الغزنويين في أفغانستان ، وكلما قويت أفغانستان زحفت قبايلها تغزو في بلاد الهند ، وإذا ضعف شأنها وتدهورت أمن الهنود (١٦) ، أما وقد عظم شأن سبكتكين وابنه محمود في أفغانستان وصار لهما جيش قوى ، فقد ازداد النشاط الاسلامي في بلاد الهند ، وكان للشمال الغربي في بلاد الهند منقسما بين أمراء كثيرين من الراجبوتيين يعترفون لراجا دلهي بالغلبة والتفوق ، أما راجا تنوج فكان في حوزته إمارة أوده وإمارة وادي الكنج (١٧) .

وقيل أن نتحدث عن الفتوحات الغزنوية في بلاد الهند يجدر بنا أن نناقش الأسباب التي حملت الغزنويين على شن حملاتهم المتتالية على هذه البلاد .

لما قوى أمر سبكتكين في غزنة ، وضم الى ملكه بعض البلدان المجاورة ، وأنشأ جيشا قويا من الأفغان والترك ، رأى ضرورة الانحسار بتلك القوة الهائلة الى ميدان فسيح ، ولم يكن في استطاعته الاتجاسه تخون

(١٤) الساداتي : تاريخ المسلمين في الهند ج١ ص ٢٥ .

(١٥) المصدر السابق ج١ ص ٧٥ .

(١٦) Panikar. A survey of India. p. 122-123.

(١٧) جوشناف لوبون : حضارة الهند ص ٢١٧-٢١٨ .

بلاد العراق لأن البويهيين كانوا قد وطدوا نفوذهم فيها ، كما أن بلاد ما وراء النهر كان التره خانيون يعملون على بسط سيطرتهم عليها ، وانتزاعها من السامانيين ، لذلك انطلق الغزنويون الى بلاد الهند من منطقتهم الوعرة كما سنرى (١٨) .

ومما لا شك فيه أن الرغبة في الجهاد ورفع راية الاسلام في غير بلاد الاسلام من أقوى الأسباب التي دفعت الغزنويين الى القيام بفتوحاتهم ، فمن الثابت أن محمود الغزنوي كان مسلما قوى العقيدة ، تواقا الى نشر الاسلام (١٩) .

سار سبكتكين سنة ٣٧٧هـ / ٩٧٦م على رأس جيش كبير الى بلاد الهنداكة ، ويحكمها جيبال — راجا البراهمة — وتقع مملكته في شمال غرب الهند من الكنج الى الأفغان ، ومن كشمير الى اللتان (٢٠) ، وفتح قلاعاً حصينة على شواهدق الجبال ، ومن بينها مدينة كابل ، وعاد الى بلاده سالماً ظافراً (٢١) ، ولقد كان لاستيلاء سبكتكين على كابل اثر كبير في اضعاف شأن مملكة جيبال (٢٢) ، ذلك أن كابل تسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندي الخصيب (٢٢) ، ومما هو جدير بالذكر أن يعقوب ابن الليث الصغار لما مد فتوحه الى كابل سنة ٢٥٩هـ (٨٧١م) وجد أهل هذه البلاد لا يزالون على الوثنية ، فنشر الاسلام بينهم (٢٣) وتوطد في عهد سبكتكين وابنه محمود كما انتشر في كافة بلاد الأفغان (٢٣) .

غير أن جيبال عظم عليه استيلاء المسلمين على أطراف مملكته ورأى أن ذلك يشكل خطراً كبيراً على ملكه ، ان هو تفاضى عن ذلك ، فحشد جيشاً كبيراً سار على رأسه الى حدود الدولة الغزنوية (٢٤) ، فسار سبكتكين من غزنة اليه ومعه جمع غفير من الجند والمتطوعة ونشب قتال

(١٨) حسن أحمد محمود : الاسلام في اسيا الوسطى ص ٢٢٩ .

(١٩) جومستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣١٨ .

(٢٠) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٨٤ .

(٢١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ٨٤ .

(22) Lane Poole : Medieval India. p. 17.

(٢٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٨٨ .

(24) Habib : Sultan Mahmud of Ghazni. p. 14.

بين الفريقين انتهى بانتصار المسلمين على أعدائهم (٢٥) ، وأرسل ملك الهند الى سبكتكين يعرض عليه الصلح على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه ، لكن محمود بن سبكتكين أقنع أباه برفض الصلح اذ أبى الا يكون فيصل الحرب عنوة وقهرا للإسلام والمسلمين ، على أن جييال عاد الى طلب الصلح ، وهدد بأن الهنادكة لا يهابون الموت اذ طرقتهم طارق ، فهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم في النار . ويخربون بيوتهم بأيديهم . ثم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم . فيزحون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم الا تلالا خربة (٢٧) عندئذ عدل سبكتكين وابنه محمود عن موقفهما ، وتم الصلح بين الفريقين (٢٨) على ألف ألف درهم وخمسين رأس من الفيلة يؤديها جييال الى السلطان الغزنوي وتنازل له عن عدد من البلدان والقتلاع ، وسير معه سبكتكين من تسلمها (٢٩) .

غير أن جييال نقض الصلح ، وقبض على المسلمين الذين وقعدوا عليه لتنفيذ شروط الصلح ، وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه الموجودين عند سبكتكين ، فلما نوى الى علم السلطان الغزنوي لم يقف مكتوف اليدين ، بل عول على النفاذ الى أرض العدو وإعادة اخضاع جييال ، فسار الى مملكته ، وعاث جنده فيها فسادا وتخريبا ، وقصد لمغان وهى من أحسن قلاعهم — فاستولى عليها وهدم بيوت الأصنام ، وأقام فيها شعائر الاسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ، وينكل بمن يعترض طريقه من الهنود . وعاد الى غزنة (٣٠) فاستعان جييال على خصمه بأمرأ أجمير ودلبي وكلنجر ، وأعدوا جندا جاوز المائة الف مقاتل ، ولكن سبكتكين باعثهم وشنت شملهم فاضطر الأمراء المتحالفون الى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيلة وعشرة آلاف من رعوس الخيل (٣١) .

(٢٥) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٧٥-٧٩ .

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٦ هـ .

(٢٧) العتبي : تاريخ اليميني ج٦ ص ٨٤-٨٤ .

(28) Munshi : The Struggle for Empire. p. 3.

(29) Lane-Poole : Medieval India, p. 17.

(٣٠) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٨٤-٨٤ .

Morel : A Short Hist. of India. p. 143.

(٣١) العتبي : تاريخ اليميني ج١ ص ٨٨-٨٨ .

أسفرت غزوات سبكتكين لبلاد الهند عن امتلاكه بعض البلدان والقلاع في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية وتقع على وجه التحديد بين لمغان وبشاور ، مهدت لخلفائه سبيل فتح المزيد من البلدان الهندية كما أدت انتصارات سبكتكين على أعدائه الى ازدياد قوته وهيئته ، فأطاعه الأفغانية والخلج وأصبحوا مصدرا هاما يمد به بالجند الضروري لتحقيق سياسته (٣٢) .

سار محمود الغزنوي على سياسة أبيه التي تنطوي على بسط سيطرة الدولة (٣٣) الغزنوية على بلاد الهند ، وساعد على ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية ، ووقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها ورأى في بلاد الهند ميدان الجهاد الأكبر فنزاها سبع عشرة غزوة في مدى سبعة وعشرين عاما فيها بين عامي (٣٩١-٤١٧/١٠٠٠-١٠٢٦) حتى خضع له شمال القارة الهندية (٣٤) فأتم فتح اقليم كابلستان ، وفتح ملتان وكشمير ، وسعى الى نشر الاسلام واحلاله محل البرهمية في كل مكان (٣٥) ، وأخضع البنجاب حيث استطاع خلفاؤه من بعده أن يثبتوا سلطانهم في عاصمتهم لاهور طوال مائة وخمسين سنة واندفع في فتوحاته الى ما وراء نهر الكنج ليختم فتوحه في الهند باحتلال كجرات (٣٦) .

ولتفصيل ذلك نقول : ان السلطان محمود الغزنوي لما فرغ من اقرار الامور في خراسان وسجستان رأى ان يغزو الهند غزوة تكون كرامة لما كان منه من قتال المسلمين ، فسار على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل (٣٧) وعند مدينة بشاور التقى بجيش جييال الذي يتكون من اثني عشرة ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيول ، ونشب القتال بين الفريقين ، هزم الهنود وقتل منهم كثيرون ، وأسر جييال ومعه جماعة من البلدان الهندية ، ولما وضعت هذه الحرب أوزارها وحطت من الظهور

(32) Munshi : The Struggle for Empire. p. 4.

(33) Hitti ; History of the Arabs. p. 376.

(34) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 18.

(35) Browne ; A Literary History of Persia Vol. I. p. 376.

(٣٦) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج٢ ص ١٢٠ .

(37) Munshi : The struggle for Empire p. 6.

أثقالها وافق السلطان محمود على إطلاق سراح جيبال (٢٨) بعد أن افتدى نفسه بمال كثير وعدد كبير من فيلة الحرب ، ولم يستطع الأمير الهندوكى بعد أن أطلق سراحه أن يبقى على قيد الحياة بعد أن لحقه الذل والعار ، فألقى بنفسه فى النار فاحترق فى شوال سنة ٣٩٢ هـ ١٠٠١ م (٣٩) .

ثم سار السلطان محمود نحو الهند وانتصر على أهلها ثم قصد إقليم الملتان وهو مركز مشهور للحجاج الهند ، وقد وصف الاصطخرى (٤٠) صنم البراهمة فى الملتان فقال : ان أهل الهند يعظمون هذا الصنم ويحجون اليه من أقاصى بلدان الهند ، ويتقربون الى الصنم فى كل سنة بمال عظيم ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به ، وصورته على خلة الانسان متربع على كرسى من جص وآجر ، والصنم قد ألبس جميع بدنه جلدا ، لا يقبين من جثته الا عيناه ، فمنهم من يزعم أن جسده خشب ، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب ، الا أنه لا يترك بدنه ينكشف ، وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه اكليل ذهب ، متربع على ذلك الكرسى ، قد جعل ذراعيه على ركبتيه ، وقد قبض أصابع كل يديه كأنها بحسب أربعة .

لما قصد السلطان محمود الملتان ، غزا بهاطية — جنوب بلاد البنجاب — وصاحبها يسمى بحيرا — وهى مدينة حصينة عالية السور ، يحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحبها بها ، ولما شدد المسلمون عليه الحصار ، وأدرك ضعفه ووهنه أمام القوات الغزنوية أخذ جماعة من ثقافته واعتصم بالجبال المجاورة ، فسير اليه السلطان الغزنوى فرقة من جيشه باغته على غره وأنزلت به الهزيمة ، ودخلت بهاطية فى حوزة محمود بن سبكتكين ، وأقام بها حتى أصلح أمورها ورتب قواعدها ، ودعا أهلها الى الاسلام واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها تعاليم الدين الحنيف (٤١) .

(38) Lane Poole ; Medieval India. p. 14.

- (٢٩) العتبى : تاريخ اليمى ج١ ص ٣٦٦-٣٦٦ .
- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٣٩٢ هـ .
- (٤٠) المسالك والممالك ص ٧٦-٧٧ .
- (٤١) العتبى : تاريخ اليمى ج١ ص ٧٠-٧٠ .
- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٣٩٥ هـ .

وفي العام التالي قصد السلطان محمود مدينة الملتان وانتصر وهو في طريقه اليها على أندبال بن جيبال الذي رفض مرور القوات الاسلامية من بلاده ووصلت القوات الغزنوية الملتان واستولت عليها ولاذ صاحبها بالفرار .

اتجه السلطان محمود بعد ذلك الى قلعة كواكير فاستولى عليها ، وأحرق أبنائها . واعتصم وتحصن صاحبها في قلعة منيعة فحاصره السلطان الغزنوي وضيق عليه الحصار وما لبث أن صالحه وعاد الى خراسان لانقاذها من غارات الترك (٤٢) وعهد الى نواسه شاه حفيد جيبال الذي اعتنق الاسلام ودخل في طاعة السلطان الغزنوي بأن ينوب عنه في حكم بلاد الهند الغزنوية ، لكن نواسه شاه لم يكن مخلصا لغزنة ، فانتهاز فرصة ابتعاد محمود بن سبكتكين عن بلاد الهند ، وارتد عن الاسلام ، ومالاً أهل الكفر والطغيان (٤٣) ، فلما علم محمود بذلك أسرع الى بلاد الهند ففر نواسه شاه من بين يديه ، واستعاد السلطان محمود تلك الولاية ، وأعادها الى حكم الاسلام ، واستخلف عليها رجلا من ثقاته (٤٤) .

لما رأى أمراء الهند انتصارات السلطان محمود الغزنوي في بلادهم وتهديده لاستقلالهم عقدوا العزم على الاتحاد والوقوف يدا واحدة أمام الخطر الغزنوي الزاحف على بلادهم . لذلك حشدوا جيوشهم بأرض البنجاب في حماس بالسخ ، واشتبكوا مع القوات الغزنوية بقيادة السلطان محمود الذي حمل عليهم حملة لم يستطيعوا الصمود ازاءها ، ففر أمراؤهم ، ولم يستطع جنودهم الصمود أمام ضربات الغزنويين القوية فلان من نجا منهم بالفرار ، واستولى السلطان محمود على عتاد وذخائر وكنوز الجيوش الهندية (٤٥) ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل بعض قواته في أثر

(٤٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٢٩٦ .

(٤٣) نفس المصدر ، حوادث سنة ٣٩٧ هـ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ص ٣١٦ .

(44) Munshi : The Struggle for Empire: p. 8.

Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 40.

(٤٥) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج١ ص ٩٠ .

فلبول العدو المهزومة فلاحقت بابرهمين بال بن أندبال(٤٦) في قلعة بهيم
نغر — وهى على جبل عال — وكان الهنود قد جعلوها مخزنا لسنهم
الأعظم ، فينقلون اليها أنواع الذخائر ، ونفيس الجواهر منذ سنين
دوال ، تقربا الى هذا الصنم ، فحاصر القلعة الجند الغزنوى ، وضيقوا
على من بها الحصار حتى وهنوا واستسلموا وفتحوا باب الحصن ، وملك
المسلمون القلعة(٤٨) وحصلوا منها من نفيس الجواهر ما لا يحصى ومن
الدراهم تسعين الف الف درهم ومن الأواني الذهبية والفضية الشيء الكثير.
وكان ذلك سنة ٣٩٨هـ (٤٩) سنة ١٠٠٧م .

وفي سنة ٤٠٠هـ سنة ١٠٠٩م قام السلطان محمود بغزوة أخرى الى
بلاد الهند فهاجم تارين ، واستولى عليها ، وحطم أصنامها ، ولما رأى
صاحب تارين عدم استطلاعه الوقوف في وجه السلطان محمود عرض
عليه الدخول في طاعته وأرسل عدد من فيلة ومال عظيم وألف رجل
من عسكره اليه كل عام . فاجابه السلطان محمود الى طلبه « وتتابع
القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند في ضمان الأمان وجوار الحيطة
والإحسان(٥٠) .

بلغت فتوحات السلطان محمود في بلاد الهند حدا لم تبلغه رايات
الاسلام المنصورة قبلا ، ودخل في دين الله أفواج عديدة من أهل الهند ومع
ذلك لم يتوقف السلطان محمود الغزنوى عن سياسته في مواصلة ضم
المزيد من البلاد الهندية الى دولته ، فسار في سنة ٤٠٤هـ سنة ١٠١٣م على
رأس جيش كبير الى ناردين ، فسقط في يد صاحبها ، لذلك آوى هو
وجنده الى جبل عال صعب المرتقى ضيق المسلك . لعله يعصمهم من بأس
الجند الغزنوى(٥١) وكتب الى قومه يدعوهم الى الوقوف الى جانبه ،

(٤٦) العتبى : تاريخ اليمى ج٢ ص ٩٩-٩٤ .

Lane Poole : Medieval India p. 20.

Munshi : The Struggle for Empire p. 9.

(48) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 29.

ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٣٩٨هـ .

(٥٠) العتبى : تاريخ اليمى ج٢ ص ٩٩-٩٤ .

Munshi : The Struggle for Empire p. 9.

(٥١) العتبى : تاريخ اليمى ج٢ ص ١٥٢-١٤٨ .

فكثرت جنمه ، وعظمت قوته ودخل مع المسلمين في معركة دارت فيها الدائرة عليه ، وقتل من جنده كثيرون ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم ، وفتح المسلمون ناردين فتحاً طرزوا به شعائر الإسلام ، ووجدوا في بيت كبير صنما قيل : انه بنى منذ أربعين ألف سنة دمره السلطان محمود (٥٢) .

حرص السلطان محمود على الوقوف في وجه أمراء البلدان الهندية الذين يحاولون النيل من سلطانه فيها ، ففي سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م سار السلطان محمود الى ثانبسر لاختضاع صاحبها الذي تهادى في الكن والطفيان والعناد للمسلمين (٥٣) فلقي في طريقه أودية وعرة المسالك وقفارا فسيحة قليلة الماء ، قاسى جنده في قطعها مشقة (٥٤) بالغة وحمل الجند المغزنوى على أهل ثانبسر حملة أدت الى هزيمتهم ، وغنم المسلمون مامعهم من أموال وفيلة ، وعادوا الى غزنة ظافرين . وترتب على هذا الانتصار أن دان للمسلمين اقليم البنجاب وأصبح الطريق الى سهول الهند ممهدا أمامهم (٥٥) .

كان من أثر الانتصارات الرائعة التي أحرزها السلطان محمود في بلاد الهند والغنائم الكثيرة التي حصل عليها جيشه المظفر . أن كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها اكتفاء بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر . والمعروف أن أوانى المعابد الهندية وأكثر الآنية التي تزخر بها دور الأغنياء لم تكن في الغالب الا من الذهب الخالص ، لذلك قدم على السلطان محمود من المتطوعة عشرون ألف مقاتل من بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد ، فقوى بهم ، واعتزم غزو كشمير المجاورة لممتلكاته الهندية (٥٦) ، ولما بلغ بقواته بلاد الهند خشى أمراؤها بأسه ، فأرسلوا رسلا اليه يبذلون الطاعة والولاء له ، ولما بلغ مشارف كشمير أتاه صاحبها وأسلم على يديه ، وواصل السلطان المغزنوى زحفه ، وفي طريقه استولى على الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب

١٢٤

(٥٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٤ .

Habib ; Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 36.

(53) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 22.

(٥٤) العتبي : تاريخ اليمى ج٢ ص ١٤٩-١٥٢ .

السداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج١ ص ٩٢ .

(55) Munshi ; The Struggle for Empire. p. 12.

Defremery : Hist. des Ismaeliens. p. 30.

فاستسلم صاحبه للسلطان محمود ، ودخل هو وقومه في الاسلام . وسار عنه السلطان الغزنوى الى قلعة كلجند (٥٧) ، والطريق اليها غياض ملتفة لا يمكن اجتيازها الا بشق الأنفس ، وكان صاحبها كما يقول العتبي (٥٨) من أعيان الهند وشياطينهم ، فسير جيشه الى أطراف تلك الغياض كي يمنع المسلمين من اجتيازها ، لكن الجيش الغزنوى أحبط محاولة الذين يحاولون النيل من سلطانه فيها ففي سنة ١٠١٤هـ / ١٠١٤م سار منه ، وقد ألحق بالعدو خسارة فادحة (٥٩) ، وعمد كليجند الى زوجته فقتلها ، ثم قتل نفسه بعدها ، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه (٦٠) وسار محمود الى بيت الأصنام المشهورة بهذه البلاد به خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألف وثلاثمائة مثقال فأخذ السلطان الغزنوى كل ذلك وأحرق الباقي (٦١) .

لم يكتف السلطان محمود بما حققته من انتصارات ، انما واصل سيره الى قنوج ، فغادرها راجيال — صاحبها — فاستولى عليها محمود وعلى قلاعها وأعمالها ، ثم سار الى قلعة البراهمة ، ودار قتال بين الغزنويين وبين أهلها ، دارت فيه الدائرة على الهنود ، ولم ينج منهم الا اللثريد (٦٢) ثم اتجه الى قلعة آسى ، ولما لم يستطع جند بسال مواجهة القوات الغزنوية ، لاذ بالفرار . وعلى ذلك امتلك محمود الغزنوى حصنه ، ثم سار الى قلعة شروة ، ولم يستطع صاحبها أيضا الثبات أمام القوات الغزنوية ، وقتل أكثر جنده ، وغنم المسلمون ما معه من أموال (٦٣) وخيل ، وعاد محمود بن سبكتكين الى غزنة ظافرا ، وأنفق ما حصل عليه من هذه الغزوة من مال وغيره في تشييد مسجد كبير في غزنة (٦٤) .

(59) K Ali : A New iHistory of Indo-Pakistan p. 22.

Lane Poole : Medieval India. p. 24.

(٥٨) تاريخ اليميني ج١ ص ٢٦٧-٢٧٦ .

Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 37.

(٥٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٧هـ .

(٦٠) الساداتي في تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٩٣ .

(٦١) العتبي : تاريخ اليميني ج٢ ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(92) Munsui : The Struggle for Empire. p. 15.

(93) Munsui : The Struggle for Empire. p. 15.

(٦٤) العتبي : تاريخ اليميني ج٢ ص ٢٨٩-٢٨١ .

على أن ملوك الهند لم يستسلموا لما لحقهم من عزيمة . وسقوط بلادهم البلدة تلو الأخرى في أيدي الغزنويين ، بل عولوا على التخلص من نخوة وسيطرة غزنة . وقد تزعم هذه الحركة الاستقلالية بيذا - ملك كجوراهه (٦٥) - والتف حوله ملوك الهند ، غير أن راجيبال فاجا حلفاءه وخرج عليهم ، وعاد إلى الولاء إلى الدولة الغزنوية (٦٦) فباغته كجوراهه وقتله ، فازدادت قوته ورأى فيه ملوك الهند خير من يقودهم في معركة تحرير بلادهم من سيطرة الغزنويين ، لكن السلطان محمود بن سبكتكين لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا الخطر الداهم الذي يهدد دولته في الهند ، بل سار سنة ٤٠٩ هـ سنة ١٠١٨ م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهند ، وعبر نهر الكنج (٦٧) والتقى بالقوات المتحالفة . ولقد كان لظهور السلطان محمود في الميدان أثر كبير على أعدائه ، فأخذهم الهلع والفرع ، ولم تكن عنهم كثرتهم شيئا ، إذ انقضت عليهم القوات الغزنوية وألحقوا بهم الهزيمة ، ولما رأى ملوك الهند عدم جدوى التصدي للسلطان الغزنوي ، أرسلوا رسلا إليه ، يبذلون الطاعة والالتواء ، فقبل منهم محمود الصلح (٦٨) وسار في أثر بيذا ، والتقى به في موقعة كبيرة نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم ، وغنموا أموالهم وسلاحهم واقتفوا فلول المهزومين ، وباغتهم في الغياض والآجام ، وأكثروا فيهم القتل والأسر (٦٩) .

تتابعت غزوات وانتصارات السلطان محمود في بلاد الهند ، واتسعت أملاك الدولة الغزنوية في هذه البلاد ، وعظمت هيئته في نفوس أهلها ، وتوقفوا عن مقاومة النفوذ الغزنوي ، على أن أعظم غزوات السلطان محمود حدثت سنة ٤١٦ هـ سنة ١٠٢٥ م إذ فتح عدة حصون ومدن واستولى على الصنم المعروف بسومناات . وهو أعظم أصنامهم ، يحجون إليه كل ليلة خبيوف ، ويعتقد الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأحياء . اجتمعت فيه ، فينشئها فيمن يشاء ، وكانوا يحملون إليه نفائس الجواهر ، ويعطون سدنته المال الوفير ، وله وقف يزيد على عشرة آلاف قرية ، يفد إليه البراهمة لعبادته ، وإقامة الحفلات الدينية على بابيه ، ويعتقد الهنود أن

Lane Poole : Medieval India. p. 23.

(٦٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٢ .

Lane Poole : Medieval India p. 25.

(٦٨) العتبي : تاريخ اليميني ج ٢ ص ٣٠١-٣٠٤ .

(٦٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٩ .

السلطان محمود في غزواته كلما حطم صنما . يعتقدون أن سومنات غير راض عنه ولو أنه راض عنه لأهلك من قصده بسوء (٧٠) ويعتقدون أن هذا الصنم يحيى ويميت ، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل . ومن لم يصادف من أهل الهند انتعاشا احتج بالذنب وقال : انه لم يخلص له الطاعة ، ولم يستحق منه الاجابة ، ولا يوجد في بلاد الهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة الا قدم لهذا الصنم ما عز عليه من أموال وذخائر (٧١) .

لم يهاجم محمود الغزنوي سومنات لتدمير صنم أو الاستيلاء على ما فيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين ، ولكن لأن سمونات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكي في وجه الزحف الاسلامي ، ومهما يكن من أمر سار السلطان محمود على رأس جيش كبير سنة ١١٦هـ سنة ١٠٢٥م فافتحم صحراء جرداء قاحلة متراصة الأطراف هي صحراء الثار — أكبر صحراوات الهند — فلما اجتاز هذه الصحراء ، رأى في طرفها حصونا مشحونة بالرجال ففتحها ودمر أصنامها ، وحصل منها على الماء والميرة اللازمين لرجالهم وسار الى أنهلواره . ففر صاحبها منها ، واحتفى بحصن له ، فاستولى محمود على المدينة وسار الى سومنات (٧٢) ودمر في طريقه عددا من الحصون فيها كثير من الأوثان فيها يبدو — حجابا ونقباء لسومنات — حسب اعتقاد الهند (٧٣) — فقاتل من بها ، وفتحها ، وحطم

(٧٠) العتبي : تاريخ اليميني ج٢ ص ٢٠٤-٢٠٧ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج٢ ص ٩٧٢ .

Morel : A Short History of India. p. 148.

(٧١) سومنات : مدينة ساحلية واسعة بها علماء الهند وعبادهم ، والصنم المعروف بها يسمى الببد ، يجلس على كرسى من ذهب وهو مضمخ بالسك في رأسه الى الكرسى ومقلد بعقود الياقوت والجوهر وأمامه أطباق ذهب مملوءة من الأحجار الشريفة الثمينة والكرسى على مقعد مستدير يسع عشرة رجال ، وببيت الصنم مظلمة والضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق . وعندما تسلسل ذهب فيها كرسى كلما مضى وقت من الليل ، حركت السلسلة فيدق الجرس ، فيقوم طائفة من البرهمنين الى عبادتهم ، وعنده خزانة خاصة فيها عدد من الاصنام الذهبية والفضية .

Munshi : The Struggle for Empire. p. 19.

(٧٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤١٦هـ .

(٧٣) العتبي : تاريخ اليميني ج٢ ص ٢٠٤-٢٠٧ .

أصنامها وسار الى سومنات (٧٤) : وقضى على كل مقاومة اعترضت طريق الوصول اليه ، ولما بلغ حصن سومنات ، قاتل من به ، وأسرعوا الى صنمهم سومنات ليقاتلوا عنه ، وفعلوا قاتلوا على بابه بعنف وضراوة (٧٥) وقصرع الهنود الى صنمهم لعله ينصرهم : وحمل الجند الغزنوي عليهم حملة أخذت الكثير منهم ، وحطم السلطان محمود الصنم سومنات وأحرق بعضه ، وأخذ بعضه معه الى غزنة ، وجعله عتبة مسجد غزنة الجامع (٧٦) .

غير أن بعض ملوك الهند قد أغضبهم ما حاق بمعبودهم الأكبر فأعدوا العدة لمقاومة السلطان محمود ، فخرج صاحب أنهاواره وقصد قلعة كنزته — قرب سومنات — ولما نعى الى علمه أن السلطان محمود قصده ، فر الى بلاده (٧٧) ، كما قصد السلطان الغزنوي المنصورة (٧٨) ، وكان صاحبها قد ارتد عن الاسلام ، وأعد العدة لحاربة السلطان محمود — فسار السلطان الغزنوي الى المنصورة واشتبك مع صاحبها وهزمه وأخضعه لنفوذه ، ثم سار الى بهاطية ، فأطاعه أهلها ودانوا له بالولاء ، وعاد الى غزنة سنة ١٠١٦هـ (٧٩) .

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات ، وارتاح الى مناخه ، حتى انه فكر في الإقامة فيه ، واستخلاف ابنه مسعود على غزنة لولا اعتراض تادته ، ومهما يكن من أمر فانه يمكن اعتبار محمود الغزنوي سلطاناً هندياً خالصاً ، فتح إقليم البنجاب ، ونشر الاسلام في ربوع الهند ، وفتح طريقاً سلكه بعده كثيرون (٨٠) ، وقنع خلفاؤه بعد أن فقدوا أملاكهم في فارس وأفغانستان بالاستقرار في إقليم البنجاب (٨١) ولم تكن غاية محمود من غزواته في بلاد الهند جمع الأموال — كما يدعى بعض المؤرخين — حقيقة

(٧٤) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ١٦٢ .

(75) Hitti : History of the Arabs p. 464.

(76) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 51-53.

(77) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 26-77.

(٧٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤١٧هـ .

(79) Munshi : The Struggle for Empire p. 4.

(80) Cambridge History of India Vol. II. p. 26-27.

(81) Prasad : Medieval India p. 71-72.

ان محمود الغزنوى غنم الكثير من غزواته ، لكن هدفه كان أولا وقبل كل شيء نشر الاسلام . وتحطيم الأصنام ، بدليل أنه رفض ما عرضه عليه الهنابكة من افتداء صنم السومونات بالأموال الطائلة ، وقال انه يؤثر بأن يصنفه من يأتى بعده بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع أوثان (٨٢) . وعلى ذلك يمكن القول بكل ثقة بأن محمود الغزنوى كان غاريا مجاهدا ، أخذ على عاتقه نشر الاسلام في بلاد الهند ، والتضاء على الوثنية فيها . والجق أن محمود الغزنوى كان من خيرة قادة وزعماء الاسلام وبلغ في فتوجه « الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية » ، ولم تنل به قط سورة ولا آية ، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع ، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الاسلام ، ومن مشاهد البستان معاهد التوحيد والايمان (٨٣) .

واصل مسعود بن محمود الغزنوى سياسة أبيه في المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية في بلاد الهند ، وضم المزيد من الأراضي الهندية الى الدولة الغزنوية ، فأقر أحمد بن يnalتيكين على بلاد الهند الغزنوية ، وقد قام هذا الوالى بالاستيلاء على منارنس من ولاية الكنجش التي لم تبلغها جيوش الاسلام قبلا (٨٤)

قوى شأن أحمد بن يnalتيكين في بلاد الهند ، وحدثته نفسه بالخروج على الدولة الغزنوية ، لكن السلطان مسعود تصدى له وتخلص منه (٨٥) .

وعلى الرغم من أن السلاجقة كانوا يشكلون خطرا جسيما على الدولة الغزنوية في عهد السلطان مسعود إلا أن هذا السلطان لم يتقاعس عن مواصلة الفتوح في بلاد الهند ، ولم يستمع الى تحذير رجال دولته بالبقاء في غزنة حتى يكون قريبا من السلاجقة ، فسار الى بلاد الهند سنة ٤٢٩هـ ١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم وهو الاستيلاء على قلعة هانسي

(٨٢) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج١ ص ٩٨ .
Advanced History of India. p. 103-104.

(٨٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٢٦٥ .

(٨٤) تاريخ البيهقي ص ٤٢٦-٤٢٧ .

(٨٥) تاريخ البيهقي ص ٢١٥ .

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جوادث سنة ٤٢١هـ .

Lane Poole : Medieval India p. 41.

وكانت تسمى بالقلعة العذراء ، لأن أحدا لم يستطع فتحها من قبل . واستولى على هذا الحصن الهندوكى الكبير ثم زحف الى سنيات عند الشمال الغربى من دلهى ، ففر أهلها الى الغابات المجاورة مما يسر للسلطان أمر الاستيلاء على هذه البلدة (٨٦) .

على أن جهود السلطان مسعود فى بلاد الهند يسرت للسلاجقة تحقيق أطماعهم فى إقليم خراسان (٨٧) واستولوا على بعض بلدان خراسان وتطور الأمر فى الدولة الغزنوية الى أسوأ من ذلك . فقد هزم السلاجقة السلطان مسعود فى داندانقان سنة ٤٢٢هـ / ١٠٤٠م .

ولما رأى السلطان الغزنوى ضعف قوته ، قرر الرحيل الى الهند حتى يجمع الجموع ويعود الى غزو السلاجقة ، واسترداد خراسان ، لكنه قتل فى الطريق الى الهند ، فخلفه ابنه مودود ، وسار على سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى الهند ، فتصدى لأخيه مجذود الذى ولى إقليم البنجاب منذ عهد أبيه ، وكان من أثر شره مجذود أن تشجع بعض أمراء الهنادكة وتحالفوا ، وأعلنوا الاستقلال عن الدولة الغزنوية ، وزحفوا الى لاهور ، لكن الجند الغزنوى ردوهم على أعقابهم ، وعادت الى المسلمين هيبته فى شمال شبه القارة الهندية (٨٨) .

ولما ولى السلطان ابراهيم بن مسعود الحكم أعاد الى الدولة الغزنوية هيبته ، ونظم أمورها ، وأقر الأمور فى هندوستان (٨٩) ولما توفى امتد النفوذ السلجوقى الى الدولة الغزنوية ، فواقت الفرصة الأمراء الهنود لمحاولة الانفصال عن الدولة الغزنوية ، لكن السلطان بهرام شاه أحض محاولتهم ، وقضى على الفتن التى حدثت فى البنجاب والملتان ، ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور وكانت الآمال قد بعثت فى نفوسهم من

(٨٧) تاريخ البيهقى ص ٥٨٠ .

Lane Poole : Medieval India p. 43.

(٨٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٦ .

(٨٩) خوندميزر : حبيب السير ج٢ ص ٢٠ .

Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 104.

جديد لطرد الغزاة من بلادهم ، وهكذا استطاع بهرام شاه أن يحافظ على النفوذ الغزنوي في بلاد الهند ، ويثبت أقدام الدولة الغزنوية فيها (٩٠).

ولما ضعفت الدولة الغزنوية لجأ سلاطينها الى ولايتهم في بلاد الهند للاعتصام بها أو الاستعانة بأهلها لرد الغزاة الطامعين في غزاة — حاضرة ملكهم — فلما ولي السلطان خسروشاه لجأ الى الهند على اثر اقتحام قبائل التركمان لحاضرة دولته ، كما انتهر الغور فرصة الفوضى التي عمت الدولة الغزنوية المتداعية ، فانقضوا على غزاة وأعملوا فيها الخراب والدمار (٩١) ، وقضى آخر ملوك الدولة الغزنوية أيامه الباقية في لاهور ، وتفاقم خطر الغور ، واشتد ساعدتهم فاستعاد زعيمهم غزاة من التركمان ، وظلوا يطاردون السلطان الغزنوي في بلاد الهند حتى قبضوا عليه ، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية التي يرجع اليها الفضل في توطيد أقدام المسلمين في أرض الهند ، ونشر الاسلام في تلك الديار .

والواقع أن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد ، ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دلهي (٩٢) ، ونشروا نفوذ المسلمين في أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة (٩٣) .

نتائج الفتوحات الغزنوية في بلاد الهند

لا شك أن الاسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بني سبكتكين ، ودخل الهنود في الاسلام عن طوع واختيار حقيقة ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويون في بلاد الهند على نشر الاسلام ، وبنوا مساجد في بعض مدن الهند ، كما أن حكومة الملتان الاسلامية كان لها السيادة في بلاد السند منذ الفتح العربي في عهد بني

(٩٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٦ .

(91) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule p. 46.

(92) Lane Poole : The Mohammedan Dynasties p. 284.

(93) Prasad : Medieval India p. 48.

أمية ، وكان لها نصيب في نشر الاسلام في هذه البلاد . ولكن ينبغي أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين خصوصا محمود بن سبكتكين كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على اعتناق الاسلام .

انتشر الاسلام في بلاد الهند نتيجة لانتصارات راياته فيها ففي سنة ٤١٠هـ أحرز السلطان محمود انتصارا رائعا على هرداقا — أحد ملوك الهند — فوافق على اعتناق الاسلام ، وتقدم إلى السلطان الغزنوي بمعشرة آلاف رجل ، وأعلنوا رغبتهم في التحول إلى الاسلام ، ونفذ عبادة الأصنام (٩٤) ، ومما لا شك فيه أن بعض الهنود تركوا عبادة الاوثان واعتنقوا الاسلام تقريبا لحكامهم الجدد .

ولقى الاسلام ترحيبا كبيرا من الطوائف الفقيرة الذين كان حكمهم الآريون يفترونهم ويحتقرونهم وينقصون من شأنهم ، فأعلى الاسلام ، دين المساواة — منزلتهم ورفع شأنهم (٩٥) .

كذلك انتشر الاسلام بين الهنود عن طريق الفقهاء والوعاظ ودروسهم والعلماء والمتصوفة ورحلاتهم ، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الشيخ اسماعيل وكان من أهل بخارى ، وعرف بثقافته الدينية والدنيوية ، قدم إلى لاهور سنة ٣٩٦هـ ١٠٠٥م وظل بها يدعو الناس إلى الاسلام ويعلمهم شرائعه ، وقد وفد عليه كثير من أهل الهند للاستماع إلى مواعظه ، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس إلى الاسلام على يديه (٩٦) .

ولما كان الغزنويون سنيين متشدددين ، فقد اعتنق الهنود الاسلام على المذهب السني ، وحضوا خدو غزاتهم في تعصبهم وتزمتهم . كذلك عرف أهل الهند اللغة الفارسية عن الغزنويين ، والمعروف أن هذه اللغة نمت وازدهرت في بلاط سبكتكين في غزنة ، كذلك وجد المتصوفون من الفرس والترك في بلاد الهند خير موئل يلجأون إليه من بلادهم المضطربة ، ولقيت الصوفية ترحيبا من أهل الهند الذين يميلون إليها بطبيعتهم (٩٧) ، كذلك أخذ الترك في الهنود . والهنود في الترك ، وأخذ

(٩٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٠٩هـ .

(٩٥) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٢١٤ .

(٩٦) نفس المصدر ص ٣١٥ .

(٩٧) حسن أحمد محمود : الاسلام في اسيا الوسطى ص ٢٦٩ .

كل منهما عن الآخر ، إذ نقل الترك الى الهند الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية ، وبهذا انتشرت في المجتمع الاسلامي بالهند اللغة الفارسية — لغة الثقافة في ذلك العصر (٩٨) — واللغة الأوردية التي هي خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية ، ولم تنتشر اللغة العربية ، وبالتالي لم تزدهر الثقافة العربية بالهند ازدهارها في الاقاليم والدول الاسلامية الأخرى ، وساعد على هذا أن بعض الشيوخ والعلماء الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ما وراء النهر ، وهؤلاء كانوا اتباع مذهب أبى حنيفة يعتمدون على كتب فقهاء هذا المذهب ، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة والثقافة الفارسية ، وبهذا اصطفت الثقافة الاسلامية بالهند بهذه الصفات الثلاث ، ولم تقم على أسس قوية من الثقافة العربية (٩٩) . ونشأ فريق من المولدين يمثل حضارة اسلامية مزيج من الحضارات التركية والفارسية والهندية ، وينعم بالتسامح الاسلامي ، وينبذ التفرقة التي كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل ، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهمنية (١٠٠) ، واحترم الهذاذكة عقائد المسلمين ، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند ، وتقدم علمائهم في علم الفلك .

ولقد تأثرت الحياة الاجتماعية بالترك ، وتجلى ذلك في إفتتار الحجاب بين النساء ، وتخلص المقبوضون من قيود النظام الطبقي وسامعوا بحرية في ميادين الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية ، واقتبس الهندوس عن المسلمين أنظمتهم الادارية والمالية والقضائية ، وشهد الادب الفارسي ازدهارا ، زاد منه رحيل أدباء فارس الى الهند ، وأصبحت الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين ، وغير المسلمين ، واستفاد المسلمون من السنسكريتية ، وترجموا عنها الى الفارسية كما ترجموا اليها ، وفي ميدان الفن استفاد المسلمون من الهندوس ، والهندوس من المسلمين ، وتجلى ذلك في المساجد والمعابد .

(٩٨) جوستاف لوبون : حضارة الهند من ٤١٧-٤١٨ .

(٩٩) جمال الشهاب : تاريخ دولة أباطرة المغول الاسلامية في الهند من ١٧٠٠ .

(١٠٠) جوستاف لوبون : حضارة الهند من ٤١٧-٤١٨ .

د - النهضة الثقافية

ازدهرت الحياة الثقافية في الدول المستقلة في شرق الدولة الإسلامية وقدر أمراؤها رجال الأدب ، وعملوا على إرضائهم ، فقد كان كل أمير يريد أن يتفوق على أقرانه يحيط نفسه برجال العلوم والفنون وأهم المراكز الأدبية في عهد السامانيين بخارى والمدن المختلفة في جنوب وغرب إيران ، خصوصا الري وأصفهان في عهد البويهيين وقصور العلويين والزياريين في ولاية طبرستان ، وقصور ملوك خوارزم (١) .

برزت غزنة في أواخر القرن الرابع الهجري كمركز إشعاع كبير في جنوب شرق آسيا ، يعلو شأنه على المراكز السابقة ذكرها وذلك بفضل تشجيع السلاطين الغزنويين الذين لم يألوا جهدا في سبيل رفع شأن العلوم والفنون في دولتهم ، ومما زاد في مكانة غزنة أن معظم المراكز التي ذكرناها آلت إلى الدولة الغزنوية واستطاع السلطان محمود الغزنوي أن يضم إليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون بأمراء البلاد المجاورة (٢) .

وجدير بالذكر أن السلطان محمود أرسل إلى مأمون بن مأمون — أمير خوارزم — يقول « لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعا إلى قصري حتى يتشرفوا بلاقائي فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم » ، ولما كان هذا الأمير يخشى بأس السلطان محمود فقد أمر رجال العلم في بلاده بالتوجه إلى غزنة فتصدده البيروني وغيره ، وفر ابن سينا إلى طبرستان ، وجد السلطان محمود في البحث عنه ، ولكن أمير طبرستان لم يمكن رجال السلطان الغزنوي من ابن سينا بعد أن أفاد منه فوائد جمة في مجالات الطب وغيره من فروع العلم (٣) .

أما عن الحركة الثقافية في بلاد الهند التي فتحها الغزنويون فقد كانت ضعيفة لحدائث عهدها بالاسلام واللغة العربية على أن القسم الذي استولوا عليه من الدولة السامانية وغيرها من البلاد التي استوفق

-
- (١) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج٢ ص ١١٥
 - (٢) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج٢ ص ١٢٢
 - (٣) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج٢ ص ١١١

الاسلام فيها استمرت الحركة الثقافية في العهد الغزنوى على ما كانت عليه من حيث الازدهار والقوة (٤) .

كان لقيام الدولة المستقلة في شرق الدولة الاسلامية اثره في ازدهار الحياة الثقافية فيها ، فقد نامت حواضر هذه الدولة ببغداد بعد ان كانت اكبر مراكز العلوم والآداب ، واصبح لهذه الحواضر شخصية متميزة في علمها وادبها تعمل على تجليل نفسها بالعلماء والادباء ، وتعتز بهم ، وتيسر لهم سبل الحياة الهنيئة (٥) .

لم يال السلطان محمود الغزنوى جهدا في تشجيع الحركة العلمية في بلاده ، فزين غزنة بأجمل ما حصل عليه من مغنم الهند واعاد تشييد مسجدها الجامع على أحسن صورة « وأضاف الى المسجد مدرسة فيحاء تشتمل حجراتها من بساط الأرض الى سقفها على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الاولين والآخرين منقولة من خزائن الملوك السابقين ، يتناولها فقهاء وعلماء غزنة بالتدريس (٦) » .

ومما يجدر ذكره ان السلطان محمود لما فتح الري سنة ٤٢٠ ، كان صاحبها مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه متشاعلا عن أمور بلاده بقراءة الكتب ونسخها ، وكان عنده مكتبة ضخمة تحتوى على فروع العلم المختلفة ، فلما فتحها السلطان محمود أحرق كتب الفلسفة ومذاهب الامتزال والنجوم وأخذ من الكتب ما سوى ذلك مائة حمل الى خزائنه (٧) .

اجتذب السلطان محمود بن سبكتكين الى غزنة الكثير من علماء الدين ، وحبيب أهل المذاهب الدينية والفقهية في التقرب اليه لاعتقادهم انه اذا اعتنق مذهباً ساد في الأقاليم الواسعة التي فتحها ، فالفاطميون في مصر وجهوا اليه داعية يدعونه الى دخول المذهب الاسماعيلي ، فأيقن محمود بطلان ما دعى اليه . وأمر بقتل داعي الفاطميين وأهدى بخلته

(٤) أحمد أمين : ظهور الاسلام ج١ ص ٢٨١ .

(٥) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص١٢٠٨ .

(٦) العتبي : تاريخ اليميني ج٢ ص ٢٩١-٢٩٩ .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٢٠ .

الى القاضي أبي منصور الأزدي له شيخ هديفة هراة بن وقمال : كان
يكبراً رأس المحدثين فليركبوا رأس الموحدين (٨) .

وجدير بالذكر أن السلطان محمود بن سبكتكين كان مولعاً بعلم
الحديث ، ويستمع الى علمائه ، ويستفسر عما يتلونه من أحاديث (٩) .

ويذكر البيهقي (١٠) أن محمود بن سبكتكين كان يستدعى الى غزنة كل
من له سمعة في العلم ، ومن هؤلاء أبو صالح النخائي والامام أبو صادق ،
ولما توفي أبو صالح أرسل محمود الى نيسابور يسأل عن بقى منهم
لأنهم أخلص الناس الى مذهب أبي حنيفة ، وكان أبو صادق آية في العلم
والكمال ، تولى قضاء طوس ، ونسا . وتجلت قدرته العلمية في مجالسه
ومناظراته العديدة حتى أن السلطان عهد اليه بالاشراف على المدارس
الدينية في تلك النواحي .

ازدهرت الحركة الثقافية في مراكز عديدة في الدولة الغزنوية فكان
خلف بن أحمد — والى سجستان — يتمتع بسمعة كبيرة في اهتمامه
بأهل العلم « وقد مدح على السنة الشعراء والعلماء بما هو سائر ،
 وذكره في الآفاق طائر » ، ومن أبرز أعماله العلمية جمعه العلماء على
تفسير وتصنيف القرآن الكريم لم يغادر فيه حرفاً من أقوال المفسرين
أو تأويل المتأولين وأتبع ذلك بوجوه القراءات ، وعلل النحو والتصريف
وعلامات التذكير والتأنيث ، ووسعها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث ،
 وأنفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونته على جمعه وتصنيفه عشرين ألف
 وأودع نسخها نيسابور في مدرسة الحسابونية وتفسيره من أكثر كتب
 التفاسير إذ يقع في مائة مجلد (١١) .

ومن علماء نيسابور المشهورين أحمد بن الحسين البيهقي وهو من
 كبار المهتمين بالحياة الثقافية ، رحل في طلب الحديث الى العراق
 والحجاز والجبال ، وسمع في خراسان من علماء عصره ، وكذلك بالبلاد

(٨) Hitti: History of the Arabs p. 376--377.

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٢ ص ٢٨١ .

(١٠) ابن خلكان : وفیات الاعيان .

(١١) براون : تاريخ الادب الفارسي ج٢ ص ٢٠٣ .

التي زارها وشرع في التصنيف حتى بلغت ألف جيزة ، وهو أول من جمّع تصنيف الأنام الشافعي في عشر مجلدات . ومن أشهر مصنفاته « المتن الكبير » ، « السنن الصغير » ، « دلال النبوة » ، « السنن والآثار » ، « مناقب الشافعي » ، « مناقب ابن حنبل » .

وكان من أهل الزهد ، وقيل : ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منة إلا أحمد البيهقي فإن له على الشافعي منة . إذ كان من أكثر الناس دراسة لمذهب الشافعي . وانتقل إلى نيسابور لينشر العلم ، وأخذ عنه الحديث جماعة من الأعيان وتوفي (١٢) سنة ٤٨٥ هـ / ٩٢٠ م .

وكان البستي كاتب محمود وموضع سره ومستشاره في أمره ، أديبا كبيرا له شعر جيد ونثر جيد (١٣) ، فأما شعره فأكثره مقطوعات يعهد بها إلى المعنى الرقيق ، فيصوغه في لفظ رشيق ، وأما نثره فواضح جميل فيه السجع والازدواج على طريقة عصره ، وهو في نثره يكثر من الأمثال ، ونظمه يكثر من الحكم (١٤) .

ويتجلى لنا من قصائده وكتابه التي وصلت إلينا مدى معرفته لدواعي الشعراء ، وخاصة علم النجوم .

كذلك كان أبي نصر محمد بن عبد الجبار العتبي مؤرخ الدولة الفزنوية مكانة كبيرة عند محمود بن سبكتكين ، قدم إلى خراسان على خاله أبي نصر العتبي من كبار عمال الدولة السامانية وفضلاتهم ، وعمل معه إلى أن مضى إلى سبيله ، وتقلت به الأحوال والأستفار في الكتابة لبعض الأمراء حتى اختاره السلطان سبكتكين كاتباً له مع أبي الفتح البستي ، وله مؤلفات كثيرة ، ومن أبرزها كتاب البيهقي نسبة إلى لقب السلطان محمود ، وقد ألف العتبي كتابه هذا في تاريخ الدولة الفزنوية ، ترجم فيه لسبكتكين ، وأوضح كيفية تأسيس الدولة الفزنوية . ثم أراج محمود ، وأبرز الوقائع والأحداث التي حدثت في أيامه ، ويعتد هذا الكتاب رجحاً أكبر مضمناً لتاريخ هذه الدولة في هذه الفترة بالذات

(١٢) ابن خلكان : وفیات الاعیان ١٦ ص ٥٨٥٧ .

(١٣) براون : تاريخ الادب الفارسی ٢ ص ٢٨١ .

(١٤) أحمد أمين : ظهر الاسلام ١٦ ص ٢٨٤-٢٨٥ .

وقد ضاعه في أسلوب أدبي مسجوع على نحو ما فعله معاصره أبو منصور الشعالي . ولذلك حاز على شهرة كبيرة بين الكتب الأدبية والتاريخية ، وعن بشرحه الكثير من الأدباء (١٥) .

ومن أبرز رجال الأدب والتاريخ في الدولة الغزنوية أبو الفضل محمد ابن حسين البيهقي . ولد في قرية بيهق في الجنوب الشرقي لخراسان حوالي سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م وتوفي في صفر سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، وقد بدأ حياته في نيسابور ، وتثقف بها ثقافة دينية وأدبية واسعة اشتملت على علوم الحديث والقرآن والآداب العربية ، وارتبط بروابط وثيقة برجال العلم والأدب ، ومن أبرز كتبه ، كتابه الذي وضعه عن الدولة الغزنوية ، ويعتد أهم مرجع في تاريخ هذه الدولة في عهد السلطان مسعود بن محمود ، والذي يقرأ هذا الكتاب يشعر بسعة اطلاع مؤلفه ، وعمق ثقافته واحاطته الكاملة باللغتين العربية والفارسية ، استمع الى كثير من الأحاديث ورواها ، وله أشعار عربية .

التحق البيهقي بالعمل في ديوان الرسائل واعتزل عمله في آخر عهد السلطان عبدالرشيد . واعتكف على القراءة والتأليف حتى وفاته ، والبيهقي كتب أخرى منها « زينة الكاتب » ، « ومقامات أبي نصر مشكان » رئيس ديوان الرسائل .

سار البيهقي (١٦) في كتابه على منهج يختلف تماما عن المؤرخين المعاصرين له ، فلم يقتصر كتابه على سرد الأحداث السياسية ، وإنما وجه اهتمامه كذلك بعرض دقيق للنظم السياسية والإدارية والمالية ورسوم قصر السلطان ، وأبرز الحياة الاجتماعية في الدولة الغزنوية من عادات وتقاليد ومجالس اجتماعية ونحو ذلك . وترجع أهمية كتاب البيهقي الى أن صاحبه عاصر معظم الأحداث التي كتب عنها ، والبيئة التي جرت فيها ، ولم يكتف البيهقي بالأحداث التاريخية كمعادة معاصرة من المؤرخين ، إنما كان يتوقف ليبدى رأيه ورأى الوزير ورئيس الديوان ، وينقل صدى الأحداث عند الرأي العام الغزنوي ، ودون الوثائق

(١٥) يراون : تاريخ الادب الفارسي ج٢ ص ١٢٢ .

أحمد أمين : ظهر الاسلام ج٢ ص ٨٦ .

(١٦) مقدمة تاريخ البيهقي .

الرسمية للدولة ونقلها . وتعتبر من أهم الرسائل السياسية الإسلامية ، ولم يعتمد على الذاكرة حين تأليف كتابه ، إذ كان يدون ما يستمع إليه من الوزير أو من كبار رجال الدولة ، لذلك كان كتابه حديث رجل سياسى عن حياة السلطان الذى عمل معه ، وعما كان يجرى فى الشؤون الداخلية والخارجية للدولة الفزنوية لذلك فهو يعطى صورة صادقة عما جرى فى البلاط الفزنوى أيام السلطان مسعود ، وعن طريق الحكم فى الدولة الفزنوية .

كذلك اهتم السلطان محمود بالشعر ، فقد كان شاعرا بطبعه وتنسب اليه ست قصائد فى الغزل . وقرب اليه الشعراء . ومن أشهر شعرائه عنصرى وهو يلى الفردوسى فى المرتبة ، وبلغ من فضله وعلمه أن بعض الناس كان يلقبه بالحكيم ، وقدر عدد شعراء السلطان محمود بأربعائة شاعر ، يقرون للعنصرى بالأستاذية ، وكان نديما لمحمود الفزنوى كما كان شاعرا له ، وظل يسجل نظما مقامات السلطان وغزواته وفتوحه ، حتى أن السلطان منحه لقب « ملك الشعراء » فى مملكته ، وأمر كل شاعر فى مملكته بعرض شعره على الأستاذ العنصرى حتى يميز بين غثه وثمينه ، ثم يعرض بعد ذلك على السلطان ، وأصبح مجلس السلطان محمود مقصد الشعراء .

ومن تلاميذ العنصرى الشاعر المسجدى . والشاعر فرخى ، والمفرخى كتاب فى فنون الشعر اسمه « ترجمان البلاغة » (١٧) ، ويقال أن الفرخى لدى الفرس بمثابة المتنبى لدى العرب . وقد التحق الفرخى بخدمة بعض الأمراء ، وعلا أمره ، والتحق بخدمة السلطان محمود ، فلما رآه على هذه الحال من الرفعة والعظمة والجاه أكرمه ورفع منزلته وأمر أن يتبعه إذ ركب عشرين غلاما يتمنطقون بمناطق من الفضة الخالصة (١٨) .

(١٧) براون : تاريخ الادب الفارسى ج ٢ ص ١٢٩ .

هذه صاحب كتاب چهار مقاله .

ما أكثر القصور التى شيدها محمود وأقامها بالميناء فجعلها فى رقعتها تطاول أقماع السماء . ولكنك الآن لن تجد أجرة واحدة منها قائمة فى مكانها ، وكل ما تبقى هو ما أقامه له العنصرى من ثناء .

(١٨) براون : تاريخ الادب الفارسى ج ٢ ص ١٤٢ .

K. Ali : A New History of Indo — Pakistan. p. 32.

على أن الفردوسى كان من أبرز شعراء وأدباء العصر المغزوى وقد افترن اسمه بالشهامة التى شرع الدقيقى فى نظمها ، وأغتناله أحد عبيده ليلا . لذلك فإن الدقيقى سبق الفردوسى فى نظم الشهامة ، فنظم ألف بيت ، وزاد الفردوسى ستين ألفا . وفى ذلك يقول الفردوسى : فلما قرئت هذه القصص على الناس أولع بها العقلاء والحكماء ، حتى ظهر فى مذهبهم اللسان ، قوى البيان . ذكى الفؤاد . فقال : سأنظم هذا الكتاب ، ففرح الناس واستبشروا ، لكنه لم يتمكن . إذ قتله أحد عبيده بعد أن نظم ألف بيت فقط (١٩) .

جرّص الفردوسى على اتهام هذا الكتاب المغزوى ، وخشى أن يتوفاه الله قبل أن يتم هذا العمل الجليل ، وكان كلما فرغ من قصّة أو مجموعة قصص ، بعث بها إلى السلطان محمود المغزوى (٢٠) .

كتب الفردوسى الشهامة بعد خمسة وعشرين عاما من الجهد المواصل وتتضمن أخبار الفرس القدامى ورواياتهم الشعبية ، وتوجه بها إلى الوزير أحمد حسن الميندى ، فقدمها إلى السلطان . على أن الوزير كان له منافسون ، أوغروا صدر السلطان على الفردوسى قالوا عنه : أنه رافضى ومعتزلى . فأرسل السلطان إلى الفردوسى مبلغا ضئيلا من المال لا يتناسب مع الجهد الذى بذله هذا الشاعر الكبير (٢١) فنارق الفردوسى غرنة ، وقصد هراة ، ومنها طبرستان ، وكتب فى مقمّة الشهامة مائة بيت فى هجاء محمود بن سبكتكين ، وأهدى الكتاب إلى شهريار - أمير طبرستان وجرجان - وقال : سأحول أهداء هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك . فإن هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم ، فتلطف شهريار به وأكرمه . وحذف أبيات الهجاء منها ، إذ كان يخشى بأس محمود . وأغسّدق على الفردوسى من الأموال ما أرضاه (٢٢) .

على أن السلطان محمود لم يلبث أن أدرك أهمية شعر الفردوسى ، فحاول استرضاءه ، وأرسل إليه رسولا يطلب منه العودة إلى غرنة ،

(١٩) الفردوسى : الشهامة ص ٢٨ .

(٢٠) الفردوسى : الشهامة ص ٣٨-٣٩ .

(٢١) الفردوسى : الشهامة ص ٥٥-٦٠ .

(٢٢) العروضى السمرقندى : جهاز مقاله ص ٥٦ .

لكن القدر لم يحقق رغبة السلطان محمود . فقد توفي الفردوسي (٢٣) في غضون ذلك .

ومن أشهر أدياء الدولة الغزنوية . بديع الزمان الهمداني ، قال عنه الشعالي : انه معجزة همدان وغرة العصر . كان ينشد القصيدة اذ سمعها مرة واحدة . ويترجم ما يستمع اليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة الى الشعر العربي ، فيجمع فيها من الابداع والاسراع . غارق همدان سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م ، وتنقل في طلب العلم ، ثم قصد نيسابور . ونشر فيها روائعه . وأملى بها أربعمئة مقامة في موضوعات مختلفة ، ثم ناظر أبا بكر الخوارزمي فغلبه مع انه كان يظهر أن أحدا لا يتجرأ على مناظرته . وبذلك طار صيته في الآفاق وأنشد قصائد رائعة في مدح السلطان محمود ، وقد أكرمه الوزير أحمد حسن الذي اشتهر بغصاحة العلم وعلو الهمة ، وسعة النظر وحسن (٢٤) للسياسة . وتوفي سنة ٣٨٩هـ / ١٠٠٧م (٢٥) .

كذلك اشتهر الشاعر عدلواسخ الجبلي من أهل الولاية الجبلية — غرستان — وقد خرج منها الى هراة ثم الى غزنة حيث التقى فترة بقصر السلطان بهرام شاه بن مسعود (٢٦) .

ويظهر في هذا العصر ثالث الكتب المذشورة ، وأعتى لغة الترجمة الفارسية التي قام بها نظام الدين أبو المعالي نصر الله للنسخة المشهورة من كتاب كليله ودجنة ، وهي التي كتبها بالعربية عبدالله بن المقفع ، وقد وضع أبو المعالي هذه الترجمة الفارسية امتثالاً لأمر السلطان الغزنوي بهرام شاه ، ثم أهداها اليه ، وقد نالت هذه الترجمة كثيراً من الإعجاب في إيران إذ كانت مثالا للفصاحة والبلاغة ، ولا تبلغ سائر المنشورات الفارسية مبلغها من حيث الجودة وحسن السبك (٢٧) .

وبلغ من اهتمام السلطان محمود بن شيبكتكين بتشجيع الحركة العلمية

(٢٣) براون : تاريخ الادب الفارسي ج٢ ص ١٦٧ .

(٢٤) الشعالي : يتيمة الدهر ص ٢٩٨ .

(٢٥) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج١ ص ٢٨٤ .

(٢٦) براون : تاريخ الادب الفارسي ج٢ ص ٤٣٠ .

(٢٧) براون : تاريخ الادب الفارسي ج٢ ص ٤٤٣ .

ان بحث في طلب جماعة من رجال العلم والفلسفة ، فكان من بين الذين وفدوا اليه أبو ريجان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ) (٢٨) وقضى البيروني بداية حياته في خوارزم حيث ولد فيها — وقربه اليه أميرها ، ونبع في كثير من العلوم وبخاصة الرياضة والفلك ، وزار حوالى سنة ٣٩٠هـ بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير — أمير طبرستان — الذى عرف بتشجيع العلم وأهله ، وألف له « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ويبحث هذا الكتاب في التواريخ التى كانت تستعملها الأمم ، والاختلاف فى الشهور والسنين والتقويم عند الأمم ، ونظم الطوائف والجماعات المختلفة ، والاحتفال بالأعياد القومية ، ولما اتصل البيروني بالسلطان محمود الغزنوى ، استفاد من فتوحاته فى بلاد الهند فائدة علمية كبيرة ، وجعل ثروة الهند العلمية الكبيرة فى الرياضة والفلسفة والالهييات فى يد العرب والفرنج بما ألفه فى ذلك من كتب لا تزال خير مرجع لكل من كتب عن الهند ، وكان البيروني فى هذا درة فى الدولة الغزنوية كابن سينا فى الدولة السامانية (٢٩) .

نبع البيروني فى كثير من العلوم وخاصة الرياضة والفلك ، وجدير بالذكر انه كان يزهد فى المال الا ما يكتفيه حاجته وأهدى كتابه « القانون المسعودى » للسلطان مسعود ويبحث فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند ، فاجازه السلطان بأموال كثيرة ، فردها معتذرا بعدم حاجته اليها ، وقيل عن البيروني ان القلم لم يكذب يفارق يده ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر الا فى الأعياد ، لا يمل الاستزادة من العلم ، وقد تعلم عدة لغات ، ففى كتبه عن العقاقير والجواهر اسم الشئ بالعربية واليونانية والسريانية والفارسية والتركية ، ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة ، فيمدح اللغة العربية بحسن ادائها للمعنى ، ويفضلها على الفارسية (٣٠) .

ومن أشهر كتب البيروني « الجماهر فى الجواهر » ، وكتاب « تاريخ الهند » وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأخذ ينقل منها الى العربية ، ومن العربية اليها ، فنقل الى السنسكريتية نظريات أقليدس وغيره من

(٢٨) يارنولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٧٩-٨٠ .

(٢٩) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٨٧ .

(30) K. Ali : A New History of Indo — Pakistan. p. 32.

Habib : Sultan Muhmud of Gheznin. 55.

الفلك ، ونقل الى العربية من السنسكريتية بعض المصنفات القيمة . ومن أبرزها « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومردولة » قارن فيها بين رياضة الهند وفلسفة اليونان ، ولقد استقى البيروني معلوماته عن الهند من المراجع السنسكريتية الهندية مباشرة ويلاحظ عليه أنه لا يعترض ، ولا ينقد مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية . وبعد ذلك نشر البيروني كتابه بالعربية والفارسية « التفهيم في صناعة التنجيم » وقد أهده للسيدة ریحانة الخوارزمية . وأهدى كتابه عن الأحجار الكريمة للسلطان مودود بن مسعود (٣١) .

وكان للبيروني علم تام بمدارس بغداد والبصرة العلمية ، الا أن نظريات أولئك العلماء كانت متأخرة بالقياس اليه ، وظل مؤمنا بالتنجيم، مشاركا معاصريه في ذلك ، وقد أدرك البيروني أن المعتقدات الدينية ترجع الى أسباب واحدة في كل مكان ، وكان يهتم بالفارق الكبير بين الخواص والعوام في كل موضع ، فهو لا يعترض ولا ينقد مطلقا ، حينما يشرح العقائد الدينية ، وإذا قارن ديننا بدين آخر ، فإنما يقارنها مقارنة علمية محضة . وعلى ذلك يمكن القول بأن منتجات البيروني العلمية تحتل مكانة ممتازة من حيث وفرة موادها ، وما فيها من الاعتناء بتطبيقات الأصول العلمية ، على أن البيروني كتب مؤلفاته بلغة عسيرة جدا ويقول البيروني انه ألف كتبه للعلماء لا للعوام (٣٢) .

ولقد أطلال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند من الاعتقاد بالله والموجودات العقلية والحسية ، وتعلق النفس بالمادة ، والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار وكيفية الخلاص من الدنيا ، وقارن بين عقائد الهند والاسلام والصوفية والنصرانية (٣٣) . ويذكر البيروني : أن التناسخ من أهم معتقدات الهنود ، وأن الروح تنتقل من بدن الى بدن ، وفي كل بدن تستفيد معلومات وخبرات ، وتنتقل من الأرض الى الأفضل . وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ ، فقالوا ان الأرواح الشريرة تتردد في النجات ومردول الطير

-
- (٣١) هداون : تاريخ الادب الفارسي ج٢ ص ١١٧ .
 - (٣٢) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .
 - (٣٣) نفس المصدر ص ٢٢ .

والهوام الى ان تستحق الثواب . فتنبؤ من الشدة . وتنتقل الى ما هو
أرفع (٢٤) .

وقال البرونى : انه رأى فلكى الهند لا يبحثون فى العلل وكان على
علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يقتبس هذا العلم من الهند ، وقد
قال فى هذا الصدد : كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ
لعجبتى فيها بينهم . وقصوى عما هم فيه . فلما اهتمت قليلا أجبذت
أوقفهم على العلل . وأشير الى شىء من البراهين . والوج لهم بالطريق
الحقيقية فى الحسابات قائلوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين ،
وكادوا ينسبون الى البسج (٢٥) .

وصفوة القول أن البيرونى كان من كبار العلماء الذين ظهروا فى
القرنين الرابع والخامس الهجريين فلم يترك علما يؤلف فيه وكان الى
جانب ذلك يؤلف بالعربية لا الفارسية لأن العربية أكثر بلوعية للعلم
ومعطلجاته من الفارسية (٢٦) .

واشتهر من رجال الفلبسة فى الدولة الفيزنوية ابن الجمار ، كان
يحيى انبا . نقل كتب كثيرة من السريانية الى العربية . واشتهر بالعلى . وألف
فيه ، كما ألف فى المنطق والالهيات (٢٧) .

مراجع

- (٢٤) نفوس المبدى ص ٢٢ .
- (٢٥) ياقوت : معجم الأدياء ج ١٧ ص ١٨-١٩ .
- (٢٦) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ٢١٦ .
- (٢٧) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٥١ .

هـ - ضعف الدولة الفزنوية وانتهيارها

تجمعت عوامل متعددة أدت الى ضعف الدولة الفزنوية وانتهيارها في آخر الأمر ، ومن أبرز هذه العوامل المحاولات المتكررة التي بذلها ولاة الأقاليم في الدولة الفزنوية للاستقلال بالولايات التي يحكمونها ، ولقد بذل السلاطين الفزنويون — كما أشرنا — جهودا مضنية في إخضاع هؤلاء الولاة ، أنهكت قواهم كما قامت عدة انتفاضات شعبية ضد الدولة الفزنوية ، أنفق الحكام الفزنويون في مقاومتها الكثير من الأنفس والأموال ولم تكن هذه الحركات الانفصالية والثورات الشعبية هي عوامل ضعف الدولة الفزنوية فقط ، بل ان أمراء آل سبكتكين أيضا قاموا بدور كبير في تدهور شأن بيتهم للعريق ، ذلك أن الحروب — كما قلنا نشأت بين الأمراء الفزنويين حول الوصول الى السيادة والحكم : وحاول بعضهم الاستقلال ببعض أقاليم الدولة الفزنوية ، بل استعان بعضهم على بعض بأعداء دولتهم المتربصين للنيل منها .

ومن أكبر العوامل التي عجلت بانتهيار الدولة الفزنوية ظهور الأتراك السلاجقة ، وارتناع شأنهم ، وازدياد قوتهم وسعيهم الى توسيع ممتلكاتهم على حساب الدولة الفزنوية ، كما أن الفجور خرجوا من عزلتهم الجبلية ، وعملوا على مد نفوذهم فيما وراء حصونهم ، وكان خير ميدان لتنفيذ سياستهم ، بلدان الدولة الفزنوية التي أخذت عوامل الضعف والانحلال تنال منها حتى أنهكت قواها ولم تعد تستطيع مقاومة أعدائها الأشداء .

أما السلاجقة فقد أثن لهم السلطان محمود بن سبكتكين بالاقامة في الأراضي المحيطة ببخارى ، ولما شعر بزيادة خطرهم على دولته بعد أن قوى أمرهم ، حبس أحد زعمائهم في إحدى القلاع ببلاد الهند (١٥٦) . وأيقاه رهينة حتى يضمن عدم خروج السلاجقة من طاعته (٢) ، ولم يستطع السلاجقة الوقوف في وجه السلطان محمود لقوة بأسه ، ومهما يكن

(١) Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 353.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٣٢ .

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 354.

من أمر فلم يكن هناك شبه خطر على الدولة الغزنوية من ناحية السلاجقة في عهد السلطان محمود بن سبكتكين (٣) .

ولما توفي السلطان محمود ، وخلفه ابنه مسعود بدأ السلاجقة يكشفون عن نواياهم الحقيقية تجاه الدولة الغزنوية ، ألا وهي اغتصاب بعض أملاك الدولة الغزنوية لأنفسهم ، ولم يستطع السلطان مسعود وقف أطماعهم عند حد (٤) . وقد ألحقوا به هزيمة منكرة سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م وهو عائد من (٥) غزواته لطبرستان ، وكان جنده مرهقين والأسلحة قد علاها الصدا بسبب رطوبة الجو في هذه الجهات ، على أن السلطان مسعود استهان بما حدث رغم تحذير مستشاريه بل بعدم ترك خراسان لهؤلاء الطامعين المغامرين ، بل عمد إلى مصالحتهم بشروط سهلة حتى يستطيع التفرغ بعد ذلك لأحدى غزواته في بلاد الهند ، وكان من أثر هذه السياسة أن أفلتت الأمور من أيدي السلطان مسعود ، عندما عاد من الهند (٦) غمًا ليت أن سيطر طغرل بن ميكائيل بن سلجوق على خراسان ، وأعلن نفسه ملكاً (٧) عليها في صيف ٤٣٢هـ/١٠٤٠م وهكذا فقدت الدواية الغزنوية إقليم خراسان (٨) — أعظم ممتلكاتها — .

ولم يكتف السلاجقة بذلك بل انتهزوا فرصة قتل السلطان مسعود واستولوا على طبرستان وجرجان وسجستان ، وسار طغرل إلى خوارزم فحاصرها واستولى عليها ، كما أن إبراهيم بنال انتزع الري ، وسار نحوها إلى همدان وامتلكها ، وانتزع طغرل بك بلاد الجبل وكرمان ، وفي سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م امتلك طغرل بك أصفهان (٩) . وعلى ذلك استولى السلاجقة على الكثير من بلدان الدولة الغزنوية ، ولم يبق لها سوى إقليم غزنة وممتلكاتها في الهند (١٠) .

(٣) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج٢ ص ٢١٢ - ٢١٤ .

(٤) تاريخ البيهقي ص ٢٨١ - ٢٨٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٦) Lane Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 44.

(٧) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج٢ ص ٢١٢ - ٢١٤ .

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 304.

(٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٤٢ هـ .

(١٠) خوندميزر : خريب السير ج٢ ص ٢٩ - ٣٠ .

على أن الغور هم الذين عملوا على زوال الدولة الغزنوية وانتهاء حكم بيت سبكتكين (١١) ، ولقد بدأ الغور يعيشون غسادا منذ عهد السلطان محمود بن سبكتكين ، لكن هذا السلطان اشتهر معهم في عدة معارك ، هزمهم فيها وأجبرهم على التزام الهدوء والسكينة طوال عهده (١٢) ، ولما انشغلت الدولة الغزنوية بالصراع المرير الذي حدث بينها وبين الأتراك السلاجقة ، وجد الغور الفرصة سانحة لهم لتقوية أمرهم ، ومنذئذ هم على حساب الدولة الغزنوية ، وظهرت نواياهم السيئة تجاه الدولة الغزنوية واضحة جلية في عهد السلطان بهرام شاه بن مسعود ، لذلك عول هذا السلطان على اضعاف شأن الغور ، ودبر مؤامرة استطاع أن يتخلص بها من زعيم الغور محمد بن الحسين (١٣) ، فتولى بعده في حكم الغور أخوه مسوري (١٤) .

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوي لحاكمهم محمد بن الحسين وعولوا على الانتقام من بهرام شاه ، وأعد مسوري - حاكم الغور - العدة لذلك . فتوى من أمر قومه ، وأحسن اعدادهم وسار على رأس جيش كبير الى غزنة للانتقام من قتل أخيه ، وانتزع هذه العاصمة الاسلامية الكبرى من أيدي سلطانها بهرام شاه . ولما بلغ مسوري غزنة بجحافلهم رأى بهرام شاه أنه لا يستطيع التصدي للغور الأقوياء فانسحب الى البلاد الغزنوية الهندية ، ليجمع جيشا قويا منها ، ويعود الى عاصمة ملكه لتخليصها من نير الغور (١٥) ، أما الغور بقيادة مسوري فقد استولوا على غزنة ، لكن جند غزنة وأهلها ساءهم احتلال الغور لبلدهم ، وافتراع الحكم من سلطانهم ، فظلوا يترقبون الفرص المناسبة للتخلص من الغور ، وواتتهم هذه الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه من الهند الى غزنة (١٦) على رأس جيش كبير لاسترداد حاضرة ملكهم ، فوقف جند غزنة

(١١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨١ .

(١٢) تاريخ البيهقي ص ١٢٢ .

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ٢٥ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

(١٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ٢٥ .

Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 47.

(١٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢ هـ .

(١٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٤٨٨ - ٢٨٩ .

وأما — كما كان مفتظرا — الى جانب السلطان الفزنوى حينما اشتبك مع سورى — الذى اغتصب أعز قطعة من مملكته . وقد دارت الدائرة (١٧) على سورى وقبض بهرام شاه عليه وقتله . وولى الفور الأدبار الى ديارهم ودخل بهرام شاه غزنة ظافرا منصورا فى (١٨) المحرم سنة ١١٤٨/٥٤٣ وابتهج أهلها بمقدمه وبقهر الفزاة الطامعين . يعلى ذلك استطاع بهرام شاه أن يسترد حاضرة ملكه ، ويبقى الملك فى بيته بعد أن كاد يزول عنه .

لما قتل سورى خلفه علاء الدين الحسين بن الحسين الذى عول على استعادة غزنة ، والانتقام من سلطانها وأهلها لتفكيكهم بجند الفور . وللكهم سورى ، فسار على رأس جيش كبير الى غزنة ، واستولى عليها . وولى السلطان بهرام شاه هاربا الى بلدة تسمى كرمان — بين غزنة والنهند — ليستجمع قوته (١٩) أما ملك الفور — علاء الدين الحسين . فقد عاد من غزنة الى بلاده ، بعد أن استخلف عليها أخاه سيف الدين . وأمره بإقامة الخطبة له فى غزنة ، كما أمره بأن يحسن السيرة فى أهلها فحكم سيف الدين غزنة بالعدل ، وأجزل على أعيانها الصلات النفيسة . وخلص عليها خلعا (٢٠) سنية ، حتى تطيب نفوسهم ، ويخلصوا للسهد الجديد (٢١) .

على أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها ، اذ كان أهل غزنة لا يزالون على ولائهم واخلاصهم لبيت سبكتكين ، ويعارضون بشدة حكم الفور لهم ، واعدوا العدة لتحقيق سياستهم ، فلما حل شتاء سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٤م وانقطع الطريق — بعد أن غطاه الثلج — بين غزنة وبلاد الفور ، وأمن أهل غزنة عدم وصول النجذات العسكرية من الفور الى أعدائهم فى غزنة ، نادى أهل غزنة بشعار بهرام شاه ، وأرسلوا اليه يطلبون منه القدوم اليهم ، والعودة الى حاضرة ملكه وتخليصهم من الفور المغتصبين للحكم من

(17) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 64-67.

(١٨) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٢ ص ٢٦ .

(١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٧ هـ .

(20) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 47

(٢١) خوندميزر : حبيب السير ج٢ ص ٢٣ .

اصحابه الشرعيين ، فسار بهرام شاه الى غزنة ، ولما اقترب منها ، قبض أهلها على سيف الدين حاكم غزنة الغورى — ومهدوا لبهرام شاه أمر دخول غزنة ، فدخلها وقتل سيف الدين ، وكنل بالغور ، وبذلك استرد بهرام شاه غزنة من الغور للمرة الثانية (٢٢) .

على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفى ، وملك بعده ابنه خسروشاہ وكان علاء الدين الحسين — ملك الغور — قد أعد العدة للعودة الى غزنة واستعادتها ، والانتقام من أهلها الذين تخلصوا من رجاله وجنده سنة ٥٥٥هـ/١١٥٥م ، فلما علم خسروشاہ بزحف ملك الغور على غزنة ، أستط فى يده وخاف العقابة ، وترك غزنة ، وقصد لاهور تجنباً للاشتباك مع ملك الغور (٢٣) ، الأمر الذى يسر لملك الغور استعادة غزنة ، وضمها الى حوزته (٢٤) ، ولم ينس هذا الملك موقف أهل غزنة العدائى من قومه : فألحق بهم ويلاته ، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقي أهلها خلالها سوء العذاب ، وحطم جميع المباني والمنشآت التى شيدها السلاطين (٢٥) الغزنويون العظام مثل محمود ومسعود وإبراهيم — وبعد أن أسرف فى الانتقام من أهل غزنة ، أصلح أمورها ، ورأب الصدع وعاد الى بلاده ، ونقل معه من أهل غزنة الكثير (٢٦) منهم الى بلاده وأسكنهم بعض التلاع . وبذلك كفل بسياسته هذه استمرار حكمه فى غزنة ، وتضاؤل صوت العناصر المناوئة له . والخلاصة أن حاضرة الغزنويين العظيمة سقطت فى أيدي ملوك الغور ولم يبق لبني سبكتكين من مملكتهم الواسعة سوى بعض بلدان الهند (٢٧) .

لم يهنا الغور كثيراً بحكم غزنة ، ذلك أن علاء الدين الحسين — ملك الغور — توفى ، وخلفه ابن أخيه غياث الدين ، وأقيمت الخطبة له فى غزنة ، لكن الغز طمعوا فى غزنة ، بعد موت علاء الدين ، فاستولوا عليها

-
- (٢٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥٤٧ هـ .
 - (٢٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٧ هـ .
 - (٢٤) براون : تاريخ الادب الفارسى ج٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .
 - (٢٥) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٢ ص ٢٦ .
 - (٢٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٩ .
 - (٢٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٤٤٧ هـ .
 - أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٢ ص ٢٦ .
 - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٠ .

وإردوا الغور منها . وبقيت غزنة في أيديهم خمس عشرة سنة ، ساموا أهلها خلالها سوء العذاب ، وألحقوا بهم الضر والأذى كعادتهم في كل بلد ملكوه وفي تلك الفترة كان غياث الدين الغوري يعد العدة ، ويجمع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبها (٢٨) .

سار غياث الدين إلى غزنة في صحبة أخيه شهاب الدين واشتبك الغور في قتال مرير مع الفز . ألحقوا بهم الهزيمة وطردوهم من غزنة ، وعادوا إلى امتلاكها وضموها إلى مملكتهم وأحسنوا السيرة في أهلها (٢٩) .

لم يكتف غياث الدين — ملك الغور — بامتلاك غزنة بل عقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الفزنوية وضم ممتلكاتها إلى حوزته . واستئصال شافة آل سبكتكين ، فأرسل أخاه شهاب الدين إلى البلدان الفزنوية غير الهندية واستولى عليها ، وعبر نهر السند قاصدا لاهور — التي نقل السلطان الفزنوي خسروشاہ مقر ملكه إليها — ولما نـمى إلى علم السلطان الفزنوي نبأ زحف الغور إلى لاهور حـصنها ، وأعد العدة للدفاع عنها ، واستطاع الغور أثناء زحفهم إلى لاهور امتلاك البلاد الفزنوية (٣٠) . وفي سنة ١١٣/٥٧٩م بلغ الغور لاهور — آخر معاقل الفزنويين — في جمع عظيم وحشد كبير ، وحاصروها ، وضيقوا عليها الحصار ، وأرسل شهاب الدين — قائد الغور — إلى خسروشاہ وإلى أهل لاهور يعرض عليهم الأمان على أنفسهم وأهلهم وأموالهم أن يسروا أمر استلامه لاهور ، ويعرض على خسروشاہ اقتطاعا — وحذرهم عاقبة الحيلولة بين قواته وبين الاستيلاء على البلدة ، وأبلغهم أنه لا يألوا جهدا في سبيل امتلاك لاهور ، لكن خسرو شاہ وأهل لاهور أصروا على مقاومة الغور ، وبداوا في سبيل ذلك الأنفس والأموال ، غير أن مقاومتهم للغور ما لبثت أن ضعفت ووهنت ، فأرسل خسروشاہ إلى قائد الغور وقداد في طلب الأمان ، فأجابه شهاب الدين الغوري إلى طلبه ، ودخل الغور لاهور ، وقبضوا على خسروشاہ ، وبقي عنده مكرما شهرين ، فأرسل غياث الدين — ملك الغور — إلى أخيه شهاب الدين يطلب منه انفساد خسروشاہ إليه ، لكن خسروشاہ خشي من عاقبة إرساله إلى غزيمه

(28) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 48.

(٢٩) . أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ٢٨٩ .

(30) Lane Poole : Medieval India under Moahmmedan Rule. p. 48.

— ملك الغور — وقال لشهاب الدين : أنا لا أعرف أخاك ولا لى حديث
الا معك ولا يمين الا فى عنقك (٣١) .

لكن شهاب الدين أرسل آخر سلاطين بيت سبكتكين الى أخيه غياث
الدين — ملك الغور — ومعه ابنه ملكاشاه حيث أمر ملك الغور بإيداعهما
فى بعض القلاع (٣٢) .

وهكذا انتهت الدولة الغزنوية سنة ١١٦٠م بعد أن ظلت تحكم
أكثر من قرنين — على أيدى الغور الذين اتسعت مملكتهم ، وكثر جندهم ،
واتخذ غياث الدين لنفسه لقب سلطان ، وأمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة ،
وتلقب غياث الدين والدنيا معين الاسلام ، قسيم أمير المؤمنين .

ومسفة القول أن الدولة الغزنوية التى قامت على انقراض ملك
السامانيين كان لها نشاط سياسى كبير فى آسيا ، فاستطاع
سلاطينها حكم دولة متعددة الأجناس ، وللشعوب فى قوة وحزم . ودرء
كل محاولة للتدخل من حكمهم ، ووحدة دولتهم ، والقضاء على عناصر
الاضغى والشغب ضدهم ، فقوى شأنهم ، وعظمت هيبتهم وأمن الناس فى
حال حكومة الغزنويين المستنيرة على أنفسهم وأموالهم . ولا يفوتنا أن نذكر
أن محمود بن سبكتكين — أقوى سلاطين هذه الدولة « يعتبر بحق بطل
من أبطال الاسلام وسوط عذاب على الكفار الملحدين ، طم الأسمان
والتمثيل ، ودمر الخرافات والأباطيل » ، فكان شديد التدين قاسيا على
الملحدين وكفار الهندود فضلا عن أنه كان غازيا لا يقهر .

على أن عوامل الضعف والانحلال ما لبثت أن عرفت طريقها الى
الدولة الغزنوية ، فقوى شأن جيرانها السلاجقة والغور وقاموا بتوسيع
نفوذهم على حساب الغزنويين ، وكان ذلك فرصة أمام العناصر المتطلعة
الى الاستقلال عن الدولة لرفع رأسها ، فأخذت الدولة الغزنوية تفقد أملاكها
رويدا رويدا حتى قضى الفسور فى نهاية الأمر على البقية الباقية من
ممتلكاتها .

(٣١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٧ هـ .

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٢٦ .

(32) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule. p. 49.

٢ - الدولة السلجوقية

يرجع أصل السلجقة الى الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة الشاسعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وكثرت هجراتهم الى شواطئ جيحون خصوصا في وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعى الوفيرة .

يكتنف أصل السلجقة الغموض ، ويبدو أن سلجوق — جد هؤلاء اليوم — ابن قائد جيش يدعى دقاق ليفو أو يوغر — ملك الخزر جنوب روسيا (١) — وينسب الى قبيلة غزق (٢) ولقد حدثت خلافات بين يغو ودقاق — الزعيم السلجوقي — اضطر على إثرها سلجوق وأسرته الى ترك ديارهم ، والهجرة الى نواحي جند (٣) ومعه ألف فارس وألف بعير وخمسون ألف رأس من الماشية عند مصب نهر سيحون ، ويرجح أن هذه القبيلة قد دخلت الاسلام بعد أن توطدت العلاقات بين أفرادها وبين المسلمين من أهل جند (٤) .

أظهر السلجقة نشاطا ملحوظا في الجهات الجديدة التي هاجروا اليها فتقاوموا بالذود عنها في صد خطر كفار الترك — بنى جلدتهم — واشترك السلجقة في الصراع المرير الذي حدث بين القره خانية والسامانيين حول السيادة على بلاد ما وراء النهر ، وانضموا الى جانب السامانيين في القتال الذي دار بينهم وبين أعدائهم (٥) . وقد تمكن سلجوق من خلال هذا الصراع من السيطرة على منطقة خصبية في بلاد ما وراء النهر ، وضمها الى إمارته الناشئة (٦) .

ظل أمر السلجقة في صعود في بلاد ما وراء النهر ، وكانت منازلهم في

(1) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 16.

(2) Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 300.

(3) Cambridge History of Iran Vol. 5. p. 18.

(٤) فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(5) Ency. of Islam. Art Saljuk.

(٦) حمد الله مستوفى قزوینی : تاريخ كزیده ص ٤٣٤ .

الشتاء في نور بخارى ، وفي الصيف في سفر سمرقند (٧) ، وتوفي سلجوق بعد أن تجاوز من العمر العام السابيع بعد المائة ، وله من الأولاد أرسلان وميكائيل وموسى وكان أرسلان أقوى هؤلاء الأبناء شأنا ، ولقد وقف الى جانب الأمير الساماني المنتصر في حروبه ضد القره خانية ، وحالف على تكين — أخا ابلق خان — الذي سيطر على بخارى ، كما أن أخاه ميكائيل لم يال جهدا في سبيل غزو كفار الترك حتى استشهد ، وخلفه من الأولاد بيفو وطفربك محمد وجفرى بك داود ، ولقد أطاعتهم عشائهم ، ولما خشي أمير بخارى بأسهم ، وعول على التخلص منهم ، لجأوا الى بنراخان — ملك تركستان — فأذن لهم بالمقام في مملكته على أن بنراخان ما لبث أن تمجس منهم خيفة ، فقبض على طفرربك ، عندئذ شارت ثائرة انسلاجقة ، واشتبكوا مع جند بنراخان في عدة معارك ، تمكنوا على أثرها من تخليص أميرهم طفرربك ، غير أنهم لم يستطيعوا المقام بعد ذلك في مملكة بنراخان ، فعادوا الى جند (٨) .

تحالف انسلاجقة مع على تكين — أمير بخارى — فأذن لهم بالإقامة في نور بخارى ، وما زالوا في أنصر عيشة ، وهم في المراعى يكلأون الكلا لا يذعرهم ذاعر ، ولا يردعهم رادع (٩) . ووقف زعيمهم أرسلان بن سلجوق الى جانب على تكين ضد السلطان محمود الغزنوى ، ولذلك عول محمود على التخلص من على تكين (١٠) ، ففى سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م عبر نهر جيحون ، والتقى بحليفه قدر خان — ملك تركستان — واتفق مع ايلك خان على انتهاء نزاع الحدود بينهما ، وواتت الفرصة السلطان محمود لجمع المعلومات عن هؤلاء السلاجقة ، وقد أطلعه ايلك خان على شجاعة جندهم ، وكثرة عددهم ، فرأى أنه لا يستطيع أن يأمن جانبهم اذا نهض في وقت من الأوقات الى بلاد الهند ، فقد يحدثوا في مملكته فسادا طلبا لولاية أو رغبة في التغلب على احدى النواحي ، فعول على التخلص منهم ، بأن أرسل اليهم رسولا يعرض عليهم صداقته ، ويبدى لهم حسن نواياه نحوهم ، ويطلب

(٧) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٤٥ .
Habib : Sultan Mahmud of Ghazni p. 59.

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 303.

(٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٩) حميد الله مستوفى قزوینی : تاريخ كزنده ص ٤٢٤ .
(10) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 19.

منهم ايضاً احد زعمائهم لعقد اتفاقية صداقة معهم (١١) فلما بلغت الرسالة اسماع امراء السلاجقة ، رحبوا بما جاء فيها ، وأحسنوا استقبال رسول السلطان الغزنوي ، وأرسلوا اليه كبيرهم وزعيمهم أرسلان بن سلجوق ، ولما وفد أرسلان السلجوقي الى محمود الغزنوي مع أصحابه وأعيان دولته ، أحسن وفادتهم وقال : عندما نذهب الى بلاد الهند لغزو الكفار يلزمنا جيش جرار نسير به الى هذه الديار ، مما يترتب عليه عدم وجود خامية تذود عن خراسان ، ولئى رغبة فى أن أعقد معكم ميثاقاً وتحالفاً على أنه اذا خرج على عدو أو ثار شائر ، واحتجت الى مدد ، استعنت بخلكم وفرسانكم . فأظهر أرسلان بن سلجوق ، رغبته فى مساعدة السلطان محمود الغزنوي وقال له : لو أئنى أرسلت هذين السهمين الى قومي لاجتمع منهم مائة ألف رجل ، ولو أن قوساً أضيف اليهما لاجتمع من الرجال قدر ما أشتى من القوم ، فتوجس محمود خيفة من السلاجقة ، واستشار حاجبه أرسلان جاذب فيها يجب اتخاذ حيل هؤلاء القوم ، فأشار عليه بقطع ابهام الرجال جميعاً حتى لا يستطيعوا من بعد شد القوس (١٢) أو أن يفرقهم جميعاً في جيحون لكن محمود الغزنوي فضل أن يأذن لهم باجتياز جيحون والتفرق في أطراف خراسان ، حتى يمكن السيطرة عليهم ، وأمر بالقبض على أرسلان بن سلجوق وتحديد اقامته فى قلعة من أعمال الملتان حتى يكون رهينة عنده ، ترغم السلاجقة على التزام الهدوء والسكينة (١٣) .

تقرب السلاجقة فى مقرهم الجديد بخراسان من واليها الغزنوي الى أبى سهل أحمد بن الحسن الحمودى ، وسألوه أن يضيف اليهم مرجاً من مروج خراسان ، فأنزلهم مرج ذندانقان ، فقرروا بها وبما قاربها (١٤) .

غير أن اطماع السلاجقة لم تتوقف عند هذا الحد ، بل شنوا غارات متعددة فى اقليم خراسان اذ كان انتقلالهم الى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل كتحاقهم ، كما كان ذا اثر قوى موجه لمستقبل ايران وما جاورها ،

(١١) البندارى : تاريخ دولة سلجوق . ص ٥

(١٢) الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٣ .

Cambridge Medieval History. Vol. p. 303-304.

(١٣) البندارى : تاريخ سلجوق ص ٥ - الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٣ .

Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 18.

(١٤) الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٣ .

فقد أخذوا يدعمون قواتهم وينتشرون في البلاد المجاورة لهم ، ويقتننون الفرص للانتقضاخ على الدولة الغزنوية أو اقتلاع جذورها (١٥) .

زاد خطر السلاجقة في إقليم خراسان ، فوجد أهل نسا وبأورد على السلطان محمود شاكين له. عبث السلاجقة ببلادهم سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م فأمر السلطان إرسال الجاذب وإلى طوس باخضاعهم فظلل بخاريهم نحو سنتين ، لكنه لم يستطع قهرهم ، فأرسل إلى السلطان محمود يقول : لقد قوى شأن التركمان ولا يستطيع وقف فسادهم ، إلا إذا خرج السلطان إليهم بنفسه (١٦) ، فسار السلطان محمود إلى خراسان سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م ، واشتبك في معارك مع السلاجقة مزق ثملهم ، وقتل منهم كثيرين ، ولأن من نجا منهم بالفرار إلى بلخ وقهستان (١٧) .

لم يستطع السلاجقة الإقامة في بلدان الدولة الغزنوية بعد الهزائم التي لحقت بهم ، فعمدوا إلى غزو البلدان الإسلامية ، وأحدثوا الكثير من أعمال الشغب والتخريب في مدن دامغان وسمنان والري وأصفهان ومراغة وهمدان وغيرها من مدن العراق وأذربيجان ، وأذن لهم هرون بن التونتاش — وإلى خوارزم — بالإقامة في إقليم خوارزم شتاء وأمر السلطان مسعود بن محمود ، شاه ملك — وإلى جند — بمهاجمة خوارزم ، والتخلص من السلاجقة ، فباغت شاه ملك السلاجقة على حين غفلة وشبث شملهم (١٩) فهجروا خوارزم ، وتفرقوا في مغارة نسا وقصدار ومرو ، وأرسلوا إلى السلطان مسعود يطلبون منه الأمان ، وتعهدوا بالوقوف إلى جانبه في وجه الطائفة التي قد تغسب في مملكته ، وبأن يكونوا أنصارا وأعوانا مخلصين له. لكن السلطان مسعود لم يكن على استعداد للتحالف معهم لما يعرفه عن أطماعهم في بلدان دولته ، لذلك قبض على الرسل ، وغادر جرجان ، وتوجه إلى نيسابور لمجاربة السلاجقة والتخلص منهم (٢٠) لكن جيشه كان قد أحس بوهن شديد ، وفسد سلاحه بسبب الرطوبة ، فعلاه الصدا ، وضعفت

(١٥) عبد النعيم حسنين : سلاجقة العراق وإيران ص ٢٦ .

(١٦) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٤ .

(١٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٠ .

Cambridge Medieval History. Vol. IV. p. 304.

(١٨) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(19) Cambridge History of Iran. Vol. 5. p. 51-52.

(٢٠) ابن خلدون : الغبر وديوان المبتدا والخبر ج٢ ص ٣٧٦ .

دوابه لأنها لم تأكل علف الربيع ، لذلك عهد السلطان مسعود الى بعض رؤساء جنده بطرد السلاجقة من دولته ، لكن السلاجقة هزموا الجيش الغزنوى واستولوا على معداته .

أدى انتصار السلاجقة على الجند الغزنوى الى ارتفاع مكانتهم ، وازدياد هيبتهم ، وزادت أطماعهم في ممتلكات الدولة الغزنوية ، وأرسل اليهم المبلطان مسعود قولا ليينا لعلمهم يكفوا عن أعمالهم العدوانية في دولته ، وسير مع رسوله الخلع النفسية ، وأمرهم بالرحيل الى أهل الشط — على جيحون — ونهاهم عن الشر والفساد ، واقطع دهستان لداود ونسا لطغرل بك وغراوه لبيغو ، ولقب كل واحد منهم بالدهقان (٢١) ، فاستخفوا بالرسول والخلع ، وقالوا للرسول : لو علمنا أن السلطان يبقى علينا اذا قدر لأطعناه ، ولكننا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا لما علمناه وأسلفناه فنحن لا نطيعه ، ولا نثق اليه .

ظل السلاجقة مصدر خطر داهم على خراسان ، وفشل عمال الغزنويين في خراسان في الدفاع عن هذه البلاد ، فأرسلوا الى السلطان مسعود يستغيثونه ، ويشكون اليه ما يفعل السلاجقة في خراسان ، فأعد السلطان جيشا كبيرا بقيادة سباشى في سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م واشتبك سباشى مع السلاجقة في عدة معارك انتصر فيها السلاجقة ، ولما طال مقام سباشى وعساكره بخراسان والبلاد متهوبة ، والدماء مسفوكة وقتل الميرة والأقوات على العساكر ، بينما السلاجقة لا يزالون بذلك لأنهم يقنعون بالقليل ، غادر سباشى خراسان ، فبسط السلاجقة سيطرتهم عليها (٢٢) ، ورأى السلاجقة أن الوقت قد حان لإعلان قيام دولتهم وجنى ثمار انتصاراتهم ، فوحدوا قيادتهم في يد طغرل بك الذى توجه الى نيسابور ، واستولى عليها ، ثم جلس على عرش السلطان مسعود وأعلن قيام الدولة السلجوقية ، واعترف به الخليفة العباسى سلطانا على الدولة الجديدة ، وهزم طغرل السلطان مسعود في موقعة داندانقان سنة ٤٣١ هـ ، وسيطر على خراسان . وبذلك قامت الدولة السلجوقية .

(21) Cambridge Medieval History Vol. IV. p. 303.

(22) Cambridge History of Iran Vol. 5. p. 22.

Habib Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 44-101.

تحدثنا عن قيام الدولة السلجوقية ، واتساع حدودها على حساب الدولة الغزنوية ، ولنتحدث الآن عن تطور الحياة السياسية في الدولة السلجوقية حتى سقوطها .

بعد أن أقام السلجقة دولتهم على اثر انتصارهم على السلطان مسعود الغزنوي في واقعة دندانقان ، اتخذوا الاستعدادات الضرورية لاقامة صرح دولتهم على أسس قوية ودعائم وطيدة ، فجمعوا شملهم ، ووحّدوا صفوفهم وتنافسوا ما بينهم من خلافات ومنازعات ، واتفقوا على أن يوحدوا جهودهم لتقوية أمر دولتهم ، ودرء الأخطار التي تواجهها ، وتوسيع رقعتها ، والتفوا حول سلطانهم الأول طغرل بك ، وكان قوى البأس على الهمة .

اتخذ طغرل بك سياسة أدت الى تقوية شأن دولته ، فقد عهد الى أفراد من أبناء أسرته بحكم ولايات الدولة ، وأمرهم بضبط الأمور في ولاياتهم ، والعمل على ضم المزيد من الأراضي اليها ، واتخذ السلطان السلجوقي مدينة الري حاضرة لدولته .

سيطر السلجقة بعد واقعة دندانقان على اقليم خراسان — كما قلنا — وعظمت قوتهم ، وتطلعوا الى مزيد من الفتح والتوسع ، فاستولوا على طبرستان وجرجان ، وفي سنة ٤٣٤هـ / ١٠٤٢م هاجموا اقليم خوارزم واستولوا عليه ، وانتزعوه من الدولة الغزنوية (١) .

واصل السلطان طغرل توسيع رقعة دولته ، فاستولى على قزوین وأبهر وزنجان وهمدان واطليم أذربيجان وكرمان ، وأرسل أخاه إبراهيم ابنال الى همذان سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م ، وأفلح في ضم الاقليم الى الدولة السلجوقية (٢) .

وفي سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م فتح طغرل اقليم أصفهان بعد صعوبات كثيرة ومحاولات متكررة ، دامت عاما كاملا ، ولم يكتف طغرل بذلك ، بل أرسل جيشا الى أذربيجان لتأكيد سيطرة السلجقة عليها ، وأزال

(١) ان الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٣٤هـ .

(٢) المسند السابق : حوادث سنة ٤٣٧هـ .

كل عقبة في سبيل نفوذ السلاجقة في هذه البلاد ، وبذلك أكمل السلاجقة سيطرتهم على إقليم إيران والبلاد المجاورة له .

تطلع السلاجقة بعد سيطرتهم على إيران الى السيطرة على العراق حيث كانت الدولة العباسية تعاني الكثير من الاضطرابات والفتن ، وحاضرتها بغداد مسرحا للفتن والدسائس ، وانتهاز البساسيري - قائد الجند الترك - الفرصة ، وبسط نفوذه على بغداد ، وأصبح الخليفة العباسي فيها لا حول له ولا طول ، كما ضعف أمر الملك الرحيم البويهى ، ولم يعد له من السلطة الا اسمها .

شجعت عوامل الضعف في الخلافة العباسية ، طغرل على التوجه الى بغداد لبسط نفوذ السلاجقة عليها ، وفي أوائل سنة ٤٤٧هـ ، أظهر طغرل أنه يريد الحج واصلاح طريق مكة والمسير الى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر العلوي - صاحبها - واستأذن الخليفة العباسي بدخول بغداد ، فأذن له ، وأقام الخطبة له فيها ، ولقبه ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين (٣) .

على أن جند السلاجقة أساءوا الى أهل بغداد ، وأمعنوا في ظلمهم واضطهادهم ، فثار عليهم سكان الحاضرة الكبرى ، فاعتقد السلطان طغرل أن الملك الرحيم البويهى دبر هذه الثورة ، فقبض عليه ، وسبق الى قلعة بالرى ، فمضى بها ما تبقى له من عمر ، وبذلك انتهت الدولة البويهية التى كانت مهيمنة على بغداد والخلافة العباسية ، وآلت هذه السيطرة الى السلاجقة (٤) .

ولما طال مقام السلاجقة في بغداد ولحق بأهلها منهم الضرر والإذى أرسل الخليفة الى طغرل يطلب منه الرحيل عن بغداد ، بعد أن أساء جنده الى أهلها ، فوافق طغرل على الرحيل عن الحاضرة العباسية ، وغادرها سنة ٤٤٨هـ ، بعد أن أمضى بها ثلاثة عشر شهرا (٥) .

(٣) ابن خلدون : العبد وديوان المبتدأ والخبر ج٣ ص ٤٦٠ .

(٤) الراوندى : راحة الصدور ص ١٠٦ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٤٨هـ .

ازداد نفوذ البساسيري بعد أن أمدته الحكومة الفاطمية بالكثير من الامدادات ، واتجه الى الموصل وسيطر عليها ، فأرسل الخليفة العباسي يستنجد بطغرل ، ويطلب منه طرد البساسيري من الموصل ، وقد استطاع طغرل القيام بهذه المهمة ، فأسند اليه الخليفة العباسي ولاية الموصل والجزيرة وعاد الى بغداد بعد أن وطد نفوذ السلاجقة في هذه البلاد ، وقد أكرم الخليفة العباسي وفادته ، ولقبه ملك المشرق والمغرب سنة ٤٤٩هـ وأفاض الخلع عليه ، وطلب من وزيره أن يبلغه هذا القول : « ان اميز المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس لقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده (٦) » .

اضطر طغرل الى مغادرة بغداد لاختلاف ثورة وتمرد أخيه ابراهيم اينال عليه ، وأسرع اليه ، والتقى به في معركة كبيرة في همدان ، هزمه فيها ، وأصر على قتله بعد أن كثرت حركات تمردده ، وأصبح خطرا على سلطانه (٧) .

انتهز البساسيري فرصة انشغال طغرل في اخفاء ثورة أخيه ، وعاد الى بغداد بعد أن استولى على الموصل ، وطرد جند السلاجقة منها ، وخلع البساسيري الخليفة العباسي باقامة الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م وغادر الخليفة العباسي بغداد (٨) . وبذلك دخلت بغداد في حوزة النفوذ الفاطمي .

لم يكف البساسيري بما حققه من نصر للدعوة الفاطمية في بغداد بل عول على بسط سيطرته على العراق وتحرك فعلا في العراق لتحقيق اهدافه ، فأدرك طغرل أن ازدياد نفوذ البساسيري يشكل خطرا جسيما على دولته ، فأنفذ كتبه الى خراسان وبلاد ما وراء النهر « يستنفر الناس خفافا وثقالا حتى شد من الحشود الجم الغفير والعدد الكثير » وتقدم بجيشه الضخم صوب بغداد ، ولما اقترب منها أدرك البساسيري أنه لا قبل له بمقاومته خصوصا وأن مصر لم تقدم له مساعدات تمكنه من الوقوف في وجه السلاجقة ، والتصدى لهم ، ومن ثم غادر بغداد ،

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٤٩هـ .

(٧) البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ١٦١٥ .

(٨) الراوندي : راحة الصدور ص ١٠٨ .

وانتجه الى الكوفة ، حيث التقى بجند السلاجقة في معركة هزم فيها ، والتقى طغرل بالخليفة العباسي القائم في النهروان ، واجتمع به ، وقيل الأرض بين يديه ، وهناه بالسلامة ، واعتذر عن تأخره بعصيان أخيه ابراهيم ، ووعدته بتعقب البساسيري ، وقصد الشام ومصر ، والتخلص من خليفته الفاطمي الذي يناهض السنة ، ويؤيد ويدعم حركة البساسيري الشيعية(٩) .

عاد الخليفة العباسي الى بغداد ، وكان طغرل قد سبقه اليها — وأقام له طغرل أحسن استقبال ، وان كانت بغداد قد خلت من أعيانها . وبذلك عادت بغداد الى حوزة الخلافة العباسية السنية . وزال عنها النفوذ الفاطمي ، وازداد نفوذ السلطان طغرل ، وأصبح صاحب السلطان المطلق في ايران والعراق ، بينما بقي الخليفة العباسي مسلوب السلطة(١٠) .

ولما استقر الخليفة العباسي في بغداد رأى ضرورة التخلص نهائيا من البساسيري تجنباً لخطره ، ودرءاً لشره ، وجرساً على استتباب الأمور في دولته ، فأرسل فرقة من ألفي فارس الى الكوفة ، اشتبكت مع البساسيري وفلوله في عدة معارك ، وهزم وقتل ، وحملت رأسه الى بغداد ، وكان في أسر البساسيري جماعة من النساء المتعلقات بدار الخلافة ، فأخذن وكرمن وحملن الى بغداد ، واستردت الأموال الكثيرة التي نهبت من بغداد(١١) .

توفي طغرل سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م بعد أن أقام صرح دولة وطيدة الأركان تضم العراق وايران ، وقد لعبت دورا كبيرا في مزج ايران بالعراق حتى أصبحا يمثلان معا صورة واضحة صادقة للحضارة الاسلامية في مرحلة من أهم مراحلها ، وكان يغفل جاهداً على رفع لواء السنة ، وتشجيع أئمتها على دحض آراء مخالفها الشيعية(١٢) .

لما توفي طغرل اجلس وزيره عميد الملك الكندري على عرش

(٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٣ ص ٤٦٥ .

(١٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٥هـ .

(١١) ان الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٠هـ .

(١٢) عبدالنعميم حسنين : سلاجقة العراق وايران ص ٤٥٠ .

السلطنة ، سليمان بن داود جفرى بك أخى السلطان طغرل وولى عهده ،
غير أن الأمور لم تستقر للسلطان الجديد ، ذلك أن بعض أفراد البيت
السلجوقى مالوا الى ألب أرسلان محمد بن داود جفرى بك — صاحب
خراسان — والتف الناس كذلك حول ألب أرسلان ، فبادر عميد الدولة
الكندرى بإقامته الخطبة بالرى للسلطان ألب أرسلان ، وبعده لأخيه
سليمان (١٣) .

ولما ولى ألب أرسلان السلطنة ، ودخل الرى مع وزيره نظام
الملك ، استقبله الكندرى — وزير طغرل — احسن استقبال ، وقدم له
الهدايا ، وهناك بالسلطنة ، ولكن نظام الملك خشى أن تظل الوزارة
من نصيب الكندرى — وكان يتطلع اليها — وساءه أيضا التفاف الحند
والناس حول الكندرى ، لذا دبر مؤامرة للتخلص منه حتى يؤول اليه
نفوذه وسلطانه ، فحرض ألب أرسلان على غريبه — الكندرى — وحضره
منه ، فأوجس ألب أرسلان خيفة من الكندرى ، بل أمر بالقبض عليه ،
وقتل قتلة شنيعة ، وقبل أن يقتل الكندرى أرسل رسالتين الأولى الى ألب
أرسلان والثانية الى نظام الملك . جاء فى الأولى للسلطان : لقد خدمتني
خدمة جليلة ، فقد أعطاني عمك ملك العالم الدنيا التصرف فيه ، غلما
أمرت بقتلى أعطيتنى ملك العالم الآخر جزاء لاستشهادى ، وبذلك تم
لى على يديكما امتلاك الدارين الفانية والباقية . وفى الرسالة التى بعثها
الى نظام الملك حذره من العواقب الوخيمة التى ستعود علم الدولة من
جرائم قتل الوزراء ، وأول من سيشرب من نفس الكأس — بعد الكندرى —
نظام الملك — قال الكندرى لنظام الملك : بشما عودت الأتراك قبل
الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر لأخيه جفرة وقع فيها (١٤) . ولقد
تجاوز هذا الوزير السوء الطالع الأربعين من عمره حين مقتله ، وكان
علما بالدين ، نظم قصائد شعرية رائعة ، ومن المتعصبين للمذهب
الشافعى ناصب العداء للرافضة والأشاعرة ، وأمر بلعنهم فى المساجد (١٥)
وتحقق لنظام الملك ما كان يسعى اليه ، فولاه السلطان ألب أرسلان وزارة
الدولة السلجوقية (١٦) .

(١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٠ هـ .

(١٤) بدرون : تاريخ الأدب الفارسى ص ٢١٨ .

(١٥) الراوندى : راحة الصدور ص ١١٧-١١٨ .

(١٦) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص ٢٩ .

حرص السلطان الب أرسلان على المحافظة على ممتلكات الدولة السلجوقية ، وتوسيع رتبة اراضيها . فلما ولي السلطنة شمس أمير ختلان عمسا الطاعة ، ومنع ما كان يوديه من مال الى الحكومة السلجوقية ، فعزل الب أرسلان على سحق تمرده ، فسار اليه على رأس حملة حربية ، ولما بلغ ختلان ، تحصن أميرها في القلعة ، وهاجم السلطان السلجوقي القلعة ، وشدد عليها الحصار حتى استسلم أمير ختلان ، وعادت هذه الولاية الى الولاء والطاعة للسلطان السلجوقي . ولم تقف مقاعب الب أرسلان عند هذا الحد ، بل سار الى صفغانيان التي حدثت حذر ختلان في التمرد والعصيان ، وحاول أميرها الاستقلال عن الحكم السلجوقي . واستطاع الب أرسلان إعادة صفغانيان الى الولاء والطاعة ، وقد توطن نفوذ الب أرسلان في دولته بعد أن دحض هذه المحاولات الانفصالية ، ولم يلبث أن ازداد نفوذه بعد أن اعترف الخليفة العباسي به سلطانا ، وأرسل اليه التليد والخلع بشهادة من الناس (١٧) ، وبذلك اكتسب حكمه الصفة الشرعية .

ولم يواجه الب أرسلان حركات العصيان من ولايته فقط ، بل واجه مصاعب من أفراد أسرته ، من ذلك أن شهاب الدولة قتلتمش تطلع الى الوصول الى عرش السلطنة ، وجمع لذلك جيشا كبيرا ، وسار على رأسه الى الري ليستولى عليها ، ولما اقترب منه أرسل اليه يتكبر عليه فعله وينهاه عن العصيان ، ويدعوه الى الطاعة ، وأبدى استعدادا للعفو عنه ، لأنه يرضى له القراية والرحم ، لكن قتلتمش لم يستجب لنداء السلطان ، فقد اغتبر بكثرة جمعه ، وأطلق لجنده العنان ، فنهبوا قري الري ، وبذلك لم يعد هناك يد من الحرب والقتال . ومهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان في معركة دارت فيها الدائرة على قتلتمش وجند ، بل قتل في المعركة (١٨) . وبذلك عادت الى الدولة السلجوقية وحدتها ، وقوى مركز سلطانها .

كذلك أحبط السلطان الب أرسلان محاولة عمسه بيفو الاستقلال بإقليم هراة سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م ، وظهر هذه البلاد من الثوار ، وأعاد الأمن والنظام في جميع أنحاء خراسان وبلاد ما وراء النهر (١٩) .

-
- (١٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٦هـ .
 (١٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٦هـ .
 (١٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٥٧هـ .

اتخذ الب أرسلان بعد أن استتب له الأمر في دولته سياسة تنطوي على توسيع رقعة اراضيها ، وذلك ببسط النفوذ السلجوقي على بلدان الدولة الفاطمية في مصر والشام ، والسيطرة على البلاد المسيحية المجاورة ونشر الاسلام في غير بلاد الاسلام .

بدأ الب أرسلان يقترب من النزاع مع الاقاليم المسيحية المجاورة لدولته ، فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم ، وكان أهل هذه البلاد يكتثرون من الاغارة على اقليم اذربيجان حتى أصبحوا مصدر قلق لسكانه ، الأمر الذي شجع السلطان السلجوقي على سرعة العمل على كبح جماح هؤلاء القوم ، والسيطرة على بلادهم المجاورة للدولة البيزنطية .

بدأ الب أرسلان حركته الحربية ، فاستولى على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرة وان وأورمية ، كما سيطر على جورجيا وبلاد الأرمن ، وقد أزعج ذلك امبراطور الروم رومانوس ديوجينيس Romanus Diagenes ، وأدرك أن التوسع السلجوقي لا يقف عند حد ، بل يشكل خطرا على دولته ، فاعتزم تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده ، فسار الى بلاد الشام في عسكر كثيف ، وأغار على مدينة مديج ونهبها وقتل أهلها ، وهزم صاحبها محمود بن صالح بن مرداس ومن معهم من جموع العرب ، وعاد الى القسطنطينية (٢٠) .

ولما رأى صالح بن مرداس — أمير حلب — قوة الدولة السلجوقية ، سول على الدخول في طاعة السلطان السلجوقي ، فجمع أهل حلب وقال : « هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، وهم يستحلون دماءكم لأجل ذاهبكم ، والرأى أن نقيم الخطبة قبل أن يأتى وقت لا ينفعنا فيه قوة ولا بذل » فاستجاب الحاضرون لدعوته ، وأقيمت الخطبة في حلب للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، والسلطان السلجوقي (٢١) وسار الب أرسلان الى حلب ، وأدخلها في خوزته (٢٢) . وبذلك آلت الى الخلافة العباسية بعد أن كانت تابعة للدولة الفاطمية .

(٢٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٢ هـ .

(٢١) الرازي : راحة الصدور ص ١١٨ .

(١١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٢ هـ .

رأى رومانوس الرابع - امبراطور الدولة البيزنطية - ان الدولة السلجوقية تهدد امن بلاده ، فعول على اضعافها ، ووقف خططها التوسعية على حساب اراضيها ، فعاد رومانوس القسطنطينية على رأس جيش يتكون من مائتى ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والكرج والصرب والقوتاز وغيرهم من شعوب دولته ، فجاءوا « في تجمل كثير وزى عظيم » وسار امبراطور الروم على رأس جيشه الى سلاز كرد - من أعمال خلاط - ولما علم الب أرسلان بذلك أعد جيشا قويا ، وسار مسرعا لمقابلة العدو ، وقال وهو يجد في السير : « اننى اقاتل محتسبا مسيرا ، فإن سلعت فنعمة من الله تعالى ، وإن كانت الشهادة فإن ابى ملكشاه الى عهدي » ، وواصل المسير بجيشه حتى اقترب من الجيش البيزنطى ، ولما لاحظ السلطان الب أرسلان أن قوة الروم تفوق قوته واستعداده ، دعا الامبراطور الى عقد هدنة حتى يستطيع اعادة تنظيم قواته وتقويتها ، لكن الامبراطور رفض الهدنة ، وقال : لا هدنة الا في الرى ، لذلك رأى السلطان السلجوقى أن الحرب امر لا مفر منه ، وأثار حماس جنده ، ووقعت الواقعة بين الفريقين في ٤٦٣هـ / ١٠٧١م ، وكانت معركة حامية الوطيس ، انتهت بانتصار المسلمين على أعدائهم ، ومزقهم المسلمون شرمزق ، وقتلوا فيهم كيف شاعوا حتى امتلأت أرض المعركة بجثث قتلى الروم ، ووقع الامبراطور البيزنطى اسيرا في أيدي السلاجقة ، وسيق الى معسكر السلطان السلجوقى الب أرسلان (٢٣) . فقال له السلطان : ما عزيت أن تفعل بى ان اسرتنى ، فقال : افعل القبيح . فقال له السلطان : فما تظن اننى افعل بك ، قال : اما أن تقتلنى ، واما أن تشهر بى في بلاد الشام ، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الاموال ، واصطناعى نائبا عنك . قال السلطان السلجوقى : ما عزمت على غير هذا (٢٤) .

اطلق السلطان الب أرسلان سراح الامبراطور البيزنطى بعد أن تمهد بدمع دية كبيره قدرها ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل اليه عسكر الروم في أى وقت يطلبه ، وأن يخلق كل اسير مسلم في أرض الروم . ووقعت معاهدة مدتها خمسون عاما بين الفريقين ، وأخرج عن رومانوس ، وعاد الى بلاده مذموما مذخورا (٢٥) .

-
- (٢٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٣هـ .
 (٢٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٨٥ .
 (٢٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٣هـ .

وكان لموقعة ملازكرد أهمية كبيرة في التاريخ الاسلامى بصفة خاصة ، وتاريخ العالم بصفة عامة ، فقد نجم عن هذه الواقعة تأسيس دولة سلجوقية في أرض الزهم في آسيا الصغرى . وقد أدى ضياع هذه البلاد من الدولة البيزنطية الى ضعفها وتدهورها حتى سقطت في النهاية على أيدي السلطان العثماني محمد الثاني .

كما كان لهذه الواقعة آثار حضارية بالغة الأهمية ، ذلك ان الثقافة المسيحية غلبت على سكان آسيا الصغرى ، واعتدت منها الى حدود اذربيجان ، فلما انسحب الروم من هذه البلاد ، ودخلت في حوزة السلاجقة ، حلت الثقافة الاسلامية محل الثقافة المسيحية فيها ، وانتشر الاسلام في هذه البلاد ، وانتشرت اللغتان العربية والفارسية فيها ، لأن العربية لغة القرآن ، والفارسية لغة الفاتحين ، وقد مهد انتشارها لظهور اللغة التركية الحديثة بعد ذلك (٢٦) .

وضمعت الدولة البيزنطية على اثر هذه الموقعة . ولم يعد لها دور في حماية المسيحية من ضغط الاسلام ، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الاسيويين . وبذلك لم يعد الغرب الأوربي يعتمد على البيزنطيين في هذا الدور ، إنما كان عليه أن يعتمد على قوته وحدها ، وعلى ذلك مهدت موقعة ملازكرد للحملة الصليبية المعروفة بالأولى بعد أن أصبحت المسيحية في خطر بسبب ازدياد قوة السلاجقة وضعف الدولة البيزنطية (٢٧) .

ومهما يكن من أمر فقد أعاد السلطان ألب أرسلان غريمه وأسيره الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع الى بلاده ، بان خلع عليه خلعاً جليلاً ، وخصص له سرادقاً كبيراً ، وأعطاه قدراً كبيراً من المال لينفق منه في سفره . ثم أفرج عن عدد من ضباطه ليقوموا بخدمته ، وأمر عدداً من رجاله بصحبته حتى يصل الى دياره سالماً ، ولم تكف تحصل أخبار هذه الهزيمة الى القسطنطينية حتى أزال رعاياه اسمه من سجلات الملك ، وقالوا : إنه سقط من عداد الملوك ، وغضب عليه المسيح .

(٢٦) عبدالنعم حسنين : سلاجقة العراق وإيران ص ٥٩ .

(٢٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٨٦ .

وأعلن ميخائيل السابع امبراطورا ، وألقى القبض على رومانوس الرابع وسبيلت عيناه (٢٨).

على أن السلطان الب أرسلان لم يشتغل هذا النصر العظيم في محاولة الاستيلاء على بقية اسيا الصغرى التي أصبحت متهمة له بعد ملازكره . وإنما اكتفى بإدخال أرمينية وانطاكية والرها في حوزته ، واتجه إلى الأطراف الشرقية من دولته لأخضاع بلاد ما وراء النهر ، وهاجم الب أرسلان إحدى القلاع الثائرة ، وأخمد ثورتها ، وقبض جنده على قائدها يوسف الخوارزمي ، وقد اعتزم السلطان السلجوقي قتله بنفسه ، لأنه أظهر عنادا واصرارا على التمرد تسبب في قتل الكثير من جنده ، ورماه السلطان بسهم فأخطاه ، ولم يكن يخطئ سهمه ، وأخرج يوسف سبها أخفاه في ملايسه لقي السلطان بسببه مصرعه (٢٩) .

وبذلك انتهى حكم السلطان الب أرسلان الذي استمر تسع سنين وسبعمائة ، وقد حكم مملكة تمتد من نهر جيحون حتى نهر دجلة . وبعد عصره من أهم عصور السلاطين السلجوقية استتب فيه الأمن ، وحسنت إدارة الدولة ، واتسعت رقعتها ، وقهر أعداؤها حتى أنها كانت مهاية مرهوبة الجانب . ويذكر ابن الأثير (٣٠) أن الب أرسلان كسان يكثر من الصدقات على المحتاجين من رعيته ، وقد قنع من الأهالي بالضريبة الشرعية تؤخذ منهم كل سنة دفعتين ، وقد اهتم بدراسة تاريخ الملوك الماضين وسياساتهم عبرة وعظة له .

أكد الب أرسلان قبل أن يلقى ربه التوصية لابنه ملكشاه بالسلطنة — وكان معه — وأمر جنده بأن يقسموا يمين الولاء والطاعة له ، وأرسل ملكشاه إلى الخليفة العباسي في بغداد يطلب منه إقامة الخطبة له على منابرها بعد وفاة أبيه ، وغادر ملكشاه بلاد ما وراء النهر ، وعاد إلى الري ، واتخذ نظام الملك وزيرا له ، ورفع مرتبات الأجناد ، وأرسل ملكشاه أصحاب الأطراف يدعوهم إلى الخطبة له والانقياد إليه (٣١) .

(28) Vasiliev : Hist of the Byzantine Empire. p. 365.

(٢٩) البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ٣٠ .

(٣٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٥ هـ .

(٣١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٥ هـ .

واجه ملكشاه ضغابا كثيرة في بداية حكمه بسبب ابتذال بعض الولايات محاولة الانفصال عن الدولة السلجوقية ، لكن ملكشاه احبط كل المحاولات الانفصالية . ولم يكذ ملكشاه ينته من نخض هذه الثورات ، حتى واجه حركة اخرى قام بها عمه قاروت بك مطالبسا بالسلطنة ، وكان بكرمان وقت وفاة أخيه الب أرسلان ، وسار طالبا الى حاضرة السلطنة السلجوقية - فمول ملكشاه على نخض هذه الحركة الخلية ، فاصطحب وزيره نظام الملك ، وتوجهوا الى همدان للقاء قاروت بك ، وقمع حركة تمرده (٣٢) ، وكان الجند يميلون الى قاروت بك ، ودارت معركة رهية بين الفريقين ، انضم فيها شرف الدولة مسلم بن قريش ، وبهاء الدولة منصور ابن دبيس بن مزيد ومن معها من العرب والاكراذ الى السلطان السلجوقي ، وانتهت المعركة بهزيمة قاروت بك ، وصفت السلطنة لملكشاه ، ولم يعد ينازعه فيها منازع ، ودانت له الولايات السلجوقية بالولاء والطاعة ، أما قاروت بك فقد سبق اسيرا الى السلطان ملكشاه ، فأمر بقتله تخلصا من شره وعقبا له على موقفه العدائي نحوه ، وأقر كرمان بيد اولاده ، ومنح العرب والاكراذ ، الذين اشتركوا معه في المعركة ، الاقطاعات الكثيرة (٣٣) .

فیر ان الدولة السلجوقية تعرضت لاحداث شغب من الجند ، اذ انطلقوا في البلاد يعيشون فيها نهبا وفسادا ويخربون ويدمرون ، فغضب السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك بتدبير امور البلاد كلها دون الرجوع اليه ، وقال له : قد رددت الامر كلها كبيرها وصغيرها اليك ، فأنت الولد . وزاد في اقطاعه ، وخلع عليه ، ولقبه عدة القاب من بينها لقب اتابك أي الامير للولد (٣٤) . وكان ملكشاه جديرا بهذه الثقة ، فاعاد الى البلاد الامن والطمانينة .

كانت بلاد ما وراء النهر كثيرة القلاقل والاضطرابات في عهد السلطان الب أرسلان ، فلما قتل شق خاقان التكين - صاحب سمرقند - عصا الطاعة ، وأقار على ترمذ ، وضجها الى حوزته ، منتهزا فرصة

(٣٢) البنداري : تاريخ ال سلجوق ص ٤٨ .

(٣٣) الراوندي : راحة الصدور ص ١٢٦-١٢٧ .

(٣٤) البنداري : تاريخ ال سلجوق ص ٤٨ .

الاضطرابات التي اعتبرت ذلك ، وانشغال السلطان الجديد ملكشاه في التصاء على الصغاب التي واجهته ، ولما استوثق الامر للسلطان الجديد ساز التي ترمذ وحاصرها وشدد عليها الحصار ، ولما رأى جند ترمذ ان لا طاقة لهم بجند السلاجقة طلبوا من السلطان العزو والصفح ، لامنهم وعفا عنهم ، واستعادها ملكشاه ثم صار الى سمرقند ، فاسقط في يد صاحبها ، ففادها وأرسل يطلب من السلطان الصلح ، وتضرع في ذلك الى نظام الملك ، وأجيب الى طلبه ، وعقد ملكشاه معه صلحا ، بل اقره على سمرقند (٣٥) .

واصل ملكشاه سياسة ابيه الب أرسلان في العمل على توسيع رقعة الدولة السلجوقية بحيث تسيطر على العالم الاسلامي كله بما في ذلك الدولة الفاطمية المتداعية ، فأرسل جيشا الى بلاد الشام سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م واستولى على أكثرها ، ثم أرسل جيشا الى مصر ، واوغل في الاراضي المصرية ، لكن الفاطميين بذلوا قصارى جهدهم في درء الخطر السلجوقي عن مصر ، وقعلا هزم السلاجقة ، وطردوا من البلاد المصرية (٣٦) لذلك توقف السلاجقة بعد ذلك عن فكرة قزو مصر .

تطلع ملكشاه الى تأكيد سيطرته على بلاد الشام ، فأقطعها لأخيه تاج الدولة تتش في سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م وما يفتحه في تلك النواحي ، فقصد تتش حلب وحاصرها ، ولحق بأهلها مجاعة شديدة بسبب الحصار . علي ابن تتش اضطر الى رفع الحصار بعد أن تعرضت للقوات السلجوقية في دمشق لهجمات للقوات الفاطمية ، وسار تتش الى دمشق لنجدة جنده ، واستطاع مطاردة الجند الفاطمي ، واستعاد السيطرة السلجوقية عليها (٣٧) .

لما رجل تاج الدولة تتش عن حلب ، خشي أهلها أن يعود الى مهاجمتهم ، فاستنجدوا بشرف الدولة مسلم العقيلي — صاحب الموصل — ليسيئوا اليه ، ودخل الأمير العقيلي حلب سنة ٤٧٢هـ ، وأخضع المعارضين لحكمه ، وأرسل الى السلطان السلجوقي يطلب اقراره على

(٣٥) الراوندي : راحة الصدور من ١٢٦-١٢٧ .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٦٨هـ .

(٣٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٧٢هـ .

حلب ، فوافق على طلبه ، وأقطعها له (٣٨) ، وبذلك انضمت معظم سورية الى الدولة السلجوقية . واتخذ تنش دمشق مقرا لدولة سلاجقة الشام .

حرص السلطان ملكشاه على توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى ، وهو بذلك يواصل سياسة أبيه التي تدعو الى مواجهة الدولة البيزنطية ، وانتزاع اراضيها جهادا في سبيل الله ، ففي سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م أسند الى سليمان بن قتلмыш بن اسرائيل حكم هذه البلاد ، ويعتبر قتلмыш المؤسس الحقيقي لدولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م .

لم يكتف قتلмыш بحكم بلاد آسيا الصغرى ، بل سعى الى توسيع رقعة ولايته واتجه الى انطاكية — وكانت بيد الروم — وساعده على ذلك استيلاء اهلها من الحكم البيزنطى ، وراسلوا قتلмыш سرا ، وطلبوا منه التوجه الى بلدهم وامتلاكها ، فابحر قتلмыш على رأس حملة كبيرة الى انطاكية ، واوغل جنده في جبال وعرة ومضائق غلقة حتى وصل اليها ، وهاجم انطاكية ، وشدد هجماته عليها حتى فتحها ، وغنم مغانم كثيرة ، واستولى على البلدة ، وأحسن الى الرعية وعذل فيهم وأعاد تدمير انطاكية (٣٩) . وبفتح السلاجقة لانطاكية اطلت دولتهم على البحر المتوسط .

على أن اتساع رقعة الولاية السلجوقية في آسيا الصغرى ومجاورتها لولاية الشام السلجوقية ، أدى الى ظهور نزاع مرير بين حكام هاتين الولايتين ، ذلك أن قتلмыш لم يكتف بحكم انطاكية ، بل تطلع الى السيطرة على حلب ، وهاجمها ودارت حرب بينه وبين أميرها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، انتهت بمقتل الأمير العربى ، وسيطرة قتلмыш على حلب (٤٠) ، على أن استيلاء قتلмыш على حلب أدى الى وقوع هدام بينه وبين تنش — التي كانت حلب تابعة لولايته — ورأى ضرورة استعادتها ، واشتبك الأميران في معركة انتهت بهزيمة قتلмыш ومقتله ، وحاصر تنش حلب ، وأحبط مقاومة جند سلاجقة الروم ، واسترد حلب (٤١) .

(٣٨) المصدر السابق .

(٣٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٧٢هـ .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٧٧هـ .

(٤١) المصدر السابق ، حوادث سنة ٤٧٩هـ .

راى ملكشاه ان يقصد سورية لاعادة الهدوء والطمانينة الى هذا الجزء الهام من دولته المترامية الاطراف . فغادر اصفهان ، وقصد حلب ، واخضع في طريقه القلاع الخارجة على سلطان الدولة ، ومن بينها البرما ، فحاصرها واستعادها من الروم ، ثم استرد قلعة جعبر ، وكان اصحابها يقطعون الطريق ، ثم عبر الفرات الى مدينة حلب ، واقطعها لتسييم الدولة آتسنقر ، فعمرها واحسن السيرة في اهلها ، وراى بقية حكام المدن الشامية ان أمن بلادهم لا يتحقق ولا ينجو من الخطر الا اذا انضموا الى الدولة السلجوقية القوية ، فأرسل اصحاب شيزر واللاذقية وكفر طاب وغاميه وغيرهم الى ملكشاه يقدمون له فروض السواء والطاعة . فأقرهم على ما بأيديهم من البلاد ، كما أقر حكم تتش في بلاد الشام ، وعاد السلطان السلجوقي الى بغداد بعد ان اخضع لسلطانه بلاد الشام ، والجزيرة ، وخلع عليه الخليفة العباسي الخلع السلطانية ، « وفوض اليه أمر البلاد والعباد » وأمره بالعدل فيهم ، وأقام السلطان السلجوقي بعض الوقت في بغداد ، وتزوج تركان خاتون ابنة الخليفة العباسي سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م (٤٢) .

عادت بلاد ما وراء النهر من جديد الى إثارة المتاعب في وجه السلطان ملكشاه ، ذلك ان أحمد خان بن خضر خان - صاحب سمرقند - استبد بالاهلين ، فكتبوا الى السلطان سرا يستغيثون به ، ويسألونه القدوم عليهم لينقذهم من الظلم والجور . ويستعيد نفوذه في هذه البلاد ، فغادر ملكشاه اصفهان الى خراسان ، ومنها الى بلاد ما وراء النهر ، وقصد بخارى وابتلكها ، كما امتلك ما جاورها من البلاد ، ثم قصد سمرقند وحاصرها وشدد عليها الحصار حتى فتحتها وعفا عن صاحبها ، وعهد الى أجد قواده بحكم سمرقند ، ثم قصد كاشغر ، وأرسل الى ملكها يطلب منه الدخول في طاعته ، فوافق الملك وحضر بين يديه معلنبا ولاء له ، فأكرمه وأقره على كاشغر (٤٣) . وبذلك امتد نفوذ السلاجقة شرقا وغربا ، وشمل المناطق الواقعة بين كاشغر في الشرق وأنطاكية في الغرب ، أى امتد من حدود الهند شرقا الى البحر المتوسط غربا ، وانضوت تحت لواء السلاجقة اقاليم ما وراء النهر وايران وآسيا الصغرى والمراق والشام .

(٤٢) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص ١٦٢ .

(٤٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٢هـ .

بلغت الدولة السلجوقية أوج اتساعها وعظمتها في عهد السلطان ملكشاه ، ومما لا شك فيه أن الفضل الكبير في ذلك يرجع الى وزيره نظام الملك الذي عرف عنه الحكمة والرشاد ، وقد بلغ نظام الملك من علو الهمة ، وبعد الصيت ما بلغه البرامكة ، وحلت به نكبة اشبه بنكبتهم ، ونظام الملك من أبناء الدهاتين بطوبس ، زال ما كان لأبيه من مال وملك . وتعلم العربية ، وعلوم الدين ، ثم تدرج في سلك الوظائف ، وظهرت كفايته وإمانته ، حتى اتخذه الب أرسلان وزيرا له ، ثم فوضه ملكشاه امر دولته كلها ، وطوال تلك الفترة كان الوجه الحقيقي لسياسة الدولة ، وضبط الأمور في هذه الدولة المترامية الأطراف وأسفرت جهوده الى جعل الدولة السلجوقية أكبر قوة في الشرق ، ترهبها الأمم المجاورة ، وتخشى بأسها (٤٤) .

لم تستمر العلاقات الودية بين ملكشاه ووزيره نظام الملك ، سدوام الحال من الحال ، إذ سميت هذه العلاقات بعدة عوامل منها ما يتعلق بولاية العهد ، فقد رأى نظام الملك أن بر كياروق — الابن الأكبر للسلطان ملكشاه — أحق بولاية العهد من أخيه محمود ، ورفضت تركان خاتون — زوج السلطان ووالدة محمود — ذلك ، ورشحت ابنها محمود لولاية العهد ، وكان في الرابعة من عمره ، وادى ذلك الى تدهور العلاقات بين نظام الملك وتركان خاتون ولما كانت قوية التأثير على زوجها ملكشاه ، فقد انلجت في اثارة الخلافات بين الرجلين (٤٥) .

وكان نظام الملك يعهد بحكم ولايات الدولة السلجوقية الى ابنائه وأحفاده وأقاربه ، ويسند اليهم المناصب الرئيسية ، وكان بعضهم غاشما سىء السيرة ، ظالما في الناس ، فقال ذلك من سمعة الوزير السلجوقي وكان أحد أحفاده يلى مرو فأساء ادارتها ، واستبد بأهلها ، ورفع الناس شكاياتهم الى السلطان ، فأرسل الى نظام الملك يؤنبه ، ويتبع تصرفه في تعيين هذا الشاب الطائش أو أقاربه عموما ممن تنقصهم الخيرة ، ويعوزهم التجربة واستاء الوزير — الذي تجاوز الثمانين عاما من رسالة السلطان السلجوقي الذي هو مدين له بما بلغته الدولة في عهده من قوة

(٤٤) الراوندى : راحة المسبور ص ١٢٤ .

(٤٥) البندارى : تاريخ آل سلجوق ص ٦٢ .

وازدهار — ، وعبر عن غضبه برسالة بعث بها الى السلطان جاء فيها :
ان الذى وضع التاج على رأسك قد وضع القلنسوة على رأسى ، ونتيجة
لهذه الخلافات الشديدة أمر السلطان بعزل وزيره (٤٦).

على أن نظام الملك لم يلبث أن قتل بعد عزله في رمضان سنة ٤٨٥هـ /
١٠٩٣م بالقرب من نهاوند . فقد اغتاله شاب ديلمى ، وهو داخل الى
مخيمه من طائفة الاسماعيلية ، حين ارتقى الليل سدوله ، ذلك لأن نظام
الملك كان شديد العداء والتنكيل بهذه الطائفة ، ولم يلبث ملكشاه
أن توفى بعد مقتل وزيره بشهر واحد (٤٧) .

أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانهيار بعد وفاة السلطان
ملكشاه ، ومن أهم أسباب هذا الضعف تنافس الأمراء السلاجقة حول
الوصول الى عرش السلطنة ، الأمر الذى أحدث انقساماً شديداً بين
أبناء البيت السلجوقي ، وبدأت هذه الخلافات بعد وفاة السلطان
ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ، بين بركياروق الابن الأكبر لملكشاه — وأخيه
محمود ، وأيد بركياروق نظام الملك ومن بعده أتباعه وأفراد أسرته
واساتذة وطلاب المدرسة النظامية ، على حين وقف الى جانب محمود ،
أمه تركان خاتون ، والوزير تاج الملك التشيرازى — الذى خلف نظام
الملك — وقد استطاعت تركان خاتون أن تحصل من الخليفة العباسى
المقتدى بالله على تقليد بالسلطنة منتهزة فرصة وجودها في بغداد
أثناء موت ملكشاه ، وأودع أنصارها ، بركياروق في سجن أصفهان ،
غير أن اتباع المدرسة النظامية أخرجوه من السجن ، ونادوا به سلطاناً
وقتلوا الوزير تاج الملك التشيرازى لاتهامه بتدبير اغتيال نظام الملك ،
وأُسندوا الوزارة الى عز الملك الحسين بن نظام الملك (٤٨) .

على أن الأمور لم تستتب لبركياروق ، فقد طالب عمه تتش
— صاحب الشام — بالعرش ، واستولى على بلاد الجزيرة ، وسار الى
أنريبيان ، غير أن بركياروق أوقع به الهزيمة ، واعترف بالخليفة
العباسى به سلطاناً (٤٩) .

(٤٦) براون : تاريخ الأدب الفارسى ص ٢٣٠ .

(٤٨) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ص ١٤ .

(٤٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .

(٤٩) الراوندى : راحة الصدور ص ١٤٢-١٤٣ .

لم يستسلم قتش للهزيمة ، بل عاود محاربة ابن أخيه ، وأعد العدة لذلك ، لكنه لم يستطع للتصدي لبركياروق الذى قوى بأسه ، وعظم شأنه بعد وفاة أخيه محمود ، وانتصر على قتش بالقرب من الرى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م (٥٠) . وبذلك قضى بركياروق على كل المحاولات التى استهدفت انتزاع السلطنة منه . ودانت له الدولة بالطاعة والولاء .

عاد الانقسام الى البيت السلجوقى ، بعد أن ثار محمد - أخو السلطان - عليه ، وكان واليا على أران وكنجة ، وقصد همدان ، على أن بركياروق لم يستطع التصدي له واحباط تمرده بسبب ثورة الجند عليه ، فعوى شأن محمد - وأعلن نفسه فى همدان سلطانا ، ولم يلبث أن اترف به الخليفة العباسى لما شعر بقوة بأسه ورجحان كفته (٥١) وبذلك أصبح فى الدولة السلجوقية سلطانان .

استمر النزاع بين الأخوة ، بركياروق ومحمد وسنجر : وتكررت الحروب بينهم ، وكان الخليفة العباسى يقف من هذه الحروب موقف المتفرج . ينتظر نتيجة المعركة ، ويقوم الخطبة لمن غلب . ودخل بغداد ظاهرا منتصرا .

ازداد ضعف الدولة السلجوقية بسبب هذا الانقسام الشديد بين أمراء البيت الحاكم ، وفى سنة ٤٩٧هـ سنة ١١٠٣م اتفق بركياروق ومحمد وسنجر على تقسيم المملكة بينهم ، وتوفى بركياروق سنة ٤٨٨هـ ، بعد أن ترك الدولة السلجوقية وقد مزقتها الانقسامات وسيطر كل أمير على ما تحت يده من البلاد (٥٢) .

ولم يستطع السلطان محمد - الذى انشرد بالسلطنة بعد وفاة أخيه - أن يعيد الى الدولة وحدتها فى وقت اشتد فيه خطر الاسماعيلية ، وبدأت الحروب الصليبية . وبوفاته سنة ٥١١هـ سنة ١١١٧م اشتد النزاع وعاد من جديد حول العرش ، ذلك أن محمود - الذى خلف أباه - لم يعترف به عمه سنجر - صاحب خراسان وما وراء النهر ، بل أعلن

(٥٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .

(٥١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٧هـ .

(٥٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٨هـ .

نفسه سلطانا ، وبذلك أصبح للدولة — كما كان الحال من قبل — سلطانان (٥٣) .

على أن أمر سنجر لم يستقر في بلاد ما وراء النهر وخراسان ذلك أن الخوارزميين أقاموا ملكهم على حساب دولته . واشتبكوا مع سنجر في عدة حروب ، أنهكت قواه ، ومن ناحية أخرى تكرر النزاع بين الأمراء السلاجقة ، وتطلع كل منهم إلى الوصول إلى السلطنة ، الأمر الذي أدى إلى وقوع اشتباكات بينهم . وهكذا أصبحت الدولة السلجوقية منذ أواخر القرن الخامس الهجري مسرحا للحروب الداخلية في الوقت الذي أحرق بها الأعداء من كل جانب .

ازداد نفوذ الخوارزميين في الشرق الإسلامي في عهد السلطان قتش ، وتربى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وعهد إليه بتخليصه من كابوس السلاجقة الذي قاسى منه العباسيون سنين عددا . وقد لقيت هذه الدعوة استجابة من السلطان الخوارزمي ، إذ تهىء له الفرصة لمد نفوذه غربا ، وتقوية صلته بدولة الخلافة والسيطرة عليها بدلا من السلاجقة ، وبذلك يكتسب الخوارزميون مركزا سياسيا مرموقا في عالم الإسلام . ومهما يكن من أمر فقد سارت قتش إلى الري سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٢م ، واشتبك مع ظفر — آخر السلاطين (٥٤) السلاجقة ، وانتصر عليه وخر السلطان السلجوقي صريعا في ميدان القتال ، وأرسل قتش رأسه إلى بغداد ، وسيطر الخوارزميون على أملاك السلاجقة في الشرق . وبذلك زالت الدولة السلجوقية .

* * *

ازدهرت الحضارة الإسلامية في الدولة السلجوقية ، فانتشرت المكتبات في المدن الكبرى ، وتقدم فن الوراقة ، ويقصد به نسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وكل ما يتعلق بإخراج الكتاب ، وكان الوراقون يبيعون هذه الكتب في دكاكينهم ، والمهتمون بالحياة الثقافية يتزددون

(٥٣) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥١١هـ .

(٥٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٩٠هـ .

على هذه الدكاكين للقراءة أو لشراء ما يلزمهم من الكتب والمصنفات ، وكانت الدراسة الابتدائية تتم في الكتاتيب أما الدراسة المتخصصة فكان مقرها المسجد أو المدارس التي أنشأها نظام الملك . وسميت بالنظامية ، وأهمها مدرسة بغداد ، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسي بها أنه كان يعين الأساتذة فيها بنفسه ، ومن أهم المواد التي درست بها الفقه والحديث ، وبرز فيها علماء أجلاء مثل الغزالي ، وشهدت المجالس العلمية في المساجد والدور والمدارس مناظرات عامة ، بسبب تعدد المذاهب الإسلامية ، وحرص العلماء على القراءة والاطلاع حتى يتمكنوا من دحض حجج معارضيههم ، وشهدت الدولة السلجوقية حركة ترجمة نشيطة من الفارسية واليونانية الى العربية . ومن العلماء الأجلاء الذين لعبوا دورا كبيرا في ازدهار الحياة الثقافية في العصر السلجوقي ، الوزير نظام الملك ، وكان عالما جوادا دينا مجلسه عامر بالقراءة والفقهاء وأجبة المسلمين وأهل الخير والصالح ، أمر ببناء المدارس في سائر أرجاء الدولة ، وأجرى لها الجرايات العظيمة ، صنف كتاب سياسة نامه ، وكان ملكشاه قد عهد الى كبار رجال دولته بأن يؤلف كل واحد منهم رسالة في الحكم يبين فيه أنواع المفاصد والمحسن التي انتشرت في أرجاء الدولة ، وإدارة أماليهما ، والبداية التي ظهرت وعمت بين الناس ، وما أهل الناس من عادات طيبة ، وألف نظام الملك رسالته في حوالى سنة ، وقد أعجب بها ملكشاه ، وفضلها على غيرها من الرسائل (٥٥) ، ولأجل هذه الرسالة اتخذها هاديا وناصحا ومرشدا ، ويشتمل الكتاب على قدر كبير من الروايات التاريخية والآراء السياسية وكتبه بلغة فارسية سهلة (٥٦) .

ومن أعجب رجال هذا العصر ونوابغهم الشاعر الرحالة ناصر خسرو ، زار مصر في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واعتنق في القاهرة المذهب الاسماعيلي ، ومكث في مصر بضع سنين ، وصنف كتاب سفر نامه ، وصف فيه رحلته في مصر ووصف القاهرة ومساجدها بها في ذلك الجامع الأزهر ، كما وصف حاراتها وحدائقها ومبانيها ، وتحدث عن التنظيمات الادارية في مصر الفاطمية ونظام الجيش ، وعاد الى بلخ يدعو

(٥٥) بدرون : تاريخ الادب الفارسي ص ٢٦١ .

(٥٦) بدرون : تاريخ الادب الفارسي ص ٢٦١ .

للفاطميين ، ولقب حجة خراسان ، وحاول خصومه قتله ، فهرب منهم الى بعض الجبال حيث بقى عشر سنين يقات بالمشب والماء ، وله ديوان ابرز فيه آراءه الدينية والفلسفية وكلها توضح تماما عقيدته الاسماعيلية (٥٧) ، وينضح فيها اتخاذ التأويل الذى اعتاده الباطنية (٥٨) . ومن أهم مؤلفاته كتاب «روشنائى نامه» أو «كتلث الضياء» و «سعادت نامه» أو «كتاب السعادة» ، وأما الثالث كتاب «زاد المسامرين» (٥٩) .

واشتهر الشاعر عمر الخيام رباعياته التى أنشدتها بلهجته الخاصة ، وكان فيلسوفا ودهرى وطبيعى ، عالما بالنجوم ، وقد اشترك فى وضع التقويم الجلالى فى مدينة أصفهان سنة ٦٣٨ هـ / ١٠٧٤ م بتشجيع من نظام الملك ، وقد دفن فى مدينة نيسابور ، ولا صحة لما قيل أنه دفن تحت شجيرات الورد . وقد وصفه القفطى (٦٠) بأنه واحد من حملة العلوم اليونانية أى الحكمة والفلسفة ، وقد وقف متأخرا الصوفية على شئ من ظاهر شعره فنقلوها الى طريقتهم ، وتحاضروا بها فى مجالسهم وندواتهم « وبواطنها حيات للشرعية لواسع ، ومجامع للاغلال جوالع » . ويؤكد القفطى أيضا أنه كان عديم القرنين فى العلوم والحكمة ، يضاف الى ذلك أنه كان عالما بالفقه واللغة والتواريخ وقراءات السبع .

وتوفى عمر الخيام فى الفترة ما بين سنة ٥٠٩ هـ و ٥٣٠ هـ . وتبلغ مؤلفاته عشرة كتب بما فى ذلك رباعياته المعروفة وزيج ملكشاه الذى اشترك فى وضعه ، وأغلب الرسائل عبارة عن رسائل علمية أو فلسفية مكتوبة باللغة العربية . وقد نهج بعض الأدباء فى ذلك العصر منهج الخيام فى رباعياته (٦١) .

والخلاصة أن الدولة السلجوقية شهدت نهضة ثقافية وعمرانية كبيرة . وعنى ملكشاه بهدنة أصفهان ، وأصبحت فى عهده من أهم مدن العالم وأكثرها عمراناً ، وشيد فيها كبار رجال الدولة القصور والدور الفخمة .

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٨٣ .

(٥٨) براون : تاريخ الأدب الفارسى ص ٢٨٢ .

(٥٩) المصدر السابق ص ٣٠١ .

(٦٠) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢١٣ .

(٦١) براون : تاريخ الأدب الفارسى ص ٣٠٧ .

٣ - دولة اتابكة الموصل الجزيرة

انترزع السلاجقة بلاد الموصل والجزيرة من امراء بنى عقيل : كما استولوا على ديار بكر التى كان يحكمها بنو مروان ، ففى سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م سير السلطان السلجوقى ملكشاه عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير الى الموصل للاستيلاء عليها ، فحاصرها حتى طلب اميرها - شرف الدولة مسلم ابن قريش العقيلى - الامان فى مقابل تسليم المدينة (١) ، فامنه القائد السلجوقى ، واستولى على اموال وذخائر الامير العقيلى ، غير ان السلطان ملكشاه ما لبث ان اعاد الموصل اليه (٢) .

اعترض السلطان ملكشاه على قولية ابراهيم بن قريش الموصل بعد مقتل اخيه مسلم ، واسند ولايتها الى ابنى عبدالله محمد بن مسلم ، واضاف اليه الرحبة وحران وسروج وبلد الخابور ، غير ان بنى عقيل رفضوا تدخل السلاجقة فى تنصيب امير عليهم ، وأبقوا على ابراهيم بن قريش حتى سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م ، فاستدعاه ملكشاه ، واعتقله ، وأنفذ وزيره فخر الدولة بن جهير الى الموصل حيث استولى عليها (٣) .

لما توفي السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م أطلق سراح ابراهيم ابن قريش بشفاعة زوجته صفية عمة السلطان السلجوقى (٤) ، وسارت مع ابنها على بن مسلم الى الموصل ، فنازعه أخوه محمد فى حكمها ،

(١) كان الامير قسيم الدولة قسنفر - ولد عماد الدين زنكى - أحد قادة هذا الجيش ، وانضم اليه الامير ارتق بن اكسب - جد امراء بنى ارتق - على رأس جمع كبير من التركمان ، ولما اشتد الحصار على أهل الموصل أرسل اليهم ينصحهم بالدخول فى طاعة السلطان ، ويحذروهم من عاقبة العصيان ، فقبلوا نصحه ، وسلموا الموصل الى القائد السلجوقى .
(ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٥)

(٢) تاريخ الفارقى ، ص ٢٢١ .

(٣) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدا والخبر جزء ٢٧٠ ص .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة نى ايوب ج ١ ص ٢٣ .

ودار بينهما قتال انتهى الأمر فيه بهزيمة محمد ، ثم انتزع أخوه على الموصل من ابن جهير وتولى حكمها (٥) .

على أن على بن مسلم سرعان ما نزل عن حكم الموصل لعمه ابراهيم ابن قريش . وبذلك امتد نفوذه الى سائر بلاد بني عقيل ، لكن السلاجقة عولوا على استعادة الموصل ، فطلب تاج الدولة تتش من صاحبها أن يقيم الخطية له (٦) ، ولما رفض ابراهيم بن قريش ، توجه تاج الدولة الى نصيبين (٧) ، واستولى عليها عنوة من نائب صاحب الموصل (٨) ، ثم قصد الموصل ، واشتبك في معركة مع ابراهيم بن قريش انتهت بهزيمته ومقتله ، وأعاد السلطان السلجوقي الموصل وأعمالها سنة ١٠٨٦هـ / ١٠٩٣م الى على بن مسلم (٩) .

لكن الأمور في الموصل لم تستقر لبني عقيل ، فحدث نزاع بين محمد ابن مسلم العقيلي — صاحب نصيبين — وعلى بن مسلم — أمير الموصل — فأستعان محمد بن مسلم على أخيه بالأمير السلجوقي كربوقا (١٠) ، فسار الى حران واستولى عليها ، ثم توجه الى نصيبين ، وغدر بصاحبها وانتزعها منه (١١) ، واتجه بعد ذلك الى الموصل فحاصرها (١٢) ، ولم يستطع الأمير العقيلي الدفاع عنها ، ففارقها ، واستولى عليها كربوقا

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ص ٢٧٠ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٦هـ .

(٧) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على الطريق من الموصل الى الشام وفيها وفي قرأها بساكنين كثيرة .

(٨) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٢٩٢) .

(٩) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ٦٥ .

(١٠) كان ملكشاه قد أقطع مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية وبيت المقدس لتاج الدولة تتش ، فلما توفي ملكشاه طبع تاج الدولة في السلطنة ، فسار الى حلب وأخذها ، ثم عاد الى الشام ، واشتبك في قتال مع بركياروق — ابن أخيه — بالقرب من حلب ، انتصر فيه تتش ، واعتقل قوائد بركياروق ، ومن بينهم الأمير كربوقا الذي ظل معتقلا حتى أفرج عنه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة .

(١١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ٦٦) .

(١٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٥ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٩هـ .

سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م ، وبذلك آلت الموصل وأعمالها الى الدولة السلجوقية (١٣) .

كذلك عمل السلجقة على انتزاع ديار بكر من الأمير أبي المظفر منصور بن مروان منذ أن وليها سنة ٤٧٢هـ/٩٧٠م (١٤) ، فأمر السلطان ملكشاه وزيره فخر الدولة بن جهير بالاستيلاء على ديار بكر ، وإقامة الخطبة له ، ونقش اسمه على السكة ، فسار اليها سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وضم السلطان اليه جيشا بقيادة الأمير أرتق بن أكسب ، فمضى الأمير المرواني الى شرف الدولة مسلم — صاحب الموصل وطلب منه أن يعاونه ضد من يحاول مهاجمته (١٥) ، على أن يسلم اليه آمد ، فأجابته الى طلبه ، واتفقا على محاربة فخر الدولة ، واشتبك الفريقان في قتال على مقربة من آمد انتهى الأمر فيه بانتصار القائد السلجوقي وعاد شرف الدولة مهزوما الى بلاده (١٦) .

امتد نفوذ ابن جهير الى آمد ثم ميافارقين ، كما استولى على أموال بني مروان ، وأرسلها الى السلطان السلجوقي (١٧) ، ثم أنفذ جيشا الى جزيرة ابن عمر — وهي لبني مروان — فضمها الى حوزته ، كما بسط نفوذه على معظم قلاع وحصون ديار بكر ، وقصد أحسن ابن جهير الى أهلها ، ورفع عنهم ما كانوا يعانونه من المظالم (١٨) .

لما حل الضعف بالدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه ، استقل كل أمير بولايته ، فانقسمت الدولة السلجوقية الى دويلات

(١٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ١ ص ١٧ .

(١٤) أول من حكم ديار بكر من بني مروان أبو علي الحسن عقب مقتل خاله باذ الكردي سنة ٢٨٠هـ أثناء محاولته الاستيلاء على الموصل ، تزوج الأمير المرواني من امرأة خاله ، وتوجه الى حصن كيفا ، وحكمه ثم بسط نفوذه على سائر ديار بكر ولما توفي تعاقب بنوه على حكم ديار بكر حتى استولى عليها السلجقة سنة ٤٧٨هـ .

(ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٢٨٠هـ ، ٤٧٨هـ) .

(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ١٢ .
Ency : of Islam : Art Marwanids.

(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ١٢ .

(١٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ١ ص ٨ .

(١٨) تاريخ الفارقي ص ٢١٦ .

مستقلة . ومع ذلك ظل أمراؤها يظهرن الولاء والطاعة للسلطان السلجوقي .

اتخذ كل أمير من هؤلاء الأمراء قائدا تركيا يقوم بتدريب أبنائه على فنون الحرب والقتال ، وأساليب الإدارة والحكم ، يسمى أتابك ، أي الأمير الوالد (١٩) ، فلما عين عماد الدين زنكي أتابكا على الموصل ، كان مؤدبا لصغيرين من أولاد السلطان السلجوقي محمود (٢٠) ، غير أنهما لم يقوموا بإدارة شئون البلاد (٢١) .

استأثر الأتابكة بالمنفوذ دون الأمراء بسبب ما كانوا يتمتعون به من سلطة أبوية ، ومما ساعد على ازدياد نفوذهم أن الأتابك كان يتزوج من الأمير السلجوقي المتوفى ، ويتزوج الأمير الجديد من ابنة الأتابك ، وقد يسر ذلك للatabكة إقامة أسرات حاكمة مستقلة في بلاد الموصل والجزيرة (٢٢) .

ففى الموصل مكن السلاجقة عماد الدين زنكي من حكمها ، ذلك أن أباه قسيم الدولة آقسنقر كان مملوكا تركيا من ممالك السلطان السلجوقي ألب أرسلان ، ثم صار من أعيان دولة ابنه السلطان ملكشاه وأكابر أمرائه وبلغ من علو منزلته عنده أن لقبه قسيم الدولة (٢٣) ، ثم عهد إليه بولاية بعد حلب أن زال سلطان بنى عقيل عنها سنة ٤٧٩هـ (٢٤) / ١١٨٣م .

لما توفى السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٩٠٢م خرج آقسنقر على طاعة السلطان السلجوقي تاج الدولة تنش ، لكنه ما لبث أن قضى عليه سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، واستولى على أملاكه . وبذلك حرم عماد الدين زنكي ابن آقسنقر من أملاك أبيه (٢٥) .

(١٩) «أناه» معناها بالتركية أب و «يك» أمير .

(٢٠) ابن خلكان : وقفيات الأعيان ج١ ص ٣٠٥ .

(٢١) ابن القلائسي : ذيل تاريخ نهمشقي ص ٢١٧ .

(22) Cambridge Medieval History. Vol. p. 316.

Cibb. Damascus Chronicle of Crusaders. p. 23.

(٢٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ١٥ .

(٢٤) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ٦٥-٦٦ .

(٢٥) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك . القسم الأول . ج١ ص ٣٣ .

اجتمع ممالك أفسنقر حول عماد الدين زنكى (٢٦) ، وأحاطه الأمير كربوقا - الذى استولى على الموصل - برعايته ، وضم مملكته الى جندة وأقطعهم الاقطاعات واستعان بهم فى حروبه ، واشترك عماد الدين مع كربوقا فى غزو آمد (٢٧) ، ولم يزل زنكى فى خدمة كربوقا حتى وفاته سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م (٢٨) .

ذاع صيت عماد الدين زنكى لما أبداه من الشجاعة أثناء قتال الصليبيين فقد اشترك مع مودود - أمير الموصل - فى مهاجمة طبرية (٢٩) وقاتل الفرنجة على باب هذه المدينة (٣٠) ، وكافاه السلطان السلجوقى محمد ، بأن أسند اليه شحنة (٣١) البصرة وواسط سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م .

ولما ولى السلطان محمود الحكم أقر أخاه الملك مسعود مع أتابكة جيوش بك فى إمارة الموصل ، غير أنه خرج على السلطان بتحريض من أتابكة الذى خطب بالسلطنة ، مما ترتب عليه قيام حرب بينهما حلت فيها الهزيمة بمسعود وأتابكة (٣٣) . ثم عفا السلطان عنهما ، وولى أفسنقر البرسقى على الموصل سنة ٥١٥هـ (٣٤)/١١٢١م وأضاف اليه الجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها من أعمال الموصل (٣٥) .

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٨٩هـ .
Lane Poole : Saladin. p. 35.

(٢٧) أعظم من ديار بكر ، وأجلها قدرا ، وأشهرها ذكرا وهو بلد حصين ركن تحيط به دجلة بشكل شبه مستدير كالهلال .

(٢٨) لما هاجم كربوقا آمد واشتد القتال وكثرت جموع التركمانلقى كربوقا عماد الدين زنكى بين أرجل الخيل ، وقال لجنده : « قاتلوا عن ابن صالحكم » فحين اذن اشتد قتالهم ، وقوى حماسهم وانتهت المعركة باستيلاء كربوقا على آمد .
(أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ٦٦ .

(29) Lane-Poole : Saladin. p. 37.

(30) Zoc Olden Bourg. Les Croisades. p. 278.

(٣١) الشحنة : رئاسة الشرطة ، أو الأمير المشرف على حراسة المدينة أو محافظها .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الأول ج١ ص ٣٥ .

(٣٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٢٤ .
(33) Setton : A Hist. of Crusades. Vol I. 170.

(٣٤) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ٧٢ .
(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٣٠ .

اشترك عماد الدين زنكى فى الحروب التى دارت بين آقسنقر البرسقى (٣٦) ودييس بن صدقة (٣٧) — صاحبة الحلة — وانتهت بهزيمة (٣٨) ديبس ، ولما استقر رأى آقسنقر على العودة الى الموصل طلب من عماد الدين زنكى أن يصحبه فى المسير اليها لكنه رفض وقال لأصحابه : « قبيد . ضجرتنا مما نحن فيه ، كل يوم قد يملك البلاد أمير ، ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ، ثم تارة بالعراق ، وتارة بالموصل . وتارة ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام (٣٩) ، ثم قدم على السلطان محمود فأكرم وفادته وتوثقت بينهما عرى الصداقة ، كما اتصل فى نفس الوقت بالخليفة المسترشد واكتسب وده واحترامه (٤٠) .

لما هاجم أنصار ديبس بن صدقة صاحب — الحلة — البصرة ، وعاثوا فيها فسادا ، أعاد السلطان تولية زنكى شحنة لها ، فصار اليها واستطاع أن يصد المغيرين عنها ، ويعيد الأمن الى نصابه ، فعظم شأنه عند السلطان وأُسند اليه شحنة العراق ، وفوضها اليه مضافة الى ما لديه من الاقطاع (٤١) .

أما فيما يتعلق بامارة الموصل ، فانه بعد مقتل البرسقى سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) خلفه فى حكمها ابنه عز الدين مسعود ، وأقره السلطان على

(٣٦) كان الأمير آقسنقر البرسقى فى خدمة السلطان محمود فاصحاه له ، ملازما له فى خروجه كلها بمجاهدة الفرنجة ، وقد أصلح امر الموصل فى فترة ولايته عليها .
(ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٥ هـ) .
(٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٣٠ .
(٣٨) نشبت حزب بين ديبس بن صدقة الخليفة العباسى المسترشد سنة ٥١٦ هـ ، انضم فيها البرسقى — صاحب الموصل — وعماد الدين زنكى الى الخليفة العباسى ، فانهزم ديبس ، وذهب الى البصرة ، ودخلها ونهبها . وهاجمها . فأمر الخليفة البرسقى بحفظ البصرة فصار اليها وانتزعها من ديبس وولى عليها عماد الدين زنكى .
(Zoe Olden Bourg : Croisades. p. 276).

(٣٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة اأتابية ص ٢٧ .
(40) Lane Poole. Saladin. p. 35.

(٤١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .
ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج٤ ص ٦١ .
Zoe Olden Bourg : Les Croisades. p. 278.

ممتلكات أبيه ، فضبط البلاد ، وأحسن إلى الأهلين ، وكان يساعد في الحكم الأمير جاولى — أحد ممالك أبيه (٤٢) .

على أن عز الدين مسعود ما لبث أن توفى ، وخلفه في ولاية الموصل أخ له ، وظل جاولى يتولى مهام الحكم في البلاد نيابة عنه ، وأرسل إلى السلطان محمود القاضي بهاء الدين أبا الحسن على بن الشهرزورى ، وصلاح الدين محمد الياغيسيانى يطلب إقرار الأمير الجديد على ما يليه من البلاد ، وبذل في سبيل ذلك كثيرا من الأموال (٤٣) ، بيد أن السلطان محمود كان قد أصدر مرسوما بتسليم ديبس بن صدقة الموصل ، وأعد العدة للمسير إليها ، لكن الخليفة المسترشد عارض توليته ، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان بتولية زنكى (٤٤) ، فلقبت هذه الفكرة قبولا من الرسولين ، ذلك أنهما كانا يخشيان جاولى ويرفضان الدخول في طاعته ، وطلبا من انوشروان ابن خالد — وزير السلطان محمود — تولية زنكى الموصل لأنه يستطيع الدفاع عن بلاد الموصل والجزيرة بعد أن ازدادت هجمات الصليبيين عليها (٤٥) ، فأبلغ الوزير ذلك إلى السلطان ، ليوقف بنفسه على رأيهما في زنكى ، فتحدثا عن كفايته وشجاعته ، فوافق على توليته الموصل وبعث في طلبه حيث سلمه منشورا بذلك ، وسير معه إلى الموصل ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجى ليشرف على تربيتهما (٤٦) ولهذا قيل له الأتابك (٤٧) .

سار زنكى قاصدا الموصل ، فدخلها دون أن يتعرض له جاولى بل دخل في خدمته (٤٨) فأقطعه زنكى الرحبة وأعمالها . وسيره إليها ، وأقام هو بالموصل ليرتب أمورهما ، فجعل نصير الدين جقر نائبا له ، وصلاح الدين الياغيسيانى أمير حاجب ، وبهاء الدين الشهرزورى قاضيا لمقضاة بلاده مكافأة لهم على جهودهم في توليته الحكم (٤٩) .

(٤٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٢ ص ٢٤٩ .

(٤٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٤٣-٣٥ .

(٤٤) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٢ ص ٧٩ .

(٤٥) العيني : عقد الجمال فى أخبار أهل الزمان ج١٢ ورقة ٤ .

(٤٦) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج٤ ص ١٢٨ .

(٤٧) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٢ ص ٨٠ .

(٤٨) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ٧٦ .

(49) Lane Poole : Mohammedan Dynasties p. 162-163.

ظلت سنجاري تتبع أتابكية الموصل حتى وفاة صاحبها قطب الدين مودود سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ، إذ استقل بها ابنه الأكبر عماد الدين زنكى ، ذلك أن أباه لم يعهد له بالحكم ، إنما عهد إلى ابنه الآخر سيف الدين غازى ، فسار عماد الدين بن مودود إلى عمه نورالدين محمود فى بلاد الشام ليعيّنه على أخذ الملك لنفسه ، فاستجاب له ، وسار إلى بلاد الجزيرة حيث ضم الرقة إلى حوزته ، ثم زحف إلى الخابور وفتحها ، كما استولى على نصيبين وسنجار (٥٠) وولى ابن أخيه عماد الدين زنكى ابن مودود على هذه البلاد التى استولى عليها (٥١) .

كذلك تمكن نورالدين محمود من الاستيلاء على الموصل وأقر أتابكها سيف الدين بن مودود عليها ، وأضاف إليه جزيرة ابن عمر (٥٢) ، واشترط عليه أن يكون طوع ارادته .

أقام عماد الدين زنكى بن مودود أتابكية مستقلة عن الموصل فى سنجار مما ترتب عليه ظهور الشقاق بين أفراد البيت الأتابكى (٥٣) ، وعبر عن ذلك القاضى جلال الدين للشهزورى بقوله : « وفى هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكى لأن عماد الدين زنكى كبير ، لا يرى طاعة أخيه سيف الدين ، وسيف الدين هو الملك ، لا يرى الاصغاء لعماد الدين ، فيحصل الخلف ، وتطمع الأعداء (٥٤) » .

لما شمس سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بدنسو أجله سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، أشار عليه كبار رجال دولته ، بأن يعهد بالإمارة من بعده إلى أخيه عزالدين مسعود لكفايته وحسن تصرفه الأمور ، بدلا من ابنه معزالدين سنجر شاه الذى لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، وكان ذلك فى الوقت الذى ثويت فيه شموكة صلاح الدين الأيوبى (٥٥) فى بلاد الشام ، فاستجاب له ، وأقطع ابنه سنجر شاه جزيرة ابن عمر ، فأقام

-
- (٥٠) ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السير النورية ورقة ١٤٨ .
 - (٥١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٥٣ .
 - (٥٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الأول ج ٢ ص ٢٨٢ .
 - (٥٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦هـ .
 - (٥٤) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ٣ ص ٥٢ .
 - (٥٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٦هـ .

بها أتابكية مستقلة ، عرفت باسم أتابكية الجزيرة سنة ٥٧٦هـ (٥٦) /
١١٨٠ م .

كذلك قامت أتابكية مستقلة في اربل سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م ، كانت في بداية الأمر ملكا لأبى الهيجاء الكردي الهذلي ، ثم آلت الى ورثته من بعده ، واستولى عليها السلاجقة فيما بعد ، وحكمها مسعود بن محمد بن ملكشاه صاحب مراغة — قبل توليته السلطنة ، وفي سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م سار اليها عماد الدين زنكى ، وهاجمها وظل يحاصرها حتى قصدها السلطان مسعود من مراغة ، فرحل عنها ونزل الزاب وترددت الرسائل بينها ثم اتفقا على أن يعاون زنكى السلطان في اقامة الخطبة له في بغداد وسائر العراق ، في مقابل أن ينزل له عن اربل — غير ان عماد الدين زنكى لم يلبث بعد ان آلت اليه هذه المدينة أن أقطعها للأمير زين الدين على كجك بن بكتكين (٥٧) الذى ضم الى حوزته بلادا أخرى ، مثل شهرزور وملحقاتها ، وقلاع الهكارية والحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل .

ولما تقدمت به السن وعجز عن مباشرة مهام الحكم ، نزل عن البلاد التى في حوزته فيما عدا اربل الى قطب الدين مودود (٥٨) .

انقسمت أسرة بنى أرتق الى فروع حكمت ماردین ، وحصن كيفا ، وخرقبرت . وتنسب الى أرتق بن أكسب — أحد مماليك السلطان ملكشاه — فقد ولاءه حلوان وما اليها من أعمال العراق (٥٩) ، ولم يستمر في ولايته طويلا ، اذ قارق نخر الدين بن جهير — وزير ملكشاه — بعد غزوة آمد سنة ٦٧٦هـ / ١٠٨٣م وسار الى الشام حيث التحق بخدمة السلطان تاج الدولة تغش ، فولاه القدس بعد أن استولى عليها (٦٠) .

(٥٦) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٨١ .

(٥٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ١٣٥ .

(٥٨) نفس المصدر السابق .

Lane Poole : The Mohammedan Dynasties. p. 165.

(٥٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٧١ .

(٦٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧١ .

لما توفي أرتق بن أكسب خلفه ابنه سقمان وإيلغازى فى حكم بيت المقدس : وظلت على هذه الحال حتى انتزعها الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، فخرج سقمان وإيلغازى الى العراق ، فأسند السلطان محمد الى إيلغازى شحنة بغداد ، أما سقمان ، فصار الى الرها وحدثت بينه وبين كربوقا — صاحب الموصل — فتن وحروب . ولما توفي كربوقا ، خلفه موسى التركمانى — نائبه على حصن كيفا(٦٢) فاستنجد بسقمان ، ووعده باعطائه حصن كيفا ، فصار اليه . وأنقذه من جكرمش وجنده واستولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م(٦٣) وأقام بها إمارة صغيرة توارث حكمها بنوه(٦٤) .

تعاقب بنو أرتق على حكم حصن كيفا حتى وليه نور الدين محمد ابن قرا أرسلان سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، وكان خليفا لصلاح الدين الأيوبي ، واشترك معه فى حصار الموصل ، على أن يساعده فى الاستيلاء على آمد(٦٥). فعاوناه فى حصارها وأخذها من وزيرها ابن نيسان سنة ٥٨٩هـ (١١٨٢م) وضماها الى دولته ، وبذلك اتسع نطاق أتابكية حصن كيفا .

أما ماردين وأعمالها فكانت تتبع السلطان بزكياروق ثم اقتطعها لأحد بهاليكه ، ولما حاصر كربوقا — صاحب الموصل — مدينه آمد ، استنجد صاحبها بسقمان — صاحب حصن كيفا — فأنجده ، واشتبك فى عدة معارك مع كربوقا ، انتهت بهزيمته ، وأسر ابن أخيه ياقوتى ، ولما اشتدت غارات الأكراد على ماردين ، وعجز صاحبها عن صدهم ، طلب ياقوتى منه اطلاق سراحه ، على أن يساعده فى صد غارات الأكراد ، فأجاب طلبه ، وشرع ياقوتى فى شن الغارات على الأكراد ، وتمكن من الاستيلاء على ماردين(٦٧) ولم يكتف بذلك ، بل اعتزم التوسع فى منطقة

(٦١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٥هـ .

(62) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2. p. 168.

(٦٢) ابن القلانسى : نيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

(٦٤) زامباور : معجم الأنساب ج٢ ص ٢٤٤ .

(٦٥) ابن خلدون : عبر وديوان المبتدأ والخير ج٥ ص ٢١٢ .

(66) Cambridge Medieval History Vol. 4. p. 317.

(٦٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٥هـ .

الجزيرة ، فسار الى نصيبين واستولى عليها ، ثم قصد جزيرة ابن عمر ، لكن صاحبها جكرمش ، أوقع به الهزيمة وقتله (٦٨) ، على أن ماردین لم تستمر طويلا في حوزة جكرمش فقد انتزعها منه سقمان صاحب حصن كيفا (٦٩) — ثم آل حكمها بعد وفاته سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م الى أخيه ايلغازي ابن ارتق وأقام بها أتابكية مستقلة عن كيفا ، توارث أبناؤه ولايته (٧٠) .

وكان يحكم ميفارقين السلطان قلج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш ، ثم استولى عليها الأمير سقمان — صاحب خلاط (٧١) — سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م وأحسن معاملة أهلها ، وخفف عنهم عبء الضرائب وعين عليها واليا من قبله .

وفي عهد هذا الوالى طمع أمراء البلاد المجاورة في ميفارقين وانتزعوا بعض أراضيها ، فرأى السلطان أن يسند ولايتها الى حاكم آخر يدعى ايلغازي فضبط أمورها ونشر العدل بين أهلها (٧٢) ، ولما توفي سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ولى ابنه تمرشاس حكم ماردین ، على حين استقل ابنه الآخر سليمان بحكم ميفارقين (٧٣) .

أما عن حصن كيفا وآمد ، فان أميرهما نور الدين محمد توفي سنة ٥٨٧هـ / ١١٨٥م وخلفه ابنه الأكبر قطب الدين سقمان على الرغم من أن عماد الدين — أخو نور الدين محمد — كان مرشحا للمهارة ، الا أنه

(٦٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ص ٢١٢ .
لما اعتزم سقمان بن ارتق الانتقام لابن أخيه ، أرضاه جكرمش — صاحب الموصل ببعض المال ، على أن سقمان التزع ماردین من على الذى خلف أخاه ياقوتى فى حكم ماردین — لدخوله فى طاعة جكرمش . وقال انما أخذتها لئلا يخرب البيت ، وأقطعه جبل جور بالقرب من ماردین . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٩٥) .

(69) Cambridge Medieval History Vol. 4. p. 317.

- (٧٠) زامباور : معجم الأنساب ج٢ ص ٢٤٥ .
(٧١) قصبة أرمينية الوسطى (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٤٥٣) .
(٧٢) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧١ .
(٧٣) ابن الوردي : تنمة المختصر فى تاريخ البشر ج١ ص ٥٨ .

لم يتمكن من توليتها ، لاشتراكه وقتذاك مع صلاح الدين الأيوبي في حصار الموصل فلما بلغه ما حدث ، سار الى حصن كيفا « غير أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه فقصده خرتبورت وضمها الى حوزته ، وكون بها اماره ، توارث أبناؤه حكمها(٧٤) .

(٧٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص٢١٨ .

العلاقات السياسية

أظهر أتابكة الموصل والجزيرة الولاء والطاعة لسلطين السلاجقة في فارس والعراق ، فكان زنكى أتابكا لابن السلطان محمود (٢٦) ، وحرص على أن يظهر للخليفة العباسى وأمراء البلاد المجاورة أن الولاء والطاعة للسلطان ألب أرسلان . ولما توفى السلطان محمود ، حاول زنكى تولية ألب أرسلان السلطنة سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، وأرسل الى الخليفة المسترشد ، يطلب منه ان يقيم الخطبة لألب أرسلان في بغداد ، فرفض المسترشد (٢٧) وقال : انه صبي ، وأن السلطان عهد بالسلطنة الى ابنه داود ابن محمود (٢٨) .

على أن ألب أرسلان لم يقبل بقاءه في الموصل مستلوب السلطة ، بل حاول استعادة نفوذه فيها ، فنتهزا فرصة غياب زنكى عنها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ، ودبر مؤامرة تخلص بها من نائب زنكى في الموصل ظفنا منه أن ذلك يمكنه من تحقيق غايته ، ولكن أعوان زنكى في الموصل أحبطوا محاولته .

ولما قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٦م نادى جند الموصل بألب أرسلان سلطانا عليهم ، وسار على رأسهم الى الموصل غير أن وزراء زنكى لم يمكنوه من تولية حكمها (٢٩) .

حرص عماد الدين زنكى — أتابك الموصل — على ارضاء السلطان السلجوقى حتى يحتفظ بأتابكته ، فلما قدم هذا السلطان الى بغداد سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م بتكليف من عمه السلطان سنجر بن ملكشاه

(٢٦) العيني : عقد الجمان في أخبار الزمان ج١ ص ١٥٨ .

(٢٦) البندارى : تاريخ دولة سلجوق ص ١٨٧ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ٧١ .

(٢٧) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ١٠٤ .

(٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٤٦ .

(29) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusaders. p. 288.

صاحب (٣٠) خراسان - ومعه الأمير ديبس بن صدقة ، ليصلح بينه وبين الخليفة المسترشد ، عفا الخليفة عنه (٣١) ، وولاد الموصل ، فلما علم زنكى بذلك - سار الى بغداد ، وأرضى السلطان ببذله الأموال الكثيرة لـ (٣٢) ، فأقره السلطان على الموصل وخلع عليه (٣٣) .

كذلك أسهم عماد الدين زنكى فى الحروب التى دارت بين السلاجقة، فلما توفى السلطان محمود ، وأقام الخليفة العباسى المسترشد الخطبة لابنه داود ، حاول مسعود الوصول الى السلطنة (٣٤) ، وانتزعها لنفسه ، غير ان سلجوق شاه - عم داود - نافسه فى الحكم ، وسار فى سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م الى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، فاستمال السلطان مسعود عماد الدين زنكى اليه (٣٥) ، وطلب منه مساعدته فى تولية السلطنة (٣٦) ، فأجابه الى طلبه ، وسار من الموصل قادماً الى بغداد ، ولما بلغ تكريت ، سار قراجه الساقى - أتابك سلجوق شاه - اليها ، بينما أقام سلجوق شاه فى بغداد مع نفر قليل من الجند (٣٧) ، ودارت معركة بين زنكى وقراجه انتهت بهزيمة أتابك الموصل، وعود كثير من أتباعه ، وعودته الى بلاده سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م (٣٨) ، أما السلطان مسعود فدارت بينه وبين سلجوق شاه مناوشات على مقربة من بغداد . ولما بلغه هزيمة زنكى ، فت ذلك فى غضبه ، وعاد الى

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ١٠٨-١٠٩ .

Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 209.

(٢١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٤٤ .

(٢٢) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج١ ص ١١ .

العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان - القسم الأول ج١ ص ١٢ ورقة ١٧ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٥ ص ٤٢٥ .

(33) Archer : The Crusades. p. 201.

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٤٢ .

(٢٥) أبو اللدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٢ ص ٦ .

(٢٦) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان - القسم الأول ج٢ ورقة ٢٨ .

Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 194.

(٢٧) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج١ ص ٢٥-٣٦ .

(٢٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٦هـ .

Setton : A Hist. of the Crusades. vol. 1. p. 457.

فارس (٣٩) ، غير أن الخليفة المسترشد استطاع أن يعقد صلحا بين السلطان مسعود وأخيه سلجوق شاه ، على أن السلطان سنجر لم يمكن مسعود من الاستمرار في السلطنة ، بل سار إلى بغداد وأمر عماد الدين زنكى ، بالقدوم إليها ليكون عوناً له على مسعود ، واستطاع سنجر دخول بغداد ، وعزل السلطان مسعود وتولية الملك طغرل (٤١) .

حول مسعود على العودة إلى بغداد بعد وفاة الملك طغرل سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م لكن الخليفة الراشد اعترض على توليته السلطة (٤٢) ، واستعان بعماد الدين زنكى - أتابك الموصل - لصدّه عن بغداد ، غير أن السلطان السلجوقي أوقع بهما الهزيمة ، وولى السلطنة (٤٣) .

ساعت العلاقات مرة أخرى بين السلطان مسعود وعماد الدين زنكى حين خرج على السلطان السلجوقي كثير من أمراء الأقاليم ، واعتقد أن زنكى يجرّض الأمراء ضده (٤٤) ، فعول على الانتقام منه ، بأن حشد جيشاً كبيراً سار به إلى الموصل سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م غير أن مسعود لم يشمّته مع زنكى في قتال (٤٥) ، ذلك أن الرسل تدخلوا في الصلح بينهما ، وقد تضمن هذا الصلح أن يؤدى زنكى للسلطان السلجوقي مائة ألف دينار (٤٦) ، لكن زنكى لم يؤد غير جزء من هذا المبلغ ، ونزل له السلطان عن الباقي ، لأنه رأى أن زنكى هو الشخص الوحيد الذى يستطيع درء خطر الصليبيين عنها (٤٧) ، كما أن السلطان في حاجة إلى مداراته بعد أن كثر خروج أمراء البلاد التابعة له عن طاعته (٤٨) .

-
- (٣٩) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٤٨-٤٩ .
 - (٤٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٤٣-٤٤ .
 - أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص ٦ .
 - (٤١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٤٩-٥٠ .
 - (٤٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص ٦ .
 - (٤٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .
 - ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٢٥ .
 - (٤٤) المصدر السابق ج١ ص ٤٣ .
 - (٤٥) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ٩٢ .
 - (٤٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٦٥ .
 - (٤٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص ١٧ .
 - (٤٨) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج١ ص ١٦٨ .
- Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 460.

وكان مما حمل السلطان السلجوقي مسعود على مصالحة زنكى ان سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى كان نائباً عن أبيه في خدمة السلطان مسعود ، فلما ساءت العلاقات بين زنكى والسلطان السلجوقي ، فر سيف الدين غازى هارباً الى أبيه ، غير أن زنكى أمر ابنه بالعودة الى السلطان (٤٩) ، فكان لعمله هذا أثر بالغ في نفس مسعود ، ومن ثم علت منزلة زنكى عنده (٥٠) .

سار قطب الدين مودود بن زنكى أتابك الموصل — على سياسة أبيه في الاشتراك في الحروب التي دارت مع السلاجقة ، فلما سار السلطان محمد الى بغداد سنة ٥٥١هـ/٥١٠م لارغام الخليفة المقتفى لأمر الله على اقامة الخطبة له ، وقف قطب الدين مودود الى جانبه (٥٢) ، ودارت الحرب بين السلطان السلجوقي وatabك الموصل من ناحية ، والخليفة المقتفى من ناحية أخرى انتهت بانتصار الخليفة على أعدائه : وارغامهم على الرحيل عن بغداد (٥٣) .

كذلك انضم قطب الدين مودود — أتابك الموصل — الى السلطان محمد في نزاعه مع سليمان شاه الذى اغار هو وعسكره على أعمال الموصل ، فأرسل اليه واليها زين الدين على كجك يطلب منه الكف عن مهاجمة بلاده ، فلم يستجب له ، وأعد جيشاً خرج به من الموصل ، واشتبك مع السلطان السلجوقي في معركة حلت فيها الهزيمة بالسلطان الذى قبض عليه ، وسجن بالموصل (٥٤) .

ظل سليمان شاه في سجنه حتى سنة ٥٥٥هـ/٥٥٠م حيث قدمت رسل كبار الأمراء من بلاد الجبل الى الatabك قطب الدين مودود

-
- (٤٩) البندارى : تاريخ دولة سلجوق ص ١٨٩ .
 - (٥٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٥١هـ .
 - (٥١) البندارى : تاريخ دولة سلجوق ص ١٨٩ .
 - (٥٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ١٠٩ .
 - (٥٣) المصدر السابق ص ١٠٨ .
 - (٥٤) ابن القلانسى : نيل تاريخ دمشق ص ٢٣٨ .
 - ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج ١ ص ١٠٥ .
 - (٥٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ١١٤-١١٥ .
 - ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج ١ ص ١٩٢ .

يطلبون منه انفاذ الملك سليمان شاه بن محمد ليولوه السلطنة على أن يكون قطب الدين مودود مدبرا لأمر دولته ، فاستحسن قطب الدين مودود هذه الفكرة ، وأرسل سليمان شاه من الموصل الى همدان ، وصار بصحبته زين الدين على كجك في عسكر الموصل ، فلما اقتربوا من بلاد الجبل ، انحازت العساكر الى سليمان شاه ، وزاد بذلك عدد جنده ، فخشى زين الدين على نفسه ، وعاد دون أن يحقق غرضه (٥٦) .

كذلك كانت علاقة قطب الدين مودود — صاحب الموصل — بأرسلان شاه بن طغرل بن محمد يسودها البود ، فلما ولي السلطنة أرسل الى قطب الدين مودود رسولا يلتمس منه اقامة الخطبة له ، ونقش اسمه على المسكة ، وانفاذ ما كانوا يرسلونه الى السلاطين السلاجقة فأجاب بالسمع والطاعة ، وأقام له الخطبة في الموصل والجزيرة وسائر بلاد ديار بكر . واستمرت العلاقات الودية قائمة بينهما حتى وفاته (٥٧) ، ولما ولي السلطان ركن الدين طغرل توثقت العلاقة بين قطب الدين مودود وبينه ، وأقام له الخطبة في سائر بلاده (٥٨) .

٣ — أتابكة المشرق الاسلامي :

لما استقر عماد الدين زنكي في الموصل ، اعتزم ضم شمالي العراق الى دولته ، فزحف بجيشه الى جزيرة ابن عمر ، وعرض على مماليك البرسقي — وكانوا يسيطرون على هذه الجزيرة ، أموالا في مقابل تسليم البلدة ، لكنهم رفضوا (٥٩) ، فقاتلهم قتالا شديدا دارت فيه الدائرة عليهم ، فطلبوا منه أن يؤمنهم ، ويسلموا له المدينة ، فأجابهم الى ذلك ودخل الجزيرة سنة ٥٢٢ هـ (٦٠/١٢٨٨م وصمما الى حوزته (٦١) .

(٥٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٥٥ هـ .

(٥٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية من ١١٤-١١٥ .

(٥٨) الحسيني : تاريخ الدولة السلجوقية من ١٦٤ .

(59) Lane. p. Poole : Saladin. p. 52.

(٦٠) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٧٧ .

(٦١) ابن قاضي شهاب : الكواكب الدرية في السيرة النورية ورقة ٦٢ .

العيني : عقد الجمان في أخبار أهل الزمان — القسم الأول ج ١٢ ورقة ٢٢ .

واصل عماد الدين زنكى — بعد ضبطه أمور الجزيرة — سياسته التى تنطوى على توسيع رقعة أتابكيته ، فزحف بجيشه الى نصيبين — وكان يحكمها حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى بن أرتق — صاحب ماردين ، فلما بلغها صاحب الموصل : سار حسام الدين الى ابن عمه ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا — وطلب منه العون فى صد زنكى عن نصيبين ، فاستجاب له ، وأعد جيشا لهذا الغرض ، لكن زنكى لجأ الى الحيلة والخديعة (٦٢) حتى تمكن من الاستيلاء على نصيبين (٦٣) .

ولما استولى عماد الدين زنكى على هذه المدينة ، سار الى سنجار فتألمه أهلها ، غير أنه تغلب عليهم ، وتيسر له بذلك ضمها الى حوزته ، ثم أرسل فرسانا الى الخابور ، فاستولوا عليه ، وقصد زنكى بعد ذلك حران فلما اقترب منها ، خرج أهلها اليه معلنين له الولاء والطاعة (٦٤) .

أصبح عماد الدين زنكى يشكل خطرا على مصالح بنى أرتق فى الجزيرة وديار بكر بعد ان استولى على بعض بلادهم ، ففى سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م اجتمع ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا وحسام الدين تمرتاش ابن ايلغازى — صاحب ماردين (٦٥) — وانضم اليهما صاحب آمد : وعدد كبير من الأمراء ، وجهزوا جيشا كبيرا من التركمان وعولوا على التخلص من عماد الدين زنكى (٦٦) ، فساروا اليه ، ولتقى بهم زنكى عند مدينة دار (٦٧) — وهى تابعة لبنى أرتق — ودارت معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة بنى أرتق (٦٨) ، وقد ضمن هذا النصر لزنى سيادته على شمال العراق وأطراف آسيا الصغرى (٦٩) .

(٦٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٢هـ .
(63) Lane. Poole : Saladin. p. 49.

(٦٤) يذكر ابن الأثير أن أهل حران قاموا كثيرا من هجمات الفرنج ، فلما سمعوا بفتوحات زنكى فى الجزيرة ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد اتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فراسلوه بالطاعة ، واستحثوه على الوصول اليهم ، فسار نحوهم (التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٢٨) .

(٦٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .
(٦٦) ابن واصل : مغرر الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ٢٥-٣٦ .
(٦٧) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٧٨ .
(٦٨) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص من ٢٧٠-٢٧١ .
(69) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 129.

واصل زنكى زحفه على البلاد المجاورة لدولته ، فاستولى على سرجسة (٧٠) ودارا (٧١) . كما أنه عمل على تعقب بني أرشق ، حين ساروا الى جزيرة ابن عمر وعاشوا فيها فسادا (٧٢) ، واضطروهم الى الرحيل عنها (٧٣) .

ولما تحسنت العلاقات بين حسام الدين تمرتاش بن أرشق — صاحب ماردين — وعماد الدين زنكى ، انضم اليه في حصاره لآمد (٧٤) ، فاستنجد صاحبها بسعد الدولة أبو منصور ، بالأمر ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا — فأعد جيشا توجه الى آمد لصد المغيرين عنها ، ودار قتال بين الفريقين على أبواب المدينة ، حلت فيه الهزيمة بركن الدولة ، وقتل عدد كبير من جنده (٧٥) ، وظل عماد الدين زنكى وحسام الدين تمرتاش يحاصران آمد سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م دون ان يتمكنوا من الاستيلاء عليها (٧٦) .

كان عماد الدين زنكى يطمح في الاستيلاء على بعض قلاع ديار بكر (٧٧) حتى يتيسر له ضم هذا الاقليم الى حوزته ، فقصده قلعة الصور ، وظل يحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٥٨هـ / ١١٣م ثم حاصر قلعتي العقسر وشوش (٧٨) وضمها الى أتابكيتيه (٧٩) ثم واصل زنكى زحفه

-
- (٧٠) حصن بين نصبيين وديسر ودارا (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤) .
 (٧١) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ١ ص ٢٧٠-٢٧١ .
 Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 457.
 (٧٢) ابن خلدون : المعير وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٢٥٦ .
 (٧٣) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٢٦-٢٧ .
 (٧٤) للعيني : عقد الجمان ، أخبار أهل الزمان ج ١٢ ص ٥٦ .
 (75) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 227.
 (٧٦) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٥٤-٢٥٥ .
 (٧٧) أبو شامة : للروستين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٧٩ .
 (٧٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، القسم الثاني ج ٨ ص ١٨٩ .
 (٧٩) كان زنكى ينتم على صاحبها الأمير عيسى الحميدى لأنه أمد الخليفة المسترشد أثناء حصاره الموصل ، بعدد كبير من جنده التركمان .
 ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٥٥-٥٥ .
 Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 264.

وتقدمه في ديار بكر فهاجم قلاع الهكارية ، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد ان عجز أميرها أبو الهيجاء بن عبدالله عن مقاومة قواته (٨٠) .

لم يكتف عماد الدين زنكى بها استولى عليه من بلاد وقلاع ، يبل عول في سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م على السير الى شهرزور (٨١) فتصدى له حاكمها قفجاق بن أرسلان شاه التركمانى (٨٢) — الذى التف حوله التركمان — وكثر جنده ، وحدثت مناوشات بين الفريقين انتهت بهزيمة التركمان ، واستيلاء عماد الدين زنكى على شهرزور وأعمالها (٨٣) .

على أن الأمور لم تستقر لعماد الدين زنكى في بلاد الهكارية ، فعاث الأكراد فيها فسادا سنة ٥٣٧هـ / ١١٤م ولكن نصير الدين جقر — نائب زنكى — استولى على بعض بلادهم ، وحاصر قلعة الشعبانى — وهى من أعظم قلاعهم — فضمها الى حوزته ، ثم أزالها ، وأمر ببناء قلعة جديدة عوضا عنها سماها قلعة العبادية (٨٤) . نسبة الى عماد الدين زنكى وكانت حصنا عظيما يندر وجوده في حصون الجبال (٨٥) . كذلك عول زنكى في هذه السنة على مد نفوذه الى آمد ، وكان يلى حكمها ركن الدولة داود — صاحب حصن كيفا — فأرسل الى صاحبها يطلب منه الدخول في طاعته ، وإقامة الخطبة له ، وهدده بالمسير الى آمد . وأخذها منه عفو ، اذا لم يستجب له ، غير أن صاحب آمد لم يوافق على تسليمها لزنكى (٨٦) .

(٨٠) كذلك تمكن نصير الدين جقر — نائب عماد الدين زنكى — من الاستيلاء على جبل لهيجة وتوش وقلعة الجلاب ، كما استولى على جميع حصون الأكراد الهذليّة . وترقب على ذلك استتباب الأمن والنظام في هذه البلاد ، بعد أن كان الأكراد يلحقون الضرر والأذى بأهلها .

(ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ) .

(٨١) كورة واسعة في الجبال بين أربل وحمدان .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ١٦) .

(٨٢) أبو الفدا : المختصر في تاريخ الشر ج ٣ ص ١٦ .

(٨٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ .

(٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ٨٤ .

(٨٥) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدريّة في السيرة النورية ورقة ٨٠ .

(٨٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ٦٤٠ .

لم يكف زنكى عن مهاجمة ديار بكر ، والتوسع فى اراضيها ، ففى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٢م استولى على بلاد وبعض الحصون المجاورة لها (٨٧) ثم رتب أمورها ، وحاصر مدينتى عانة والحديثة (٨٨) — على نهر الفرات — وامتلكها (٨٩) .

كانت سياسة زنكى تنطوى على الاستيلاء على جميع القلاع التى تتوسط بلاده حتى يكون آمنا فى ملكه . فسار سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م الى قلعة جعبر (٩٠) بغية الاستيلاء عليها (٩١) كما سير جيشا الى قلعة فنك (٩٢) .

ولما طال حصار زنكى لقلعة جعبر ، دون ان يتمكن من فتحها ، ارسل الى صاحبها رسولا يدعوه الى تسليمها ، ويعرض عليه عوضا عنها لكنه رفض تسليمها (٩٣) .

ولم يتيسر لزنكى الاستيلاء على قلعة جعبر ، فقد اغتاله بعض مماليكه (٩٤) ، كما أن القوات المحاصرة لهذه القلعة ، وقلعة فنك رفعت الحصار وعادت أدراجها (٩٥) .

واصل سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى سياسة أبيه فى المحافظة على البلاد التى ضمه الى دولته ، فلما توفى زنكى استرد

(٨٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ٢ ص ٧
Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 460.

(٨٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتاكية ص ٥٦
(٩٠) كانت قلعة جعبر ملكا للسلطان ملكشاه ، فسلمها الى الأمير سالم بن مالك

العقلى ، فلم تزل بيده وبيد أولاده حتى سنة ٥٤١هـ .
(٩١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٨١
(٩٢) حصن مجاور لجزيرة ابن عمر من أمنع الحصون ، ومطل على دجلة ، يمتلكه جماعة من الأكراد .

أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ١٠٥
(٩٣) Runciman : A History of the Crusades vol. 2. p. 241.

(٩٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢
ابن واصل : مفرج الكروب فى فكر دولة بنى أيوب ج ٩ ص ٩٨
(٩٥) العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان — القسم الأول ج ١٢ ورقة ١٦
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٥ ص ٢٧٩ .

حسام الدين تمرتاش — صاحب ماردين — مدينة دارا (٩٦) ، مقصدها سيف الدين غازى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ولم يزل يحاصرها حتى استولى عليها (٩٧) وعلى كثير من أعمال ماردين نفسها ، كما عاث جنده في ديار بكر فسادا وتخريبا (٩٨) ، فلما رأى حسام الدين أن لا طاقة له بسيف الدين صالحه ، وزوجه ابنته (٩٩) ، ورحل أتابك الموصل عائدا الى بلاده (١٠٠) .

تغيرت الأوضاع السياسية في بلاد الموصل والجزيرة بوفاة نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، فلما علم سيف الدين غازى الثانى ابن قطب الدين — أتابك الموصل — بذلك اعتزم استعادة البلاد التى كان عمه نور الدين قد استولى عليها في الجزيرة ، فسار الى نصيبين ، وضمها الى حوزته (١٠١) ثم استولى على الخابور (١٠٢) ، وسار الى حران وحاصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك لنور الدين يسمى قتيماز ، فامتنع بها ، ثم أعلن ولاءه لسيف الدين غازى على أن تكون حران له . ولما أمن جانب سيف الدين ونزل من القلعة ، قبض عليه ، وأخذ حران (١٠٣) منه ، ثم سار الى الرها ، وأخذ يحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجزيرة ما عدا قلعة جعبر (١٠٤) .

لم يأل أتابكة الموصل والجزيرة جهدا في سبيل توسيع رقعة دولهم ، ففى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م سار نور الدين أرسلان شاه — أتابك الموصل — الى مدينة نصيبين (١٠٥) فاستولى عليها بعد أن فشل أميرها قطب الدين

(٩٦) ابن واصل : مغرر الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ١١٥ .
(٩٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — القسم الثانى ج٨ ص ٢٠٤ .
(٩٨) Runciman : A History of the Crusades p. 241.

(٩٩) العيني : عقد الجمان في أخبار أهل الزمان — القسم الاول ج٢ ورقة ١٦٧ .
(١٠٠) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — القسم الاول ج٨ ص ١٠٤ .
(١٠١) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٧٥ .
(١٠٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩هـ .
(١٠٣) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ٥٩ .
(١٠٤) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص ٥٩ .
(١٠٥) استاء نور الدين أرسلان شاه — أتابك الموصل — من قطب الدين محمد — أمير نصيبين — لأن نوابه بها استولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهي تجاوز ولاية نصيبين .
ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٩١ .

محمد. في صده عنها ، وهرب جنده الى ديار بكر ومنها الى حران(١٠٦) ، حيث طلبوا من الملك العادل ابي بكر بن أيوب أن يساعدهم على استرداد نصيبين ، لكنه أعرض عنهم(١٠٧) .

على أن قطب الدين ما ليث أن استعاد نصيبين ، بعد أن اضطر نور الدين أرسلان شاه الى الانسحاب منها والعودة الى الموصل : بعد أن تقشى المرض بين جنده(١٠٨) .

لم تقف أطماع نور الدين أرسلان شاه أتابك الموصل — عند هذا الحد ، بل أغار على تل يعفر(١٠٩) سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وكانت تابعة وقتذاك لسنجار — واستولى عليها : فاستنجد صاحبها قطب الدين بالملك الأشرف بن العادل ، وسنجر شاه ، أتابك الجزيرة — وبعض أمراء بنى أيوب واجتمع جندهم لمحاربة صاحب الموصل(١١٠) واشتبكوا معه في معركة ، حلت فيها الهزيمة بنور الدين ، وعاد الى الموصل(١١١) وتحصن بها ، ثم دارت مراسلات بينه وبين الملك الأشرف ، انتهت بالصلح بينهما ، ورفع الحصار عن الموصل(١١٢) .

كذلك حاول قطب الدين أيلغازي بن ألبى تمرتاش — صاحب ماردين — أخذ بلدة البيرة ، وكانت ملكا لابن عمه شهاب الدين الأرتقي ، ولما توفي خلفه ولد صغير دخل في طاعة صاحب الموصل ، قطع صاحب ماردين في أخذ البيرة(١١٣) سنة ٥٧٧هـ وأرسل الى عز الدين مسعود — أتابك الموصل — يطلب منه أن يأتين له في محاصرة البيرة والاستيلاء عليها ، فأجاب طلبه(١١٤) وسار في عسكره الى سميساط ونزل بها ، ثم

-
- (١٠٦) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ٧٩ .
 - (١٠٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ١٩٢-١٩٣ .
 - (١٠٨) ابن كثير : البداية والنهاية ج٢ ص ٣٧ .
 - (١٠٩) اسم قلعة ورهض بين سنجار والموصل في وسط واد فيه نهر جاز .
 - (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٤٠٦) .
 - (١١٠) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج٣ ص ١٥٦ .
 - (١١١) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص ١١٠ .
 - (١١٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — القسم الثاني ج٨ ص ٥١٨ .
 - (١١٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٧هـ .
 - (١١٤) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ١١٦ .

أنفذ العسكر الى البيرة فحاصرها واضطر صاحبها الى الاستنجاد بصلاح الدين ، فأنفذ رسولا الى صاحب ماردين يطلب منه الامتناع عن مهاجمة البيرة ، فابى اجابة طلبه ، ثم ما لبث أن رحل عنها حين رأى أن حصاره لهذه المدينة قد طال دون (١١٥) جدوى .

وكان مظفر الدين كوكبورى صاحب اربل يتقدم على كثير من المخاطر والمغامرات فى سبيل توسيع رقعة دولته ، ففى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م اتفق مع علاء الدين — صاحب مراغة — على قصد أذربيجان (١١٦) ، وأخذها من صاحبها أبى بكر البهلوان الذى عرف بميله الى العيب واللغو ، فسار صاحب اربل الى مراغة ، واجتمع مع صاحبها علاء الدين ، ثم زحفا الى تبريز ، فاعد صاحبها العدة لمقاومة جيوشها الزاحفة ، وأرسل أيتغمش — مملوك أبيه — الى أتابك يحثه على الكف عن القتال ، والعودة الى بلده (١١٧) غير أن مظفر الدين وأصل زحفه الى بلاده ، ولما أيقن صاحب اربل من مسيرة أيتغمش اليه على رأس جيش كبير ، عول على الانسحاب على الرغم من أن حليفه علاء الدين طلب منه البقاء فى مكانه ، لكن مظفر الدين عاد الى اربل خشية من اشتباكه مع قوات أيتغمش (١١٨) .

كذلك حاول ناصر الدين الأرتقى — أمير ماردين — مد نفوذه الى خلاط ، لكنه لم يستطع لأن أحد ممالك شاه أرمن بن سكرمان ، انتزع الحكم من صاحب خلاط (١١٩) .

كانت مدينة حلب تتبع أتابكية ماردين قبل استيلاء زنكى عليها ، فاضطربت أحوالها بعد وفاة صاحبها رضوان بن تنش سنة ٥٠٧هـ/١٢٠٠م واستدعى ايلغازى بن أرتق — صاحب ماردين — سنة ٥١١هـ/

(١١٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٧هـ .

(١١٦) نفس المصدر ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .

(١١٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٢هـ .

(١١٨) سبط ابن الجزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ج ٩ ص ٥٦٦ .

(١١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٠٢هـ .

(١٢٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ١٨١-١٨٢ .

Runciman : A History of the Crusades vol. 2 p. 134.

١١١٧م وسلموا اليه المدينة (١٢١) ، فأناب عنه في حكمها ابنه حسام الدين تمزقش . واستطاع درء خطر الفرنجة عن حلب (١٢٢) . ولما توفي أبوه عاد حسام الدين الى ماردین وأناب عنه في حكمها ابنه سليمان (١٣٣) ، غير أن سليمان ما لبث أن ثار على أبيه بتحريض من بعض مماليكه فعزله ، وولى مكانه سليمان بن أخيه عبد الجبار سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ، ولقبه بدر الدولة (١٢٤) .

لما عجز سليمان بن عبد الجبار عن درء خطر الفرنجة عن حلب ، انتزعها منه مالك بن بهرام بن ارتق سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م (١٢٥) ، كما استولى على حران ومنج ، ولم يزل مالك بن بهرام مستوليا على حلب حتى قتل ، فسار اليها تمزقش بن ايلغازي ، وملكها ، غير أن الفرنجة ظلوا مصدر خطر كبير على حلب ، فاستدعى أهلها البرسقي - صاحب الموصل - فلبى طلبهم وتيسر له بذلك الاستيلاء على حلب ، ثم خلفه في حكمها ابنه (١٢٧) عز الدين مسعود .

اضطربت الأمور في حلب بعد وفاة أتابكها عز الدين مسعود بن البرسقي ، فأصبحت ميدانا للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الارتقي ، وأبراهيم بن رضوان السلجوقي (١٢٨) في الوقت الذي أراد فيه الصليبيون الاستفادة من تلك الأوضاع في الاستيلاء على حلب (١٢٩) التي كانت في حاجة الى حاكم قوى يتولى صد الأخطار التي تهددها (١٣٠) .

رأى زنكي أن الفرصة قد سنحت له للاستيلاء على حلب ، وضربها

(١٢١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١١هـ .

(122) Runciman : A History of the Crusades vol. 2 pp. 151-152.

(١٢٣) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٠٩-٢١٠ .

(١٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٥هـ .

(١٢٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٠٩-٢١٠ .

(١٢٦) ابن الوردي : تنبئة المختصر في تاريخ البشر ج١ ص ٢٢ .

(١٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج١ ص ٣٧ .

(١٢٨) العيني : عقد الجمان في أخبار أهل الزمان - القسم الأول ج٢ ١٢ ورقة ١١ .

Archer : The Crusades. p. 199.

(١٢٩) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٢٧-٢٢٩ .

(130) Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 433.

الى دولته في شمال العراق ، وكان يأمل من وراء ذلك تكوين جبهة اسلامية متحدة يتيسر لها الوقوف في وجه الخطر الصليبي ، ذلك ان الذي يحكم حلب يستطيع قطع الصلة بين امارة الرها من ناحية والامارات الصليبية بالشام من ناحية اخرى (١٣١) .

وبينما كانت حلب تعاني من الاضطرابات الداخلية (١٣٢) دخلها عماد الدين زنكي حاملا تقليدا من السلطان محمود بحكمها (١٣٣) ، فوجه اهتمامه الى اصلاح امورها (١٣٤) ، كما عمل على تعمير ما خربه الصليبيون في غاراتهم عليها ، واقطع اعمالها الامراء والاجناد (١٣٥) . وأتاب عنه في حكم حلب الرئيس صفي الدين ابا الحسن على بن عبدالرازق العجلاني فأحسن معاملة أهلها (١٣٦) .

اتبع زنكي بعد استيلائه على حلب سياسة تنطوي على ضم الامارات الاسلامية في بلاد الشام الى حوزته ، فسار الى حماة سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وكان اتابك دمشق وقتذاك قد ولى عليها ولده سونج بن يورى (١٣٧) — وادعى أنه يريد محاربة الفرنجة (١٣٨) ، وأرسل الى

- (١٣١) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٥٦١ .
- (١٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٢٨-٢٩ .
- (١٣٣) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ٢٥٠ .
- (١٣٤) العيني : عقد الجمان في أخبار أهل الزمان - القسم الأول ج٢ ص ١٢ ورقة ١٢ .
- (١٣٥) يتول ابن الاثير : لولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية عماد الدين زنكي لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فانهم كانوا لهم من اتابك طفتكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متى حضروا حلب وغيرها ، جمع طفتكين عسكره ، وسار نحوهم ، فيرحلون ، فقدر الله تعالى انه توفي سنة ٥٢٥هـ فخلت البلاد بالمرّة من حام يذب عنها .
- (التاريخ الباهر في الدول الاتاكية ص ٢٨) .
- (١٣٦) ابن الوردي : تنبيه المختصر في تاريخ البشر ج١ ص ٣٤ .
- (١٣٧) كانت البلاد الاسلامية في الشام مقسمة بين ثلاث قوى ، الاولى يحكمها يورى بن طفتكين - اتابك دمشق - ويسيطر على دمشق وحماه في الشمال وحموران في الجنوب ، والثانية يحكمها صمصام الدين خير خان بن قراجا أمير حمص ، والثالثة سلطان بن منقذ ، وهو الامير الذي يسيطر على شيزر ، ولم يستطع كل من خير خان وسلطان بن منقذ مقاومة زنكي ، فأعلنّا ولامهما له ، وبذلك لم يبق أمام زنكي سوى تاج السلوك يورى - اتابك دمشق .
- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ .
- (١٣٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٥ ص ٢٢٦ .

تاج الملوك يورى بن طفتكين — أتابك دمشق — يستنجد به ، ويطلب منه المعونة على جهادهم (١٣٩) ، فأجاب طلبه ، اذ كان يخشى جانب بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — ولذلك أرسل جيشا الى ابنه سونج — صاحب حماة (١٤٠) — وأمره بالسير الى عماد الدين زنكى ، والوقوف الى جانبه فى محاربة الصليبيين (١٤٠) ، لكن زنكى غدر بسونج حين وفد اليه ، فقبض عليه ، وعلى جماعة من أصحابه (١٤١) ، ونهب خيامهم وأثقالهم وأسلحتهم ، فهرب بعضهم ، واعتقل البعض الآخر فى حلب (١٤٢) ، وبذلك تيسر له دخول حماة والاستيلاء عليها (١٤٣) .

أسند زنكى ولاية حماة لمصمام الدين خيرخان بن قراجه — صاحب حمص — بعد أن أدى له مبلغا من المال ، ثم ما لبث أن غدر به ، فانقض عليه وجبسه بقلعة حلب ، واتجه بعد ذلك الى حمص ، فامتنع أولاد مصمام الدين بقلعتها ، ورفضوا تسليمها (١٤٤) .

استقر رأى شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بورى — أتابك دمشق — على استرداد حماة ، فسار اليها سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م وشدد عليها الحصار ولم تستطع حاميتها الدفاع عنها ، كما أن أهلها طلبوا الأمان ، فأجاب أتابك دمشق طلبهم (١٤٥) ، وانصرفت حاميتها عن الدفاع عنها ، مما مهد السبيل لأتابك (دمشق) للاستيلاء عليها (١٤٦) .

حيات الأحوال السياسية فى مدينة دمشق الفرصة لعماد الدين زنكى الاستيلاء عليها ، وتحقيق أطماعه فى إقامة دولته فى بلاد الشام ، ذلك أن أتابك دمشق شمس الملوك اسماعيل كان سعى السيرة (١٤٧) ،

(١٣٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ٢٤٥ .

(١٤٠) ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ .

(141) Setton : A History of the Crusades. p. 430.

(١٤٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٣ ص ٣ .

(١٤٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ٣٤٦ .

(١٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

العينى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان ج٢ ورقة ١٦ .

(145) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p.p. 219-220.

(١٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٥٣ .

(١٤٧) نفس المصدر ج١ ص ٥٧ .

فاشتدت كراهة الناس له ، ولما خشي بأسهم ، رسل الى عماد الدين زنكى يطلب منه القدوم الى دمشق والاستيلاء عليها (١٤٨) : وألح في ذلك ، حتى أرسل اليه يقول : « ان أهملت المجيء سلمت المدينة الى الفرنج (١٤٩) ، ولما تحقق أصحاب أتابك دمشق من نواباه ، عمدوا الى التخلص منه ، وخلفه أخوه شهاب الدين محمود ابن بوري (١٥٠) .

عول عماد الدين زنكى على المسير الى دمشق سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م وأنفذ رسلا قبل وصوله اليها لمحاولة اقناع أهلها بالتسليم ، غير أن أهلها لم يستجيبوا للصالح (١٥١) ، فلما بلغها زنكى أخذ في محاصرتها ، فواجه مقاومة عنيفة تزعمها معين الدين انر — أحد ممالك طغتكين — فاضطر زنكى الى رفع الحصار عنها ، وعقد صلحا مع أهلها (١٥٢) ، وخاصة أن الخليفة المسترشد أمر برفع الحصار عن هذه المدينة والرحيل عنها (١٥٣) ، وهكذا ظلت دمشق عتبة كبيرة في سبيل تحقيق سياسة زنكى التي تنطوى على توحيد الجبهة الاسلامية في بلاد الشام .

وعلى الرغم من فشل زنكى في فتح دمشق فانه واصل سياسته في التوسع في بلاد الشام ، فزحف الى حمص سنة (١٥٣) ٥٣١هـ/١١٣٦م — وكان يحكمها معين الدين انر نائبا عن أتابك دمشق — وحاصرها فترة

(148) Setton : A History of the Crusades vol. 1. p. 457.

(١٤٩) أبو الفدا : المختصر في تاريخ الشر ج ٣ ص ٧ .

(150) Runciman : A History the Cusades. p. 197.

(١٥١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(١٥٢) العيني : عقد الجمان في أخبار أهل الزمان - القسم الاول ج ١٢ ورقة ٧٠ .

(١٥٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٩هـ .

(١٥٤) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٥٧ .

(١٥٥) كان يحكم حمص صمصام الدين خير خان بن قراجا الذي قبض عليه زنكى سنة

٥٢٤هـ ، وولى حمص بعده ابنه عين الدين إبلخان فقتله بعض ممالئكه سنة

٥٢٦هـ ، وخلفه أخوه الأمير قريش بن خير خان ، وكان يدبر أمره أحد ممالئكه

واسمه خمرتاش ، الذي سلم حمص للأمير شمس الملوك اسماعيل بن بوري

— أتابك دمشق — فلما قتل شمس الملوك ، وولى بعده أخوه شهاب الدين ،

سلم حمص للأمير معين الدين انر — ملوك جده طغتكين — وقد حال بين زنكى

وبين الاستيلاء على حمص .

ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ١٠ ص ٤٣ .

(ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٥٨) .

من الوقت (١٥٦) ، غير انه ما لبث أن رفع الحصار عنها حين علم ان الصليبيين أتوا لنجبتها (١٥٧) .

لم يكف عماد الدين زنكى عن محاولة ضم البلاد الاسلامية في الشام الى حوزته فاستولى على حصن الجدل (١٥٨) ودخلت بانيناس في مطاعته (١٥٩) ثم عاد الى محاصرة حمص ، لكنه ما لبث أن رفع الحصار عنها حين هاجم الامبراطور البيزنطى حنا كومنين حلب (١٦٠) ولما عاد الامبراطور البيزنطى الى بلده ، عاود زنكى الهجوم على حمص غير انه توقف عن مهاجمتها بعد أن تحسنت العلاقات بينه وبين أتابك دمشق الذى وافق على ضم حمص الى حوزته ، وفزل زنكى له عن بعضين وحصنين آخرين (١٦١) .

على أن زنكى ما لبث أن أتيحت له فرصة أخرى لتحقيق أطماعه في دمشق (١٦٢) حين قتل أتابكها الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بيد غلمانه سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م اذ أرسلت والدته — وهى زوجة عماد الدين زنكى — تطلب منه القدوم الى دمشق ، والنار لابنها ، فأعد زنكى العدة للزحف الى هذه المدينة سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م ، غير ان أهلها للذين أخلصوا لبيت بورى . حشدوا قوات كبيرة للدفاع عن مدينتهم (١٦٢) كما أن معين الدين اثر — نائب أتابك دمشق — أفسد على زنكى أطماعه ، فقبض على زمام الامور في دمشق ، ثم بعث فى طلب جمال الدين

(156) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 242.

- (١٥٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ .
- (١٥٨) مجدل : اسم بلد بالخابور ، الى جانبه تل عليه قصر .
- (ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٨٧)
- (١٥٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٢ .
- (١٦٠) ابن العديم : زبدة الطلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٦٤ .

Runciman : A History of the Crusades vol. 2 p. 261.

- (١٦١) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ٢ ص ١٢ .

Stevenson. The Crusaders in the East: p. 142.

(162) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 254.

- (١٦٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٨٦ .

بورى — أمير بعلبك — ليحل محل أخيه (١٦٤) أتابك دمشق ، فلما ولى الحكم . فرض لمعين أمر تدبير الأمور في إمارته (١٦٥) ، فتصدى لزنكى وحال دون استيلائه على دمشق (١٦٦) .

وعلى الرغم مما واجه زنكى من صعوبات في سبيل الاستيلاء على هذه المدينة فإنه لم يقلع عن سياسة التوسع فسيار إلى بعلبك وحاصرها (١٦٧) ، غير أن أهلها استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم ، ولما رأوا أن لا طاقة لهم بزنى وجنده طلبوا منه الأمان ، فأمنهم (١٦٨) — وسلموا إليه المدينة (١٦٩) كما استلمت حامية قلعتها بعد أن يُست من النصر (١٧٠) .

لما فرغ زنكى من ضبط الأمور في بعلبك ، عول على المسير إلى دمشق محاولاً فتحها لمرّة الثالثة ، فأرسل قبل شروعه في مهاجمتها إلى أتابكها جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى يطلب منه النزول عن دمشق مقابل إعطائه حمص أو بعلبك (١٧١) ، لكن أتابك دمشق رفض هذا العرض ، فلم يجسد زنكى يدا من الزحف إلى هذه المدينة سنة ٥٣٤هـ (١٧٢) / ١٠٣٩م ، غير أن أتابكها توفى في ذلك الوقت ، وحدث خلاف

(١٦٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

(١٦٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٧٢ .

(١٦٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ .

(167) Zoe olden Bourg : Les Croisades. p. 521.

(١٦٨) العيني : عقد الجمان في أخبار أهل الزمان - القسم الأول ج ١٢ ورقة ١١٤ .

(١٦٩) لما استولى زنكى على بعلبك نكث بالعهد الذى منحه لأهلها ، فاعتدى على الرجال والنساء والأطفال اعتداء ظالماً ، ويقول ابن الأثير : ان الناس استباحوا منه ذلك ، وخالفوه وحذروه ، ولا سيما أهل دمشق ، فانهم قالوا : لو دلكنا بفعل ذلك ، فجدوا في مجاربتة .

(الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ) .

Setton : A Hiatory of the Crusades. vol. 1. p.546.

(١٧٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٧٢ .

(١٧١) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ٨٦ .

(١٧٢) (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ) .

(172) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 259.

بين أفراد بيت بوري على من يتولى الحكم في دمشق (١٧٣) ، فاستغل زنكى ذلك الخلاف ، وشدد هجماته على المدينة (١٧٤) غير أن معين الدين انر ما لبث أن قضى على هذه الخلافات ، وولى مجير الدين ابق بن جمال الدين انابكية دمشق (١٧٥) ثم استقر رايه على الاستنجاد بمملكة بيت المقدس الصليبية ، فأرسل أسامة بن منقذ مبعوثا الى ملكها (١٧٦) فولك ، فحذر من خطر زنكى اذا ما استولى على دمشق (١٧٧) ، وكان لحديثه تأثير بالغ في نفوسهم ، وخاصة بعد أن ضم الى حوزته حمص وحماه وحلب ويعلبك (١٧٨) . ولم يبق أمامه سوى دمشق ، فأيقنوا أن امتلاكه هذه المدينة يمكنه من تكوين جبهة اسلامية في بلاد الشام وشمال العراق تشكل خطرا كبيرا عليهم (١٧٩) ، كذلك عرض أسامة بن منقذ رسول معين الدين انر — نائب أتابك دمشق — على ملك بيت المقدس الاستيلاء على بانياس (١٨٠) — وكانت وقتذاك تابعة لزنكى — فجميع الصليبيون جموعهم ، وتأهبوا للزحف الى دمشق لمعاونة معين الدين انر في الذود عنها (١٨١) ، ولما علم عماد الدين زنكى بذلك ، سار الى حوران ، معترضا لقاء الصليبيين قبل أن يجتمعوا مع أهل دمشق على قتاله (١٨٢) ، غير أن للصليبيين ما لبثوا ان عدلوا عن خطتهم ، وظلوا في بلادهم ، فعاد عماد الدين زنكى الى حصار دمشق (١٨٣) .

أما معين الدين انر فانه سار الى بانياس ، وحاصرها وأوقع

-
- (١٧٣) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٧٢-٢٧٤ .
 - (١٧٤) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ١٥-١٦ .
 - (١٧٥) ابن الوردي : تنمة المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ٤٣ .
 - (١٧٦) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٨١ .
 - (١٧٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٧٢ .
 - (178) Archer : The Croisades p. 195.
 - (179) Zoe OldenBourg : Les Croisades . p. 468.
 - Runciman : A Hiatory of the Crusades. vol. 2 p.p. 226-227.
 - (١٨٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ .
 - (١٨١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .
 - (١٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج١ ص ٨٨ .
 - (١٨٣) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٧٢ .

الهيمنة بصاحبها ، وقتل كثيرا من رجاله ، وتمكن من الاستيلاء على
البلدة ، وتسليمها الى الفرنجة (١٨٤) تحقيقا لوعده (١٨٥) .

لما بلغ زنكى حصار بانياس ، وتسليمها الى الفرنجة ، عظم ذلك
عليه وعول على الانتقام منهم ، فأغار على صور وأعمال دمشق (١٨٦) ،
ثم حاصر هذه المدينة ، اضطرب أهلها حين شاهدوا في الصباح عسكر
زنكى محاصرا لبلدهم (١٨٧) ، غير أن زنكى ما لبث أن رفع الحصار ،
ورجع الى مرج راهط لأن كثيرا من جنده كانوا متفرقين (١٨٨) ، فلما
عادوا اليه محملين بالغنائم ، رحل بهم عائدا الى الموصل (١٨٩) .

انقسمت مملكة زنكى بعد وفاته سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م بين ولديه
سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود ، فاحتفظ الأول بالموصل ، على حين
تمكن نور الدين محمود من تثبيت قوته في حلب ، وكان الحد الفاصل بين
أُملاك الأخوين هو نهر الخابور (١٩٠) .

ولما ولى قطب الدين مودود الموصل سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م طمع
أخوه نور الدين محمود في بلاده ، شجعه على ذلك بعض أمراء الموصل
الذين أرسلوا الى نور الدين يلحون عليه في المسير اليهم ، فقصده سنجار ،
واستولى عليها (١٩١) غير أن الأخوين ما لبثا أن عقدا صلحا ، أعاد
نور الدين محمود بمقتضاه سنجار الى أخيه قطب الدين ، واتفقا على
أن تكون ديار الجزيرة لقطب الدين مودود وأن يبقى الشام لنور الدين (١٩٢) .

(١٨٤) أبو القدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ٢ ص ١٦ .
Setton ; A History of the Crusades vol 1. p. 460.

(١٨٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .
Grousset : Histoire des Croisades vol. 2 p. 137.

(١٨٦) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - القسم الأول ج ٨ ص ١٨٦

- (١٨٨) أبو القدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ١ ص ٨٩ .
(١٨٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ .
(١٩٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابية ص ١١٤ .
(١٩١) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ١١٨ .
(١٩٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٤ هـ .
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٦٠ .

ولى حكم الموصل بعد وفاة قطب الدين مودود ابنه سيف الدين غازى لما علم نور الدين محمود باستياداد وزيره فخر الدين بأمر الموصل عول على المسير اليها لتدبير ملك اولاد اخيه (١٩٣) ، فعبر للفرات على رأس قوة من الجند سنة ٥٦٦هـ (١٩٤)/ ١١٧٠م ، واستولى على الرقة وسار الى الخابور ، وتغلب عليه كما فتح نصيبين ، وهناك انضم اليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود - صاحب حصن كيفا (١٩٥) - فازداد عدد قواته ، الأمر الذى شجعه على المسير الى سنجار ، فحاصرها وملكها (١٩٦) ، ثم سار الى الموصل ، واستولى عليها ، وغزل وزيرها فخر الدين (١٩٧) ، ورفع عنها ما كان يعانيه أهلها من أنواع المظالم واتبع هذه السياسة في كل من نصيبين والخابور وسنجار (١٩٨) ، ثم ترك لسيف الدين حكم الموصل ، ومع ذلك عين أحد رجاله سعد الدين كمشتكين نائبا عنه في هذه الامارة ، وهكذا اتسعت سلطة نور الدين محمود ، فأصبح يحكم بلاد الجزيرة (١٩٩) ، غير ان سيف الدين غازى ما لبث ان استرد هذه البلاد التى استولى عليها معه نور الدين محمود (٢٠٠) .

٤ - الأيوبيون :

كان شادى أو شاذى أبو صلاح الدين يوسف كرديا من بلدة من قرية بالقرب من أنربيجان ، ويكتنف أصل أسلافه الغموض ، ولا يمكن قبول الرواية التى ردها الذين عملوا في خدمة بنى أيوب والنسب ان صلاح الدين ينسب الى أصل عربى عريق - آل مروان - وكان شادى قد هاجر الى بغداد ومعه ولداه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه وقد تولى دزدارية قلعة تكريت بمساعدة مواطن يدعى بهروز ، وكان له

-
- (١٩٣) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ١٩٢ .
 (١٩٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٣ .
 (١٩٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .
 (١٩٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ١٥٣-١٥٤ .
 Grousset : Histoire des Croisades. p. 558.
 (١٩٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .
 (١٩٩) ابن قاضي شهابية : الكواكب الدرية ، ورقة ١٤٩ .
 (٢٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٧ .

شأن في حكومة بغداد ، وتوفي شادى في تكريت فخلفه أيوب ، وفي سنة ٥٢٦هـ / ١١٢٠م هزمت سلاجقة بغداد جيوش أتابك زنكى — أمير الموصل — بالترب من تكريت ، فساعدته نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه على النجاة — وهما من أتباع خصومه — وداويا جراحاته ، وخدماه أحسن خدمة ، وحملاه الى قلعة تكريت ، وأقام بها خمسة عشر يوما حتى عولجت جراحاته ، واستراح من آلامه ، ولما اعتزم العودة الى الموصل أعوزه الظهر ، فأعطياه جميع ما عندهما من الظهر ، حمل عليها أمتعته ، فكان عماد الدين زنكى يقدر هذا الجميل لنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، ويعرف لهما هذه الصنيعة ، وبالطبع لم ترض بغداد عن هذا العمل ، وعزلت نجم الدين أيوب لأن مساعدته لزكى اعتبرت عصيانا على الدولة العباسية فترك نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه تكريت سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٠م وقصدا زنكى في الموصل ، وفي الليلة التي غادر فيها نجم الدين أيوب تكريت ، ولد له يوسف صلاح الدين .

رحب زنكى كل الترحيب بأيوب وشيركوه ، وأقطعهما الاقطاعات واشتركا معه في حروبه ، فأعاناه على فتح بعلبك ، وعهد زنكى بحكمها الى أيوب في أوائل سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م ، وبعد وفاة زنكى حاولت جيوش صاحب دمشق أن تستعيد بعلبك ، ولما وجد أيوب نفسه غير قادر على الاحتفاظ بها انضم اليه باختياره ، وأصبح عنده قائدا ممتازا ، بن كبير القواد .

وبقى شيركوه في خدمة نور الدين محمود — صاحب حلب — وعول نور الدين على الاستيلاء على دمشق ، فعرض على شيركوه أن ينتزعها من يد أخيه أيوب ، واتفق الاخوان فيما بينهما ، ودخل شيركوه المدينة من غير قتال سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وبالح نور الدين في اكرام أيوب وعينه حاكما على دمشق ، وتولى شيركوه حكم حمص ، وتوارث ابناؤه حكمها .

تطلع نور الدين محمود الى ضم مصر الى حوزته ، وانتهاز فرصة ضعف الخلافة الفاطمية في مصر ، وتنافس كبار رجال الدولة على تقلد الوزارة ، بل ان بعضهم استعان بأمرأ الدول المجاورة لتحقيق أطماعهم . مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء الى بسط سلطاتهم على مصر ، فقد تقلد شاور الوزارة في عهد الخليفة العاضد ، ولم يلبث أن

ثار عليه ضرغام — أحد قواد الجيش — ونقلد الوزارة ، فاضطر شاوور الى الالتجاء بنور الدين محمود لمعاونته في استعادة منصبه ، فأرسل حملة الى مصر يقودها أسد الدين شيركوه تصدت لضرغام ، وتغلبت عليه ، وعاد شاوور الى الوزارة ، ولم يلبث ان تخلى عن حليفه نور الدين فطلب من شيركوه العودة الى بلاد الشام ، وبعث أماريك — ملك بيت المقدس الصليبي — يستنجد به ، ويخوفه من نور الدين اذا تمكن من الديار المصرية . فسارع الى تلبية طلبه ، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة بجنده الى الشام .

وكان لهذه السياسة أثرها في توجيه أنظار كل من نور الدين — صاحب دمشق — والصليبيين في بيت المقدس الى غزو مصر ، ثم تتابعت حملات أسد الدين شيركوه والصليبيين على مصر ، وانتهى الأمر بانتصار حملة شيركوه الثالثة ، ودعوة أماريك — ملك بيت المقدس — من غير حرب ولا قتال ، ثم أسند الخليفة العاضد الفاطمي الى شيركوه منصب الوزارة بعد تخلصه من شاوور ، غير ان شيركوه لم يستمر طويلا في الوزارة ، فتوفي بعد قليل ، واستدعى الخليفة الفاطمي صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، وولاه الوزارة .

وكان الخليفة الفاطمي مستلوب السلطة مع صلاح الدين الذي عمل على تدعيم مركزه في مصر ، باحاطة نفسه بأهل بيته ، فطلب من نور الدين محمود ان يرسل اليه أباه وأقاربه، وأسند اليهم بعض المناصب ، كما وجه اهتمامه على القضاء على المذهب الشيعي في مصر ، ولما أيقن من انهيار سلطة الخليفة العاضد أمر باقامة الخطبة للخليفة المستضيء بالله العباسي واسقاط اسم العاضد من الخطبة سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ولم يعلم الخليفة العاضد بهذا التغيير لمرضه ، ثم توفي بعد ذلك بقليل . وبذلك سقطت الدولة الفاطمية .

ولم تلبث أن نشبت الخلافات بين صلاح الدين يوسف وسيدته نور الدين محمود ، وذلك لأن صلاح الدين بعد أن كان وزيرا للعاضد ، خلا له الجو بعد وفاته ، وصار يخطب باسمه بعد اسم الخليفة العباسي وسيدته نور الدين ، واعتزم الاستقلال بمصر عن الدولة النورية ، فوطد نفوذه في مصر ، وقضى على العناصر الموالية للفاطميين في مصر بفضلك شجاعته واقدامه ، ودانت له مصر بالولاء والطاعة .

على أن نور الدين محمود لم يتفاضى عن نزعة صلاح الدين الاستقلالية فاعزم غزو مصر ، وأخذها من صلاح الدين ، ولكن نور الدين لم يلبث أن توفى دون أن يحقق غرضه ، وبذلك ترك الميدان خالياً أمام صلاح الدين ، وثامت منافسة شديدة بين أمراء نور الدين محمود في حلب ودمشق وأمراء بنى زكى في إقليم الجزيرة شمال العراق حول من يخلفه في حكم الدولة النورية .

واستقر رأى الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك — أحد كبار رجال دولة نور الدين محمود — على تولية الصالح اسماعيل مكان أبيه نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م (١) حتى لا يطمع سيف الدين غازى بن هودود — صاحب الموصل (٢) — فى الاستيلاء على حلب . غير أن سعد الدين كمشتكين — نائب نور الدين محمود فى الموصل — ما لبث أن سار الى حلب ، وقبض على شمس الدين محمد ، وانفرد بأتابكية الصالح اسماعيل (٣) .

ولما علم صلاح الدين الأيوبي باستبداد سعد الدين بأمر حلب ، وتدبيره شؤون سيده نور الدين محمود عظم ذلك عليه وأنكره ، واتخذ من ذلك ذريعة لتحقيق رغبته فى السيطرة على الشام (٤) ، فسار الى حلب متظاهراً أنه يريد الاشراف على تنشئة الملك الصالح (٥) .

أثار اتجاه صلاح الدين الى حلب مخاوف أتباع الملك الصالح اسماعيل وأيقنوا أن الملك سينتقل منه الى صلاح الدين (٦) ، فأرسلوا الى سيف الدين غازى — أتابك الموصل — يطلبون منه القدوم اليهم للوقوف الى جانب الملك الصالح ضد أطماع صلاح الدين (٧) .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .
 ابن شداد : النوادر السلطانية والحاسن اليوسيفة ص ٣٨ .
 (٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ٢ ص ٧ .
 (٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٧٥ .
 (٤) العيني : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان — القسم الأول ج ١٢ ورقة ٥٤٦ .
 (٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ٢ ص ٧ .
 (٦) أبو الحاسن : التجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٢٤ .
 (٧) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ٣ ص ٦ :

غير أن صلاح الدين أرسل اليهم يحذرهم من منعه من دخول حلب ، وتنبير أمر دولة الملك الصالح ويقول : « لسو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق اليه مثل ثقته بى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد الى أحد بتربية ولده ، والقيام بخدمته غيرى ، أو أراكم قد تنردتم بمولاي وابن مولاي دونى وسوف أصل الى خدمته ، وأجازى انعام والده بخدمة يظهر اثرها ، وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى الذود عن بلاده(٨) .

كان صلاح الدين قد ضم الى حوزته فى ذلك الوقت دمشق(٩) وحمص وحماد وعلبك ، ولما قصد حلب ، استنجد أهلها بالصليبيين(١٠) ، فهاجموا حمص ، واضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عن حلب(١١) ، وتاهب لصد الصليبيين عن بلاده(١٢) .

استجاب سيف الدين غازى لنداء أهل حلب ، وأرسل جيشا اليها لاعتقاده أن صلاح الدين قد استنفذ خطره وعظم شأنه ومن ثم وجه اهتمامه الى الوقوف فى وجهه حتى لا يستحوذ على البلاد ، وتوطد فيها سلطته ، فأرسل جيشا بقيادة أخيه عز الدين مسعود لمعاونة ابن عمه الملك صالح فى صد صلاح الدين عن بلاده ، كما هاجم سنجار وكان صلاح الدين قد طلب الى أتباعها الوقوف الى جانبه فى وجه صاحب الموصل (١٤) لكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها بعد أن فشل فى الاستيلاء

(٨) العيضى : عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان - القسم الثانى ج١٢ ورقة ٥٤٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ٢٢ .

(٩) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ٢٣٦ .

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ٢٢-٢٣ .

(١١) ابن شداد : الفوائد السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٣٩ .

Setton : A History of the Crusades vol. 1. p. 567.

(12) Archer : The Crusades p. 243.

(١٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص ٢٤ .

(١٤) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول ج١ ص ٥٨-٥٩ .

عليها(١٥) كما أوقع صلاح الدين الهزيمة بجيشه الذي أرسله للدفاع عن حلب(١٦) .

عول سيف الدين غازي بعد هزيمة جيشه في حلب على محاربة صلاح الدين الأيوبي(١٧) ، فأعد جيشا كبيرا سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م سار به من الموصل وبصحبته أخوه عز الدين مسعود ، غير أن صلاح الدين رغبة منه في تجنب الحرب ، أرسل إلى سيف الدين يعرض عليه النزول عن حمص وحماه ، على أن يقره على دمشق ، ويكون فيها نائبا عن الملك الصالح اسماعيل فلم يجب طلبه(١٨) ، وقال : « لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام ، والعودة إلى مصر(١٩) » ، فكان ذلك مما حمل صلاح الدين على اعداد العدة لمحاربته ، والتقى عز الدين مسعود بالقرب من مدينة حماه (٢٠) في موضع يقال له قرون حماه(٢١) ، حيث دارت معركة انتهت بانتصار صلاح الدين وهزيمة جيش الموصل(٢٢) ، ثم تابع صلاح الدين تنفيذ خطته ، فسار إلى حلب ، وظل محاصرا لها حتى اضطر أهلها إلى طلب الصلح(٢٣) على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها ، فأجابهم إلى ذلك ، ورحل عن حلب(٢٤) .

لم يوافق سيف الدين غازي بن مودود على ذلك الصلح الذي تم بين أهل حلب وصلاح الدين ، فأرسل إليهم يطلب منهم نقضه ، وأعد

-
- (١٥) ابن شداد : الزوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٠ .
 (١٦) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٦٠ .
 ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٠ هـ .
 (١٧) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٦٠ .
 (١٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٢٥ .
 (١٩) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول ج ٦ ص ٥٩ .
 (20) Lamb : The Crusades. p. 43.
 (٢١) ابن شداد : الزوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤١ .
 Lane-Poole : Saladin. p. 139.
 (٢٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٤٧-٢٥٧ .
 (٢٣) تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حماه ص ٢٧١ .
 (٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٠ هـ .
 المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الأول ص ٥٩ .
 Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 626.

العدة لمحاربة صلاح الدين (٢٥) وحثهم على الاشتراك معه في محاربته ولم يكتف بذلك بل أرسل الى ريموند الثالث — أمير طرابلس — يطلب مساعدته على صلاح الدين ، وأنفذ اليه أسرى الصليبيين المحتجزة عنده ، رغبة في استمالته اليه ، أما صلاح الدين فانه عقد هدنة مع مملكة بيت المقدس حتى يتفرغ لمحاربة سيف الدين غازي بن مودود الذي حشد كل قواه لطرد صلاح الدين من دمشق ، ولم ينفرد وحده بمحاربته بل استنجد عليه بأمرأء كيفا وماردين وسنجار (٢٧) ، وانضم اليه قوات من حلب ، وساروا جميعا الى دمشق سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م (٢٨) غير ان صلاح الدين أعد العدة لصددهم ، وبعث في طلب جيش كبير من مصر (٢٩) والتقى في معركة كبيرة مع أتابك الموصل وحلفائه عند تل السلطان (٣٠) — على الطريق بين حلب وحماه — انتهت بإحرازه النصر ، واستيلائه على كثير من الأموال والذخائر (٣١) ثم وجه اهتمامه لمحاصرة حلب ، واضطر أهلها الى مصالحته بعد أن طال حصارها (٣٢) .

ولما توفي سيف الدين غازي بن مودود — أتابك الموصل سنة ٥٧٦هـ / ١١٤٠م خشي أهلها من مطامع صلاح الدين في بلدهم فولوا عليهم عزالدين مسعود — أخا سيف الدين غازي — لكبر سنه ، لما عرف عنه الشجاعة وحسن السياسة (٣٣) .

ومما يجدر ذكره أن الصالح اسماعيل صاحب حلب توفي أيضا في هذه

-
- (٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ٣٦ .
 (٢٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص ٢٦ .
 (٢٧) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ٦١ .
 (28) Lane-Poole : Saladin. p. 143.

- (٢٩) تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حفاء ص ٢٧٢ .
 (٣٠) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ٢٥٥ .
 (٣١) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ١٠٦ .
 المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول ج١ ص ٥٩ .
 (٣٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧١هـ .
 ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٩١ .
 (٣٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٧هـ .
 ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٨٠ .

السنة وأوصى بأن يخلفه ابن عمه عز الدين مسعود (٣٤) في حلب حتى تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة تستطيع الصمود في وجه صلاح الدين (٣٥) لذلك سارع عز الدين مسعود الى تنفيذ وصية ابن عمه ، وسار ناصدا حلب (٣٦) ودخلها وتولى الحكم فيها (٣٧) ثم ثار أهل حماه على أميرهم ، ونادوا بعز الدين مسعود أميرا عليهم (٣٨) . كما أن أمراء حلب أطمعوا عز الدين في السير الى دمشق (٣٩) لكنه لم يستجب لهم ، بل نزل عن حلب لأخيه عماد الدين زنكي بن مودود — صاحب سنجار (٤٠) وهكذا لم يتسر له إقامة جبهة اسلامية تضم الشام والعراق (٤١) .

رأى صلاح الدين الأيوبي ان الخطر يهدده من ناحية وجود بني زنكي في الموصل وحلب ، ومن ثم عمل على التخلص منهم ، كما بلغه أن أهل الموصل استعانوا بالصليبيين عليه (٤٢) . وشجعه مظفر الدين كوكبورى ، أتاك أريل — على غزو الموصل ، وأظهر استعداد له بكل ما يحتاج اليه (٤٣) فكان ذلك مما يسر عليه أمر الزحف الى الموصل ، فاستولى في طريقه اليها على بعض مدن الجزيرة ، ثم شرع في محاصرة الموصل (٤٤) غير ان صاحبها عز الدين مسعود أعد عدته لصد هذا

(34) Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 433.

- (٣٥) ابن واصل : مفرج الكروبيلى ذكر دولة بني أيوب ج٢ ص ١٠٨ .
- (٣٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول ج١ ص ٧٧ .
- (٣٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتاكية ص ١٨٢ .
- (٣٨) ابن واصل : مفرج الكروبيلى ذكر دولة بني أيوب ج٢ ص ١٠٨ .
- (٣٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتاكية ص ١٨٢ .
- (٤٠) ابن شداد : التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٥ .
- (٤١) لما دخل عز الدين مسعود حلب ، جاءته رسل من أخيه عماد الدين — صاحب سنجار — يطلب أن يسلم اليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فرفض اجابة طلبه فهدده عماد الدين بقوله : « ان سلمت الى حلب والا سلمت أنا سنجار الى صلاح الدين » ، فخشى عز الدين من عاقبة هذا العمل ، ووافق على حلب لأخيه ، وأخذ سنجار عوضا عنها ، وعاد الى الموصل . (ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتاكية ص ١٨٢) وابن واصل : مفرج الكروبيلى ذكر دولة بني أيوب ج٢ ص ١٠١ .
- (٤٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج٢ ص ٦١ .
- (٤٣) ابن واصل : مفرج الكروبيلى ذكر دولة بني أيوب ج٢ ص ١١٧ .
- تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حماه ص ٢٨٠ .
- (٤٤) ابن واصل : مفرج الكروبيلى ذكر دولة بني أيوب ج٢ ص ١١٩ .

Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 433.

الحصار (٤٥) فحشد فيها عددا ضخما من العساكر ما بين فارس وراجل واضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عنها بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها (٤٦) ثم قصد سنجار ، فخرج اليه أهلها مرحبين بمقدمه (٤٧) .

رأى عز الدين مسعود — أتابك الموصل أن يستعين على خصمه صلاح الدين ببعض أمراء وأتابكة البلاد المجاورة ومنهم شاه أرمن — صاحب خلاط وقطب الدين بن نجم الدين — صاحب ماردين (٤٨) — وسار عز الدين مسعود مع حلفائه خارج الموصل للقاء صلاح الدين ، قبل أن يهاجم بلاده (٤٩) ولما علم صلاح الدين باجتماع هذه الجيوش اضطر الى العودة الى الشام (٥٠) كما عاد كل أمير الى بلده (٥١) .

واصل صلاح الدين سياسته التي تنطوي على ضم بلاد الجزيرة الى حوزته فلما دخل نور الدين محمد بن قرا أرسلان — صاحب حصن كيفا — في طاعته حرضه على المسير الى آمد (٥٢) ، فاستجاب له ، وزحف اليها (٥٣) ثم شرع في حصارها (٥٤) ٥٥٧٩/١١٨٣م وأرسل صلاح الدين الى أهلها يبعدهم يحسن المعاملة ان سلموا البلدة له (٥٥) فكفوا عن القتال ، وطلبوا الأمان وانفضوا من حول صاحبهم ، ورحبوا بانضمام بلدهم الى حوزة صلاح الدين فأعطاهم أمانا ، ومكنوه من الاستيلاء على

Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 433.

(٤٥) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج٢ ص ٣١ .
Lane-Poole : Saladin. p. 165.

- (٤٦) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٦
- (٤٧) محمد بن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ١١٠
- (٤٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ
- (٤٩) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول ج١ ص ٢٠
- (٥٠) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٦
- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص ٢٩

(51) Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 434.

(٥٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٦
(53) Lane-Poole : Saladin. p. 172.

- (٥٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٩ هـ
- (٥٥) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج٢ ص ٣٩

آمد (٥٦) ، فولى عليها نور الدين بن قرا أرسلان — صاحب حصن كيخا — وكتب له تقليدا بأعمالها (٥٧) فأخذها بما فيها من الأموال والذخائر (٥٨) واشترط عليه صلاح الدين ان يحسن معاملته الرعية ، ويقم بينهم العدل (٥٩) ثم وفد الى صلاح الدين رسل من قبل صاحب ماردين ، وبعض أمراء بلاد الجزيرة يطلبون الأمان ، فأجاب طلبهم (٦٠) .

غادر صلاح الدين الأيوبي العراق بعد ان زادت هجمات الصليبيين في بلاد الشام ، وحشد جيشا كبيرا ضم جندا من البلاد (٦١) المجاورة ، وحاصر (٦٢) حلب ، فقاومه أهلها مقاومة عنيفة (٦٣) ، غير أن أميرها عماد الدين زنكي بن مودود ، أرسل الى صلاح الدين سرا يعرض عليه نزوله عن حلب مقابل اعادته الى سنجار ، فوافق صلاح الدين على ذلك (٦٤) واشترط عليه ان يكون على أهبة الاستعداد للمقاتلة معه ، وبذلك خلا الجو لصلاح الدين في حلب ، فضمها الى حوزته بعد ان غادرها صاحبها الى سنجار (٦٥) .

امتد نفوذ صلاح الدين الى شمال العراق ، ولم يبق خارجا على طاعته سوى الموصل ، لذلك عاود مهاجمتها بعد أن بلغه أن عساكر الموصل قد أغار على أربل وأعمالها ، فعقد هدنة مع ريموند الثالث أمير أنطاكية والوصي على مملكة بيت المقدس — مدتها أربع سنوات (٦٦) وطلب من حلفائه في بلاد الجزيرة معاونته في فتح الموصل (٦٧)

- (٥٦) تاج الدين بن شامشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ١١٤ .
- (٥٧) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٩٦ .
- سيط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - القسم الأول ج ٨ ص ٣٧٥ .
- (٥٨) تاج الدين شامشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ١٢٨ .
- (٥٩) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ٢ ص ١٣٦ .
- (٦٠) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ٢ ص ٤٢ .
- (61) Runciman : The Kingdom of Jerusalem. p. 435.
- (٦٢) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٩٦ .
- المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول ج ١ ص ٨٠ .
- (٦٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٩ هـ .
- (٦٤) سيط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - القسم الأول ج ٨ ص ٢٦٧ .
- (٦٥) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٩٤ .
- (٦٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١ هـ .
- (67) Lane-Poole : Saldin. p. 192.

فأستجاب له كل من معز الدين سنجر شاه - أتابك الجزيرة - ونور الدين قرا أرسلان - صاحب حصن كيفا - ودارا - وزير الدين على كجك - صاحب أربل - وعماد الدين قرا أرسلان - صاحب ماردين (٦٨) - ولما بلغ صلاح الدين الموصل سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م حاصرها غير أن حرارة الجو حالت دون الاستمرار في القتال ، كما أبلى أهلها بلاء حسنا (٦٩) ، واضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عنها بعد أن بلغه وفاة شاه أرمن ابن سكران الثاني - صاحب خلاط (٧٠) دون أن يترك وراثا يخلفه ، وقد رأى صلاح الدين أن يستغل هذه الفرصة لضم خلاط إلى حوزته (٧١) غير أنه فشل في ذلك ، وسار إلى ميافارقين (٧٢) وبعد أن تمكن من الاستيلاء عليها أسند ولايتها إلى مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي (٧٣) ، ثم عاد إلى حصار الموصل للمرة الثالثة (٧٤) لكن أهلها طلبوا مصالحةه (٧٥) ، كما أن أتابكها عز الدين مسعود يئس من مساعدة الخليفة والسلاجقة (٧٦) ، فنهل لصلاح الدين بمقتضى الصلح الذي عقده معه عن شهرزور وأعمالها ، وجميع ما وراء الزاب من البلاد والقللاع والحصون ، وولاية بنى قفجاق وغيرها (٧٧) ، كما افق على إقامة الخطبة لصلاح الدين بدلا من سلاطين السلاجقة (٧٨) ، وتعهد فضلا عن ذلك بأن ينفذ عسكره لمعاونة صلاح الدين وينقش اسمه على السكة (٧٩) ، وهكذا تيسر لصلاح الدين مد سلطانه إلى جميع بلاد الموصل والجزيرة (٨٠) .

وجه أتابكة الموصل والجزيرة اهتمامهم بعد وفاة صلاح الدين إلى

-
- (٦٨) ابن شداد : النوارس السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٥٤ .
 - (٦٩) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج ٢ ص ١٩٦ .
 - (٧٠) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول ج ١ ص ٨٩ .
 - (٧١) سبط ابن الجوزي : مراة الزمان في تاريخ الأعيان - القسم الأول ج ٨ ص ٢٨٢ م (72) Lane-Poole : Saldin. p. 192.
 - (٧٢) ابن شداد : النوارس السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٥٦ .
 - (٧٤) تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : تاريخ حناه ص ٢٨٦ .
 - (٧٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٩٤ .
 - (٧٦) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ٢ ص ٦٢ .
 - (٧٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .
 - (٧٨) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول ج ١ ص ٩٠ .
 - (٧٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .
 - (٨٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فد الدولة الاتابكية ص ١٨٥ .

التخلص من نفوذ بنى أيوب (٨١) ، فسار عز الدين مسعود الى نصيبين (٨٢) سنة ٥٩٨هـ / ١١٩٣م ، كما وفد اليه أخوه عماد الدين زنكى — صاحب سنجار — وأرسل عز الدين الى أمراء البلاد المجاورة للموصل يستمدهم ، لكن الملك العادل — الذى خلف أخاه صلاح الدين — عول على الاحتفاظ بسيادته على بلاد الموصل والجزيرة ، فأعد جيشا كبيرا وزحف الى حران في طريقه الى الموصل (٨٣) وضم الى حوزته الرقة والخابور (٨٤) ثم قسب ماردین وحاصرها ، واستطاع ان يستولى على بعض أعمالها (٨٥) .

استقر رأى نور الدين قرا أرسلان — صاحب الموصل — على استخلاص ماردین من الملك العادل ، وانضم اليه قطب الدين بن عماد الدين زنكى — أتابك سنجار — ثم سارت القوات المتحالفة الى ماردین (٨٦) ، وكان الملك العادل بن أيوب قد اناب الملك الكامل في حصارها فاشتبك مع جند الموصل وسنجار في معركة دارت فيها الدائرة عليه ، فاضطر الى رفع الحصار عن ماردین ، ثم عاد الى حران سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م (٨٧) .

وكان لانتصار صاحبى الموصل وسنجار على بنى أيوب في ماردین اثر بالغ في تشجيعهما على المسير الى حران ، وما لبثا ان استوليا عليها وعلى الرها ، ثم انضم اليهما صاحب ماردین . غير ان الرسل سعوا بين بنى أيوب وأمراء الموصل وسنجار وماردین في الصلح ، وبخاصة بعد أن علموا أن الملك العادل بن أيوب قد زال عنه الخطر الذى كان يتهده من ناحية ابنى أخيه الملك الأفضل والملك الظاهر (٧٨) .

-
- (٨١) أبو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين ج٢ ص ٢٣٧ .
 - (٨٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٢ ص ٩٢ .
 - (٨٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٩هـ .
 - ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٣ ص ١٩ .
 - (٨٤) أبو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين ج٢ ص ٢٣٨ .
 - (٨٥) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول ج١ ص ٩٢ .
 - (٨٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص ٣٣٦ .
 - (٨٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٩٥ .
 - (٨٨) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ١٢٩ .

وكان الملك العادل يطمح في استعادة ماردين ، فعهد سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م الى ابنه الأشرف موسى بمحاصرتها (٨٩) وانضم اليه عسكر الموصل وسنجانر ولما تعذر على صاحب ماردين مقاومة جيوش خصومه ، أرسل الى العادل يطلب الصلح (٩٠) ، فأجاب طلبه ، وكان مما تضمنه هذا الصلح أن يؤدي صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار ، ويقيم له الخطبة في بلاده وقضرب السكة باسمه (٩١) ويعدد بالجند اذا ما طلبها منه (٩٢) .

حدثت بين نور الدين أرسلان شاه الأول بن مسعود — أتابك الموصل — وقطب الدين محمد بن زنكي الثاني — أتابك سنجانر — خلافات ترجع الى أن صاحب سنجانر ، دخل في خدمة الملك العادل ، وأقام الخطبة له في بلاده ، فخشى نور الدين من عاقبة هذا العمل على نفسه ، وبلده ، فهاجم أتابكية سنجانر سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م ، وبدأ بمدينة نصيبين ، فنزل يحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها . وفي أثناء حصاره لها ، هاجم مظفر الدين كوكبوري بعض بلاد الموصل ، حتى يضعف من شأن أتابكها ، ويرغمه على رفع الحصار عن نصيبين (٩٣) .

لم يكتف نور الدين بانتزاع نصيبين من صاحب سنجانر ، بل سار الى تل يعفر — وكان صاحبها وقتذاك — قطب الدين محمد — فحاصرها وضمها الى حوزته ، ثم عمل على ترتيب أمورها ، وعاد الى الموصل (٩٤) .

رأى صاحب سنجانر بعد هذه الاعتداءات التي تعرضت لها بلاده أن يستنجد بالملك الأشرف موسى بن الملك العادل — صاحب ديار الجزيرة وخراسان — الذي سار من حران ، وانضم اليه أصحاب اربل وآبد والجزيرة (٩٥) ، فضلا عن أخيه الملك الأوحـد نجم الدين — صاحب

-
- (٨٩) المقرئى : السلوك لمعرفة دولة الملوك — القسم الأول ج١ ص ١٦١ .
 - (٩٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص ٢٣٨ .
 - (٩١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الأول ج١ ص ١٩١ .
 - (٩٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٩٩هـ .
 - (٩٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٢ ص ١١٢ .
 - (٩٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٠هـ .
 - ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٩٢ .
 - (٩٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ١٥٩ .

مياقارقين — وقد صارت قوات الملك الأشرف وحلفائه نحو الموصل ، والتقت بصاحبها نور الدين على مقربة من هذه المدينة في معركة حلت فيها الهزيمة به ، وتفرق عسكره (٩٦) ، ولم يكتف الملك الأشرف بهذا النصر الذى أحرزه ، بل تابع زحفه حتى دخل الموصل ، ثم ترددت الرسل بين الملك الأشرف ونور الدين صاحب الموصل فى الصلح (٩٧) ، غير أن الملك الأشرف اشترط أن يعاد تل يعفر الى قطب الدين — صاحب سنجار (٩٨) — فوافق نور الدين على ذلك وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة (٩٩) ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م .

امتدت أطماع الملك العادل أبو بكر بن أيوب — صاحب مصر ودمشق — الى بلاد سنجار وجزيرة ابن عمر ، فدارت مراسلات بينه وبين نور الدين قرا أرسلان — صاحب الموصل على تقسيم هذه البلاد بينهما ، على أن تكون بلاد قطب الدين — صاحب سنجار — للملك العادل ، وجزيرة ابن عمر لنور الدين ، ولما عزم الملك العادل على تنفيذ هذا الاتفاق نزل بحران (١٠٠) حيث انضم اليه صاحب خلاط ومياقارقين ، وصاحب آمد وحصن كيفا وغيرهم من الأمراء ، ثم زحف الى سنجار سنة ٩٠٦هـ / ١٢٠٥م على رأس جيش كبير قرأى صاحبها قطب الدين انه لا قبل له بمواجهة العادل وجنده ومن ثم أرسل الى الملك العادل يعرض عليه أخذ سنجار ، على أن يعوضه عنها ، غير أن أهلها رفضوا هذا العرض (٢٠١) ، وأعدوا العدة لمقاومة الملك العادل الأيوبي الذى زحف الى مدينتهم (١٠٢) ، وشرع فى حصارها مما اضطر صاحبها الى الاستنجاد بالخليفة العباسى وأمراء البلاد المجاورة ، واتفق مظفر الدين كوكبورى — صاحب اريل — ونور الدين أرسلان شاه — صاحب الموصل وصاحب ماردين — على رفع الحصار عن سنجار (١٠٣) كما أنفذ الخليفة العباسى رسلا الى الملك العادل تطلب

-
- (٨٦) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك — القسم الاول ج١ ص ١٩٣ .
 - (٩٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج٢ ص ١٤٧-١٥٩ .
 - (٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٠هـ .
 - (٩٩) أبو القدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٢ ص ١١٨ .
 - (١٠٠) أبو شامة : الروستين فى أخبار الدولتين ج٢ ص ٢٢٨ .
 - (١٠١) نفس المصدر ج٢ ص ٢٢٨ .
 - (١٠٢) أبو القدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٢ ص ١١٨ .
 - (١٠٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص ٢٦٨ .

منه عدم التعرض (١٠٤) لأتابك سنجار ، وانتهى الأمر بأن رفع العادل
الحصار عن سنجار ، وخاصة بعد أن حدثت خلافات بين أمراء بني أيوب
في بلاد الشام (١٠٥) .

عهد الملك العادل قبل وفاته ببلاد الجزيرة التي كانت في حوزته
الى الملك الأشرف موسى . ولما ثار عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه
على بدر الدين لؤلؤ - صاحب الموصل - استعان بالملك الأشرف (١٠٦) .
ودخل في طاعته سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م ، كما أن محمود بن قطب الدين
محمد - صاحب سنجار - عرض عليه أن يسلم اليه سنجار على أن
يعوضه عنها بمدينة الرقة ، فوافق الأشرف على ذلك سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م
ثم عقد صلحا مع صاحب ماردين ، على أن يعطيه رأس عين ، ويؤدى
اليه ثلاثين ألف دينار (١٠٧) .

رأى مظفر الدين كوكبورى - صاحب أربل - أن الملك الأشرف
موسى ازداد نفوذه حتى أصبح يهدد بلاده ، ومن ثم وجه سياسته الى
اضعاف شوكته ، فتحالف سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، مع شهاب الدين غازى
- صاحب خلاط - والملك المعظم عيسى - صاحب دمشق - وساروا
نحو بلاد الملك الأشرف ، غير أن حليفى مظفر الدين ما لبثا أن توقفا
عن مهاجمة بلاد الملك الأيوبي (١٠٨) ، أما مظفر الدين كوكبورى فإنه
سار الى الموصل ، وحاصرها ، لكن صاحبها بدر الدين لؤلؤ ، أحكم
أمورها ، فاضطر مظفر الدين بعد أن متعت عليه البلد الى الرحيل عنها .
لكنه لم يلبث أن عاد الى مهاجمتها (١٠٩) بعد أن اتفق مع بعض أمراء
الجزيرة وديار بكر على قصد بلاد الأشرف ، غير أن الأشرف أحبط
محاولته (١١٠) .

عول الملك الأشرف على الانتقام من الأمراء الذين تحالفوا مع صاحب

-
- (١٠٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ج ٨ ص ٥٤١ .
(١٠٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٨ ص ٢٦٨ .
سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ج ٨ ص ٥٤١ .
(١٠٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .
(١٠٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٨ ص ٣٠٦ .
(١٠٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦٢١هـ .
(١٠٩) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ٢ ص ١٤٠-١٤١ .
(١١٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٨ ص ٢٨٠ .

أريل فهاجم ماردين سنة ١٢٢٣/١٢٢٨م وعاث جنده فيها تخريباً ونهباً كما حرق علاء الدين كقباد — صاحب بلاد الروم السلاجقة — على المسير إلى بلاد الملك المسعود — صاحب آمد — مما جعله على أن يتعهد للملك الأشرف الأيوبي بعدم مخالفة أعدائه (١١١) .

على أن آمد لم تنج من أطماع ملوك الأيوبيين ، فزحف إليها الملك الكامل الثاني سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م وحاصرها ، وانتزعها من صاحبها الملك وكامل المسعود بن محمود ، كما استولى على البلاد التي كانت تابعة له ، وضمها إلى حوزته (١١٢) .

ولما توفي الملك الكامل طمع بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل — في سنجار — وكانت تتبع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل فهاجمها (١١٣) واستولى عليها سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م (١١٤) كما امتلك جزيرة ابن عمر (١١٥) سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

مما تقدم يمكن القول أن علاقة أتابكة الموصل والجزيرة بأمرأء البلاد الإسلامية المجاورة ، تغيرت تبعاً لقوة الأتابكة وضعفهم ، فاستلح الأتابكة إبان قوتهم بسط سيطرتهم على مساحات كبيرة في شمال العراق وبلاد الشام فامتد نفوذ نجم الدين أيلغازي — صاحب ماردين — في ديار بكر ، وسيطر على بعض مدن الشام وبسط عماد الدين زنكي — أتابك الموصل — سلطانه على شمال العراق ، وبعض مدن الشام ، ولما ضعف شأن الأتابكة عجزوا عن صد هجمات بني أيوب .

(١١١) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص ١٤٤ .

(١١٢) نفس المصدر ج٣ ص ١٥٦-١٦٠ .

(١١٣) نفس المصدر ج٣ ص ١٧٠ .

(١١٤) حاصر بدر الدين لؤلؤ سنجار سنة ٦٣٥هـ فاستنجد صاحبها الملك الصالح الأيوبي بالخوارزمية ، وبذل لهم حران والرها في مقابل تجديته فوقفوا إلى جانبه في صد غارات جند الموصل وهزيعتهم ، وفي سنة ٦٣٦هـ اتفق الملك الصالح مع أخيه الجواد يونس — صاحب دمشق وأعمالها — على أن يحكم الملك الصالح دمشق بدلاً من ستجار على حين يلي الجواد يونس حكم سنجار وعانه والركة . ولما استقر الجواد يونس حكم سنجار ، عاد بدر الدين لؤلؤ إلى مهاجمتها والاستيلاء عليها .

(أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص ١٧٠ ، ١٧٧) .

(١١٥) محمد علي عوني : تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي ص ١٦٤ .

حققت الحملة الصليبية الأولى أهدافها باستيلائها على بيت المقدس وانطاكية والرها وطرابلس واختار الصليبيون جودفري حاكما على بيت المقدس لما اشتهر به من التقوى والورع ، وتوج ملكا في بيت المقدس ، واتخذ لنفسه لقب حامى القبر المقدس ، وكان على جودفري أن يدافع عن كل محاولة تبذل لاسترداد مدينة القدس ، ففى سنة ١٠٩٢ هـ لما علم الفاطميون في مصر نية استيلاء الصليبيين على القدس جمع الوزير الفاطمى الأفضل أمير الجيوش العساكر ، وسار الى عسقلان ، وأرسل الى الصليبيين ينكر عليهم جريمتهم ، ويتهدهم ، فأعادوا الرسول بالجواب ، وراحوا على اثره ، وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ، وباغتوا المصريين ، ولم يكونوا على أهبة للقتال ، وقتلوا منهم كثيرين ، وغنموا ما فى العسكر من مال وسلاح ، واتهمز الأفضل ، وعاد بخواصه الى مصر . ونازل الصليبيون عسقلان وضايةوها فبذل لهم أهلها اتاوة مالية كبيرة (١١٦) .

وبعد ان توفى جودفري خلفه فى حكم مملكة بيت المقدس — التى ضمت يافا وحيفا والرملة — بلدوين أمير الرها والمؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس وقد اتسعت المملكة الجديدة فى عهده بأن ضم اليها أرسوف وقيسرية وعكا وصيدا ويبروت ، وقد ساعد انضمام هذه المدن على تأمين وصول الأساطيل الإيطالية محملة بالأسلحة والامدادات للصليبيين .

لما ايقن الفرنجة فى بلاد الشام أنهم فى مأمن من الدولة البيزنطية عولوا على التوسع فى البلاد الإسلامية ، فشنوا عدة غارات على حلب وأعمالها (١١٧) منتهزين فرصة انشغال الأمراء المسلمين وجندهم بقتال بعضهم بعضا فضلا عن تفرق كلمتهم (١١٨) ، فغضى الفرنجة على كثير من سكان حلب ، وفرضوا عليهم مبالغ كبيرة من المال ليتقوا أذاهم (١١٩) كما اعتزم جوسلين — أمير تل باشر — ويوهيموند — صاحب انطاكية — الاستيلاء على حران — التى تقع بين الرها ونهر الفرات ليقطعوا ما بين المسلمين فى الشام واخوانهم فى العراق وفارس من صلات (١٢٠) .

(١١٦) ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .
(117) Grousset : Historie des Croisades. vol. 1. p. 401.

(١١٨) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ١٤٥-١٤٦ .

(١١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .
(120) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p.40.

نهض الأميران سقمان بن أرتق — صاحب ماردين — وجكرمش —
 أتابك الموصل — للذود عن بلادهما ، فتناسيا ما بينهما من خلافات ،
 وأرسل كل منهما الى صاحبه يدعوه للتشاور معه في جهاد الفرنجة ،
 فاجتمعا في الخابور ومعهما عشرة آلاف جندي من العرب والاكرد
 والتركمان (١٢١) وهاجما الرها ، فانضم بلدوين دي بوج — أمير الرها —
 الى جوسلين — صاحب تل باشر — وبوهيموند — أمير أنطاكية —
 وهاجموا حران (١٢٢) حتى تنصرف القوات الاسلامية عن مهاجمة الرها
 ولكن المسلمين لم يكتفوا منها ، اذ اشتبكوا معهم في معركة حاسمة
 سنة ١١٠٤هـ / ١١٠٤م دارت فيها الدائرة على الصليبيين (١٢٣) وغنم
 التركمان كثيرا من الغنائم (١٢٤) بل وقع بلدوين دي بوج — أمير الرها —
 أسيرا وكذلك جوسلين : أما بوهمند وجنده ، فعادوا الى أنطاكية
 لا يلوون على شيء واتجه سقمان الى ديار بكر ، واستولى وهو في طريقه
 اليها على عدة حصون للفرنجة ، أما جكرمش ، فسار الى حران
 وفتحها (١٢٥) .

على ان ايلغازي بن أرتق — الذي ولى ماردين بعد وفاة سقمان —
 أطلق سراح جوسلين مقابل الحصول على مبلغ قدره عشرون ألف
 دينار (١٢٦) ، ثم سعى جوسلين الى اطلاق سراح بلدوين يفدية قدرها
 ثلاثين ألف دينار (١٢٧) .

كان لموقعة حران أهمية كبيرة ، اذ أوقفت توسع الصليبيين نحو
 الشرق على حساب المسلمين ، كما أدت الى تأمين مدينة حلب بصفة
 خاصة وسورية الشمالية من خطر الفرنجة ، بل أثبتت أن الصليبيين
 لا يستطيعون قطع الصلة بين القوى الاسلامية في العراق والشام وآسيا
 الصغرى .

(١٢١) ابن العديم : زبدة الطلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ١٤٨ .
 (122) Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 389.

(١٢٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ١١٠٤هـ .
 (124) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 43.

(١٢٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ٢٢ .

(١٢٧) ابن العديم : زبدة الطلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ١٤٨ .

على أن الفرنجة لم يكفوا عن الزحف عن المدن الإسلامية في الشام ، فأغاروا سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م على طرابلس فاستنجد فخر الملك عمار — صاحبها — بسقمان بن أرتق — أمير ماردين — فاستجاب (١٢٩) له ، وتوجه إلى طرابلس . غير أنه توفي وهو في طريقه إليها ، وضم الفرنجة طرابلس إلى حوزتهم سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م (١٣٠) .

ولما ولي محمد بن ملكشاه السلطنة السلجوقية عول على قتال الفرنجة (١٣١) فأنفذ جيشا كبيرا يتكون من جند الموصل بقيادة أتابكها (١٣٢) ودود . وجند التركمان تحت أمرة إيلغازي بن أرتق — صاحب ماردين — وجند من خلاط وميافارقين ، وطلب إليهم الاستيلاء على الرها (١٣٣) .

زحفت قوات الموصل والجزيرة إلى الرها سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م ، فاستنجد بلدوين دى بوج — صاحبها — ببلدوين الأول — ملك بيت المقدس — فخرج لنجده و انضم إليه الأمراء الصليبيون في بلاد الشام (١٣٤) غير أن الفرنجة تفرق شملهم ، إذ وصل إلى تانكرد — أمير أنطاكية — أن رضوان — أمير حلب — غزا أمارته (١٣٥) ، كما أن بلدوين الأول — ملك بيت المقدس — عاد إلى مملكته بعد أن بلغه أن الفاطميين ازدادت هجماتهم عليها (١٣٦) .

ولما اشتدت هجمات قوات الموصل والجزيرة على إمارة الرها ، وعجز أميرها عن حماية بلاده الواقعة شرقي الفرات ، أمر السكان المسيحيين بأن يقادروا هذه البلاد ، فرحلوا إلى البلاد الواقعة على الضفة

(128) Stevansson : The Crussaders in The East. 78.

(١٢٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٨هـ .

(١٣٠) نفس المصدر ، حوادث سنة ٥٥٣هـ .

(131) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p.p. 114-115.

(١٣٢) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق من ١٦٩ .

(133) Ruuciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 115.

(١٣٤) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق من ١٧٠ .

(135) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 116.

(١٣٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ .

اليمنى لقهر الفرات لأنها أكثر أمنا . ولما شرع السكان فى المسير الى تلك البلاد التى اتخذوها موطناً لهم ، باغتهم مودود — أتابك الموصل — ونكل بهم (١٣٧) .

استقر رأى تانكرد — أمير أنطاكية — بعد عودة جند الموصل والجزيرة الى بلادهم — على الانتقام من رضوان — أمير حلب (١٣٨) — الذى هاجم بلاده فأغار على حلب ، وأخذ يثدد الحصار على حصن الأثارب (١٣٩) حتى يتيسر له الاستيلاء عليه (١٤٠) ، ثم قصد حصن زردنا ، وامتلكه سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م (١٤١) ولما بلغ ذلك أهل منبج وبالس غادروا بلديهما مما أتاح للفرنجة الفرصة لدخول هذين البلدين ، لكنهم سرعان ما رجعوا عنها ، وساروا الى صيدا ، واستولوا عليها (١٤٢) ، الأمر الذى أدى الى إثارة المسلمين ، وتخوفهم من اقدام الفرنجة على الاستيلاء على سائر بلاد الشام (١٤٣) فسار جماعة من أهل حلب الى بغداد لتحريض أهلها على الفرنجة (١٤٤) . وذكر ابن الأثير (١٤٥) انه قبل وصول وفد حلب الى بغداد أرسل الامبراطور البيزنطى الكسبروس كومنين — وكان فى خلاف مع الفرنجة — الى السلطان السلجوقى فى بغداد يستغفره على الفرنجة ، ويحثه على قتالهم ، ولما علم بذلك أهل بغداد صاحوا فى السلطان : « أما تتقى الله أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام ، حتى انه أرسل اليك فى جهادهم » عندئذ لم يتردد السلطان السلجوقى فى انفاذ عساكر الموصل والجزيرة الى بلاد الشام لصد الفرنجة عنها (١٤٩) .

(137) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p.p. 117-118.

• (١٣٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣

• (١٣٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٨

• (١٤٠) ابن العديم : زبدة الطلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٥٨

• (١٤١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ

• (١٤٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣

• (١٤٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ

Grousset : Histoire des Croisades. vol. 1. p. 460.

• (١٤٤) ابن العديم : زبدة الطلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ١٥٨

Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 121.

• (١٤٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ

• (١٤٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣

اجتمعت قوات كبيرة من الموصل والجزيرة بقيادة مودود — أتابك الموصل — وإياز بن أيلغازى بن أرتق (١٤٧) ، وسارت نحو سنجار ، فاستولت على بعض حصون الفرنجة القريبة منها سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١ (١٤٨) ثم حاصر جند الموصل والجزيرة مدينة الرها ، غير أنهم ما لبثوا أن اضطروا إلى التقهقر عنها إلى حران لحمل الفرنجة على تعقبهم (١٤٩) ، لكن الفرنجة فطنوا إلى خدعة قواد المسلمين ولم يتبعوا قواتهم بل عمدوا إلى تحصين مدينة الرها ، وتزويدها بالجند والعتاد والمؤن حتى تستطيع الصمود ضد هجمات قوات الموصل والجزيرة (١٥٠) .

ولما عاد مودود وإياز بن أيلغازى إلى الرها حاصرها ، فاستعصت على قواتهم (١٥١) مما اضطرهم إلى الرحيل عنها ، فقتلوا تل باشر (١٥٢) وحاصروها خمسة وأربعين يوما ، وكادت تسقط في أيديهم لولا أن جوسلين الثاني — صاحب تل باشر — اتصل بأحد قواد القوات الإسلامية الأكراد ، واتفق معه على رفع الحصار عن تل باشر مقابل مبلغ من المال (١٥٣) ، وفي نفس الوقت اتصل رضوان — صاحب حلب — بمودود — أتابك الموصل — يستنجد به على الفرنجة — الذين زادت غاراتهم على حلب (١٥٤) ، وهكذا أتاحت الفرصة للقائد الكردي ليقتنع مودود برفع الحصار عن تل باشر ، والمسير إلى حلب (١٥٥) ، غير أن القوات الإسلامية التي اتجهت إليها ما لبث أن هاجمها جوسلين (١٥٦)

(147) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 121.

(١٤٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(١٤٩) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ١٥٩ .

(١٥٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .

Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 399.

(١٥١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(١٥٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .

(١٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ١٥٩ .

(154) Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 122.

(١٥٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٧ .

Setton : A History of the Crusades. vol. 1. p. 406.

(١٥٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .

Runciman : A History of the Crusades. vol. 2. p. 122.

ولما اقتربت قوات الموصل والجزيرة من حلب أدرك أميرها رضوان أن تلك القوات وهؤلاء الأمراء الذين يتولون قيادتها يشكلون خطراً عليه وعلى سلطانه (١٥٧) . ومن ثم لم يخرج لاستقبال مودود وحلفائه ، بل أغلق أبواب حلب في وجوههم (١٥٨) .

لم يكن مودود - أتابك الموصل - عن مواصلة جهاد الفرنجة ، فصار على رأس قوات الموصل والجزيرة إلى معركة النعمان لاسترداد النواحي التي استولى عليها تانكرد - صاحب أنطاكية - وانضم إليه طغتكين - أتابك دمشق (١٥٩) - لكن حدثت خلافات بين الأمراء المشتركين في حملة مودود وبين أتابك دمشق الذي طلب منهم السير إلى طرابلس والاستيلاء عليها (١٦٠) ، فأبوا إجابة طلبه لأنهم رأوا في ذلك مخاطرة لا يستفيد منها إلا هو (١٦١) . كما أن - أتابك دمشق - رفض التعاون مع هؤلاء الأمراء (١٦٢) وتوجس منهم خيفة حين علم أن بعضهم يزمع التآمر عليه بغية انتزاع دمشق بل شرع في مهادنة الفرنجة سرا (١٦٣) وشرعان ما تفرق الأمراء المسلمون ولم يبق مع مودود سوى إيازين إيلغازي وطغتكين فاتجهوا إلى نهر العاصي (١٦٤) .

لما علم الفرنجة بتفوق القوات الإسلامية ، عولوا على استغلال هذه الفرصة لتحقيق مطامعهم ، فصاروا إلى غامية بقيادة بلدوين الأول - ملك بيت المقدس وبلدوين دى بورج - أمير الرها ، وجوسلين - صاحب تل ياشر - وبر ترام - أمير طرابلس (١٦٥) - عندما اقتربوا

(١٥٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ج ١٧٧ .
Grousset : Histoire des Croisades Vol. 1 p. 465.

(١٥٨) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ١٥٩ .
Setton A History of the Crusades Vol. 1, p. 400.

(١٥٩) ابن الأثير الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(١٦٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٤-١٧٥ .
Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 400.

(١٦٢) لم يكن مودود بين هؤلاء الأمراء إذ كان متحالفاً مع طغتكين .
Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 126.

(١٦٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
Runciman : A History of the Crusades Vol. 2, p. 123.

من شيزر ، استنجد صاحبها - سلطان بن منتقذ - بجودود فاستجاب له ، وسار الى شيزر ، واشتبكت قواته مع قوات الفرنجة (١٦٦) في معركة دارت فيها الدائرة على الصليبيين (١٦٧) .

ظل مودود - أتابك الموصل - يعمل على الاستيلاء على الامارات الصليبية في بلاد الشام على الرغم مما واجهه من صعوبات في سبيل تحقيق غايته . فقصده الرها سنة ٥٠٦هـ / ١١٢٢م منتها فرصة اتصال سكانها الأرمن (١٦٨) - المقيمين فيها - به ، وتشجيعه على المسير اليهم لكراهتهم بلدوين دى بوج - أمير الرها - ولما سار مودود الى هذه المدينة أبقى فيها فريقا من جنده لحاصرتها ، بينما توجه الى سروج - على اعتبار أنها المركز الثاني للصليبيين شرقى الفرات - وحاصرها ، غير ان حاكم الرها فطن الى تأمر الأرمن عليه ، فانزل بهم عقابا صارما (١٦٩) ، أما جوسلين - صاحب تل باشر - باغت عسكر الموصل ، ويبدو ان صاحب الموصل لم يأخذ حذره من الفرنجة ، وفي ذلك يقول ابن الأثير (١٧٠) :

« ولم يحذر منهم ، فلم يشعر الا وجوسلين - صاحب تل باشر - قد كبسهم » .

عاد أتابكة الموصل والجزيرة الى مهاجمة الامارات الصليبية في بلاد الشام ، حين توالى غارات بلدوين الأول - ملك بيت المقدس - على دمشق (١٧١) : فأعد مودود حملة اشترك فيها اياز بن ايلغازى ، وبعض أمراء الجزيرة وساروا الى بلاد الشام (١٧٢) حيث التقوا بطغتكين - أتابك دمشق - عند سلمية - من أعمال حماه - وعمدت القوات الاسلامية

(١٦٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .
Setton : History of the Crusades. Vol. I p. 400.

(١٦٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٤هـ .
Setton : A History of the Crusades. Vol. 1, p. 401.

(١٧٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٦هـ .
(171) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 402.
(172) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 126.

الى استدراج قوات الصليبيين الى فواحي دمشق ، واشتبكوا معهم في معركة لقي فيها الصليبيون هزيمة فادحة سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م (١٧٣) .

أخذت القوات الاسلامية بعد ذلك النصر الذي حُرزته على الصليبيين تتابع غاراتها على بلاد الفرنجة بين عكا وبيت المقدس ولم يفلح الفرنجة في صد هجمات المسلمين (١٧٤) ، بل تحصنوا في الاستحكامات والحصون دون أن يتمكنوا من مفادرتها (١٧٥) ، ثم أذن مودود لقواته بالعودة الى العراق ، والبقاء هناك حتى الربيع ، وسار مع بعض خواصه الى دمشق (١٧٦) حيث قتله الاسماعيليون بايعاز من طغتكين — أتابك دمشق — ويذكر ابن الأثير (١٧٧) أن طغتكين عمل على التخلص من مودود ، إذ رآه خطرا يهدد حكمه في دمشق ، ولما خشي من انتقام السلطان السلجوقي عقد هدنة مع بلدوين الأول — ملك بيت المقدس — سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م ثم تحالف مع الفرنجة في العام التالي (١٧٨) .

تخلص الفرنجة بوفاة مودود من أقوى أعدائهم كما تحطمت جهود السلاجقة الرامية الى تكوين جبهة اسلامية متحدة تقف في وجهه الصليبيين (١٧٩) .

على أن السلطان محمد واصل سياسته في العمل على استئثار الجهاد ضد الفرنجة ، فأسند أتابكية الموصل الى آقسنقر البرسقي (١٨٠) ، وأمره بقتال الصليبيين : قاعد جيشا كبيرا انضم اليه صاحب ماردين وعماد الدين زنكي ، وبعض أمراء الجزيرة (١٨١) ، وهاجمت القوات الاسلامية الرها وسروج وسيماط سنة ٥٠٨هـ / (١٨٢) ١١١٤م .

(173) Grousset : Histoire des Croissades Vol. 1, p. 484.

(١٧٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٧هـ .

(١٧٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٤-١٨٥ .

(176) Runciman : A History of the Crusades Vol. p. 127.

(١٧٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٧هـ .

(178) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 403.

(179) Ibid.

(١٨٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨هـ .

(181) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 403.

(١٨٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨هـ .

حالت الخلافات التي ظهرت بين أتابكية الموصل والجزيرة دون تنفيذ سياستهم في محاربة الصليبيين فنشب النزاع بين آقسنقر البرسقي — أتابك الموصل — وأياز بن إيلغازي (١٨٣) ، ولما وقع أياز أسيرا في يد البرسقي ، استدعى أبوه جند التركمان وهاجم البرسقي ، وهزمه وأرغمه على العودة إلى الموصل (١٨٤) . ولم يلبث بعد ذلك أن عزله السلطان السلجوقي محمد ، وأحل محله في أتابكية الموصل جيوش بك (١٨٥) . أما إيلغازي بن أرتق فخشي انتقام السلطان السلجوقي منه ، وسار إلى الشام حيث تحالف مع طغتكين — أتابك دمشق (١٨٦) — واتفقا على الوقوف في وجه السلطان محمد بل تحالف مع الفرنجة وراسلا روجر — صاحب أنطاكية (١٨٧) .

وأصل السلطان السلجوقي محمد مناهضة الصليبيين ، فأعد قوات كبيرة ضمت جيش الموصل بقيادة أتابكها جيوش بك وجند الجزيرة ، وأسند قيادة هذه القوات إلى برسقي — أمير همدان وأصفهان — وطلب السلطان من هذا الأمير البدء بالتخلص من طغتكين وإيلغازي .

سار برسقي إلى الرها وحاصرها ، ثم ما لبث أن رفع عنها الحصار واتجه إلى حلب ، بعد أن علم أن لؤلؤ — نائب أمير حلب — انضم إلى إيلغازي وطغتكين ، فلما اقترب منها ، أرسل إليه يطالبه بتسليمها ، وعرض عليه كتب السلطان بذلك (١٨٨) ، لكن لؤلؤ رفض تسليم حلب . واستنجد بطغتكين وإيلغازي فسار إلى حلب ، وكان ذلك معا حمل برسقي على العدول عن مهاجمتها وقصد حماه — وكانت في حوزة طغتكين ، فانستولى عليها بمساعدة أمير حمص (١٨٩) .

استنجد طغتكين ببلدوين الأول — ملك بيت المقدس — ويوفز — أمير طرابلس — فخشي برسقي من تجمع أعدائه وعاد إلى الجزيرة ، غير أنه

(183) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 404.

(١٨٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

(١٨٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

(186) Runciman : A History of the Crusades Vol. S. p. 131.

(١٨٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(188) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 494.

(١٨٩) ابن العديم : زبدة الطب في تاريخ حلب ج ٢ ص ١٧٦ .

لم يلبث أن انقض فجة على كفر طاب ، فاستولى على قلعتها (١٩٠) ، وسلمها الى بنى منقذ - أصحاب شيزر - ثم سارت قنوت الموصل والجزيرة الى قلعة فاميه - وكانت وقتذاك خاضعة للفرنجة - فلما شاهدت هذه القوات تحصيناتها القوية انصرفت عنها الى المعرة (١٩١) ، لكنها لم تتمكن من الاستيلاء عليها ، واتجه جيوش بك - أتابك الموصل - الى بزاغة . وانتزعا من الفرنجة ، بينما اتجه جيش برسق الى حلب . مما اضطر روجر - أمير أنطاكية - الى السير للقاء المسلمين سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م فالتقى بجند الموصل والجزيرة على مقربة من مدينة سمرين حيث انقض عليهم (١٩٢) ، غادى ذلك الى اثاره الاضطراب بين قوات المسلمين وعجز برسق عن جمع شملهم (١٩٣) وحلت به الهزيمة (١٩٤) .

لم يحاول سلاطين السلاجقة في العراق - بعد هذه الهزيمة - استعادة الشام من الفرنجة ، كما أن السلطان محمد لم يعد مستعدا لاتخاذ حملة أخرى لحاربة الصليبيين ، ومن ثم تمتعت الامارات الصليبية بقدر من الهدوء لم تعرفه من قبل . أما روجر - صاحب أنطاكية - فانه سار الى كفر طاب، وضمها الى حوزته ، ومن ناحية أخرى ، أزعج ذلك الانتصار الذى أحرزه الصليبيين طغتكين - أتابك دمشق - وايلغازى ابن أرتق - أمير ماردين - وسارعا الى مصالحه السلطان السلجوقي (١٩٥) .

ظلت الموصل والجزيرة محط أنظار المسلمين في بلاد الشام فلما اضطربت الأمور في حلب (١٩٦) ، بعد مقتل حاكمها لأولؤ سنة ٥١٠هـ / ١١١٧م (١٩٧) : سار روجر أمير أنطاكية اليها ، واستولى على بعض

-
- (١٩٠) نفس المصدر : ج٢ من ١٧٦-١٧٧ .
 (191) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 131-132.
 (192) Grousset : Histoire of the Croisades, Vol. 1. pp. 510-511.
 (193) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. pp. 404.

- (١٩٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٠٩هـ .
 (١٩٥) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ من ١٧٩-١٨١ .
 Setton : A History of the Crusades Vol. 1 pp. 404-405.
 (١٩٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ من ١٧٩-١٨١ .
 (١٩٧) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٩٨ .

أعمالها (١٩٨) ، وساءت الأحوال الاقتصادية في هذه المدينة ، فلم يتوافر فيها من المؤن ما يكفي أهلها واستبد بهم الخوف ، ولو أتيحت لهم الفرصة للرحيل لمسا ترددوا في ذلك (١٩٩) ، غير أن هذه المدينة ما لبثت أن دخلت في حوزة نجم الدين ايلغازي — أمير ماردين — الذي سار إليها سنة ٥١١هـ / ١١٧٠م ورحب به أهلها لاعتقادهم أن قواته من جند التركمان قادرة على حماية بلدهم من خطر الفرنجة (٢٠١) .

بذل ايلغازي أموالا للفرنجة مقابل هدنة عقدها معهم ، ثم سار إلى ماردين لجمع العساكر ، واستخلف بحلب ابنه حسام الدين تهرتاش (٢٠٢) .

على أن الفرنجة ما لبثوا أن نقضوا هذه الهدنة ، ففي سنة ٥١٣هـ / ١١١٨م هاجم روجر — أمير أنطاكية — عزاز والبزاغة (٢٠٣) واستولى عليها وكانت في حوزة ايلغازي بن أرتق ، وبذلك انقطع الطريق الذي يصل بين حلب والبلاد الواقعة شرقي الفرات ، ثم أغار صاحب أنطاكية على حلب (٢٠٤) ، ولم يكن بها من الذخائر ما يكفيها ، وبلغ من تخوف أهل حلب من الفرنجة أنهم تقاسموا معهم أملاكهم التي بياب حلب (٢٠٥) .

عاد ايلغازي بن أرتق — أمير ماردين — إلى حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م حين خرج إلى الشام على رأس عشرين ألف مقاتل من العرب والأكراد والتركمان ، فنزل روجر — أمير

-
- (١٩٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١١هـ .
 (١٩٩) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب من ١٨٠-١٨١ .
 (200) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 pp. 133 134.
 (٢٠١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق من ١٩٩ .
 (٢٠٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣هـ .
 Setton.: A History of the Crusades. Vol. 1 p. 405.
 (٢٠٣) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ من ١٨٦-١٨٧ .
 (٢٠٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣هـ .
 (٢٠٥) يذكر ابن العديم أن ايلغازي جدد الإيمان على الأمراء والمقدمين بأن يناهضوا في حريهم ويصابروا في قتال العدو ، وأنهم لا يتكلمون ويبدلون مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة .
 (زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ من ١٨٧) .

أنطاكية — على مقربة من الأثارب ظنا منه ان أحدا لا يستطيع اعتراض قواته لضيق الطريق ، وأرسل الى ايلغازى يهدده ويحذره (٢٠٦) ، على أن ايلغازى لم يعبأ بتهديد الفرنجة فهاجم بلاد الرها ، وألحق بالفرنجة خسائر فادحة ، ثم عبر الفرات ، ومضى الى قنسرين — جنوب دمشق — غانضم اليه طغتكين ، وشنت القوات الاسلامية عدة هجمات على حارم وجبل السماق ، على حين هاجم بنو منقذ — أصحاب شيرز — الأراضي التي في حوزة روجر — أمير أنطاكية — رغبة في اشغاله عن مقاتلة المسلمين (٢٠٨) .

استنجد روجر بجوسلين — أمير الرها — وبونز — أمير طرابلس — وبنلدوين الثاني — ملك بيت المقدس (٢٠٩) — ولما أتم ايلغازى اعداد قواته انتقض على جيش الفرنجة وأحاط به ، وانقطع وصول الامدادات الى الصليبيين مما اضطر الى اقتحام صفوف القوات الاسلامية حتى لا يتعرض هو وجيشه للمهلك (٢١٠) ، لكن المسلمين ما لبثوا أن أوقعوا الهزيمة بالفرنجة ، وخر روجر صريعا (٢١١) ، في ميدان القتال ، ولم ينج من فرسانه الا القليل ، ووقع في أيدي المسلمين من السبي والغنائم والدواب ما لا يحصى (٢١٢) ، وبلغ من كثرة ما قتل من الصليبيين في هذه الواقعة أن أطلقوا على السهل الذي دارت فيه اسم ساحة الدم (٢١٣) .

كفل انتصار المسلمين على الصليبيين في واحة ساحة الدم الأمان لمدينة حلب ، وفي نفس الوقت أصبح الطريق الى أنطاكية مفتوحا أمام قوات ايلغازى (٢١٤) ، ولو أنه صار لنازلتها لما استعصت عليه (٢١٥)

-
- (٢٠٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .
 (207) Runciman : A History of the Vrusades, Vol. 2 p. 153.
 (208) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 153.
 (٢٠٩) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ١٨٧ .
 (٢١٠) نلس المصدر ج٢ ص ١٩٠٠ .
 (٢١١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .
 (212) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 413.
 (213) Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 155.
 (214) Ibid ; Vol. 2 p. 155.

(٢١٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠١ .

غير إن إيلغازى قصد الأثارب ، واستولى عليها ، ثم زحف إلى زردنا وامتلكها ، وخشى بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — تحرك المسلمين جنوبا لانتزاع بعض أملاكه ، فسار اليهم واشتبك مع إيلغازى فى معركة غير حاسمة (٢١٦) ، عاد بعدها الأمير الأرتقى إلى حلب ، وأصلح أمورها (٢١٧) .

استقر رأى بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — على السير إلى انطاكية وتحصينها ، كما ولى الوصاية عليها ريشا يبلغ بوهمند — أميرها الشرعى — سن الرشيد (٢١٨) ، وانضم إليه جوسلين — صاحب تل باشر — فى الدفاع عن انطاكية بسبب تعرضها لغارات إيلغازى بن أرتق (٢١٦) ، غير أن الأمير الأرتقى ما لبث أن عقد هدنة مع الفرنجة تضمنت اعترافه بامتلاك إمارة انطاكية البلاد الواقعة شرق نهر العاصى (٢٢٠) .

على أن الفرنجة سرعان ما نقضوا هذه الهدنة ، وأغاروا على بلاد الشام والجزيرة ونهبوها (٢٢١) ، وتولت غارات جوسلين — أمير الرها — على منبج وبزاعة والأثارب (٢٢٢) ، كما انتهز بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — فرصة ثورة سليمان بن إيلغازى — وإلى حلب — على أبيه ، فشن غارات على أعمال حلب مما اضطر إيلغازى إلى عقد صلح مع بلدوين الثانى ، نزل له فيها عن زردنا والأثارب سنة ٥١٥هـ / ١١٢٢م (٢٢٣) .

أتاحت هذه الهدنة لإيلغازى بن أرتق — أمير ماردين وحلب — الفرصة لجمع قوات كبيرة من جند التركمان من ديار بكر ، ثم عبر بهم

(٢١٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ١٩٤ .

(٢١٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٤هـ .

(٢١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥١٤هـ .

(219) Setton : History of the Crusades. Vol. 1 pp. 415-416.

(٢٢٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ١٩٦-١٩٧ .

(221) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2. p. 159.

(٢٢٢) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ١٩٨ .

(٢٢٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ١٩٨ .

الفرات قاصدا الشام لمواصلة جهاد الصليبيين (٢٢٤) ، وحاصر هو وابن أخيه بلك بن بهرام الأرتقي زردنا (٢٢٥) ، واشتبكا مع بلدوين في قتال حول الأثارب سنة ٥١٥هـ / ١١٢٥م (٢٢٦) ، غير أن ايلغازي ما لبث أن انسحب من حلب لرضه (٢٢٧) .

أما بلك بن بهرام الأرتقي فسار إلى الرها ، وحاصرها ، لكنه عجز عن الاستيلاء عليها ، ورفع عنها الحصار ، ولما علم أن أميرها يتعقبه ، عول على مهاجمته (١٢٨) ، وأحل بقواته الهزيمة ، وانتهت هذه المعركة بأسر جوسلين ، ٥١٥هـ / ١١٢٢م (٢٢٩) ، ونقله إلى قلعة خرتبرت حيث عرض عليه الأمير بلك إطلاق سراحه مقابل النزول عن الرها ، لكنه رفض (٢٣٠) .

أضعفت وفاة ايلغازي بن أرتق من شأن الأراتقة بسبب اقتسام أملاكه بين أولاده وأقاربه ، فألت حلب إلى سليمان بن عبد الجبار الأرتقي ، واستفاد الملك بلدوين الثاني من ضعف الأراتقة ، فاستولى على البيرة — شرق حلب — وأقليم بزاعة وبالس بالقرب من حلب (٢٣١) ، ولما عجز سليمان عن رد هجماتهم عقد صلحا مع بلدوين الثاني تضمنت إعادة الأثارب إليه سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م في مقابل أن يكف الفرنجة عن بلاده (٢٣٢) .

(٢٢٤) انتهب ايلغازي بن أرتق قرصة خروج بوئز — أمير طرابلس — على طاعة ملك بيت المقدس ، وسير بلدوين الثاني إلى طرابلس لأرغام بوئز على الدخول في طاعته .
(Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 161)

(٢٢٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٠٢-٢٠٤ .
(226) Setton ; A History of the Crusades. Vol. 1. p. 417.

(٢٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٠٦-٢٠٤ .
(٢٢٨) نصب بلك له كمينا في موضع رطب زاده سوءا انهماز الأمطار ، فانزلت أرجل الخيل ، وتعثرت في سيرها ، ولم يجد فرسان التركمان صعوبة في تطويق الفرنجة ، فقتلهم عن آخرهم .
(Setton : A History of the Crusades. Vol. 1, p. 418)

(٢٢٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٥هـ .
(230) Runciman ; A History of the Crusades. Vol. 2 p. 161.

(٢٣١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٧هـ .
(٢٣٢) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩ .

ولما علم بلك بن بهرام بن أرتق أن صاحب حلب نزل عن حصن الأثارب للفرنجية ، عظم ذلك عليه وأنكره ، فسار إلى حران وملكها (١٣٣) ثم قصد حلب وهاجمها ومنع الميرة عنها (١٣٤) واضطر صاحب حلب إلى تسليم البلدان لابن عمه بلك بن بهرام (٢٣٥) .

كان لوقوع جوسلين — أمير تل باشر — أسيرا أثر بالغ في نفوس الفرنجة ، فولى بلدوين الثاني — ملك بيت المقدس — إمارة الرها (٢٣٦) وسار على رأس قوة صغيرة وأقام معسكرا في موضع لا يبعد كثيرا عن كركر — الواقعة على نهر الفرات ، والتي انتزعها بلك من الفرنجة (١٣٧) لكن بلك سرعان ما انقض على معسكر بلدوين ، وقضى على كثير من جنود الفرنجة ، وأسر بلدوين : ثم نقل إلى قلعة خربت (٢٣٨) .

عول الفرنجة على الانتقام من بلك فهاجموه بينما كان يحاصر منبج لانتزاعها منه ، فتصدى لهم ، وألحق بهم الهزيمة ، ثم عاد إلى منبج حيث انتهت حياته أثناء حصاره للقلعة سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م (٢٣٩) .

تفرق عسكر بلك إثر وفاته ، فسار حسام الدين تيمرتاش بن ايلغازي

(٢٣٣) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢١٠ .

(٢٣٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٧هـ .
Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 167.

(٢٣٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩ .
Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 422.

(٢٣٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٧هـ .

(٢٣٨) فر بلدوين الثاني من الأسر بعد أن حلف للأسرى الفرنجة ، علي أنه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحما ، ولا يشرب الا وقت القربان الا أن يجمع الجموع الفرنجية ، ويصل بهم إلى خربت ويخلصهم ، وسار إليهم جوسلين حينما ساعد سكان القلعة الأرمن ، بلدوين والأسرى الفرنجة في الاستيلاء على القلعة ، غير أن بلك ، لم يمكن جوسلين من القلعة واستعادها ، ورتب فيها من يحفظها ، ونقل بلدوين إلى حران .

ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢١٢ .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .
Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2. pp. 163-165.

(٢٣٩) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ٢٤٩ .

— أمير هاردين — الى حلب . وابستولى عليها (٢٤٠) وفازعه في حكمها
الأمير ديبس بن صدقة — صاحب الحلة — وفي هذه الأثناء رأى حسام الدين
أن يطلق سراح بلدوين الثاني — ملك بيت المقدس (٢٤١) — بعد أن تعهد
بأداء مبلغ كبير من المال . وأن يعيد الى حلب مدن الأثارب وزردنا
وعزاز وكفر طاب والجسر ، وأن يقف الى جانبه في قتال ديبس بن صدقة ،
وأن يحتفظ صاحب حلب بالرهائن ريثما يؤدي بلدوين الفدية كاملة .
غير أن ملك بيت المقدس تولى عن تعهده بعد اطلاق سراحه (٢٤٢) .

ولما انتزع الفرنجة مدينة صور من الفاطميين سنة ٥١٨هـ /
١١٢٤م : طمعوا في الاستيلاء على بقية مدن الشام (٢٤٣) فقصدوا حلب ،
وانضم اليهم ديبس بن صدقة — صاحب الحلة — وياغى سيمان الأرتقى
وسلطان شاه بن رضوان . غير أن حسام الدين تمرتاش — صاحب
ماردين وحلب — لم يغادر ديار بكر لنجدة أهل حلب ، ويرجع السبب
في ذلك الى انشغاله بالاستيلاء على ميافارقين (٢٤٤) ، بعد وفاة
سليمان ، وظل أهل حلب يقاومون الفرنجة حتى ضعفت مقاومتهم (٢٤٥)
فلجأوا الى البرسقى — أتابك الموصل — ويعثوا اليه يستجدونه غلبى
طلبهم ، ولما أشرفت قوات الموصل على حلب (٢٤٦) رحل الفرنجة
وحلفاءهم عنها (٢٤٧) ، ورأى البرسقى أن من المصلحة عدم تتبع الفرنجة
حتى تستقر الأمور في حلب ، ولما دخلها رحب به أهلها (٢٤٨) ،
وهكذا اتحدت حلب والموصل تحت زعامة آقسنقر البرسقى ، مما يعتبر
نواة لتكوين جبهة اسلامية ، تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين (٢٤٩) .

(٢٤٠) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢١٧-٢١٩ .

Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 165.

Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 423.

(٢٤٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

(244) Setton : A History of the Crusade Vol. 1. 452.

(٢٤٥) أبو القدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ٢٤٩ .

(٢٤٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 173.

(٢٤٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

(٢٤٩) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج١ ص ٥٦١ .

ظل اليرسقي يواصل الحرب ضد الصليبيين بعد عودته إلى الموصل فسار إلى الشام ، وشن عدة هجمات على بلاد أنطاكية ، وحاصرت الأتارب (٢٥٠) ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى حلب ثم إلى الموصل حيث قتلته الاسماعيلية (٢٥١) فخلفه ابنه عز الدين مسعود . لكنه لم يكن كآبيه في جهاد الفرنجة ، ولم يلبث أن توفي ، وسادت الفوضى مدينة حلب ، فولى الناس عليهم أميرا من بنى أرتق يدعى سليمان بن عبد الجبار (٢٥٢) فانتهاز جوسلين — أمير الرها — وبوهمند الثاني — صاحب أنطاكية — فرصة ذلك الاضطراب الذي ساد حلب (٢٥٣) ، وحاولا الاستيلاء عليها (٢٥٤) غير أن محاولتهما باءت بالفشل (٢٥٥) ، ولم يمض غير قليل حتى دخل عماد الدين زنكي بن آقسنقر هذه المدينة سنة ٥٢٢هـ / ١١٩٩م حاملا تقليدا يحكمها من السلطان السلجوقي (٢٥٦) ، فأحسن أهلها استقباله (٢٥٧) ، وبانضمام حلب إلى الموصل تحت سيطرة زنكي ، انتقل صراع أتابكة الموصل والجزيرة مع الصليبيين إلى دور جديد .

واصل عماد الدين زنكي سياسة أسلافه — أتابكة الموصل — في مجاهدة الفرنجة بعد أن استنفل خطرهم في بلاد الشام (٢٥٨) . وامتد ملكهم من ناحية ماردين إلى عريش مصر ، فيما عدا حلب وحمص وحماه

(٢٥٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٩هـ .
Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 173-174.

(250) Setton : A History of the Crusades Vol. 1 pp. 426-427.

• (٢٥٢) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٢٧ .

• (٢٥٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٢هـ .

• ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ٢٧-٢٨ .

• (٢٥٤) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ج ٢١٨ .

• (٢٥٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٤١ .

• ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ٢٨-٢٩ .

(256) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 453.

(٢٥٧) وينكر ابن الأثير أن أهل حلب أظهروا من الفرح والسرور بمقدم زنكي ما لا يعلمه

إلا الله سبحانه وتعالى . (التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٢٧-٢٨) .

• (٢٥٨) ابن قاضي شهاب : الكواكب الدرية في السيرة النورية ج ٦١ .

Grousset : Histoire des Croissades. Vol. 1 p. 668.

ودمشق التي بقيت في حوزة بعض الأمراء المسلمين (٢٥٩) ، بل ان هذه البلاد تعرضت لغارات متعددة شنّها الفرنجة بغية السلب والنهب (٢٦٠) ، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا اتاوات على البلاد المجاورة لهم ، مقابل عدم اعتدائهم عليهم (٢٦١) .

بدأ زنكى يناهض الصليبيين منذ سنة ٥٦٤هـ / ١١٢٩م - وعلى الرغم من انه لم يستفد من الاضطرابات التي حدثت بأنطاكية بعد مقتل أميرها بوهمند الثاني (٢٦٢) ، فانه عمد الى مهاجمة بعض حصون الفرنجة التي تهدد ممتلكاته في بلاد الشام ومنها حصن الأتارب (٢٦٣) سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م - بين حلب وأنطاكية - وكان أهل حلب يلاقون كثيرا من الضر والضييق من هذا الحصن الذي اتخذته الفرنجة قاعدة لمهاجمة حلب ، ونهب أهلها ومحاصيلها (٢٦٤) ، بل كانوا يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية (٢٦٥) ، فلما هاجر عماد الدين زنكى هذا الحصن ، حشد الفرنجة جندهم لصدّه ، ودارت بين عماد الدين والصليبيين معركة حلت

(٢٥٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .
(٢٦٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ٢٢-٢٣ .

(261) Archer : The Crusades p. 199.

Stevenson : The Crusades in the East.

(٢٦٢) حينما قتل بوهمند الثاني - أمير أنطاكية - بأيدي الترك السلاجقة بأسيا الصغرى رفضت زوجته اليس تولية ابنه بوهمند - كونستانس - الحكم وانفردت بالسلطان، وطلبت من عماد الدين زنكى مساعدتها ، وتجهت له بالدخول في طاعته اذا عمل على ابقاء أنطاكية في حوزتها ، غير ان بلدوين الثاني - ملك القدس - سار الى أنطاكية ، وأحيط مؤامرة اليس .

(Setton : A History or the Crusades Vol. 1. p. 431)

(٢٦٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .
(٢٦٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ٣٩ .

Grousset : Histoire des Croissades. Vol. 1. pp. 675-676.

(٢٦٥) لما احتشد الفرنجة للدفاع عن الحصن ، استشار زنكى أصحابه فيما يفعل فأشاروا عليه بالعودة الى الحصن خوفا من الهزيمة ، ولكن زنكى رفض مشورتهم وقال لأصحابه : ان الفرنجة متى رأونا قد عدنا عن الحصن طمعوا وساروا في أثرنا ، وخربوا بلادنا .

(ابن الأثير :) الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .

ذبحها الهزيمة بهم (٢٦٦) ووقع كثير من فرسانهم في الأسر (٢٦٧) ، واستطاع أتايك الموصل أن يستولى على حصن الأثارب عنوة (٢٦٨) ، ثم سار زنكى من الأثارب إلى قلعة حارم — على مقربة من أنطاكية فحاصرها ، وضيق عليها الحصار ، ولما رأى الفرنجة أنه لا طاقة لهم بزنكى وجنده ، عرضوا عليه الكف عنهم في مقابل منحه نصف دخل بلدهم ، فأجابهم إلى ذلك ورفع الحصار عن حارم (٢٦٩) .

على أن عماد الدين زنكى انصرف بعض الوقت عن قتال الصليبيين بعد عودته إلى العراق ، وانشغاله بالصراع الدائر بين السلاجقة والخلفاء العباسيين ، والاضطرابات التي أثارها الأكراد في شمال العراق (٢٧٠) .

وعلى الرغم من تغيب زنكى عن الشام ، فإن جهوده في محاربة الصليبيين لم تتوقف ، فأعد سيف الدين سوار — نائبه في حلب — بجند من التركمان وطلب إليه مجاهدة الفرنجة ، فشن سوار هجمات على أنطاكية مها حمل أهلها على الاستنجاد بفولك — ملك بيت المقدس — فسار إلى أنطاكية (٢٧١) ، وفي طريقه إليها علم أن سيف الدين سوار هاجم تل باشر التابعة لامارة الرها — وغنم منها غنائم كثيرة (٢٧٢) ، ولم يستطع الصليبيون صده عنها ، فتقدم فولك إلى قنشرين ، حيث كان سوار معسكرا بقواته ، واشتبك الفريقان في معركة انتصر فيها الصليبيون (٢٧٣) ، وعاد فولك إلى فلسطين سنة ٥٢٧هـ / ١٣٢٢م (٢٧٤) .

(٢٦٦) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص ٢ .

(٢٦٧) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ٧٨ .

(٢٦٨) دمر عماد الدين زنكى هذا الحصن بعد الاستيلاء عليه ، وقال لقواته : « إن هذا

أول مصاف عملناه معهم ، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم » .

ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٤٢ .

Archer : The Crusades. p. 200.

(٢٦٩) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ٧٨ .

Stevenson : The Crusades in the East: p. 33.

(٢٧٠) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٤٢ وما بعدها .

(271) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2. p. 194.

(٢٧٢) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص ٢٦٠ .

(273) Setton : A History of the Crusades Vol. 1 pp. 431-432.

(٢٧٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٧هـ .

انتهاز سوار فرصة الفتن الداخلية التي حدثت في انطاكية نتيجة
النزاع على الحكم ، فهاجر انطاكية (٢٧٥) والقرى الصليبية المجاورة (٢٧٦)
لها حتى بلغت غاراته اللاتنية (٢٧٧) ، سنة ٥٣٠/١١٣٥ م . ويذكر
ابن القلائسي (٢٧٨) أن جند زنكي عادوا الى حلب ومعهم ما يزيد على
سبعة آلاف أسير عدا ما غنموه من الذواب والأسلحة .

رأى عماد الدين زنكي بعد عودته الى بلاد الشام سنة ٥١٦هـ /
١١٢٧م أن يعمل على تحقيق سياسته في اقامة جبهة اسلامية متحدة
حتى يتيسر له استئناف الحرب ضد الصليبيين ، فهاجم حمص مرة أخرى
لكن ضعيف الدين اثر - واليه من قبل آتابك دمشق - تصدى (٢٧٩) له .
بل استعان عليه (٢٨٠) بالفرنجة فصار الصليبيون الى حمص لمنع زنكي
عنها ، فاضطر آتابك الموصل الى رفع الحصار عن حمص ، وسار
لمواجهة الصليبيين عند بارين - بين حماه وحمص - وكان الصليبيون
قد اتخذوها قاعدة يشنون منها الغارات على البلاد الواقعة بين حمص
وحماه (٢٨١) .

استنجد ريموند - صاحب طرابلس - بفولك ملك بيت المقدس (٢٨٢)
واشتبك مع عماد الدين في معركة رغبة في صيده عن بارين (٢٨٣) ، لكن
عماد الدين زنكي هزم الفرنجة ، وألحق بهم خسائر فادحة في الأرواح
والعتاد (٢٨٤) . ووقع في الأسر كثيرون ، منهم ريموند - أمير طرابلس -

-
- (٢٧٥) ابن القلائسي : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٧هـ .
سجل ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - القسم الاول ج ٨ ص ١٤٦ .
(٢٧٦) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٢٧٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .
(٢٧٨) نيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥-٢٥٦ .
(٢٧٩) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 137.
(٢٨٠) Crousset : Histoire des Croisades; Vol. 2 pp. 69-79.
(٢٨١) ابن القلائسي : نيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨-٢٥٩ .
(٢٨٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٨٨-٨٧ .
Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 438.
(٢٨٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣١هـ .
(٢٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٧٢-٧٣ .

بينما فر فولك الى حصن بارين ، واحتمى به ، واضطر الى الاستنجاد
ببطريك بيت المقدس ، وأميرى الرها وأنطاكية . وقد لبى هؤلاء الثلاثة
طلبه وخرجوا لنجدته على (٢٨٥) رأس جيش كبير (٢٨٦) ، غير أن
جند زنكى شددوا الحصار على القلعة وقذفوها بالمنجنيقات ، ولما ندرت
الذخائر والمؤن لدى الفرنجة اضطر فولك الى طلب الأمان من زنكى
فى مقابل تسليم القلعة ، فأظهر زنكى فى بداية الأمر عدم اكتراثه بهم (٢٨٧).
لكنه حين بلغه اقتراب جيوش الفرنجة — الذين استنجد بهم فولك —
منح الأمان لجندهم المحاصرين بالقلعة فى مقابل تسليمها (٢٨٨) ، وأذن
للملك فولك وفرسانه بمغادرة القلعة (٢٨٩) والعودة الى بلادهم ، كما
أطلق سراح — أمير أنطاكية — وجميع أسرى الحرب الأخيرة (٢٩٠).
واستولى على القلعة وأنفذ اليه الفرنجة خمسين ألف دينار مقابل إطلاق
سراح أسراهم (٢٩١) .

كان لاستيلاء زنكى على قلعة بارين أهمية كبيرة ، إذ أن امتلاكه
لها يعوق الفرنجة عن الوصول الى أعالي وادى نهر العاصى فضلاً عن
أنه يمكن زنكى من السيطرة على حمص وحماه اللتين كانتا فى دائرة
نفوذ دمشق (٢٩٢) .

وبينما كان زنكى محاصراً لقلعة بارين ، تمكن من فتح معرة النعمان
وكفر طاب وغيرها من البلاد الواقعة بين حلب وحماه (٢٩٣) ، ومما يجدر

(٢٨٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتاكية ص ٥٩-٦١ .

Runciman ; A History of the Crusades. Vol. 2 p. 204.

(٢٨٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٦١-٢٦٠ .

(٢٨٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩ .

(٢٨٨) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتاكية ص ٦١ .

(٢٨٩) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٦٢ .

(290) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 438.

(٢٩١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢١هـ .

(292) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 204.

(٢٩٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٢١هـ .

Zee Oiden Bourg : Les Croissades. p. 521.

ذكره ان هذه البلاد افادت من استيلاء زنكى عليها ، اذ عبرت وزاد دخلها (٢٩٤) .

واصل زنكى سياسته التى تنطوى على توحيد القوى الاسلاميه فى الشام لمواجهة الخطر الصليبي ، فهاجم دمشق سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م مما اضطر معين الدين انر — نائب اتابك دمشق — الى الاستنجاد (٢٩٥) بالصليبيين ، وبذل لهم الأموال فى مقابل صد زنكى عن دمشق ، فخرجوا لنصرته (٢٩٦) ، لأنهم أيقنوا بالخطر الذى يواجههم من جراء استيلاء زنكى على دمشق (٢٩٧) .

ولما سارت الفرنجة الى دمشق ، اضطر عماد الدين زنكى الى رفع الحصار عنها وقصد حوران معتزما قتال الفرنجة قبل أن يلتشوا بأهالى دمشق غير ان الفرنجة لم يواصلوا زحفهم الى هذه المدينة خوفا من وقوع اشتباك بينهم وبين عماد الدين زنكى (٢٩٨) .

أما عن موقف معين الدين انر — نائب اتابك دمشق — فانه عمل على الوفاء بتعهداته للفرنجة ، فانتهاز فرصة غياب — اتابك الموصل — عن بلاد الشام وسار الى بانياس (٢٩٩) لانتزاعها وتسليمها للفرنجة — وكانت من أملاك (٣٠٠) زنكى — وانضم اليه فولك — ملك بيت المقدس — وريموند — أمير أنطاكية — وعجز أهل بانياس عن صد انر وحلفائه

(٢٩٤) ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .

(٢٩٥) أرسل معين الدين انر ، أسامة بن منقذ الى بيت المقدس للسعى الى الاتفاق مع الفرنجة على زنكى ، فاتفق أسامة معه على أن يساعد انر الفرنجة فى انتزاع بانياس من عماد الدين زنكى ، وأن يبذل أمير دمشق للفرنجة ٣٠ ألف دينار كل شهر يعد بها الفرنجة قوات لمحاربة زنكى ، وأن يجعل صاحب دمشق الرهائن عند الفرنجة ضمانا لتنفيذ الاتفاق .

(أسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٨) .

(296) Archer : The Crusades. p. 196.

(297) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 227.

(٢٩٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٤هـ .

(299) Grousset : Histoire des Croissades. Vol. 2. p. 137.

(٣٠٠) ابن واصل : مفرج الكروبى ، تذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ٨٩-٨٨ .

Zac Olden Bourg : Les Croissades, p. 568.

عن بلددهم (٣٠١) مما هون عليه أمر الاستيلاء عليها ، وتسليمها للفرنجة (٣٠٢) . وهكذا أدى التحالف بين حكام دمشق وبيت المقدس الى عرقلة الجهود التي بذلها عماد الدين زنكى في تكوين جبهة اسلامية متحدة تستطيع مواجهة الخطر الصليبي (٣٠٣) .

على أن غارات قوات عماد الدين زنكى لم تتوقف في بلاد الشام ، فيذكر ابن العديم (٣٠٤) ان الفرنجة لما أغاروا سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م على سمرين وعاثوا فيها سلبا ونهباً ، ثم تحولوا الى جبل السماق وكفر طاب (٣٠٥) ، لم يقف قواد عماد الدين زنكى في بلاد الشام مكتوف الأيدي ازاء أعمال الفرنجة التخريبية ، فاجتمع كثير من جند التركمان بقيادة علم الدين بن سيف الدين سوار ، وساروا الى أنطاكية ، وشنوا عليها غارات وغنموا منها كثيراً من الغنائم (٣٠٦) .

واصل قادة زنكى جهودهم في مقاومة الصليبيين ، ففي سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م خرج القائد سيف الدين سوار — نائب زنكى في حلب — الى أنطاكية واشتبك مع بعض القوات الصليبية وأوقع بهم الهزيمة وغنم منهم مغانم كثيرة ، ولما خرج صاحب أنطاكية الى بزاعة للانتقام من جند زنكى رده سوار على أعقابهم (٣٠٧) .

حمى خولى عماد الدين زنكى في نفس السنة على بعض بلاد ديار بكر التي كانت في حوزة جوسلين — أمير الرها (٣٠٨) — وعمل على

(301) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1, p. 443.

- (٣٠٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .
- (٣٠٣) زاد التحالف بين فولك ملك بيت المقدس وانر — نائب أتابك دمشق — حينما زار معين الدين انر وأسامة بن منقذ الملك فولك في عكا ، وأحسن استقبالهما ثم زارا حيفا وبيت المقدس .
- (أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٩٦) .
- (٣٠٤) زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٧٥ .
- (٣٠٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٦هـ .
- (٣٠٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٤ .
- (٣٠٧) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ١٥٨ .
- (٣٠٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٨هـ .
- ابن واصل : مفرج الكروبي في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٩٢ .

اصلاح أمورها وأبقى بها حامية من الجند لدرء الأخطار التي تتعرض
لنبا (٣٠٩) .

كان للنزاع الذي حدث بين ريموند — صاحب أنطاكية — وجوسلين
— أمير الرها — وضعف مملكة بيت المقدس على اثر وفاة ملكها فولك ،
وعجز خليفته بلدوين الثالث عن المحافظة على وحدة الفرنجة وتوحيد
كلمتهم : أثر بالغ في اتاحة الفرصة مام زنكى لاستئناف الجهاد ضد
الصلبيين (٣١٠) فأعد جيشا لمهاجمة الرها التي كانت من أشرف المدن
عند النصارى ، وأكثرها محلا (٣١١) .

كانت إمارة الرها تشكل خطرا كبيرا على المسلمين (٣١٢) فإدى
دفعها على خطوط المواصلات بين الموصل وحلب وبين بغداد ودول
سلاجقة الروم في آسيا الصغرى (٣١٣) الى تعرض المسلمين لأخطار
جسيمة (٣١٤) . كما ان الفرنجة اتخذوا قاعدة لشن غاراتهم على البلاد
الجزرية (٣١٥) .

رأى عماد الدين زنكى انه اذا ما قصد الرها اجتمع بها من الفرنجة
من يعمل على صدده ، فيتعذر عليه فتحها (٣١٦) فأتجه الى ديار بكر
ليوهم الفرنجة انه منشغل عنهم بمحاربة قر أرسلان — أمير ماردين —

(310) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. p. 163.
Stevenson : The Crusaders in the East. p. 153.

- (٢١١) ابن قاضي شهاب : الكواكب الدرية في السيرة النورية ورقة ٦٢ .
- (٢١٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٩ هـ .
- (٢١٣) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج١ ص ٩٢ .
- (٢١٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٦٧ .
- أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص ٧ .
- (٢١٥) على الرغم من أن الفرنجة اتخذوا الرها قاعدة لشن الغارات على المسلمين فقد
يسر موقعها على المسلمين أمر الاستيلاء عليها ذلك أن نهر الفرات فصلها عن
الامارات الصليبية ، وأحاط بها المسلمون من ثلاث جهات .
- (Grousset : Histoire des Croissades. Vol. 2 p. 172).
- (316) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 235.

الذى تحالف مع جوسلين الثانى - أمير الرها (٣١٧) - وقد تمكن من انتزاع عدة قلاع فى ديار بكر (٣١٨) أما فيما يتعلق بأمير الرها فإنه لم ينشغل عن حليفه أمير ماردين (٣١٩) ، فخرج على رأس جيش كبير عبر به الفرات الى البلاد الشامية (٣٢٠) ليحول دون الاتصال بين حلب والموصل ، وعسر بقواته فى تل باشر ، ولما وقف زنكى على تحركات خصمه جوسلين ، عقد الصلح مع الأراتقة ، وسار الى الرها (٣٢٢) .

لم يترك جوسلين فى الرها حامية كبيرة (٣٢٣) ، بل اعتقد فى الدفاع عنها على السكان الأصليين من المسيحيين (٣٢٤) على الرغم من قلّة خبرتهم بشئون الحرب والقتال ، كما تولى الدفاع عن المدينة الجنب المرتزقة (٣٢٥) .

لما زحف عماد الدين زنكى الى الرها شاهد مدينة تجمع بين حسن التنسيق ، ودقة التحصين (٣٢٦) فأرسل أهلها يعرض عليهم الأمان - لكن زعماء المسيحيين رفضوا ذلك العرض الذى تقدم به زنكى (٣٢٧) أملا فى أن تصل اليهم نجيدات من جوسلين ، ومن أميرى أنطاكية وبيت المقدس (٣٢٨) .

(317) Setton : A History of the Crusades. Vol. I p. 461.

(٣١٨) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٣١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٦ هـ .

(٣٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٩٣ .

(321) Setton : A History of the Crusades. Vol. I p. 461.

(٣٢٢) قبل أن يصل زنكى الى الرها أرسل حملة استطلاعية بقيادة صلاح الدين

الياغيسىانى - أمير حماة - لمهاجمة الرها ، غير أن الياغيسىانى فشل الطريق فى

ليلة حالكة الظلام غزيرة الأمطار ، فلم يبلغ بقواته الرها الا بعد أن وصل

اليها عماد الدين زنكى . (ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٩) .

(٣٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ٩٣-٩٤ .

(٣٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

(325) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 235.

(326) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 461.

(٣٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ٢٧٦-٢٧٩ .

(328) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 273.

على أن ريموند — أمير أنطاكية — خيب أملهم حين رفض إرسال نجدة إليهم ، أما ميليسند — ملكة بيت المقدس — فأرسلت جيشا إلى الزها ، لكنه وصل إليها بعد فتحها (٣٢٩) ، بينها ازدادت قوات عماد الدين زنكي بما انضم إليها من الأتراك والتركمان (٣٣٠) .

حاصرت قوات عماد الدين زنكي الرها من جميع الجهات سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م وحالت دون وصول الاقوات والميرة إليها (٣٣١) ، ونصبت على أسوارها المنجنيقات (٣٣٢) ، وبعد عدة هجمات — تمكن جند الموصل من تحطيم أسوار الرها (٣٣٣) ، وتخلوا المدينة بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما (٣٣٤) ، وفر أهلها إلى قلعتها (٣٣٥) ، لكن هيو — رئيس الاساقفة اللاتين — أمر باغلاق القلعة دونهم (٣٣٦) مما جعلهم يواجهون خطر هجوم قوات زنكي (٣٣٧) .

أما عن زنكي فانه أمر جنده بالكف عن قتال المسيحيين الشرقيين ، بينما حاصرت قواته الفرنجة ، ونكلت بهم (٣٣٨) .

رأى زنكي بعد دخوله مدينة الرها أن يقطعها لزيين ، يدين على كجك وطلب إليه أن يعمل على اصلاح أمورها ونشر العدل بين أهلها (٣٣٩) ،

(329) Grousset : Histoire des Croisades. Vol. pp. 179-189.

- (٢٣٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٦٨-٦٩ .
- (٢٣١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .
- (٢٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٩٣ .
- (373) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. pp. 266-267.
- (٢٣٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٩ .
- (٢٣٥) ابن قاضي شهاب : الكواكب الدرية في السيرة النورية ورقة ٦٢ .
- (٢٣٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٦٨-٦٩ .
- (٢٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٩٤ .
- Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 273.
- (٢٣٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .
- ابن العديم : زبدة الطب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٧٩ .
- (٢٣٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ .
- ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٦٩ .
- Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 237

فسار زين الدين في أهل الرها سيرة حسنة (٣٤٠) ، وشملهم بعنايته ورعايته ، فطابت نفوسهم (٣٤١) وانضموا إلى المسلمين في الدفاع عن المدينة ضد هجمات الفرنجة الذين يخالفونهم في مذهبهم الديني (٣٤١) ، وهكذا عادت الرها إلى حالها الأول مدينة مسيحية يحكمها أمراء مسلمون (٣٤٣) .

علت مكانة زنكي بعد ذلك الانتصار الرائع الذي أحرزته على الصليبيين فمنحه الخليفة العباسي الهدايا ، ولقيه بطل الإسلام ، الملك المظفر منصور قاهر الكفرة والمتمردين (٣٤٤) .

كان لسقوط الرها آثار بعيدة المدى على المسلمين ، إذ أنها أول إمارة صليبية قامت في الشرق ، ولم يعد الفرنجة يعد زوالها إلا بلاد تقع على ساحل البحر المتوسط كما أن سبل الاتصال بين حلب والموصل صارت آمنة (٣٤٥) .

لم يكتف عماد الدين زنكي بفتح الرها ، بل عول على انتزاع أعمالها من جوسلين الثاني ، فسار إلى سروج (٣٤٦) — التي تعتبر ثاني الحصون الصليبية الكبيرة الواقعة شرقي الفرات — . ويذكر ابن القلانسي (٣٤٧) أن هذا الحصن كان محصناً تحصيناً قوياً ، فلما نزل زنكي عليه ، قطع عنه سائر ما يصل إليه من المؤن والمعدات حتى استولى عليه (١٤٨) ، كما امتلك زنكي البلاد والمعاقل التي كانت في حوزة جوسلين

(340) Vasileiv, History of the Byzantine Empire. p. 418.

(٣٤١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ص ١٠١ .
Setton, A History of the Crusades. Vol. 1. p. 461.

(٣٤٢) ابن القلانسي : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ .
(343) Grousset, Histoire des Croisades, Vol. 2 pp. 190-191.

(٣٤٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — القسم الأول ج ٨ ص ٩٢ .
(345) Cambridge Medieval History Vol. 2 p. 307.

(٣٤٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٣٩ هـ .
(٣٤٧) ذيل تاريخ دمشق ص ٨٤ .
(٣٤٨) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتاكية ص ٦٩-٧٠ .
Runciman, A History of the Crusades, Vol. 2. p. 237.

على نهر الفرات (٣٤٩) حتى لم يبق لهذا الأمير الصليبي سوى البيرة التي تنوافر فيها المؤن والذخائر (٣٥٠) فحاصرها عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م غير أن الفرنجة قاوموه مقاومة عنيفة ، واضطر زنكي إلى رفع الحصار عنها . وعاد إلى الموصل (٣٥١) لأقرار أمورها إلى وضعها الصحيح (٣٥٢) بعد محاولة السلطان السلجوقي ألب أرسلان الاستئثار بالسلطة في أتابكيته (٣٥٤) .

انتزع حسام الدين تمرثاش — أمير ماردين — فرصة رفع زنكي الحصار عن البيرة وعودته إلى بلاده ، وسار إلى البيرة ، وشدد الحصار عليها ، وحال دون وصول المؤن والذخيرة إليها (٣٥٥) ، ولما عجز أهلها عن مقاومته ، رأوا أن من الخير تسليم بلدتهم لأمر ماردين خشيعة من وقوعها في يد زنكي (٣٥٦) وهونو التمرثاش أمر الاستيلاء على البيرة (٣٥٧) وهكذا لم يبق بيد الفرنجة أي بلد شرقي الفرات (٣٥٨) .

كان للهزائم التي ألحقها جند الموصل والجزيرة بالصليبيين في الشام أثر بالغ في نفوسهم (٣٥٩) فعولوا على الانتقام من المسلمين ، ففي سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م اجتمع حشد كبير من الصليبيين بنواحي أنطاكية لاستعادة الزها وأعمالها (٣٦٠) كما أن سكان الزها من الأرمن أرسلوا إلى جوسلين الثاني يطلبون منه القدوم إلى مدينتهم واستعادتها وخاصة أن زنكي ترك

-
- (٣٤٩) ابن العديم : زبدة الخلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٨٠-٢٨١
 - (٣٥٠) ابن الأثير : التاريخ في الدولة الأتابكية ص ٧٠-٧١
 - (٣٥١) ابن العديم : زبدة الخلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٨٠
 - (٣٥٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠-٢٨١
 - (٣٥٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٥٣٩هـ
 - ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ٩٦

(354) Setton, A History of the Crusades. Vol. 1. p. 461.

(355) Gibb, The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 288.

• (٣٥٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠

• (٣٥٧) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ١٠٢

(358) Runciman, A History of the Crusades. Vol. 2, p. 238.

• (٣٥٩) ابن العديم : زبدة الخلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٨١

(360) Setton, A History of the Crusades, Vol. 1 p. 461.

حامية صغيرة (٣٦١) ، ولما علم عماد الدين زنكى بذلك باغت جموع الصليبيين ، وألحق بهم هزيمة ساحقة (٣٦٢) ، وردهم على أعقابهم ثم سار الى الرها وقضى على المتآمرين (٣٣٦) .

كذلك عول زنكى على محاربة حسام الدين تيمرتاش - صاحب ماردين - لاعتقاده أنه تحالف مع الفرنجة الذين مكثوه من ضم البيرة (٣٦٤) الى حوزته ، فهاجم ماردين ، واستولى على بعض أعمالها ، ثم سار نحو الجنوب سنة ٥٤١هـ (٣٦٥)م لمحاربة يسالم بن مالك - صاحب قلعة جعبر ، وهو من حلفاء الفرنجة - غير أن زنكى ما لبث أن وانتبه منيته ، إذ قتله أحد غلمانه من أصل فرنجى ، وزنكى من أبطال الاسلام قلما يأتى التاريخ يمثلهم ، وقد عبر أحد شاهدى العيان عن الفاجعة المروعة بقوله للمقاتل : لقد قتلت المسلمين جميعا بقتله .

استقر رأى جوسلين الثانى - بعد مقتل عماد الدين زنكى على استرداد البلاد التى انتزعت منه (١٦٧) ، فأرسل الى أهل الرها سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م : يجرئهم على العصيان ، وتسليم البلد اليه ، فاجابوه الى ذلك (٣٦٨) ، وسار الى الرها ، واستعادها (٣٦٩) . غير أن جنود عماد الدين زنكى اعتصموا بالقلعة ، ورفضوا تسليمها الى الفرنجة (٣٧٠) وسار سيف الدين غازى بن زنكى - الذى خلف أباه فى حكم الموصل - الى الرها لنجدتها (٣٧١) ، كما زحف اليها أخوه نور الدين محمد

(٣٦١) ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ .

(٣٦٢) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٨١ .

(٣٦٣) ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ .

Runciman, A. History of the Crusades, Vol. 2. p. 239.

(٣٦٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتاكية ص ٨٦-٨٧ .

(٣٦٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ٩٨-٩٩ .

(٣٦٦) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣٦٧) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ١١٠ .

(٣٦٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ بحوادث سنة ٥٤١هـ .

(٣٦٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - القسم الأول ج ٨ ص ١٩٢ .

(٣٧٠) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ١٩٠ .

(371) Grousset : Histoire des Croissades Vol. 2. p. 203.

— صاحب(٣٧٢) حلب . فلما بلغ ذلك جوسلين ، وأيقن بعجزه عن التصدي للقوات الإسلامية عاد أذراجه(١٧٣) .

وبذلك فشلت محاولة جوسلين استعادة الرها ، لكنه لم يلبث — رغم تلك الهزيمة التي حلت به — أن واصل سياسته في العمل على استرداد هذه المدينة ، فأرسل إلى البابا يوجين الثالث يستنجد به ، ويطلب منه اقتاد حملة تمكنه من استعادة البلاد التي انتزعها منه المسلمون(٣٧٤) ، وكان البابا قد وقف على ضعف شأن الفرنجة في بلاد الشام من الحجاج والقادمين من بيت المقدس إلى أوربا(٣٧٥) ، فقرر الدعوة إلى حرب صليبية جديدة ، ولقيت دعوته موافقة كثراد الثالث — امبراطور المانيا — ولويس الرابع — ملك فرنسا(٣٧٦) .

سارت حملة صليبية ثانية إلى بلاد الشام سنة ٤٥٣هـ/١١٤٧م على رأسها كونراد الثالث — امبراطور المانيا — ولويس السابع — ملك فرنسا — واتجهت إلى هذه البلاد عن طريق آسيا الصغرى(٣٧٧) ، غير أنها لم تقم بالمهمة التي جاءت من أجلها وهي استرداد الرها(٣٧٨) ، واستعادة شمال الشام ، وإنما عمدت إلى مهاجمة دمشق(٣٧٩) ، على الرغم من أن أتباكة دمشق حرصوا على صداقة الفرنجة في بلاد الشام(٣٨٠) وذلك تحت تأثير مملكة بيت المقدس وأطماعها في التوسع ، إذ أدرك حكام بيت المقدس الأهمية العسكرية والاقتصادية لمدينة دمشق(٣٨١) .

(٢٧٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٨٦ .

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, p. 418.

(374) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 466.

(375) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 p. 247.

(376) Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 467.

(377) Ibid : Vol. 1. p. 406.

(٢٧٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣هـ .

(٢٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج ١ ص ١١٢ .

(٢٨٠) أبو شامة : البروجستين في أخبار الدولتين ج ١ ص ١٢٧ .

(٢٨١) ابن قاضي شهاب : الكواكب الدرية في السيرة النورية ورقة ٩٠ .

Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 406.

اجتمع شمل هذه الحملة عند طبرية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨ ثم سارت عن طريق بانياس الى غوطة دمشق (٣٨٢) فاعد معين الدين انر - نائب أتابك دمشق - العدة لصددها ، وبعث الى سيف الدين غازي - أتابك الموصل - يستنجده ، فسار الى دمشق على رأس عشرين ألف مقاتل (٣٨٣) وانضموا الى نور الدين محمود - صاحب حلب - فذروا يمدينة حمص (٣٨٤) . وكتب سيف الدين غازي الى معين الدين انر يقول له : « قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح في بلادى ، فأريد أن تكون نوابى في مدينة دمشق ، لأحضر والقي الفرنج ، فان انهزمت دخلت وعسكرى البلد ، واحتميناه به ، وان ظفرنا فالبلد لكم لا ينازعكم فيه أحد (٣٨٥) ، كما أرسل سيف الدين غازي الى الفرنجة يطلب منهم الكف عن مهاجمة دمشق (٣٨٦) ويتوعددهم بالحرب .

كذلك حذر معين الدين انر الفرنجة المقيمين في بلاد الشام من سيف الدين غازي اذا استهروا في مهاجمة دمشق (٣٨٧) ، ومن مؤازر الحملة الصليبية الثانية (٣٨٨) وعرض عليهم النزول عن مدينة بانياس (٣٨٩) فضلا عن اموال كثيرة يمنحها لهم في مقابل التخلي عن هذه الحملة (٣٩٠) .

- (٣٨٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان - القسم الاول ج٨ ص ١٩٧ .
- (٣٨٢) المصدر السابق ج١ ص ١٩٧ .
- (٣٨٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٢ هـ .
- (٣٨٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتاكية ص ٨٩ .
- ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة جنى أيوب ج١ ص ١١٢ .
- (٣٨٦) ابن قاضي شهاب : الكواكب الدرية في السيرة النورية ورقة ٩٠-٩١ .
- Setton : A History of the Crusade Vol. 1. p. 508.

- (٣٨٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتاكية ص ٨٩ .
- (٣٨٨) أرسل معين الدين انر الى الفرنجة القادمين الى بلاد الشام يقول : « أن ملك الشرق قد حضر ، فان دخلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تقدمون » وأرسل الى الفرنجة المقيمين في بلاد الشام يقول : « بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا ، وأنتم تعلمون انهم ملكوا دمشق ، أخذ ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، اما ان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين ، وأنتم تعلمون أنه ان ملك دمشق لا يبقئ لكم معه في الشام مقام » .
- ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج٨ ص ١١٢ .
- (٣٨٩) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان - القسم الاول ج٨ ص ١٩٨ .
- (٣٩٠) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ١١٢ .
- Setton : A History of the Crusades Vol. I p. 509.

حاصر الصليبيون مدينة دمشق خمسة أيام ، لكن المدينة صمدت بفضل الامدادات التي تدفقت عليها ، واستطاع أهل هذه المدينة صد هجماتهم على أسوار المدينة (٣٩١) . بينما انتشرت قوات في غوطة دمشق تهاجم الفرنجة المرابطة بها (٣٩٢) وبلغ من شدة هجماتهم ان اضطر الفرنجة الى نقل معسكرهم من الغوطة الى شرق دمشق ، فسير انهم لم يفيدوا من هذا المكان الذي عسكروا به لعدم وفرة مياهه ، فضلا عن مقاعة أسوار دمشق في هذه الجهة (٣٩٣) . ولما علم الصليبيون أن قوات الموصل وحلب شرعت في الزحف لنجدة دمشق ، وأن الفرنجة في الشام اتفقوا مع معين الدين انر على القحلى عنهم (٣٩٤) ، استعز رأيهم على رفع الحصار عن دمشق ، وأبصر الامبراطور الالمانى كنراد الثالث من عكا الى بلاده (٣٩٥) . وهكذا لم تحقق هذه الحملة شيئا سوى انها فقدت كثيرا من جندها وعتاها (٣٩٦) .

لم تقف جهود سيف الدين غازى — أتاتك الموصل — في محاربة الصليبيين عند هذا الحد ، بل اشترك في انتزاع حصن العزيمة (٣٩٧) من الفرنجة (٣٩٨) ، ذلك أن برتراند — أمير تولوز — عول على الانتقام من ريموند الثانى — أمير طرابلس — لاتهامه بالتحريض على قتل أبيه (٣٩٩) الكونت الفونسو (٤٠٠) : فزحف أمير تولوز الى حصن العزيمة ، وانتزعه من ريموند الثانى (٤٠١) ، وكان ذلك مما حمل هذا الأمير على الاستنجاد

(٢٩١) ابن القلانسى : نيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

(392) Runciman : A History of the Crusades Vol. 2 p. 238.

(٢٩٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p: 509.

(٢٩٤) ابن القلانسى : نيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

Stevenson : The Crusaders in the East. p. 160.

(395) Runciman : A History of the Crusades, Vol. 2 p. 284.

(396) Grousset : Histoire des Croisades, Vol. 2. p. 271.

(397) Setton : A History of the Crusades Vol. 1. p. 511.

(٢٩٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

(٢٩٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابية ص ٩٠ .

(٤٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ١١٤ .

(٤٠١) المصدر السابق ج ١ ص ١١٤ .

بسیف الدین غازى ، وبعض امراء المسلمين (٤٠٢) وطلب منهم أن يعاونوه فى استرداد هذا الحصن ، فأجابوا طلبه (٤٠٣) .

هاجمت القوات الإسلامية حصن العزيمة ، وامتنع به برتراند ، ولما ضيق عليه هذه القوات الحصار اضطر الى التسليم (٤٠٤) ، وبذلك تيسر للمسلمين الاستيلاء على هذا الحصن ، كما وقع فى أيديهم كثير من الأسرى من بينهم برتراند (٤٠٥) .

كذلك انضم أتابكة الموصل والجزيرة الى نور الدين محمود فى الحرب التى نشبت بينه وبين الفرنجة سنة ٥٥٩هـ / ١٦٦٣م (٤٠٦) ذلك أن الفرنجة قصدوا مصر فى هذه السنة ، فعول نور الدين محمود على مهاجمة بلادهم وسار لنجدته قطب الدين مودود - أتابك الموصل - وقرا أرسلان بن داود بن أرتق (٤٠٧) ولما اجتمعت قواتهم عند نور الدين محمود ، نازل حارم ، ونصب عليها المنجنقات ، غير أن قوات الفرنجة ما لبثت أن زحفت إليها واضطرت القوات الإسلامية الى الانسحاب قرب حلب . ومع ذلك فشلت قوات الفرنجة فى تتبعها (٤٠٨) وعادت الى حارم ، فتعقب المسلمون ، وألحقوا بهم الهزيمة ووقع فى أيديهم كثير من أسراهم كان من بينهم بوهمند - صاحب أنطاكية (٤١٠) - غير أنه لم يستمر طويلاً فى الأسر ، فقد أطلق سراحه بعد أن أدى أموالاً كثيرة (٤١١) .

- (٤٠٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - القسم الأول ج١ ص ٢٠٠ .
(٤٠٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ٢٩٢ .

(404) Runciman : A History of the Crusades. Vol. 2 pp. 207-288.

- (٤٠٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٢ هـ .
(٤٠٦) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ١٤ .
(٤٠٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ .
(٤٠٨) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج١ ص ١٥٤ .
Setton : A History of the Crusades. Vol. 1 p. 551.
(٤٠٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - القسم الأول ج١ ص ٢٤٦ .
(٤١٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٠ .
(٤١١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج٢ ص ٢٩٩-٢٩٨ .

Runciman : A History of the Crusades Vol. 2. p. 225-226.

لم تتف جهود قطب الدين مودود فى محاربة الفرنجة عند هذا الحد ، بل انضم الى نور الدين محمود للمرة الثانية فى مهاجمة الفرنجة فتوغلّت قوات الموصل وحلب فى أعمال أنطاكية (٤١٢) ، وحاصرت حصن الأكراد — على مقربة من حمص — ونزلوا بعرقه ، كما حاصروا حلب ، واستولوا (٤١٣) عليها ثم فتحت قوات الموصل وحلب ، العريمة (٤١٤) ، وصافيتا (٤١٥) سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م وقصد حصن هونين والحقوا للهزيمة بالفرنجة ، وعاد قطب الدين الى الموصل بعد أن منحه نور الدين محمود الرقة مكافأة له على حسن بلائه فى مناهضة الفرنجة (٤١٦) .

مهدت الانتصارات التى أحرزها كل من نور الدين محمود وقطب الدين مودود على الصليبيين فى أنطاكية السبيل لبعض أمراء بنى أرتسق للتوسع فى بلاد الفرنجة فهاجم قرا أرسلان — صاحب حصن كينا — الأجزاء الشمالية من إمارة الرها ونجح فى الاستيلاء على كركر (٤١٧) .

كذلك أسهم أتابكة الموصل والجزيرة فى الحروب التى قام بها صلاح الدين يوسف بن أيوب ضد الصليبيين ذلك أنه لما ازدادت غارات ريجنالد — أمير حصن الكرك — على المدن الإسلامية ، وكثر تعرضه لقوافل المسلمين المتجهة الى مصر أو القادمة منها (٤١٨) ، عول السلطان صلاح الدين على مهاجمة هذا الحصن ، وانضم اليه قرا أرسلان — صاحب حصن كينا وآمد (٤١٩) — وعندما اشتد حصار المسلمين لحصن الكرك ، استنجد صاحبه بالفرنجة ، فخرج لنجدته ريموند الثالث — أمير

-
- (٤١٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٠ .
 (٤١٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى ذكر دولة بنى أيوب ج ١ ص ١٥٢ .
 (٤١٤) العريمة : قال أبو عبيد الله السكونى وبين أجا وسلمى موضع يقال له العريمة وهو رمل وبه ماء يعرف بالعيسية .
 (ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٦ ص ١٦٤) .
 (٤١٥) صافيتا : قرب بلدة عرقة آخر عمل لشمش شرقى طرابلس .
 (المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول ج ١ ص ١٠٠) .
 (416) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 165.
 (٤١٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢هـ .
 Setton : A History of the Crusades. Vol. 1. p. 5512.
 (٤١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٠هـ .
 (٤١٩) ابن شداد : النوادر السلطانية والحامس اليوسفية ص ٥٣ .

انطاكية — فاضطر المسلمون الى رفع الحصار عن الحصن ، وسارت قواتهم الى نابلس ، فأحرقوها ودمروها ، ثم عادوا الى دمشق سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م (٤٢٠) .

ولما خرج صلاح الدين لحصار حصن الكرك سنة ٥٨٣هـ / ١١٧٧م سار أتابكة الموصل والجزيرة وديار بكر لنجدته (٤٢١) كما عهد هذا السلطان لمظفر الدين كوكبوري — صاحب حران والرها — بالمسير الى عكا لمهاجمتها (٤٢٢) فزحف اليها ، واشتبك مع الفرنجة في معركة انتهت بانتصار قواته ، واستيلائها على كثير من الغنائم (٤٠٣) .

واصل صلاح الدين الحرب ضد الصليبيين سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م ، فأرسل الى أمراء الموصل والجزيرة وديار بكر يستنفرهم ، ويحثهم على سرعة القدوم الى بلاد الشام ، فأجابوا طله ، ويذكر ابن شداد (٤٢٤) أن السلطان صلاح الدين سر كثيرا لقدم هؤلاء الأمراء وأكبرهم وفادته ومنحهم الهدايا ، وسارت (٤٢٥) القوات الاسلامية المتحالفة الى حصن الاكراد واستولت عليه ، ثم هاجمت أنطربوس وأعملوا فيها التخريب ، واستولوا على جبلة ، ثم قصدوا اللاذقية وضموها الى حوزتهم ، كما فتحوا حصون صهيون بأكاس الشسر وسمينية (٤٢٦) وبرزية وانقرعت القوات الاسلامية الى جانب ذلك درب ساك الى نهر العاصي وبغراس ، ولما عقد صلاح الدين هدنة مع بوهمند الثالث — أمير أنطاكية — أذن لعسكر الموصل والجزيرة بالعودة الى بلادهم ، وكافأ حلفاءه ، وأجزل لهم العطاء (٤٢٧) .

واستطاع صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يعد العدة لحرب شاملة ضد الصليبيين ، وسأده في ذلك أتابكة الموصل والجزيرة ، ذلك أن أرتاط

-
- (٤٢٠) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج٢ ص ٥٥ .
 - (٤٢١) ابن واصل : مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب ج٢ ص ١٣٩-١٤٩ .
 - (٤٢٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج٢ ص ٤٨ .
 - (٤٢٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣هـ .
 - (٤٢٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٣٦ .
 - (٤٢٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٤هـ .
 - (٤٢٦) العماد الكاتب : الفتح القسي في الفتح القبطي ص ٢٤٠ وما بعدها .
 - (٤٢٧) نفس المصدر ص ٢٦٢ .

— أمير أنطاكية — بعد أن وقع أسيرا في أيدي المسلمين سنين عددا ،
تزوج من اتيننت دى ميلى Etienne de Milly وريثة صاحب
الأردن ، وأطلقت يده في حكم الأردن وحصنى الكرك والثوبك (٤٢٨) .

وتعرض أرنط للقوافل الإسلامية السائرة بين دمشق والقاهرة مرة
بحصنه ، كما جرد حملة سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م على الجزيرة العربية ، لكن
قوات صلاح الدين أحبطت هذه المحاولة ، وعلى الرغم من ذلك « فقد
ذلك أرنط يهاجم المسلمين ، وأرسل أسطولا إلى شواطئ الحجاز ،
إلا أن العادل — نائب صلاح الدين في حكم مصر — أرسل قوات شمتت
شمل الصليبيين شمال ينبع ، وأسرت الكثير منهم ، وفر الباقون وعلى
رأسهم أرنط (٤٢٩) .

لذلك طلب أرنط من صلاح الدين عقد هدنة بينهما ، فوافق السلطان
الأيوبي ، وعادت القوافل الإسلامية إلى المرور بين مصر والشام عبر
صحراء الأردن في أمن وطمأنينة ، ولكن أرنط لم يلبث أن نقض الهدنة ،
وعاد مرة أخرى إلى أعمال السلب والنهب ، فهاجم قافلة إسلامية متجهة
من القاهرة إلى دمشق ومحنة بالنعم الجبلية سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٦م ،
واستولى على ما فيها من نفائس ، ونهب أفراد القافلة ، وزجهم في
حصن الكرك (٤٣٠)

حاول صلاح الدين انتقاذ أسرى القافلة ، فطلب من أرنط إطلاق
سراحهم ، وأرسل الأموال التي اغتصبها ، ولكنه رفض ، فأرسل إلى
جاي لوزجان — ملك بيت المقدس — يطلب منه بذل مساعيه الحميدة
لدى أرنط للإفراج عن الأسرى ، وإطلاقه الأموال ، وفشل ملك بيت
المقدس في اقناع أرنط ، وفي هذا ما يدل على أن صلاح الدين أراد حل
المشكلة سلميا ، ولما أصر أرنط على العناد نذر دمه وأعطى الله عهدا
أن ظفر به أن يستبيح مهجته (٤٣١) .

(428) Setton : A History of the Crusades. 1. p. 581.

(429) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 226.

(٤٣٠) المقيزي : السلوك ج ١ ص ٩٢ .

(٤٣١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٥ .

شن صلاح الدين عدة حملات استطلاعية على المواقع الصليبية ، فأدرك قادة الصليبيين مدى الخطر الذى يتهدهم من المسلمين ، فدخل ريموند الثالث — أمير طرابلس — فى طاعة الملك جاي لوزجنان واتفق معه على أن يعمل تحت قيادته فى مواجهة أى هجوم اسلامى ، وعسكر الصليبيون فى صفورية — قرب عكا — ومعهم صليب للصلبوت فعمل صلاح الدين على استدراج الصليبيين الى طبرية ، فهاجمها ، وكان يحكمها أنشيفا — زوجة ريموند الثالث .

لذا رأى الصليبيون خطورة الموقف ، واتجهوا الى طبرية ، وضمت الحملة ارناط ، وجاي لوزجنان — ملك بيت المقدس — وجيرار دى ريد فورت مقدم الدواوية ، وريموند — أمير طرابلس (٤٣٢) .

اجتمع الصليبيون واحتشدوا للدفاع عن اماراتهم ، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ، ولم تغن عنهم من الله شيئا ، وجمعوا فارسيهم وراجلهم ، ثم ساروا من عكا الى صفورية ، وصار صلاح الدين وجنده وعسكر فى موضع مجاور لطبرية . وصعد المسلمون جبلها وتقدموا حتى اقتربوا من الصليبيين فلم ير منهم أحدا ، ولا فارقوا خيامهم ، وأمر صلاح الدين فرقة من جنده بمنع الصليبيين من القتال ، بينما هاجم طبرية ، وشدد هجماته عليها ، حتى استولى على المدينة عنوة ، ولجا من بها الى القلعة ، واعتصموا بها ، وأطلق صلاح الدين لجنده العنان فى نهب البلدة واحراقها ، عندئذ تقدم الصليبيون نحو معسكر المسلمين حتى اقتربوا منهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، ولم يتمكن الصليبيون من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين ، وكانوا قد أيقنوا ما هناك من ماء الصهاريج ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين ، فبقوا على حالهم الى الغد ، وقد أخذ منهم العطش كل مأخذ ، وقد أدرك المسلمون ذلك ، وتأكدوا أنهم فى وضع أحسن بكثير من وضع العدو ، فباتوا يحرض بعضهم بعضا ، وقد وجدوا ريح النصر والظفر ، وكلما رأوا حال العدو السىء وخذلانهم زاد طمعهم جراتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم (٤٣٣) .

(432) Stevenson : The Cruaders in the East p. 245.

(٤٣٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وأصبح صباح يوم السبت من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م تجمع المسلمون . وتقدموا بقيادة القائد صلاح الدين ، واقتربوا من الصليبيين ، وكان حالهم قد ازداد سوءا بعد أن اشتد بهم العطش ، ودارت رحى معركة بين الفريقين ، وحمى وطيس القتال ، وحاول بعض جنود العدو الاقتراب من طيرية حيث الماء ، فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم . وأمر جنده بالحيولة بين العدو وبين الماء ، وطاف صلاح الدين بنفسه على المسلمين يحرضهم على مواصلة القتال ، والجهاد في سبيل الله غامر المسلمون بأمره ، ووقفوا عندنهم ، نهажم المسلمون — بعد أن استشار القائد حماسهم — أعداءهم حملوا عليه حملة منكرة ، انهكوا قوى العدو ، وقتل منهم كثيرين . ولما رأى الصليبيون أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين ، حاول بعضهم فتح طريق يخرجون منه . وكان بعض المتطوعة قد أشعل في تلك الأرض نارا ، وكانت الأعشاب والحشائش كثيرة ، فاحترقت ، الريح ، فحملت حر النار والدخان اليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال ، وأسقط في يد الصليبيين بعد الهزيمة ، كادوا يستسلمون ، لذلك رأوا أنهم لا يستطيعون النجاة الا إذا شنوا حملات انتحارية على المسلمين . وفعلا هاجموا المسلمين بضراوة وعنف ، الا أن المسلمين — الذين عقدوا العزم على مواصلة النضال مهما كانت التضحيات — تصدوا لهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، حتى وهنوا وضعفوا وتخاذلوا ، وأدركوا أن الهزيمة لاحقة بهم لا محالة وأحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها ، فصعد من استطاع من الصليبيين الى تل بذاحية حطين ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ، ويحمسوا نفوسهم به ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ، واستولى المسلمون على صليبيهم الاعظم المسمى صليب الصليبات (٤٣٤) .

وأعمل المسلمون فيهم السيف حتى أقنوهم ، وبقي ملك بيت المقدس الصليبي على التل مع مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين الشجعان وأسر المسلمون الملك الصليبي وفرسانه عن بكرة أبيهم ، ومن

(٤٣٤) يعتقد المسيحيون أن بهذا الصليب قطعة من الخشب صلب عليها المسيح عليه السلام وكان استيلاء المسلمين عليه من أعظم المصائب عند المسيحيين وأيقن الصليبيون بعده بالقتل والفناء والهلاك .

بين الأسرى أرناط — أمير الكرك — ولم يكن من بين الصليبيين أشد عداً للمسلمين من هذا الرجل ، وأسر المسلمون جماعة من الداوية والاسبتارية وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتل لا يظن أنهم أسروا واحداً ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً (٤٣٥) .

نزل صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد هذا النصر المبين في مخيمه ، وأحضر ملك بيت المقدس عنده ، وأمراء الصليبيين ومن بينهم أرناط ، وأجلس صلاح الدين ، الملك الصليبي إلى جانبه ، وقد أهلكه العطش . وأضناه القتال ، فسقاه ماء فشرب ، وأكرمه ، وقال : إن الملوك لا تتعرض للملوك بسوء ، ولكن صلاح الدين رفض أن يسقى أرناط ، ثم ذكره بذنوبه وآثامه وأخطائه الجسيمة حيال المسلمين ، وقام إليه بنفسه ، وقتله وقال : كنت نذرت دفعتي أن أقتله إن ظفرت به ، أحداها لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ، والثانية لما تعرض للقايلة الإسلامية بالسلب والنهب .

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الصليبيين أقام بموضعه باقى يومه وفى يوم الأحد عاد إلى طبرية ونازلها ، فأرسلت صاحبها أشيفا تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك .

وغادرت البلدة مع جماعتها في أمن وطمأنينة ، ثم أمر صلاح الدين بإرسال الملك الصليبي والأمراء والفرسان الصليبيين إلى دمشق ، وأمر بقتل الأسرى من الداوية والاسبتارية : لأنهم أشد شوكة من جميع الصليبيين ، فأراح المسلمين من شرهم المستطير ، وأمر نائيه في دمشق بقتل من دخل البلدة منهم .

بعد أن استولى صلاح الدين على طبرية ، اتجه إلى عكا ، وحاول أهلها الدفاع عنها ، ولما رأوا قوات المسلمين فزعوا وجزعوا ، وخرج كثير من أهل عكا يضرعون ويطلبون الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وآثروا الخروج عن البلدة خوفاً من المسلمين بما خف حبله ، وغلا ثمنه من الأمتعة والعقاد ، ودخل صلاح الدين عكا ،

(٤٣٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣هـ .

وغنم المسلمون من البلدة مغانم كثيرة لأنها كانت مقصد التجار الصليبيين والروم وغيرهم (٤٣٦) .

بعد ان استولى صلاح الدين على طبرية وعكا ، تفرق جنده في البلاد التي كانت في أيدي الصليبيين مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ، وامتلك العادل - نائب صلاح الدين في مصر - مدينة يافا عنوة ، بينما سار صلاح الدين الى صيدا ، فلما سمع صاحبها بمسير القائد المنتصر الى البلدة ، أسقط في يده ، وغادر البلدة وتركها من غير مدافع ، فلما بلغ صلاح الدين تسلمها ثم سار الى بيروت ، لكنه رأى أهلها قد صعدوا على سورها وتأهبوا للدفاع عنها ، وقتلوا المسلمين قتالا شديدا (٤٣٧) ، الا أن المسلمين لم يخشوا من حناتهم ، بل شددوا هجماتهم عليهم ، حتى وهنوا وضعفوا وأرسلوا الى صلاح الدين يطلبون الأمان على أنفسهم وأموالهم ، فاستجاب لهم ، واستولى على المدينة بعد حصار دام ثمانية أيام ، وأما جبيل فان صاحبها كان في جملة الأسرى الذين سيقوا الى دمشق ، وأطلقه صلاح الدين بعد ان تنازل عن جبيل للمسلمين (٤٣٨) .

وبذلك استولى صلاح الدين على معظم المدن والقللاع والمراكز الساحلية في جنوب بلاد الشام ، الا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحرارا ، وأذن لهم بالمقام في البلاد التي استولى عليها ، أو مغادرتها فقصده معظمهم الى صور حيث احتشدت الجماعات المتخلفة من مملكة بيت المقدس للصليبية وقد أدى ذلك الى صعوبة التغلب عليها ، الأمر الذي لم يقب عن ذهن السلطان صلاح الدين ، فأزمع تأجيل مهاجمتها والاتجاه الى غيرها (٤٣٩) .

ولما استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وغيرهما ، عول على المسير الى عسقلان والقدس ، وعسقلان لها أهمية استراتيجية لصلاح الدين لأنها على طريق مصر . وأيضا تيسر له الزحف الى القدس ،

(٤٣٦) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١١٥ .

(٤٣٧) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٢٥ .

(٤٣٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٣٦ .

(٤٣٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨١٧ .

وكان صلاح الدين يفضل أن تتصل الولايات له ليسهل خروج الجند منها ، ودخولهم اليها ، فسار عن بيروت نحو عسقلان ، واجتمع بأخيه العادل ومن معه من جند مصر ، وهاجموها ، وكان صلاح الدين قد أحضر أسيريه الملك الصليبي ، ومقدم الداوية من دمشق ، وطلب منها أن ييسر له استلام البلدة مقابل أن يفرج عنهما ، فأرسل الأسيران إلى الصليبيين المحاصرين في عسقلان يطلبان منهم التسليم فلم يستجيبوا لطلبهما ، وردوا عليهما أقبح رد ، فلما رأى السلطان صلاح الدين ذلك شدد هجماته على عسقلان ، ونصب المنجنيقات عليهما ، وضرب المدينة بعنف وضراوة حتى أيقن أهلها بعدم استطاعتهم الصمود أمام ضربات المسلمين القوية ، فأجابهم صلاح الدين إليها وسلموا المدينة للمسلمين بعد حصار دام أربعة عشر يوما ، وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ، ووفى لهم بالأمان ، وأعقب الاستيلاء على طبرية ، فتح البلاد المجاورة لها مثل الرملة وغزة ومشهد إبراهيم الخليل وبيت لحم وغيرها (٤٤٠) .

كان لابد لصلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو القائد الذي بذل كل جهده لتحرير الأرض الإسلامية المغتصبة أن يتوج انتصاراته الرائعة على الصليبيين بالعمل على استرداد بيت المقدس الذي أنتزعه الصليبيون من المسلمين في الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، وفعلأ أعد صلاح الدين العدة لاسترداد بيت المقدس بعد أن استولى على عسقلان وما يجاورها ، فأمر قائده اسطوله في مصر بالاقلاع إلى سواحل الشام لمنع وصول الإمدادات إلى الصليبيين في الشام عبر البحر المتوسط ، وهاجم صلاح الدين المدينة المقدسة ، واحتشد الصليبيون للدفاع عنها ، واجتمعوا من كل مكان للدفاع عن البلدة بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على النضال ، ونصبوا المنجنيقات للجيلولة بين أعدائهم وبين البلدة ودارت مناوشات بسيطة ، ثم هاجم صلاح الدين البلدة من ناحية الشمال ونصب المنجنيقات ، ورمى بها ، ودار قتال شديد ، ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين - وتحكم المنجنيقات بالرمي المقدارك ، وتمكن المسلمين من أحداث شغرات في سور البلدة ، وأنهم أشرفوا على الهلاك ، اتفق كبارهم على طلب الأمان ، وتسليم بيت المقدس إلى صلاح الدين ، فأرسلوا

(٤٤٠) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان ، فأظهر صلاح الدين امتناعاً ، ولكن بالبيان قال للسلطان : اعلم أننا في هذه المدينة في قلق كثير ، وإنما يفترقون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه ، وهم يكرهون الموت ، ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فلا بد أن نقتل أبتاعنا ونساعنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوان إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتالاً من يريد أن يحمي دمه ونفسه . وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله . ونموت أعزاء (٤٤١) .

رأى صلاح الدين استلام المدينة صلحاً بعد أن انهكت الحرب جنده وبعد أن ايقن اعتزام الصليبيين الحرب إذا لم يوافق على الصلح ، فبذل للصليبيين الأمان ، وكان للرجل منهم يفقد نفسه بعشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ، والمرأة خمسة دنانير ، والطفل دينارين وأمهاتهم أربعين يوماً ، يغادرون خلالها البلدة بعد أن يؤدوا المبلغ الذي قرره عليهم ، وغادروا البلدة بأمتعتهم ، وتسلمها المسلمون في السرايا والعشرين من رجب ، وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار القدس ، وترك الصليبيون ما لم يستطيعوا حمله من معداتهم وذخائرهم وأمتعتهم وأموالهم وباعوا ذلك بأرخص الأسعار ، وترك صلاح الدين النصارى من أهل القدس الأصليين يعيشون في كنف الحكم الإسلامي في أمن وسلام (٤٤٢) ، كما كان الحال منذ فتح القدس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وتم هذا الفتح سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م .

لما استرد صلاح الدين القدس عمر البلدة التي خربتها ودمرتها قوى البغى والعنوان ، ولقد ذكرنا أن صلاح الدين استرد القدس في ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم ، ويذكر ابن شداد أن هذا الفتح العظيم شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ،

(٤٤١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٤٤٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣هـ .

وذلك ان الناس لما بلغهم انباء هذا النصر ، قصد العنماء من مصر ومن الشام القدس وارتفعت الأصوات بالدعشاء والضجيج والتهليل والتكبير ، وخطب في المسجد الأقصى ، وصلى فيه الناس يوم فتحه ، وأمر القائد بحط الصليب الذي كان على قمة الصخرة ، وجمع صلاح الدين الأموال من الصليبيين الذين غادروا البلدة ، وفرقها على الأبراء والعلماء (٤٤٣) .

وبذلك استرد المسلمون القدس ، وكان صلاح الدين - كما رأينا - متسامحا كريما مع الصليبيين ، فلم يعمل فيهم السيف ، كما فعل الصليبيون في الحملة الأولى عند استيلائهم على القدس .

لما توطدت أقدام المسلمين في القدس والمدن الساحلية ، اعتزم صلاح الدين فقطع صور ، لأن فتحها كان أمرا لا بد منه لأن الصليبيين الفارين من الغزو الإسلامي ، احتشدوا بها ، فضلا عن الإمدادات التي كانت تصلها من أوروبا ، وهاجم صلاح الدين البلدة ، وضايقها وقائلها قتالا عظيما ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر ، ولكن الأسطول الصليبي هاجم الأسطول الإسلامي - ودمره ، وقتل في هذه الواقعة الكثير من المسلمين ، ورأى صلاح الدين أنه لا يستطيع البقاء طويلا في المعركة بعد أن هجم الشبتاء ، وتراكت الأمطار . فقرر الانسحاب من البلدة ، ليأخذ جندة قدرا من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعدادا جديدا ، ففرق العساكر ، وسار كل قوم إلى بلادهم ، وكان عددا كبيرا من قواته من بلاد الجزيرة ، انسحبت إلى ديارها بعد أن أدت واجبها خير أداء . أما السلطان فقد عاد إلى عكا مع جماعة من خواصه حتى دخلت سنة ٥٨٤ هـ ، وعادت الحروب الصليبية من جديد .

ذلك أن الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين على الصليبيين أحدثت دويا هائلا في أوروبا ، فارتفعت الصيحات مطالبة باسترداد بيت المقدس ، وخرجت من أوروبا إلى الشرق الحملة الصليبية الثالثة لهذا الغرض ، وتزعمها ثلاثة من كبار ملوك أوروبا ، هم فردريك باربروسا - امبراطور المانيا - وفيليب أغسطس - ملك فرنسا - ورتشارد قلب

(٤٤٣) النوادر السلطانية ص ٦٦-٦٧ .

الأسد — ملك إنجلترا — غير أن إمبراطور المانيا مات غرقا ، وهو في طريقه الى الشام . لذلك تشتت شمل جنده ، ولم يصل منهم الى عكا سوى عدد قليل . أما رتشارد وحليفه فيليب فقد نجحوا في الاستيلاء على عكا . في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م رغم استبسال المسلمين في الدفاع عنها . ولم يلبث أن عاد فيليب الى فرنسا ، وبقي ملك إنجلترا في الشام يحارب المسلمين : فاستولى على أرسوف ويافا وحصنهما من جديد . واعتزم استرداد بيت المقدس . وعلى الرغم من سيطرته على المدن الساحلية ، فإنه تفاوض مع صلاح الدين في الصلح ، وأدت هذه المفاوضات الى صلح الرملة .

كانت الحالة في إنجلترا تستدعي عودة رتشارد قلب الأسد إليها . وبسبب التنافس بينه وبين الأمراء الصليبيين في الشام ، كما أنه أدرك أنه يتعذر عليه الاستمرار في انتصاراته على المسلمين لحرصهم على مواصلة النضال لتحرير بلادهم ، لذلك عقد ملك إنجلترا صلح الرملة مع صلاح الدين ويتضمن الشروط الآتية :

- ١ — تخريب عسقلان لأنها مفتاح بيت المقدس .
- ٢ — يحكم الصليبيون الساحل من صور الى يافا . ويكون جنوبي ذلك الساحل لصلاح الدين ، وتقع في حدوده بيت المقدس .
- ٣ — يسمح للمسيحيين بالحج الى بيت المقدس في أمن وسلام (١٤٤) .

(٤٤٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٦٢ .

الحياة الثقافية في بلاد الجزيرة

لم يأل أتابكة الموصل والجزيرة جهداً في تشجيع الحركة الثقافية ، فأنشأوا المدارس وشجعوا أساتذتها وطلابها على تأدية مهامهم ومن أبرز الأدلة على ذلك المدرسة التي أسسها الاتابك سيف الدين غازي في الموصل — وهي من أحسن المدارس — ووقفها على الفقهاء الحنفية والشافعية ، وبنى رباطاً للصوفية بالموصل (١) ، وكان عماد الدين زنكي ابن مودود صاحب سنجار يقدر أهل العلم والدين .

كذلك شيد مجاهد الدين قيعاز — وزير قطب الدين مودود — المدارس بالموصل : وكان خيراً فاضلاً عالماً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر شيئاً كثيراً (٢) .

وقد نبغ شيوخ في بلاد الجزيرة قاموا بالتدريس ، وتخرج على أيديهم الكثير من العلماء الأفاضل ، نخص بالذكر منهم أبو العباس أحمد ابن عبد الرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان ، وكان عالماً في مجالات شتى مثل الفقه والأصول والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك (٣) .

من شيوخ هذه البلاد أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي ، كان إماماً في الفقه مدرساً صالحاً كثير الصلاح (٤) ، أما الشيخ مكي بن ريان فكان عالماً بالنحو واللغة والقراءات ، ولم يكن في زمانه مثله ، وكان يعرف سوى هذه العلوم ، إذ عرف بسعة اطلاعه وتعدد اهتماماته وتردد عليه الطلاب من كل مكان . وكانت حلقات درسه تعقد في الصباح المبكر حتى الليل (٥) .

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر من ١٩٢ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٥ هـ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٥٩٦ .

(٥) المصدر السابق حوادث سنة ٦٠٣ هـ .

ومن ابرز علماء بلاد الجزيرة في العصر الاتابكي الاخوة مجد الدين وعز الدين ضياء الدين . وهم أبناء محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالحوحد الشيباني ، وكان موظفا عند اتابكة الموصل منذ حكم عماد الدين زنكى ، وولى ديوان جزيرة ابن عمر من قبل قطب الدين مودود بن زنكى - اتابك الموصل - ثم انتقل الى الموصل ، وكان من اهل الشراء (٦) .

اما مجد الدين ابو السعادات المبارك فقد اتصل بخدمة الأمير مجاهد الدين قيمانز ، وكتب بين يديه حتى وفاته سنة ٥٩٥هـ ثم اتصل بخدمة عز الدين مسعود .

ولما آل ملك الموصل الى نور الدين أرسلان شاه أرسل اليه مملوكه لؤلؤ يرجوه قبول الوزارة فأبى ، ويقال : قد كبرت سننى واشبهت بطلب العلم ، ولا يصلح هذا الأمر الا بشيء من العسف والظلم ، ولا يليق بى ذلك فأعفاه . ثم اتصل بنور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود فحظى عنده ، وتوفرت جريته لديه ، وكتب له مدة حتى اتعده المرض ، فاعتزل في داره ، وظل منزله مقصد العلماء والأدباء ، وصنف كتبه كلها في مدة اعتزاله العمل ، وكان عنده جماعة يعينونه في الاختيار والكتابة ، وقد صنف الشيخ في سائر العلوم كتابا مفيدة نها وجامع الاصول في أحاديث الرسول ، جمع فيه الموطأ والصحيحين وسنن أبى داود والنسائي والزمخشري .

وله كتاب النهاية في غريب الحديث في خمس مجلدات ، وكتاب الأنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف في أربع مجلدات ، وله كتاب المنطقي والمختار في الأدعية والافتكار ، وكتاب البديع ، وله ديوان الرسائل ، وكتاب الشافى في شرح مسند الإمام الشافعى ، وبالجملة كان عالما في عدة علوم منها الفقه وعلم الأصول والنحو والحديث واللغة وتصانيف مشهورة في التفسير الحديث (٧) .

اما ضياء الدين فانه ولى الوزارة للملك الأفضل صلاح الدين

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٤ .

صاحب دمشق — فأساء السيرة ، وثار عليه الناس ، وكادوا يقتلونه ، ولما خرجت دمشق في يد الأفضل ، التحق بخدمة الظاهر غازي صاحب حلب — ولكنه غضب عليه ، وتنحى عن عمله ، وعاد الى الموصل ، غير انه لم يستبر في الإقامة بها ، فرحل منها الى اربل ثم سنجار ثم عاد الى الموصل واستقر به المقام هناك ، وشغل وظيفة كاتب الانشاء لباصر الدين محمود بن الملك القاهر .

وترجع شهرة ضياء الدين على الأخص الى أنه كان من أصحاب الأساليب ، ومن أهم كتبه ، كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، وهو مجلد قيم في فن الكتابة ، ولما فرغ من تصنيفه وصلت نسخة منه الى بغداد ، وتصدى لمؤاخذته الفقيه الأديب ابن أبي الحديد المداينى . وجمع هذه المؤاخذات في كتاب « الفلك الدائر على المثل السائر » وله كتاب « اللوئى المرقوم في حل المنظوم » وهو كتاب موجز يفيد قارئ الأدب وله كتاب « المعانى المخترعة في صناعة الانشاء » وله مجموعة شعرية ، تضمنت أشعار أبى تمام المتنبى في مجلد واحد ، وله أيضا ديوان ترسل في عدة مجلدات ، والمختار منه في مجلد واحد ، وله عدة رسائل ، منها رسالة يصف فيها الديار المصرية ، وهى طويلة ، ومن جملتها فصل في صفة نيلها وقت زيادته ، وهو معنى بديع وغريب (٨) .

وكان لتكوين ضياء الدين الثقافى أكبر الأثر فيما بلغه من سعة في العلم ، فقد حفظ القرآن الكريم . وكثيرا من الأحاديث النبوية ، ودرس النحو واللغة والبيان ، وشيئا كثيرا من الأشعار ، حتى قال في أول كتابه الذى سماه « اللوئى المرقوم » : وكنت حفظت من الأشعار القديمة والحديثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر أبى تمام والبحتري والمتنبي ، فحفظت دواوينهم ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعانى ، وصار الإدمان لى خلقا وطبعاً . . والمنشئ ينبغى أن يجعل دأبه فى الترسل حل المنظوم ، ويعتمد عليه فى هذه الصناعة (٩) .

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٨-٢٢ .

(٩) المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ .

وتوفي ضياء الدين في بغداد سنة ٦٣٧ هـ .

أما عز الدين أبو الحسن علي بن محمد فهو الأخ الثاني لمجد الدين وضياء الدين . ولد عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م في جزيرة ابن عمر . وتوفي في الموصل سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م ، وهو صاحب الكتب التاريخية التي أشهرها « الكامل في التاريخ » وصنف كذلك تاريخا لدولة أتابكة الموصل والجزيرة يسمى « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » كما صنف معجما مرتبا على حروف الهجاء عن الصحابة عنوانه « أسد الغابة في معرفة الصحابة » ولخص كتاب الأنساب للسمعاني بعنوان اللباب ، على أن كتابه الكامل في التاريخ أهم مؤلفاته جمعا بل من أبرز المراجع التاريخية قاطبة ، وينتهي بحوادث سنة ٦٢٨ هـ .

تلقى عز الدين العلم في الموصل وفي بغداد ، كما رحل الى بلاد الشام ، ووقف بقية حياته على العلم الذي انقطع له ، وقد استفاد ابن الأثير من شيوخ عصره بالجزيرة والعراق والشام ، فسمع بالموصل من خطيبها عبدالله بن أحمد الطوسي ، وسمع ببغداد من أبي القاسم يعين بن صدقة الفقيه الشافعي ، وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي ، وسمع بدمشق من بعض العلماء ، وعاش ابن الأثير منقطعاً الى العلم تحصيلاً وتدريساً وتصنيفاً ، وقد قام ببهمة السفارة لبعض حكام الموصل لدى المستوليين في بغداد .

وقد روى عن ابن الأثير غير واحد من جلة العلماء ، فقد ذكر ابن خلكان أنه لقيه في حلب ، وتلمذ عليه ، وروى عنه أيضاً (١١) .

قلنا ان كتاب الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير أشهر مصنفاته ، ويقع في اثني عشر جزءاً ، وكان جل اعتماده في الأجزاء السبعة منه على أبي جعفر الطبري ، وقد اختصر الطبري ، فحفظ الأسانيد ، وترك الاسهاب . واكتفى بالرواية الواحدة ، وهذا أمر ييسر للقارئ مهمته ، خصوصاً أن صاحبنا لا يذكر الا الرواية المرجحة ، ولم يعتمد ابن الأثير على كتاب « تاريخ الامم والملوك » للطبري فقط بل اعتمد كذلك .

(١٠) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٢ ص ٢٠٨ .

(١١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٢ ص ٢٠٨ .

كتب التاريخ الأخرى مثل « فتوح البلدان » للبلاذرى ، ومروج الذهب ، للمسعودى وذلك حرصا منه على ذكر صورة كاملة متكاملة لتاريخه . واعتمد ابن الأثير بعد الجزء السابع من كتابه الكامل - على المراجع التاريخية الأخرى .

والواقع أن ابن الأثير كان حريصا على ذكر الرواية الصحيحة ، وأحيانا ينقد الكتب التى تتناول موضوعات لا يرى دقتها .

وقد أوضح ابن الأثير فى مقدمة كتابه المراجع التى اعتمد عليها ، والأسباب التى دعت به الى تصنيف هذا الكتاب ، فيقول شرعت فى تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب ... فابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الامام أبو جعفر الطبرى فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها الى ما نقلته من تاريخ الطبرى ما ليس فيه ووضعت كل شئ منها موضعه ... على أنى لم أنقل الا من التواريخ المذكورة ، والكتب المشهورة ، ممن أعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه (١٢) .

ويقول عن علم التاريخ : « هو الحافظ للعلوم ينقلها من الماضى الى الحاضر والآتى ، الكافل بتبيان صورة تدوينها مع التنويه بأسماء المؤسسين والناشرين والمحققين ، وهو الناقل لنا صور الماضى وما فيه من حوادث وقصص غيرها لتكون خير مرشد للمتأخرين ، هو نعم الداعى الى الفضيلة باذاعة مناقب أرباب الكمال وأولى النهى والمزايا العظيمة . وأحسن زاجر للطفاة عن طغيانهم بما يسود صفحاته من أعمالهم ... وهو السلسلة التى تربطنا بمن قبلنا ، وبما كانوا عليه ، وما صدر عنهم وفيهم من الأحوال والشؤون (١٣) .

وقد تحامل ابن الأثير على الذين يقللون من أهمية علم التاريخ فقال : ولقد رأيت جماعة ممن يدعى المعرفة والدراية ويظن بنفسه التحجر فى العلم والرواية ، يحتقر التواريخ ويزدريها ظنا منه أن غاية فائدتها

(١٢) مقدمة كتاب الكامل فى التاريخ .

(١٣) مقدمة كتاب الكامل فى التاريخ .

انما هو التخصص والأخبار : ونهاية معرفتها الأحاديث والأسفار ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره . . ومن رزقه طبعاً سليماً وهذه صراطاً مستقيماً علم أن نوائدها كثيرة . . .

فمنها أن الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء . . فيأبى أن يموت . . . ففرق بين ما رآه أمس أو سمعه ، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ، فإذا طالعها فكأنه عاصرهم . وإذا علمها فكأنه حاضرهم (١) .

ومن علماء الموصل المشهورين بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ، ولد بالموصل ، وتوفي أبوه وهو لا يزال غرا صغيراً ، فنشأ عند أخواله بنى شداد ، فنسب إليهم ، وكان شداد جده لأمه ودرس الدين واللغة والتاريخ والأدب ، وتعمق في دراسة هذه العلوم ، وقد أهله ذلك لوظائف القضاء والتدريس ، فقد درس في الموصل ، كما رحل إلى بغداد ، ودرس في المدرسة النظامية على شيوخ هذه المدرسة ، وقد نبغ في دراسته حتى أن شيوخه عينوه معيداً في هذه المدرسة ، وعمل بها ثلاث سنوات ، وعاد إلى الموصل وصار مدرساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب ، وذاع صيته .

ولما لمس فيه أتابك الموصل رجاحة العقل ، وسداد الرأي ، عهد إليه بالسفارة في أمور سياسية باللغة الخطورة والأهمية إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد الخلافات الشديدة بينه وبين صلاح الدين عقب وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م .

وشرع صلاح الدين في مهاجمة الموصل بعد أن اتضح له أن أتابكها يحرض أعداءه عليه فتوجه ابن شداد رسولاً من أتابك الموصل عز الدين مسعود إلى الخليفة العباسي يطلب منه تسوية الخلافات بينه وبين صلاح الدين ، فأنفذ الخليفة شيخ الشيوخ في بغداد إلى صلاح الدين ليدل مساعيه الحميدة لانتهاء الخلافات بين الزعيمين .

(١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ .

وفي العام التالي توجه ابن شداد الى صلاح الدين ضمن وفد لتسوية الخلافات بين أتابك الموصل وصلاح الدين ، وعلى الرغم من فشل هذه السفارة ، فانها أدت الى تعرف صلاح الدين على ابن شداد ، وقد قدره ، وعرض عليه أن يقوم بالتدريس في مصر ، ولكنه اعتذر ، وظل أمير الموصل يعهد الى ابن شداد بمثل هذه المهمات السياسية (١٦) .

ولما استرد صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة القدس ، زارها ابن شداد ، ثم قدم الى دمشق ، واستدعاه صلاح الدين ، وأكرم وفادته ، وسأله عن مشايخ العلم ، وطلب منه أن يقرأ له جزء أجمع فيه أحاديث البخاري ، وقدم اليه ابن شداد كتابا ألفه في أثناء إقامته في دمشق عن « الجهاد أحكامه وآدابه » فأعجب السلطان صلاح الدين ، وكان يلزم مباحثته ، وعاد صلاح الدين يعرض على ابن شداد الدخول في خدمته ، فوافق ابن شداد بعد تردد ، ومن ذلك الوقت سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ساعة من ليل أو من نهار حتى حضر وفاته وتولى لصلاح الدين وظائف القضاء والحكم بالقدس الشريف (١٦) .

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين ، توجه ابن شداد الى حلب ، وبذل جهودا مفضية لجمع كلمة أولاد صلاح الدين ، ولم يلبث أن تولى القضاء في حلب ، وظل يواصل محاولاته ، لوقف الخلافات بين أمراء بني أيوب في الشام ومصر ، وقام بعدة رحلات بين مصر والشام لهذا الغرض ، وازداد نفوذه زمن السلطان الظاهر وابنه العزيز ، فلم يكن لأحد في الدولة معه كلام ، ولما بلغ العزيز أشده ، استبد بالحكم ، واستند في إدارة دولته الى جماعة لم يرض عنها ابن شداد ، فاعتزل السياسة ، ولزم داره ، ودأب على أن يسمع الحديث لمن يقدم عليه من المريدين بعد صلاة المغرب وصلاة العشاء من كل يوم ، ونشطت في زمنه حركة الدراسة والقلم بفضل ما أنشأه من مدارس ، وتوفي في حلب سنة ٦٢٢هـ .

ولما كان ابن شداد ثقة عالما بالدين ، فقد اشتهر اسمه ، وسار ذكره ، وكان ذا صلاح وعبادة .

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ .

ولابن شداد عدة مؤلفات منها : تاريخ حلب ، ودلائل الأحكام في الفقه ، وملجأ الأحكام عند التباس الأحكام ، على أن أهم كتبه : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » قسمة قسمين الأول في نشأة صلاح الدين وأخارته ، والثاني في بعض وقائعته وغزواته (١٧) .

ويختلط اسم القاضي ابن شداد باسم مؤرخ عربي يحمل نفس الاسم ، وهو عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم توفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وقد صنف كتابا قيما عنوانه « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » (١٨) .

نشطت الحركة العلمية في أربل في أواخر العصر العباسي ، وتجلت ذلك في المدارس العديدة التي أسسها حكام هذه الأتابكية ، وقد تخرج من هذه المدارس رجال شغلوا وظائف رئيسية في البلاد الإسلامية ، فكان منهم النحوي والمحتسب والفقهاء والأديب والشاعر ، ومن بين هذه المدارس ، مدارس أنشأها مظفر الدين كوكبوري لتدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي ، وقام بالتدريس فيها شيوخ أجلاء ، نخص بالذكر منهم محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان (ت سنة ٦١٠هـ) وهو والد المؤرخ المشهور قاضي القضاة ابن خلكان ، صاحب كتاب وفيات الأعيان ، ومن أساتذة مدارس أربل أحمد بن موسى بن منعة الذي قام بالتدريس للشيخ الجليل ابن خلكان ، ويقول عنه : أنه كان فاضلا عاقلا حسن السميت جميل المنظر ، كثير المحفوظات غزير المادة ، حسن الالتقاء - فصيح اللسان ، قوى البيان . ابن خلكان : (وفيات الأعيان ج ١ ص ٩٠) وقام بمهمة التدريس فيها عمر بن إبراهيم (ت ٦٠٩) عم المؤرخ ابن خلكان .

ومن أساتذة مدارس أربل أبو العباس الخضر بن نصر الأربلي (ت ٦١٩) كان فاضلا فقيها عارفا بالمذهب والفرائض والخلاف ، تتلمذ في بغداد على يد عدد من المشايخ ، ثم رجع إلى أربل ، وله تصانيف خسان كثيرة في التفسير والفقه وغير ذلك وله كتاب ذكر فيه سقا

(١٧) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٨٠-١٥٩ .

(١٨) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٥ .

وعشرين خطبة للرسول ، وكلها مسندة ، وتتلّمذ عليه خلق كثير ، وانتفعوا به وكان رجلا صالحا زاهدا عابدا ورعا ، ومن جملة من تخرج عليه الشيخ الفقيه ضياء الدين أبو عمرو عثمان بن عيسى بن درباس الهذبانى شارح المذهب ، وتخرج عليه ابن أخيه أبو القاسم نصر بن عقيل ابن نصر (ت ٥٦٧هـ) (١٩) .

ولما توفى تولى ابن أخيه مكانه فى المدرستين ، وسخط عليه مظفر الدين كوكبورى - أتابك أربل - وأخرجه منها ، وانتقل الى الموصل ، وسكن عز الدين ظاهر الموصل فى رباط ابن الشهرزورى وقرر له صاحب الموصل راتبا . وتوفى بها سنة ٦١٩هـ (٢٠) .

وممن اشتهر بالفتوى العالم الفقيه كمال الدين سار بن الحسن بن عمر بن سعيد الأربلى المتوفى سنة ٥٦٧هـ ، وذاعت فتاواه فى الشام ، وسارت مسير الشمس فى النهار (٢١) .

ونبغ فى مدرسة أربل القاضى والمؤرخ ابن خلكان صاحب الكتاب المشهور « وفيات الأعيان وأنباء الزمان » الذى تضمن ترجمة لرجال الفكر والسياسة والحرب المسلمين الذين لعبوا دورا بارزا فى الحياة الاسلامية . وهذا الكتاب يعتمد عليه كل المهتمين بالدراسات الاسلامية ، وابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم ، درس فى مدارس أربل ، وتلقى الدراسات الدينية من والده ، ولما توفى والده ، انتقل الى الموصل ، ودرس على علمائها هناك ، ثم وأصل رحلاته فى طلب العلم والتزود بالمعرفة : فانتقل الى حلب وأقام بها عند الشيخ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد ، وتلقى منه علم الفقه ، ودرس النحو فى حلب ، ثم رحل الى دمشق واتصل بابن الصلاح ، وتتلّمذ عليه ، ثم غادر دمشق الى القاهرة ، وشغل وظيفة القضاء فى بعض مدن مصر ، ثم عاد الى الشام حيث ولى قضاءه ، وتوفى سنة ٦٨١هـ (٢٢) .

(١٩) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج٤ ص ١٢٢

(٢٠) المصدر السابق ج٥ ص ٣٣٩ .

(٢١) المصدر السابق ج٥ ص ٦٦١ .

(٢٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص ٢١١ .

ولقد اعتمد ابن خلكان كثيرا في تراجمه التي أوردها في كتابه على ابن المستوفى ، آخر وزراء أربل على عهد مظفر الدين — إذ صنف ابن المستوفى تاريخا في أربع مجلدات ، وكتابه عبارة عن تراجم ، فقدت ، وكان ابن المستوفى أدبيا كبيرا وشاعرا ومحدثا ، يعقد الندوات الأدبية التي تضم كبار الأدباء والشعراء والفقهاء ، وهو من بيت علم ، ينبغ من أسرته علماء أجلاء ، كان عمه صفى الدين أبو الحسن على بن المبارك يتقن اللغتين العربية والفارسية ، فترجم كتاب «نصيحة الملوك» للإمام الغزالي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ، ويذكر ابن خلكان عن ابن المستوفى « كثير التواضع ، واسع الكرم ، لم يصل إلى أربل أحد من الفضلاء إلا بادر إلى زيارته ، وحمل إليه ما يليق بحاله ، ويقرب إلى قلبه بكل طريق ، وخصوصا أرباب الأدب ، فقد كانت سوقهم لديه نافقة ، وكان جم الفضائل ، عارفا بعدة فنون ، منها الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به ، وكان اماما فيه ، ماهرا في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم البيان .

وإذا تتبعنا حياة ابن خلكان العلمية نراه قد استفاد فائدة كبيرة من النشاط الثقافي في بلاد الجزيرة ، فسمع صحيح البخاري بمدينة أربل على الشيخ الصالح أبو جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبدالله الصوفي ، وتفقه في الموصل على كمال الدين بن يوسف ، وأخذ بطلب عن القاضي بهاء الدين بن شداد ، وقرأ النحو على أبي البقاء يعيش بن علي النحوي ، وتدرج في وظائف القضاء — كما ذكرنا — حتى ولى منصب قاضي قضاة الشام ، وأقيم معه القضاة الثلاثة على مذاهب مالك وأبي حنيفة وابن حنبل ومذهبه مذهب الشافعي .

ولقد نسج ابن خلكان على منوال والده في التفنن بالعلوم وتخرج عليه كثير من الطلاب ، فلا غرو إذن أن ينشأ ابن خلكان على حب العلم حتى برع ، وصار بصيرا بالعربية أدبيا شاعرا عالما بأيام الناس ، كثير الاطلاع (٢٣) .

قلنا ان كتاب وفيات الاعيان من أهم الكتب الاسلامية ، وهو مختصر في علم التاريخ ، ويقول : دعاني إلى جمعه انى كنت مولعا بالاطلاع

(٢٣) وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٩٤ .

على أخبار المتقدمين من أولى النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم ومن جمع منهم في كل عصر ، فوقع لى منه شيء حملنى على الاستزادة غعبدت الى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن ، وأخذت من أقوال الأئمة المتقنين له ما لم أجده في كتاب ، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندى على مسوائد كثيرة في سنين عديدة وغلق على خاطرى بعضه ، فصرت اذا احتجت الى معاودة شيء منه لا أصل اليه الا بعد التعب في استخراجه لكونه غير مرتب ، فاضطرت الى ترتيبه فرائيته على حروف المعجم أيسر على السفين فعدلت اليه ولم أذكر في هذا المختصر أحدا من الصحابة ولا من التابعين الا جماعه يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس الى معرفة أحوالهم وكذلك الخلفاء ، وذكرت جماعه من الأفاضل الذين شاهدتهم ، ونقلت عنهم أو كانوا في زمنى ، ولم أرهم ليطلع على حالهم من يأتى بعدهم ، ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الوزراء أو الشعراء بل كل من له شهرة بين الناس .

وجدير بالذكر أن ابن خلكان استقى معلوماته في هذا الكتاب من ثلاثة مصادر ، أولها ما قرأه في الكتب المصنفة قبله ، وكان مولعا بمراجعتها والافادة منها ، والمصدر الثانى الدروس التى تلقاها من مشايخه الثقات ، والمصدر الثالث اعتمد فيه على مشاهداته الخاصة ، ولهذا سقى كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته الأعيان ، وقد لاحظ الأستاذ المرحوم محبى الدين عبد الحميد الذى بذل جهدا مشكورا في تحقيق الكتاب — أن ابن خلكان حين ينقل من الكتب المصنفة لا يقف عند النقل ، ويلقى عهدته على صاحبه شأن كثير من المصنفين ، ولكنه يزن الكلام ويفحصه .

وقد نبغ أدباء في أربل مثل مجد الدين أسعد بن ابراهيم بن حسن ابن على الشيبانى النشابة الأربلى ، وكان يخاطب ابن المستوفى بالشمر .

تعددت المجالس الدينية في أربل بسبب تشجيع أمرائها ووزرائها ولقد حرص مظفر الدين كوكبورى على اقامة الندوات الدينية ، اذ كان شديد الميل الى أهل السنة والجماعة لا يجتمع عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين ، ووفد على أربل في أيامه العلماء والأدباء وقد حظوا منه بكل تشجيع وتأييد . وقد حرص مظفر الدين

على إقامة حفلات كبيرة في كل سنة بمناسبة مولد الرسول الكريم ، ولم يكن هذا الاحتفال مجرد استماع لأغاني وأناشيد دينية ، بل كانت تعقد فيه ندوات يقوم فيها الوعاظ والعلماء بالتحدث عن سيرة الرسول والقراء الأحاديث الدينية ، وكان الناس من البلدان المجاورة يفدون على أربل على اختلاف طبقاتهم خصوصاً الفقهاء والمحدثون والأدباء والشعراء . وهؤلاء العلماء يبرزون معارفهم في ندوات المولد الشريف وينالون من الأمير الأربلي كل عطف وتعظيم .

ولم يهتم مظفر الدين كوكبوري بالحركة الثقافية في أربل فحسب ، بل تجاوز اهتمامه دائرة حكمه ، فبنى في مدينة الموصل داراً للحديث ، ليستفيد منها الراغبين في دراسته ، وسميت بدار الحديث المظفرية .

ومن علماء أربل المشهورين الحسين بن إبراهيم الهذلي وهو من علماء اللغة والحديث ، وقد تناول مع بعض العلماء مسند ابن حنبل بالترتيب على أبواب الفقه وتوفي سنة ٦٥٦ هـ ، ولا ننسى ما قام به شمس الدين ابن الخباز من جهود في علم النحو .

وقد نبغ في أربل ابن سراقه الشاطبي ، وهو من الأندلس ، وحل إلى الشرق ، وتنقل بين عدة مدن حتى انتهى به المطاف في بغداد ودرس الحديث بها ، ثم انتقل إلى أربل ، وقرأ الحديث بها على المحدث أبي الخير بدل التبريزي .

ومن أشهر أدياء أربل ، أبو البركات المبارك بن أبي الفتح محمد ، المعروف بابن المستوفي — آخر وزراء أربل على عهد مظفر الدين كوكبوري وقد نبغ في مجالات الأدب والشعر والحديث والنحو واللغة ، وكان يعقد المجالس العلمية التي تضم الأدياء والشعراء والفقهاء ، ويقول عنه ابن خلكان : كان رئيساً جليلاً ، القدر ، كثير التواضع ، واسع الكرم ، لم يصل أحد إلى أربل من الفضلاء إلا بادر إلى زيارته ، وحمل إليه ما يليق بحاله ، ويقرب به إلى قلبه بكل طريق . وخصوصاً أرباب الأدب ، فقد كانت سوقهم لديه نافقة ، وكان جم الفضائل ، عارفاً بعدة فنون ، منها

(٢٤) اليونيتي : نيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٠٤ .

الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به ، وكان اماما عليه ، وكان ماهرا في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم البيان ، وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها . وكان بارعا في علم الديوان وحسابه وضبط قوائمه على الأوضاع المعتمدة عندهم .

ومن أهم مصنفات ابن المستوفى كتاب تاريخ اربل ، ويقع في أربع مجلدات ، ويتضمن تراجم لأعيان هذه البلاد . وأناد ابن خلكان في تصنيف كتابه « وفيات للأعيان » ، وهذا الكتاب فقد .

وقد ساهم ابن المستوفى في نشاط الحركة الأدبية في اربل من جراء الندوات الأدبية التي كان يعقدها في منزله ، وكان يشجع الشعراء بصفة خاصة ، ويحب أن يخاطبهم ويخاطبوه بالشعر (٢٦) .

والخلاصة أن الحياة الثقافية في بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي اشتملت على العلوم الدينية والأدبية واللغوية فقط ، ولم تتضمن العلوم العقلية كالفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات ، وتجلي النشاط الثقافي في المدارس العديدة التي أنشأها الأتابكة ، ونلاحظ أن علماء ذلك العصر لم يجردوا ولم يبتكروا في تصانيفهم ، وإنما اقتصررت اهتماماتهم على تلخيص أو النقل من كتب السابقين .

(٢٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص ٢٩٤ .

(٢٦) المصدر السابق .

انحلال دول أتاتكة الموصل

والجزيرة وزوالها

تعرضت بلاد الموصل والجزيرة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري للغزو المغولي . مما أدى الى ضعفها وانهيارها ، ففي الموصل اضطر صاحبها بدر الدين لؤلؤ الى اظهار ولائه لهولاكو ، وارسل الاموال اليه ، واشترك معه في بعض غزواته (١) ، ولما توفي سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ م) ، خلفه ابنه الملك الصالح بعهد من هولاكو (٢) ، غير أنه لم يلبث أن رحل عن الموصل بسبب تدخل المغول في امارته ، ولجأ الى السلطان الملك الظاهر بيبرس في مصر ، فأكرم وفادته ، وعين له راتبا شهريا (٣) . ثم أعاده الى الموصل على رأس ألف فارس فدخلها قبل قدوم المغول اليها (٤) ، وأغلق أبوابها . وكان بها جيش كبير من الاكراد والتركمان ، فوزع عليهم الرواتب الوفيرة ، وحشهم على القتال .

ولما بلغ المغول الموصل ، نازلوا أهلها وأقاموا المتاريس ، ونصبوا المجانيق ، وتآهب أهلها لقتالهم (٥) ، فاضطر هولاكو الى ارسال جيش آخر لاختصاصهم واعترض جيش المغول قوات الظاهر بيبرس التي قصدت الموصل لنجدتها عند سنجار (٦) ، ودارت بين القوات المغولية والقوات المملوكية معركة ، قتل فيها كثير من جند السلطان بيبرس . ولم ينج مذهب الا من استطاع الفرار من هذه المعركة (٧) .

أدى حصار المغول للموصل الذي استمر ستة أشهر الى اضطراب كثير من أهلها الى الرحيل الى الصحراء ، فساروا طعمة لسيوف المغول ،

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٥١ .

(2) Howorth : History of the Mongols. vol. 4. p. 181.

(٣) قطب الدين البعلبكي : نيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٥٢

(٤) نفس المصدر ج٢ ص ١٥٦ .

(٥) رشيد الدين فضل الله الهمزاني : جامع التواريخ - المجلد الثاني ، تاريخ المغول .

(6) Howorth : History of the Mongols. vol. 4. p. 181.

(٧) قطب الدين البعلبكي : نيل مرآة الزمان ج٢ ص ١٥٦ .

ولما اشتد بهم الكرب ، أرسل الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل — الى سند ياغو — قائد المغول يطلب الأمان ويقول : « انى نادم على ما فعلت ، وسأخرج اليك لاتلافى ما فات ، ولكن بشرطن . أحدهما : ألا تأخذنى بأخطائى السابقة ، وثانيهما : أن تبعث بى الى هولاكو خان وتشفع لى عنده حتى لا يهدر دمي » ، فأمنه القائد المغولى . وخرج اليه يحمل الهدايا والأموال ، ولم يسمح للصالح بالمثل أمام هولاكو ، وأمر بعض جنده بقتله (٨) .

دخل المغول الموصل فى رمضان سنة ٦٦٠ هـ ، ونكلا بسكانها ، وأسروا بعض أرباب الحرف والصناعات ، بحيث لم يبق فى هذه المدينة احد (٩) ، وهكذا زالت أتابكية الموصل .

كذلك استولى المغول على سنجان اثناء حصارهم الموصل سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م ، وان الملك الأشرف بن العادل الأيوبرى قد أخذ سنجان من أتابكها محمود بن محمد زنكى الثانى سنة ٦١٧ هـ (١٠) / ١٢٢٠ م ، وظل الأيوبيون يحكمونها حتى استولى عليها بدر الدين لؤلؤ — أتابك الموصل — سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٣٩ م ، وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ م) فخلفه ابنه علاء الدين الذى استمر يلى أمرها حتى دخلت فى حوزة المغول (١١) .

(٨) رشيد الدين فضل الله الهمزانى : جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، ج١ ص ٢٢٨ .

(٩) قطب الدين البعلبكى : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص ١٥٩ .

(١٠) هاجم محمود بن محمد بن زنكى قرى الموصل بتحريض من عماد الدين أحمد بن على المشطوب الذى خرج على الملك الأيوبرى الأشرف موسى بن الملك العادل ، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل وهاجم ابن المشطوب بقتل أعقر واستولى عليه ، وقبض على ابن المشطوب ، وأبلغ الأشرف بذلك فغضبت مكانة صاحب الموصل عنده ، ولما طلب منه مساعدته على الوقوف ضد هجمات صاحب سنجان ، أجاب طلبه ، وسار بجيشه عبر الفرات الى حران فاستولى عليها ، ثم قصد سنجان ، وبينما هو فى طريقه اليها ، لقيه رسل صاحبها ، يعرضون على الأشرف تسليم سنجان ، فى مقابل تعويضه الرقة ، فأجاب الأشرف طلبه ، وفارق محمود بن محمد بن زنكى سنجان سنة ٦١٧ هـ .

(١١) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج٢ ص ٢٠٦ .

وكان بدر الدين لؤلؤ قد انتزع جزيرة ابن عمر من أتابكها مسعود ابن محمود سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م (١٢) ، وظل يحكمها حتى وفاته ، فخلفه في ولايتها ابنه المجاهد اسحق ، وأبقاه هولاكو حتى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م حيث انتزعها منه (١٣) .

ولم تكن اربل أحسن حالا من دول أتابكة الموصل والجزيرة ، فقد تعرضت لغزو المغول ، وأوصى صاحبها مظفر الدين كوكبورى ، بأن تؤول اربل من بعده الى الخليفة العباسى ، اذا لم يكن له وارث يرثه في الحكم ، فلما توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، أرسل الخليفة المستنصر بالله العباسى . الشريف تاج الدين صلاحيا (١٤) الى اربل ، فدخلها بعد أن قاومه أهلها مقاومة عنيفة ، وظل أهلها غير راضين عن حكم العباسيين لهم حتى هدها المغول بغاراتهم (١٥) غير راضين عن حكم العباسيين مقابل جزية كبيرة .

ولما اعتزم هولاكو الاستيلاء على بغداد ، عول على أخذ اربل في نفس الوقت ، وعهد الى أحد قواده بفتحها ، وكان لهذه المدينة قلعة عظيمة مشيدة على مرتفع يجعل فتحها أمرا عسيرا (١٦) ، فظلت حاميتها تقاوم قوات المغول حتى عجز القائد المغولى عن المضى في القتال ، وأرسل الى بدر الدين - صاحب الموصل - يطلب مساعدته (١٧) ، فأشار عليه بدر الدين لؤلؤ بأن يرجى الاستيلاء على القلعة حتى الصيف ، حيث يلجأ الأكراد الى الجبال هربا من حرارة الجو ، ثم عهد القائد المغولى الى بدر الدين لؤلؤ بمهمة الاستيلاء على القلعة (١٨) ، فهدم أسوارها . وبذلك سقطت القلعة في أيدي المغول (١٩) .

-
- (١٢) حدث نزاع بين مسعود بن محمود - أتابك الجزيرة - وبدر الدين لؤلؤ ، فعول على الانتقام منه ، وأرسل جيشا استولى على بلاده سنة ٦٤٨هـ .
(محمد على عوض : تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامى ص ١٦٤) .
- (١٣) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ١٢١ .
- (١٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٦١ .
- (١٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، القسم الثانى ج ٨ ص ٦٧٠ .
- (١٦) قطب الدين البعلبكي : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٩١ .
- (١٧) قطب الدين البعلبكي : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٩١ .
- (١٨) رشيد الدين فضل الله الهمداني : جامع التواريخ - المجلد الثانى ج ١ ص ٢٩٧-٢٩٩ .
- (١٩) Howarth : History of the Mongols . vol. 4. p pp. 133-134. (19)

كذلك هاجم المغول ماردين سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ، فاعتصم الملك السعيد بقلعتها ، ودافع جند الأكراد والتركمان عنها دفاعا مجيدا واستمرت الحرب على أشدها أكثر من ثمانية أشهر — ولما تعذر على المغول الاستيلاء على القلعة أغاروا على مدن ماردين القريبة منها(٢٠) .

أرسل مظفر الدين — بعد أن خلف أباه في إمارة ماردين — إلى القائد المغولي يطلب منه وقف القتال على أن يسلم إليه قلعتها ، فأجاب طلبه ، وعقد بينهما الصلح ، ثم عفا عنه هولاكو ، وظل مظفر الدين وأبنائه موالين للمغول(٢١) ، ومن ثم أخذت أتابكية ماردين في الضعف والانحلال .

كذلك استولى المغول على ميفارقين سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب يطمع في امتلاكها(٢٢) . في عهد ولاية أميرها حسام الدين بن قطب الدين الشيرازي ، غير أن وزيرها تصدى للدفاع عنها ، فكان ذلك مما حمل صلاح الدين على محاصرتها ، ثم أرسل إلى أميرها وإلى والدته الخاتون يرغبهما في الصلح فاستجاب لدعوته(٢٣) ، وبذلك تيسر لصلاح الدين الأيوبي مد تقوذه إلى ميفارقين(٢٤) ، وظل الأيوبيون يحكمونها حتى استولى عليها المغول(٢٥) .

أما أتابكية خرتبرت فلم تتعرض للغزو المغولي ، فقد استولى عليها علاء الدين كيقباد — سلطان دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى — ذلك أن الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب ، سار قاصدا دولة سلاجقة الروم ، فاشتبك معه سلطانها علاء الدين الدين كيقباد في معركة انتهت بهزيمة الملك الصالح ، واستولى الملك علاء الدين كيقباد على خرتبرت وما تبعها من القلاع سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م لتأمين حدود دولته من مطامع بني أيوب ، ثم أمن سلطان سلاجقة الروم نور الدين أرتقشاه ، آخر أتابكة خرتبرت ، وبذلك انتهى حكم بني أرتق في خرتبرت .

(20) Ibid : vol. 4, p. 161.

- (٢١) رشيد الدين فضل الله الهمذاني : جامع التواريخ — المجلد الثاني ج١ ص ٢٢٥ .
- (٢٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .
- (٢٣) محمد بن شاهنشاه : مضمار الصفائق وسر الخلائق ص ٢١٨ .
- (٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨١هـ .
- (٢٥) محمد بن شاهنشاه : مضمار الصفائق وسر الخلائق ص ٢١٨-٢١٩ .

٤ - دولة الاسماعيلية في ايران

نشأ حزب الشيعة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان . وقد التفوا حول علي بن أبي طالب وناصره ، وازداد نفوذهم ، بتولية علي بن أبي طالب الخلافة ، واتخاذ الكوفة حاضرة للدولة العربية الاسلامية ، ولم ينته هذا الحزب بوفاة علي ، بل ظل قائما يناصر ويشايخ آل علي ، وينادي بأن تنحصر الخلافة في بيت رسول الله ، ولقد استناعتوا كثيرا من الصلح الذي عقد بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ والذي بمقتضاه تنازل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية ، واعترض على تولية بني أمية الخلافة ، واعتبروهم مفتصبين لها من أصحابها الشرعيين . وأصبحت خطة الشيعة بعد تنازل الحسن عن الخلافة تنحصر في طاعة الامام من آل بيت رسول الله ، والانتظار حتى يأمرهم الامام - الذي اتخذ المدينة دارا لمقامه - والخروج لاستعادة سلطانهم الضائع .

استند الشيعة في أحقية آل البيت دون سواهم في الإمامة الى أسانيد شرعية ، فقالوا ان رسول الله ﷺ في عودته من حجة الوداع نزل عند غدير خم بين مكة والمدينة في الثامن من ذي الحجة ، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال للناس : « أستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : أستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والي من والاه ، وعادي من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » (١) . واستند الشيعة الى هذا بأحقية علي وبنيه بالخلافة ، لذا عارضوا كل من ولي الخلافة من غير آل علي ، وتعددت ثوراتهم في أيام الأمويين والعباسيين مطالبين بالإمامة في آل بيت رسول الله .

غير أن النزاع اشتد بين الحسن بن علي ، والحسين بن علي في العصر العباسي ، وتخلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي

(١) القرظي : خطا ١ ص ٢٨٣

زين العابدين بن الحسين عن محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية ، وأخذ يعمل في الخفاء ليجهد لنفسه ولأبنائه من بعده للوصول الى الخلافة ، ولقف حول أبنائه الحسن بن علي (٢) . وبذلك آلت اليه في أواخر العهد الأموي وأوائل العصر العباسي زعامة العلويين ، وتعتبره الطائفة الإمامية الامام السادس ، ومن معتقدات هذه الطائفة أن الإمامة تنتقل في الأعقاب . ولم تعد تنتقل من أخ الى أخ بعد الحسن والحسين ، وقد انقسمت الإمامية الى فريقين ، الإمامية الموسوية ويطلق عليها الاثنا عشرية ، وقد قالوا : بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق . أما الاسماعيلية ، فقد قالوا بإمامة اسماعيل ابن جعفر الصادق - وكان أكبر أولاد أبيه ، وقد اعترضوا على جعفر خلع ابنه اسماعيل ، واسناد الإمامة الى ابنه الآخر موسى ، ولما توفي اسماعيل في حياة أبيه ، دعوا الى امامة ابنه محمد جريا على معتقداتهم في أن الإمامة يجب أن تكون في الأعقاب ، وأصبح محمد بن اسماعيل الامام السابع عندهم .

لجأ أئمة الاسماعيلية الى الستر حتى لا يتعرضوا لبطش بني العباس . ونشروا دعائهم في أرجاء البلاد ، وفي نهاية الأمر ظهر الامام الاسماعيلي عبيدالله المهدي في بلاد المغرب ، وأعلن داعيه أبو عبدالله الشيعي قيام الدولة الفاطمية ، وأركب الامام دابة قتادها وهو ينادي في جموع كدابة « هذا امامكم ، هذا امام الحق ، هذا هو المهدي » . وبذلك دخل تاريخ الاسماعيلية في دور جديد ، وهو دور الظهور ، والجهر بالأراء والأفكار التي يتضمنها المذهب الاسماعيلي .

اتخذ عبيد الله المهدي رقادة حاضرة لدولته الجديدة سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م ، وأمر بذكر اسمه في الخطبة على منابر البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين . وبذلك قامت الخلافة الفاطمية في شمال افريقية ، ولم تلبث أن ضمت اليها مصر والشام والحجاز واليمن متخذة من المدينة الجديدة ، القاهرة ، حاضرة لها .

حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الاسماعيلية في أرجاء الدولة الاسلامية ، ولقيت دعوتهم نجاحا في فارس والعراق رغم اضطهاد

(٢) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ص ١٥ .

العباسيين والسلاجقة لأفراد هذه الطائفة ، وازداد نفوذ الاسماعيليين في عصر السلطان ملكشاه حتى استولوا على أصبهان ، ونشروا فيها دعوتهم في عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح الذي رأس الدعوة في أصبهان ، ثم سافر الى مصر ليتعمق فيها من شيوخها وأساطينها ، والسعى لمقابلة الامام ، وهذه المقابلة من أركان العقيدة الاسماعيلية ، بل هي التأويل الباطني للحج عندهم . فالحج الظاهر هو زيارة بيت الله الحرام ، أما الحج الباطن فهو زيارة الامام .

وكان الحسن بن الصباح في مصر حين عهد الخليفة الفاطمي المستنصر لابنه نزار بولاية العهد ، ثم عاد فخلعه تحت تأثير وزيره بدر الجمالي . وأسند ولاية العهد الى ابنه المستعلى . وقد استاء الحسن بن الصباح من ذلك لأن هذا العمل لا يتفق وتقاليد الاسماعيلية التي ترى أن ولاية العهد للابن الأكبر (٣) ، ويقال أن الحسن زار الخليفة المستنصر وسأله : من ولي العهد ؟ قال : ابني نزار . وعهد الحسن بأن يدعو اليه والى ولي عهده بين الامم الاسلامية لأنه أكره على تولية ابنه المستعلى (٤) .

لما توفي الخليفة المستنصر ، خلفه ابنه المستعلى ، فأعلن نزار الثورة في الاسكندرية ، والتف حوله أهله ، بل بايعوه خليفة ، ولقب المصطفى لدين الله ، غير أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أحبط ثورته ، وقتله ونكل بأنصاره (٥) .

شهد الحسن بن الصباح هذه الاحداث في مصر ، وزج في السجن ، ولما أفرج عنه سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م ، غادر البلاد وطاف في بلاد الشام والعراق وفارس ينشر دعوته الجديدة واختار معتقلا في أطراف الدولة الاسلامية ينفرد فيه بدعوته ، ولا يناله فيه يد ملك أو خليفة ، هذا المعتقل في بلاد الديلم ، وذهب اليه مع نفر من أصحابه وأنصاره . وقيل انه تلقى من مصر في تلك الأثناء ولدا لنزار بايعه بالامامة (٦) . وغفل

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص١٦ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص٣٧ .

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص٢٧ .

(٦) المقرئى : خطط ج١ ص٤٤٠ .

باسمه ودعا اليه ، أما المعقل فكان يقيم فيه رجل من العلويين أحسن وفادة الحسن بن الصباح ، وتركه ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ولما قوى شأنه ، واشتد بأسه طرد صاحب القلعة منها ، واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، وزود الحسن بن الصباح قلاع مكتبات الاسماعيلية ببلاد الفرس بالمصنفات الكثيرة التي تؤكد أن نزارا أحق بالامامة من المستعلى (٧) .

حرص الحسن بن الصباح على توسيع رقعة دولته خصوصا بعد وفاة السلطان ملكشاه - الذي يذل قصارى جهده في درء خطر هذه الطائفة عن دولته ، واستطاع ان يفتنز فرصة ضعف الدولة السلجوقية ، ويوسع رقعة امارته حتى تمكن من تأسيس دولة اسماعيلية قوية في فارس ، وقد اعتكف الحسن بن الصباح في منزله ، وانصرف الى القراءة وكان يصدر الأوامر من منزله والرسائل الى دعاة ، والى الذين اختارهم لتنفيذ رسالته دون أن يتابلهم ، وعرف عنه الصرامة والشدة والقسوة على نفسه وعلى أتباعه وجمع طائفة من أبناء الرعايا ومن أتباعه وأخذ في تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء والايمان بدعوته ، وإذا بلغوا مبلغ الشباب يأمر بتدريبهم تدريبا عسكريا شاقا على الأعمال الفدائية ، ويدربهم على كتمان سرهم ، وأسرار الدعوة والدولة . ويقال انه كان يأمر الفدائي أن يقتل نفسه فينقل ، وبهذه الطائفة من الشباب التي نجح في تدريبها ، قام بعمليات ارهابية في الشرق ، لعل أبرزها قتل الوزير نظام الملك - زميل ابن الصباح في الدراسة ، وكان قد جرد عذة حملات للتنكيل بالاسماعيلية ، وتوالت حوادث الاغتيال ضد رجال الدولة السلجوقية ، وكل من يشك في نواياه حتى عم الناس الهلع والفرع ، وأصبح كل واحد غير آمن على نفسه ، ونجحت خطط الاغتيال التي كان يدبرها الحسن بن الصباح في قلعه حتى استعان به بعض الملوك والأمراء والقادة في قتل أعدائهم ، وحاولوا ارضاءه خوفا من بطشه وجردت الدولة السلجوقية حملات على مدى ثلاثين سنة على دولة الاسماعيلية ، لكنها فشلت ، وبهؤلاء الفدائيين قويت سطوة الحسن بن الصباح . ويذكر العماد الاصفهاني الذي كان معاصرا للحسن بن الصباح مقدار

(٧) المصدر السابق .

ما أصاب الناس من الرعب من هذه الطائفة فيقول : « فَنَابَتِ الْفَوَائِبُ ، وظَهَرَتِ الْعَجَائِبُ ، وفَارَقَ الْجُمْهُورُ مِنْ بَيْنِنَا جَمَاعَةً تَشَاءُوا عَلَى طِبَاعِنَا ، وَكَانُوا مَعَنَا فِي الْمَكْتَبِ ، وَأَخَذُوا حِطًّا وَافِرًا مِنَ الْفَقْهِ وَالْأَدَبِ ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ سَاحٍ فِي الْعَالَمِ ، وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ الْكِتَابَةِ ، فَخَفِيَ أَمْرُهُ حَتَّى ظَهَرَ وَقَامَ ، فَأَقَامَ مِنَ الْفَتْنَةِ كُلِّ قِيَامَةٍ وَاسْتَوْلَى فِي مَدَّةٍ قَرِيبَةٍ عَلَى حَصُونٍ وَقِلَاعٍ مَنِيعةٍ ، وَبَدَأَ فِي الْقَتْلِ وَالْفَتْكِ بِأُمُورٍ شَنِيعَةٍ ، وَخَفِيَ عَنِ النَّاسِ أَحْوَالَهُمْ ، وَأَخَافُوا السَّبِيلَ وَأَجَالُوا عَلَى الْأَكْبَارِ الْأَجَلُ ، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَهْجُمُ عَلَى كَثِيرٍ ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَقْتُلُ فَيَقْتُلُهُ غِيلَةً ، وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْمُلُوكِ فِي حِفْظِ نَفْسِهِ مِنْهُمْ حِيلَةً (٨) .»

لم يتغاض الحسن بن الصباح عن الدولة الفاطمية ، التي خالفه رجالها في المذهب ، ودبر المؤامرات ضدهم ، وكان ذلك من أسباب ضعفها وتدهورها .»

وصف الرحالة البندقي ماركو بولو الروضة الفناء التي أمر الحسن ابن الصباح بزراعتها على سفح الجبل الذي فيه قلعته يقول أنها من أجمل ما رآته الأعين ، ووقعت عليه الأبصار مليئة بمختلف الفواكه وأطيب الثمار ، وأقام بها القصور والجواسق مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقد طلاها بالذهب ، ونقشها بأطيب النقوش ، وزعم أن بها أنهارا من خمر وأخرى من عسل وثلاثة من لبن وبها حور عين وولدان مخلصون « وبها مغنيات يعزفن على مختلف الآلات ، ويغنين بأعذب الأصوات ، ويرقصن أجمل الرقصات ، ولم يكن يسمح لأحد من الناس أن يدخل هذه الحديقة إلا من شاء أن يجعلهم من فدائييه وكان يمدحهم قبل دخولهم جنته بالحشيش فيتعاطونه ، وينامون على أثره ، حينئذ يأمر الشيخ بعض أتباعه بأن يحملوهم ويضعوهم في داخل الحديقة ، فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم داخل هذه الروضة الفناء . وفي هذه الحالة يظنون أنهم في جنة الخلد ، ثم يقبل النساء والفتيات يعدن ذلك على هؤلاء الفتيان (٩) ويذلن . يسيطر الشيخ على الشباب الفدائي ، ومن هنا سهوا بالحشاشيين .

(٨) البندقي : تاريخ آل سلجوق .

(٩) براون : تاريخ الأدب الفارسي ص ٢٥٤

ونحن نشك في هذه الرواية لأن من يتعاطى الحشيش لا يمكن أن يضطلع بمهمة شاقة كالعمل الفدائي ، ولا يستطيع كتمان السر ، فضلا عن اضطرابه واضطراب تفكيره الأمر الذي يجعله غير قادر على أداء مهمته ، ولا تذكر المصادر العربية شيئا عن هذا الموضوع .

بذل السلاجقة محاولات متعددة للتفكيك بالاسماعيلية ، لكنهم هزموا بعض الحملات السلجوقية حتى اضطّر السلطان سنجر إلى مهادنتهم ، وعقد صلحا معهم بعد أن خشي بأسهم ، ورأى عن كثب خطورة مؤامراتهم حينما استيقظ من نومه ، فوجد خنجرا بجوار فراشه ، وورقة كتب عليها : ان الذي وضع الخنجر هنا قادر على وضعه في رأسك ، ومهما يكن من أمر فقد أرسل وفدا إلى الاسماعيلية لعقد الصلح ، وعاد الوفد السلجوقي إلى السلطان سنجر ، وقص له ما شاهده من أمر زعيم الاسماعيلية وطاعة الطائفة له ، فذكروا انه أمر أحد أتباعه أن يغمد خنجرا في صدره لقتل نفسه ، فما كان من الفدائي إلا أن ينفذ الأمر ويقتل نفسه وطلب من فدائي آخر أن يلقي بنفسه من نافذة الحصن إلى الهاوية فامتلأ الفدائي للأمر ، دون تردد ، لذلك لم يتردد السلطان سنجر في الصلح مع الاسماعيلية .

وشن السلطان بركياروق عدة حملات عليهم ، وفي سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م أمر الوزير أبي نصر أحمد بن المفضل - وزير السلطان سنجر - بغزو الاسماعيلية وقتلهم أين كانوا وحيثما ظفر بهم ، ونهب أموالهم وسبى حريمهم - وجهز جيشا إلى طريثيث - وهي لهم - وجيشا إلى بيهق - من أعمال نيسابور - وكان بهذه الأعمال قرية مخصوصة بهم اسمها طرز ، وسير إلى كل طرف من أعمالهم جمعا من الجند ، وأوصاهم بقتل من لقوهم منهم ، فقصد كل طائفة إلى الجهة التي سيرت إليها ، فأما القرية التي بأعمال بيهق فقصدتها العسكر ، فقتل كل من بها ، وهرب مقدمهم وصعد منارة المسجد ، وألقى بنفسه منها ، وأما الجند الذين قصد طريثيث ، قتلوا أهلها وغنموا أموالهم وعادوا (١٠) .

واستمرت حملات السلاجقة على الاسماعيلية بعد أن اشتد خطرهم ، وكثرت اغتيالاتهم ، ولم يسلم الخليفة العباسي المسترشد منهم سنة

(١٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٠هـ .

٢٥٩هـ / ١١٣م في مراغة ، اذ هاجم مخيمه أربعة وعشرون رجلا اسماعيليا وقتلوه ومثلوا به (١١) .

وفي سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م اجتمع جمع كثير من الاسماعيلية من قهستان بلغ عددهم سبعة آلاف رجل ، وساروا يريدون خراسان لأن جندهما كانوا مشغولين بحرب الغز ، وشددوا هجماتهم على خراسان ، وقاوم أهل خراسان الاسماعيلية ، واشتبكوا في معارك متعددة معهم ، وهزموا الاسماعيلية شر هزيمة ومزقوهم كل ممزق ، وكثر القتل فيهم ، وأخذهم السيف من كل مكان ، ولم يسلم منهم الا الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من مانع وحام ، لكن جند خراسان كانوا — كما قلنا — مشغولين بحرب الغز ، ولولا ذلك لأمكن الاستيلاء على قلاعهم بدون جهد (١٢) .

تحين أمراء البلاد الاسلامية في الشرق الفرص المواتية للتفكير بالاسماعيلية ، ودخل عليهم من الوهن ما لم يصابوا بمثله ، وخرب من بلادهم ما لم يعمر من السنين الكثيرة (١٣) .

لم يكف الأمراء والحكام المسلمون عن مهاجمة قلاع الاسماعيلية والحاق الدمار بها ، ففي سنة ٦٢٩هـ سار أيتغش — صاحب مراغة — الى بلاد الاسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم كثيرين ، وحاصر قلاعهم ، واستولى على بعضها ، وعقد العزم على غزو قلعة آملوت ، ولكن المشاكل الداخلية في بلاده اضطرته الى رفع الحصار ، وعودته الى بلاده (١٤) .

على أن هذه الفارات لم تمنع اسماعيلية من مواصلة حركاتهم العدوانية على القادة والأمراء المسلمين بعد أن بدأ الغزو المغولي لعالم الأبنلام ، وانشغال المسلمين عنهم ، ففي سنة ٦٢٤هـ قتل الاسماعيلية أحد أمراء الدولة الخوارزمية الكبار ، وكان الأمير كثير الخير حسن السيرة ينكر على السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي ما يفعله عسكره من

(١١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٢٩هـ .

(١٢) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥٤٩هـ .

(١٣) المصدر السابق حوادث سنة ٥٥٢هـ .

(١٤) المصدر السابق .

النهيب ، فلما قتل ذلك الأمير ، عظم قتله على جلال الدين ، واشتد عليه ، فسار في عساكره الى بلاد الاسماعيلية فخرّبها ودمرها ، وقتل أهلها ، وسبى النساء واسترق الاطفال وقتل الرجال ، وانتقم منهم ، وكف عاديّتهم (١٥) .

لما توفى الحسن بن الصباح خلفه في الموت كيابزرك وابو علي — وهما من أقرب الدعاة اليه — وعهد الى أحدهما بأن يتولى الزعامة الروحية للدعوة ، على حين يحكم الثاني الاقليم ويقود الفدائيين ، والدعاة ابتداء من الحسن بن الصباح كانوا يحكمون نيابة عن نسل ولد تزار من الأئمة ، وهؤلاء الأئمة كانوا مستورين تماما لا يعرف أحد عنهم شيئا ، وفي سنة ٥٥٨ هـ سنة ١٠٦٢ م ولي الحسن الثاني حكم الموت ، الى مذهب جديد وادعاء جديد ، فجمع الناس في المسجد ، وطلب منهم ترك التكليف الشرعية من صلاة وصيام وحج ... الخ وأنه راع مسئول عن رعيته ، والامام مسئول عن أتباعه ويحاسب نيابة عنهم . ولقيت هذه الدعوة الاحادية هوى عند سكان دولته ، ولكن هذه الدعوة الاحادية زالت بوقاة صاحبها ، ولما ولي الحسن الثالث الموت سنة ٦٠٧ هـ أمر الناس بالقيام بالفرائض ، وأمر ببناء المساجد وإقامة الاذان للصلاة وقرب اليه الفقهاء والقراء وأكرمهم ، بل تقرب الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وبذلك اعتبره الاسماعيلية مرتدا عن المذهب ماغتالوه ، وخلفه ابنه محمد الثالث ، فنبت سياسة والده .

زالت دولة الاسماعيلية على ايدي المغول ، واكتسحوها كما اكتسحوا غيرها من دول الاسلام ، وقد عهد — خان المغول — منكوقا أن — التي أخيه هولكو خان بقيادة الحملة على إيران ، وأمدّه بجيش يبلغ ١٢٠ ألف مقاتل من خيرة محاربي المغول ، وقد رسم منكوقا الخطة لأخيه هولكو وتتلخص في أن يجعل هدفه ادخال البلاد ابتداء من ضفاف نهر جيحون حتى اقاضي بلاد مصر في دائرة نفوذ المغول ، وأمر بأن يحسن معاملة من يدخل في طاعته بدون حرب أو قتال ، وأما من آثر الحرب قله الذلة والمهانة هو وقومه ..

(١٥) ابن الأثير : الكامل في حوادث سنة ٦٢٤ م

عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون في أواخر سنة ٦٥٣هـ ، فلما بلغ الشاطئ الفارسي تلقى الثناء والترحيب من ممثلى اتباعه الجدد ، وابتدا هولاكو طبقا للخطة التى رسمها منكور بمهاجمة الاسماعيلية فى قلاعهم والمغول حين فكروا فى ازالة الدولة العباسية ، أدركوا أن طائفة الاسماعيلية ستطعنهم من الخلف ، وتقف عقبة فى سبيل تحقيق اطماعهم الرامية الى بسط السيطرة المغولية على بلاد الاسلام ، لذا اوصى منكورا أن أخاه هولاكو بإبادة هذه الجماعة قبل سيره الى بغداد ، وتدمير قلاعهم ، على أن الذى شجع المغول على الهجوم على الاسماعيلية هم المسلمون أنفسهم الذين كانوا تحت حكم المغول ، فقد ضج هؤلاء بالشكوى من الملاحدة لما لاقوه منهم من عنت وارهاب وظلم وجور ولا سيما أهل قزوين المجاورين لهم ، وكانوا سنين يخالفون مذهب الاسماعيلية .

على كل حال سار هولاكو الى بلاد الاسماعيلية ، وانضم اليه أرغون — حاكم المغول فى فارس — وشدد هولاكو هجماته على قلاع الاسماعيلية الحصينة ، وعمل على تخريبها وتدميرها ، وتغلب على أكثرها بعد لآى وعناء ، ولم يستعص على المغول فى بادئ الأمر سوى قلعتا ميمون ودزآلوت ، اذ طال حصارهم لهاتين القلعتين ، وأخيرا وجد خورشاه — آخر حكام الاسماعيلية — أنه لا طاقة له بالمغول ، وأنه لم يعد يستطيع المقاومة ، كما أن رجاله قد أضناهم القتال ، ووهنت عزيمتهم ، وضعفت مقاومتهم ، فنزل من قلعة ميمون — التى كان يقيم فيها — وسلم نفسه الى هولاكو ، ودخل فى طاعته . وعلى الرغم من استسلام حاكم الاسماعيلية فقد رفض قائد آلوت الخضوع ، واشتد فى المقاومة حتى سقطت هى الأخرى فى يد المغول بعد قتال مرير ، واقتحم المغول بذلك الوكر الأسمى للحسن بن الصباح ، وخلفائه ، وحطموا ما وجدوه من أدوات القتال واستولوا على الكنوز والأموال ، ووقعت فى أيديهم تلك المكتبة النفيسة التى اجتهد الاسماعيليون فى اعدادها فى سنوات طوال حتى طبقت شهرتها الآفاق ، وكانت عاملا هاما فى كشف أسرار هذه الجماعة . وقد أذن هولاكو للمؤرخ عظاملك الجوينى بالاطلاع على الكتب الاسماعيلية ، فأبقى الصالح منها ، وأحرق ما دون ذلك مما يتناول العقائد الاسماعيلية الفاسدة ، وجمع منها المصاحف والكتب القديمة وآلات الرصد والنجوم ، ومن أهم هذه الكتب كتاب «سر كز شب سيدنا» الذى يتضمن شرح أقوال الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده .

وبذلك زالت دولة الاسماعيلية سنة ٦٥٤هـ بعد أن ظلت سنوات

طوال تفرع وتقلق المسلمين ، ودكت حصون الاسماعيلية دكا ، وهزب منها سكانها تاركين خزائنهم وكنوزهم نهبا لجيش المغول ، ثم أخذ المغول بعد ذلك في تتبع الاسماعيلية ، فكانوا يقتلون كل اسماعيلي يقابلونه حتى لم ينج منهم سوى الشريد ، وشردوا في البلاد مصطنعين التقية خيفة الوقوع في أيدي المغول وحفاظا على حياتهم .

* * *

تتضمن العقائد الاسماعيلية ، العبادة العملية ، أى علم الظاهر ، ويتصل بالفرائض الدينية والتكاليف الشرعية ، أما العبادة العلمية ، أى علم الباطن ، ويتضمن التأويل لذلك من الخطأ القول بأن طائفة الاسماعيلية تؤمن بالباطن فقط ، ولكنها تؤمن بالظاهر أيضا ، لذا كانت تسميتهم للباطنية خطأ وقع فيه القدماء . على أن طائفة الاسماعيلية كانت تختلف من بلد الى بلد حسب ظروف كل بلد من الناحية الحضارية وتطورها الفكرى وظروفها السياسية ، ولكن طوائف الاسماعيلية على اختلافها كانت تؤمن بوجود الامام المعصوم من نسل محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق ، وطاعة الامام ركن اساسى من أركان معتقداتهم ، فإذا أدى الانسان أركان الدين كلها الخمس ولم يطع الامام فهو آثم فى معصيته ، وقد عصى الله ، وأن بالامام يعبد الله ، وبه يطاع الله ، وبه يعصى الله ، وجعل الاسماعيلية صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم فى مرتبة فوق البشرية ، فلامام « وجه الله » و « يد الله (١٦) » . « جنب الله » وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة ، وأنه هو « الصراط المستقيم » و « الذكر الحكيم » القرآن الكريم ، وبرروا ذلك بتأويل تفسير بعض آيات كتاب الله .

ويلى الامام مباشرة داعى الدعاة ، ويعرف خارج انبائه عاده « شيخ الجبل » ويثلو داعى الدعاة فى مرتبته « الداعى الكبير » وكانت هذه المرتبة تشتمل على عدد من الدعاة الكبار ، ويوكل لكل واحد منهم أمر ولاية من الولايات أو مقاطعة من المقاطعات ويأتى بعد هؤلاء الدعاة الكبار ، الدعاة العاديون ، وكانت المراتب العالية تتكون من هؤلاء جميعا ، وكلهم على علم قائم بأصول المذهب وأغراضه وسياسته ، أما المراتب

(١٦) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٥٦ وما بعدها .

المنخفضة فكانت تشتمل على مرتبة الرفيق ، وهو الذى سلك بعض الدرجات فى سلم الدعوة ، ومرتبة اللاصق وهو الذى أخذ البيعة للإمام دون أن يتعرف على ما تتضمنه هذه الدعوة من أعباء وواجبات ومهام ، ومرتبة الفدائي ، وهؤلاء هم الموكلون بالثأر والانتقام (١٧) .

ومن أهم معتقدات الاسماعيلية التأويل الباطن وهو نظرية دينية فلسفية تنص على ان الله جعل كل معانى الدين فى المخلوقات التى تحيط بالانسان ، فيجب أن يستدل بما فى الطبيعة وبما فى وجه الأرض على فهم حقيقة الدين ، وقسموا المخلوقات قسمين ، قسما ظاهرا للعيان واضحا للناس كل الوضوح ، وقسما مجهولا باطنا ، فالظاهر يدل على الباطن ، فجسم الانسان مثلا ظاهر وباطنه النفس وهكذا ، فما ظهر من أمور الدين من العبادة العلمية ، وما جاء فى ظاهر آيات الله هى معانى يعرفها العامة وينطق بها علماء السنة والفرق الشيعية الأخرى ، ولكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنا لا يعلمه الا الأئمة وكبار الدعاة . وقالوا إن التأويل من عند الله ، وأنه خص به على بن أبى طالب والأئمة من بعده ، ثم عادوا فخصوا حجة الامام أو داعى دعائه بالتأويل .

أصبحت الشهادة فى تأويلهم هى معرفة الله عن طريق الامام . أما البطهارة فهى أن يتجاوز الانسان عن قواعد السنة ويعتبر كل ما يقوله الامام حقا والصلاة هى الا يغفل المرء قط عن طاعة الله ورسوله وخليفته أى الامام ، والصوم انذار أعضاء الجسد فى الظاهر والباطن لأمر الله ، والجهاد جهاد النفس والتغلب على هواها . والحج فى طلب الدار الآخرة والزهد فى الحياة الدنيا الفانية . ويجب على الانسان التطهر من غلم الظاهر . والوضوء هو الرجوع الى علم الامام ، وبالمغوا فى شأن على ابن أبى طالب ، وارتفعوا بمنزلة سلمان الفارسي ، وجعلوه بابا من أبواب الجنة . والترك السلاجقة ليسوا من بنى الانسان ، ويطلقون على بعضهم اسم الجن (١٨) .

(١٧) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٦٥

(١٨) محمد السعيد جمال الدين : دولة الاسماعيلية فى ايران ص ١١٩ .

الدولة الخوارزمية

أسس الدولة الخوارزمية توشتكين — أحد الأتراك في بلاط ملكشاه — وكان يشغل وظيفة الساقى ، وما زال يترقى في سلك الوظائف ، وكان حسب الطريقة كامل الأوصاف ، وقد أدب ابنه محمد ، وأحسن تأديبه ، لذا وقع اختيار أحد قادة بركياروق عليه ليكون حاكماً على إقليم خوارزم ولقبه خوارزمشاه سنة ٤٩٠هـ وكان حاكماً عادلاً ، قصر أوقاته على معدلة ينشرها ، ومكرمة يفعلها ، وقرب أهل العلم والدين ، فازداد ذكره حسناً ومحلّه علواً ، ولما ملك السلطان سنجر السلجوقي خراسان ، أقر محمد خوارزمشاه على إقليم خوارزم وأعمالها ، فظهرت شجاعته وكفايته ، وعظم سنجر محله وقدره (١) .

لما توفي محمد بن فوشتكين ولى ابنه أئمز ، فمد ظلال الأمن وأفاض العدل وقربه السلطان سنجر ، وعظم ابنه واستصحبه معه في أسفاره وحروبه ، فظهرت منه الكفاية والشهامة ، فزاده تقدماً وعلواً

عول أئمز على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية ، وانتهاز فرصة تهديد الخطا للسلاجقة ، لكن سنجر أحبط محاولته وهزمه ، لكن أئمز استجمع قوته ، وانتهاز فرصة سيطرة الخطا على بلاد ما وراء النهر ، واستولى على خراسان ، وجلس على عرش سنجر ، واستولى على أمواله وجاهره سنة ٥٣٦هـ/١١١١م وقطع الخطبة للسلطان سنجر ، لكن سنجر استطاع أن يسترد إقليم خراسان من أئمز سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م ، وتعهد أئمز بالاعتراف بسيادة الدولة السلجوقية .

على أن الدولة الخوارزمية أخذت تزداد قوة ، بينما أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانحلال بعد وفاة سنجر ، ومدت الدولة الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة ، واستطاع السلطان

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٠هـ .

الخوارزمية تكش أن يهزم ويقتل آخر السلاطين السلاجقة ، ويستولى على ملك السلاجقة في العراق ، ويستولى على أصفهان والرى .

ولما توفي تكش سنة ٥٩٦هـ ١١٩٩م خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه : فسار على سياسة أبيه الرامية الى توسيع حدود دولته ، فاستولى على معظم اقليم خراسان ، واستطاع أن يهزم الخطا سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م ويبسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر . واستولى على اقليم كرمان ومكران ، والاقليم الواقعة غرب نهر السند وعلى ممتلكات الغور في أفغانستان ، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، إذ امتدت من حدود العراق العربي غربا الى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا الى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوبا (٢) .

على أن الدولة الخوارزمية قد جاورت دولة المغول — ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين ، وكان العالم الاسلامي في ذلك الوقت قد مزقته الانقسامات ، ولم تعد فيه دولة قوية الا الدولة الخوارزمية ، وكان الخليفة العباسي الناصر يخشى بأس هذه الدولة ، لأن خوارزمشاه كان يطمع في بغداد فسعى الى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل منه ، بل تقاعس عن نصرته ، ولكن لا يمكن قبول ما اُشيع في ذلك العصر من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله حرّض المغول على غزو أعدائه الخوارزميين ، وكان من الطبيعي أن تكثر الشائعات في هذه الأيام المضطربة ، وكان السلطان جلال الدين منكبرتي يتهم الخليفة العباسي بأنه يحرض عليه المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه (٣) ، والخليفة العباسي يعلم يقينا أن غزو الدولة الخوارزمية يؤدي بالضرورة الى تهديد الدولة العباسية المتداعية ، ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق .

نشأ المغول في صحراء جوبي القاحلة ، وهم شعب يشبه الترك في اللغة والمظهر العام ، وعاش هؤلاء القوم في بلادهم في شظف من العيش ،

(٢) حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٨ .

(٣) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٦٠ .

يعملون بالصيد والرعى في حياة كلها ترحال وتجوال ، وكثر بينهم الفراع
والشقاق ، وتكررت اغاراتهم على المناطق الخصبة المجاورة ، لذا شيد
الصينيون سور الصين ذرا لشهرهم وحماية لبلادهم من شهرهم
المستطير(٤) .

ظلت هذه القبائل في منازعاتها وتمزقها حتى ظهر منهم شاب في
ريمان شهابه الغض هو تيموجين ، واستطاع أن يوجد هذه القبائل
تحت لوائه ، وهذا الشاب نشأ يتيما ، وكان أبوه زعيما لاحدى قبائل
المغول ، ولما توفى انفض أفراد القبيلة من حول تيموجين واستصغروا
شأنه واستضعفوه وعاش هذا الفتى مع أسرته عيشة يؤس وحرمان
وشقاء(٥) ، وكان عليه أن يتلمس سبيل العيش ، وقاسى الكثير من
النكبات ، وهذه المحن أصقلته وأخرجت منه رجلا صليبا شجاعا(٦) .

ولما بلغ تيموجين مبلغ الرجال ، التفت أفراد قبيلته حوله لما
أظهره من قوة البأس ومضاء العزيمة ، ولم يكتف بذلك بل ظل يناضل
حتى تمكن من السيطرة على المغول وقضى على كل الحركات التي تهدف
الى عرقلة جهوده ولم يأت عام ٦٠٢ هـ سنة ١٢٠٦ م حتى كان قد أخضع
لسلطانه كل بدو صحراء جوبى ، واتخذ من حصن قراقورم مقرا له ووضع
نظاما للقبائل الخاضعة له سمي الياسا وهو دستور اجتماعى وحربى
صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان ، وأخير تيموجين الرؤساء بأن
السماض أضفت عليه اسما جديدا هو جنكيز ، أى امبراطور البشر ، أو
اعظم حكام الأرض(٧) .

تطلع جنكيز خان — بعد أن وجد القبائل المغولية تحت سيطرته —
الى توسيع رقعة دولته ، وكان المجال الحيوى له بلاد الصين التى تقع
جنوب مملكته — حيث الخصب والرخاء والازدهار — فشن عدة حملات

(4) Hart : Mongol Campaigns. p. 705:

(5) Grenard : Gengis-Khan. p: 8.

(6) Ibid. pp. 7-8.

(7) Ibid. pp. 65-66.

على إمبراطورية كين واستولى على مساحات شاسعة من بلاد الصين ، وسيطر على بكين سنة ٦١٢ هـ سنة ٢٢١٥م (٨) .

أصبحت إمبراطورية المغول القوية تجاور الدولة الخوارزمية العظيمة ، دولة الاسلام القوية اليأس ، ولم يكن هناك بد من حدث اجتكاك بين الدولتين العظميين ، ولا بد أن تنتقض أحدهما على الأخرى ، ووجد السبب لاشتعال الحرب ، فقد وفد جماعة من التجار من رعايا جنكز خان الى أترار في الدولة الخوارزمية ، فارتاب فيهم ينال خان — حاكم أترار — وأرسل الى السلطان محمد خوارزمشاه يخبره بالأمر ، فأمره بالقبض عليهم واعدائهم على اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيز خان ، وظاهر أمرهم التجارة ، وهؤلاء التجار كان مركزهم جندة وتسيير منها قوافلهم الى منغوليا تحمل الى خان المغول الهدايا من نسيج الكتان والديبا . وكان يشجعهم على ممارسة نشاطهم التجاري (٩) .

ساعت العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار ، وشعر السلطان خوارزمشاه بمغبة قتل التجار ، فأرسل الى دولة المغول جواسيس لاستطلاع قوتهم ، ومعرفة نواياهم ، فعادوا اليه ، وأخبروه بكثرة عددهم وأنهم من أصير خلق الله على القتال ، لا يعرفون الهزيمة ، وأنهم يعملون ما يحتاجون اليه من سلاح أيديهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد تشدد علاء الدين محمد مع جنكيز خان ولم يقبل شروطه في تجنب الحرب ، فقد أرسل جنكيز خان الى خوارزمشاه رسلا يطلب منه تسليم حاكم أترار ، وجاء في رسالة خاقان المغول : فان كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان — حاكم أترار — فبان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان الى لأجازه علي ما فعل ، حثنا للدعاء (١٠) ، لكن السلطان الخوارزمي اعتقد انه لو لطف جنكيز خان ، في الجواب ، لم يزد ذلك الا طمعا فيه ، فتماسك وتجلد . بل أمر بقتل الرسل سنة ٦١٥ هـ . ١٢١٠م . ويقول الجويني : « ان دمهم أهرق ، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء ، وان رءوسهم قد سقطت ، ولكن كان شعرة منها

(8) Douglas : The Story of China. p. 387.

(9) D'ohsson : Histoire Des Mongols Tomi. p. 2.

(١٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٨٧ .

قد كلف مئات الألوف من الناس حياتهم « ، ويقول النسوي (١٢) : « غياليها من قتلة هدرت دماء الاسلام ، وأجرت بكل نقطة سيلا من أدم الحرام ، فاستوفى عن الغيظ غيظا ، وأحلى بكل شخص أرضا » .

ونستطيع أن نقول إن الدولة الخوارزمية كانت ستعرض لغزو المغول سواء حدثت مذبحه أترار أو لم تحدث ، ذلك أن دولة المغول قامت على أساس التوسع والغزو ضم الأراضي إليها بالقوة . وتعرف من تاريخ المغول أنهم استثمروا في ضم البلاد واحتلالها طمعا في ثرواتها وخيراتهما ، ولكن مذبحه أترار كانت بمثابة الشرارة التي فجرت الموقف بين الدولتين وعجلت بغزو المغول للدولة الخوارزمية .

اتسمت غارات المغول على الدولة الخوارزمية بالوحشية والهجية . وتدمير المدن والقرى ، وهذا يتضح من كتابات المعاصرين ، ويقول ابن الأثير : « لقد بقيت عدة سنين ممرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ... وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجل والأطفال ، وشبقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ... » . وكان مظهر المغول يدعو إلى الفزع والجزع ، ويلقى الرعب في النفوس ، كانوا قساة مع أعدائهم ، لم يبقوا على أحد من قاهريهم ، وأشاعوا الخراب والدمار في كل بلد ملكوه ، حتى تحولت المدن العامرة ، والقرى والمزارع الخصبة إلى صحارى قاحلة (١٣) ، وكانوا يسبقون أسراهم ، بحيث يجعلونهم في طليعة الجيوش التي يحاربون بها ، وإذا بدأت المعركة يقذفون بهم في المقدمة ، ويتخذونهم دروعا لهم ، وقد يقذفونهم في الفجوات التي يحدثونها في أسوار المدينة ليملاؤا الخنادق بأجسامهم ، وإذا سلم أحد منهم يتخلصون منه بالقتل ، حتى يفسحوا المجال للأسرى الجدد ، على كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر ، وتلك القوى الجامحة العالم الإسلامي وأتوا على الأخضر واليابس ، وأهلكوا الحرث والنسل .

أعد جنكيز خان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية ، وقسم جنده

(١١) مسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٨٨ .

(١٢) الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

(١٣) Sykes : Ahist. of Persia, p. 56.

الى أربع جيوش ، الاول بقيادة ابنه جغتاي وأوكتاي ، ومهمته فتح مدينة أترار ، والجيش الثاني أسند قيادته الى ابنه جوجي ، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيجون ، والثالث مهمته فتح مدينتي بناكت وخجند على نهر سيحون : أما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول ، ويقوده جنكيز خان ومعه ابنه تولوي ، ووجهته وسط إقليم ما وراء النهر (١٥) .

سارع المغول الى مدينة أترار ، وشددوا هجماتهم عليها ، وقد اعتمد ينال خان — حاكمها — بقلعتها ، ودافع بكل بسالة بل أنهك المغول واجهدهم شهرا كاملا بضرباته القوية لهم ، حتى فقد معظم رجاله ، وفقدت المؤن والأقوات ، وشدد المغول حصارهم للقلعة ، فالقى بنفسه الى سقف أحد المنازل ، وظل يقاتل المغول بكل ما اوتى من قوة حتى قبض عليه المغول ، وسبق الى جنكيز خان — وكان امام سمرقند — فأمر بسك الفضة وصبها في اذنيه وعينه ، فقتل تعذيبا ، وبذلك انتقم جنكيز خان من قاتل التجار ، وسقطت مدينة أترار — مفتاح بلاد ما وراء النهر — سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م بعد أن قتل المغول سكانها ودمروها تدميرا (١٦) .

سار الجيش الثاني بقيادة جوجي الى مدينة جند — على نهر سيحون — بعد أن استولى في طريقه على المدن والحصون على ساحل سيحون ، ولما بلغ المغول جند ، رأى قائدها أن لا قبل له بالمغول ، فغادر البلدة تاركا أهلها يدافعون عن المدينة ، وشدد المغول هجماتهم ورموها بالمنجنيقات حتى اقتحموها ، وبذلك سقطت جند في أيدي المغول (١٧) .

اتجه الجيش الثالث الى منطقة فرغانة والوادي الأعلى من نهر سيحون ، وحاصر هذا الجيش بناكت ، ولم يجد المغول مقاومة من

(14) Harold Lamb : The Crusades. j. 337.

(15) D'ohsson : Histoire Des Mongols. Tomi. pp. 217-219.

(١٦) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٩١ .

(17) D'ohson : Histores of the Mongols. 1, p. 77.

سكان هذه المدينة فاستولوا عليها بسهولة ويسر ، على الرغم من اعطائهم الأمان لأهلها ، إلا أنهم قتلوا منهم الكثيرين ، ولم يبقوا إلا على من التمسوا فيهم المستدرة على خدمتهم ، ثم سار المغول إلى خجند — وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها الغناء وانتماعش التجارة فيها ، وشجاعة أهلها وقوة بأسهم — وقد قاوم حاكمها الشجاع تيمور ملك المغول بكل بسالة ، حتى ضعفت قوته ، فامتطى جواده وذهب إلى خوارزم حيث كان يربط السلطان جلال الدين منكبرتي (١٨) ودخلت خجند في حوزة المغول .

سارت جيوش المغول بقيادة جنكيز خان إلى بخارى ، ودارت الحرب بين جند المغول والجند الخوارزمي ثلاثة أيام هزم فيها الخوارزميون وفر الجند الخوارزمي ، فضعف أهلها وهنت عزيمتهم ، واعتصم بعضهم في القلعة ، وشدد المغول هجماتهم عليها ثلاثة أيام ، وقاتل من فيها حتى قتلوا جميعا ، وتسلم جنكيز خان القلعة ، وأمر أعيان المدينة وتجارها بالاجتماع معه ، وجردهم جميعا من أموالهم ، وطردهم من المدينة ، وقتلوا كل من صادفوه في بخارى من أهلها بعد ذلك ، ونهبوا البلدة « وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من النساء والرجال والولدان وتفرقوا أيدي سبأ ومزقوا شر ممزق » ساروا إلى سمرقند ، وأمامهم الأسرى مشاة على أقبح صورة ، وكل من عجز عن المشي قتل ، وحاصروا سمرقند ، وبها الكثير من الجند الخوارزمي ، وأعد أهل سمرقند العدة لمقاومة المغول ، ودار قتال شديد بين الفريقين ، هلك فيه أكثر الجند الخوارزمي ، الأمر الذي أضعف مقاومة أهل سمرقند ، وطلبوا الأمان ، وأجابهم المغول إلى طلبهم ، وفتحوا أبواب البلدة ، وطلبوا من أهل البلدة تسليم أسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم ، ففعلوا تجنباً للقتل ، ولكن المغول — كعادتهم وحبيهم لسفك الدماء — أعملوا السيف في رقاب الأهلين ، حتى أفنوهم عن آخرهم ، ودخلوا البلد ، ونهبوا ما فيه ، وأحرقوا الجامع ، وبذلك دخلت سمرقند في حوزة المغول سنة ٦١٧هـ (٢١) / سنة ١٢٢٠م .

(١٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٦هـ .

(١٩) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٨ .

(20) Howorth Hist. of the Mongols. 1. p. 77.

(٢١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ .

وبعد أن امتلك المغول بخارى وسمرقند ، أعد جنكيز خان جيشا يتألف من عشرين ألف مقاتل ، وأمر قائده بالتوجه الى خوارزمشاه والبحث عنه أينما وجد « ولو تعلق بالسما حتى تدركوه وتأخذوه » فسارت جيوش المغول تتبع خوارزمشاه الذى أخذ يضرب فى الأرض ، وينتقل من بلد الى بلد ، وجند المغول تطارده ، وانتهى به المطاف الى الإيستاناد - وهى من أمنع النواحي فى إقليم مازندران - وباغته المغول ، فلجأ الى احدى جزر بحر قزوين ، وقد انتابه اليأس من الحياة ، ومرض ، وكان يقول : « لم يبق لنا معا ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر قنبر ، فما الدنيا لسكانها بدار ، ولا ركونه اليها سوى انخداع واغترار » وأقام بالجزيرة فى عزلة تامة يعانى المرض وكان أهبط مازندران يقدمون اليه كل ما يشتهى ، وقبل وفاته سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، أوصى بالسلطنة من بعده لابنه (٢٢) جلال الدين ، وولى جلال الدين منكبرى السلطنة بعد أن سيطر المغول على بلاد ما وراء النهر - أهم أجزاء دولته المتداعية وامتلكوا إقليم مازندران رغم حصانته ومناعته ، ثم اتجهوا الى الرى ، وفى الطريق التقوا بالملكة ترکان خاتون والدة السلطان علاء الدين - وقد غادرت خوارزم على أثر تهديد المغول ، ولم تر فيه دار قرار واستصحب ما أمكنها استصحابه من حزم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه ، وقبض المغول عليها ، واستولوا على ما معها من ثروات هائلة ، وكذا قضت هذه الملكة أيامها الأخيرة فى أسر المغول ، وجدير بالذكر أن ترکان خاتون كانت ذا مهابة ورأى ، تنظر فى المظالم ، وتحكم فيها بالعدل ، وتنصف المظلوم من الظالم ، ولها اصلاحات كثيرة ، وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الكتاب (٢٣) .

باغت المغول الرى على حين غفلة من أهلها وملكوها ونهبوها ، واسترقوا نساءها ، وقتلوا أطفالها ، ثم غادروها فى طلب خوارزمشاه ، وعاثوا فى البلاد التى مروا بها نهباً وفساداً ، واقتربوا من همدان ، فقدم أهلها للمغول الأموال والهدايا حتى كفوا عن تغلبهم ، وسيطر المغول

(٢٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى من ١٠٦-١٠٧ .

(٢٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى من ٩٩ .

على هذه البلدة ، ثم زحفوا الى قزوين ، وامتلكوها عنوة وقهرا (٢٤) وبذلك سيطر المغول على بلاد العراق العجمي .

أثار المغول الرعب في بلدان الدولة الخوارزمية حتى أن اقترابهم من مدينة أوقرية ، يثير الفزع في النفوس ، فيهجرون بلدانهم ، أو يقدمون غروض اللولاء والطاعة لأعدائهم ، وبذلك استسلمت البلاد الإسلامية للمغول في سهولة ويسر ، إلا أن استسلام الأهليين لم ينجم من بطش المغول وويلاتهم ، وظل المغول يواصلون تقدمهم حتى بلغوا تبريز — عاصمة أذربيجان — ويحكمها أوزبك بن البهلوان ، وهو شيخ بلغ من العمر أركله ، يقضى وقته في الشراب ، ولا يكاد يفقه ، ولما اقترب المغول من بلاده ، أرسل اليهم المال والهدايا والثياب والدواب ، وصالحهم ، ثم اتجهوا الى ساحل البحر حيث المراعى الكثيرة اللازمة لدوابهم ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقان ، ودخلوا في معارك حامية مع أهالي بلاد الكرج ، وهزمهم ، وامتلكوا مراغة سنة ٦١٧هـ (٢٥) وبذلك سيطروا على أذربيجان وبلاد الكرج .

شرع جنكيز خان بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وبلاد العراق العجمي وأذربيجان الى السيطرة على خراسان وخوارزم حتى يتم له السيطرة الكاملة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة ، فأعد جيشين ، الأول عز جيحون وقصد مدينة بلخ ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم المغول سنة ٦١٧هـ ، ولم يتفرض المغول لهم بالقتل والنهب وأدخلوا البلدة في خوزتهم ، وواصلوا تقدمهم في بلاد خراسان ، فسقطت البلاد في أيديهم ، للبلدة تلو الأخرى ، ثم حاصروا مرو ، وشددوا عليها الحصار حتى استسلمت ثم أمعنوا في قتل أهلها ، ونهبوا البلدة ، وضموا اليهم أرباب الحرف والصناعات من سكان مرو (٢٦) ، ويقال أنهم أجهزوا على أهل البلدة جميعهم حتى بلغ عدد القتلى سبعمائة قتيل ، ثم ساروا الى نيسابور ، فامتلكوها بعد حصار دام خمسة أيام ، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبه مع غيرهم ، وأقاموا في البلدة خمسة

(24) D'ohsson Histoire Des Mongols. tom. i. p. 243.

(٢٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ .

(26) Howorth : Hist of the Mongois. p. 93.

عشر يوما ينهبون ويدمرون ، وواصلوا مسيرهم حتى بلغوا طوس ، وامتلكوها ، ثم ساروا الى هراة ، وبسطوا سيطرتهم عليها ، ومنها اتجهوا الى غزنة ، فالتقوا بالسلطان جلال الدين منكبرتي ودارت معركة انقصر فيها خوارزمشاه على اعدائه .

أما الجيش المغولي الذي اتجه الى خوارزم ، فقد لقي مقاومة باسلة من أهلها ، ودارت بين الفريقين معارك ضارية ، وصمد أهل خوارزم للحصار الذي دام خمسة أشهر ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وبلغ الأمر بالمغول أن أرسلوا الى جنكيز خان يطلبون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير وتمكنوا من الاستيلاء على خوارزم بعد لآى وعناء ، وبعد أن امتلك المغول خوارزم بعد هذا الجهد الشاق والتضحيات الكثيرة ، قتلوا كل من فيه ، ونهبوا كل ما فيه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل فتحوا ماء جيحون على خوارزم ، فغرقت البلد ، وتهدمت الأبنية ، ولم يسلم من البلد أحد (٢٧) ، « فمن اختفى من النار أغرقه الماء ، ومن سلم من الماء قتله الهدم ، فأصبح البلد خرابا يبابا ، كان لم يغن بالأمس (٢٨) » .

ولى السلطان جلال الدين منكبرتي - كما رأينا - في وقت حرج ، إذ استولى المغول على معظم المملكة ، ونهبت خزائنها ، ومزق جيشها ، وكان جلال الدين شجاعا مقداما ، اعتزم استرداد ملكه السليب ، ورد الغزاة المعتدين عن بلاده ، واستطاع جمع شمل جنده المبعثرين في البلدان الخوارزمية ، وأقام في غزنة بعد أن استردها من المغول ، ونظم جيشا قوامه ستين ألف مقاتل ، وقد أزعج ذلك جنكيز خان ، ورأى التخلص من خصمه ، فأرسل جيشا الى غزنة ، التقى بالجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس ، أنزل الله فيها نصره على المسلمين ، وانهزم المغول شر هزيمة ، وقتل المسلمون منهم كثيرين (٢٩) وكان لهذا النصر أهمية كبيرة في البلاد الإسلامية التي مزقتها هزائم المغول المتكررة ، وعاش أهلها في يأس وقنوط وتمزق ، فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين ، وتيقظوا وثاروا على المغول ، وقتل أهل هراة واليهم المغولي (٣٠) .

(٢٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧ هـ .

(28) D'ohsson : Histoire Des Mongols tom. I. p. 267.

(29) Ibid. p. 268.

(٣٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٥ وما بعدها .

سار جلال الدين على سياسة الرامية الى طرد المغول من بلاده ، وارسل الى جنكيز خان يتوعده ويهدده ويقول « في أى موضع تريد يكون الحرب حتى تأتى اليه » فلم يتفاض جنكيز خان عن هذا التهديد ، وشن الحزب من جديد على جلال الدين الذى أصبح يشكل خطرا على مملكته المترامية الاطراف ، ولكن السلطان الخوارزمى انتصر مرة أخرى على جيش جنكيز خان ، وقتل الكثير من المغول ، وغنم الخوارزميون ما معهم ، واسترد المسلمون أسراهم من العدو ، لكن الخوارزميين انشغلوا بجمع الغنائم ، وكانت تفوق كل وصف ، وتنازع جند السلطان حول الغنائم ، نزاعا أدى الى انقسام خطير في الجيش عجز السلطان عن تداركه ، وفارق فريق من الجيش الخوارزمى المعركة بقيادة بفراق الى بلاد الهند ، وحاول جلال الدين عبثا أن يثنى هذا الرجل عن عزمه ، وأوضح له خطورة عمله هذا على الاسلام والمسلمين ، والى عليه في ترك الخلاف والشقاق بل بكى بين يديه (٣١) . لذلك ضنغ امر جلال الدين بمفارقة معظم جيشه له ، ونهض اليه عدو الله بجيوشه ، ودارت المعركة بين الجمعين على حافة نهر السند ، وكادت أن تدور الدائرة على المغول ، لولا أن نصب جنكيز خان كمينا أدى الى قتل كثير من الخوارزميين وحلت الهزيمة بالمسلمين ، وكان الرجل منهم يأتى النهر فيهب بنفسه في تياره ، وهو يعلم أنه لابد غريق « وأن ليس له الى الخلاص طريق » وأسر ولد جلال الدين ، وكان غرا في الثامنة من عمره ، وقتل بين يدي غريمه جنكيز خان ، ولما عاد جلال الدين الى حافة السند كسيرا ، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بعالي صوتهن : بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن مفترقن « وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب » (٣٢) .

وعين جلال الدين نهر السند مع أربعة آلاف من رجاله متجهين الى الهند « حفاة عراة كأنهم أهل النشور ، حشروا فبعثوا من القبور » وقد أعادت الهزيمة التي لحقت بالخوارزميين الى المغول هيبتهم ، واستردوا قوتهم ، وامتلكوا غزنة التي خلت من الجند ، وقتلوا أهلها

(٣١) للتسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١٥٨ وما بعدها .

(٣٢) المصدر السابق .

ونهبوا أموالهم وأسروا النساء ، وحملوا البلدة تدميرا ، حتى أصبحت
غزنة خرابا دمارا (٣٣) .

اعتزم جلال الدين استرداد قوته في بلاد الهند ، واستعان بسلطان
دهلي لكن التمش توجس خيفة من جلال الدين ، وقضى في الهند ثلاث
سنوات واشتبك مع سلطان دهلي في عدة معارك ، وخشى قباجة — حاكم
السند — من إقامة الخوارزميين في ولايته ، لأنها قد تؤدي إلى تعقب
المغول لهم ، وما ينجم عن ذلك من خطر داهم على بلاده ، ولكن جلال الدين
أوقع بهم الهزيمة ، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم
إلى الهند والنيل منه ، سار إلى دهلي ، وسأل سلطانها — التمش
بأن يعطى جنده حق الإقامة في دهلي ، لكن السلطان المملوكي اعتذر إليه
بحجة أن حرارة الجو في دهلي لا تناسب الخوارزميين ، ذلك أن سلطان
دهلي خشى أن يخضع جنود الترك في دولته إلى سلطان الخوارزميين
جلال الدين منكبرتي وأرسل إليه يراوغه ويوادمه ويقول : ليس يخفى
ما وراءك من عدو الدين ، وأنت اليوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم ،
ولست أستحل أن أكون عليك عوناً للزمان ، وعدة للحبثان ، ولا يليق
بهنلي أن يجرّد السيف في وجهه مثلك إلا إذا اضطره إليه دفاع أو سامة
إليه تحرز واقناع ، وإن رأيت زوجتك يا بنتي لتحتكم الثقة (٣٤) .

وعلم السلطان جلال الدين أن التمش — سلطان دهلي — وسائر
ملوك الهند وراجاتها وأصحاب ولاياتها قد تأمروا على طرده من ديارهم ،
ولم يتغاض جلال الدين عن موقف سلطان دهلي العدائي منه ، فاشتبك
مع قواته بالقرب من دهلي ، ثم انسحب إلى لاهور ، وكثر جمع جلال
الدين بما وفد عليه من الجند التابعين لأخيه غياث الدين — حاكم العراق —
كذلك انضمت إليه قبائل الكهكية الهندية — وكانوا ناعمين على
قباجة ، فكثر جمعه واشتد بأسه ، وعظم أمره ، وتمكن من انتزاع بعض
البلدان من وإلى السند (٣٥) .

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند ، الإقامة فيها ، وإنما

(٣٣) المصدر السابق .

(٣٤) النسوي سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١٦٨-١٦٦ .

(35) D'ohsson Histoire Des Mongois. tom. III. p. 11.

كان يهدف الى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته ، ويعود الى بلاده ، وقد واثقه الفرصة للانتقام من المغول ، وشن الحرب ضدهم ، واستعادة ملكه السليب ، حين توفي جنكيز خان - قاهر الخوارزميين - وأعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التي تحتل اقاليم الدولة الخوارزمية الى مواطنها الأصلية ، فعبر جلال الدين نهر السند سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وقصد ايران ، واشتبك مع المغول في عدة معارك (٣٦) .

عادت معظم بلدان الدولة الخوارزمية الى حوزة السلطان جلال الدين منكبرتي « ولجأ اليه حكام المدن والبلاد الخوارزمية يعلنون ولاءهم وبهجته بالتخلص من حكم المغول وأبقى بعضهم على ما بيده ، وعزل بعضهم » وأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب ، وأطفأت من نيران الفتن ما التهاب ، وتفرقت العمال والوزراء في الأطراف بتواقيع السلطان فضبطوها » .

وبذلك استرد هذا السلطان الشجاع ملكه وسلطانه على اقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، على أن بلاد ما وراء النهر بقيت في أيدي المغول .

خلف اجتاي جنكيز خان ، وعول على استرداد البلاد التي آلت الى جلال الدين ، وسير جيشا كبيرا الى الري فانقضعها واستولى على همدان سنة ٦٣٨هـ/١٢٣١م وطارد المغول السلطان جلال الدين ، وتعقبوه في موقان وتبريز وفي أذربيجان ، واتجه الى آمد ! قهزمه المغول هناك وشردوا رجاله ، وقتل المغول كل من تتبعه في فراره ، وظل السلطان ينتقل من بلد الى بلد ، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه ، حتى وصل الى جبال كردستان ، وقد شك فيه بعض الأكراد ، وأخذوه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به ، فحين هموا بقتله قال لكبرهم سر ا : « انى أنا السلطان فلا تستعجل في امرى ، ولك الخيار في احضارى عند الملك المظفر شهاب الدين ، فيفتيك ، او ايصالى الى بعض بلادى فتصير ملكا ، فرغب الرجال

(36) Ibid.

في إيصاله إلى بلاده ، وتركه عند امرأته ومضى بنفسه إلى الجبل
لاحضار خيله ولكن هاجم المنزل رجل من الأكراد ، وقتله بعد أن تعرف
عليه ، ثارا لمقتل أخ له على يديه سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م (٣٧) .

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع ، وبوفاته ، زالت الدولة
الخوارزمية .

(٣٧) للتسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٨١ .

٦ - سقوط الخلافة العباسية

تتابعت انتصارات المغول وفتوحاتهم ، واستولوا على انريجان وبلاد اران وغالبية مدن جورجيا ، وارمينية الكبرى ، وزحفوا الى شمال العراق ، وهددوا اقاليمه الشمالية ، واشتبكوا عدة مرات مع جيوش الخلافة العباسية لاختبار قوتها .

أخذت الدولة العباسية في الضعف والتدهور في عهد المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٤٠ - ٦٦٦ هـ وكان رجلا لين الجانب ضعيف ، الوطأة لين العريكة قليل الخبرة ، وكانت الأخبار تصل الخليفة تباعا بزحف جيوش المغول ومع ذلك لم يتخذ الاهية لمواجهة قبل أن يستفحل خطرهم ويستطير شرهم .

جاء المغول في عهد المستعصم الى العراق عدة مرات حيث حدثت مفاوضات بينهم وبين جيش الخليفة لكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء على بغداد حتى سنة ٦٥٦ هـ وعندما اعتزم هولاكو مهاجمة الاسماعيليه أرسل الى الخليفة يطلب اليه أن يمدّه بجيش ليعاونه في القضاء على تلك الطائفة فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه أن يقدم على هذا العمل وادخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلص بغداد من الجيش حتى يتيسر له الاستيلاء عليها .

ولما فرغ هولاكو من محاربة الاسماعيليه ودمرهم قصد همدان وفي شهر رمضان سنة ٦٦٥ هـ أرسل رسولا يحمل رسالة الى الخليفة مصاغة في قالب التهديد والوعيد لامتناعه عن ارببال المدد ، ولم يكن هذا الاحتجاج في الواقع الا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم السلاجقة . يقول هولاكو في هذه الرسالة « لا بد أنه قد وصل الى شخصك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان ، وعلمت اية مذلة لحقت بأمر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتاكية وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة ، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أي طائفة من تلك الطوائف التي تولت السيادة ، واعلم أنني

إذا غضبت عليك وقدمت الجيش الى بغداد فسوف لا تنجو منى ولو صعدت الى السماء أو اختفيت في باطن الأرض . رفض الخليفة انذار المغول وأرسل هولاء يتوعده ان هو حاول غزو بلاده على الرغم من انه كان لا يملك القوة اللازمة لمهاجمة هولاء ، وكان المسلمون في حالة شديدة من الضعف والانقسام ، لذلك كان طبيعيا عدم جدوى تهديدات الخليفة ، بل كان لها على العكس أسوأ الأثر في نفس هولاء فاعتزم قبل كل شيء فتح بغداد .

وصل رسل الخليفة الى هولاء ، فلما اطلع على رسالة الخليفة وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد غضب غضبا شديدا وأعاد رسل المستعصم وحملهم رسالة أخرى تضمنها انذارا نهائيا له صيغ في لهجة شديدة عنيفة جاء فيها : « لقد فتك حب المال والعجب والغرور بالذولة الفانية بحيث لم يعد يؤثر فيك نصيح الناصحين .. فاني متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد » .

رأى وزير الخليفة مؤيد الدين العلقمي بذل الأموال والتحف والهدايا وارسلها الى هولاء مع تقديم الاعتذار له وكان يرى ذكر اسم هولاء في الخطبة ونقشه على السكة حتى يبعد هولاء عن غزو بغداد ، ولكن الخليفة رفض العمل بمشورة الوزير وأصر على اعداد العدة للدفاع عن بغداد .

وقبل أن يقدم هولاء على غزو بغداد استشار المنجمين فيها يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنفس ، وقد أشار عليه فلكي مسلم يعطف على الخليفة بعدم غزو بغداد فقال له : الحقيقة ان كل ملك تجابر حتى هذه اللحظة على قصد الخلافة والزحف الى بغداد لم يبق له عرش ولا جاه وإذا أبى الملك ان يسمع لنصائحي وتمسك بمشروعه فسوف تحدث هذه الحملة خلا في نظام الكون ، فضلا عن أنها ستكون وبالا على الخائن نفسه اذ سيهلك ، ويهلك الزرع والحيوان ولن تطلع الشمس ولن ينزل المطر ، لكن منجمين آخرين أكدوا لهولاء نجاح مشروعه ، ومهما يكن من أمر فقد أمر هولاء بتحريك جيشه من أطراف بلاد الروم والاتجاه الى بغداد وأقام هولاء معسكره خارج بغداد من الشرق ، ولم يستطع جيش الخليفة منع المغول من الاقامة في الجهة الشرقية ، وفي أوائل سنة ٦٥٦ هـ حاضر المغول بغداد وأحكموا حصارها

وأطلقوا يد التخريب في المدينة وفتحوا أقساما منها ، ولما رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يثنى المغول عن عزمهم على اتمام الفتح فأرسل اليهم الهدايا القيمة ولكن هولاء لم يستجيب لمحاولة الخليفة .

هزم هولاء جيشا أنفذه الخليفة لمحاربته ، وأباده عن آخره ، عندئذ خرج الوزير ابن العلقمي الى هولاء وتوثق منه لنفسه وعاد الى المستعصر وأخبره أن هولاء يقيمه في الخلافة ، وحسن له الخروج الى هولاء فخرج من بغداد ومعه أبنائه فلما وصلوا الى هولاء أحسن استقبالهم وطلب الى الخليفة أن ينأى في الناس بالقاء أسلحتهم والخروج من المدينة لأخضاعهم ، فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا قتلوا جميعا . أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق بهم فقد وضعهم الخليفة في معتقل (٣٨) .

بعد ذلك أمر هولاء بدم الخنادق وهدم أسوار المدينة كما شيد جسرا على نهر دجلة ، ثم أعلن الهجوم العام على المدينة في صفر من السنة نفسها ٦٥٦ هـ فدخلها المغول ودمروها وخربوا المساجد ودمروا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء أربعين وما ، واندلعت فيها السنة النيران في كل جانب من المدينة وانت على الأخضر واليابس ودمر أكثر المدينة وجامع الخليفة ، وعندما دخل هولاء مدينة بغداد قصد قصر الخليفة واستولى على ما فيه من نفائس وتحف نادرة ، وأخيرا بعد أن سفك هولاء من الدماء ما سفك وخرب ما خرب أصدر أمرا بالكف عن القتل ، وإن ينصرف كل الى عمله ويقول المؤرخون انه لما نودى ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم موتى اذ ابتعثوا من قبورهم وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه فأخذهم الوباء الشديد فمتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى ، وقتل هولاء الخليفة الباس وتلك الأيام نداولها بين الناس .

(٣٨) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٧٤ .

المغول بعد سقوط بغداد

امتدت غارات المغول الى ماردين ، فسير هولاكو جيشا اليها سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ، غير أن أميرها الملك السعيد ، تحصن في القلعة ، وأرسل القائد المغولي اليه يحذره من التمادى في المقاومة ، لكن الملك السعيد ، رفض الاستسلام ، لما عرفه عن غدر المغول ، الذين ظلوا يشددون الحصار على قلعة ماردين ، حتى اجتاحتها الفلاء والوباء والقحط ، فثار مظفر الدين على أبيه الملك السعيد ، وانتزع منه القلعة وأرسل الى القائد المغولى يطلب منه الكف عن القتال في مقابل نزوله عن القلعة ، فوافق هولاكو وأقره على حكم ماردين (١) .

كان هولاكو يحرص على أن يظل أمير ماردين تابعا له ، فلما خرج عليه أبناء بدر الدين لؤلؤ — حكام الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر — واستنجدوا بالظاهر بيبرس — سلطان المماليك في مصر — خشى أن يحذو الملك المظفر — أمير ماردين — حذوهم ، فلما قدم عليه أكرم وعادته ، وقال له : بلغني أن أولاد صاحب الموصل هربوا من البلاد الى مصر ، وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا السبب في خروجهم ، فاترك أصحابك الذين وصلوا معك عندي ، فاني لا آمن منهم أن يحرقوك عنى ، ويرقبوك في النزوح عن بلادك الى مصر (٢) . فأجاب صاحب ماردين طلبه ، وعهد اليه هولاكو بحكم تصيين بالاضافة الى ماردين (٣) .

ظل الملك المظفر على ولائه لهولاكو ، فانضم الى قوات المغول في حصار الموصل سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م . ولما توفي سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٣م استمر خلفاؤه في ولائهم للمغول ، وبلغ من اخلاص نجم الدين غازي الثانى المنصور بن قرا أرسلان — الذى ولى ماردين سنة ٦٩١هـ/١٢٩٣م — للمغول أن منحه هولاكو التاج والمظلة الملكية ، وجعله من خواصه ، وفوض اليه الملك في كل من ديار بكر وديار ربيعة .

(١) رشيد الدين فضل الله : تاريخ المغول ج١ ص ٢٢٥ .

(٢) قطب الدين البعلبكي : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٥٧-٤٥٨ .

(٣) نفس المصدر : ج١ ص ٤٩٢ .

عهد منكوتة — خاقان المغول العظيم في قرا قورم لأخيه هولاكو بالتوجه الى غرب آسيا لفتح غرب ايران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن ، وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزئيات ، واحترام رأى زوجته دوقوز خاتون ومشاورتها في مهم الأمور .

واستطاع هولاكو ان يكون دولة قوية للمغول في فارس ، وقدم زعماء فارس والأتاكية والحكام المحليون فروض الولاء والطاعة لهولاكو ، ولم يعد يعكر صفو هذه الدولة الا الاسماعيلية الذين اعتصموا في الجبال المنيفة ، وظل خلفاء الحسن الصباح يجمعون الاتاوة من الأمراء المحليين ، ويلحقون ويلتهم بكل من يمتنع عن ادائها لهم (٤) .

واصل المغول سياستهم التوسعية في بلاد الجزيرة ، فاستولوا على أمد ونصيبين وحران والرها وسروج والبيرة ، واستعان هولاكو ببعض أمراء المسلمين في غزو الشام ، فأرسل الى بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل — يقول : « ان سنك قد جاوزت التسعين ، ولذلك أعفيناك من السير معنا ، ولكن عليك ان تبعث بابنك الملك الصالح مع الرايات الغازية ، لفتح ديار الشام ومصر » . فلم يتردد بدر الدين في انفاذ جيش الى هولاكو بقيادة ابنه (٥) .

لما توفي بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٥٧ هـ قسم هولاكو امارته بين أبنائه الثلاثة ، فولى الملك الصالح حكم الموصل ، على حين فوض حكم سنجار لعلاء الدين ، وجزيرة ابن عمر للمجاهد اسحاق (٦) ، غير أن أبناء بدر الدين لؤلؤ ما لبثوا أن خرجوا على المغول ، وغادروا بلادهم ، ولجأوا الى سلطان المماليك في مصر ، فأرسل هولاكو جيشا استولى على بلادهم سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ (٧) .

كذلك أظهر الصاحب تاج الدين بن صلاحية — حاكم اربل — ولاءه للمغول ، ففى أثناء حصار هولاكو بغداد قصد القائد المغولي

(٤) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ ٢م ١ ج ١ ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٥) المصدر السابق ١ ج ١ ص ٣٠٥ .

(٦) Howarth : History of the Mongols. Vol. 4 p. 131.

(٧) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ : تاريخ المغول المجلد الأول ١ ج ١ ص ٢٢٧ .

أرقيونويان - مدينة أربل ، وطلب من حاكمها تمكينه من الاستيلاء على القلعة ، فحاول تاج الدين اقناع حاميتها بالتسليم (٨) ، ولما استعصت أربل على المغول فتحوا كافة البلاد ، ولم تستطع قوة الوقف في وجههم . من الجند ، غير أنه لم يكن لهذه الامدادات أى تأثير في سقوط القلعة (٩) في أيدي المغول ، فاستدعى القائد المغولى بدر الدين لؤلؤ ، فسار الى أربل ، وحاصر قلعتها ، وهدم أسوارها وسلمها للمغول (١٠) .

وهكذا لم يتمكن أتابكة الموصل والجزيرة من صد خطر المغولى الذى تعرضت له بلادهم ، بل خشوا بأسهم ، واضطر الى الدخول في طاعتهم . غير أن هذه السياسة التى اتبعها هؤلاء الأتابكة لم تجد نقما ، فتعرضت بلادهم لغارات المغول التى اقترنت بالتخريب والتدمير .

تطلع المغول الى الزحف على مصر ليتيموا بذلك السيطرة على بلاد الشرق الاسلامى وليقضوا على آخر قوة اسلامية في الشرق في استئطاعها التصدى لهم .

أرسل هولاكو الى سلطان المالك في مصر الملك المظفر قطز خطابا يهدده فيه ، ويتوعده ان امتنع عن التسليم والاذعان له ، ويذكره بان المغول فتحوا كافة البلاد ، ولم تستطع قوة الوقف في وجههم ، ومما جاء في خطابه « لكم في جميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فانتظروا بفيركم ، وأسلموا الينا أمركم قبل ان ينكشف السقاء فتندموا ، فنحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى وأى أرض تؤويكم ، وأى طريق تنجيكم ؟ فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعيق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالأرمال ... وقد سمعتم اننا فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العبياد ، فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص » (١١) .

(٨) لم يقبل القائد المغولى اعتذار صاحب أربل عن تمكين المغول من فتح البلدة ، وقال له : « ان الدليل على صحة الطاعة هو تسليم القلعة ، وأرسله الى هولاكو فأمر بقتله .

(قطب الدين البعلبكي : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٩١) .

(٩) قطب الدين البعلبكي : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٩١ .

(10) Howorth : History of the Mongols. Vol. 4 pp. 134-135.

(١١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٨ .

لكن السلطان قطز لم يابه بتهديد المغول ، بل عقد العزم على ضرورة مقاومتهم مهما كانت التضحيات ، فأمر بقتل رسل سلطان المغول وعلقت رؤوسهم على باب زويلة ، وخرج السلطان قطز الى بلاد الشام للمقاء المغول الذين اجتازوا الشام ودخلوا فلسطين ، واقتربوا من حدود مصر ، واحتلوا غزة .

اشتبك المسلمون من مصر والشام وبلاد الجزيرة في رمضان ١٢٦٠م مع المغول في عين جالوت بالقرب من نابلس في معركة حامية الوطيس انتصر فيها المسلمون على أعدائهم ، بعد أن اشتدت هجمات المغول حتى أن كتبغا - قائد المغول - تحول أثناء المعركة الى قطعة من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، وقد أظهر المسلمون شجاعة منقطعة النظير أثناء المعركة ، ولما رأى السلطان قطز قوة بأس المغول ألقى بخوذته عن رأسه الى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : وا اسلاماه . عندئذ ثارت حماسه جنده ، وحمل وطيس المعركة ، وانتصر المسلمون انتصارا رائعا . ومزقوا شمل المغول كل ممزق ، وخر كتبغا - قائد المغول - صريعا في المعركة ، ولم ينج من المغول الا من لاذ بالفرار ، وفروا لا يلوون على دار ولا يركنون الى قرار (١،٢) .

ومما لا شك فيه أن موقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة في التاريخ ، لأنها أضعفتهم ، وأوقفت تقدمهم في بلاد الاسلام .

ترتب على موقعة عين جالوت نتائج بالغة الأهمية ، فلو انتصر المغول في تلك الموقعة لفتحوا بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق والشام . ولقاسى العالم الاسلامى من ويلات المغول الشيء الكثير ، ولتغير مجرى التاريخ في المنطقة كلها . ولكن هزيمة المغول في واقعة عين جالوت لم ينقذ مصر فحسب من وحشية المغول وهمجيتهم ، بل أنقذ الشام أيضا ، لأن المغول بعد هزيمتهم في عين جالوت لم يعد لهم مقام في بلاد الشام (١٣) .

لقد كان انكسار المغول في عين جالوت بداية لظهور الدولة الايلخانية لحيز الوجود على يد هولاكو الذى يعد المؤسس الأول لها ، وقد

(١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٧٩ .

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٢٧ .

وطدت أركانها في عهد خلفائه من بعده . وكانت وفاة هولاء في أوائل ٦٦٣ هـ قبل أن يتم بناء مرصد مراغة الذي أمر بإنشائه ، وعلى عادة المغول شيدت له مقبرة القوا فيها بالكثير من الجواهر وارتدوا إلى جواره عدة فتيات جميلات مزينات بالملابس الفاخرة والمرصعة لاعتقادهم بأن وجود تلك الفتيات معه في القبر يحفظه ويخفف عنه الوحشة وظلمة القبر ورهبته وثقل الوحدة وضيق المكان ونيران العذاب ، ويقول خواجه نصير الدين الطوسي :

عقدها مضى هولاء من مراغة إلى مشتاه

وضع تقدير الأجل نهاية لعمره

ذلك في ليلة الأحد عام ٦٦٣

والتي كانت ليلة التاسع عشر من ربيع الآخر

وبعد انتهاء فترة العزاء اذعن أبناء هولاء الاثنا عشر لطاعة

اباهاخان وانتخبوه من بينهم .

دولة المغول الايلخانية بفارس والعراق

كان هولاكو بعد انتصاراته الكبيرة في المشرق يضم الى ملكه الشاسع العريض ايران والعراق ، وكانت الدولة المغولية في ايران تضم الاراضى الممتدة بين نهر جيحون الى المحيط الهندي ، ومن السند الى الفرات وبعض اراضى آسيا الصغرى ، وقد حكم اباقا ايران بعد وفاة والده سنة ٦٦٣ هـ ، وكان حكام ايران يحملون لقب ايلخان للدلالة على تبعيتهم للخاقان الأعظم في الصين ، وتعاقد على حكم ايران الايلخانات حتى سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م حيث زالت دولتهم .

وكانت كلمة ايلخان تطلق على خان القبيلة ، وعلى خان الايالة وتدل على أن حاملها داخل في الولاء والطاعة للقائات ومدن لهم بالطاعة ، وأطلق على كل حاكم مغولى في ايران ، ايلخان وكان هولاكو ومن خلفه حتى غازان خان يحكمون باسم القائات من بكين ، وسمى هولاكو بالخاقان الكبير ، وحكمت أسرة هولاكو حكما مستقلا في ايران زهاء قرن من الزمان (١٤) ، وتأثر خلفاء هولاكو بالخضارة الفارسية والنظم والثقافة ، وظهر ذلك جليا في اساليب حكمهم ، فازدهرت الحركة الفكرية في عهدهم .

لما توفي هولاكو ، انتخب الأمراء ، اباقا خان ، وصدر فرمان بتوليته من قبل قوبيلاي قاآن . وعمل اباقا خان منذ توليته على تأمين حدود دولته ، فحصن حدود دولته مع دولة سلاجقة الروم وغيرها ، وعهد الى أخيه تيسين بحكم خراسان ، وإلى بهاء الدين محمد بحكم العراق العجمي وأصفهان ، وساس الناس بالعدل ، وبرز في عهده علماء أجلاء ، مثل : نصير الدين الطوسي ، وشمس الدين الجويني ، واعتنق اباقا خان البوذية ، ونعم المسيحيون في عهده بالحرية الدينية ، وتزوج ابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليو لوجوس (٢٥٩-١٢٨٢ م) .

(١٤) أحمد سعيد مهديان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ص ٤٨٠ .

حرصت الدولة الأيلخانية على تحسين علاقتها مع الدول الأوروبية خاصة فرنسا التي ساءت علاقتها مع المماليك في مصر بسبب حملتها الصليبية عليهم (١٥) .

ولما توفي أباخان سنة ٦٨٠ هـ ، خلفه أحمد تكودار ، وقد اعتنق الإسلام ، وعمل على تبديل لباس الجنكيزي بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، ولقد كان لأحمد تكودار علاقات طيبة مع السلطان الملوكي قلاوون . ولكن هذا الخان واجه صراعات داخلية ، ومنازعات من الأمراء ، وخاصة الأمير أرغون ، وأدت إلى وقوع الحرب بينهما ، وانضم كيخاتو حاكم بلاد الروم للسلالة إلى أرغون ، وانضم بعض أمراء الدولة الأقوياء إلى الأمير أرغون ، وقتلوا أحمد تكودار سنة ٦٨٣ هـ وولى أرغون العرش .

وفي عهد أرغون تم التخلص من شمس الدين الجويني ، واستوزر أرغون ، ساعد الدولة بن صفى الدين ، وكان يهوديا ، ويمتاز بكفافته من الناحية الإدارية ، وكان يتعصب لأبناء ملته ، ويفضلهم على من سواهم ، وحدثته نفسه بتحويل الكعبة إلى معبد للأصنام ، وهذا يدل على تعصبه للأعشى ضد الإسلام والمسلمين ، وكان أرغون يتطلع إلى النيل من المسلمين بأن يقف إلى جانب الصليبيين في هجومهم المرتقب على الشرق ، ويساعدهم في محاولة استرداد بيت المقدس من المسلمين (١٦) وأرسل سفارات في هذا الصدد إلى البابا وملك أوروبا ، واضطربت البلاد في أواخر عهده وتصدى له الأمراء ، وتآمروا عليه ، وتوفي سنة ٦٩٠ هـ .

ولى كيخاتوخان العرش بعد وفاة أرغون ، وانقسم الأمراء في عهده إلى أحزاب ، فريق أيد كيخاتو ، وفريق أيد بايسدو وعهد إلى الزنجاني بالوزارة ، ووضع الزنجاني عملة الجاو ، وهي عملة ورقية على نمط العملة المتداولة في الصين ، وسبب اختيار هذه العملة ، حاجة الدولة للأموال لدفع رواتب الجند ، على أن الناس رفضوا التعامل بها ، وأصرروا على التعامل بالنقود الذهبية ، ولم تطل مدة كيخاتو ، فقد ثار عليه بايسدو وقتله سنة ٦٩٩ هـ . وحكم بايسدو ستة شهور ، ولم تصف له الأمور ،

(15) Howarth : Hist of the Mongols. Vol. III p. 279.

(١٦) خواندمير : دستور الوزراء ص ٢٠٢ .

فقد طالب غازان بالثأر لمقتل كيخاتو ، وتحالف معه بعض الأمراء ، وحاربوا ابيدوخان وهزموه ، وكان بايدو مشغولا عن الحكم بالليو والمجون ، الأمر الذى مكن أعداءه منه .

ومن أبرز خانات المغول فى ايران : غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ) ، فقد اعتنق الاسلام ، وأحدث بذلك تغييرا كبيرا فى علاقة المغول بالشعب الايرانى ، فقد تسالت البوذية مع المغول الى ايران وشيد كهنة البوذيين المعابد فى ايران ، وسعوا بأساليب مختلفة الى نشر الديانة البوذية فى ايران ، وتحويل الناس الى عبادة بوذا ، وما ان دخل غازان فى دين الله حتى عمل على ادخال قومه من المغول فى الاسلام ، وأسلم على يديه حوالى مائة ألف مغولى ، وحول معابد بوذا والكنائس الى مساجد يذكر فيها اسم الله ، وكان يتكلم باللغة الفارسية ، وعرف عن طريقها كلمات عربية كثيرة ، لذلك تمكن من دراسة الدين الاسلامى دراسة واقية ، وبلغ من حماسه للدين الاسلامى أن كان يقف من المغول موقف الواعظ ويرشدهم الى الدين الحنيف ، ويشرح لهم أسسه وخصائصه ، وسمى نفسه معز الدين محمود غازان خان ، وأعيد بناء أضرحة المشايخ التى هدمها المغول وكثلك المساجد ، وهدم بيوت الليان الزرادشتية وتشدد فى تحويل رعاياه غير المسلمين الى الاسلام ، وقطع صلته بالخاقان الأعظم فى الصين ، وحكم ايران مستقلا تماما ، وانفرد بنقش اسمه على السكة ، وبذكر اسمه فى الخطبة ، وعزل اليهود والمسيحيين من الوظائف العامة ، وقصرها على المسلمين فقط ، الأمر الذى أوجد حالة من السخط ضده ، لذلك لجأ الى العنف فى القضاء على خصومه ، وقتل الكثير منهم ، وقضى على أسرة صدر جهان الوزير الأديب العالم السياسى الماهر والادارى الحازم ، وخلفه فى منصب الوزارة ، خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني الطبيب والمؤرخ ، صاحب كتاب « جامع التواريخ » (١٧) .

ومن الاحداث السياسية الهامة فى عهد غازان ، دخوله فى حرب مع دولة المماليك فى مصر والشام ، وكان سلطان المماليك حينئذ ، الناصر محمد بن قلاوون ، وقد استاء غازان من المماليك لأنهم آووا الفارين منه ، كما شن المماليك عدة حملات حربية على بلاد الأرمن ،

(١٧) عبدالسلام عبدالعزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٧ .

وتربطه بملكها علاقة ود وصداقة ، واعتقد غازان أن الخلاف بين أمراء المماليك يسير له مهمة مهاجمة الشام ، والسيطرة عليها ، ثم الزحف منها الى مصر .

لما اعتدى بلقان الطباخي — نائب حلب — على ماردين واستباحها لجنده ، اتخذ غازان من هذه الحادثة ذريعة لمهاجمة بلاد الشام ، وفي سنة ٦٩٧ هـ هاجم غازان بلاد الشام بقوات مغولية تزيد على تسعين ألف مقاتل ، وخرج الناصر محمد بجيشه الكبير الى بلاد الشام ، والتقى بالجيش المغولي في الخازندار في معركة حامية الوطيس ، انتهت بهزيمة المماليك وانتصار المغول ، وزحف المغول الى حمص ونهبوا ما فيها ، ثم واصلوا مسيرتهم الى دمشق ، فعم أهلها الفزع والهلع ، ولذا الكثير منهم بالفرار من مدينتهم ومقارنتها ، وخشى كبار رجال المدينة وعلماؤها من تدمير المغول لبلدهم ، فخرج وفد منهم لمقابلة غازان وطلب الأمان منه ، وعلى رأسهم قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة ، وشيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ، وبعض الفقهاء والأقراء والأعيان ، وأرسل غازان أمانا الى أهل دمشق قرىء في المسجد الأموي ، يتضمن تأمين الناس على أموالهم وأرواحهم ونسائهم وإيجاد حكومة تحكم بالعدل ، وتدفع عن الناس الظلم والجور .

لكن غازان نكث بالعهد ، بعد أن تسلم دمشق ، وأطلق جنده في المدينة يعيشون فيها نهبا وفسادا وتخريبا ، بل امتدت أيديهم الى بيت المقدس وسائر بلدان الشام ، ورفض أرجواش المنصوري تسليم قلعة دمشق ، ودافع عنها ببسالة ، ومع ذلك بسط المغول نفوذهم على بلاد الشام ، وأقيمت الخطبة لغازان على منابرها وعاد الناصر محمد الى مصر بينما واصل المغول زحفهم في بلاد الشام فغزوا الصالحية ، ومزقوا أهلها كل ممزق ، أما أهل دمشق فقد أزهقهم المغول بالضرائب الباهظة ، وارتفعت الأسعار ، وعم البؤس ، وكثر القتل والدمار ، وبلغ من شدة الرعب الذي لحق بالناس ، أن امتنعوا عن الخروج من منازلهم خوفا من أن يسخرهم المغول في ردم الخنادق وأداء بعض الأعمال الحربية (١٨) .

لما عاد غازان الى بلاده بعد أن نهب دمشق سنة ٦٩٩ هـ عهد الى قبيجق بنيناية دمشق ، وعين قطلوشاه قائدا لحامية المغول ببلاد

(١٨) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ١٨٥ .

الشام ، لكن أرجواش رفض تسليم القلعة ، ولم يلبث أن سيطر على دمشق ، بعد خروج قبيح إلى مصر لمقاومة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، لأنه أطلع عن خيائيه للسلطان المملوكي ، وغول على تطهير بلاد الشام من المغول ، وقد رحب به السلطان الناصر محمد ، ورحب بعودته إلى جانب المماليك بعد أن خانهم وانضم إلى عدوهم ، ويسر للمغول أمر دخول الشام ، أما الآن فقد عاد إلى الصواب ، وانضم إلى الناصر في محاولة استرداد الشام من المغول .

على كل حال أعاد الناصر محمد جيشا كبيرا لطرد المغول ، وفي سنة ٧٠٠هـ سار محمود غازان على رأس جيش كبير للخيولة بين المماليك واسترداد الشام ، وعبر غازان الفرات ، واتجه إلى أنطاكية ، ونهب أنطاكية ، غير أنه لم يستطع مواصلة الزحف إلى سورية بسبب شدة البرد ، وسوء الأحوال الجوية ، كما أن الدول الأوربية لم توافق على مساعدته في منع المماليك من العودة إلى سورية ، وأرسل غازان سفارة إلى الناصر محمد ناشده عدم مهاجمة سورية ، ويتوعده أن أقدم على ذلك ، غير أن الناصر رفض تهديدات غازان ، وطالبه بأن يمنع رجاله من النهب والقتل في سورية ، وأن يسحب جنده منها ، ويبدى رغبته في صداقته أن فعل ذلك ، والتزم بتعاليم الاسلام .

لم تضع هذه المراسلات حدا للتوتر القائم بين البلدين ، فعبر غازان في سنة ٧٠٢هـ نهر الفرات على رأس جيش كبير ، والتقى بجيش المماليك في موقعة عرض ، وانتصر المماليك في هذه الموقعة انتصارا رائعا ، ولكن المغول لم يعودوا إلى بلادهم بعد الهزيمة ، بل زحفوا إلى دمشق ، واجتمعت الجيوش المصرية والشامية في مرج الصفر بالقرب من دمشق ، وهزم المماليك المغول ومزقوهم كل ممزق ، وفر من استطاع .

وكان لهذا الانتصار آثار بعيدة المدى في تطور الحياة السياسية في بلاد الشام ، فقد استرد المماليك دمشق ، وسائر مدن الشام ، وغادر المغول هذه البلاد ، وعاد أهل هذه البلاد إلى بلادهم ، بعد أن شردوا واضطهدوا ، واحتفل أهل الشام ومصر بهذا النصر المبين احتفالات رائعة .

لم يحتفل غازان هذا الموقف ، فقد اعتلت صحته ومرض وتوفي سنة ١٣٠٤هـ / ١٣٠٤م .

ولى أولجايتو بن أرغون حكم الدولة الايلخانية بعد وفاة غازان ، وقد نهج سياسة جديدة ، تعتمد على تقوية البلاد من الداخل ، وذلك بضبط شؤون البلاد الداخلية ، والسهر على مصالحها ، كنشر الاسلام وجعله الدين الرسمي للبلاد ، وكان أولجايتو مسيحيا بتأثير أمه ، ولما توفيت اعتنق الاسلام بتأثير زوجته المسلمة .

واصل أولجايتو السياسة الإصلاحية لأخيه غازان ، فأبقى على جميع الوزارات والادارات واعطاء الصلاحيات الكاملة لرجالته أخيه غازان والابقاء عليهم ، مثل الوزيرين فضل الله رشيد الدين الهمداني ، وسعد الدين الساجي (١٩) .

وفي سبيل توحيد البلاد وخلق الاستقرار والأمن داخليا ، قام أولجايتو بمحاربة القبائل النائرة والساخطة على الحكم المغول مثل بلاد كيلاں وهراة ، وقد كلفه ذلك عناء وجهد كبيرين (٢٠) .

وفي الميدان العمراني قام السلطان أولجايتو بتشييد عاصمة جديدة للدولة بين قزوين وهمدان عام ٧١٣هـ / ١٣١٣م وسماها السلطانية . وقد ازدهرت العاصمة الايلخانية الجديدة بالكثير من القصور والمساجد والمدارس والمستشفيات ، كما بنى فيها مسجدا جامعيا على نفقته الخاصة ومدرسة على نمط المدرسة المستنصرية في بغداد ، وأصبحت تمثل أحد مراكز الثقافة الاسلامية الهامة سواء في الثقافة او في نشر الاسلام ذاته (٢١) .

وكان هذا السلطان قد اتبع المذهب الحنفي بتأثير الأئمة الذين

(١٩) حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ ، مخطوطة فارسية رقم ٦٨ (١) ورقة ٤٧١ ، وانظر أيضا عبدالمعطي الصياد ، مؤرخ المغول الكبير ، فضل الله رشيد الدين ص ١٧٨ . (٢٠) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٤ ص ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، وحبيب الشافعي : درة الأماني في دولة الأتراك ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٦٥٣ ج ١ ص ٥٠٨ .

(٢١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٦٦ .
Saunders, The History of the Mongol conquests, p. 143, 144.

كانوا يحيطون به عندما كان واليا على خراسان اثناء حكم اخيه السلطان محمود غازان . ولما توفي غازان واعتلى اولجايتو عرش البلاد تحول الى المذهب الشافعي عام ١٣٠٧هـ/١٣٠٧م بتأثير وزيره رشيد الدين ، كما تحول الى مذهب الاثنية الاثنى عشرية منذ عام ١٣٠٧هـ/١٣٠٧م وضرب اسماءهم على السكة وتغيير صيغة الخطبة لتتفق مع مذهبه الشيعي الجديد (٢٢) .

وفي جانب العلاقات بين الايلخانات وباقي دول المغول بحث اولجايتو جديا في عودة السلام بين جميع القادة المغول بعد حروب متصلة بينهم دامت خمسة وأربعين عاما ، ولكن القبائل المغولية المختلفة قد اندرجت كل قبيلة منها في حضارة المنطقة التي احتلتها وعاشت فيها . حقيقة قد عمل غازان من قبل على عودة الوحدة المغولية ، غير أن تلك الجهود لم يكن لها من اثر ملموس ، كذلك فان اولجايتو في مجال بحث هذه الوحدة المفقودة استقبل في مراغة في أغسطس سنة ١٣٠٤م سفير الخاقان تيمور حفيد قوبيلاي وخليفته ، كما استقبل اولجايتو أيضا سفراء شابر ابن قابدو ودوا بن بوراق وهم من المغول الجغتائيين في مهمة لانهاء المنازعات بين مختلف الفروع المغولية من بني جنكيز خان ، كما استقبل أيضا سفراء ططاي خان القبيلة الذهبية (٢٣) غير أن تلك المساعي كلها لم تكن لها أية نتائج ايجابية لأن فكرة غزو العالم قد انتهت ، ولم يعد هناك امكانية عمل عسكري مشترك لأن كل دولة مغولية أصبحت مهتمة بمصالحها الخاصة ، ولم يكن للاعتراف بتيمور حفيد قوبيلاي خانا اعظم للمغول من ميزة سوى بقاء السلام لفترة وجيزة بهدف تشجيع التجارة فيما بينهم (٢٤) .

واتخذ سياسة ودية نحو دولة المماليك وأرسل الهدايا الى سلطان المماليك والرسائل الودية التي دعا فيها سلطان المماليك الى صداقته ، وخاطبه بالاخوة وسأله اخمد الفتى ، وطلب الصلح ، وبادله الناصر الهدايا ، والرغبة في السلام (٢٥) .

(٢٢) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ج٢ ٢٢٣ تا ورقة ١٦ ، ١٧ ، ١٠٤ .

ابن العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج٢ ص ٤٦٨ .

(23) Cambridge ; History of Iran, Vol. 5 p. 398, 399.

(24) Prawdın ; The Mongol Empire, p. 378.

(٢٥) القرطبي : السلوك ج٢ القسم الاول ص ٦ .

على أن هذه العلاقات الودية لم تستمر طويلا ، ذلك أن أولجايتو اعتنق المذهب الشيعي ، وحرص على نشره في أقاليم دولته الغربية ، بل عول على استعادة سورية ، واستعان بالبابا كلمنت الخامس ، وادوارد الثاني — ملك إنجلترا — وفيليب الجميل — ملك فرنسا — ولكنهم رفضوا تلبية رغبته .

اعتزم أولجايتو سنة ٧١٢هـ مهاجمة سورية ، فأرسل نائب حلب إلى السلطان الناصر محمد يخبره بزحف المغول على بلاد الشام ، فزحف السلطان الناصر بجيوشه الجزاراة إلى سورية لدرء الخطر المغولي عنها ، عندئذ توقف أولجايتو عن الزحف على سورية ، وأمر قواته بالانسحاب من الرحبة .

على أن قوات المغول اشتبكت سنة ٧١٥هـ ، بقوات المغول في ماردين ، فقد توجه من حلب ستمائة فارس منهم الأمير شهاب الدين قرطاي للغارة على بلاد ماردين ودينيسير ، لقلعة مراعاة صاحب ماردين لأوامر وقرارات السلطان ناصر محمد ، وعدم التزامه بتنفيذها فشن قرطاي الغارة على ماردين يومين ، فتصادف وجود فرقة من جيش المغول في هذه النواحي لجباية الأموال منها على عادتهم في كل عام ، فحاربهم قرطاي وقتل منهم ستمائة رجل ، وأسز مائتين وستين وقدم بالرعوس والأسرى إلى حلب ، وقد ابتهج السلطان بذلك ، وأنعم على نائب حلب وعلى قرطاي (٢٦) .

ولكن جند أولجايتو تعرضوا للقتل في بلاد الحجاز ، فأرسل أولجايتو جندا إلى بلاد الحجاز لاحتلالها ، وإقامة الخطبة له على منابرها ، فهزم جند الناصر المغول — وكانت الحجاز تتبع للناصر — وقتل من المغول أربعمائة رجل ، وغنم العرب أموالهم وخيولهم .

(٢٦) المقرئزي : السلوك ، القسم الأول ج٢ ص ١٤٧ .

(٢٧) المقرئزي : السلوك ، القسم الأول ج٢ ص ١٤٨ .

(٢٨) ميرخواند : مصدر سابق ، ج٥ ص ٥١٢ ، ٥١٣ .

Blochet, op. cit. p. 404.

وظلت العلاقة بين الإيلخانيين والمماليك زمن أولجايتو تتأرجح
حلة الشقاق والمهادنة حتى أواخر عهد الإيلخان ، بل ساءت الى حد
كبير قبل مماته (٢٩) .

وكان مغول إيران على علاقة مع البابوية وملوك أوروبا أيضا ،
هذه العلاقة التي يمكننا أن نحكم عليها أنها علاقة مصالح خاصة ،
فبالنسبة للبابوية وملوك أوروبا كانت مصالحهم تتمثل في ناحيتين :
الناحية الأولى هي التبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين المغول ، والناحية
الثانية هي محاولة التحالف مع المغول ضد دولة الإسلام في مصر
وبلاد الشام في عهد بنى أيوب وفي عهد سلاطين المماليك . وكان الأيوبيون
والمماليك قد نذاقوا الصليبيين في بلاد الشام هزائم مزرية وانتزعوا منهم
بعض الامارات الصليبية وأعادوا لها شكلها الاسلامي . أما بالنسبة
لمغول إيران فيعود السبب للمواجهة العنيفة التي وقف بها المماليك في
وجه المغول ، والهزيمة التي ألحقوها بهم في موقعة عين جالوت ،
وكانت تلك أول هزيمة تلحق بالجيش المغولي . ومن هنا جاء التحالف
بين المغول والصليبيين في بلاد الشام وفي بلاد أوروبا أمرا متوقعا .

وسار أولجايتو على نهج نفس سياسة أسلافه ، وهي التقرب
من ملوك الغرب المسيحي وربط علاقات ودية معهم ، ويبدو ان هدف
إيلخانات إيران من تلك المحاولات كان مجرد إرهاب المماليك بعد أن ثبت
عدم رغبة القوى الأوروبية - بسبب مشاغلها الداخلية - في التورط
في مشاريع صليبية جديدة في بلاد الشام ، وكان أول سفراء خدابنده الى
الغرب الأوربي هو السفير توماس الدوتشي (THOMAS EL-DOUTCHI)
الذي ذهب الى كلمنت الخامس زعيم البابوية في روما والى فيليب الجميل
(Philippelebel) ملك فرنسا والى ادوارد الثاني ملك إنجلترا ،
وقد عبر أولجايتو في رسائله لهؤلاء جميعا عن سعادته للوقاق القائم بين
زعماء الغرب المسيحي وبين سائر قادة المغول من سلالة جنكيز خان ،

(٢٩) كانت وفاة السلطان أولجايتو في يوم الأربعاء ليلة رمضان ٧١٦هـ / ١٢ ديسمبر ١٣١٦م
(أبو القاسم القاشاني ، تاريخ أولجايتو ، مخطوطة فارسية ١٤١٩ ورقة ١٤٧) ،
بينما يذكر العيني في مؤلفه عقد الجمان ج٢٣ ، ص ١٠٤ ، أن وفاته كانت في السابع
والعشرين من رمضان ٧١٦هـ .

كما أبدى أولجايتو رغبته في مواصلة العلاقات الودية بين الجانبين (٣٠) غير أن هذا التحالف بين الجانبين لم يتم أبدا وظلت آمال تحقيقه حلما يراود السلطان أولجايتو حتى مماته

و جدير بالذكر أن السلطان أولجايتو تنصب للمذهب الشيعي وأمر بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة : أبى بكر وعمر وعثمان من الخطبة ، وتعصب للشيعية ومذهب قل البيت ، وأصدر فرمانات الى أنحاء دولته بقتل أسماء الأئمة الاثنى عشر من الخطبة والسبكة وتعصب لمذهبه الشيعي ، واضطهد أهل السنة ، وكانوا يشكلون أغلبية السكان في دولته ، وساءت العلاقات وتدهورت في مملكته بين السننيين والسلطان وأنصاره من الشيعية ، ولما خشي السلطان من اندلاع الفتن ، عاد فأمر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة في الخطبة .

وكان أولجايتو جريصا على نشر العدل بين الناس ، وانصاف المظلومين ، ومنع تعدى المغول على الأهالي ، وأحيا قوانين غازان ، ونظم ادارة البلاد وازدهرت ايران في عهده وعهدها الرخاء ، ويرجع الفضل في ذلك الى وزيره رشيد الدين فضل الله الهمداني ، وتوفي أولجايتو سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م .

خلف بوسعيد آياه في حكم الدولة الايلخانية ، وكان في الثالثة عشرة من العمر ، وتولى الوصاية عليه الأمير جوبان — أمير الأمراء — وظل رشيد الدين فضل الله في الوزارة .

وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مستهرا في عداوته للمغول ، فانفذ بعض أمراء طائفة الاسماعيلية لاغتيال قزا سنقر — حاكم مراغة من قبل المغول — لكن هذه المؤامرة باءت بالفشل ، وان جعلت المغول يلزمون جانب الحذر من الممالك ، وقد أثر بوسعيد مهادنة الممالك ، وأرسل رسولا الى مصر ، يعرض للصلح ، واتفق السلطان الناصر مع مندوب بوسعيد على عقد صلح يتضمن وقف الحملات الحربية

(30) Sykes, A History of Persia, Vol. II. p. 115.

Berthold, History of the Mongols p. 142, 144.

Aziz Suryal Atiya, The crusade in the Later middle ages, p. 56.

بين البلدين ، وعدم انفاذ الناصر الاسماعيلية الى فارس للتخريب وأعمال
الاغتيالات ، وأن من حضر من مصر اليهم لا يطلب ، ومن حضر منهم من
مصر لا يعود اليها الا برضاه ، ولا يحرض الناصر العرب والتركمان
بالاغارة على دولة المغول ، وتضمن الصلح تأمين طرق التجارة بين
الدولتين ، وعدم التحريض على قتل قرا سنقر — حاكم مراغة — وأن
يسير المحمل كل عام من العراق الى بلاد الحجاز ، حاملا علمى سلطان
مصر ، وايلخان المغول (٣١) وكان لهذا الصلح اثره فى تحسين العلاقات
بين البلدين .

وفى سنة ٧٢١هـ ، اعتنى بوسعيد بأمر حاج العراق عناية تامة ،
وغشى المحمل بالحريز ، ورصعه باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر .
فلما مر ركب العراق بعرب البحرين ، تعرض لهم ألف فارس ، فتوسط
الوسطاء بينهم على أن يكفوا عنهم مقابل ثلاثة آلاف دينار ، ولكنهم
اعدوا المال لما قالوا لهم : انها جئتكم بأمر الملك الناصر ، وقالوا :
لأجل الملك الناصر تخفركم بغير شئ ، ومكنوهم من المسير ، فأنعم
السلطان على العربان ، وأرسل السلطان الى أمراء المغول وأعبائهم
الخلع ، وأقيمت الدعوة لبوسعيد على منابر مكة بعد السلطان الناصر
محمد ، وأصبح الحجاج آمين على أنفسهم وأموالهم (٣٢) .

استأثر جويان بالسلطة والنفوذ فى فارس ، ولم يعد لبوسعيد
من السلطة الا اسمها ، وأتاب جويان ابنه ، دمشق خواجه بشؤون
الجيش وعهد بحكم آسيا الصغرى الى ابنه دهردائش .

على أن بوسعيد استرد سلطانه لما بلغ الحادية والعشرين من
عمره ، وقد مهد لذلك بالتخلص من دمشق خواجه ، ودبر مؤامرة لاغتيال
جويان ، حتى أن جويان سار على رأس جيش كبير لمحاربة بوسعيد ،
ولكن جويان قتل ، وقتل السلطان بوسعيد أبناءه وأقاربه وأحفاده ، وكل
من له صلة بالأسرة .

وكان دهردائش بن جويان ، لما شعر بهوقف بوسعيد منه ومن
أسرته ، فرض على نفسه حراسة مشددة ، خوفا من أن يرسل

(٣١) المقرئى : السلوك ، ج٢ القسم الاول ص ٢٠٩ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٢١٤ .

السلطان أنناصر بعض أفراد الاسماعيلية لقتله ، لأنه منع تجار الرقيق من حمل الممالك الى مصر من ولايته في آسيا الصغرى ، ولما وقعت في يده رسائل بوسعيد تحض على قتله ، قتل الرسل ، ودخل في طاعة الناصر حماية له من بطش بوسعيد ، وسأله أن يأذن له بالقدوم الى مصر ، ليكون نائباً له ، وأذن له الناصر ، وقدم الى القاهرة فعلا وأحسن للناصر استقباله ، وأنزله في بيت يليق به ، ولكن بوسعيد ما زال بالسلطان الناصر حتى قتله (٣٣) ، وبذلك تخلص بوسعيد من أسيرة جوبان ، التي استأثرت بالحكم دونه في مستهل حكمه .

أراق بوسعيد الخمر في مملكته ، وأبطل منها بيوت الدعاري ، وأبعد أرباب الملاهي وأغلق محال الخمر ، وأبطل المكوس ، وهدم الكنائس بالقرب من تبريز ، ودعا غير المسلمين الى المسارعة في الدخول في الاسلام ، ونشر العدل وعمر المساجد والجوامع ، وقتل من وجد عنده الخمر بعد اراقتة ، واقتدى به الناصر محمد ، فأرسل الى نوابه بالشام يأمرهم باغلاق محال الخمر ، واستتابة أهل الفواحش ، وتم تنفيذ ذلك في سائر بلدان الشام (٣٤) .

كان لزوجته بوسعيد ، بغداد خاتون ، تأثير كبير عليه ، وكان يستشيرها في كل أمور الدولة ، وأطلق يدها في الحكم ، وملكته فؤاده حتى منحها لقب « خدا وندكار » أي سيدة العالم (٣٥) .

وحرص بوسعيد على تحسين علاقته بدول أوروبا ، فعقد اتفاقات تجارية مع البندقية لترويج التجارة بين دولته ، ودول أوروبا .

ولكن نهاية بوسعيد كانت على يد امزاته التي بالغ في حبها ، فلما انتزعت ولشاد خاتون ابنة دمشق خواجا حب بوسعيد وتبوات من قلبه موضع بغداد خاتون ، لم تقبل هذه الأخيرة هذا الهجر وهذا التغير من زوجها ، فدبرت مؤامرة قتله انتقاماً لنفسها ، ولكن الأمراء نكلوا بها (٣٦) .

(٢٢) المقرئى : السلوك ، ج٢ القسم الأول ص ٢٩٤ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٢١١-٢١٢ .

(٢٥) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : تاريخ دولة المنول في إيران ص ٢٢٧ .

(٢٦) رحلة ابن بطوطة ج١ ص ١٤٥ .

ويعتبر السلطان بوسعيد آخر ملوك الأسرة الايلخانية العظام الذين حكموا في ايران ، ذلك لأن بوسعيد لم يعقب ولدا ، فتعاقب على حكم الدولة أمراء من آل هولاكو .

أوصى بوسعيد قبل وفاته بأن يخلفه أرباخان على العرش الايلخاني ونفذ وزيره غياث محمد الوصية ، وولى أرباخان الحكم من سنة ٧٢٦هـ الى سنة ٧٣٦هـ ، وقد واجه منافسة شديدة ومعارضة من الأمراء الايلخانيين ، لأنه لا ينتمي لأسرة هولاكو . ومن أهم أعماله مواصلة سياسة سلفه في قتال أوزبك خان — رئيس القبيلة الذهبية — الذي أغار على الأطراف الشمالية لمملكته واستطاع أرباخان الانتصار عليه ، لكن الأمراء الايلخانيين أصروا على التخلص منه ، وتزعّم الأمير على يادشاه — حاكم بغداد — هذه الحركة المناوئة لأرباخان ، واتصل بالأمراء الايلخانيين وبعض أمراء العرب ، وانضم إلى الحركة أمراء وأميرات بيت هولاكو واستقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على بن بايدوخان ايلخانا ، واجلسوه على العرش الايلخاني ، وتلقب بموسى خان ، واستطاع على يادشاه اعداد حملة كبيرة تخلص من أرباخان ووزيره خواجه غياث الدين محمد ، وولى موسى خان الحكم سنة ٧٣٦هـ ، ولكنه واجه ما واجهه سلفه من معارضة الأمراء لحكمه واستهانتهم به ، وقاد محمد خان المعركة ضده ، انتهت بهزيمته ، وولى محمد خان الايلخانية ٧٣٦—٧٣٨هـ ولم ينعم بحكمه بل ظلت الاضطرابات الداخلية في دولته ، وقتله شيخ حسن كوجك ، وأسس حكومة في تبريز ، واتخذها عاصمة له واستمر النزاع على العرش حتى ولى انوشيروان العادل الحكم ٧٤٤—٧٥٦هـ وهو آخر حكام الدولة الايلخانية ، وكان رجلا مغمورا لا يعرفه حتى الأمراء الايلخانيين ، وكان يقضى طوال يومه في الشراب والطرب ، ونصبه ملك اشرف ايلخانا حتى يحكم باسمه واستمر حكمه حتى وفاته المفاجئة سنة ٧٥٦هـ ، وفي سنة ٧٥٤هـ توفي طغاتي مور الذي كان يحكم المنطقة الشرقية من الايلخانية ، وبوفاة انوشيروان ينتهي حكم الدولة الايلخانية لايران الذي استمر قرنا من الزمان .

الباب الثالث

الدول الإسلامية في الهند

- ١ — مملكة الغور الأفغانية .
- ٢ — الملوك الماليك في الهند .
- ٣ — الدولة الخلاجية .
- ٤ — دولة بنى تغلق .
- ٥ — الغزو التيمورى لبلاد الهند .

— الدولة الغورية :

تقع بلاد الغور في أفغانستان الحالية بين هراة وغزنة (١) ، وقامت دولة مستقلة في هذه المنطقة تتخذ من فيروزكوه عاصمة لها ، وكان الغور لا يدينون بالاسلام حتى غزاهم السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م (٢) .

شكل الغور خطرا جسيما على الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود بن سبكتكين ذلك أنهم دأبوا على شن الغارات على رعايا هذا السلطان ، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصما يقيهم بأسه (٣) .

لما كثرت غارات الغور على بلدان الدولة الغزنوية أنف السلطان محمود ان يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه ، وهم على هذا الحال من الكفر والفسوق والعصيان ، وعول على اخضاعهم ، وأعد جيشا كبيرا سار على رأسه الى بلاد الغور سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م ولتقى بجحافلهم في معركة عنيفة ، مزقهم فيها كل ممزق (٤) وأغلق الطرق المؤدية الى بلادهم ، بينما سار الجيش الغزنوي داخل بلاد الغور (٥) والتقى بأمرهم في مدينة آهنگران ، وحدث اشتباك عنيف بين الفريقين تفوق فيه جند الغور ، لذلك أمر محمود بن سبكتكين جنده بأن يولوا الغور الأدبار على سبيل

(1) K. Ali A New History of Indo-Pakistan.

p. 34.

(2) Habib : Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 32.

(3) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. p. 29.

Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 276.

(4) Munshi : The Struggle for Empire. p. 9.

(٥) العتبي : تاريخ اليميني ج٢ ص ١٢٢-١٢٣ .

الاستدراج ، وانسحب الجند الغزنوي ، فظن الغور أن ذلك هزيمة ، وساروا في أثر السلطان محمود حتى ابتعدوا عن بلادهم ، فوأتت الفرصة الجند الغزنوي للانقضاض على الغور ، وفعلا باغتهم ، ووضعوا السيوف فيهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، وشتتوا شملهم ، ووقع أمير الغور أسيرا في أيدي الغزنويين ، وأمتلك السلطان محمود قلاع الغور وحصونهم ، ومن ثم دخلت بلاد الغور في حوزة سلطان غزنة (٦) . . ولما كان الغور حتى ذلك الحين على غير دين الاسلام ، فقد حرص محمود بن سبكتكين على نشر الاسلام بينهم (٧) فاستخلف عليهم الفقهاء يعلمونهم الدين وشرائعه (٨) .

رفض أمير الغور أن يقع أسيرا في أيدي غريمه لذلك أثر الانتحار (٩) . وأبقى السلطان محمود حكم الغور في أيدي بيتهم الحاكم ، ولكن في ظل السيادة الغزنوية ، وارتفع شأن أمراء الغور في الدولة الغزنوية حتى أنهم ارتبطوا بصلة النسب ببيت سبكتكين ، لكنهم رغم ذلك تطلّعوا الى الاستقلال عن غزنة ، وأخذوا يتحينون الفرص المناسبة لتحقيق سياستهم ، وفعلا تطورت الأمور في صالحهم (١٠) ، ذلك أن الدولة الغزنوية انشغلت في دفع خطر السلاجقة الزاحفين على إقليم خراسان فأعد الغور عدتهم للاستقلال ، وتحقيق أطماعهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية . ولما إنهمك السلاجقة قوى سلطان غزنة ، واستولوا على الكثير من ممتلكاته ، ببار محمد بن الحسين — أمير الغور — الى غزنة بغية الاستيلاء عليها سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م لكن السلطان الغزنوي بهرام شاه أحبط محاولته وهزم جنده ونبض عليه وقتله (١١) .

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوي لأمرهم ، وعولوا على الانتقام من بهرام شاه ، وأعد سوري بن الحسين — أمير الغور الجديد — العدة

(٦) تاريخ البيهقي من ١١٨-١٢٠ .

(٧) خوندامير : حبيب السير ج ٢ ص ٢٢ .

(٨) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 34.

(٩) Munshi : The Struggle for Empire. p. 117.

(١٠) Habib : Sultan Mahmud. of Ghāzvin. pp. 33-34.

(١١) Lane Poole : Medieval India. pp. 46-47.

لذلك ، فقوى من أمر جنده ، وسار على رأسهم الى غزنة بقصد الاستيلاء عليها ، والأخذ بنار أخيه (١٢) ، ولما اقترب من غزنة بجحافله ، رأى بهرام شاه أنه لا يستطيع التصدي للغور الأقوياء ، فغادر حاضرة دولته ، وذهب الى الهند الغزنوية ليجمع منها جيشا قويا ، ويعود الى غزنة لتحريرها من قبضة الغور (١٣) .

أما الغور بقيادة سوري ، فقد استولوا على غزنة ، لكن جند غزنة وأهلها ساءهم احتلال الغور لمدينتهم ، وانتزعهم الحكم من بيت سبكتكين وظلوا يتحينون الفرص للتخلص من الغور ، وواتتهم الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه الى غزنة على رأس جيش كبير لاسترداد حاضرة ملكه من الفاصيين (١٤) ، ووقف جند غزنة وأهلها الى جانب بهرام شاه في الاشتباك الذي حدث بينه وبين أمير الغور الذي اغتصب امر قطعة من مملكته ، وقد انتهى القتال بهزيمة سوري (١٥) ، وقبض بهرام شاه عليه وقتله وولى جنده الأديار الى بلادهم لا يلوون على شيء ، وعاد بهرام شاه الى حاضرة ملكه ظافرا منتصرا سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وابتهج أهلها بمقدمه ، وبقر الغزاة الطامعين (١٦) .

لما قتل سوري خلفه علاء الدين الحسين بن الحسين في حكم الغور ولم يتغاض عن قتل أخيه سوري وهزيمة جنده ، وطردهم من غزنة ، بل عول على الانتقام من السلطان الغزنوي وأهل غزنة لتفكيكهم بجند الغور وأميرهم سوري ، فسار على رأس جيش كبير الى غزنة واستولى عليها (١٧) ، وولى السلطان الغزنوي بهرام شاه هاربا الى بعض البلاد المجاورة ليستجمع قوته ، ويعود الى حاضرة دولته ، أما علاء الدين الحسين بن الحسين ، فقد أقر الأمور في غزنة ، وعاد الى بلاده بعد أن استخلف على غزنة أخاه سيف الدين ، وأمره بإقامة الخطبة له في هذه

(12) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties pp. 291-292.

(١٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . حوادث سنة ٥٤٢ هـ .

(١٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٢٨٨-٢٨٩ .

(15) Lane Poole : Medieval India. pp. 46-47.

(١٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ٢٦ .

(17) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. pp. 291-292.

المدينة (١٨) كما طلب منه بأن يسير في الناس سيرة حسنة ، ويحكم بالعدل وفعلاً نفذ سيف الدين تعليمات أخيه ، فأحسن إلى أهل غزنة وأجزل على أعيانها الصلات النفيسة ، وخلع عليهم خلعاً سنياً (١٩) حتى تطيب نفوسهم ، ويخلصوا للعهد الجديد .

على أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها ، إذ كان أهل غزنة لا يزالون على ولائهم وإخلاصهم لبيت سبكتكين ، ويعارضون حكم الغور لهم ، وأعدوا العدة للتخلص منهم ، فلما كان شتاء سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وانقطع الطريق بين غزنة وبلاد الغور بعد أن غطاه الثلج ، أمن أهل غزنة عدم وصول النجذات العسكرية من بلاد الغور إلى بلادهم ، واندوا بشعار بهرام شاه (٢٠) ، وأرسلوا إليه يطلبون منه العودة إلى حاضرة ملكه ، وتحريرهم من نير الغور المفتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، فاستجاب بهرام شاه لنداء أهل غزنة ، وسار على رأس جيش كبير إلى غزنة ، ولما اقترب منها قبض أهل غزنة على سيف الدين — الحاكم الغوري — ومهدوا لبهرام شاه أمر دخول غزنة (٢١) ، فدخلها ونكل بالغور ، وبذلك استرد بهرام شاه غزنة للمرة الثانية . على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفي وولى بعده ابنه خسرو شاه (٢٢) وكان علاء الدين الحسين بن الحسين — أمير الغور — قد أعد العدة للسير إلى غزنة واستعادتها والانتقام من أهلها الذين قتلوا رجاله ، فلما علم خسرو شاه بزحف أمير الغور على غزنة استقط في يده وخاف العاقبة وغادر غزنة وقصد لاهور واستقر بها ونقل إليها حكومته وجعلها حاضرة لدولته بدلا من غزنة (٢٣) . أما أمير الغور فقد استرد غزنة وضماها إلى حوزته سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م ولم ينس هذا الأمير موقف أهل غزنة العدائي من قومه فالحق بهم ويلات (٢٤) ، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقي خلالها أهلها سوء العذاب ولم يكتف بذلك بل دمر حاضرة بني سبكتكين بها في

(١٨) خوندمير : حبيب السير ج ٢ ص ٢٢ .

(١٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ .

(٢٠) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج ٢ ص ٢٨٢-٢٨٣ .

(21). Lane Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 292.

(٢٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٦ .

(23) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 292.

(24) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan p. 43.

ذلك المنشآت التي أنشأها سلاطين غزنة العظام حتى سماه أهل غزنة «محرق العالم» (٢٥) على أنه أصلح أمور غزنة. بعد أن أسرف في الانتقام من أهلها يرأب الصدع (٢٦) ، ونقل الكثير من أهل غزنة ممن يخشى بأسهم إلى بلاده وأسكنهم بعض قلاعها وبذلك كفل سياسته هذه أضعاف مقاومة سكان غزنة لحكم الغور ويقائها في حوزته (٢٧) .

قويت دولة الغور في عهد أميرها علاء الدين الحسين بن الحسين وتطلع إلى توسيع رقعة دولته ، فسار على رأس جيش كبير إلى خراسان وعاث جنده فسادا وتخريبا في أعمال هراة - وسار إلى بلخ وحاصرها وضيق عليها الحصار حتى استسلمت له وضمها إلى حوزته على أنه لم يحظ بحكمها طويلا فقد سار إليه السلطان السلجوقي سنجر ليستعيد بلخ من الغور ويمنعهم من التعرض لخراسان والتقى السلطان السلجوقي بالأمير الغوري في قتال عنيف هزم فيه الغور ووقع أميرهم أسيرا في أيدي السلاجقة على أن السلطان سنجر لم يلبث أن عفا عنه وخلع عليه وأعادته إلى فيروزكوه .

واصل أمير الغور سياسته الرامية إلى ضم مزيد من البلاد إلى دولته على الرغم من الهزيمة التي لحقت به ونظم إدارة دولته واستعمل العمال والأمراء على البلاد وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وشهاب الدين محمد قيمن استعمل على بلد من بلاد الغور واسمه سنجة (٢٨) ، فلما استعملهما أحسنا السيرة في عملهما وعدلا بين الناس وبذلا الأموال فمال الناس إليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما إلى عهده علاء الدين وقال انهما يريدان الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك ، فأرسل عمهما يستدعيهما إليه فامتنعا فسير إليهما جيشا لاختصاصهما والتقى الاخوان بجيش علاء الدين وأوقعاه الهزيمة ، عندئذ جأهما بعضيان عمهما وقطعا خطبته فتوجه إليهما علاء الدين وحدث اشتباك بين الفريقين انهزم فيه علاء الدين ووقع أسيرا في أيدي ابني أخيه

(٢٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧ هـ .

(٢٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ٣٨٩ .

(27) Majumdar : An Advanced Hist. of India, p. 277.

A Short, of Hind-Pakistan, p. 122.

(٢٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧ هـ .

وعقد صلح بين الأمير الفورى والاخوين بمقتضاه تزوج غياث الدين من ابنة عمه علاء الدين وجعله ولى عهده (٢٩) .

لما توفى علاء الدين الحسين سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م خلفه غياث الدين محمد ، وأقيمت الخطبة له فى غزنة ، لكن الفورى لم يلبثوا أن فقدوا غزنة ، ذلك أن الغزطمعوا فيها بعد موت علاء الدين الحسين ، واستولوا عليها (٣٠) ، وطردها الفورى منها ، وبقيت غزنة فى أيديهم خمس عشرة سنة ساموا خلالها أهلها سوء العذاب كعادتهم فى كل بلد ملكوه . وفى تلك الفترة كان غياث الدين محمد — أمير الفورى — يعد العدة ، ويجمع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبها الغز (٣١) .

سار غياث الدين الى غزنة فى صحبة أخيه شهاب الدين ، واشتبك الفورى مع الغز فى معركة الحقوا بهم الهزيمة ، وطردهم من غزنة ، واستردوها ، وأحسن غياث الدين الى أهلها (٣٢) .

لم يكتف غياث الدين محمد — أمير الفورى — بامتلاك غزنة ، بل عقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الغزنوية لقوسيع دولته الناشئة ، واستئصال شافة آل سبكتكين حتى يضمن لدولته — التى قامت على انقاض الدولة الغزنوية — الأمن والاستقرار ، فأرسل جيشا استولى على بلدان الغزنويين غير الهندية ، وضمها الى دولته ، ثم عبر شهاب الدين الفورى نهر السند معتزما الاستيلاء على ممتلكات الغزنويين فى الهند واتجه الى لاهور — قاعدة آخر سلاطين سبكتكين — وفى طريقه اليها استولى على ممتلكات الغزنويين الهندية ثم حاصر لاهور — آخر مباحسل الغزنويين — فى جمع عظيم وحشد كبير ، حاصرها وضيق عليها الحصار ، وأرسل شهاب الدين الى خسرو شاه وأهل لاهور يعرض عليهم الامان على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ان يسروا أمر استيلائه على لاهور ، وحذرهم عاقبة التعرض لقواته (٣٣) ، لكن خسرو شاه

(٢٩) ابن خلدون : العبد وديوان المبتدا والخبر ، ج ١ ص ٨٦٢ .

(30) Lane Poole : Medieval India, p. 47.

(31) Morel : A Short History of India, p. 152.

(32) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan p. 34.

(٢٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ .

وأهل لاهور أصروا على مقاومة الغور ، وبذلوا في سبيل ذلك الأنفس والأموال ، غير أن مقاومتهم للغور اعتراها الضعف والوهن (٣٤) ، فأرسل خسرو شاه - السلطان الغزنوي - إلى شهاب الدين قائد الغور وفداً في طلب الأمان فأجابه شهاب الدين إلى طلبه ، ودخل الغور لاهور ، وقبضوا على خسرو شاه . وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معاقلها ، وزالت الدولة الغزنوية بذلك في الهند وغير الهند ، وامتد ملك الغور في أفغانستان وبلاد الهند على حساب الدولة الغزنوية (٣٥) ، كما اتسع ملك الغور واستقر سلطانهم ، وكثر جندهم وقوى بأسهم ، وأمر غياث الدين أخاه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة (٣٦) ، ولقبه الخليفة العباسي غياث الدين والدنيا ، معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين ، ولقب السلطان غياث الدين أخاه شهاب الدين ، عز الدين . واكسب اعتراف الخليفة العباسي لسلطان الغور الصفة الشرعية لحكمه على البلاد التي دخلت في حوزته (٣٧) ، وبذلك قوى نفوذ غياث الدين .

لم يكتف الغور بما امتلكوه من بلدان ، بل سبغوا إلى توسيع دائرة نفوذهم ، فبعد أن استقر أمر لاهور ، سار السلطان غياث الدين محمد في صحبة أخيه شهاب الدين إلى أهل هراة وشدد الغور عليهم الحصار ، وكان يسيطر عليها جماعة من الترك السلاجقة يخضعون للسلطان سنجر ، وما زال الغور يحاصرون هراة ، ويضيقون عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان ، فأمنهم غياث الدين محمد ، ودخل هراة ، وضمها إلى دولته وتقدم سلطان الغور إلى بوشمنج واستولى عليها ، كما امتلك بادغيس وبعض البلدان المجاورة لها في إقليم خراسان (٣٨) .

يتضح لنا مما تقدم أن إمارة الغور الأفغانية انضمت إلى الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود ، واعتنق أهلها الإسلام ، وتربوا

(34) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 293.

(35) Morel : A short History of India, p. 152.

(36) Lane Poole : Medieval India. p. 152.

(37) Munshi : The struggle for Empire, p. 118.

(٢٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٧ هـ .
Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. p. 292.

بوشمنج وبادغيس من أعمال خراسان .

الفرص للعودة الى الاستقلال ، ولما ضعفت الدولة الغزنوية ، تمكنوا من الانفصال عنها ، بل وتجاوز أراضيهم الجبلية الوعرة الى البلاد الغزنوية في أفغانستان وبلاد الهند حتى أدخلوها في دائرة نفوذهم وضموا الى دولتهم كذلك أجزاء من إقليم خراسان واقلية هندية .

الغور وبلاد الهند

يرجع الى الغور الفضل في توطيد دعائم الحكم الاسلامي في شمال الهند ، حقيقة أن السلاطين من بني سبكتكين هم الذين فتحوا أمام قادة المسلمين من بعدهم سبيل التوسع والفتح في بلاد الهند ، الا أن سياسة السلاطين بني سبكتكين تختلف عن سياسة سلاطين الغور في الهند ، فالغزنويون لم يعملوا على تثبيت أقدامهم في هذه البلاد ، بل وجهوا اهتمامهم بالدرجة الأولى الى الحصول على المغانم الكثيرة من بلاد الهند ، أما الغور فقد استقروا في البلاد الهندية التي ضموها الى حوزتهم ، ومن ثم احتفظت الهند بمالها وثرواتها واتسع سلطانهم في بلاد الهند ، ورأى الهنادكة في المسلمين خلاصا من نير أمرائهم الذين حرموهم من التدرج في سلك الوظائف مهما كانت كفاياتهم ومعتقداتهم ، بينما يساوى الاسلام بين أبنائه .

وقبل أن نتحدث عن فتوحات الغور في بلاد الهند يجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التي وجهت أنظار المسلمين الغور الى بلاد الهند .

لما كانت دولة الغور قد قامت في أفغانستان في منطقة جبلية وعرة ، واتخذت لها قوة ضاربة قهرت الغزنويين وانتزعت ممتلكاتهم في غزنة وما جاورها ، فمن الطبيعي أن يعمل الغور على البحث عن ميادين جديدة للتوسع ، ومن الطبيعي جدا أن تكون بلاد الهند هي ذلك الميدان ، ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ بانكيار (٢٩) إذ قال : « كلما كانت أفغانستان قوية مدت نفوذها الى بلاد الهند ، والعكس كلما ضعف أمر أفغانستان أخذت الهند من غزوها لأراضيها » .

(39) A Survey of India, pp. 122-123.

ومن الأسباب التي دعت للغور الى الاتجاه الى بلاد الهند عدم استطاعتهم الزحف الى وسط آسيا حيث الدولة الخوارزمية ودولة الخطا تقومان في هذه الجهات ، ولا تمكثان الغور من التوغل في بلادهما .

وكان من الضروري للغور ، ومن المنتظر أيضا أن يولوا وجوههم شطر الهند لأن الغزنويين نقلوا مقر دولتهم الى لاهور ، واخذوا في العمل على تقوية أمرهم لاسترداد البلاد التي انتزعها الغور منهم في أفغانستان ، فكان لابد اذن للغور من القضاء نهائيا على آخر معاقل الغزنويين في الهند حتى يأمّنوا على دولتهم الناشئة من أية محاولة قد يبذلها الغزنويون لاسترداد أفغانستان منهم .

وهناك أسباب أخرى شجعت الغور على الاتجاه الى بلاد الهند ، فالأمراء الهنود — كما سنرى — في شمال الهند أضعفتهم وأنهكت قواهم الانقسامات والخلافات ، وعلى ذلك رأى الغور أنهم لن يواجهوا متاعب كثيرة في تحقيق سياستهم في بلاد الهند . ولا يفوتنا أن نذكر أن الغور كانوا حديثي عهد بالاسلام تحذوهم للرغبة والامل في الجهاد في سبيل نشر الاسلام في غير بلاد الاسلام ، وبلاد الهند التي لا يزال معظم سكانها على الوثنية خير ميدان يجاهد فيه الغور من أجل رفع راية دينهم ونشره^{٤٠} . ولقد انقسم القسم الشمالي من الهند حينما شرع الغور في الزحف اليها الى ممالك متعددة منقسمة على نفسها ومستقلة عن بعضها ، فهناك مملكة البنجاب ويحكمها السلطان الغزنوي خسروشاہ — آخر سلاطين بنى سبكتكين — ومملكة الملتان ، وتحكمها أسرة اسماعيلية من القرامطة ، والسند وتحكمها أسرة هندية تسمى سمارس ، يضاف الى ذلك امارات يحكمها أمراء هنود من الراجبوتيين في شمال الهند من أهمها مملكة دلهي وأجمير ومملكة قنوج وتضم بنارس ، ومملكة جوجرات ونهرواله ، ومملكة بند لخاند وتضم كالنجان وهانسي ومملكة بهار ، ومملكة البنغال ، ويسمى هذا القسم هندوستان ، وشمل أخصب بفاع الهند وأكثرها سكانا(٤٠) .

سار الغور بقيادة السلطان غياث الدين محمد الى الملتان سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م واستولوا عليها ، ثم ضموا بشاور الى دولتهم ، ولم

(40) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan, p. 35-36.

يستطيع بهيم ديوا - راجا نهرواله - وقف زحف الفُور مما مكنهم من مواصلة تقدمهم في أرض السند حتى استولوا عليها (٤١) .

قصد السلطان الفُوري بعد ذلك لاهور ، وتصدى له السلطان خسرو شياه وأوقع به الهزيمة ، فاتجه سلطان الفُور الى سيالكوت وانتزعها ، واتخذها قاعدة لشن الغارات على لاهور ، ويسقط لاهور في أيدي الفُور ، اكتملت سيطرتهم على اقليم البنجاب بأكمله (٤٢) .

لما أتم السلطان الفُوري ضم بلاد السند والبنجاب الى حوزته عهد الى أخيه شهاب الدين بحكم هذه البلاد نيابة عنه ، فأتخذ من لاهور مركزا له ، وعمل شهاب الدين منذ أن ولى امر هذه البلاد على تثبيت أقدام الفُور فيها وتوسيع ممتلكاتهم في الهند (٤٣) .

فطن الأمراء الراجبوتيون الى خطر الفُور وخشوا من ازدياد نفوذهم ورأوا في ذلك خطرا يهدد سلطانهم فتحالفوا فيما بينهم ونسوا خلافاتهم وعقدوا العزم على طرد الفُور من بلاد الهند قبل أن يهاجبوا ديارهم وينتزعوا بلادهم ، أو بعبارة أخرى يقعدوا بالفُور قبل أن يتعشوا بهم . وفي سنة ١١٩١هـ / ١١٩١م حشد الأمراء الراجبوتيون أمراء شمال الهند أصحاب دلهي وأجمير وقنوج وبهار والبنغال والكجرات وبنغلخاند ، حشدوا قواتهم عند سرهند على حدود البنجاب الشرقية (٤٤) واستنفروا الهنادكة بالانضمام اليهم فأقبلوا عليهم من كل حذب وصوب على الصعب والذلول ، فلما علم شهاب الدين بنوايا الأمراء الراجبوتيين نحوه وتجمعهم للاقاته سار اليهم على رأس جيش كبير ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انتصر فيها الهنادكة على الفُور وقتلوا وأسروا من المسلمين كثيرين وأصيب شهاب الدين بجراح شديدة ، وكاد أن يلقى مصرعه لولا أن بعض جنده حمله الى خارج ميدان القتال ، ودارت المعركة عند (تارين) على مقربة من (ثنيسر) (٤٥) .

(41) IBD. p. 36.

(42) Munshi : The Struggle for Empire. p. 118.

(43) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 36.

(44) Lane Poole : Medieval India. p. 51.

(45) Munshi : The struggle for Empire. p. 118.

على أن غياث الدين سلطان الغور لم يتغاض عن هزيمة جنده في الهند ، بل رأى ضرورة محاربة أعدائه واخضاعهم ، وإعادة نفوذ الغور في الهند الى ما كان عليه من القوة والغلبة ، فأعد جيشا مكونا من مائة وعشرين ألف مقاتل من الأتراك والفرس ، وسار على رأسه شهاب الدين في العام التالي ، والتقى بأعدائه في نفس الموضع الذي تشبعت فيه معركة العام السابق ، وعلى الرغم من التفوق العددي للهنادكة واستخدامهم الفيلة في الحرب ، إلا أن قوات الغور أحرزوا انتصارا رائعا على الهنادكة وقتلوا ألوفاً منهم من بينهم بعض الأمراء ، وخر أمير أجير صريفاً ، وغنم الغور مغانم كثيرة (٤٦) .

وكان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى في شمال بلاد الهند ، فقد تقلص نفوذ وسلطان الأمراء الراجبوتيين في هذه الجهات ، كما امتد سلطان الغور الى بلاد سروسى وسنة وكهرام وهنسى وأجير (٤٧) ، وحطم شهاب الدين الأصنام في هذه البلاد التي امتلكها ، وشيد مساجد يذكر فيها اسم الله ، وحطم معابد الشرك (٤٨) ، كذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام الغور للزحف الى دلهي « وهي كرسى الممالك التي فتحها الغور في بلاد الهند » فبعلا تمكن الغور من ضم دلهي الى حوزتهم (٤٩) . وبذلك اتسعت دولتهم في الهند حتى اقتربت من حدود الصين شرقاً ، ويذكر المؤرخون أن هذه المعركة تعتبر معركة فاصلة في تاريخ الهند ، لأنها أرسيت أسس الحكم الاسلامي في هذه البلاد (٥٠) .

عهد شهاب الدين الغورى الى مملوكة قطب الدين ايبك بحكم البلاد الهندية الداخلة في دائرة نفوذ الغور نيابة عنه ، وعاد الى غزنة ، وجدير بالذكر أن ايبك عرف عنه الحنكة السياسية والكفاءة الحربية . وجعل من دلهي قاعدة لحكمه في بلاد الهند بدلا من لاهور التي تبعد عن البلاد الهندية التي يمتلكها الغور (٥١) .

-
- (46) Lane Poole : Medieval India. p. 53.
 (47) Munshi : The Struggle for Empire. p. 118.
 (48) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 38.
 (49) Munshi : The Struggle for Empire, p. 119.
 (50) Lane Poole : Medieval India, p. 54.
 (51) Munshi : The Struggle for Empire, p. 119.

على أن الأمراء الهنادكة لم يلبثوا أن أعدوا عدتهم وقاموا لطرد الغور من بلادهم يعد أن عظم أمرهم في بلاد الهند ، وواتهم الفرصة حين نعى إلى علمهم عودة شهاب الدين إلى غزنة فاتحدوا بقيادة راجا قنوج جاييا جندرا ، ومملكته تمتد من وراء دلهي حتى حدود بنارس ، وفي غضون ذلك وصل شهاب الدين إلى بلاد الهند ، وانضم إليه قطب الدين ، وسار جيش الغور إلى الأمراء المتحالفين ، واشتبك الفريقان في معركة في شانندوار ، انتصر فيها المسلمون على أعدائهم انتصارا رائعا ، وزحف الغور إلى بنارس واستولوا عليها ، وقتل أمير قنوج في ١١٩٤/٥٩٠م ومن أبرز نتائج هذه المعركة ازدياد نفوذ وهيبة الغور في بلاد الهند وقتل الأمراء الراجبوتيين في شمال الهند في استرداد بلادهم التي انتزعها منهم المسلمون ، لذلك لجأوا إلى صحراء الراجبوتانا التي حملت اسمهم (٥٢) (الثأر) .

لم يأل قطب الدين أيك جهدا في سبيل توسيع رقعة دولة الغور في الهند ، بل عمل على ضم المزيد من بلاد الهند إلى جورة الغور ، ففي ١١٩٦/٥٩٣م استولى أيك على جاوالر gawalior كما استولى على نهرواله . وفي سنة ١٢٠٢/٥٩٩م ضم كالنجر إلى حوزته ، ولم تستطع قلعتها الصمود أمام ضربات المسلمين القوية فاستسلمت حاميتها ، يضاف إلى ذلك استيلاء الغور على بعض البلاد في شمال الهند ، وبذلك سيطر الغور على أراضي شمال الهند كلها (٥٣) .

وبينما يعمل قطب الدين أيك على تثبيت أقدام المسلمين في بلاد الهند خرج قائده محمد بن بختيار الخلجي في قلة من الجند يواصل سياسة حكومته الرامية إلى توسيع امبراطورية الغور في الهند ، فاستولى على يندنبوري عاصمة إقليم بهار ويحكمها ملوك أسرة بالا Pala ولم يلبث أن استولى على مملكة بالا بأسرها ، وكانت الديانة البوذية عقيدة السواد الأعظم من سكانها . فحطم معابدهم وأصنامهم ، ونشر الاسلام بينهم (٥٤) وانضمت هذه البلاد إلى امبراطورية الغور (٥٥) .

(52) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 229.

A short Hist. of Hind-Pakistan, pp. 124-125.

(53) Morel : A Short History of India, p. 152.

(54) Lane Poole : Medieval India. p. 54.

(55) Prasad : Medieval India. pp. 118-120.

واذن قطب الدين ايبك - نائب سلطان الغور في الهند - الى الخلجي بمواصلة الفتح والتوسع ، فاتجه محمد بختيار الخلجي الى نادية عاصمة البنغال ، وعلى الرغم من قلة عدد قسواته فقد اقتحم نادية ، ويحكمها لكشمن سنا من أسرة سنا سنة ٥٩٥هـ / ١١٩م وفر الملك الشيخ من عاصمة دولته بعد ان علم بدخول الغزاة المسلمين لها ، فاستولى عليها بختيار وضمها الى مملكة الغور ، وأقام فيها الخطبة لسلطان الغور ، وقد يسر سقوط نادية في أيدي الغور أمر استيلائهم على اقليم البنغال بأكمله (٥٧) .

لم يكتف بختيار الخلجي بما أحرزه من انتصارات ، بل تطلع الى السير الى القيت والاستيلاء عليه ، ففي سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م اتجه من ديفكوت Devkot الى دناجبور Dinajpur في عشرة آلاف فارس ، لكن حملته فشلت فشلا ذريعا ، وفي عودته الى ديفكوت فقد معظم جيشه ولم يلبث هو كذلك ان توفي (٥٨) . وقد حرص قطب الدين ايبك على المحافظة على ممتلكات الغور الهندية فتتضى على محاولات بعض امراء الهند في الاستقلال عن مملكة الغور ، ففي سنة ٥٩٨هـ شق أهل نهرواله عصا الطاعة على الغور ، فقاتلهم ايبك وهزمهم شر هزيمة ، وشنت شملهم واسترد نهرواله وعفا عن حاكمها ، وأبقاه في بلدته بعد ان دفع مبلغا كبيرا من المال وتعهد بعدم العودة الى العصيان (٥٩) .

بدأت متاعب الغور في بلاد الهند في مستهل القرن السابع الهجري ذلك أن بعض الولايات الهندية خرجت على حكومة الغور منتبهة فرصة انشغال الغور ، في الحروب في ايران ، ومن أبرز الانتفاضات التي انهكت الغور ثورة الكهوية ، وبلادهم قليلة المياها ، صعبة المسالك ، وتقع على قمم الجبال ، وامتنعوا عن دفع الخراج الى حكومة الغور وقطعوا الطريق بين غزنة ولاهور ، ولم يستطع والى الملتان التصدي لهم ، ولما زاد خطر الكهوية أرسل شهاب الدين الى قطب الدين ايبك يأمره بالضرب

(56) Majumdar : An Advanced Hist. of India, 279.

(57) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan, p. 40.

(58) Munshi : The Struggle for Empire. p. 119.

(٥٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ .
A short Hist. of Hind-Pakistan, 128.

على أيدي الكهكوية ، واعادتهم الى الولاء والطاعة ، وأرسل إليك اليهم يدعوهم الى الطاعة ، وترك التمرد والعصيان ، لكن الكهكوية لم يذعنوا لنداء نائب السلطان وبقوا على عصيانهم ، وطردها عمال الغور من بلادهم ، وأقبلت الهنود عليهم تؤيدهم في موقفهم العدائي من الغور فتقوى أمرهم (٦٠) .

لما رأى شهاب الدين عدم استطاعة عماله في إخضاع الكهكوية وأعوانهم سار بنفسه الى بلاد الهند لاعادة الأمن والهدوء اليها واشتمكت قوات الغور مع الكهكوية في قتال عنيف ، هزم الغور أعداءهم ، وقتلوا كثيرا منهم (٦١) ، وفر من نجا الى أجمة هناك واشعلوا نارا وألقوا بأنفسهم فيها قبل أن تأخذهم سيوف المسلمين ، وغنم المسلمون منهم ما لا يسمع بمثله ، وبذلك عادت الى الغور هيبتهم في بلاد الهند وأمنت إمبراطوريتهم في الهند من حركات التمرد (٦٢) ، بل وفد على شهاب الدين بعض رؤساء القبائل الذين انضموا الى الكهكوية يعلنون ولاءهم وعودتهم الى الطاعة (٦٣) .

ويجدر بنا أن نناقش أسباب تفوق الغور المسلمين على الهنود ، فمن بين هذه الأسباب دقة المسلمين ومهارتهم في إدارة العمليات الحربية ، يضاف الى ذلك أن بلاد الهند كانت تنقصها وحدة سياسية تجمع بينها وتقوى من أمرها إذ كانت الهند دولا مستقلة يحكمها أشخاص لا يرتبطون مع بعضهم البعض برباط يمكن أن يؤدي دوره في الدفاع عن الوطن في حالة تعرضه للغزو .

حقيقة أن الأمراء الراجبوتيين كانوا محاربين أكفاء ، لكنهم لم يخضعوا لامير يوحد شملهم في مواجهة العدو المشترك ، ولما واجهوا الغور ، لم يستطيعوا الصمود كثيرا أمام هجماتهم نظرا لأن الترك كانوا في مستوى أعلى منهم في التدريب والتنظيم والتطور الحربي ، والهنداكة

(٦٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .
Najumdaab : An advanced hist. of India, p. 280.

(٦١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .
(62) Munshi : The Struggle for Empire. p. 124.
(63) Lane Poole : Medieval India. p. 55.

لم يكن عندهم الاستعداد الكافي لمسايرة أحدث التطورات في التنظيمات العسكرية والأساليب الحربية ، وأخيرا فإن الدين الاسلامى قد أعطى للغور حماسا وقوة للجهاد في سبيل الله ، ولقد وحد بين المسلمين وجمع شملهم روح الأخوة والمساواة التي بثها الاسلام في قلوب أبنائه ، أما الهنادكة فالنظام الطبقي السائد بينهم والذي بمقتضاه انقسم الناس الى منبوذين وأشراف عرقل وقوفهم صفا واحدا في وجه غزاتهم(٦٤) .

والخلاصة أن سلاطين الغور ، نجحوا في اقامة دولة اسلامية في شمال الهند ومهدت سياستهم في هذه البلاد الى قيام امبراطورية اسلامية فيها لها تقاليد ومقوماتها ذلك أنهم أسندوا ادارة دولتهم في الهند الى رجال اكفاء أحسنوا توجيههم ، فعملوا على تثبيت الحكم الاسلامى في هذه البلاد ، ولقد حرص خلفاء شهاب الدين — من مماليك الترك — على اتباع التقاليد التي وضعها سيدهم في حكم الهند لذلك يمكن القول بأن شهاب الدين الغورى ليس غازيا للهند فقط بل يعتبر بحق واضع أساس امبراطورية المسلمين في الهند(٦٥) .

ضعف مملكة الغور وانهارها

سار السلطان غياث الدين محمد في دولته سيرة حسنة ، فقد شيد بها المساجد والمدارس ، وكان ينسخ المصاحف بخطه ، ويودعها في مكتبات المدارس التي أسسها ، وخفف عن الناس عبء الضرائب ، ولم يتعرض لمال أحد بسوء ، وإذا مات رجل في غير بلده ، سلم ماله الى أحد التجار من أهل بلده ، فان لم يجد أحدا يسلمه الى القاضى ، ويختم عليه الى أن يصل اليه من يأخذه من ورثته ، وكان يخلع على الفقهاء والأدباء والشعراء ، وينفق على الفقراء ، يضاف الى ذلك حرصه على وحدة العقيدة ، إذ كان يكره التعصب لمذهب معين ، ويقول : التعصب في المذاهب من الملك قبيح(٦٦) .

كذلك كان شهاب الدين محمد عادلا حسن السيرة في رعيته وبلغ من اهتمامه بسير العدالة أن القاضى بغزنة يحضر داره في بعض أيام

(٦٤) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan, pp. 40-42

(٦٥) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan, p. 42.

(٦٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ .

الاسبوع ، ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب بيت المال ، فيحكم القاضي ، وموظفو السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع ، وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره ، واستمع إلى أقواله ، وأمضى عليه أو له حكم الشرع . لذا سارت الأمور في مملكة الغور على أحسن نظام ، بعد أن ساد العدل البلاد (٦٧) .

على أن دولة الغور اضطربت اضطرابا شديدا بعد وفاة السلطان شهاب الدين محمد ، فقد تنافس الأمراء والقواد حول عرش السلطنة ، وحدثت حروب انتهكت قوى الدولة الغورية حتى زالت في النهاية .

فلما توفي شهاب الدين تنافس حول السلطنة ، غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد ، يساعده تاج الدين يلدز — من أقوى قواد الغور — وأبنا بهاء الدين الغوري — صاحب باميان — علاء الدين وجلال الدين ، ودخل الأخوان غزنة فعلا (٦٨) وانقزعا قلعتها ، وقرقسا الأموال في الجند والأعيان ، فدانت لهما غزنة بالسواء والطاعة منتهزين فرصة تغيب غياث الدين محمود في خراسان ، على أن غزنة لم تصف لعلاء الدين وجلال الدين ، ذلك أن تاج الدين يلدز ما لبث أن دخلها ونزب جنده المدينة ، واستولى يلدز على القلعة ، وأخرج الأميرين الغوريين منها ومن غزنة كذلك ، وكان يلدز قد عظم أمره بعد أن استولى على كل ما في معسكر سيده شهاب الدين من مال وسلاح وجند .

على أن يلدز لم يكن يعمل باسم غياث الدين محمود كما كان يدعى ، بل كان يعتمد على انتزاع الحكم لنفسه ، فلما استوثق له أمر غزنة ، لم يأمر الخليط بالخطبة لغياث الدين محمود وإنما يخطب للخليفة ، ويترحم على شهاب الدين ، وفرق الأموال في الناس ، فطابت نفوسهم (٦٩) .

أما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد فقد تربع على عرش الملك ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، وتلقب بالقباب أبيه غياث الدين محمد في فيروزكوه ، وفرج أهل البلد به ، وكل بأعدائه ومعارضيه ، وسلك

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

(٦٨) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

(٦٩) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

طريق أبيه في الاحسان والعدل ، الا أنه لم يستطع استرداد بلاد خراسان التي انتزعها الخوارزميون من مملكته (٧٠) .

على أن أمر يلدز قد ساء ، ذلك أن قطب الدين أيك — نائب سلطان الغور في الهند — أرسل إلى يلدز يهدده بالحرب ، أن لم يعد إلى طاعة غياث الدين محمود ، ويقيم له الخطبة ، كما أن أحد قواد يلدز ، واسمه ايدكز القتر ساءه موقف يلدز ، فخرج على صاحبه ، واستولى على غزنة وأموالها ، وأقام الخطبة فيها لغياث الدين محمود وأرسل غياث الدين محمود إليه يلقيه « ملك الأمراء » ورد عليه المال الذي كان أخذه من الخزانة ، وقال له : أما مال الخزانة فقد أعدناه لك لتخرجه وأما أموال التجار وأهل البلد ، فقد أرسلته مع رسول ليعيده إلى أربابه حتى لا يحدث ظلم في دولتنا ، وقد عوضتك عنه ضعفه . وأرسل أموال أهل غزنة إلى قاضيه ، وأمره برده إلى أصحابه . وسار غياث الدين محمود إلى يست ، واستردها من يلدز وأحسن إلى أهلها ، وأعفاهم من خراج سنة لما نالهم من الضر والأذى على أيدي هذا القائد (٧١) .

أضعفت هذه الانتصارات من شأن دولة الغور ، حتى أن السلطان خوارزمشاه ، انتزع ما تبقى لها في خراسان ، بل طمع في الاستيلاء على البقية الباقية من ممتلكات الغور في أفغانستان ، فأمر — أمير ملك — عابله على هراة — بقصد غياث الدين محمود — صاحب الغور وفيروزكوه ، فسار أمير ملك — القائد الخوارزمي إلى فيروزكوه — عاصمة مملكة الغور — ولما رأى غياث الدين محمود — سلطان الغور — أن لا قبل له بالجند الخوارزمي طلب منه الأمان ، فأمنه القائد الخوارزمي ، ونزل سلطان الغور إليه من القلعة ، لكن القائد الخوارزمي نكث بالعهد وقبض على السلطان الغوري وقتله ، وضم بلاد الغور إلى الدولة الخوارزمية سنة ٦٠٥هـ (٧٢) .

ولم يلبث علاء الدين محمد — السلطان الخوارزمي — أن استولى على كافة أرجاء خراسان ، وانتزع باميان من الأميرين الغوريين علاء الدين

(٧٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٨٧٦ .

(٧١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٤هـ .

(٧٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٤هـ .

وجازل الدين . واستناب يلدز عفه في حكم غزنة ، فأقام الخطبة له فيها ،
ونقش اسمه على السكة . غير أن خوارزمشاه لم يطمئن الى ولاء يلدز
وأعوانه ، فسار بنفسه الى غزنة سنة ٦١٢هـ وقتل من به من جنود
الغور ولا سيما الأتراك ، وهرب يلدز الى لاهور حيث اغتاله بعض
رجال شهاب الدين الغوري .

وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين بعد أن أنهكت
قواها بما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين والهنداكة . ويذكر
ابن الأثير أن دولتهم كانت من أحسن الدول سيرة ، وأعدلها وأكثرها
جهادا .

(٧٢) نفس المصدر ، حوادث سنة ٦١٢هـ .

٢ - سلطنة دهلئ الاسلامفة فف عهد الملوك الممالفك

شهد العالم الاسلامى فف تاريخه حكاما من الترك كانوا ارقاء عند سادتهم السلاطين واشتغلوا بالجندففة ، وتدرجوا فف سلكها حتى بلغوا مناصب رئفسفة ، وقد فحدث فف حالة وفاة السلطان وتركه ذرفة ضعافا ، أو عدم وجود وارث فخلفه أن فقوم هذا للتركى - الذى كان عبدا للسلطان المتوفى - بانتزاع السلطنة لنفسه ، فسبكتكن كان مملوكا لألبتكن ، ولما توفى سفده دون أن فترك من فرثه مكن سبكتكن لنفسه ، وانفرد بفكم دولة سفده ، ووضع أساس امبراطورفة الفزنوففن فف جنوب غرب آسيا ، وظل أعقابها ففوارثون حكم الدولة الفزنوففة حوالي قرنفن من الزمان ، وعماد الدين زنكى أقام دولة فف الموصل على أنقاض دولة سادته السلاجقة ، وقد كان أتابكا لهم (١) ، والممالفك فف مصر أقاموا دولتهم بعد أن ضعف سادتهم سلاطين بنى أئوب . وهذا ما حدث بالنسبة لموضوع بحثنا ، إذ أقام الممالفك دولة فف الهند بعد أن زالت دولة اللغور ، وظلت تحكم أربعة وثمانفن عاما (١٢٠٦-١٢٩٠) ، وفذكر لفن بول (٢) فف هذا الصدد أن الجندى الكفف من ارقاء للترك كان فسقطفح أن فصل إلى أعلى الدرجات وأرفعها بما فف ذلك منصب السلطنة . أما عامة الناس من الزراع والصناع والتجار ، فكانت أوضاعهم مجمدة لا تتففر ولا تتبذل ، وفتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس ، وفقفون منهم وقف المتففرج ، وما عليهم إلا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان افرانففا أو هنففا راجفوتفا (٣) . أو تركيا أو أفغانفا أو مغولفا ، وفسفرون ففث تسفر بهم الففة ، كففا أراد حكاهم الذين ففبونهم الففة ، أو ففنزفون فقوقهم ففها .

(١) عصام للدفن عبء للرفوف : دول اتابكة الموصل والففة ، ص ١٦١ .
(2) Medieval India. p. 61.

(٣) ففئمى الامراء الراجفوتفون إلى ففافل الارففن الذين هاجروا إلى الهند قبل قفائل الهون البفف ، وقد لعبوا دورا كفبرا فف تطور الففة السفسفة فف بلاد الهند ، واشتهروا بالبطفلة والفروسفة ، لذلك نسبت الاساطفر الهندفة نشاتهم إلى تزاف الشمس بالقمر ، وظل الامراء الراجفوتفون فسفطرون على شمال الهند حتى أضعفهم الففور ، فلجأوا إلى صحراء الفار ، وعاشوا ففها ، وعرفت بعد ذلك باسمهم -
(Prasad : Medieval India pp. (30-31).

وسلاطين امبراطورية الممالك في الهند كانوا أرقاء من أجناس مختلفة ، وصلوا الى ما وصلوا اليه بفضل ما اقتصفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة ، وكان شأنهم شأن ممالك مصر يحرصون على تخليد أسمائهم باقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة .

وقطب الدين أيبك — أول سلاطين الممالك في الهند — كان مملوكا عند سيده شهاب الدين — سلطان دولة الغور الأفغانية — (٥٩٩هـ / ٦٠٢) وهو تركستاني الأصل ، اشتراه قاضي نيسابور ، وأدبه وأحسن تربيته ، وعلمه علوم الدين وأسابيل الفروسية ، ولما توفي هذا القاضي ، حمله أحد تجار الرقيق الى غزنة حيث اشتراه شهاب الدين الغوري ، ولمس فيه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق ، وعهد اليه بالعمل في الجيش كجندي ، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية في معركة تارين سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٥م وهي المعركة التي كانت بين سلطان الغور من ناحية ، والأمراء الراجبوتيين من ناحية أخرى — وكافا شهاب الدين مملوكه بأن جعله نائبا له على ممتلكات الغور في الهند ، فأقام في دلهي وجعلها قاعدة لحكمه في بلاد الهند بدلا من لاهور (٤) .

لم يال قطب الدين أيبك جهدا في سبيل المحافظة على دولة الغور في بلاد الهند ، بل عمل على ضم المزيد من أراضي الهند الى دولة الغور ، ففي سنة ٥٩٣هـ / ١٢٠٠م استولى أيبك على كواليار ونهرواله ، وضم كالنجار الى حوزته (٥) ، وكذلك امتلك بلاد البنغال وأوقف كل محاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور (٦) .

وبقى أيبك على ولائه لدولة الغور حتى في أشد حالات ضعفها ، فلما ولي غياث الدين محمود سلطنة الغور سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م لم يكن هناك اجماع على توليته ، فخرج عليه بعض ممالكه ، وعملوا على الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه ، ومن بين هؤلاء الممالك ناج الدين يلز الذي سيطر على غزنة ، وأقام الخطبة فيها لنفسه ، وخلق طاعة سلطان

(4) Majumdar. An Advanced Hist. of India. p. 273.

(5) Morel : A Short Hist. of India. p. 152.

(6) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 273.

الغور (٧) ، بينما بقى قطب الدين أيبك يدير الممتلكات الإسلامية في الهند باسم سلطان الغور ويقيم الخطبة باسم غياث الدين محمود ، وضبط الأمور في الهند وضرب بيد من حديد على المفسدين ، وعارض بشدة الحركات المناهضة للحكم الغوري (٨) ، وأرسل إلى يلدز يقبح فعله ، ويأمره بإقامة الخطبة للسلطان الغوري ، وهدده بالمسير إليه ومحاربته ، أن لم يعد إلى اللولاء والطاعة ، ولما لم يستجب تاج الدين يلدز ، قام أيبك بالعمل على ضم غزنة إلى مملكة الغور ، وطرد يلدز منها (٩) .

على أن يلدز لم يركن إلى الهزيمة بل انتهر فرصة سقوط الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين ، وسيطر على غزنة وحكمها باسم علاء الدين محمد خوارزمشاه لكنه لم يلبث أن غادر غزنة خوفاً من أن يبطش به السلطان الخوارزمي الذي شك في إصلاحه (١٠) ، وتوجه إلى البنجاب ، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك ، فسار أيبك إليه ، وما زال يطارده حتى غادر الهند . وبذلك انفرد أيبك بحكم الإقليم الإسلامي في الهند ، وأعلن نفسه سلطاناً في لاهور ، وأقيمت الخطبة له في بلاد الهند الإسلامية ، ونقش اسمه على السكة ، واتخذ من دلهي قاعدة لدولته .

على أن قطب الدين أيبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كما أحسن إلى غيره من ممالك شهاب الدين مثل التمش وقيابجة وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة ، فزوج أخته إلى قياجة ، وابنته إلى التمش ، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز ، وكفل بسياسته هذه ضمان تأييد هؤلاء القادة لحكمه ، وعدم التصدي له (١١) .

ويعتبر قطب الدين أيبك أول سلطان مسلم استقل بحكم دولة المسلمين في الهند (١٢) ، وتمكن هذا السلطان بفضل قوته وشجاعته وكفائته الإدارية من بسط سيطرته على شمال الهند مدى العشرين عاماً

(7) Lane Poole : Medieval India. p. 54.

(8) Morel : A Short Hist. of India. p. 152.

(٩) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٣ هـ .

(10) Lane Poole : Medieval India. p. 68.

(11) Munshi : The Struggle for Empire. 131.

(12) Majumdar : Aa Advanced Hist. of India. p. 274.

التي حكمها (١٣) ، وضبط الأمور في دولته ، وساس الهنداكة احسن سياسة ، وضرب بيد من حديد على أيدي اللصوص وقطاع الطرق ، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين ، وحكم الناس بالعدل ، وعم السلام ربوع دولته حتى قيل ان الذئب والحمل كانا يشربان من نبع واحد في عهده ، وسأوى في المعاملة بين الهنداكة عظيمهم وحقيرهم ، وهذا أمر لم يتعوده قبلا (١٤) .

وعنى قطب الدين بالعمارة ، ومن أبرز ما خلف مسجده المشهور الذي بدأ تشييده سنة ١١٩١م ، واكملته التمش سنة ١٢٣٠م (١٥) ، ولا تزال منارة هذا المسجد باقية الى يومنا هذا ، وتسمى منارة قطب الدين ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قدما (١٦) ، وعلى واجهة أحد ابواب المسجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر : « بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعوا الى دار السلام .. » ثم كتب تحت ذلك : « جرت هذه العمارة بأمر ... » وبجانب المسجد أسس مدرسة كبيرة . أما المنارة فكانت مكونة من سبع طبقات ، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط ، أسس أيك الطبقة الأولى ، وأقام التمش الطبقتين الثانية والثالثة ، وأتم خلفاؤه الباقي ، وفي كل طباق نقش على جدرانه آيات قرآنية ، وبعض المراسم السلطانية .

توفي قطب الدين أيك سنة ١٢١٠م وخلفه في الحكم ابنه آرام شاه وكان شابا صغيرا لا يستطيع القيام بعبء الملك (١٧) ، لذا عجز عن إدارة شؤون الدولة ، فاستدعى رجال الدولة التمش (١٨) — وكان يلي حكم أحد الاقاليم الهندية ، وذكرنا سابقا انه كان من مماليك شهاب الدين الغوري ، وزوجا لابنة قطب الدين أيك — وطلبوا منه ان يلى السلطنة (١٩)

(13) A Short Hist. of Hind - Pakistan. Prepared.

By Pakistan History Boards.

(14) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274.

(15) Lane Poole : Medieval India. p. 68.

(16) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan p. 48.

(17) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan p. 48.

(18) Munshi : The Struggle for Empire. p. 181.

(19) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274.

فقدم الى دهلى ، وطرد آرام شاه منها ، وترجع على عرش السلطنة سنة ١٢١١م (٢٠) .

يعتبر شمس الدين التمش المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى الهند واصله مملوك ابتاعه قطب الدين ايبك من غزنة وحمله معه الى الهند ، ولس فيه نبل الاخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة ، فجعله رئيسا لحرسه ، ثم اسند اليه حكم ولايات الهند ، وكما كان ايبك لشهاب الدين الغورى ، فقد كان التمش لايبك (٢١) .

بعد ان ولى شمس الدين التمش سلطنة دهلى ، تعرض لمشاكل داخلية تستهدف التخلص منه (٢٢) ، ذلك ان بعض كبار رجال الدولة طمع فى الوصول الى الحكم متنهزين فرصة الفوضى التى اعقبت وفاة ايبك ، فاستولى قباضة على الملتان والسند ، وتنساز مع تاج الدين يلدز حول السيادة على لاهور ، كما ان خلفاء بختيار الخلجي سيطروا على بهار والبنغال (٢٣) . يضاف الى ذلك ان قواد قطب الدين ايبك لم يرضوا عن تولية التمش السلطنة ، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هذه الاضطرابات والتفائل ، وانشغال السلطان فى قمعها وتحركوا لنيل استقلالهم (٢٤) .

لم يقف شمس الدين التمش مكتوف اليدين ازاء موقف قواد قطب الدين ايبك الترك المناهض له ولحكمه ، والذين لم يرضوا ان ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك (٢٥) ، بل عول على اخضاعهم ، واشتدبت معهم فى معركة بالقرب من دهلى هزمهم فيها شر هزيمة ، وأجبرهم على الدخول فى طاعته (٢٦) وكان من اقوى الرجال الذين تصدوا لحكم التمش ، تاج الدين يلدز الذى سيطر على غزنة بعد انهيار دولة الغور

(20) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 133.

(21) Lane Poole : Medieval India. p. 70.

(22) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 49.

(23) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 134.

(24) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 49.

(٢٥) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، ج ١ ص ١٢٤ .

(26) Majumdar : An Advanced Hist. of India p. 275.

وبسط نفوذه على البلاد المجاورة لفزنة حتى اقترب من خوارزم وشن حملات ناجحة على أطراف الهند ، وعلى الرغم من أنه أقام الخطية للسلطان الخوارزمي في غزنة ، إلا أن هذا السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له ، وسار إلى غزنة سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م لانتزاعها من يلدز ، وطرد الأتراك منها (٢٧) ، فولى يلدز الأدبار إلى بلاد الهند ، والتقى بناصر الدين قباچه - وإلى لاهور والمultan وديبل ، وغيرها من قبل التمش - في معركة عنيفة هزم فيها قباچه ، واستولى على لاهور ، ثم زحف إلى مدينة دلهي لانتزاعها من التمش فتصدى له السلطان الهندي في معركة عنيفة على الطريق إلى دلهي ، وهزمه وقتله في تارين سنة ١٢١٦م (٢٨) .

لم يكد يستقر الأمر للتمش حتى تعرض لخطر جديد من قبل المغول الذين دأبوا يشنون حملاتهم العنيفة على الدولة الخوارزمية ، واستولوا على أقاليمها ، والحقوا ببلداتها الخراب والدمار . ولما توفي السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد خلفه ابنه جلال الدين منكبرتي ، وعول على استرداد ملك آباءه وأجداده من براثن المغول المعتدين ، فصار إلى خوارزم ، لكنه علم أن المغول قد استولوا عليها (٢٩) ، لذلك اتجه إلى خراسان ، وتنقل بين بعض مدنها ، ولم يلبث أن غادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغولية المربطة في خراسان في وقت لم يكن هو فيه على أهبة الاستعداد لمهاجمة عدوه ، فولى وجهه شطر غزنة - وكان يحكمها من قبل أبيه قبل أن يحتلها المغول - ورحب أهل غزنة بمقدمه ورأوا فيه خير منذ لهم من ولايت المغول وغيرهم ، والتفوا حوله ، ولما سمع الجند للخوارزمي المبعثر بين كابل وبشاور وغيرها من المدن الواقعة على حدود الهند بمقدمه ، سارعوا إليه ودخلوا تحت لوائه ، وبذلك كثر جمعه ، وأصبح جيشه يضم ستين ألفا من المشاة ، وسبعين ألفا من الخيالة (٣٠) ، وواتته الفرصة للعمل على تحقيق هدفه الرامي إلى استعادة دولة أبيه التي انتزعها المغول (٣١) ، فسار على رأس جيشه إلى السهول المحيطة ببروان Parwan في الشمال الشرقي من غزنة ، واشتبك مع

(27) A Short Hist. of India. p. 134.

(28) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. pp.49-50.

(٢٩) براون : تاريخ الأدب الفارسي ج٢ ص ٥٧٠ .

(٣٠) ابن الوردي : تنمة المختصر ج٢ ص ١٤٥ .

(31) Cambridge History of Iran. Nol. 5. p. 318.

المغول في قتال استمر ثلاثة أيام ، أحرز فيه على أعدائه انتصارا رائعا وقتل المسلمون من المغول كثيرين وشجع انتصار جلال الدين ، البلاد الإسلامية على الوقوف في وجه المغول ، فثار أهل هراة على والي المغول وقتلوه ، وأعلنوا ولائهم لجلال الدين منكبرتي (٣٢) .

لما علم جنكيز خان بانتصارات السلطان الخوارزمي على جنده ، وانضمام البلدان الإسلامية إليه ، أعد جيشا كبيرا للقضاء على جلال الدين منكبرتي وجنده ، وسار على رأس جيشه إلى كابل (٣٣) ، والتقى جنود المغول بالجيش الخوارزمي في معركة ضارية ، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية ، وغنم المسلمون ما معهم ، وفكوا أسر الأسرى المسلمين ، لكن الأمور ما لبثت أن تحولت إلى صالح المغول رغم هزيمتهم ، ذلك أن خلافا حدث بين بعض قادة جلال الدين منكبرتي ، فارق على أثره القائد التركي بفرار جيش السلطان الخوارزمي واتجه إلى الهند ، وتبعه من الجند ثلاثين ألفا كل يريدونه ، وحاول منكبرتي أن يثنيه عن عزمه ، وألح عليه ، بل بكى بين يديه ، وخوفه من الله إذا تقاعس عن الجهاد في سبيله ، لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركي فتىلا ، فقد أصر على الانسحاب الأمر الذي أضعف الجيش الخوارزمي ، وأصبح عاجزا عن الوقوف في وجه المغول (٣٤) .

كل ذلك حدث بينما جنكيز خان يتجه بجحافلته إلى الناحية التي يعسكر فيها جلال الدين وجنده ، لذلك لم ير السلطان الخوارزمي بدا من الانسحاب والمسير إلى الهند ، ولما بلغ السند ، لم يجد من السفن ما يكفي لعبوره هو وقواته ، وفي غضون ذلك أدركه جيش المغول ، ودار قتال عنيف بين الفريقين أهلك فيه المسلمون بلاء حسنا ، فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلّة عددهم ، ونقصان عتادهم ، دبّروا أمر العبور إلى الهند ، بينما عاد المغول إلى غزنة وامتلكوها ، وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة ما لا مزيد عليه في العبور (٣٥) حتى

(32) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India p. 276.

(33) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 135.

(34) Munshi : The Struggle for Empire. p. 182.

(35) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 275.

انه بلغ الشاطيء للشرقى سالما ومعه اربعة آلاف جندى كانوا حفاة
عراة (٣٦) .

على ان جلال الدين منكبرتى لم يجد استجابة وقبولا من دولة الممالك
فى الهند فقد توجه التمش ورجال دولته خيفة من الخوارزميين . لذلك
اصطدم جلال الدين بجند التمش فى السنوات الثلاث التى قضاها فى الهند،
بدا هذا الصدام مع قباجة — حاكم السند الذى حاول منعه من الاقامة فى
السند خوفا من أن يتعقبه المغول ، ويطيحون به وبولايتة (٣٧)، ، لكن
جلال الدين أوقع به الهزيمة ، وأحبط محاولته ، ولما علم جلال الدين أن
المغول يعتزمون القدوم الى الهند لدحره والقضاء عليه ، سار الى
دهلى ، وأرسل الى التمش يطلب منه ان يمنحه هو وجنده حق الاقامة
فى دهلى ، لكن السلطان المملوكى اعتذر اليه بحجة أن حرارة الجو فى
دهلى لا تناسب الخوارزميين ، ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم
الجند فى دولته الى سلطان الخوارزميين ، وطلب منه الانسحاب من
دولته ، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمى وجيش التمش بالقرب من
دهلى ، وانسحب على أثرها جلال الدين الى لاهور ، وكثر جمع جلال الدين
بما وفد اليه من جند أخيه غياث الدين — حاكم العراق — كذلك انضمت
لنيه قبائل الكهركية الناقمين على قباجة — حاكم السند — فازدادت قوته ،
وانتزع من والى السند بعض البلدان (٣٨) .

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه الى الهند اتخاذها مستقرا
ومقاما ، لكنه كان يهدف الى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد
قوته ، ثم يستأنف الحرب ضدهم ، وواتته الفرصة لشن الحرب من جديد
على المغول ، فقد توفى جنكيز خان ، وعقبت وفاته انسحاب القوات
المغولية الرئيسية التى تحتل اقاليم الدولة الخوارزمية الى مواطنها
الاصلية فعبّر نهر السند (٣٩) سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وقصد ايران ، وظل
يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من امامهم ، وظلوا يتعقبونه
حتى قتل فى كردستان سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م (٤٠) .

(36) Cambridge Hist. of Iran. vol. 5. pp. 322-323.

(٣٧) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٥٠ .

(38) Munshi : The Struggle for Empire. p. 182.

(٣٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ٢٦٠ .

(40) Lane Poole : Medieval India. p. 74.

لما غادر جلال الدين منكبرتي الهند أمن السلطان التمش على دولته من الخطر الخوارزمي ، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده ، لكنه لم يكذب يتنفس الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجهه أمورا داخلية تمس وحدة دولته ، ومن أبرز هذه الأمور خروج غياث الدين الخلجي — والى البنغال من قبله — عليه (٤١) وأعلن استقلاله عن دلهي ، وأقام الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة ، وتلقب بالقباب الملوك ، وقوى أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور ، إلى الشرق من دلهي (٤٢) .

عول السلطان التمش على سحق محاولة الخلجي الاستقلالية عن دولته ، وسار على رأس جيش قوى إلى البنغال ، ولما رأى الأمر الخلجي عدم استطاعته الوقوف في وجه سلطان دلهي أعلن عودته إلى الولاء والطاعة له ، وتعهّد بدفع الجزية المقررة عليه (٤٣) ، إلا أنه لم يكن صادقا في تعهده ، بل كان يزعم انتظار فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايتيه ، فلما ابتعد السلطان التمش عن البنغال ، عاد وأعلن الاستقلال وسار إلى بهار واستولى عليها ، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا (٤٤) ، إذ سار إليه ناصر محمد شاه — وإلى أوده Oudh من قبل أبيه السلطان التمشي وهاجم البنغال ، وأوقع الهزيمة بالخلجي وأنصاره ، وأعاد سيطرة دلهي على إقليم البنغال (٤٥) .

على أن الأمور لم تستتب في إمبراطورية الهند الإسلامية بعد عودة البنغال إلى سيطرة الحكومة المركزية في دلهي ، ذلك أن قائدا آخر انتقض على سلطان دلهي ، وهو ناصر الدين قباجة ، وكان التمش قد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستقلال بها عن دلهي ، فبسط سيطرته على بعض بلدان السند ، لكن جلال الدين منكبرتي اشتبك معه ، وانتزع منه أوكا والملتان ، ولما انسحب السلطان الخوارزمي من الهند عاد قباجة وسيطر على هذه البلاد ، وحكمها مستقلا عن سلطان دلهي ، فصار

(41) K. Ali : A Short Hist. of Indo-Pakistan. pp. 55-57.

(42) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 183-184.

(٤٢) الساداتى : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج١ ص ١٢٧ .

(44) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134.

(45) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 136.

اليه شمس الدين التمش ، بينما اتجه واليه على لاهور لنجدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar ، وظل يتعقبه ، حتى سقط في نهر السند وغرق وهو يحاول عبوره فرارا من خصمه (٤٦) .

وبذلك قضى السلطان التمش على خصومه ومخافسيه ، واكتسب حكمه الصفة الشرعية حينما أرسل اليه الخليفة العباسي المستنصر بالله تقليدا بحكم دولة الاسلام في الهند سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م (٤٧) ، ولقبه « ناصر أمير المؤمنين ، حامى الايمان » وقدم السلطان الخليفة في الخطبة والسكة على نفسه ، وأبرز كذلك الألقاب التي منحها له الخليفة على العملة الفضية العريضة التي سكها (٤٨) . ومما لا شك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دلهي أكسبه محبة وتقدير واحترام رعاياه المسلمين .

وكان لتأييد الخليفة للسلطان التمش اثر كبير في تقوية دولته فخرج يقضى على ما تبقى من خصومه ، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك ، بل كانوا بعض راجات الهند الذين انتهزوا فرصة انشغال السلطان بمشاكله الداخلية ، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم (٤٩) ، فسار اليهم التمش ، واستعاد رانثام وكذلك استرد ماندوار Mandawor في جبال السولالك وفي سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م هاجم جواليار Guwalior وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها ، ثم سار الى ملوى واستردها كذلك ، واستولى على بهلسا Bhilsa و آجان Ajjan وعاد الى الاشتباك مع الخلجيين الذين حاولوا من جديد الاستقلال بالبنغال وتقوية نفوذهم فيها خصوصا بعد وفاة ناصر الدين محمد شاه - والى البنغال من قبل ابيه سلطان دلهي (٥٠) .

توفي التمش سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م بعد أن وطد نفوذه وسلطانه في دولة المماليك في الهند ، وخاض في سبيل ذلك حروبا كثيرة - كما ذكرنا -

(46) K. Ali : A New Hist . of Indo-Pakistan. p. 57.

(47) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134.

(48) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 276.

(49) Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 135.

(50) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 52.

ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته ، ولذلك يمكن القول بأن التمش هو المؤسس الحقيقي لسلطنة دلهي الملوكية (٥١) .

ولم تمنع الغزوات المتكررة التي خاضها التمش ضد أعدائه لم تمنعه من اصلاح أحوال بلاده ، فأعاد تنظيم الجهاز الادارى وهو من هذه الزاوية يعتبر رجل دولة من الطراز الأول ، وقد كان الجهاز الادارى من قبله ينقصه التنظيم . وحدد لكل ادارة أو مصلحة اختصاصها ، رسم لها الخطة التي تسير عليها (٥٢) وبذلك سارت الأعمال الحكومية في عهده بدقة . كذلك حرص السلطان التمش على اقرار العدالة في بلاده ، ورفع الظلم عن رعاياه ، وبأشر بنفسه أمر اقرار العدل ودفع الظلم (٥٣) ، ولتحقيق ذلك أمر كل صاحب مظلمة بلبس ثوب مصبوغ ، يميزه عن لباس أهل الهند الأبيض ، فكان متى جلس للناس أو ركب ، ورأى أحدا يرتدى ثوبا مصبوغا ، استدعاه اليه ، ونظر في شكواه ، ورفع عنه مظلمته ، ولكي يتيح الفرصة لأصحاب المظالم يرفع شكاواهم اليه أثناء وجوده في داخل قصره ، أقام على باب قصره تمثالين لأسدين موضوعين على برجين ، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير ، يدقّه المتظلم ، وحينئذ يسمح السلطان بمثوله بين يديه ، ويسمعه اليه ويفظر في أمره (٥٤) .

وعنى التمش بتشجيع العلوم والآداب وأنفق أموالا كثيرة في كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون في متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها ، وأسس العديد من المدارس وزين بلاطه بالشعراء والعلماء ، وجعل عاصمته مركزا هاما للعلوم والآداب ، كذلك أولى الفن المعماري عناية كبيرة فأتم بناء مسجد قطب الدين في دلهي ، وشيد مسجدا آخر في آجپير (٥٥) .

بوفاة التمش يكون قد بقى من عصر سلطنة المماليك في دلهي ثلاثين سنة ، أثقلت المشاكل كاهلها في خلالها حتى عصفت في النهاية بذلك الصرح

-
- (51) Morel : A Short Hist. of India. p. 160.
 (52) A Short Hist : of Hind«Pakistan. p. 136.
 (53) Munshi : The Struggle for Empire. p. 18.
 (54) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 53.
 (55) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 53.

الضخم الذى بذل التمشى جهودا كبيرة فى سبيل تسميده ، ومن الأمور التى اضعفت هذه الدولة عجز السلاطين الذين خلفوا التمشى عن ادارة شؤون الدولة ، والمنازعات الشديدة التى قامت بين كبار رجال الدولة حول الاستئثار بالسلطة .

وتفصيل ذلك ان التمشى عهد الى ابنته رضية بالحكم من بعده ، ذلك ان ابنته الأكبر ناصر الدين محمد توفى فى البنغال ، وحاول التمشى تدريب ابنته رضية على ادارة شؤون الدولة ، وعهد اليها بمباشرة سلطاته أثناء غيابه عن دهلئ تمهيدا لتوليها السلطنة من بعده ، على ان كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها ، ودبروا أمر خلعه ، واستدعوا أخاها فيروز من لاهور ، وطلبوا منه ان يتولى سلطنة دهلئ بدلا من أخته ، فسار فيروز الى دهلئ ، ومكنه رجال الدولة من تولي الحكم بعد ان عزلوا أخته رضية . على أن هذا السلطان لم يستطع ادارة أمور الدولة بحكمة وكفاءة ، بل انصرف الى اللهو والعبث ، وترك مقاليد الأمور فى يد أمه شاه ترکان ، وهى امرأة حقود وضيعة النشأة ، وسارت سيرة سيئة فى الحكم ، لذلك حدثت فى الدولة الكثير من القلاقل والثورات والفتن ، وعول حكام الملتان ولاهور وهانسى وبدوان Budaum وأوده على انهاء هذا الحكم الفاسد وتحركوا الى دهلئ فعلا (٥٦) ففر فيروز من دهلئ ، وتبعه جنده ، والتقى بالخارجين عليه بالقرب من العاصمة لكنه لم يستطع الاشتباك معهم فى قتال ، ذلك أن جنده انفضوا من حوله ، وعادوا الى دهلئ ، وأعلنوا خلع فيروز ، وتولية رضية ، وقبض على فيروز وزج فى السجن (٥٧) .

على أن هذا الحل لم يرض أمراء الولايات المتجهين الى دهلئ اذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم ، وحصروا دهلئ فعلا وقطعوا عنها سبل الاتصال — بالولايات التابعة لها ، لكن السلطنة رضية اظهرت مقدرة وكفاءة فى سحق هؤلاء المناوئين (٥٨) لها . فعلى الرغم من أنها كانت فى قلة من الجنود ، فإنها استطاعت اضعاف أعدائها الأمراء المحاصرين

(56) Munshi : The Struggle for Empire. p. 187.

(57) Lane Poole : Medieval India p. 73.

(58) Lane Poole : Medieval India. pp. 74-75.

للعاصمة . وذلك ببذر بذور الشقاق بينهم . عندئذ وانتها الفرصة للتخلص من أعدائها وهزيمتهم ، وردهم على أعقابهم خاسرين ، وأصبحت سلطنة الامبراطورية بلا منازع ، وعاد الأمن والهدوء الى ربوع دولتها (٥٩) .

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال في أعمالها وتصرفاتها ، حتى تضى على نفسها الرهبة أمام الناس ، فتزيت بزي الرجال ، وقادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها ، وشاهدها الناس وهي تركب الفيل على رأس جيشها ، إلا أنها اغضبت أمراء الدولة الترك الذين رفع المتمش من شأنهم ، وقربهم اليه ، وأسند اليهم الأمور الهامة في الدولة (٦٠) ، وأبعدتهم عن التدخل في شؤون الحكم ، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها ، وسوء نواياهم نحوها (٦١) .

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شأن رجلين حبشى يعمل اميرا للخيل في بلاطها يسمى جلال الدين ياقوت (٦٢) ، وأسندت اليه قيادة الجيش ، بل همت به ، وهم بها ، وتزوجت منه ، فدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخلص منها ، أو على الأقل تقليص نفوذها ، وقادها ايتيكن Aitigin — أمير حاجب — لكن رضية أحبطت المؤامرة ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحد ، إذ أعلن حاكم البنجاب الثورة ، فسحقت رضية تمرده (٦٣) ، أما احتيار الدين التونيسا Altunia — حاكم بهاتندا — فقد رفع هو الآخر راية العصيان ، وقادت رضية جيشا لحاربه ، لكنه هزمها وأسرها (٦٤) ، وقتل ياقوت ، وبينما هي بعيدة عن العاصمة إذ بالأمراء الترك في دلهي يعلنون عزلها ، ويولون بدلا منها معز الدين بهرام بن المتمش .

لما ولى بهرام شاه سلطنة دلهي لم يستطع الانفراد بالحكم لضعفه ، بل اضطر الى الخضوع للأمراء الترك ، والسير وفق أهوائهم

(59) Lane Poole : Medieval India. pp. 74-75.

(60) Munshi : The Struggle for Empire. pp187-188.

(61) K. Ali. : A New Hist. of Indo-Pakistan p. 55.

(62) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India- p. 279.

(63) Munshi : The Struggle for Empire. p. 188.

(64) A Short Hist. of Hind- Pakistan. p. 136.

وأُسند أمر الملك كله إلى واحد منهم هو وزيره اختيار الدين ايتيكن الذي قبض على زمام الأمور في الدولة دون السلطان ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذي جعله أسما فقط ، فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله ، وادى نجاحها إلى استرداد سلطانه (٦٥) .

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالانفراد بالحكم طويلا ، ذلك أن بدر الدين سنقر — أمير حاجب — سيطر على أمور الدولة ، كذلك تعرض السلطان لمؤامرة أخرى تستهدف خلعها ، فقد انتهر التونيسا — حاكم بهاتندا — فرصة مقتل ايتيكن ، وعول على المسير إلى دهلي ، والتريع على عرش السلطنة ، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته — رضية — وتزوج منها ، ورأى أن ذلك يعطيه الحق في تحقيق أطماعه الرامية إلى الاستحواذ على السلطنة ، وتقدم الاثنان إلى دهلي ، لكن القبائل الكهكية هاجمت جيوش التونيسا وشتتت شملهم ، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة ، واغتالوها (٦٦) ، وبذلك فشلت هذه المؤامرة . على أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ، شجعت العلوم والآداب (٦٧) ، وكانت تتجول في الأسواق في زي الرجال ، وتجلس إلى الناس ، وتستمع إلى شكواهم ، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر — ملكة مصر الشجاعة التي قامت بدور كبير في صد لويس التاسع — ملك فرنسا — عن مصر في الحملة الصليبية السابعة ، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفي أثناء معركة المنصورة ، فقبضت شجرة الدر على زمام الأمور في مصر حتى قدم توران شاه ابن الملك الصالح ، وخلف أباه في الملك .

لم تستتب الأمور في دهلي باجباط مؤامرة أمير بهاتندا ، ورضية ، ذلك أن أمير حاجب ظل قابضا على زمام الأمور في الدولة وبينما تسير الدولة في طريق الاضطراب واجهت خطرا آخر ليس من الداخل ، ولكن من الخارج ، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور سنة ١٢٤١م ، فقاد أمير حاجب جيشا إلى لاهور لوقف تقدم المغول (٦٨) ، غير أنه لم

(65) K. Ali : A Short Hist of Indo-Pakistan. p. 55.

(66) A Short. of Hind-Pakistan. p. 139.

(67) Ma Jumdar : Aa Advanced Hist of India. p. 276.

(68) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.

يلبث أن توجس خيفة من السلطان اذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدى الى تأمر السلطان وحاشيته ورجاله ضده ، وعزله من منصبه ، ومنعه من دخول دهلى ، وانضم اليه الجيش فى اعلان التبرد والعصيان على السلطان ، فأرسل اليه بهرام شاه رسولا من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضى قدما فى طريق الجهاد فى سبيل الله ، لكن الشيخ الرسول لم يقم بالواجب الذى كلفه به السلطان ، بل انضم الى الثوار ، وعادوا جميعا الى دهلى ، وتركوا المغول يهاجمون لاهور (٦٩) .

أعد السلطان العدة للدفاع عن عاصمة ملكه ، لكن رجال أمير حاجب داخل دهلى ساعدوا المهاجمين على الاستيلاء على العاصمة ، وقبضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢م ، وولوا بدلا منه علاء الدين مسعود — حفيد ألتمش — وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة (٧٠) .

لم يكن علاء الدين أسعد حظا من سابقه ، فقد فوض أمور دولته الى قطب الدين حسين ، وجعله نائبا ووزيرا له ، لكنه استبد بالسلطة دونه ، وأسند الوظائف الادارية الهامة فى الدولة الى أعوانه وأنصاره ، وتأمر السلطان على وزيره وقتله ، وعهد الى نجم الدين أبوى بكر بمنصب نائب السلطان ، وعين بلبن فى منصب أمير حاجب (٧١) .

واجه بلبن صعابا جسيمة فى ضبط أمور الدولة ، فقد كثرت الفتن والفتاقل بها ، اذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دهلى ، وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية ، وحارب بعضهم بعضا ، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف اليها ، وبلغ من ضعف السلطة المركزية أن أمراء الولايات القريبة استنجدوا بالمغول لدحرير كل محاولة قد تقوم بها دهلى لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم (٧٢) .

على أن بلبن لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ سياسته الرامية الى اعادة الهدوء والسكينة الى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف اقصاءه

(69) IBID

(70) Munshi : The Struggle for Empire. p. 190.

(71) Ma Jumdar : Aa Advanced Hist of India. p. 279.

(72) Munshi : The Struggle for Empire. p. 191.

عن الحكم ، ذلك أن الهنادكة عولوا على اقضاء العناصر التركية عن ادارة أمور الدولة ، والحلول محلهم ، وقاد هذه الحركة عماد الدين ريجان الذى ولى منصب وكيل الدار ، وأقبح فى اقضاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم (٧٣) . وبذلك حل النفوذ الهندوكى محل النفوذ التركى فى سلطنة المماليك بدلهى .

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طويلا بادارة شؤون حكومة دلهى ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اغتصاب الهنادكة بقيادة ريجان السلطة فى دلهى ، وعقدوا العزم على اعادة بلبن ، وانضم اليه الكثيرون من حكام الولايات الترك ، وطلبوا من السلطان اعادة بلبن (٧٤) ، وعزل ريجان ، ولما لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة ، فخرج السلطان من عاصمته دلهى لسحق تمرد الثوار لكن النائزين هزموا جيش السلطان ودخلوا دلهى ، وأعادوا بلبن الى الوزارة ، وعزل ريجان سنة ١٢٥٤م ، وأحسن اهالى العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين (٧٥) .

واجه بلبن مشاكل متعددة لاقرار الأمور فى الدولة ، فالبلاد مضطربة ، والثورات متعددة فى الامبراطورية ، وخصوصا قبائل المواتى Mewatis وأصبحت البلاد تعيش فى فوضى شاملة ، لذلك كان على بلبن استعادة هبة ونفوذ حكومة دلهى والقضاء على الفتن فى الولايات التابعة لها ، وقد فوض اليه السلطان كل هذه الشؤون بينما انصرف الى مجالسة العلماء والدرأويش (٧٦) .

اثبت بلبن كفاءة ومقدرة فى ادارة شؤون الدولة ، واعادة الهدوء اليها ، ففضى على الفتن الداخلية ، وأخضع الكهكية ، وغيرها من القبائل النائرة المثيرة للشغب والفوضى ، وزحف الى الدواب Doab

(73) IBID. p. 192.

(74) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. 280.

(75) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 139.

(76) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 192-193.

وأخضع الأمراء الهنادكة الثائرين بها ، كما أعاد أودة والسند الى الولاء والطاعة لحكومة دلهي (٧٧) .

على أن أبرز مواقف هذا الرجل البطولية تجلت في مقاومته لفزؤ المغول للهند سنة ١٢٤٥م ، فقد هاجموا السند ، وضيقوا الحصار على حصن أوكا فتصدى لهم بلبن واشتبك معهم في قتال مرير أوقع بهم هزيمة كبيرة وردهم على أعقابهم خاسرين وأمنت بلاد الهند الغربية من خطر المغول ، وعادت سيطرة دلهي على هذه المنطقة (٧٨) .

توفي ناصر الدين محمود بعد حكم دام عشرين عاما ، وكان عادلا كريما زاهدا متدينا ، يرضى العلوم والآداب ، وقد عهد الى أبى عمر مثنان منهاج السراج بشغل وظيفة كبيرة في بلاطه ، ووضع هذا العالم مؤلفا كبيرا أهداه للسلطان ، أسماه « طبقات ناصري » وكافاه السلطان مكافأة كبيرة على هذا الجهد الكبير ، ومما يجدر ذكره أن ناصر الدين عاش عيشة الزهد ، وكان يقتات من عمل يده ، اذ كان ينسخ المصاحف ويبيعها ، ويغطي بما يرد اليه من هذا العمل نفقاته الخاصة ، كذلك لم يتخذ خدما في بيته ، إنما كانت زوجته تباشر الشؤون المنزلية بما في ذلك اعداد الطعام (٧٩) .

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع الى أعلى المناصب في إمبراطورية المماليك في عهد ناصر الدين محمود ، ولعب دورا هاما في تاريخ سلطنة دلهي المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ ناصر الدين محمود هو في حقيقته حلقة من تاريخ بلبن ، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محمود أبناء ذكور ، وتزوج بلبن من ابنة ناصر الدين محمود ، الأمر الذي يسر له أمور توليه السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦م وكان قد تجاوز الستين من العمر (٨٠) .

ينتمي بلبن الى قبيلة تركية ، كان أبوه من شيوخها ، ووقع بلبن في أسر المغول ، واشتراه الخواجة جمال الدين في البصرة ، وبيع في دلهي

(77) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 59.

(78) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.

(79) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.

(80) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan: p. 59.

الى التمش (٨١) ، وظهرت شجاعته ومقدرته في سلك الجندية ، فادخله التمش في جماعة حرسه ، ولما وليت رضية السلطنة ، أسندت اليه منصب أمير الصيد (٨٢) ، وأدرك بهرام شاه شجاعته واقدامه ، فولاه بعض الولايات ، فأحسن ادارتها وأعاد اليها الهدوء والاستقرار ، وراجت فيها الزراعة ، وتحسنت الأحوال الاقتصادية ، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزارة ونيابة السلطنة (٨٣) — كما رأينا .

واجه بلبن بعد توليته السلطنة نفس المشاكل التي واجهها في عهد ناصر الدين محمود ، فالبلاد مضطربة ، والمغول عادوا الى تهديد الحدود ، وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية ، فبدأ بتقوية السلطة المركزية ، وأعاد الهيبة الى بلاطه وحكومته ، وذلك بأن جعل بلاطه قويا فخما كما كان أيام ملوك الفرس القدامى ، وكان مجلسه يتقسم بطابع الجسد ، وأعاد تنظيم جيشه وتدريبه على أحسن نظام (٨٤) ، وأضعف من شأن القادة المماليك — موالى التمش — وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التي تستهدف تقوية نفوذهم في الدولة على حساب السلطان (٨٥) .

كذلك حرص بلبن على تنظيم ادارة الدولة ، وإعادة الأمن والنظام الى ربوعها (٨٦) ، ولتحقيق ذلك أعد جهازا قويا للجاسوسية ، يحيطه علما بكل أخبار الادارات والمصالح الحكومية ، ويكتبون له تقارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين ، وهؤلاء الجواسيس يراقبون كل مصالح الدولة بما في ذلك الجيش وبلاط السلطان ، وحتى أبناؤه ، وكان هناك جواسيس لمراقبة سير الجواسيس في عملهم ، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب اذا تهاون في عمله أو في تأدية الواجب المكلف به ، ولم يلتزم بالدقة في جمع الأخبار ، أو لا يصدق في تبليغها ، وبلغ

(81) Morel : A Short Hist. of India. p. 160.

(82) Ma Jumdar : An Advanced Hist of India. p. 281.

(83) Morel : A Short Hist. of India. p. 161.

(84) Morel : A Short Hist. of India. p. 161.

(85) Munshi : The Struggle for Empire. p. 194.

(86) Lane Poole : Medieval India. p. 81.

من حرصه على اقرار العدالة ، ومنع الظلم ان احدا كان لا يجرؤ على ايداء خدمه ومماليكه (٨٧) .

بعد ان أعاد بلبن تنظيم ادارة الدولة ، وأعاد الى حكومة دهلى هيبتها ، اتجه الى القضاء على الفتن الداخلية في الدولة ، ف ضرب بيد من حديد على أهل مواتى ، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته ، فلما ولى السلطنة ، قطعوا الطرق ، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضرر والأذى خصوصا في بهار (٨٨) ، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دهلى ، فخرج بلبن من دهلى ، وسار على رأس جيشه لأخضاعهم وهاجمهم هجوما عنيفا ، وما زال يتعقبهم حتى شنت شملهم (٨٩) ، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال التي كانوا يحتمون بها ، وما زال يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم ، وقتل قائدهم ، ورأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام في الدولة ، فأقام الحصون في مختلف البلاد ، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطرق (٩٠) ، وحول المناطق التي استأصل منها الغابات الى أراض زراعية ، يقيم فيها جند لحراستها من عبث العابثين (٩١) ، وبذلك استتب الأمن والنظام في الدولة .

كذلك تعرضت سلطنة الممالك في الهند لخطر آخر من جانب الهندوس في الدواب ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دهلى والبنغال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا ، وقبض عليهم وأسروهم (٩٢) .

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب الممالك الذين اعترضوا على توليته الحكم وسعوا الى الخلاص منه ، وكان سلطانهم قد قوى في عهد التمش وخلفائه الذين منحوهم الاقطاعات الكبيرة ، فطردهم بلبن من الخدمة العسكرية ، وأمعن في عقابهم ، وقتل كثيرا منهم ، وتخلص من

(87) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 59.

(88) A Short Hist. Of Hind-Pakistan. p. 140.

(89) K. Ali : A New Hist of Indo-Pakistan. p. 61.

(90) IBID. p. 62.

(91) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 61.

(92) IBID. p. 62.

هذه الفئة كلية (٩٣) ، وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطانا قويا مهبا يرعى جانبه رجال الدولة ، ويخشون بأسه .

لم يكد بلبن ينتهى من مشاكله الداخلية ، حتى واجه خطرا خارجيا جسيما ، ذلك أن المغول عادوا من جديد الى تهديد الهند ، بعد أن زحفوا الى بلاد العراق بقيادة هولاكو خان ، واستولوا على بغداد — حاضرة بنى العباس — وقتلوا الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٤م (٩٤) ، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن ثروتها ، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء من بلاده ، وبقي في دهلى لا يغادرها ، وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه ، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول ، ولا تقاسى ما قاسته بغداد من ويلات (٩٥) ، وأعد بناء القلاع التى دمرت على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة ، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح ، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات ، وأسند القيادات العسكرية الى رجال اكفاء وعين ابنه الكفاء للشجاع محمد حاكما على الملتان ، ووضع ابنه الآخر بفراخان على حراسة سمنه وسنام (٩٦) .

وكان لخطته الدفاعية اثرها الكبير في درء خطر المغول عن ديار الهند ، فحين هاجموها سنة ١٢٧٩ ، تعقبهم محمد وهزمهم ، ودفع خطرهم عن بلاد الهند (٩٧) ، وبذلك سلمت سلطنة المالك في الهند من خطر المغول وويلاتهم .

على أن انشغال الحكومة الهندية في الذود عن البلاد أدى الى بروز مشكلة أخرى داخلية ، ذلك أن البنغال بقيادة واليها طغرل عادت الى محاولة الاستقلال عن دهلى ، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين ، وأمر باقامة الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة بدلا من بلبن ، فأرسل السلطان جيشا بقيادة أمير خان لاختصاص طغرل ، وإعادة البنغال

(93) Lane Poole : Medieval India. p. 84.

(94) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 281.

(95) Lane Poole : Medieval India. p. 85.

(96) Munshi : The Struggle for Empire, p. 194.

(97) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 63.

الى الخضوع للحكومة المركزية ، لكن طغرل هزم القائد الهندوكى ، وغضب بلبن من قائده ، وحمله مسئولية الهزيمة التى لحقت به ، وحكم عليه بالاعدام (٩٨) ، وأرسل جيشا آخر الى البنغال لسحق تمرد طغرل ، لكن هذا الجيش لقى مصير سابقه ، عندئذ لم ير السلطان بلبن بدا من المسير بنفسه الى البنغال لاعادتها الى حوزته ، وصحبه ابنه بفراخان (٩٩) ، وحينما اقترب السلطان من البنغال أخذ طغرل الجزع والفرع ، وفر هو ورجاله الى الغابات المجاورة شرق البنغال فى جاجنكر ، وأرسل السلطان فرقة من الجيش لتعقب المتمردين ، وعثروا عليهم فعلا ، وشاهدوهم يشربون ويلهون والفيلة تتجول بين الأشجار ، والخيول والمواشى تتغذى على الذبقات ، فباغتوهم على حين غفلة منهم ، وما زالوا بهم حتى أفتوهم عن آخرهم ، وقتلوا زعيمهم طغرل (١٠٠) .

بعد ذلك اتجه السلطان الى لكهاونتى ، وكانت تؤيد طغرل فى ثورته ضد دهلى ، فاخفى أغلب أعيانها ، خوفا من بطش السلطان ، لكن بلبن لم يبرح البلدة الا بعد أن نكل بالثائرين (١٠١) ، وبذلك عادت البنغال الى الولاء والطاعة للسلطان بلبن ، ولكى يضمن السلطان بقاء البنغال على الولاء لدهلى ، عهد الى ابنه بفراخان بحكم البنغال ، وحكم بفراخان وأعقاب البنغال أكثر من نصف قرن (١٠٢) .

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دهلى ، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخلجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دهلى وبلادهم ، فضلا عن بعد المسافة ، وانتشار الأوبئة فيها (١٠٣) ، وبذل التماس جهودا كبيرة فى إخضاع البنغال وحذا طغرل - كما رأينا - حذو الخلجيين فى محاولة الاستقلال عن دهلى منتهزا فرصة انشغال السلطان بلبن فى مشاكل الدولة الداخلية والخارجية (١٠٤) .

(98) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 282.

(99) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 62.

(100) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 283.

(101) Lane Poole : Medieval India. pp. 87-88.

(102) Morel : A Short Hist. of India. p. 161.

(١٠٢) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج١ ص ١٤٨ .

(104) Munshi : The Struggle for Empire. 154.

على أن يلين واجه كارثة أخرى مروعة ، فقد توفى ابنه محيد وهو يقاتل المغول (١٠٥) ، ولم يحتمل صدمة موت ابنه ، وتوفى بعدها في سنة ١٢٨٧ بعد حكم دام أربعين سنة (١٠٦) .

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند في تاريخها الوسيط ، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التي واجهته ، إذ وقف في وجه الأمراء الهنادكة الذين حاولوا النيل من سلطانه ، وقهر العصاة والمفسدين ، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد (١٠٧) ، وأقر الأمن والنظام في ربوع الدولة ، واشتد في معاقبة الخارجين على القانون والعدالة واتخذ لنفسه - كما ذكرنا - بلاطا مهيبا له مراسم معينة ، ورجال يرتدون أزياء معينة ، ومظاهر خاصة ، واتخذ رجالا أكفاء في إدارة شؤون الدولة على أنه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجية ، ولم يأل جهدا في سبيل حماية الدين والمحافظة على الشريعة (١٠٨) ، وإقرار العدالة وبنى دارا أسماها دار الأمن لرفع المظالم عن رعاياه ، وتخفيف أعباء الحياة عليهم ، وسأوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون ، وإذا كان قد أبعد الهنادكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية ، فإنه فعل ذلك بعد أن لمس منهم نزعاتهم الاستقلالية في وقت تواجه الدولة فيه خطرا خارجيا .

ولم يأل بلبن جهدا في سبيل رعاية الفنون والآداب ، وحرص على رفع شأن مجتمعه (١٠٩) ، فشجع الناس على التحلى بتعاليم الاسلام . قد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندي حتى أن المؤرخين يعزون اليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندي من تقاليد رفيعة (١١٠) .

ومما يجدر ذكره أن هذا السلطان اكرم وفادة الشخصيات الاسلامية الكبيرة التي لجأت الى الهند فرارا من بطش وجور المغول ، وكان من بين

-
- (105) A Short Hist. of Hind-Pakistan, p. 141.
 (106) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 65.
 (107) Lane Poole : Medieval India p. 87.
 (108) Munshi : The Struggle for Empire. p. 157-158.
 (109) Prasad : Medieval India pp. 171-172.
 (110) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 284.

هؤلاء فريق من بنى العباس ومن أمراء خوارزم وغيرهم . وقد أنزل كل فريق منهم في حي خاص ، سمي باسمه ، مثل محلة عباس ، محلة خوارزمي ، محلة ديلمى ، محلة سنجرى ... الخ .

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد الى ابنه بفراخان بتولى الحكم من بعده ، لكن بفراخان رفض ، وآثر البقاء في البنغال ، لذلك عهد السلطان الى كيخسرو بن بفراخان بولاية عهده ، وتولى كيخسرو السلطنة في دلهي سنة ١٢٨٧ (١١١) ، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم ، فأُسند أمور الدولة الى نظام الدين وكان رجلا طموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان ، وزين نظام الدين للسلطان الاستيقاع بمباهج الحياة واللهو والعبث ، وأسند المناصب الرئيسية في الدولة الى رجاله المقربين اليه (١١٢) .

على أن بفراخان — حاكم البنغال — ساء ما علم من استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون ابنه السلطان ، وعقد معه لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة نفوذه في الدولة ، لكن الترك لم يمكنوه من ذلك . بل عزلوه وولوا بدلا منه كيتباد — أحد أطفاله الصغار — على أن الخلجيين لم يمكنوا الترك من استبداد بأمور الدولة ، فدخلوا دلهي ، وأزالوا عنها حكم الماليك .

(111) Munshi : The Struggle for Empire p. 158.

(112) A Short Hist. of Hind-Pakistan. p. 144.

٣ - الدولة الخليفة

قيام الدولة الخليفة في دهلي :

يرى البعض أن الخلفيين من أصل تركي ، على حين يرى آخرون أنهم من أصل أفغاني . ويؤكد باراني أنهم ينسبون إلى قنبلج خان - أحد أصهار جنكيز خان - نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ، وحرف اسمه بعد ذلك إلى خلج ، وقيل لمورثته الخلفيون (١) ، وقد اندمجوا في الحياة الأفغانية ، واعتنقوا الاسلام في عهد سلاطين بني سيبكتكين ، وضم الجيش الغزنوي فرقا منهم ساهمت في فتح الهند (٢) .

على أن نشاط الخلفيين اتضح في عهد سلاطين الغور ، فحينما ولي قطب الدين أيك التركماني إقليم الهند نيابة عن سلطان الغور ، حرص على توسيع رقعة ولايته الجديدة في بلاد الهند ، فأسند هذه المهمة إلى قائده محمد بن بختيار الخلجي ، فاستولى على بندنديوري - عاصمة إقليم بهار - وكان يحكمها ملوك أسرة بالا ، ولم يلبث أن استولى على مملكة بالا بأسرها ، وكانت الديانة البوذية سائدة بين سكان هذه المملكة ، فحطم القائد الخلجي معابدهم وأصنامهم ، ونشر الاسلام بينهم ، وانضمت هذه البلاد إلى امبراطورية الغور (٣) .

واذن قطب الدين أيك - نائب سلطان الغور في الهند - إلى القائد الخلجي بمواصلة الفتح والتوسع ، فاتجه محمد بن بختيار الخلجي إلى نادية - عاصمة البنغال - وعلى الرغم من قلة عدد جنده ، فإنه اقتحم نادية ، وكان يحكمها لكشمن سنا من أسرة سنا ١١٩٦/٥٩٥ هـ ، وفزع الملك الشيخ وجزع ، ورأى أن لا قبل له بالغزاة المسلمين ، فلاذ بالفرار من عاصمة ملكه ، لا يلوى على شيء وقد يسر ذلك للقائد الخلجي أمر الاستيلاء على نادية - عاصمة البنغال - فضمها إلى مملكة الغور ، وأقام

(١) محمد قاسم هلدوشاه : تاريخ فرشته ص ٨٨-٨٩ .

(2) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties p. 91.

(3) Lane Poole : Medieval India. p. 54.

الخطبة فيها للسلطان الفوري ، وقد مهد سقوط نادية في أيدي الغور السبيل لهم لضم إقليم البنغال بأسره لدولتهم (٤) .

لم يكتف محمد بن بختيار الخلجي بما أحرزه من انتصارات رائعة ، بل تطلع الى المسير الى التبت للاستيلاء على هذه البلاد ، ففي سنة ٦١٣هـ/١٢٠٦م اتجه في عشرة آلاف فارس الى التبت ، لكن حملته باءت بالفشل الذريع ، وتعرض جنده لأهوال جسام أثناء انسحابهم ، ولقى الكثير منهم حتفه في عودتهم الى ديفكوت ، ولم يلبث هو كذلك ان توفي (٥) .

حرص خلفاء محمد بن بختيار الخلجي على بسط نفوذهم على بعض أقاليم الهند ، فلما قامت دولة الممالك في الهند ، وولى شمس الدين التمش السلطنة في دهلي ، تعرض لمشاكل داخلية تهدف الى اطاحته من الحكم ، وأثار هذه المشاكل رجال الدولة الذين انتهزوا فرصة الفوضى التي أعقبت وفاة قطب الدين ايبك ، وقد مهدت هذه المشاكل للخلجيين أمر السيطرة على بهار والبنغال (٦) .

على ان الملوك الممالك لم يقفوا مكتوفي الأيدي ازاء نزعات الخلجيين الاستقلالية ، فلما غادر جلال الدين منكبرتي بلاد الهند ، وزال خطر الخوارزميين عنها ، وبالقالي خطر المغول ، تفرغ السلطان التمش لقمع الحركات الاستقلالية في دولته ، ومن أبرزها ومنها استقلال غياث الدين الخلجي في البنغال عن دهلي حيث أقام الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة ، وتلقب باللقاب الملوك ، وقوى أمره ، واشتد بأسه وامتد نفوذه على البلاد الواقعة شرقي دهلي (٧) .

عول السلطان التمش على سحق محاولة الخلجي الاستقلالية ، وسار على رأس جيش كبير الى البنغال ولما رأى الأمير الخلجي عدم استبطاعته للتصدي لسلطان دهلي ، أعلن عودته الى الولاء والطاعة ، ونبذ التمرد والعصيان ، وتعهد بالعودة الى دفع الأموال المقررة عليه ،

(4) K. Ali : A New Hist. of Indo-Pakistan. p. 40.

(5) Munshi : The Struggle for Empire. p. 119.

(6) IBID. p. 120.

(7) Munshi, p. 134.

الا انه لم يكن صادقا في تعهده ، بل كان يزعم انتهاز فرصة أخرى تتيح له العودة الى الاستقلال بولايته ، فلما ابتعد السلطان التمش عن البنغال أعلن الاستقلال ، وسار الى بهار ، واستولى عليها ، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا ، اذ سار اليه ناصر الدين محمد شاه — والى أودة — من قبل السلطان التمش — وهاجم البنغال . وأوقع الهزيمة بالخلجي أنصاره وبذلك عادت البنغال الى حوزة سلطان دهلى (٨) .

لكن الأمير الخلجي لم يستسلم لانتزاع البنغال منه ، بل عول على استرداد هذا الاقليم ، فلما توفي ناصر الدين محمد شاه ، والى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى — عاد الى البنغال وحكمها (٩) .

ضعفت دولة الماليك بعد وفاة السلطان بلبن وقد عهد بالحكم لابنه بفراخان لكن بفراخان أثر البقاء في البنغال ، وأسندت السلطنة الى كيخسرو ابن بفراخان سنة ١٢٧٨م ، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم . فأسند أمور الدولة الى نظام الدين ، وكان رجلا طموحا استبد بأمر الدولة دون السلطان ، وزين للسلطان أمر الاستمتاع بها في الحياة الدنيا من مباحج حتى يبعده عن الانشغال بأعباء الحكم ، وأسند المناصب الكبيرة في الدولة الى رجاله المقربين (١٠) .

على أن بفراخان — حاكم البنغال — ساء استبداد نظام الدين بأمر الدولة دون السلطان ، وعقد معه لقاء سرىا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله ، واستعادة نفوذه في الدولة ، ومباشرة مسؤولياته بنفسه ، ونفذ السلطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله ، واسترد نفوذه في الدولة (١١) .

لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالسلطة طويلا ، فقد تأمر عليه الترك ، وعزلوه وولوا بدلا منه كيتباد — أحد أطفاله الصغار — السلطنة حتى يتيسر لهم الاستبداد بالدولة دونه (١٢) .

(8) A Short Hist. of Hind. Pakistan. p. 136.

(9) Munshi, 157.

(10) IBID. 158.

(11) Munshi, p. 158.

(12) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties. p. 91.

استاء الأمراء الخليجون من استبداد الترك بأمر الدولة ، وعولوا على تغيير نظام الحكم في دهلي ، فساروا إليها بقضهم وقضيضهم بقيادة زعيمهم فيروز وهزموا القواد الأتراك ، وأحدثوا انقلاباً في دهلي أطاحوا فيه بالسلطان الطفل ، وأعلنوا فيروز سلطاناً ، ولقب جلال الدين ، وكان ذلك سنة ١٢٩٠م (١٣) .

ولم يتقبل أهالي دهلي حكم الخليجين في بادئ الأمر بالرضا والتأييد ، لكثرة ما ألحقه جندهم ببلدهم من الخراب والدمار ، وارتكابهم حماقات ذهب ضحيتها الكثيرون ، على أن السلطان الخلجي الذي كان في السبعين من عمره — تمكن بحسن سياسته وعدله ومودته أن يجتذب الناس إلى محبته . وبذلك خضع أهل دهلي للملك الجديد والعهد الجديد ، ووفد الناس على السلطان الشيخ زرافات ووحدانا يبايعونه ويقدمون له غرض الولاء والطاعة (١٤) .

سياسة السلاطين الخليجين في توطيد سلطانهم

لم يأل السلاطين الخليجون جهداً في سبيل سحق حركات التمرد والعصيان ، ومنع اندلاع الثورات ضدهم والحيلولة دون حدوث الحركات الاستقلالية والانفصالية في الدولة ، وأول هذه الحركات الثورية حدث سنة ١٢٩٠ حينما أعلن جيجو — حاكم إقليم كره — الثورة ضد الحكم الخلجي وهو ابن أخي بلبن وكان يطمع في استعادة عرش دهلي ، وقوى أمره واشتد بأسه وكثر أنصاره ، وانضم إليه الكثير من الأمراء والراجات وتعاهدوا وتعاضدوا على الوقوف إلى جانبه ضد نظام حكم جلال الدين فيروز شاه ، وأعلن جيجو الاستقلال عن دهلي ، بل أعلن نفسه سلطاناً ، وتلقب بلقب مغيث الدين ، وضرب العملة باسمه وأمر بذكر اسمه في الخطبة ، وأعد جيشاً كبيراً للزحف إلى دهلي وامتلاكها ، وأسقط الحكم الخلجي (١٥) .

لم يقف السلطان جلال الدين مكتوف اليدين إزاء هذه الحركة الخطيرة التي تهدف إلى انتزاع الحكم منه ، بل عول على احباطها ،

(13) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 15.

(14) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 189.

(١٥) تاريخ فرشته ، ص ٩٠ .

فاستخلف في دهلي ابنه الأكبر ولقبه خان الخانات ركن الدين ، وسار هو على رأس جيش كبير ، يتكون من عشرة آلاف مقاتل وقسمه الى قسمين ، قسم قاده أركالي خان ، والثاني تحت قيادته هو (١٦) ، وبانت أركالي الأعداء على حين غفلة منهم ، وهزمهم شر هزيمة . غير أن المتمردين لم يهنوا ولم يضعفوا بل أعادوا تنظيم صفوفهم ، ودخلوا مع أركالي وجنده في معركة أخرى ، ولما علم جيجو باقتراب السلطان ، أسقط في يده ، وترك ميدان القتال ، ولأذ بالفرار لا يلوى على شيء . غير أن أركالي خان اقتفى أثره ، ولجأ جيجو الى قلعة قريبة من ولايته ، واعتصم فيها ، فحاصره أركالي ، وشدد عليه الحصار (١٧) ، ومنع وصول الأقوات الى القلعة ، حتى استسلم جيجو ، ووقع هو وأنصاره أسرى في أيدي جيش دهلي ، أما السلطان فقد سار الى كره ، وظهر في طريقه البلاد من المتمردين وعناصر الشغب ، واستعاد كره ، وسبق الأسرى المتمردين اليه مكبلين بالسلاسل والأغلال. على أن السلطان الرحيم أمر بفك قيدهم ، وأن تكفل لهم وسائل الراحة ، وبدلاً من أن يحاكمهم بتهمة الخيانة والغدر ، عفا عنهم ، وتغاضى عن خطاياهم وآثامهم ، وشملهم بعنايته ورعايته وعطفه ، وحذره قواده من هذا التسامح الذي قد لا يؤدي الى وقف حركات التمرد والعصيان ، بل ربما يزيد الثورات اشتعالاً في دولته (١٨) ، ولكن السلطان الشيخ استند في عقوه وصفحه الى روح الاسلام التي تدعو الى تجنب اراقة دم المسلم ، وكان يرى انه في شيخوخته يجب أن يختتم حياته بالأعمال الطيبة الصالحة . ومهما يكن من أمر فقد أفرج السلطان عن عناصر التمرد والفتنة ، وأرسل جيجو الى اللتان في ظل حراسة مشددة (١٩) .

ظهرت حركات معارضة أخرى للحكم الخلجي من بينها حركة دبرها أمراء ونبلاء التمش ، وتزعمها تاج الدين كوشى ، وعقدوا عدة اجتماعات وندوات تحدثوا فيها عن مساوئ الحكم الخلجي وعدم جدارته بتولى زمام الأمور في الدولة ، وعدم صلاحية جلال الدين بالذات لعرش سلطنة دهلي ، واتفقوا على العمل على ازاحة الخلجيين عن حكم البلاد ،

(١٦) ضيا بارانى : تاريخ فيروز شامى ، ص ١٨٤ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(18) Lal : op. cit. p. 20.

(١٩) بارانى : تاريخ فيروز شامى ، ص ١٨٩ .

ونقل زمام الحكم من جلال الدين الى تاج الدين كوشى ، ودبروا مؤامرة لاغتيال السلطان الخلقى . غير أن تفاصيل هذه المؤامرة نمت الى علم السلطان ، فأرسل اليهم يهددهم ويتوعددهم بسيفه ان لم يعودوا الى الولاء والطاعة ، ويقلعوا عن التآمر والتمرّد ، فخشوا مغيبة عصيانهم ، وأرسلوا اليه وفدا يعتذر عما بدر منهم ، ويطلب من السلطان العفو والصفح ويعلن عودتهم الى الولاء والطاعة ، فعفا السلطان الطيب عنهم . وبذلك أحبط جلال الدين هذه المؤامرة بالطرق السلمية (٢٠) .

وتعرض جلال الدين لمؤامرة أخرى كادت تقضى عليه ، ورأس هذه المؤامرة سيدى مولى ، وهو درويش من بلاد فارس ، لجأ الى الهند عقب الغزو المغولى لها ، وأقام فى دهلى ابان حكم بلبن ، وعاش فيها حياة زهد وتقشف وخشونة ، يتبسّط فى طعامه ويلبس الخشن من الثياب ، ومن الغريب أنه يتعفف عن أموال الناس ، فلا يتبل ما يعرض عليه من منح وهبات ، ورغم ذلك كان ينفق عن سعة ، وبنى خانقاة عظيمة ، ووفد عليه الناس من كل مكان بعد ان بلغ صيته الآفاق ، وكان يستضيفهم ويكرم وفادتهم ، ويدفع هذه النفقات الكبيرة من ماله الخاص ، ودهش الناس وأخذتهم الحيرة لعدم معرفتهم مصدر هذه الأموال ، حتى اعتقد بعضهم أن له صلة بالجن أو معرفة بالسحر (٢١) .

كثر أتباع هذا الرجل من الصوفية والفقراء والمساكين والنبلاء أيضا ، ونظر جلال الدين اليه نظرة شك وريبة فحضر مجلسه متفكرا ، وشاهد بنفسه التفاف الناس حوله ، واتضح له أن سيدى مولى ليس درويشا ولا متصوفا ، وإنما يتخذ من هذا المظهر وسيلة لتحقيق أغراض سياسية ، فقد كان يكثر من الاتصال بالأمراء والنبلاء وقواد بلبن المعارضين لحكم جلال الدين ، وبلغ من ازدياد نفوذه أن خان الخانات ركن الدين بن جلال الدين أصبح من مريديه ، وتدخل الشيخ الدرويش فى النزاع الذى حدث بين ابنى جلال الدين حول ولاية العهد ، وحاول كل منهما تقوية مركزه بضم الانتصار والأعوان له ، ومن ثم ظهر حزبان فى دهلى الأول لخان الخانات ويضم الشيخ الدرويش ، والآخر التف حول أركالى

(20) Lal : op. cit: p. 22.

(21) Munshi op. cit. p. 161.

خان ، ويضم المناهضين للدرويش وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش بالابوة حتى يكتسب الى جانبه أنصار الدرويش(٢٢) .

حرصت الحركات المعارضة للحكم الخلجي على نيل رضا الشيخ الدرويش حتى ان أبناء أمراء العهد البائد تطلّعوا الى الشيخ اللوقوف الى جانبهم في استعادة نفوذهم ، وخلع السلطان الخلجي(٢٣) .

ومهما يكن من أمر فقد دبر هؤلاء المعارضون للحكم الخلجي مؤامرة لاغتيال السلطان جلال الدين وهو ذاهب لصلاة الجمعة في مسجد دهلي الكبير ، بعدها يعلنون سيدي مولى خليفة ، ويتزوج من ابنة السلطان ناصر الذين غازى كيانى ، ويحصل على لقب غازى خان ثم يعين أبناء بلبن في الوظائف الرئيسية في الدولة ، على أن هذه المؤامرة فشلت فشلا ذريعا ، فقد علم السلطان بأنبائها ومخططها ، وأمر بالقبض على جميع المتآمرين ، وأجبروا بالعنف والشدة على الاعتراف بتفاصيل المؤامرة ، وأمر السلطان باعدام المتآمرين على حياته — وعلى رأسهم سيدي مولى . وأمر بنى وسجن المتآمرين الآخرين ، ولقد كان لمقتل سيدي مولى صدى كبيرا في دهلي ، فقد غضب أنصاره ومريدوه لمقتله ، ونادوا بالانتقام لمولاهم الذى قتل ظلما ومات شهيدا حسب اعتقادهم ، غير أن ثورتهم أخمدت . وبذلك نجا السلطان ودولته من محاولة قلب حكمه(٢٤) .

لم تنته متاعب السلطان الخلجي عند هذا الحد ، بل واجه حركة استقلالية عن دولته تزعمتها مدنة رانشمبهور ، وجدير بالذكر أن هذه المدينة كانت قوية التحصين حتى أن الغوريين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، واستطاع التمش السيطرة عليها سنة ١٢٢٦ ، واستعادها الراجبوتيون في عهد السلطنة رضية المضطرب ، ولما ولى بلبن السلطنة استردها ، ولكنها عادت الى الثورة من جديد في عهد جلال الدين الخلجي(٢٥) ، ولم يتفاد هذا السلطان عن هذه الحركة الانفصالية فأناجب عنه في دهلي ، ابنه أركالى خان وسار هو على رأس جيش كبير لاعادة

(٢٢) تاريخ فرشته : ص ١٩٢ .

(٢٣) بارانى : تاريخ فيروز شامى ، ص ١٨٩ .

(24) Lal : Hist of The Khaljis. p. 26.

(٢٥) تاريخ فرشته ص ٩٤ .

الامن والهدوء الى هذه المدينة في مارس سنة ١٢٩١م ، واجتازت قواته صحراء الثار القاحلة الموحشة ، وقاسى الجند فيها ألوان العذاب وأهلك العطش والجوع الكثير منهم ، وظلوا على هذا الحال عدة شهور حتى أكلوا معظم دوابهم (٢٦) ، ومهما يكن من أمر فقد بلغ جلال الدين وجنوده مدينة رانشمبهور ، وأرسل فرقا استطلاعية لاختبار قوة المدينة وحشد جيشه على حدودها ، ورأى السلطان أن يستولى على مدينة غين Jhain قبل رانشمبهور حتى لا يطعن جنده أثناء هجومها على رانشمبهور ، وباغت الجند الخلجي غين ، وألقوا الذعر بين سكانها ، وقتلوا الكثير من سكانها ، ولم يستطع راجا هذه البلدة دفع الخلجيين عن دياره ، وفر من نجا من سكان البلدة لا يلوون على دار ولا يركنون الى قرار ، ودخل جلال الدين غين ، وضمها الى حوزته ، وأعجبه جمال البلدة وروعة ما فيها من تماثيل منقوشة من الحجر أو الخشب في قصر الراجا ، وزار معابد البلدة ، وشاهد نقوشها للبدعة وتحفها الذهبية والفضية الرائعة ، غير أن جلال الدين أمر بإحراق التماثيل والتحف لأنها ترمز الى عبادة الأصنام (٢٧) ، وأخذ قطعتين من البرنز من تماثيل لبرهاما وأمر بتفتيتها الى قطع صغيرة ، ووزع بعضها بين ضباطه وجنوده وكبار موظفي دولته ، وزين بالبعض الآخر بوابات مسجد دهلي الكبير (٢٨) .

وبعد أن استولى جلال الدين على غين ، أرسل فرقا من جيشه الى مالوا Malwa ، وهاجمتها وحطمت معابدها وعادت محملة بالفنائم والأسلاب ، وقد مهدت هذه العمليات الحربية لشن الحرب على رانشمبهور ، واعدتها الى حوزة دهلي ، وكان صاحبها قد أعد جيشا كبيرا لصد هجوم جلال الدين ، وانضم اليه عدد كبير من راجات البلاد المجاورة ، وتعاضدوا جميعا على صد الجيش الخلجي ، وحصنت المدينة خير تحصين ، ولما نعى الى علم السلطان قوة تحصين البلدة ، واستعداد أهلها الكبير للذود عنها ، ودرء هجمات العدو ، خشى ان اشتبك مع أهل رانشمبهور أن يقتل ويجرح الكثير من جنوده المسلمين ، وهو كرجيل مسلم يحرص على عدم اراقة دم المسلمين الذى يؤدى بالضرورة الى ترميل النساء ، ويتم الأطفال ، وهو أمر لا يحتمله ، ويخشى وقوعه ، لذا قرر

(٢٦) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢١٣ .

(٢٧) المصدر السابق ص ٢١٣ .

(28) Ial : Hist. of the Khaljis. p. 30.

هذا الشيخ الطيب الرحيم رفع الحصار عن رانثمبور وأمر بانسحاب جيشه وعودته إلى دهلي ، غير مبال بالعواقب ولم يستجب لنصيحة قواده ومستشاريه بسمو عاقبة هذا العمل وما ينجم عنه من ضياع هيئته بين سكان هذه البلاد . فعلا كان لانسحاب جلال الدين أثر كبير في تشجيع الحركات الانفصالية ، فقد استردت غين استقلالها ، وخرجت رانثمبور من هذه المحنة ظافرة منتصرة ، وتحقق أهلها وحلمها في الانفصال عن دهلي (٢٩) .

ومن أهم الأحداث الداخلية التي شهدها سلطنة دهلي ، تأمر علاء الدين على عمه السلطان جلال الدين ، فقد كان هذا الأمير طموحا يتطلع إلى العرش على الرغم من أن عمه السلطان قد أسند ولاية عهده إلى ابنه ركن الدين ، وكان علاء الدين قد ولى من قبل عمه حكم إقليم كره سنة ١٢٥٤م وأُسند إليه قيادة بعض الغزوات في أرجاء الهند كان آخرها في الدكن ، وأحرز من هذه الغزوة بعض الانتصارات ، وعاد إلى كره محملا بالغنائم والأسلاب ، وحينئذ وافته الفرصة لتدبير مؤامره ضد السلطان ، فأرسل إليه يخادعه ويدعوه إلى زيارته ، ويزعم ولاءه ومحبة له ، ولم يجد السلطان الشيخ غضاظة في الاستجابة لدعوة ابن أخيه على الرغم من تحذير رجاله له ، وسار إلى كره ، وأفلح علاء الدين في اقناع السلطان بزرع أسلحة جنده منعا لحدوث صدام بين جند كره وجند دهلي ، أما علاء الدين فقد أعد جيشه وزوده بالأسلحة والمعدات ، وزوده بالخيول والفيلة ، وركز جنده في عدة مواضع (٣٠) ، ولما وفد السلطان على ابن أخيه ، وأدرك سوء نواياه ، أسقط في يده ، وأدرك أنه لا محالة هالك ، وانصرف إلى قراءة القرآن (٣١) . هنا أمر علاء الدين بقتل السلطان ، ولما نفذت المؤامرة أعلن علاء الدين نفسه سلطانا ، وركب جنده الفيلة ، وزفوا رأس جلال الدين على حربة ، وتجولوا بها في شوارع كره ، وأنعم علاء الدين على جنده وأنصاره بالمنح والهبات والألقاب (٣٢) .

(٢٩) بارانى : تاريخ فيروز شامى ، ص ٢١٢ .
(30) Ial : Hist of the Khaljis. p. 55

(٣١) تاريخ فرشته ، ص ١٠٢ .
(32) Lal. : Hist. of the Khaljis. p. 56.

على أن قتل جلال الدين لم يكن معناه تولية علاء الدين العرش بسهولة ويسر ، فقد اعترضته عقبات كثيرة ، ذلك أن دهلي العاصمة لا زالت في أيدي أبناء جلال الدين ، كما أن أهل العاصمة استاءوا من مقتل السلطان ، وعقدوا العزم على منع قتله علاء الدين من دخول بلدهم ، وعدم الاعتراف به سلطانا ، ولما علمت الملكة جهان بمصرع زوجها السلطان ، أعدت البعده ، وعقدت العزم على عدم ضياع العرش من ابنها قدر خان ، فأعلنت سلطانا بعد أبيه ، ولقبته ركن الدين ابراهيم (٣٣) .

على أن الملكة قد أساءت الى ابنها الأكبر أركالى خان ، فلم تعهد اليه بالحكم ، ذلك أن هذا الأمير لم يكن محبوبا من والديه ، لكن أركالى خان بقى في الملتان ، ولم يحاول القدوم الى دهلي لانتزاع حقه في العرش . وعلى الرغم من ذلك فقد انقسم أهل دهلي على أنفسهم بين مؤيد لابن الأكبر ، ومؤيد لقدرخان ، وقد مهد هذا الانقسام لعلاء الدين في تنفيذ خطته الرامية الى دخول دهلي والتمكين لنفسه وخلع ركن الدين ابراهيم والتخلص من أمه ، وأعد عدته لتنفيذ خطته ، وعسكر جيشه على مشارف دهلي (٣٤) ، وقد استغل علاء الدين الانقسام الذى حدث بين أبناء جلال الدين وسكان دهلي عموما في محاولة جذب الأنصار اليه من بين أفراد الحزب الجلالى ، ونجح في ذلك الى حد كبير ، وتجلى ذلك في انفضاض الكثير من أتباع الحزب الجلالى عن الملكة جهان ، وانضمامهم الى علاء الدين ، الأمر الذى أدى الى ضعف الحزب الجلالى ، وتقوية شأن علاء الدين ، ولما أيقنت الملكة أن موقفها من تولية ابنها الأصغر العرش بدلا من الابن الأكبر أدى الى انقسام أهل دهلي على أنفسهم بين مؤيد ومعارض ، تراجعت وأرسلت الى ابنها الأكبر أركالى خان في الملتان تطلب منه القدوم الى دهلي لتسلم زمام الحكم بدلا من ابنها ركن الدين ابراهيم ، ولكن أركالى رفض العودة وآثر البقاء في الملتان على الرغم من نداءات أمه اليه التى حذرتة بأن عدم عودته سيؤدى الى ضياع العرش من بيت جلال الدين ، وتربع علاء الدين عليه (٣٥) .

وقد أدى موقف أركالى خان الى تقوية شأن علاء الدين ، وزيادة الضعف والانقسام في جيش دهلي وبالمع علاء الدين في بذل الأموال

(33) Majumdar : An Advanced Hist. of India. p. 289.

(34) Short Hist of Hind-Pakistan. p. 162.

(٣٥) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٢٩ .

والهدايا لأنصاره حتى انضم إليه الكثير من جند ركن الدين ، فأسقط في يده ، واعتزل العرش ، ومهد لعلاء الدين أمر تولية العرش في دهلي (٣٦) .

دخل علاء الدين دهلي سنة ١٢٩٦م ، وأعلن نفسه سلطانا ، وقبض على ركن الدين ابراهيم ، وسمل عينيه ، كما زج أمه في السجن ، واستصفى أموال أنصار الحزب الجلالى ، ولقب أبو المظفر السلطان علاء الدنيا والدين محمد شاه خلجى ، وضرب العملة باسمه ، وأقيمت الخطبة باسمه . وفرض الهدايا على الناس ، وأقيمت الزينات والسرادقات في كل مكان ، وأقبل الناس عليه من كل صوب وجذب مؤيدين ومبايعين (٣٧) وبذلك تربع علاء الدين على عرش سلطنة دهلي بعد أن تخلص من عمه وابن عمه ، وقوى من شأنه وجذب الأنصار والأتباع له (٣٨) .

لما ولى علاء الدين السلطنة ، واجه مشاكل داخلية وخارجية معقدة ، فبلاده هدف لغزوات المغول من الشمال الغربى سنويا ، وهذا الغزو يقرن عادة بالخراب والدمار ، واقتطاع أراض من مملكته ، كذلك انتقم أركالى خان - ابن السلطان جلال الدين - من علاء الدين ، فاستقل باقليم الملتان ، وضم الى حوزته السند والبنجاب ، وبذلك اقتطع من سلطته دهلي بلادا واسعة ، وفي السند مملكة الكجرات الغنية ويحكمها الأمير الراجبوتينى وبالقرب من الكجرات تقع ممالك الأمراء الراجبوتين فى Baghela سحراء الثار ، وكل امارة مستقلة عن الأخرى ، وتحرص على الانفصال عن دهلي ، ولم يستطع سلاطين دهلي من قبل اخضاعهم ، ومن ناحية أخرى توجد ممالك مثل شيتور Chittor ورائشپور تقف من دهلي موقفا عدائيا ، يضاف الى ذلك أن بعض بلدان سلطنة دهلي مثل ملاوى Dhar ويوجين Ujjain لم تتأثر بعد بالحضارة الاسلامية ، بل تنتهز الفرصة المواتية للاستقلال عن دهلي ، وتقف منها موقفا عدائيا (٣٩) ، أما لبنغال فولى حكمها ناصر الدين محمود بن بلبن وأعقبه ، واستقلوا عن دهلي ، وحكم الدواب وما جاورها أمراء مستقلون عن دولة الاسلام فى الهند . وبذلك ولى علاء الدين السلطنة ، فى وقت

(٣٦) المصدر السابق ٢٤٦ .

(37) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 63.

(38) Lane Poole : the Muhammadan Dynasties. p. 93.

(39) Majumdar, An Advanced Hist. of India. 291.

تفككت فيه الدولة الإسلامية في الهند ، وانفصل عنها الكثير من أقاليمها (٤٠) .

ولى علاء الدين السلطنة في وقت كانت في أشد الحاجة الى رجل دولة مثله ، فالسلطان الجديد يختلف عن سلفه جلال الدين ، يمتاز بقوة البأس ، والحزم وحسن التدبير ، والكفاءة العسكرية ، والادارية ، قبض على زمام الأمور بيد من حديد ، وبذل قصارى جهده في اعادة الوحدة الى دولته ، وانتاذاها من الهوة التي تردت فيها ، ودرء الخطر الخارجى عنها .

وأبرز أعداء السلطان الجديد ، أنباء جلال الدين ، ونبلاء دهلي ، وهؤلاء يعارضون العهد الجديد ، كما أن الراجات الذين استقلوا عن دهلي في أثناء الاضطرابات التي حدثت في أواخر عهد جلال الدين ، وبعد مصرعه من واجبه اعادتهم الى الولاء والطاعة له ، وكان عليه تنظيم ادارة البلاد ، وتقوية الحكومة المركزية ، وضمان طاعة وولاء القادة العسكريين ، والحكام المسلمين في الولايات (٤١) .

أعد علاء الدين جيشا في سنة ١٢٩٦ لاختضاع أركالى خان — الذى استقل بالملتان وغيرها — وسار هذا الجيش الى الملطان ولم يستطع أركالى له دفعا بل قبض عليه وعلى اخوته وأقاربه وقادته وعوقبوا أشد العقاب وصودرت أموالهم وأمتعتهم ، ونكل بهم أشد تنكيل ، وبذلك استرد اقليم الملتان وبلاد البنجاب والسند ، وضمها الى حوزته (٤٢) .

لم يكتف علاء الدين بذلك ، بل صادر ممتلكات نبلاء جلال الدين ، والأمراء والملوك الذين عملوا تحت قيادته — وكان لا يطمئن الى ولائهم ، وحرص على التنكيل بكل من حامت حوله الشبهات بعدم الولاء والطاعة له ، وذلك بالمصادرة والسجن والتشويه ، وبذلك عادت البلاد الى الطاعة والولاء له . وجمع من المصادرات أموالا طائلة ، مكنه من توسيع رقعه

(٤٠) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٤٨ .

(٤١) تاريخ فرشته ، ص ١٠٢ .

(٤٢) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٤٩ .

دولته ، ودرء الخطر الخارجى عنها ، والتصدى للحركات الانفصالية فى المملكة (٤٣) .

تتابعت انتصارات علاء الدين ، وفتح الكثير من البلدان ، وضمها الى حوزته ، وحالفه التوفيق فى دفع الغزو الممولى المدمر عن الديار الاسلامية فى الهند ، فأخذته نشوة النصر كل مأخذ ، وركبه الغرور ، وذهب عنه صوابه ، فتوهم أن باستطاعته أن ينجز انجازات الاسكندر الأكبر من حيث غزوه للعالم أو محاولة ذلك ، وقهر الدنيا تحت سلطانه ، بل ذهب أبعد من ذلك ، فقد تصور أنه نبي لدين جديد وصاحب رسالة جديدة ، على غرار محمد نبي الاسلام (ﷺ) وتوهم أن أصحابه الأربعة بتمثابة الخلفاء الراشدين الأربعة ، وبدأ يتحدث عن امكانية نشر دعوته فى أرجاء الدنيا ، واستطاع بقوة بأسه وقوة جيشه وجنده التبشير بالدين الجديد والرسالة الجديدة ، واستهوته قصص وأحاديث الشعراء والمؤرخين والأدباء عن الاسكندر الأكبر ، والتف حوله الانتهازيون الراغبون فى تحقيق منافع شخصية ، فزينوا له صحة ما توهمه ، وروجوا دعوته وهيا السلطان نفسه لأن يصبح الاسكندر الثانى . ومما لا شك فيه أن رجال البلاط والقادة المقربين اليه قد وافقوه لا عن اقتناع بل اتبعوه رهبة منه ، وخوفاً من قسوته وبطشه ، فلم يسعهم الا التعبير عن رضاهم (٤٤) .

تصور السلطان أنه على حق فيما ذهب اليه ، ودفعه جنون العظمة الى التمدى فى أفكاره وخيالاته ، وكان السلطان يقيم الحفلات الكثيرة ، ويجمع فيها كبار رجال دولته ، ويتحدث فيها عن دعوته ، وفى إحدى هذه الحفلات حذره عنه علاء الملك القاضى من خطورة ما ذهب اليه على ملكه ، وعلى الوضع الداخلى فى البلاد ، ومن انتفاضة الكثيرين من الفيورين على دينهم فقال : ان الدين أمر يوحى به الله للأخير من عباده ، ولا يمكن أن يكون بفعل أو يصنع انسان . وقال : ان الاسلام دين الحق . ولا يمكن القضاء عليه ، حتى ان قهار العالم وجبابرتهم مثل جنكيز خان ، أراقوا من دماء المسلمين ما أراقوا ولكنهم لم ينالوا من الاسلام شيئاً ، بل دخل المفلول فى دين الله أفواجا ، وأوضح ان الناس اذا وجندوا

(43) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 67.

(٤٤) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٦٦ .

السلطان يشككهم في معتقداتهم لم يسمعوا له ويطيعوا بل سيدمرون ملكه ، وبذلك تعم الفوضى البلاد ، وينتهز أمراء الأتالييم فرصة هذه الفوضى ، ويحققون أملهم في الاستقلال عن دهلئ . وأوضح علاء الملك للسلطان أن النبوة لا تأتي الملوك ، وأن كان بعض الرسل قد أوتئ من الملك نصيباً (٤٥) وأما عن فكرة قهر العالم فقد أوضح علاء الملك للسلطان أن الظروف تغيرت ، وأن الاسكندر كان يستند إلى حكم الحكماء مثل أرسطو الذي أوتئ الحكمة وفضل الخطاب ، وهو ما لا نظئر له عند علاء الدين ، كما أن الاسكندر ورث عن أبيه غيليب المقتدوني : دولة اليونان الموحدة ذات الإدارة القوية (٤٦) .

وختم القاضي نصيحته للسلطان بقصر جهوده وتركيزها في اخضاع بلاد الهند لسلطانه ، وقهر الكفرة فيها ، والدعوة إلى الاسلام في غير بلاد الاسلام ، واصلاح البلاد ، والقضاء على الفتن والثورات وحماية البلاد من هجمات المغول ، وقد لقيت نصيحة علاء الملك أثنا صاغية من السلطان فأطلع عن فكرة الدعوة لنبوته ، وتأسيس دين جديد والتفرغ للمغزو والفتح واصلاح البلاد ، وبذلك عدل السلطان عن دعوته التي كانت ستؤدى إلى ثورات وانتفاضات في المملكة ، قد يذهب ضحيتها السلطان أو تتمك عرى الوحدة في البلاد .

تعرض علاء الدين لمؤامرة كادت تؤدى بحياته ، وقاد هذه المؤامرة ابن أخيه سليمان شاه ، وكان يشغل منصب وكيل الدار وأراد بخطته أن يسقى علاء الدين من نفس الكأس الذي أسقاه لجلال الدين ، ويتولى هو — أى سليمان شاه — السلطنة ، وكان علاء الدين قد أرسل عدة حملات إلى نواحى الهند للفتح والتوسع ، بينما سار هو إلى رائنمبهور ، وتوقف في تلبات Tilpat لبعض الوقت ، وداغته قواده ، الذين انضموا إلى سليمان شاه في مؤامره — ورموه بالسهام فأصيب بجراح شديدة ، وأعلن المتآمرون مقتله ، وأعد سليمان شاه العدة لتولى السلطنة ، وساد الذعر معسكر السلطان ، وتفرق الجند السلطاني (٤٧) ، وفي خضم هذه الفوضى ، أخفى أنصار السلطان ، السلطان ، وضمدوا جراحاته ،

(٤٥) بارانى : تاريخ فيروز شامئ ، ص ٢٧٠ .
(46) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 75.

(٤٧) بارانى : تاريخ فيروز شامئ ص ٢٧٢ .

وعالجوه خير علاج وأنجعه ، وحينما توجه سليمان شاه — رأس المؤامرة — الى معسكر السلطان مطالبا بتسليمه له ، رفض رجلا علاء الدين ذلك ، وفجأة حدث ما لم يكن في حساب المتآمرين ، فقد ظهر علاء الدين فجأة ، وان كان ضعيفا من آثار الجروح ، فاستط في أيدي المتآمرين ، فلانوا بالفرار بقيادة رئيسهم سليمان شاه لا يلوون على شيء الى أفغانستان ، وبذلك أحبطت هذه المؤامرة التي كادت ان تؤدي بالسلطان علاء الدين وتمهد السبيل لتولى ابن أخيه سليمان شاه سلطنة دهلي (٤٨) .

رأى علاء الدين ضرورة استئصال شأفة المتآمرين ، فأرسل فرقا من جيشه الى أفغانستان للقبض على المتآمرين ، وأدى الجيش مهمته فقبض على سليمان شاه وقتل وحملت رأسه الى معسكر السلطان (٤٩) واذتقم السلطان شر انتقام من المتآمرين ، فأمر بقتلهم ومصادرة أموالهم ، وسبى نساءهم وأطفالهم ، وتوزيعهم على القلاع ، وبذلك فشلت محاولة التخلص من علاء الدين ، وخرج من هذه المحنة قويا .

على أن اغتصاب علاء الدين العرش من عمه سبب له متاعب كثيرة اذ أصبح واضحا عدم وجود قاعدة ثابتة لوراثة الملك ، وكان ذلك من أسباب طمع سليمان شاه في اغتصاب العرش ، وأثعل بعض أمراء الأسرة الحاكمة ثورة في دهلي منتهزين فرصة غياب علاء الدين عنها ، وطلبوا بعزل السلطان ، وتولية واحد منهم الحكم مبررين تضرهم بشدة السلطان وقسوته ، واستبداده وجوره ، غير أن حكومة دهلي قبضت على المتآمرين ، وسبقوا الى علاء الدين في رانثمبور ، فأمر بسلهم ، وزجهم في السجون ، واكل بأتباعهم (٥٠) .

ولم تنته متاعب علاء الدين عند هذا الحد ، بل واجه حركة ثورية أخرى ضد نظام حكمه ، قادها حاجي مولى — وهو رجل طموح واسع

(٤٨) المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

Lal : Hist. of the Khaljis. p. 88.

(٤٩) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 89.

(٥٠) تاريخ فرشته ، ص ١٠٧ .

الأطباع — كان يشرف على إدارة بعض الأراضي الملكية ، ولقد بدا حاجى مولى مؤامرتة بالتصدى لتيرميزى Tirmizi ، الذى عهدت اليه حكومة دهلى باصلاح بوابة بادون ، وعرف عن هذا الرجل شدة البأس والعنف والخطورة ، لذا أضمر أهل دهلى له السوء ، وبينما صاحبا يصلح بوابة بادون أحاط بمسكنه عدد من الأكواخ أقام فيها العمال الذين عهد اليهم بتشيد التلعة ، وتوجه حاجى مولى الى منزله ، زاعما أنه يحمل اليه رسالة من السلطان ، وبينما تيرميزى يتسلم الرسالة باغته حاجى ورجاله وقتلوه ، وأخرج من جيبه خطابا للناس نسيه الى السلطان زعم فيه أن علاء الدين أمره بقتله ، وقد أخذ الناس الجزع والفرع بعد هذا الحادث حتى أغلقوا منازلهم وانضم الى حاجى مولى المتذمرون من علاء الدين ، والجنود الفارون من جيشه بحد أن أضناهم طول الغياب فى الحرب والقتال . وأفلح حاجى مولى فى اشاعة الفوضى والذعر فى دهلى ، والتمكين لنفسه ، وقاد أتباعه الى السجون ، وأمرهم باقتحامها ، والافراج عن نزلاتها ، فكثرت أتباعه وقوى أمره ، واشتد بأسه ، وأطلق لاتباعه الحنان فنجبوا خزينة الدولة ووزع الأسلحة والخيول والأموال على أصحابه وحصل على أموال طائلة من أعمال السلب والنهب التى قادها ، واختار طفلا من سلالة التمش ، وأعلنه سلطانا بدلا من علاء الدين الذى أعلن عزله ، واعتزم أن يحكم البلاد باسم هذا الطفل ، وقد لقيت خطته قبولا فى كثير من سكان المملكة اما رهبة أو كراهة لعلاء الدين ، فوفدوا على السلطان الجديد وبايعوه وقدموا له غروض الولاء والطاعة (٥١) .

كان طبيعيا الا يقف علاء الدين مكتوف اليدين ازاء هذه الثورة التى هدمت دولته ومملكه ، فاتخذ الأهبة لآخمادها ، وعهد بهذه المهمة الى ملك حميد الدين ، وبلغ خان ، وسار جيش السلطان الى دهلى ، واشتبك مع حاجى ورجاله فى عدة معارك ، انتهت بهزيمة حاجى ، وسحق قوات التمرد ، وقتل حاجى مولى ، وعلقت رأسه على حرية ، ودار بها للجنود فى شوارع دهلى ، ثم أرسلت الى علاء الدين فى رانثمهور ، وحرص حميد الدين على استئصال الفتنة من جذورها ، فأمر بالقبض على أعوان وأنصار حاجى مولى ، وصادر أموالهم ، التى يسر حاجى لهم

(٥١) بارانى : تاريخ فيروز شامى ص ٣٧٨ .

نهبها ، وأودعت هذه الأموال في خزانة الدولة ، وانتقم حميد الدين من الثوار فقتل كل من قبض عليه (٥٢) . ومما لا شك فيه أن أخماد الثورات التي قامت ضد علاء الدين بالعنف والتسوية أدى إلى استتباب الأمن للسلطان ، وإعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد ، وأخماد الفتن والثورات ، وتوقف حركات التمرد والعصيان .

على أن كثرة الثورات التي حدثت ضد السلطان علاء الدين جعلته كثير الشك والريبة في رجال الدولة حتى المقربين اليه ، فتيهه بعض المؤرخين بتدبير اغتيال بلغ خان أثناء سيره إلى دهلي لقمع حركة حاجى مولى ، إذ خشى أن ينتزع سلطانه ، ولكن بارانى يشك في هذه الرواية التي ردها بعض المؤرخين ، ذلك أن بلغ خان كان شديد الاخلاص للسلطان ، وحزن عليه علاء الدين كثيرا ، بل أمر بتوزيع الصدقات على روحه (٥٣) .

غادر السلطان علاء الدين رانثمبور ، واتجه إلى دهلي ، وتردد كثيرا في دخولها ، وبقي فترة من الوقت يجول ويصول في ضواحيها ، ولا يجسر على دخولها لأن دهلي كثيرة الثورات ضد الحكم الخلجى ، وأمر قواده بتطهير العاصمة الهندية من المتمردين ، ولما اطمأن إلى استتباب الأمن والنظام في دهلي ، وخلصها من عناصر الثورة والفتنة دخلها ، وأخذ في اصلاح أحوالها ، وحل مشاكل الجماهير بها (٥٤) .

واستطاع علاء الدين بفضل ما بذله من جهد من إعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد ، غير أنه لم يضع الحلول المناسبة لتفادى المشاكل الناجمة عن عدم وضع قواعد ثابتة لمورثة عرش دهلي ، الأمر الذى أدى إلى حدوث ثورات وفتن حول اغتصاب الحكم (٥٥) .

كان كافور — خصى علاء الدين — مقربا اليه وصاحب حظوة عنده وكان طموحا يتطلع إلى السيطرة على مقاليد الأمور في البلاد عقب وفاة

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

(٥٣) المصدر السابق ص ٢٧٨ .

(54) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 97.

(55) Lal : Hist. of theKhaljis. p. 96.

سيده ، فانتهاز فرصة إشتداد مرض السلطان ، وحمله على كتابة وصية يقزى ابنه الطفل عمر خان — وكان غرا صغيرا لا يتجاوز السادسة من العمر — وفي نفس الوصية طلب السلطان من ابنه الأكبر خسروخان التخلي عن المطالبة بالعرش ، ولزوم الولاء والطاعة لأخيه الصغير ، وعهد السلطان الى كافور بالوصاية على ابنه الطفل ، وبذلك حقق كافور على يد سيده السلطان ما كان يصبو ويتطلع اليه من الاستئثار بالسلطة .
والنفوذ في سلطنة دهلي .

لما توفي علاء الدين سنة ١٣١٦م جمع كافور النبلاء وكبار رجال الدولة ، وأظهر لهم وصية السلطان الراحل التي أودعها اياه والتي تتضمن تولية ابنه شهاب الدين عمر ، وبذلك خلف هذا الطفل الصغير أباه ولقب شهاب الدين عمر خلجي ، وبتوليته أصبح كافور سيد الموقف في سلطنة دهلي بلا منازع (٥٦) .

ولكى يكسب كافور احترام وتقدير الناس ، وتزداد سيطرته على السلطان الطفل وعلى الحكم ، تزوج من أمه راما ديفا Rama Deva وأمر بسمل عين خسروخان الابن الأكبر للسلطان علاء الدين وأخيه شادي خان ، حتى لا يطالب أحد الأخوين بالعرش بعد أن فقدوا الابصار ، ولم يكتف بذلك ، وإنما جرد والدته خسرو خان من حليها ، وأمر بنفيها الى جاوлия (٥٧) .

وشعر كافور أنه غير آمن على نفسه ، وفعلا اشتدت المعارضة له ولحكمه ، واستنكر الناس فعله واستتبعوه ، ولم يرضوا عن سيطرته على الحكم ، فضلا عن تشويه واذلال بعض أفراد البيت الحاكم ، وعادت الفوضى والاضطرابات الى البلاد ، فسعى الى حماية نفسه من أعدائه المقريصين به ، فعمد الى نفى كل من تحوم حوله الشبهات من الأمراء وقواد الجيش وكبار رجال الدولة ، بل شوه بعضهم بالسمل ، وصادر أموال معارضيه ، فضلا عن الحاقه ويلاته بهم ، وازدادت شكوكه ، فأبعد عن البلاط كل أعوان وأنصار سيده علاء الدين ، وجردهم من وظائفهم وأسندها الى أعوانه وأنصاره (٥٨) .

(٥٦) تاريخ فرشته ، ص ١٢٤ .

(57) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 287.

(58) Majumdar : op. cit. pp. 287-288.

على أن كافور لم تصف له الأمور ، ولم تبسّم له الأيام طويلا ، ولم يسعد بالسيطرة على سلطنة دهلّي على الرغم من إجراءات العنف وسياسة البطش والقمع التي اتخذها ضد المشتبه فيهم - فقد تذر منه الناس وترقبوا ساعة الخلاص من هذا الحكم العاشم ، وأحاطوا كل تحركاته بالتجسس ، ودبرت الكثير من المؤامرات للتخلص منه ، وآخرها حدث حينما أرسل فريقا من جنده لقتل مبارك خان في سجنه - ولما اقترب الجند من هذا الأمير ، ألقى ما لديه من ذهب وفضة لهم وناشدهم عدم التعرض له ، فاستجاب الجند لندائه ، وتيقظ ضميرهم ، ولم يكن غائبا عن أذهانهم أن كافور رجل ظالم مستبد ، وأن الأوان للتخلص منه ، وتمردوا عليه (٥٩) ، بل ساروا إلى قصره ، وشنوا عدة هجمات على القصر - وتمكنوا من اقتحامه أخيرا ، وقتلوه ، وبذلك خلصوا البلاد من استبداد وبطش وجور كافور العاشم الذي حكم البلاد خمسة وثلاثين يوما ارتكب خلالها أعمالا عدوانية بشعة ضد أفراد البيت الحاكم ورجال سيده (٦٠) .

لم يكتف الثوار بذلك ، بل أفرجوا عن مبارك خان وعينوه نائبا للمسلطان شهاب الدين بدلا من كافور ، وقد بدا حكمه للبلاد بداية حسنة ، فأعطى النبلاء والقواد ورجاله أمانا على أنفسهم ، ورد إليهم الأموال التي صادرها منهم ، قطابت نفوسهم ورضوا عنه وناصروه وألقتوا حوله وأيدوه (٦١) ، غير أنه عاد إلى الاستبداد وأعمال العنف ، وحدثته نفسه بالانفراد بالسلطة فنفى شهاب الدين عبر إلى جاوهار ، وعزله عن العرش ، وولى هو السلطنة ولم يعد له منازع في الحكم أو البلاط واعتزم تحطيم وتدمير كل مراكز القوى التي بالمملكة ، والتي قد تضعف نفوذه أو تعرقل سياسته ، وبدأ بالجند الذين أفرجوا عنه ، وقتلوا كافور ، وولوه بدلا منه ، فشتتهم في البلاد ، ورفض الاستعانة بهم في إدارة دولته ، وفي نفس الوقت تخلص من أنصار كافور ، وكل من يخشى بأسه (٦٢) .

أعلن مبارك شاه نفسه سلطانا في أبريل سنة ١٣١٨ وبدأ عهده

(٥٩) تاريخ فرشته ، ص ١٢٤ .

(٦٠) ياراني : تاريخ فيروز شاہی : ص ٣٧٧ .

(٦١) المصدر السابق ، ص ٣٨٤ .

(62) Ma jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 303.

— كما بدأ أسلافه من قبل — بمنح الهبات والهدايا والألقاب لكبار رجال الدولة (٦٣) .

كانت البلاد في ذلك الوقت تمر بظروف حرجة للغاية ، وفي أشد الحاجة الى حكومة قوية تنتهزها من الهاوية التي تردت فيها ، وترأب الصدع ، وتعيد الأمن والطمأنينة الى الناس ، بعد أن فرقت بلادهم الفتن والثورات ، وعمت فيها القلاقل والاضطرابات نتيجة للمنازعات والمشاحنات حول السلطة والنفوذ ، وأدى السلطان الجديد في مستهل عهده دوره في إعادة اليدوء والسكينة الى البلاد ، وأثبت أنه رجل الساعة ، وأصلح البلاد فاطمان الناس الى العهد الجديد (٦٤) ، وأخرج السلطان عن الألف الذين زجوا في السجون بتهمة التمرد أو الاشتباه في ذلك على كافور ، ومنح الجند مكافآت مالية ، وأغلق المال على المحتاجين من رعاياه ، وأعاد الأموال التي صادرها علاء الدين الى أصحابها ، وخفف عن الناس عبء الضرائب ومنع كبار موظفي الحكومة من استغلال الأهليين ، وكان ينظر في الشكاوى والالتماسات التي يرفعها الناس له ، ويضع بنفسه الحلول المناسبة لها ، وألغى القوانين الصارمة التي وضعها علاء الدين على التجار (٦٥) وكانت تحدد أرباحهم فانتعش التجار ، وراجت التجارة ، وخفف عن الفلاحين ضريبة الأرض ، ورفع أجور الموظفين ، وباختصار تحسنت أحوال الناس المعيشية على اختلاف طبقاتهم (٦٦) . وإذا أضفنا الى ذلك الحريات التي كفلها للشعب نستطيع أن نقول ان هذا السلطان حقق لمبنى وطنه ما لم يحقق لهم منذ سنوات طوال .

على أن رجال علاء الدين لم يرضوا عن السلطان الجديد ، لأنه أقصاهم عن مباشرة شؤون الدولة ، وعولوا على التخلص منه ، وتزعم هذه الحركة أسد الدين ، وقد انتقد هؤلاء المعارضون السلطان قطب الدين لسوء اختياره لموظفي الحكومة ورؤساء الدواوين ورجال البلاط ، واتهموه بأنه يقضى وقته في اللهو والعبث والاستماع الى الفناء ، قاد أسد الدين

(٦٣) باراني : تاريخ فيروز شاهى ص ٣٧٧ .

(64) Majumdar : An advanced Hist. of India. p. 304.

(٦٥) المصدر السابق ص ٣٨٤ .

(66) A Short Hist. of India. p. 166.

المعارضة في مؤامرة كبرى تهدف الى قتل السلطان قطب الدين وهو في طريقه الى دهلي ، وتوليته - أي تولية أسد الدين - السلطنة (٦٧) .

لم يتدر لهذه المؤامرة النجاح ، فقد أخطر كبار رجال الدولة السلطان بالمؤامرة قبل تنفيذها ، فتدارك الأمر في أوله ، وتلاحقه في ابتدائه قبل أن تضطرم نار الثورة ، ويعم الكرب ويشند البلاء ، فأمر السلطان بالقبض على زعيم حركة الانقلاب المرتقب ، وكل من اشترك وساهم في محاولة قلب نظام الحكم من قريب أو بعيد ، وأمر بقتلهم وصادر أموالهم ، وكان انتقامه شديدا جدا من الثوار حتى أنه قتل بعض أطفالهم ، وشرد البعض الآخر في شوارع دهلي لا مأوى لهم ، ولا عائل يعولهم ولم يكتب بذلك ، بل نصب المشائقي في دهلي وأقام مذبحه مروعة قتل فيها كل من ينتمي الى البيت الحاكم بصلة وكل من تحوم حوله الشبهات باحتمال قيامه أو اشتراكه في انقلاب ضده في المستقبل ، واستأصل الفروع والجذور من أسرة علاء الدين ، وأسرف في القتل واراثة الدماء حتى نأثبه الذي كان مخلصا له ، واتهمه بالاهمال وعدم كشف المؤامرة في حينها (٦٨) .

ولكن سياسة العنف هذه لم تقض على محاولات عزل قطب الدين عن العرش ، فقد ظهرت مؤامرة أخرى اختلف المؤرخون حول اسم السلطان الذي رشحه المتآمرون لتولى الحكم ، وضربوا العملة باسمه فيذكر مؤرخ متأخر أنه ابن خسروخان بن علاء الدين ، أما باراني فلا يذكر ذلك وينفى اشتراك خسروخان أو أحد أبنائه في المؤامرة ، وعلى ذلك فإن الاسم الذي نقش على العملة ، لملك شاهين - نائب السلطان على دهلي والذي قتله السلطان على اثر دخوله دهلي (٦٩) .

لم يكف السلطان قطب الدين عن أعمال العنف ضد أبناء علاء الدين ، لأنه كان يتوجس منهم خيفة ، ويخشى أن يتآمروا عليه ، وينضم اليهم أنصار أبيهم ، وهم خسروخان ، وشادي خان ، وشمس الدين ، وأمر

(٦٧) تاريخ فرشته ص ١٢٥ .

(68) Lal : Hist. of the Khaljis p. 296.

(69) Comb : Hist. of India. 111, p. 131.

بالقبض عليهم وارسلهم افراد عائلاتهم الى دهلي ، وهؤلاء الامراء سملت عيونهم ، وعاشوا في المنفى في شغف من العيش ، وعمد السلطان الى اذلالهم ، فكتب الى خسروخان رسالة ذكر له فيها انه - اى خسروخان - فقد بصره ، واعتلت صحته ، وعرض عليه ان يفرج عنه ، ويعينه حاكما على احد الاقاليم ، ويمنحه الألقاب والامتيازات المناسبة له ، في مقابل ان يتخلى عن زوجته ديفال راى التى قال انه أصبح ذليلا لها ، وطلب منه ارسالها الى البلاط لتهدئة عاطفته نحوها واعادتها اليه بعد ذلك جارية مطبوعة . على ان خسروخان قد حزن من هذه الرسالة ، ورفض الاذعان لنداء السلطان ، وتمسك بزوجته بل أثر الموت على التخلي عن محبوبته ، ورفض اغراءات السلطان له التى يهدف للسلطان منها اغتصاب زوجته بالقوة . وقد تعرض خسروخان فعلا للموت بسبب رفضه عرض السلطان ، فقد أمر باغتياله ، وكان حداثا مروعا اهتمت له قلب الناس في كل مكان ، ووصفه ابن بطوطة ، وعلم به ماركو بولو من بعض الهندود ، رآه غيره من الرواة ، وارسلت ديفال الى دهلي ، وأمر السلطان بقتل شادى خان ، وشمس الدين وغيرهم ، واغتصب زوجاتهم وشرد أطفالهم ، وقد وصفت لنا بارائى مدى استياء الناس من الجرائم التى ارتكبها قطب الدين (٧٠) ولكن على الباغي تدور الدوائر .

على ان اعمال العنف التى اتبعها السلطان مع اعدائه لم توقف المؤامرات ضده ، ولم تخمد الثورات المعارضة لحكمه في البلاد ، بل زادت اشتعالا ، وأبرز هذه الانتفاضات ، ما قام به نظام الدين اوليا ، وهو رجل نقي ورع ، طُبقت شهرته الآفاق ، ووفد اليه الناس من كل صوب وحذب للزيارة والتبرك ، وكان علاء الدين يقدره ويعتز به ، أما قطب الدين فقد ناصبه الداء ، وخشى من تجمع الناس حوله لما في ذلك من خطورة عليه ، اذا قاد هؤلاء الجموع في حركة غزو ضده ، فتمنع النبلاء وكبار رجال الدولة من زيارته ، وحاول اضعافه وابعد الناس عنه ، فشجع الشيخ زاداء على النيل منه ، والحملة عليه ، وتحريق الناس على التفرق من حوله ، كما حرّض المشايخ الكبار في الدولة عليه ، ولم

(٧٠) بارائى : تاريخ فيروز شامى ، ص ٣٩٣ .

Lal : Hist. of the Khaljis. p. 299.

يكف بذلك ، بل أمر بقتله حتى يخمد ما قد يثيره هذا الشيخ من متاعب
في وجه هذا السلطان الظالم (٧١) .

أدت سياسة السلطان الداخلية المتسمة باليقظة الى توقف الحركات
الاستقلالية في الكوجرات ودكا ، ولكن قسوته على خصومه واسرافه في
اراقة الدماء ، واستبداده وعدم استماعه لنصح الناصحين . أدى الى
اشتداد كراهية الناس له ، وتطلعهم الى التخلص منه ، وبذلك فقد ثقة
الرعية به ، وازداد يطشه للناس ، وقضى أيامه في لهو وعيث ومجون ،
وضم بلاطه المغنين والمغنيات والراقصات (٧٢) .

لم تتوقف المؤامرات ضد هذا السلطان على الرغم من بطشه
بأعدائه ، فاندلعت ثورة ضده في ديفاكيري قادها ياك لاهي Yakkakhi
فعول السلطان على اخماد هذه الفتنة وأرسل فرقا من الجيش لقمعها ،
ولكن النائر لم يعد العدة الكافية لصد جيش السلطان ، وكان يعتقد أن
جند السلطان سينضمون اليه نظرا لحالة التذمر السائدة في البلاد ،
ولكن حدث ما لم يكن يتوقع ، فهاجمه جيش دلهي ، وخشى رجاله سوء
العاقبة ، فانفضوا من حوله ، عندئذ ضعف أمر النائر ، فقبض عليه جند
دلهي وأمر السلطان بقطع أنفه وأذنه (٧٣) ، وبذلك فشلت هذه الحركة ،
واشتدت قبضة السلطان على الدولة ، وتأكدت سيطرته الكاملة عليها من
جديد .

ولكن طغيان قطب الدين واستبداده لم يوقف محاولات قتله واغتياله،
فتعددت المحاولات للتخلص منه ، كان آخرها مؤامرة وزيره خسرو ، فقد
نجح في ضم بعض النبلاء اليه ، وعاهدوه النصر والتأييد ، وادغم اليه
الكثير ممن لحقهم الضيم على يديه (٧٤) .

(٧١) باراني : تاريخ فيروز شاهي ، ص ٣٩٦ .

(72) Gibbon. Decline and Fall of the Roman.
Empire. 1. p. 128.

(73) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 304.

(74) IBID.

بدأ الوزير مؤامراته ضد السلطان ، بأن أقنعه بأنه — أى السلطان — يخرج فى حروب كثيرة ، ويجب فى غيابه أن يطمئن على الأمن والنظام فى دلهى ، ولا يستطيع — أى خسرو — الاطمئنان لأحد فى هذه المهمة سوى رجاله المقربين من الكوجرات ، فوافق السلطان على طلب وزيره وامتلأت دلهى بأهل الكجرات ، وأغدى عليهم خسرو الأموال ، وأعطاهم خيولا وأسلحة وملابس ، واستكثر خسرو منهم ، حتى صاروا حوالى أربعين ألفا كلهم طوع إرادته ورهن إشارته ، وبذلك عظم شأن خسروخان وقوى أمره ، واشتد بأسه ، وعهد إلى رجاله بحراسة القصر ، فأصبح هذا السلطان تحت رحمة وزيره ، ودبرت المؤامرة (٧٥) ، وكان من اليسير جدا نجاحها وتنفيذها وفقا للخطة المرسومة ، فأمر خسرو رجاله بقتل السلطان قاتلوا عليه ضربا بسيوفهم حتى قتلوه (٧٦) وألقوا رأسه فى فناء القصر (٧٧) ، وبذلك تجرع هذا السلطان من نفس الكاس الذى أسقاه الكثيرين فى إبريل سنة ١٣٢٠م . وخاب كل جبار عنيد .

وقد لحق الناس من السلطان قطب الدين الكثير من المظالم ، على الرغم من أنه بدأ عهده بالعدل بين الرعية وإصلاح أحوال البلاد ، ولكن المؤامرات العديدة التى تعرض لها جعلته غير مطمئن على نفسه وعلى ملكه فاشتد فى قمعها ، وقلب على شعبه ظهر المجن ، فظغى وتجبر ، بل أساء إلى مشاعر الناس الدينية ، فأهمل المراسم الدينية كالظهور فى الصلاة ، والاحتفالات الدينية فى رمضان والعيدى وأساء إلى الدرويش — نظام الدين ، وعلى الرغم من ذلك فقد لقب نفسه بالقساب لا يستحقها ، مثل خليفة ، الامام الأعظم ، أمير المؤمنين .

ومهما يكن من أمر فقد عبر خسرو خان عن سخط شعب المملكة الهندية على سلطانها ، وتخلص منه ، لذا نادى به النبلاء ورجال الدولة سلطانا ، وتربع على عرش سلطنة دلهى ، ولقب ناصر الدين خسروشاہ ، وأمر بالدعوة له فى الخطبة على أنه أمير المؤمنين (٧٨) .

(٧٥) تاريخ فرشته ، ص ١٢٧ .

(٧٦) بارانى : تاريخ فيروز شاہى ، ص ٤٠٢ .

(77) Majumdar : An Advanced Hist of India. p. 305.

(78) Lal : Hist of the Khaljis. p. 308.

IBID. p. 312.

ولى خسرو شاه العرش في هذه الظروف العصيبة ، ولما كان مدينا لبنى قومه من الكجرات فيما بلغه من جاه فقد خصهم بالمناصب الرفيعة في الدولة ، واعتمد عليهم في شؤون الحكم والادارة (٧٩) .

على أن هذا السلطان الجديد اتخذ سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أسلافه من الحكام المسلمين ، فقد أباح لکنار الهندو اظهار نحلهم ومللهم والتعبير عنها علنا . فنصبوا أصنامهم في كل مكان ، وازداد الأمر خطورة ، فاستفزوا شعور المسلمين ، ومزقوا المصاحف ، ووضعوا أصنامهم في القصر الملكي ، وهاجموا المساجد واقتحموها ، ومنعوا المسلمين من تأدية شعائهم فيها ، بل نصبوا أصنامهم في بيوت يذكر فيها اسم الله ، واغتصبوا البنات المسلمات . ومن الطبيعي أن يرضى كَنار الهندو عن هذا السلطان فالتقوا حوله وناصروه ، ورأوا فيه خير معين على المحافظة على شعائهم واظهارها والانتقام من المسلمين ، ولم يكتف هذا السلطان بالتغاضي عن ايذاء شعور المسلمين ، بل فرض عليهم الأموال ، وأغدى عليهم (٨٠) .

وبرر السلطان تصرفه هذا بأنه انتقام من المسلمين الذين دمروا معابدهم ، ودمروا أصنامهم ، وأحرقوا كتبهم ، ولذلك يرى البعض بأن حكم هذا السلطان مظهر من مظاهر الردة عن الاسلام ، ونستبعد ما يذكره بارانى بأن السلطان أراد أن يعيد الوثنية الى الهند ، ويعيد البلاد الى حكم راجات الهندو ، ذلك أنه دخل الاسلام وهو طفل صغير وعاش ونشأ في الحياة الاسلامية وكان شديدا قاسيا حينما اشتبك في دكا مع كفار الهندو قبل توليته الملك ، بل كان أكثر قسوة من أى حاكم مسلم ، وفي نفس الوقت ظل على دينه وعقيدته وان ظل تاركا حركة اضطهاد المسلمين من كَنار الهندو تسير في مجراها دون أن يتدخل لانهاؤها أو يشترك في دفعها ، وأبقى على الحكام المسلمين في الولايات ، وربما أراد السلطان بذلك كسب محبة وتأييد فريق كبير من الناس للوقوف الى جانبه وهنصرته ضد حركات التمرد التي انتشرت انتشارا واسعا ضد سلطان دهلي . ويثودها عادة كبار رجال الدولة من المسلمين ضد هذا السلطان

(79) IBID. p. 313.

(٨٠) رحلة ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٢٩٠ .

الوضع الذى ينتمى أصلا الى طبقة جامعى القمامة فى الهند الغربية ، فقد عجل بنهايته بسياسته الفاشمة التى آذت شعور المسلمين ، وساد التذمر بينهم ، وأعدوا عدتهم للخلاص من هذا الحاكم — ناصر الكفرة الملاعين .

وقد قاد تغلق حركة المعارضة ضد هذا السلطان ، فزحف بجيش كبير يضم خيرة جند شمال غرب الهند وصناديدهم ، الى دهلى (٨١) ، فأرسل خسروخان جيشا لصد عدوه ، وقد تناقص جيشه بعد فرار الجند الفيورين على دينهم منه ، وانضمام بعضهم الى جيش تغلق (٨٢) ، ومهما يكن من أمر فقد التقى الجيمان فى ديوبالپور Deopalpur وهزم الجيش الملكى ، وتفرق الجند ، ولادوا بالفرار ، بل فر الجيش الملكى ، تاركا الأسلحة والخيول والبقيلة والأموال ومهمات الجند واستحوذ جيش تغلق على هذه الخنائم ، ثم زحف تغلق وجنده الى دهلى (٨٣) ، وانتظر السلطان مصيره المحتوم وقدره الذى حدده بسياسته الفاشمة .

سار تغلق وجنوده الى دهلى لا يعترض طريقهم معترض ، ولما اقترب تغلق منها نصب معسكره : ودعا الناس فى دهلى الى طاعته ، ولقيت دعوته هوى من أهل دهلى الذين كرهوا خسروخان الذى آذى شعورهم ومعتقداتهم ثم دارت المعركة الفاصلة سنة ١٣٢٠ بين جيش تغلق وجيش السلطان انتهت بهزيمة جيش السلطان ومقتله — أى السلطان — وألقيت رأسه فى فناء القصر ، كما ألقيت رأس مبارك شاه ، وبذلك انتهى حكم خسروخان بعد أربعة أشهر وبنهايته انتهى حكم سلاطين الخلاجيين فى بلاد الهند (٨٤) .

(81) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 307.

(82) IBID. p. 308.

(٨٢) ابن بطوطة ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

(84) A Short : Hist. of Hind Pakistan. p. 167.

٤ - دولة بنى تغلق

ينسب آل تغلق الى عنصر تركى ، كان يقيم فى الهند منذ زمن طويل ، وأول من حكم سلطنة دهلى من هذه الأسرة ، غياث الدين تغلق شاه ، قدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار فى أيام السلطان علاء الدين ، ودخل فى خدمة أولوخان - أمير السند اذ ذاك - فظهرت شجاعته ، وتدرج فى سلك الفروسية ، حتى صار أميرا للخيل (١) ، وكان أولوخان يعده من كبار الأمراء ، وسمى بالملك الغازى لأنه صد الكثير من غزوات المغول وهجماتهم ، وحاصرهم ونكل بهم ، ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة دبال بور وأعمالها ، وعهد الى ابنه محمد تغلق بامارة الخيل وظل يشغل هذا المنصب فى عهد السلطان خسروشاه ، فلما استاء تغلق من خسروشاه الذى اغتصب العرش ، وقتل السلطان ، وأباح للهنود الوثنيين اظهار نحلهم ، والتنكيل بالمسلمين ، واطهر أمورا منكرا منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود (٢) ، وأعلن - أى تغلق - الثورة والخروج على الطاعة ، وكان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال ، وكتب الى كشلوخان - أمير الملقان - يطلب منه القيام بنصرته والاختذ بنار قطب الدين لسابق فضله وإخلاصه ، ولكن كشلوخان اعتذر لأن ابنه فى خدمة السلطان فى دهلى ، فحرض تغلق ابنه باصطحاب ابن كشلوخان ، والهرب سويا من دهلى ، فلحق الرجلان بتغلق ، وحينئذ واثت الفرصة تغلق ، فحشد أنصاره ، وأعد للعدو ، والتف حوله الكثير من الناس ، فقوى أمره ، واشتد بأسه ، وانضم اليه كشلوخان وزحف الجيش الثائر الى دهلى - كما أوضحنا - وهزم تغلق جيش السلطان بقيادة أخيه - خان خانان - واستولى على خزائنه ، وشتت شمل جنده وقصد تغلق دهلى ، وخرج اليه خسروخان فى عساكره ، وفرق الأموال على أنصاره ، ودارت رحى معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة تغلق ، غير أن الجند السلطاني انشغل عقب المعركة فى جمع الغنائم فباغتهم جند تغلق على حين غفلة منهم ، وهزموهم شر هزيمة ، ولان من نجا من العدو

(١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣١-٣٢ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٢ .

بالفرار ، فدخل جند تغلق دهلى لا يعترضهم معترض ، ولا يعوقهم عائق ،
ودخل تغلق القصر الملكى ، وجلس على سرير الملك ، وقدم الناس
لبايعته (٣) ، وبذلك انتقل حكم سلطنة دهلى من آلخجيين الى بنى تغلق .

* * *

لم يقدر لسلطنة دهلى الاسلامية الهدوء والاستقرار فى عهد
بنى تغلق ، وانما كثرت الفلاقل والاضطرابات فى الدولة وتعرض سلاطين
هذه الأسرة للمؤامرات التى تستهدفهم بالدرجة الاولى لانتزاع كرسى
الحكم منهم ، بل قام الابن على أبيه ، كما حدث سنة ١٣٢٥ ، ذلك أن
محمد بن تغلق ثار على أبيه ، وكان الأب ينقم على ابنه تقيمه للسولى
نظام الدين البذوانى ، وساء منه أمور منها استكثاره من شراء الممالك
واجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس ، فلما عاد تغلق من سفره ، أمر
ابنه باقامة قصر فى الطريق الى دهلى ، وأقام محمد بن تغلق القصر ومعظم
بنائه من الخشب وصمم هذا القصر بحيث اذا وطئها الفيلة ، وقع ذلك
القصر وسقط ، ونزل السلطان بالقصر ، وأطعم الناس وتفرقوا ،
واستأذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهى مزينة فأذن له ، فلما
وطئت الفيلة القصر ، سقط الكتمك على السلطان وولده محمود ، ولقى
السلطان حتفه ، ودفن بخارج البلدة التى سميت باسمه ، تغلق آباد ،
وبها كانت خزائن تغلق وقصوره ، وبها القصر الأعظم ، واستولى محمد
على هذه الكنوز ، وولى السلطنة ، ولقب أبو المجاهد محمد شاه (٤) .

كان السلطان محمد بن تغلق غريب الأطوار ، فهو أحب الناس الى
اغداق العطاء ، وازاقة الدماء ، فلا يخلو بابيه من مغن يفتى أو حى يقتل ،
وله حكايات كثيرة فى الكرم والشجاعة ، والفتك والبطش بذوى الجنايات
وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا ، وأكثرهم اظهارا للحن والعذل بتشدد
فى تأديبة الفرائض الاسلامية ، ويعاقب تاركى الصلاة وفاطرى رمضان (٥) .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٢ .

(٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٢-٣٤ .

(٥) Rawlinson. A Short Cultural Hist. of India. p. 232.

IBID. p. 232.

رأى السلطان محمد بن تغلق نقل حاضرة دولته الى مدينة ديوكر لخصائنها وتوسطها مملكته الواسعة المقرامية الأطراف ، ولكى يأت من خطر المغول الذين يهاجمون دهلى من وقت لآخر ، وأسمى العاصمة الجديدة دولت آباد ، وأمر سكان دهلى بترك بلددهم ، والمجرة الى العاصمة الجديدة طوعا أو كرها ، وشق الطرق المؤدية الى دولت آباد ، وحمل سكان دهلى امتعتهم ، وهاجروا من مدينتهم الحبيبة الى قلوبهم كارهين(٦) ، وساروا الى مقرهم الجديد على كره منهم فى رحلة شاقة ذاقوا فيها ألوان العذاب وهلك كثيرون منهم ، وخربت دهلى بهجرة أهلها منها ، وأصبحت بلدة موحشة ، تبكى قصورها ودورها من شيدما وبنائها وأقام صرحها ، أما المهاجرون من ديارهم وبلدهم ، فلم يستطيعوا المعيشة فى المدينة الجديدة ، وقاسوا ويلات الجوع والحرمان ، لأن سبل المعيشة فيها غير متوفرة وغير كافية للقادمين الجدد(٧) ، وقد ارتكب السلطان خطأ جسيما لأنه لم يراع الشروط الواجب توافرها فى تشييد المدينة الجديدة ، فوجب أن تقنع فى بقعة زراعية تكفل لسكانها العمل والمعيش ، أو على طريق تجارى ، يضمن لأهلها المعيشة من عمليات البيع والشراء فضلا عن طيب الهواء للسلامة من الأمراض(٨) .

ومهما يكن من أمر فقد تراجع السلطان عن قراره بعد أن أدرك فشل مشروعه ، وأمر أهل دهلى بالعودة الى بلددهم ، غير أن دهلى قد تطرق إليها الخراب والدمار ، ولم تعد تصلح للحياة ، فشيد السلطان لهؤلاء القوم الذين قاسوا الشدائد من سياسته الغاشمة ، مدينة جديدة قرب دهلى ، كحل لهم فيها أسباب الحياة اليسرة ، والأمن الغذائى(٩) .

لم تستقر الأمور فى سلطنة دهلى فى عهد محمد بن تغلق ، فقد قامت ضده عدة ثورات ، وحركات استقلالية ، واضطربت الدولة اضطرابا شديدا ، فغادر السلطان دهلى — على الرغم مما كانت تقاسيه من مجاعة — الى اقليم الدكن ، لقمع ثورته ، لكنه اضطر الى العودة الى دهلى بعد أن فتك الوباء بجنده سنة ١٣٣٥م ، كما أعلنت الانفصال

(6) IBID. p. 233.

(7) IBID. p. 233.

(٨) عصام الدين عبدالزوف : المواضر الاسلامية الكبرى ، ص ١١٢ .

(9) Rawlinson India p. 233.

الاستقلال عن دهلي بقيادة فخر الدين ، ولم يستجب أمراء البلدان المجاورة للبنغال لأوامر السلطان بالخروج الى البنغال ، وتمع الثورة ، مما يدل على أن سلطان دهلي قد فقد نفوذه في تلك البلاد .

وعمت الفتن والاضطرابات لاهور وديوكر وغيرها من الولايات الهندية ، ولم يستطع السلطان القضاء على هذه الفتن ، وتوفي سنة ١٣٥١م بعد أن تدهورت سلطنة دهلي ، واستقلت معظم ولاياتها (١٠) .

لم يكن للسلطان محمد بن تغلق وريث يخلفه ، لذا ولى ابن عمه فيروز تغلق الحكم من بعده ، وقد حكم هذا السلطان بالعدل ، وسار في الناس سيرة حسنة ، غير أنه واجه بعض المتاعب الداخلية ، فقد ظلت البنغال على تمردا وتزعج الحركة الانفصالية فيها حاجي الياس ، لذا لم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة ، وعول على إعادة البنغال الى حوزته ، وأرسل منشورا الى الأهليين يدعوهم الى الاستسلام والعودة الى الولاء والطاعة الى سلطان دهلي ، ووعدهم بالعفو والصفح ، ورفع الضرائب عنهم سنة كاملة ان استجابوا لندائه ، وأذاع في منشوره بأنه مفوض من قبل الخليفة العباسي بالقاهرة ، وأن الخروج عليه خروج على الاسلام ، وسار هذا السلطان الى البنغال ، وطهر البلاد في طريقه من المشردين ، ودخل اقليم ججنكر ، ودخل الراجا في طاعته ، بل اعتنق الاسلام ، كما أن حكام المدن المجاورة ، أقبلوا على السلطان معلنين اسلامهم ، والدخول في طاعته (١١) .

كذلك عاد الزط في لاهور وما جاورها الى التمرد والعصيان ، فعهد فيروز شاه الى أحد قواده لقمع حركة الزط ، فدخل معهم في معركة حاسمة ، أدت الى هزيمتهم وأسر زعيمهم (١٢) .

أما عن الدكن فقد اتجه أهلها الى الاستقلال عن دهلي ، وتمكنوا منه فعلا منتهزين فرصة انشغال السلطان بمتاعبه الداخلية والخارجية ،

(10) IBID. p. 233.

(11) Prasad, p. 227.

(12) IBID. p. 227.

وقد تعددت الثورات في الهند حتى نتج عنها ضياع مساحات كبيرة من الاراضى من سلطنة دهلى (١٣) .

على أن هذا السلطان كان محبوبا من رعاياه ، فقد كان بارا بالفقراء وأنشأ ديوانا للخيرات لمساعدة الفقراء على قضاء ضروريات حياتهم ، وتقديم معونات مادية للفتيات الفقيرات في حالة الزواج ، واعانة الاطفال اليتامى والعجزة والشيوخ (١٤) .

لكن سلطنة دهلى ظلت مسرحا للثقل والاضطرابات ، ففي اواخر عهد السلطان فيروز شاه ، فوض هذا السلطان امور دولته الى وزيره خان جهان ظفر خان ، ولكن هذا الوزير اخل بالثقة التي منحها له له السلطان ، واعتزم الاستحواذ على العرش ، وازاحة ولي العهد محمد بن فيروز من طريقه حتى يخلو له الامر ، وقسم اليه فعلا بعض الامراء ورجال الدولة ، وحرص السلطان على خلع ابنه من ولاية العهد بتهمة انه يتآمر عليه مع بعض اعدائه ، ولكن السلطان فطن الى سوء نوايا وزيره ، وعزله ، ومن ثم انفرد محمد بن فيروز بامور البلاد بلا منازع ، ولكن هذا الامير كان سعيه السيرة ، قاذ البلاد الى الدرك الاسفل ، وعكف على اللهو والعنت ، بل اعتمد على عناصر السوء في البلاط وخارجه ، فثار عليه الامراء ورجال الدولة ، وانقلبوا حول اشر اشر السلطان ، بهاء الدين وكمال ، وبذلك أصبح في دلمى فريقان يتناحسان السلطة والنفوذ ، وتصدى كل فريق للآخر ، وتدهور الوضع في البلاد تبعا لذلك ، ودارت معارك دامية في شوارع دهلى بين الفريقين ، فلم ير السلطان الا شبح بدا من الخروج من عزلته ، وظهر للناس ، واتنعمهم بلزوم الطاعة والهدوء والسكينة ، والتوقفت عن اعمال الشعب ، وكان لنداء هذا السلطان الطيب تأثير كبير في قلوب الاهلين ، فهدؤوا واستكانوا ، وكفوا عن اثاره الفوضى والفن (١٥) .

عزل السلطان ابنه محمد من ولاية العهد لأنه من عوامل الاضطرابات في دهلى ، واستند ولاية عهده الى حفيده غياث الدين بن فتح خان ، ولم

(13) Rawlinson : India. p. 234.

(14) IBID. p. 235.

(15) Rawlinson. op. cit. p. 241.

يلبت أن توفي السلطان الشيخ ، وولى حفيده الشاب الحكم . على أن السلطان الجديد لم يكن جديرا بتولى مهام الحكم ، وهو في غضاضة الشباب ، فقد انصرف الى اللهو والعبث ، وأغفل مشورة الأمراء وأهل الحل والعقد في الدولة ، فثاروا ضده ، وكثر المعارضون له ، وقاد الحملة ضده ابن عمه أبو بكر ، وهاجم الثوار التصر الملكي ، فلاذ السلطان بالفرار منه ، على أن الثوار لحتوا به ، وقتلوه بعد أن حكم البلاد ما يقرب من خمسة أشهر ، وولى أبوبكر السلطنة (١٦) .

على أن محمد بن فيروز لم يتفاض عن حركة ابن عمه أبي بكر ، واغتصابه العرش ، فجمع حوله الكثير من الانصار في الدواب وقوى أمره ، واشتد بأسه : ودخل دهلي واقتحمها ، وقبض على السلطان الجديد أبي بكر سنة ١٣٩١ ، وولى هو السلطنة ، على أن البلاد لم تهدأ في العهد الجديد ، وإنما ظلت مضطربة متوترة وتنافس الأمراء ورجال الدولة حول السلطنة والنفوذ ، وانقسم الناس الى أحزاب وشيع ، حتى جنح كثير من حكام الولايات وأمراء الهنداكة الى نبذ سيادة دهلي والاستقلال بما في أيديهم من بلاد وحصون (١٧) .

وظلت سلطنة دهلي في هذا الوضع المضطرب حتى توفي آخر سلاطين آل تغلق سنة ١٤١٢ ونصب أعيان دهلي دولت خان — من الأسرة اللودية — حاكما على البلاد ، وتعرضت سلطنة دهلي للغزو التيموري في الفترة من ١٣٩٨ حتى ١٤٩٠م ، الذي أهلك الحرث والنسل ، وأتى على الأخضر واليابس ، وأقام الخضر خانيون — الذين خلفوا آل تغلق — دولتهم في دهلي في ظل هذا الدمار وكان خضرخان أول أفراد هذه الأسرة من أمراء غيروز شاه التغلقى ، وكان واليا على الملتان ، ولما توفي محمود شاه التغلقى أعلن استقلاله .

الإمارات المستقلة في الهند عن دهلي

لم يكن سلطان دهلي طوال العصور الوسطى قادرا على السيطرة على الولايات التابعة لمملكته ، ومن ثم استقلت بعض الولايات عن دهلي

(16) IBID. p. 244.

(17) IBID. p. 245.

خصوصا البعيدة النائية عنها ، حتى اندمجت نهائيا في امبراطورية المغول، وهذه الامارات Jaunpur Mandu وكشمير والبنغال ، واستقلت كذلك مملكة الكجرات سنة ١٤٠٠ وشيد السلطان أحمد شاه ١٤١١/١٤٤١ مدينة أحمد آباد لتكون عاصمة لمملكة الكجرات ، وتقع في وسطها ، وتشتهر هذه المملكة بثرائها ، وتقدمها في صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية ، وتتصل بالبحر بسهولة ويسر ، وقد أشاد الزوار الأجانب بمدينة أحمد آباد ، وذكر بعضهم انها من أجمل مدن الأرض ، وشيهاها آخرون بالبندقية (١٨) .

ومن أشهر سلاطين الكجرات محمد بياجارها (١٤٥٠/١٥١١) وكان له تأثير كبير على الزوار الأجانب مثل الرحالة الايطالى Ludovico di Varthema ، ومظهر هذا السلطان آثار الدهشة . طويل القامة ، حاد المظهر ، له شنب كثيف ، ولحية تتدلى الى وسطه ، ويتخذ أدوية تحصنه من السم (١٩) .

ولى محمود العرش في سن الثالثة عشرة ، ورغم صغر سنه استطاع ان يسيطر على البلاد ويغلب على خصومه ، وسيطر على بعض البلاد المجاورة وتغلب على دولة Champanir الهندية ودخل خلفاؤه في حروب مع الراجبوتيين في وسط الهند ، وفي سنة ١٥٣٤ استولى السلطان محمود (١٥٢٦/١٥٣٧) على شيتور ، ولأذ أميرها بالفرار ، وألقت النساء في هذه البلدة بأنفسهن في النار حتى لا يقعن في الأسر ، وتعرض رجال شيتور لسيوف المسلمين ، ووزقوا شر ممزق ، على أنه في العام التالى هزم سلطان دهلى همايون ، سلطان بهادور ومن ثم سادت الفوضى والحروب الأهلية اماره الكجرات حتى امتلكها الامبراطور المغولى اكبر سنة ١٥٧٢م (٢٠) .

واشتهرت العاصمة أحمد آباد بجمال مبانيها ، وشيد بها العديد من المساجد ، وتميزت بارتفاع ورشاقة مآذنها ، وشيد السلطان محمود

(18) Rawlinson. op. cit. p. 249.

(19) Rawlinson. op. cit. p. 250.

(20) Manual of Indian Hist. p. 176.

يفارها قصرا على ضفاف بحيرة صناعية في سارخيج ، وتقع على بعد أميال قليلة من المدينة ، على أن أهم إنجازاته العمرانية ، المسجد الجامع في شامبانير وبه قبة رائعة ومآذن وأعمدة ، ومزين من الداخل ، ونقشت على جدرانه آيات قرآنية ، ويعد من أجمل المنشآت الدينية وأبهها في غرب الهند (٢١) .

وفي سنة ١٣٤٧ خلال حكم محمد تغلق ، انتهز ضباط أفغانى يسمى حسن جانجو الفرص ليكون دولة مستقلة عاصمتها Gulbarage في جنوب غرب الهند وتسمى دولة حيدر آباد ، واستمرت مملكة البهماني من سنة ١٣٤٧ حتى سنة ١٤٨٢ ، وامتدت في ابان قوتها من البحر الى البحر ، واشتملت على حيدر آباد ومنطقة في جنوب مدراس وجزءا من منطقة بومبي ، ومن الطبيعي أن يدخل أمراء حيدر آباد في حروب مع الحكام الوراثين الذين انتزعوا منهم الحكم ، واشتمل بلاط ملوك البهماني على مواطنين وأجانب . وقد تحيز ملوك البهماني الى الأجانب دون المواطنين الذين عمدوا الى اخساعاف شأنهم ، وانتهجوا سياسة دسوة فريقة من المغامرين من العرب وفارس وبلاد الافغان ، وأسندوا اليهم المراكز الهامة في البلاد . وأدى ذلك الى أحقاد عميقة ، وزاد الأمر سوءا أن القادمين الى البلاد كانوا من الشيعة . أما المواطنون فسينيون (٢٢) .

انقسمت مملكة البهماني الى أربع ولايات ، تتمع كل منها بقدر من الاستقلال ولكل حاكم من حكام الولايات جيشه ، ومن حقه فرض الضرائب وجبايتها من ولايته ويعين الموظفين الذين يساعدونه في حكم الولاية . وبالجيلة كان يشرف على الشؤون الادارية والمالية والدفاعية لولايته . أما السلطان فيساعده ثمانية وزراء ، كل مسؤول عن اختصاصه مثل المالية أو الشؤون الخارجية ، القضاء ، الأمن . . . الخ ونظم ملوك هذه الأسرة الجيش أحسن تنظيم (٢٣) .

لما توفي مؤسس هذه الأسرة سنة ١٣٥٨ خلفه ابنه محمد الأول

(21) IBID. p. 177.

(22) Rawlinson. op. cit. p. 252.

(23) IBID. p. 252.

وبدا هذا الملك حكمه بأن حصل على تقليد بالحكم من الخليفة العباسي بالقاهرة حتى يضمن على حكمه الصفة الشرعية .

نشبت حرب بين مملكة بهمانى ومملكة Vijayanagar ، تقدم فيها جيش بهمانى عبر أراضي العدو ، ولكنه لم يستطع مهاجمة أراضيها ، وانتهت الحرب بعقد اتفاقية سلام بين الطرفين (٢٤) .

ولى محمد الثانى العرش سنة ١٣٧٨ ، وكان حاكما عادلا مصلحا شجع العلوم والآداب ، ودعا الى بلاطه الشاعر حافظ بن شيراز ، وشيد مدارس لأبناء المسلمين اليتامى ، وحاول بكل ما يستطيع تقديم العون وتخفيف المعاناة عن الأراذل والفقراء من النساء . ومن سلاطين هذه المملكة الأقوياء فيروز شاه (١٣٩٧/١٤٢٢) كان حاكما مستنيرا ومصلحا . وبلغت المملكة في عهده أوج عظمتها وازدهارها . ولقد فرض السلام على مملكة Vijayanagar بعد أن لقنها درسا قاسيا على الرغم من قسوة جيشها وضخامته ، فقد دبر أحد ضباطه خطة ناجحة بأن عهد الى بعض جنده بالتكر فى زى مشعوذين ، واستطاعوا اقتحام معسكر العدو ، وألقوا الذعر بين الجنود الهنود ، وفى خلال ذلك تمكن الجنود المسلمون من مهاجمة العدو ، وهزموهم شر هزيمة . وانتهت الحرب بين الفريقين بعقد معاهدة سلام تعهد فيها راجا Vijayanagar بتقديم فيلة ومبالغ من المال للسلطان فيروز شاه . وقدم له احدى بناته ليتزوجها . وتزوج السلطان من ابنة الراجا . غير أن هذا الزواج لم يؤد الى ارساء سلام دائم بين المملكتين المتناحرتين (٢٥) .

ولقد شيد السلطان فيروز المنشآت الضخمة فى مملكته ، وكان يحب ويشجع العلوم والآداب والموسيقى ، واهتم بالدراسات الدينية فى مختلف الأديان ، وكان قصره يضم نساء أوروبيات وهنديات ، واستطاع السلطان التفاهم معهن بلغاتهن . وانتهت حياة هذا السلطان بمؤامرة دبرها ضده أخوه أحمد الذى خلفه فى الحكم ، وقتل هذا السلطان عاصمة بلاده الى بدار Bidar ، وتقع فى نقطة هامة ترتفع عن سطح البحر

(24) IBID. p. 252.

(25) Manual of India Hist. p. 178.

قدر ٢٥٠٠ قدم . والى غربها يمتد سهل منبسطة يضم أشجار المانجو والتمر هندی (٢٦) .

وآخر من حكم مملكة البهمانى ، محمد شاه الثالث (١٤٨٢/١٤٦٣) ويرجع ما حققه من نجاح فى سياسته الى وزيره محمود جوان ، وينتمى الى أسرة فارسية عريقة وعرف عنه المهارة القتالية والحنكة الادارية والعدالة والمقدرة السياسية والمالية ، وكان يعيش حياة زهد وتقشف ، وأسس مدرسة فى بدار ، مبناهما ضخم مرتفع ، وغرف المحاضرات مضيئة ، وتشتمل مكتبة المدرسة على ثلاثة آلاف مجلد ، وبالمدرسة غرف للأساتذة والطلاب ومسجد ، والواجهة نقش عليها آيات قرآنية .

على أن السلطان قلب ظهر المجن على وزيره ، فقد اتهم بمحاولة خلع السلطان ، وتنصيب نفسه حاكما مستقلا على المملكة ، ولقد سعى حكام الولايات وكبار الموظفين الى بث الوقيعة بينه وبين السلطان لأنه تشدد فى مراقبتهم ، ولم يتهاون مع واحد منهم ، فضلا عن أنه فارسى الأصل ، وما زالوا بالسلطان حتى خشى من تأمر وزيره عليه ، ووجه اليه السلطان تهمة الخيانة العظمى ، ودافع الوزير عن نفسه ، وأنكر التهمة ، وحاول اثبات براءته ، فحذر الوزير جوان السلطان من مغبة وعاقبة قتله ظلما ، لأن ذلك سيؤدى الى فقدان له شخصيته وضياح ملكه . وقتل الوزير المصلح وهو فى الثانية والسبعين من العمر ، بعد أن خدم المملكة باخلاص خمسة وثلاثين عاما . وبعد فترة من الوقت اكتشف السلطان أن وزيره قتل ظلما ، فشعر بالذنب ، وظل يتناول الشراب من الخمر ، وهو يردد أن محمود جوان سيقطعه اربا وما زال يشرب حتى توفى (٢٧) .

أخذت المملكة فى الضعف والتدهور بعد وفاة هذا السلطان وصمت الفوضى البلاد ، وساد القتال فى الشوارع بين المواطنين الهنود والواحدىن الأجانب ، وحكم البلاد ملوك كانوا العوبة فى أيدي القواد الأتراك . وظل الأمر كذلك حتى استعان آخر ملوكها بسلطان المغول فى دهلى — بابر —

(26) H.R. Major : India in the Fiteenth century. p. 130.

(27) IBID. p. 132.

لانتاذه من الفوضى السائدة فى البلاد . ودخلت المملكة فى حوزة دهلى ، وتوفى آخر ملوك البهمانى سنة ١٥٢٦ (٢٨) .

نشأ مجتمع جديد فى مملكة البهمانى من تزاوج العناصر الأجنبية بالعناصر الوطنية . أما الفلاح فى القرية فلم يطرأ جديد على حياته الا فى عهد الوزير جوان ، فقد حقق الزراع دخلا كبيرا نتيجة لسياسته الاقتصادية واستتباب الأمن والنظام فى البلاد ، وعم العمران حتى تشابكت القرى . ولقد وصف لنا رحالة روسى أثنا سيوس Nikitin (١٤٧٠-١٤٧٤) محمود الثانى بأنه فى العشرين من عمره ، وعنده جيش ضخم يتكون من مشاة مسلحين وقيلة مهيأة لركابها ، وفى كل قرية مسجد يتعلم فيه الأطفال القرآن الكريم ، ويديرها القاضى بمقتضى الشريعة الاسلامية ، وفى المدن مدارس لتعليم اللغتين العربية والفارسية ، ولها أوقاف ينفق من ريعها على ادارتها . وأضعف من شأن ملوك البهمانى ، ادمانهم للشراب ، الأمر الذى تسبب فى ضعف الادارة الحكومية والتدهور الاقتصادى والادارى وكثرة الحروب الاهلية .

وملوك البهمانى : اهتموا عموما بالعمارة ، ويتجلى ذلك فى القلاع التى شيدها فى طول البلاد وعرضها ، وأدى اختراع البارود الى ضرورة تقوية القلاع وأحيطت بأسوار ضخمة ، أشهرها قلعة دولت آباد .

قلنا ان مملكة البهمانى انقسمت الى أربع ولايات ، ولما ضعفت هذه المملكة تطلع الولاة الى الاستقلال بولاياتهم ، ومن أقوى هؤلاء الولاة ، يوسف عادل شاه حاكم ريجابور ، أعلن استقلاله سنة ١٤٨٩ ، وكان عبدا اشتراه الوزير جوان ، وهو الابن الأصغر للسلطان التركى مراد الثانى ، حيث هرب فى وقت استخلاف أخيه وهرب من القتل ، وتعرض جوان على مقدراته وأسند اليه وظيفة رئيسية . واثبت يوسف عادل شاه أنه حاكم شدير ومستنير ، استفاد من أسناده جوان ، ترك المذهب السنى ، واعتنق المذهب الشيعى ، وتزوج امرأة من Martha وأخلص لها ، واستعمل لغة المارتا فى المخاطبة ، وكان ذلك من أسباب تقرب الهنود له ، وأسند المناصب الرسمية للهنود ، ويصفه فرشته بالحكمة

(28) IBID. p. 133.

والفضاحة والنجابة وكان موسيقيا بارعا وأديبا فذا ، حرص على بث الفضيلة بين وزرائه ورجال دولته وضرب المثل بنفسه ، وحثهم على التعامل مع الأهلى بالعدالة والحكمة ، وجلب الى بلاطه رجالا أكفاء من فارس وتركستان والروم ، وفنانين من مختلف البقاع والأصقاع ، وكفل لهم الحياة الكريمة الهنيئة ، ووضع لخلفائه المبادئ والأسس التى ينبغى للحاكم أن يتحلى بها (٢٩) .

ومن أبرز حكام رىجاپور ابراهيم الثانى (١٥٨٠-١٦٢٦) واصل سياسة أسلافه الحكمة ، وشجع التجارة مع القوى الخارجية ، وجلب الى بلاطه الفنانين والأدباء وتعاطف مع المسيحيين ، ومنحهم أراضى لأقامة كنائس ، واهتم بالأدب الفارسى ، والأدب الأردى على السواء ، وأوجد مدينة Nauraspur كمركز أدبى ودينى ، وآخر حكام رىجاپور العظام ، السلطان محمد عادل شاه (١٦٢٦-١٦٥٦) خضع للغول مضطرا سنة ١٦٣٦ (٣٠) .

ومدينة رىجاپور تقع على ألفى قدم فوق مستوى البحر ، وبها أسوار دفاعية هائلة ، وعليها أبراج نصب عليها مدافع ، وتمثل هذه المدفعية مهارة وسائل الدفاع ، واشتهرت هذه المدينة بمدارسها وأساتذتها ، ومن أشهر أساتذتها ، محمد قاسم فرشته ، قدم من استراباد ، واستقر فى أحمد ناجار ، ولجأ الى بلاط ابراهيم عادل شاه الثانى فى سنة ١٥٨٩ . وتاريخه عن الاسلام فى الهند ، فريد فى نوعه كتاب فيه الأصالة والنقلوة ، بعيد كل البعد عن التأثر ببلاط السلطان والكتاب مرجعنا الرئيسى عن تاريخ الاسلام فى الهند فى الفترة ما قبل سنة ١٦١٢ وترجم الى الانجليزية بواسطة الكولونيل J. Briggs سنة ١٨٢٩ (٣١) .

العلاقات الخارجية

واجهت سلطنة دهلئ منذ قيامها مشاكل خارجية معقدة ، فهى معرضة لفزو المغول المدمر من حين لآخر والولايات التابعة لها تحاول وتسعى الى الانفصال عنها ، واتبعت السلطنة منذ قيامها سياسة خارجية

(29) Rawlinson. op. cit. p. 256.

(30) IBID. p. 258.

(31) IBID. p. 258.

تتضمن توسيع رقعة أراضيها في بلاد الهند ، لذلك اشتمكت في عدة حروب مع راجات الهند الذين دافعوا عن استقلال ولايتهم بكل ما أوتوا من قوة . وهنا يجب أن نتساءل عن العوامل التي دفعت سلاطين دهلي الى بذل الجهود في توسيع رقعة أراضيهم .

هناك دوافع اقتصادية لها أهميتها ، ذلك أن حكومة دهلي سعت الى الاستفادة من اقتصاديات البلاد التي تطلعت الى فتحها مثل اقليم الكجرات الفنى . يضاف الى ذلك أنه من الفاحصة الاستراتيجية تأمين السلطنة على نفسها كلما ضمت اراضى اليها حتى لا تكون محاطة بأعداء يحاولون الانقضاض عليها في الوقت المناسب ، وهناك عامل لا يمكن اغفاله وهو نشر الاسلام في غير بلاد الاسلام .

بدأت سياسة التوسع في بلاد الهند في عهد السلطان جلال الدين خلجي ، ففى نهاية سنة ١٢٩٢ طلب علاء الدين من السلطان جلال الدين أن يأذن له بغزو فيديشا Vidisha بعد أن أتم فتح ماندور Mandor واجتاز غين Jhain للمرة الثانية ، ووافق السلطان على طلب ابن أخيه ، فغادر كره ، وظهر البلاد في طريقه من الأعداء ، وحينما بلغ البلدة وظهر أمامها بقواته ارتاع أهلها ، وفزعوا وجزعوا وأخفوا أصنامهم حتى لا تتعرض للتدمير من قبل الجنود المسلمين ، وهاجم علاء الدين البلدة بقوة وضراوة ، ودمر معابدهم ، وغنم مغانم كثيرة ، وعاد الى دهلي يحمل من بين الغنائم قطعاً من الأصنام التي دمرها (٣٢) ، وأمر جلال الدين بالقائها عند بوابات المدينة ليراها الناس رمزا لانتصار الاسلام على الكفر والشرك بالله ، وكافأ السلطان صهره وابن أخيه علاء الدين بأن أسند اليه منصب رئيس ديوان العرض (الجيش) وأقطعته مدينة أوده (٣٣) .

وكان علاء الدين طموحا ، يتطلع الى خوض غمار حروب يحرز فيها انتصارات يجنى منها ثروات طائلة وشهرة فائقة ، استمتع عن ثروة مملكة ديفا جيري فاعزم غزوها وحشد جيشا قويا في كره لهذا الغرض ، وطلب موافقة السلطان على الغزو ، وأغراه بالغنائم التي تؤول اليه من

(32) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 34.

(33) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 36.

غزوته : فلقى طلبه استجابة من السلطان الذى كان يولى ابن أخيه ثقة كبيرة ، ويقفل عن نواياه نحوه ، وأمدد السلطان بجيش قوى معد خير اعداد ، الأمر الذى جعل علاء الدين مستعدا للغزو بجيش قوى ، سار على رأسه الى ديفاجيرى وتقع بين الهند الشمالية وجزيرة دكا ، وفى شمالها وشمالها الغربى تقع مملكة مالوا Malwa وجوجرات وفى الشرق والجنوب تقع مملكة تلنجانا Telingana و Dwar as amudra وظلت هذه المملكة فى مأمن من الخطر الخارجى ، الذى تعرض له شمال الهند فى الفترة ما بين القرن الثامن والثالث عشر الميلادى حتى تطلع علاء الدين الى غزوها ، وكان يحكم هذه المملكة فى الوقت الذى غزاها فيه علاء الدين أسرة غادافا Vadava وحاكمها يسمى واجاشاندرا Chandra وتدعى هذه الأسرة لنفسها نسبا عريقا ، وسيطرت هذه المملكة فى القرن ١٣ على جوجرات ومالوا والبلاد المجاورة وأصبحت قوة يحسب لها ألف حساب وحساب فى شمال الهند ، ولما ولى راجا شنندرا الحكم ، حرص على تقوية جيوش مملكته ، وأكد سيطرته على البلاد التى ذكرناها ، وأصلح أحوال مملكته الداخلية ، ونشر فيها الأمن فعم البلاد الرخاء فى سنى حكمه التى تجاوزت خمسة وعشرين عاما ، وانتعشت التجارة وراجت الصناعة وعمرت خزينة البلاد ، ولم يعد لها حكام أجنبى ينهبون ثرواتها ، وتطلع علاء الدين الى غزو هذه البلاد طمعا فى ثرواتها الهائلة ، وذهبها الكثير ومجوهراتها الثمينة وأحجارها الكريمة (٣٤) .

وقف علاء الدين على قوة مملكة ديفاجيرى ، واستعداداتها العسكرية ووقع ملكها ، فاعد جيشا قويا ، وغادر كره أوائل سنة ١٢٩٦ ، ولكى يغطى موقفه ويوهم ملك ديفاجيرى بأنه لا يقصده ، انجه الى شانديرى ، زاعما أنه يعتزم غزو هذا الحصن الذى يقع فى وسط الهند ومنه يتجه الى فيديشا Vudisha وأمن جميع الطرق المؤدية اليها ، وعبر بقواته الجبال التى اعترضته ، وسار بعناية فائقة على رأس جيشه ، عبر القلال الوعرة ، واجتاز أنهارا ، ولما قرر علاء الدين انهاء المعركة فى أسرع وقت ، لم يبق فى دكا كثيرا حتى لا يثير شكوك ملوك الهند الأقوياء فى نواياه ، ولا يعارضه نبلاء دهلى الكارهين له ، والمتربصين به

(34) Lal : Hist of the Khaljis. p. 41.

وحرص أن يتفوق في الحرب ، لأن عودته الى كره منهزما ، تضعف من شأنه ، وتعطى لأمرائه سلاحا للنيل منه ، واتجه الى مملكة ديفاجيري دون أن يسمح لقواته بالاعتداء أو الهجوم على البلدان التي في الطريق لأن ذلك مضيعة للوقت ، ويبيعه عن هدفه الرامى الى اجتياز المملكة في أسرع وقت ، وأطلق اشاعة مؤداها أنه يعارض جلال الدين ، ويتجه الى راجا مندرا Rujmundri في تلنجانا قنادما لمعقد محالفة معه ، حتى لا تتعرض له البلاد في طريقه الى ديفاجيري (٣٥) .

ومهما يكن من أمر فقد وصل علاء الدين الى مشارف المملكة ، وخرج الناس فيها لمقاومته ، وقادت بعض حركات المقاومة امرأتان ، قادت كل منهما فرقة من الجند وتصدت لمقاومة علاء الدين ، وفشل في صد هجماتها العنيفة ، فانسحب منهزما ، ثم عاود الهجوم ، وأحرز انتصارا رائعا على أعدائه بعد أن ضعفوا ووهنوا ، وانسحبوا من المعركة يجرّون أذيال الفشل والخيبة ، وكانت هزيمتهم غادحة ، وخسارتهم مروعة (٣٦) .

مهدت هذه المعركة التي انتصر فيها علاء الدين ، الى الذحف داخل مملكة ديفاجيري دون أن يعترض معترض ، أو يقاومه مقاوم ، وأثار علاء الدين حماس جنده ، وأبلغهم أنه لا يزال أمامهم عمل شاق ، ينتظرهم ، وإذا كانت النساء في هذه الأصقاع يحاربن بشدة وضراوة ، فماذا يفعل الرجال ؟ وأغرى جنده — في نفس الوقت — الثروات الهائلة والمغانم الكثيرة التي يحصلون عليها من فتح هذه المملكة ، وجدد جنده يمين الولاء والطاعة له ، وتمعهدوا بمواصلة الحرب تحت قيادته حتى الموت (٣٧) .

باغت علاء الدين وجنده المملكة ، ففزع الملك وجزع واستنجد الملك بحلفائه من البلاد المجاورة ، واعتصم بقلعته ، وتقع على تل مرتفع جدا ، قوية التحصين ، وحاصر علاء الدين القلعة ، وشدد عليها الحصار ، حتى نفذت المؤن والأقوات ، وقبض علاء الدين على رؤساء

(٣٥) تاريخ فرشته ، ص ١١١ .

(٣٦) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٣٠٠ .

(37) Lal : Hist. of the Khaljis, p. 42.

التجار : وكانوا يمدون القلعة بما تحتاجه من ميرة ، كما استولى على اسطبلات الملك ، وغنم ما فيها من قبيلة وخيول ، لذا لم يستطع الملك مقاومة الحصار طويلا (٣٨) بعد أن نفذت المؤن والمعدات من القلعة ، وأصبح من العسير تزويدها ، وتخرج موقف الملك ، ورأى أن لا طاقة له بعلاء الدين ، واستخدم علاء الدين سلاح الحرب النفسية ، فأشاع أن الجند الذين معه مجرد طلائع لجيشه فقط ، وهو في الطريق الى ديفاجيري ، الأمر الذى اضطر الملك طلب الهدنة ، وعقدت فعلا ، وبمقتضاها تتوقف العمليات الحربية ، وينسحب علاء الدين وجيشه من ديفاجيري ، ويتبادل الطرفان أسرى الحرب (٣٩) .

على أن هذه الهدنة لم توضع موضع التنفيذ ، ذلك أن سنفانا Singhana ولى العهد — الذى كان خارج العاصمة وقت الحرب عاد بعد الاتفاق على هذه الهدنة ، وأثاره هذا الاتفاق ، واعتبره هزيمة ونيلا من كرامة الملك والمملكة ، فقرر نقض الهدنة ، ومحاربة العدو بكل ما أوتى من قوة ، وأرسل الى علاء الدين يهدده ويتوعده ، وينذره بسرعة الانسحاب بدون قيد أو شرط (٤٠) .

رفض علاء الدين التهديد ، ولم يكن هناك بد من الحرب والقتال ، وأعد العدة لمواجهة العدو وقهره ، واتبع في ذلك خطة واضحة ، فأبقى على حصار القلعة بفرقة من جيشه ، أسند قيادتها الى نصرت خان ، وبذلك حال بين الملك وبين الاتصال بابنه العتيق ، ودارت رحى معركة عنيفة بين سنفانا وبين علاء الدين ، وانسحب نصر خان من أمام القلعة ، وانضم الى علاء الدين وشدد علاء الدين من هجماته على العدو حتى وهنوا وضعفوا (٤٠) ففروا الى الحقول المجاورة ، وبعد انتصار علاء الدين ، عاد الى القلعة ، وجد حصاره لها ، وقتل الكثير من جندها ، واستنجد الملك بعد فوات الأوان ببراجات البلاد المجاورة ، وانتهت الحرب باستيلاء علاء الدين وسيطرته على المملكة ، ولم يبق سوى القلعة ، فعاد اليها ، وشدد حصاره لها ، ورأى الملك أن لا قبل له بعلاء الدين ، واستولى على

(٣٨) تاريخ قرشته ، ص ٩٦ .

(٣٩) المصدر السابق .

(40) Lal : Hist of the Khaljis. p. 45.

القلعة ، وغنم مغانم كثيرة ، منها عدة أحمال من الذهب ، وكميات كبيرة من الأجار الكريمة والمعادن (٤١) .

وبذلك حقق علاء الدين هدفه من هذه الحملة ، فقد استسلمت مملكة ديفاجيري له ، وتعهد ملكها بدفع جزية سنوية ، وتزوج علاء الدين من ابنة الملك وانسحب من المملكة بعد أن حصل منها على ثروات هائلة اختلف المؤرخون في تحديدها وتقديرها ، ولم يكتف علاء الدين بذلك ، بل أجبر الملك على دفع جزية سنوية عن ولاية Ellichpur الشبور التابعة له ، وأمر علاء الدين عن أسرى الحرب ، وغادر ديفاجيري وفي طريقه إلى كره ، دمر أسير جره Asirgarh الذي يحكمه أحد الزاجات ولم ينج من الحصن إلا من لاذ بالفرار (٤٢) .

وبينما كان علاء الدين مشغولاً في عملياته الحربية ، سار جلال الدين إلى جاوار في مستهل سنة ١٢٩٦ ، وقد غضب من مسلك علاء الدين ، إذ لم يأذن له بمهاجمة ديفاجيري ، وإن كان قد أسعدته الانتصارات الرائعة التي أحرزها هذا الأمير في المعارك التي خاضها ضد العدو ، بل عقد احتفالات كثيرة بهذه المناسبة .

ولما عاد علاء الدين إلى كره محملاً بالغنائم ، لم يتصل بالسلطان جلال الدين عدة أشهر ، ووقعت الوحشة بين الرجلين ، واستعد جلال الدين للمسير إلى كره لاعادة ابن أخيه إلى الطاعة والولاء ، ولكن علاء الدين لم ير الموقف في دهلي ضده ، ويهدد طموحه ونفوذه ، أرسل إلى عمه جلال الدين يستعطفه ويسأله العفو والصقح ، ويعد بارسال الغنائم والثروات الهائلة التي حصل عليها - إليه ، فلقبت هذه الدعوة استجابة من الملك الشيخ قارمى إلى ابن أخيه أمانا وعفا عنه وعن كل... أخطائه . ولكن علاء الدين كان يضمّر السوء لعنه ، ويتطلع إلى التخلص منه ، والقبض على زمام الأمور في سلطنة دهلي (٤٣) .

(٤١) بارانى : تاريخ فيروز شاہی ، ص ٣٠٠ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ .

(٤٣) بارانى : ص ٢١٩ .

وانتهت الخلافات بين الرجلين — كما قلنا — بتخلص علاء الدين من عمه السلطان ، وولى السلطنة بعد أن تغلب على العقبات التي اعترضته ، ودخلت المملكة في عهد جديد ، تطلع الناس من خلاله الى مستقبل سعيد (٤٤) .

تعرضت سلطنة دهلي لمشاكل خارجية هددت كيانهما ووجودها ، فقد شن الغزاة من أهل الهند وغير أهل الهند عدة حملات عليها ، فلم يكف المغول عن غزو سلطنة دهلي سنويا من الشمال الغربى ، كما أن قبائل الكهكزية الشديدة المراس تكرررت هجماتها فى البنجاب والملتان والسند ، وتثير الرعب والفرع فى الفدوس ، وفى جنوب السند تقع مملكة الكجرات الفنية ، ويحكمها أحد الأمراء الراجبوتيين ، وبالقرب من الكجرات تقع الممالك المختلفة ، ويحكمها أمراء من الراجات ، وكلها مستقلة عن بعضها ، ومستقلة عن سلطنة دهلي ، ولم يستطع الحكام المسلمون السيطرة الكاملة على هذه البلاد ، وفى نفس الوقت تحافظ دول فى الهند مثل شيتور Chittor ورائثبور على الاستقلال عن دهلي ، وفى وسط الهند تقع ممالك مالوا ، و Dhar ويوجين Ujjain وكلها مستقلة (٤٥) .

بينما حكم راجات الهنود أو الأمراء المسلمون بهار والبنغال وأوريسا . وفى البنغال بالذات حكم ناصر الدين محمود وخلفاؤه من بعده مستقلين ، وكانت الدواب فى ايدى الاقطاعيين من المسلمين أو الهنود ، ولم يصل نفوذ دهلي الى اودة والبلاد المجاورة لها (٤٦) .

رأى علاء الدين ضرورة السيطرة على كل هذه البلاد ، وتوسيع رقعة دولته على حساب البلاد المجاورة لها ، فبدأ بتنظيم شؤون دولته ، والضرب بيد من حديد على مثيرى الفتن والانقسامات الداخلية ، وفى نفس الوقت أعد جيشا قويا لتنفيذ سياسته (٤٧) .

تطلع علاء الدين الى مملكة الكجرات ، وكانت من أعظم الممالك الهندية ثروة فى العصور الوسطى ، واناهاها الزراعى يأتى بعد الدواب

(44) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 68.

(45) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 63.

(٤٦) تاريخ فرشته ، ص ١٠٢ .

(٤٧) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٤٧ .

وانتعشت فيها الصناعة ، وراجت التجارة ، ومن مواهبها حملت صناعاتها الى بلاد فارس وبلاد العرب وزارها ماركو بولو ، وأعجب بطيب هوائها ، ونقاوة وعذوبة مائها ، وجمال عمارتها ، وازدهار زراعتها . وجدير بالذكر أن هذه المملكة تعرضت لغزوات الغزنويين والغور والماليك ، وظلت تحت ظلم الراجبوتيين حتى شرع السلطان علاء الدين في غزوها ، وقسم جيشه الى قسمين أسند قيادة الأول الى يلغ خان ، والثاني الى نصرت خان وقد غادر يلغ دهلي في فبراير سنة ١٢٩٩ ، وأمره السلطان بأن يسير من السند ويلحق بالقوة التي يقودها نصرت خان (٤٨) .

اجتاز يلغ خان البلاد التي في طريقه الى كجرات واستولى عليها ، وبدأ بمهاجمة الكجرات ، واستولى على مدينة انهلوار الجميلة ، وقد قزع راجا المدينة ولاذ بالفرار الى ديفاجيري ، وأسر المسلمون رجاله ، واستولوا على كنوزه ، وتعقبوا فرق من الجيش الملك الهارب ، بينما سارت فرق أخرى الى سومنات — وقد أعيد بناؤه بعد أن دمره السلطان محمود الغزنوي، وصادر المسلمون الثروات الهائلة التي كان يجمعها الهنود لزوار هذا المعبد ، ودمروا الصنم ، وحمل الى دهلي وأجمع المؤرخون على أن نصرت خان وبلغ خان دمرا مدنا بأسرها في الكجرات ، وغنموا ثروات هائلة من القصور والمعابد في الكجرات (٤٩) .

سيطرت جيوش دهلي على مملكة الكجرات بعد معارك متعددة مع جندها ، وعادت الى دهلي حملة بالغنائم الهائلة ، تتضمن أسرى من الرجال والنساء والولدان وكميات هائلة من الذهب والفضة والحلى وأمتعة لا تقدر بثمن (٥٠) .

وفي اثناء عودة الجيش الى دهلي محملا بالغنائم حدثت معركة تمرد في الجيش ، واستولى بعض الجند على قدر كبير من الغنائم ، وقتلوا بعض اقرباء قائدى الجيش يلغ خان ، ونصرت خان ، غير أن المتمردين فروا من الجيش قبل دخوله دهلي خوفا من عقاب السلطان ، ولما بلغ

(٤٨) تاريخ لورشته ، ص ١٠٢ .

(٤٩) باراني : تاريخ فيروز شامي ، ص ٢٥١-٢٥٢ .

(50) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 71.

الجيش دهلى وعلم السلطان بحركة التمرد ، نكل بأفراد أسر المتبردين ، وكان انتقاما وحشيا برييا ، حتى ان الطفل كان يقطع اربا اربا (٥١) .

وفي خلال غزو السلطان لبلكة الكجرات ، ارسل السلطان علاء الدين قائده ظفر خان لمحاربة المغول المحتشدين بأطراف الهند ، وهزم القائد الشجاع جيش المغول وبسبب الكثيرون منهم أسرى الى دهلى سنة ١٢٩٩ التى فتحت فيها الكجرات (٥٢) .

قضت الحملات التى شنها السلطان علاء الدين فى أواخر القرن الثالث عشر على البلاد الهندية المجاورة ، وعلى معظم الراجات الأقوياء وخضعوا لسلطان دهلى ، وفى الفترة من سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٣١٠ شن علاء الدين عدة حروب فى شمال الهند ، وأكثرها شدة وضراوة كانت فى صحراء الثار . وفى الفترة الواقعة بين سنتى ١٣٠٨ ، ١٣١٢ أخضع حكام دكا ، ولكن معظم جهود علاء الدين تركزت فى البنغال حيث واجهت قواته مصاعب كثيرة (٥٣) .

اتخذ السلطان علاء الدين كافة الاستعدادات لغزو إقليم البنغال وضمه الى مملكته ، وأرسل السلطان فرقا من جيشه الى هذا الإقليم ، وأمر جنده بالاتجاه شرقا ، واتخاذ الطريق الشرقى الى البنغال وأوريسا ، بينما سار السلطان الى جزيرة دكا (٥٤) .

ولا يقوتنا أن نذكر أن البنغال ظلت مستقلة عن دهلى بعد أن جكها الخلجيون ولم يحاول جلال الدين خلجى بسط نفوذه على هذا الإقليم النائى البعيد ، وكان يحكمه ناصر الدين محمود بن بلبن حتى وفاته سنة ١٢٩١ ثم خلفه ابنه ركن الدين خلجى ، وكان بتمردا وثائرا على أبيه حتى أنه أرسل الى علاء الدين يحالفه ، وعاشت البلاد فى مستهل القرن الرابع عشر فى قلق واضطراب ، وثار شمس الدين فيروز على أخيه ، واستقل بغرب البنغال ، وتاريخ البنغال فى هذه الفترة بالذات غامض

(٥١) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٥٢ .
(52) Lal : Hist of the Khaljis p. 77.

(٥٢) تاريخ بارانى ، ص ١١١ .
(54) Lal : Hist. of the Khaljis. 78.

كل الغموض ولا نعرف عن هذين الملكين شيئا ، ولم ترد عنهما أية معلومات اللهم الا العملة التي تحمل اسميهما (٥٥) .

وقد لقب فيروز نفسه سلطانا . ومن المحتمل جدا أن حركات التمرد والعصيان ضد السلطان علاء الدين وانتشغاله في قمعها قد أغرى فيروز بالاستقلال نهائيا عن دهلي ، على أن سياسة علاء الدين — كما قلنا — اتجهت إلى استعادة سيطرة دهلي على البنغال ، بل كان يتطلع قبل توليته السلطنة — إلى البنغال والاستقلال بها ، وأعد العدة للمسير فعلا إلى البنغال والاستيلاء عليها والاستقلال بها ، إذا فشل في تحقيق خطته الزامية التي التلخص من عنه سلطان دهلي (٥٦) .

أرسل علاء الدين — كما ذكرنا — جيشا إلى البنغال لضمها إلى مملكته ، بعد انتزاعها من فيروز الذي استقل بها نهائيا عن دهلي . وحوادث غزو البنغال ونتائج غامضة كل الغموض ، مضطربة كل الاضطراب ، ولكن يفهم من روايات المؤرخين أن جيش علاء الدين لم يستطع هزيمة جند البنغال ، واخضاع الإقليم — تبعا لذلك — لسلطان دهلي . وكان علاء الدين في ذلك الوقت مشغولا في قمع حركات التمرد والعصيان التي قامت ضده ، على كل حال ظل شمس الدين فيروز يحكم البنغال حكما مستقلا حتى سنة ١٣٢١ (٥٧) .

ولا يمكن قبول رواية باراني عن البنغال ، إذ أن عرضه لهذه الفترة التاريخية التي نحن بصدد الحديث عنها — يدل تماما على غموض الأحداث بالنسبة له ، فهو يروي أن البنغال كانت في سلام في ظل حكم ناصر الدين محمود بن بلبن ، وحتى زمن علاء الدين وخلفائه إلى أن حكمها غياث الدين تغلق ، ويخلط المؤرخ باراني كذلك بين ناصر الدين محمود ، وشمس الدين فيروز ، ويذكر أن ناصر الدين حكم ٤٣ سنة . وهذا القول غير صحيح ، وتؤكد العملة عدم مطابقة قوله مع الواقع . فرواية باراني غير موثوق فيها عن هذه الفترة ، ويرد — كما رأينا — أحداثا غير صحيحة (٥٨) .

(55) Camb : Hist. of India, 111. p. 108.

(٥٦) باراني : تاريخ فيروز شاهي ، ص ٢٠٢ .

(٥٧) تاريخ فرشته ، ص ١١٨ .

(٥٨) باراني : تاريخ فيروز شاهي ، ص ٣٩٥ .

ومهما يكن من أمر فقد عادت حملة علاء الدين على البنغال ادراجها الى دهلي دون أن تحقق أهدافها ، وقد ألحق بها شمس الدين فيروز هزيمة فادحة ، وبقي آمناً في بلده بعد انتصاره على علاء الدين ، مستقلاً في حكمه ، قوياً في مملكته .

على أن علاء الدين الخلجي لم يقف مكتوف اليدين إزاء هزيمته ، بل مول على العودة الى غزو البنغال ، والعمل على تحقيق هدفه الرامي الى السيطرة على هذا الاقليم ، ولكنه رأى أن يبدأ بالامارات التي يحكمها الراجبات حكماً مستقلاً عن دهلي ، ورأى أن هزيمتهم والسيطرة على بلادهم تكسبه هبة كبيرة في بلاد الهند ، ويرفع من شأن سلطنة دهلي (٥٩) .

بدأ علاء الدين حملاته على بلاد الراجبوتيين بأن هاجم جيسالمير Jais almer ، وجدير بالذكر أن السلطان جلال الدين شن عليها حملة من قبل ، ولا تشير المراجع التي كتبها المسلمون المعاصرون عن وقت غزو علاء الدين لهذه البلدة ، إلا أن المراجع الفارسية تشير الى أن ذلك تم في اثناء مسير جيش علاء الدين الى الكجرات سنة ١٢٩٩ ، ولكن الراجبوتيين يشيرون الى غزو علاء الدين لجيسالمير ، وان كانوا لا يذكرون موعد هذا الغزو كعادتهم في تسجيل الاحداث التاريخية ، وقد تم ذلك بقيادة يلغ خان الذي كان يقود جزءاً من الجيش الذي سيره علاء الدين الى الكجرات ، وقد احتل هذا الجيش الحصن ، وقتل عدداً كبيراً من كبار الهنود ثم غادر البلدة الى الكجرات بعد أن ترك في البلدة حامية استقرت في قلعتها (٦٠) .

بعد ذلك أعد علاء الدين العدة لغزو رانثمبهور ، ولهذا الاقليم أهمية خاصة لدهلي ، لقربه منها ، ولأن جلال الدين سبق أن فشل في السيطرة عليه ، يضاف الى ذلك حصانتها ومناعتها ، ويعمل لقوتها كل حساب ، وقد تكون خطراً على أمن وسلامة سلطنة دهلي ، والسبب المباشر لغزو علاء الدين لها يرجع الى أن راجا هذه البلدة ، ساعد ووقف الى جانب راجا جيسالمير ضد غزوات دهلي ، وقد تعرضت هذه البلدة

(59) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 80.

(60) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 84.

لغزوات للقادة المسلمين قبل جلال الدين ، ولكن لم يستطع واحد منهم السيطرة الكاملة عليها (٦١) .

ومهما يكن من أمر فقد أمر السلطان علاء الدين قائدیه بلغ خان ونصرت خان بالسير الى رانثمبهور سنة ١٣٠٠ (٦٢) ، وتحركت جيوش دهلي صوب حصنها المنيع وفي طريقهم احتلوا غين Jhain بدون أن تصادفهم مقاومة ، وأرسل بلغ خان الى أمير رانثمبهور يطلب منه التسليم حفاظا لدمائه ودماء قومه وحماته ، ولكن الراجا رفض الاستسلام ، وآثر الحفاظ على تقاليد أسرته وشرفها ومجدها التي ترفض وتتصدى بكل قوة للغزو الخارجي ، وترفض السيطرة الخارجية مهما كانت التضحيات (٦٣) .

وعلى ذلك فقد أمر بلغ خان قواته بالاهبة والاستعداد وسرعة المسير الى رانثمبهور ، وعسكر بجوارها ، وحاصرها وشدد عليها الحصار ، ونصب المنجنيقات وأدوات الحصار ، وأعد راجا رانثمبهور العدة لمقاومة الحصار ، وقهر الفزاة ، وكان جيشه يتألف من ١٢ ألف فارس وعديد من المشاة ، ويضم الجيش عددا كبيرا من الفيلة ، وانهالت القذائف من رانثمبهور على القوات الخليفة — كما يقول ناصر خسرو — وأدت آلى مصرع نصرت خان . وقد انتشر الذعر بين المسلمين بفقد القائد ، وتأثرت روحهم المعنوية ، وضعفوا ووهنوا ، وأدرك راجا رانثمبهور اضطراب الجند الخلفى ، فهاجم قوات المسلمين ، وحطم خطوطهم الدفاعية ، ولم يستطع بلغ خان للتصدي له ، ووقف هجماته ، وهزم جند دهلي ، ولانوا بالفرار الى جيسالمير . وبذلك فشلت محاولة علاء الدين فى السيطرة على رانثمبهور ، واضعاف قوة الراجبوتيين للفرسان (٦٤) .

على أن علاء الدين اعترضته عقبات أثناء مسيره الى رانثمبهور ، وقامت ضده عدة ثورات وحركات تمرد ، وبعد أن انتهى منها سار الى رانثمبهور ، وشدد الحصار على قلعتها ، وأثار حماس قواته ، واستمر

(61) Camb : Hist of India, 111. p. 832.

(٦٢) بارانى : تاريخ فيروز شامى ، ص ٢٧٢ .

(63) Munshi. op. cit. 180.

(64) IBID. p. 181.

الحصار، عدة أسانيع ، قاسى فيه جند، دهلى ويلات، الشقاء والبؤس ،
 ذلك أن المدافعين عن القلعة القوا على المهاجمين مواد مشتعلة، أنهكت
 قواهم . كما قاست قوات العدو المحاصرة من نقص فى المؤن والقوت ،
 والجوع . كافر — كما يقولون — لذا ضعفت مقاومة جند رانثمبهور ،
 ووهنت عزيمتهم ، واشتد بهم الكرب ، أما السلطان علاء الدين فكان
 يشجع قواته على المضى قدما فى مهاجمة العدو ، وينفق الأموال الطائلة
 فى مرضاتهم ، فطابت نفوسهم ، وقويت عزيمتهم (٦٥) .

دارت رحى معركة فاصلة بين الفريقين ، أريقَت فيها دماء غزيرة ،
 وقتل فى هذه المعركة الكثير من الراجبات الذين اشتركوا فيها الى جانب
 حليفهم راجا رانثمبهور ، ومن القتلى راجا هامير ، بعد أن حارب ببسالة
 نالت اعجاب معاصريه ، وكتب كتاب كثيرون عن هذه المعركة ، وكتبوا
 عن أساليب الفروسيّة التى أظهرها الراجبات فى حربيهم ضد علاء الدين ،
 وجمع بين الراجبات تحالف وثيق ضد العدو المشترك — علاء الدين —
 الذى أصبح خطرا يهدد استقلال بلادهم (٦٦) .

على كل حال انتصر علاء الدين على أعدائه واستولى على رانثمبهور
 وحطم أصنامها ، ودمر المعابد ومن بينها معبد هارديفا Har Deva
 الذى جعله السلطان دكا ، ودمر الكثير من منازل البلدة . وأصبحت
 رانثمبهور تابعة لسلطنة دهلى ، وعهد السلطان الى يلغ خان بالاشراف
 على قلعة رانثمبهور . كذلك ضم علاء الدين الى خورته غين (٦٧) .

شجع هذا النصر الرائع الذى أحرزه سلطان دهلى فى رانثمبهور
 ضد حاكمها الراجبوتيين ، شجعه على مواصلة النضال ضد الأمراء
 الراجبوتيين فى أرض الهند ، وجاء دور شيتور Chittor أقوى قلعة
 فى الراجبوتانا وتقع على تل ارتفاعة خمسمائة قدم ، مسوية التحصين
 ويحكمها راجا مستقل حتى سنة ١٣٠٣ حين غزاها علاء الدين (٦٨) .

(65) Camb : Hist of India 111. pp. 517.

(66) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 96.

(67) Munshi. op. cit. p. 181.

(٦٨) باراتى : تاريخ فيروز شاہى ، ص ٢٨٢ .

ظلت شيتور زمنا طويلا عاصمة لاقليم ميوار. Mewar وتعرضت لغزو السلطان التمش ، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها ، كما غزاها ناصر الدين محمود سلطان دهلي - وفي سنة ١٢٩٩ هاجم بلغ خان ميوار - وهو في طريقه الى الكجرات - ولكنه هزم (٦٩) .

سار علاء الدين الى شيتور في مستهل سنة ١٣٠٣ ، وحاصر القلعة ، وشدد عليها الحصار ، وبأمر السلطان بنفسه عملية الحصار ، واستعان براجات البلاد المجاورة ، غير انهم لم ينظموا عملية انتفاذ شيتور ، ذلك أن الخلافات كانت شديدة بينهم من ناحية ، وبين بعضهم وراجا شيتور من ناحية أخرى ، لذا لم توضع خطة موحدة لانتفاذ شيتور ، وخرج لنجدته منهم من خرج متفرقا للكلمة ، ومهما يكن من أمر فقد اشتدت مقاومة جند شيتور في القلعة حتى تحولوا في بعض فترات الحروب الى الدفاع الى الهجوم ، غير أن علاء الدين شدد هجماته على العدو ، وألقى قذائف عديدة على القلعة حتى اشتد اليأس بين أهل شيتور وأقام النساء خنادق تحت الأرض ، وأحرقن أنفسهن فيها حتى لا يقعن أسرى في أيدي أعدائهن ، ومن بينهن نساء الأمراء والفرسان الراجبوتيين (٧٠) .

واصل السلطان علاء الدين تشديد هجماته على القلعة ، حتى استسلمت في أغسطس من نفس السنة ، بعد أن بذل جند دهلي جهودا مضيئة في الحرب وأمر السلطان علاء الدين بقتل كل من وقع في يده من العدو ، ودمر المعابد وأحرق الأصنام وكل مظاهر الشرك ، وبخلف المؤرخون حول مصير راجا شيتور ، فيرى بعضهم أنه قتل في أثناء المعركة ويرى آخرون أنه قتل بعد المعركة ، ويؤيد خسروخان الرأي الأخير ، وجدير بالذكر أنه رافق السلطان علاء الدين في الحرب (٧١) .

استسلمت قلعة شيتور بشرط دفع الجزية لسلطنة دهلي ، وضم علاء الدين شيتور الى حوزته ، وضبط الأمور في البلدة ، وأعاد اليها الأمن والطمأنينة ، ونظم إدارتها في ظل الحكم الجديد ، وعاد الى دهلي مسرعا ، إذ كان يتوقع غزوا مغوليا لدولته (٧٢) .

(٦٩) المصدر السابق من ٢٩٠ .

(٧٠) تاريخ پارانی ، ص ٢٩٩ .

(٧١) المصدر السابق .

(72) Lal : Hist of the Khaljis. p. 113.

ازدادت هيبة السلطان علاء الدين في بلاد الهند على اثر سيطرته على رانثمبور الحصينة والقوية وعلى شيتور ، وتغلبه في المعارك الضارية التي خاضها ، لذا خشى بعض الأمراء الراجبوتيين من أن تدور الدائرة عليها ولا طاقة لهم بسلطان دهلي ، وأرسلوا يقدمون اليه فروض الولاء والطاعة ، على أن راجا ماهلاك Mialak حاكم مالوا Malwa رفض الاستسلام لدهلي ، وأعد العدة لمقاومة السلطان الخلجي (٧٣) .

وجدى بالذكر أن الجيوش الاسلامية غزت البلاد قبل علاء الدين ، غزاها شمس الدين التمش سنة ١٢٣١ ، واستولى على بعض حصونها ، ودمر المعبد المشهور ماهلاك Mialak ، ولكن هذا الغزو كان خاطئا . وعاد ديفا بالا الى حكم هذه البلاد — كما كان الحال من قبل — وتعرضت مالوا لغزو سريع أيضا في عهد السلطان جلال الدين (٧٤) .

على أن الغزو الحقيقي الذي تعرضت له مالوا من قبل المسلمين ، كان بقيادة علاء الدين ، سار اليها — كما قلنا — سنة ١٣٠٣ ، وكانت مهمة السلطان الخلجي عسيرة معقدة ذلك أن راجا مالوا كان يمتلك جيشا قويا يضم الكثير من المشاة والفرسان ، ويتولى قيادته قائد شجاع ، خبير بأساليب الحرب والقتال .

سار علاء الدين الى مالوا ، ودارت معركة بين الجند الخلجي وجند مالوا ، قتل فيها موليتاني — القائد المالوي — وقد أدى مقتله الى اشاعة الخوض والاضطراب بين جنده ، وكانت فرصة سانحة لجند دهلي ، فشددوا هجماتهم على جند مالوا وانتصر الخلجيون على أعدائهم ، وقتلوا منهم كثيرين ، ثم حاصر الخلجيون القلعة ، وشددوا عليها الحصار ، وقد عثر الخلجيون على منفذ مكنهم من دخول القلعة وفوجيء جند مالوا بالخلجيين داخل القلعة — حصنتهم الحصين — ودارت معركة هيبة بين الفريقين انتصر فيها جند دهلي ، واستولوا على القلعة ، واستسلم جند مالوا وتبع ذلك سيطرة الخلجيين على مالوا بأسرها ، وكان لهذا الانتصار الرائع اثر كبير في التطور التاريخي لبلاد الهند ، ذلك أن سلطنة دهلي أصبحت أكبر قوة ضاربة في بلاد الهند ، فضلا عن ازدياد ضعف

(73) Majumdar. op. cit. p. 295.

(74) IBID. p. 296.

الراجبوتيين . وسر السلطان بهذا الفتح المدين ، والنصر المؤزر ، وأمر
بإقامة الزينات والحنلات في دهلي عدة أيام ، وأقيمت الولائم لأهل دهلي
على اختلاف مستوياتهم (٧٥) .

ومن أبرز نتائج ضم مالوا إلى سلطنة دهلي ، تيسير السبيل أمام
الخلجيين لبسط سيطرتهم على الكثير من الإمارات الراجبوتية ، فدخلت
مدن يوغين Ujjain وماندو ودهارنا جاري Dharnagaari
وشانديري في طاعة السلطان الخلجي ، إذ خشي حكامها من غزو السلطان
لببلادهم . وعهد السلطان إلى عين الملك موليتاني بحكم ماندو بالإضافة إلى
مالوا مكافأة له على شجاعته وبسالته وقهره للعدو (٧٦) .

لم يكتف علاء الدين بما أحرزه من نصر ، بل تطلع إلى ضم المزيد من
الأراضي إلى دولته ، فأعد جيشا سار على رأسه إلى سينانا لفتحها ،
وكان يحكمها ساتال ديفا Statal Deva — أحد القادة الراجبوتيين
الشجعان في سنة ١٣٠٨ — وأعد الراجا العدة لمقاومة الهجوم ، وانضم
إليه الكثير من الراجبوتيين وحاصر علاء الدين العدو في القلعة ، وشدد عليها
الحصار ، ودار القتال وقتا ليس بالقصير ، وقد صمد المدافعون عن
القلعة ، وألقوا بالفيران والحجارة على الخلجيين الذين لم تفت عزيمتهم
— رغم ذلك — قرروا مواصلة الحرب حتى النصر ، ودرس الخلجيون
القلعة من جميع جوانبها ، حتى عرفوا نقاط الضعف فيها ، وتمكنوا من
اجتياز القلعة على أثر ذلك ، واستولوا عليها ، وقد أسقط في يد الراجا
فغادر القلعة ، ولأذ بالفرار لا يلوى على شيء واتجه إلى جالور Gurg
ولكنه سقط في كمين ، ولقى مصرعه . ويذكر أمير خسرو أن ساتال ديفا
قوى البنيان ، هتين الجسم ، وقد دهش السلطان ورجاله من منظر رأسه
الضخم التي أحضرت إلى معسكره ، ومهما يكن من أمر فقد عاد علاء الدين
إلى دهلي بعد أن سيطر على سينانا ، وعهد إلى كمال الدين جورج
Gurg بحكمها (٧٧) .

اعتزم علاء الدين وهو في طريقه إلى دهلي ، غزو جالور ، كجزء

(75) Indian Historical quarterl. 1. 1925. p. 653-656.

(٧٦) تاريخ فرشته ، ص ١١٥ .

(77) Lal : Hist of the Khaljis. p. 118.

من سياسته الرامية الى السيطرة على كل البلاد الخاضعة للراجبوتيين .
 وجدير بالذكر أن السلطان الخلجي غزا جالور سنة ١٢٩٩ في أثناء عودة
 قواته من الكجرات . ويذكر فرشته (٧٨) انه في سنة ١٣٠٤ بينما القائد
 نصرت خان والى خان عائدين من مالوا ، وبلغا جالور ، استسلم راجا
 البلدة للمسلمين ، وأعلن ولاءه للسلطان الخلجي ، دون أدنى مقاومة ،
 لأنه خشى أن يتعرض للمصير الذى لقيه حكام البلاد التى غزاها الخلجيون .
 وأما الغزو الذى نحن بصدد الحديث عنه — فقد حدث سنة ١٣٠٨ حينما
 أدرك علاء الدين ان جالور لم تعد موالية لدهلى ، فاعتزم اخضاعها ، كما
 أخضع الممالك الراجبوتية من قبل .

على كل حال أرسل علاء الدين جيشا الى جالور سنة ١٣١١ ، ولم
 يعرف اسم قائد الجيش الذى عهد اليه سلطان دهلى بهذه المهمة ، ولكن
 يبدو أن هذا القائد لم يكن على قدر كبير من الكفاءة والشجاعة ، ودارت
 عدة معارك بين جند جالور والخلجيين ، هزم فيها جيش دهلى ، ودارت
 المعارك عدة سنين ، وقد جزع علاء الدين لذلك ، وأرسل جيشا قويا أسند
 قيادته الى قائده للشجاع كمال الدين جورج ، وشدد هذا القائد الحصار
 على قلعة جالور ، ونثر الذهب على بعض أهالى جالور حتى يكونوا عوناً
 له ، فأخبروه على ممرات سرية تؤدي الى داخل القلعة ، وتمكن القائد
 الخلجى بذلك من اقتحام القلعة ، ودار قتال داخلها بين الفريقين ، هزم
 فيه الخلجيون أعداءهم ، وقتلوا منهم الكثيرين ، واستولوا على القلعة
 وعلى البلدة ايضاً (٧٩) .

سقطت جالور اذن في ايدي الخلجيين سنة ١٣١١ ، ولكى يخلد
 علاء الدين انتصاره ، شيد مسجداً على اشتهر قلعة في دهلى ، لا يزال
 موجوداً الى يومنا هذا ، ويدخل جالور في حوزة علاء الدين نستطيع ان
 نقول بأن راجات دول الراجبوتانا دخلوا في طاعة سلطان دهلى جيسالمير ،
 رانشههور ، شيتور ، سيفانا ، جالور والبلاد التى تتبع هذه الدويلات ،
 على كل حال لم ينته النصف الاول من القرن الرابع عشر الا وكان
 الراجبوتون قد ضعف أمرهم ، ولم يعد لهم شأن في بلاد الهند وخضعت

(٧٨) تاريخ فرشته ، ص ١٢٨ .

(٧٩) تاريخ فرشته ، ص ١١٨ .

بلادهم لسلطنة دهلى ، وفقدوا ما اتصفوا به منذ القدم ، بالفروسية والشجاعة (٨٠) .

* * *

ويجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التى أدت الى هزيمة الراجبوتيين أمام جيوش علاء الدين على الرغم من قوة بأسهم ، وحرصهم على الاستقلال .

دخل السلطان علاء الدين — كما ذكرنا — فى مبارك متعددة مع الراجبوتيين وبالذات فى الفترة ما بين سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٣١١ وحقق فيها انتصارات رائعة على أعدائه ، وقاوموه بكل ما أوتوا من قوة ، لكنه أصر على بحرهم وهزيمتهم ، الأمر الذى أحدث معارف دموية بين الطرفين ، تكررت فى أثناء حصار السلطان لكل حصن .

كان الراجبوتيون — على الرغم من اصرارهم على المحافظة على حريتهم ، ودفع كل محاولة تهدف النيل من استقلالهم متفرقي الكلمة ، لم يستطع واحد منهم توحيد صفوفهم فى وجه العدو المشترك ، لذا حارب السلطان كل بلد من بلادهم على انفراد ، الأمر الذى مكنتهم ، وكان الراجبوتيون يلتمسون الأمان فى حصونهم المنيع ، وتبدأ المجاعة تعمل عملها بين الجند ، وتؤدى حتما الى ضعف مقاومتهم وتوقفها فى النهاية .

وفى نفس الوقت يفتاب أهل البلدة التى بها القلعة الجزع والفرع ، فاما يقرون منها ، واما يبقون بها تحت رحمة العدو ، وفى هذه الحالة تضعف عزيمتهم ، ويستبد بهم اليأس ، ويضطر نفر منهم من أصحاب النفوس الضعيفة أن يخبر العدو عن أسير السبل للنفاذ الى القلعة ، وإذا استطاع العدو دخول القلعة ، وشدد ضرباته للمدافعين داخلها ، وقد انهك طول الحصار وشدته قواهم ، خصوصا إذا نفذت المؤن والمعدات — استطاع المهاجمون ازاء هذه العوامل التغلب على المقاومة داخل القلعة ، والسيطرة عليها ، وربما فرض معاهدة استسلام على جاكم البلدة .

(٨٠) المصدر السابق .

وثمة حقيقة أخرى لا يمكن تجاهلها عند مناقشتنا لأسباب الهزائم المتلاحقة التي حلت بالراجبوتيين على الرغم من شجاعتهم وبسالتهم ، وذلك ان الراجات ظلوا يحافظون على تقاليدهم التي ورثوها منذ زمن قديم في الحرب ، واستمروا في استخدام الأساليب القديمة الموروثة عن الآباء والأجداد ، والأسلحة التي قات أوان استعمالها وعفا عليها الزمن ، وولت أيامها ، ولم يحاولوا الاستفادة من التقدم الحربي الذي بلغته بلدان وسط آسيا ، والأسلحة المتطورة التي استخدموها ، وأنقنوا أساليب استعمالها ، فكان جيش دهلي يستخدم الأسلحة الحديثة وقتئذ ، ويطلع على فنون الحرب خصوصا عند المغول ، واستخدام الآلات الحربية المتطورة — خصوصا المنجنقيات — حتى أصبح لدى دهلي تكتيكات حربية رائعة ، أما الراجات فكانوا يستخدمون الفيلة الضخمة ، وحكوماتهم تركز على مبادئ اقطاعية ، ويعهدون بالجنود في أوقات الحروب الى فئة يختارونها لهذا الغرض . وإذا نشبت الحرب ، واعتصموا في القلاع — كما ذكرنا — واحتاجوا الى تعزيزات من الجند ، فمن الصعب ادخال هذه التعزيزات في القلعة المحاصرة ، بل من العسير جدا اختيار العناصر الصالحة وهم محاصرون في القلعة .

يضاف الى ذلك ان موارد الثروة في بلاد الراجات كانت محدودة ، فبلادهم جبلية وعرة ، قاحلة ، انتاجها الزراعي محدود جدا لا يكاد يكفي احتياجاتهم . وهذه الحالة الاقتصادية المتدهورة أضعفت من شأن الراجات أمام أعدائهم في سلطنة دهلي ذات الموارد الاقتصادية المزدهرة ، فمن ولاياتها البنجاب وأده وكوجرات أعظم المناطق خصبا في بلاد الهند ، فهي توفر لدهلي الأموال الكثيرة ، والجند ، وإذا اجتمع المال والرجال أصبحت عوامل النصر متاحة وممكنة الى حد كبير .

ولكن علينا ان نقرن حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن الراجات كانوا لا يهابون الموت ، ويرونه شرفا في أرض المعركة ، ودليلا على رضا آلهتهم ونعمة كبرى ، وفي نفس الوقت كان الراجات يتقنون أساليب الفروسية ، لذا كان سقوط بلادهم في أيدي أعدائهم أمرا صعبا وعسيرا ، ولا يتم الا بعد لأي وعناء ، وتضحيات جسيمة في الانفس والأموال .

على كل حال حارب الراجات حتى الموت ، وحينما يئسوا من المعركة ، ووهنوا وضعفوا ، القوا نساءهم في النار حتى لا يقعن في أيدي

العدو ، ومع ذلك فإن سيادة دهلى على الإمارات الراجبوتية لم تدم طويلا ، ذلك لأن الراجات دأبوا على المطالبة باستقلالهم ، والتمسوا الأوقات المناسبة لذلك ، ووضعوا العراقيين في سبيل حكام سلطنة دهلى ونجحت بعض البلاد الراجبوتية في نيل استقلالها عن دهلى . لذا فإن سيطرة دهلى على بلاد الراجبوتانا لم تكن مستقرة ، ولا كاملة ، واستمر الصراع دون انقطاع بين الإمارات الراجبوتية وسلطنة دهلى واستولى علاء الدين — كما رأينا — على رانثمبهور وسافانا وجالور ، البلدة تلو الأخرى دون أن يتحرك الراجبوتيون لمساعدة أخوانهم ، وتجلت الخلافات بينهم حينما هاجم علاء الدين سافانا ، ولم يتحرك راجا جالور لمساعدتها ونجدها ، على الرغم من أن سقوط سافانا يشكل خطرا عليه ، وعلى بلده التى تبعد خمسين ميلا عنها ، فعلا دارت الدائرة على جالور ، وسقطت في أيدي الخلجيين بعد عامين .

ومن أسباب هزائم الراجبوتيين أن حصونهم تقع على قمم جبال عالية ، بحيث تستعصى على الغزاة لصعوبة الصعود إليها ، الأمر الذى يضطرهم إلى التجمع على سفح الجبل ، وفي هذه الحالة تكون المحاصيل والدواب في متناولهم ، فبينما يجد الجيش المحاصر ما يلزمه من الميرة والعلوفة ، فإن المدافعين القابعين في القلعة عليهم الاعتماد على ما في القلعة من مؤن وتتفد إذا طال الحصار .

اتجهت انظار السلطان علاء الدين بعد ذلك الى الدكن وكان هذا الاقليم — الى جانب بعده عن العاصمة — يحكمه عصابة من أمراء الهند الأقوياء (٨١) .

عهد السلطان علاء الدين الى قائده كافور — وكان مملوكا حيشيا قديرا — بفتح الدكن ، فاخترق هو وجنده مالهو ثم الكجرات — أعظم أقاليم الهند التجارية وأغناها وأطيبها جوا ، ثم هاجم رأى كران ، فلاذ بالفرار من بلده ، وهناك انضم بلغ خان الى قوات كافور ، فساروا جميعا الى ملجا غريمهم ، وتم القبض عليه مع أفراد أسرته ، وأفرج عنه السلطان وأعادته الى ولايته ، وزوج ابنته من ابنه . وبذلك ضمن هذا السلطان ولاء الأميين الهندوكى (٨٢) .

(٨١) تاريخ بارانى ، ص ٢٧٢ .

(82) Lal : Hist. of the Khaljis. p. 194.

القت انتصارات كافور الرعب في نفوس امراء الدكن ، وما إلى بلادهم جنوبا . ففتحت البلاد أبوابها للغزاة المسلمين . وفي سنة ١٣٠٩ استسلمت تلنجانا - قاعدة إقليم أودة - واقتدى قومها أنفسهم بأموال طائلة وثروات كبيرة حملها إلى دهلي ألف بغير ، كانت تنوء بها ، عدا مئات من الفيلة ، والوف من رؤوس الخيل (٨٣) .

شجعت الانتصارات التي أحرزها جيش دهلي والغنائم والثروات التي أحرزها علاء الدين على المضي قدما في الفتح طلبا للمزيد من الأراضي والثروات . وعاد كافور على رأس جيشه إلى دهلي سنة ١٣١٠ بعد أن استولى على إقليم مير في الجنوب الشرقي في الدكن ، ولم يرجع قائد الجيش الجسور من الدكن حتى تم له إخضاع الجنوب الهندي كله ، بل كان سلطان الخليجين يشمل شبه القارة الهندية كلها . وبالتحسيد ترك علاء الدين مملكة تمتد من البنجاب إلى البنغال ، ومن جبال الهمالايا إلى تلال الوندهايا ، وهي الرقعة التي اصطلح على تسميتها الهندوستان (٨٤) .

وبينما تتعرض بلاد الهند لغزاة يهاجمونها من أجل الحصول على الذهب والفضة ، نرى أن السلطان علاء الدين لا يتطلع في غزواته في البلاد الهندية إلى الثروة بقدر ما يتطلع إلى تحقيق هدفه الرامي إلى توحيد بلاد الهند تحت سلطانه ، فنراه يقضى السنوات الطوال في صحراء الثار ، القاحلة ، يحارب الراجبوتيين هناك ويقاسى جنده الشدائد في حربهم ، ولا ينال هو وجنده من الغنائم ما يتناسب مع الجهد والمشقة في أرض الثار القاحلة (٨٥) .

وبسقوط جالور Jlor دخلت بلدان شمال الهند في ذلك الثار في حوزة سلطان دهلي ، بينما نفذت جيوشه إلى الشمال الغربي من الهند حتى بلغت غزنة . وفي الشمال الشرقي من الهند امتد نفوذ دهلي إلى بنيبال . وبالجملة أصبح السلطان علاء الدين بفضل قوة بأسه وسطوته سيد بلاد الهند وستان بلا منازع .

(٨٣) تاريخ باراني ، ص ٣٧٥ .

(84) Lane. Poole : Medieval India. p. 101.

(٨٥) تاريخ باراني : ص ٣٨٥ .

وأسند حكم الولايات الهندية التي خضعت لسيطرته الى ولاه محليين
ممن يثق في طاعتهم وولائهم .

واتم السلطان علاء الدين السيطرة على شمال الهند وأتبعها بالسيطرة
على جنوبها ، وأسند قيادة هذه العملية الى قائده المخلص ملك كافور
الذي هاجم ممالك الجنوب ، وسقطت كلها في يده الواحدة تلو الأخرى ،
تساقط أوراق الخريف .

وظلت هذه البلاد موالية لسلطان دهلي علاء الدين ، ولما توفي ،
وولى قطب الدين مبارك شاه ، وقتل حاكم الكجرات — الب خان — تطلع
أهل الكجرات الى استعادة استقلالهم عن دهلي وأعلنوا الانفصال ،
وقتلوا قائد جيش دهلي كمال الدين جورج ، ولم تعد الكجرات تعترف
بسيادة دهلي ، ولما علم نائب الملك بثورة الكجرات عهد الى عين الملك
موليتاني — حاكم ديفاجيري — بالمسير الى الكجرات ، لكنه علم في
طريقه بوفاة نائب الملك ، فتوقف عن المسير الى الكجرات وعاد أذواجه
الى ديفاجيري (٨٦) .

على أن السلطان قطب الدين لم يتغاض عن اقتطاع ولاية الكجرات
عن دولته ، بل عول على استعادتها ، وأسند هذه المهمة الى ملك
تعلق ، وأمره بالانضمام الى عين الملك ، والمسير الى الكجرات ، واعادتها
الى الطاعة والولاء لدهلي ، ولما بلغت الجيوش السلطانية الكجرات ،
استبد الجزع والخوف بقائد الحركة الاستقلالية ، ففر من الكجرات هو
وأنصاره ، وكان عين الملك قائداً محنكا وسياسيا قديرا ، كتب نداءات
سرية الى ضباط جيش الحركة الانفصالية يطالبهم فيها بقتل قوادهم
والخضوع والولاء لسلطان دهلي ، وذكرهم بأنه ليس من المعقول
أن يتقابل المسلمان بسيفيهما ، واذا لم يعد هؤلاء الى الولاء ، فمن اليسير
جدا على قوات دهلي هزيمة الانفصاليين وسحقهم . ونجحت دعوة
عين الملك ، فقد استجاب كبار الضباط لندائه ، وأقنعوا الجند بالكف
عن القتال حقنا للدماء ، ولما اصطف الفريقان للحرب ، انسحب الكثير
من جند الكجرات ، وانضموا الى جانب القوات الامبراطورية ، الأمر
الذي أضعف من شأن الحركة الانفصالية ، ولم تعد لها سوى فئة قليلة

(٨٦) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .

حاربت بشدة وضراوة الفئة الكبيرة ، وهزم الانفصاليون شر هزيمة ، وفر من نجا منهم الى اماكن نائية في الهند (٨٧) ، وبذلك فشلت الكجرات في الانفصال عن دهلي ، وعادت الى اللولاء والطاعة لسلطانها وبقيت تابعة لسلطنة دهلي .

وأسند السلطان لظفر خان ولاية الكجرات ، واستطاع هذا الوالى بفضل حنكته الادارية وحزمه وقوة بأسه أن يعيد الاستقرار والأمن والطمأنينة الى الكجرات وحكم بالعدل بين الناس ، وعم البلاد الرخاء في عهده ، فالتف الناس حوله ، وأنساهم ذلك أيام الب خان (٨٨) .

على أن الكجرات لم تنعم طويلا بالأمن والسلام ، ذلك لأن المؤامرة التى دبرت لاغتيال السلطان في دكا غيرت سياسته ، وتحول الى حاكم مستبد سريع الشك في نوايا رجال دولته والمقربين اليه ، ومن ضحاياه ظفر خان - والى الكجرات وولد زوجته - شك في اخلاصه ، كما شك في اخلاص غيره ، وكان لقتل ظفر خان وقع سيء على أهل الكجرات ، ففقدوا ثقتهم بسلطان دهلي ، وتبدؤوا ، وحكم البلاد هشام الدين ، فجمع أقاربه وأنصاره ، وأسند اليهم وظائف الاقليم ، واعتمد عليهم في الشؤون الادارية في الكجرات واستاء الناس منه ، ورفعوا شكواهم منه الى السلطان ، فعزله واستبدله بوال آخر ، وتدهورت الكجرات ، وساء حكم دهلي فيها ، وتطلع أهلها الى الاستقلال ، وضعفت حكومة دهلي ، واصبحت في وضع لا تستطيع فيه ادارة ولاياتها وضبط أمورها .

واستقلت الكجرات في نهاية الامر عن سلطنة دهلي ، وتبعها الكثير من الولايات مثل ولاية ديفاجيرى ، واستقل هاربال ديفا Harpal Deva

ولم يتغاض قطب الدين عن موقف حاكم ديفاجيرى الانفصالى عن دهلي ، بل سار بنفسه على رأس جيش كبير لاعادة البلدة الى حوزته ، وسار سنة ١٣١٨ تجاه دكا وأتاب عنه حاكمها في دهلي ، وعول على اخضاع ديفاجيرى ، وحمل امراء دكا وتلنجانا Telingana على أداء الجزية ، واقترب السلطان من ديفاجيرى ، وفي طريقه اليها انضم اليه

(٨٧) تاريخ فرشته ، ص ١٢٩ .

(٨٨) بارانى : تاريخ ليروز شامى ، ص ٢٩٢ .

الكثير من المتطوعين ، فكثر جنده ، وعظم جمعه ، واشتد بأسه ، وخشى حاكم ديفاجيرى الانفصالي من بأس السلطان وسطوته ، ففر مع زوجته الى التلال القريبة ، ودخل قطب الدين ديفاجيرى ، واستعاد سيطرة دجل عليها دون أن تصادفه مقاومة ذات شأن يذكر ، وفر الجند الذين حشدتهم هاربال ديفا في ديفاجيرى لحمايتها ، وخضعت البلدة تماما لداهلى ، ووقع هاربال في الأسر ، وعاقب السلطان المتمردين ، وأعاد الهدوء والسكينة والأمن الى البلدة ونظم أمورها ، وأقام فيها وحدات عسكرية لضمان ولائها الى الدولة ، وعين فيها واليا من قبله (٨٩) .

ولى غياث الدين تغلق للعرش ، وقد تفككت سلطنة داهلى ، واستقلت ولاياتها ، وضعفت نفوذها حتى في البلدان التابعة لها ، فعول على استعادة ممتلكات داهلى ، وبدأ بإقليم الدكن والأقاليم الشرقية ، وأرسل حملة بقيادة ابنه الخ خان الى تلنجانا ، وتمكن من إعادتها الى حوزة داهلى ولم يكتف سلطان داهلى بذلك ، بل سار الى البنغال على رأس جيش كبير ، وأبلى بلغها راي حاكمها ناصر الدين حفيد بغرا خان بن بلبن أن لا طاعة له بجيش داهلى ، فأعلن تخوله في طاعة سلطان داهلى ، وكذلك عادت البنغال الى حوزة داهلى .

وشرع السلطان التغلق في مشروع خطير وهو غزو خراسان والعراقين ، وشجعه على هذا العمل الكبير حكومة المماليك في مصر ، وأعد لهذا الغرض جيشا كبيرا قوامه ٣٧ ألف مقاتل ، وأبقى جيشه تحت السلاح عاما كاملا ولكن المماليك عدلوا عن مطلبهم ، بل تحالفوا مع أبى سعيد ميرزا - صاحب بلاد ما وراء النهر - وأطلقوا يده في بلاد الفرس والتركمان فعاد سلطان داهلى عن قراره (٩٠) .

حرص السلطان التغلق على توسيع رفة دولته ، فأرسل جيشا الى ولاية الهماليا العليا ، ولكن جيشه تعرض لصاعب شديدة ، بسبب الدرد الشديد ، وقتل من جند داهلى كثيرون ، ويقال انه قصد من حملته غزو بلاد الصين للحصول على ثرواتها اللطائلة ، وعادت حملته خاسرة (٩١) .

(٨٩) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ص ٣٩٥ .

(٩٠) تاريخ فرشته ص ١٢٨ .

(٩١) المصدر السابق ص ١٢٨ .

أدى فشل السلطان في مشروعاته إلى ضياع هيئته بين الناس ، فانفصلت عن دهلي الكثير من ولاياتها وبذل السلطان جهودا مضنية لاقترار الأمور في الشمال ، ثم حاول إعادة الدكن إلى حوزته ، وهذه الولاية استقلت عن دهلي وشجعت بلدان الجنوب على أن تحذو حذوها ، وفشل السلطان في إعادة الدكن إلى حوزته ، واستقلت الكجرات كذلك وتوفي محمد تغلق سنة ١٣٥١ بعد أن استقلت معظم ولايات سلطنة دهلي ، ولم يعد لدهلي إلا القليل من هذه البلاد (٩٢) .

ولم يستطع السلطان فيروز استعادة الولايات التي انفصلت عن دهلي إلى حوزته ، لذا أخذت دولته في التفكك والانحلال ، وخلفه سلاطين ضعاف انصرفوا إلى الصراعات الداخلية ، بينما تنفصل البلدان عن دهلي ، الأمر الذي أدى إلى تدهور سلطنة دهلي .

(٩٢) المصدر السابق ص ١٢٩ .

٢ - مع المغول

قبل أن نتحدث عن الغزو المغولي لبلاد الهند يجدر بنا أن نتكلم عن الدولة الخوارزمية ، وعلاقتها بالمغول لما في ذلك من صلة بتطلع المغول لغزو بلاد الهند ، وتوجيه أنظارهم إليها .

أسس الدولة الخوارزمية توشتكين - أحد الأتراك في بلاط ملكشاه - وكان يشغل وظيفة الساقى ، وما زال يترقى في سلك الوظائف ، وكان حسن الطريقة ، كامل الأوصاف ، وقد أدب ابنه محمد ، وأحسن تأديبه ، لذا وقع اختيار أحد قادة بركياروق عليه ليكون حاكما على إقليم خوارزم ولقبه خوارز مشاه سنة ٤٩٠ هـ ، وكان حاكما عادلا ، قصر أوقاته على معدلة ينشرها ، ومكرمة يفعلها ، وقرب أهل العلم والدين ، فازداد ذكره حسنا ومحله علوا ، ولما ملك السلطان سنجر السلجوقي خراسان ، أقر محمد خوارز مشاه على إقليم خوارزم وأعمالها ، فظهرت شجاعته وكفايته ، وعظم سنجر محله وقدره (١) .

لما توفي محمد بن توشتكين ولى ابنه أئسز فمد ظلال الأمن وأفاض العدل ، وقربه السلطان سنجر ، وعلم ابنه واستصحبه معه في أسفاره وحروبه ، فظهرت منه الكفاية والشهامة ، فزاده تقدما وعلوا .

عول أئسز على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية وانتهاز فرصة تهديد الخطا للسلاجقة ، لكن سنجر أحبط محاولته ، وهزمه ، على أن أئسز استجمع قوته ، وانتهاز فرصة سيطرة الخطا على بلاد ما وراء النهر ، واستولى على خراسان ، وجلس على عرش سنجر ، واستولى على أمواله وجواهره سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م ولكن السلطان سنجر استطاع أن يسترد إقليم خراسان من أئسز سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م ، وتعهد أئسز بالاعتراف بسيادة الدولة السلجوقية .

على أن الدولة الخوارزمية أخذت تزداد قوة ، بينما أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانحلال بعد وفاة سنجر ، ومدت الدولة

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة ، واستطاع السلطان الخوارزمي تكش أن يهزم ويقتل آخر السلاطين السلاجقة ، ويستولى على ملك السلاجقة في العراق ، واستولى على أصفهان والري .

ولما توفي تكش سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه ، فسار على سياسة أبيه الرامية الى توسيع حدود دولته ، فاستولى على معظم اقليم خراسان ، واستطاع أن يهزم الخطأ سنة ٦٠٦هـ/١١٠٩م ، ويبسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر . واستولى على اقليم كرمان ومكران ، والأقاليم الواقعة غرب نهر السند وعلى ممتلكات الغور في أفغانستان ، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، إذ امتدت من حدود العراق العربي غربا الى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا الى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوبا (٢) .

على أن الدولة الخوارزمية قد جاورت دولة المغول ولم يكن هناك يد من حدوث احتكاك بين الدولتين .

وكان العالم الاسلامي في ذلك الوقت قد مزقته الانقسامات ، ولم تعد فيه دولة قوية الا الدولة الخوارزمية ، وكان الخليفة العباسي الناصر يخشى بأس هذه الدولة ، لأن خوارزمشاه كان يطمح في بغداد ، فسعى الى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل منه ، بل تقاعس عن نصرته ، ولكن لا يمكن قبول ما أشيع في ذلك العصر من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله حرض المغول على غزو أعدائه الخوارزميين ، وكان من الطبيعي أن تكثر للشائعات في هذه الأيام المضطربة ، وكان السلطان جلال الدين منكبرتي يتهم الخليفة العباسي بأنه يحرض عليه المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه (٣) ، والخليفة العباسي يعلم يقينا أن غزو الدولة الخوارزمية يؤدي بالضرورة الى تهديد الدولة العباسية المتداعية ، ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق .

نشأ المغول في صحراء جوى القاحلة ، وهم شعب اشبه بالترك

(٢) حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٨ .

(٣) بارتولد : تاريخ الترك - آسيا الوسطى ، ص ١٦٠ .

في اللغة والمظهر العام ، وعاش هؤلاء القوم في بلادهم في شخف من العيش ، يعملون بالصيد والرعى في حياة كلها ترحال وتجوال ، وكثر بينهم النزاع والشقاق ، وتكررت اغاراتهم على المناطق الخصبة المجاورة لذا شيد الصينيون سور الصين العظيم درءا لشركهم وحماية لبلادهم من شركهم المستطير(٤) .

ظلت هذه القبائل في منازعاتها وفرقتها حتى ظهر منهم شهاب ريعان شبابيه الغض هو تيموجين ، واستطاع ان يوحد هذه القبائل تحت لوائه ، وهذا الشاب نشأ يتيم ، وكان أبوه زعيما لاحدى قبائل المغول ، ولما توفي انتفض افراد القبيلة من حول تيموجين واستصغروا شأنه واستضعفوه ، وعاش هذا الفتى مع أسرته عيشة يؤس وحرمان وشقاء(٥) وكان عليه أن يتلمس سبل العيش ، وقاسى الكثير من النكبات وهذه المحن أصقلته وأخرجت منه رجلا صلبا شجاعا(٦) .

ولما بلغ تيموجين مبلغ الرجال ، التفت افراد قبيلته حوله لما أظهره من قوة البأس ومضاء العزيمة ، ولم يكتف بذلك ، بل ظل يفاضل حتى تمكن من السيطرة على قبائل المغول ، وقضى على كل الحركات التى تهدف الى عرقلة جهوده ، ولم يأت عام ٦٠٢هـ/١٢٠٦م حتى كان قد أخضع لسلطانه كل بدو صحراء جوبى ، واتخذ من حصن قراقورم مقرا له ووضع نظاما للقبائل الخاضعة له يسمى الياسا وهو دستور اجتماعى وحرى صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان ، وأخير تيموجين الرؤساء بان السماء أضفت عليه اسما جديدا هو جنكيز ، أى امبراطور البشر وأعظم حكام الأرض(٧) .

تطلع جنكيز خان — بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته — الى توسيع رقعة دولته ، وكان المجال الحيوى له بلاد الصين التى تقع جنوب مملكته — حيث الخصب والرخاء والازدهار — فشن عدة حملات

(4) Hart : Mongol Campaigns. p. 705.

(5) Grenard : Gengis-Khan p. 8.

(6) IBID. pp. 7-8.

(7) IBID. pp. 65-66.

على إمبراطورية كين استولى على مساحات شاسعة من بلاد الصين :
وسيطر على بكين سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م (٨) .

أصبحت إمبراطورية المغول القوية تجاور الدولة للخوارزمية العظيمة ، دولة الاسلام القوية الباس ، ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين العظمتين ، ولا بد أن تنفض أحدهما على الأخرى ، ووجد السبب لاشتعال الحرب ، فقد وفد جماعة من التجار من رعايا جنكيز خان الى أترار في الدولة الخوارزمية ، فارتاب فيهم ينال خان — حاكم أترار — وأرسل الى السلطان محمد خوارزمشاه يخبره بالأمر ، فأمره بالقبض عليهم واعدائهم ، على اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيز خان ، وظاهر أمرهم التجارة ، وهؤلاء التجار كان مركزهم خجند وتسير منها قوافلهم الى منغوليا تحمل الى خان المغول الهدايا من نسيج للكتان والديباج ، وكان يشجعهم على ممارسة نشاطهم التجاري (٩) .

ساعت العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار ، وشعر السلطان خوارزمشاه بمغبة قتل التجار ، فأرسل الى دولة المغول جواسيس لاستطلاع قوتهم ، ومعرفة نواياهم ، فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم ، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال ، لا يعرفون الهزيمة ، وأنهم يعملون ما يحتاجون اليه من سلاح بأيديهم .

وعلى الرغم من ذلك فقد تشدد علاء الدين محمد مع جنكيز خان ولم يقبل شروطه في تجنب الحرب ، فقد أرسل جنكيز خان الى خوارزمشاه رسلا يطلب منه تسليم حاكم أترار ، وجاء في رسالة خاقان المغول : « فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان — حاكم أترار — كان من غير أمر صدر منك ، فسلم ينال خان الى لأجازيه على ما فعل حقنا للدماء » لكن السلطان الخوارزمي اعتقد انه لو لطف جنكيز خان ، في الجواب ، لم يزد ذلك الا طمعا فيه ، فتماسك وتجلد ، بل أمر بقتل الرسل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، ويقول الجويني : « ان دمهم أهرق ، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء ، وأن رؤوسهم قد سقطت ، ولكن

(8) Douglas : The story of China. p. 387.

(9) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tom. i. p. 204.

كل شعرة منها ، قد كلف مئآت الألوف من الناس حياتهم » ، ويقول النسوى (١٠) : « فيالها من قتلة أهدرت دماء الاسلام ، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام ، فاستوفى عن الغيظ فيضا ، وأخلى بكل شخص أرضا » .

ونستطيع أن نقول ان الدولة الخوارزمية كانت مستعرض لغزو المغول ، سواء حدثت مذبة أترار أو لم تحدث ، ذلك أن دولة المغول قامت على أساس التوسع والغزو وضم الأراضي إليها بالقوة ، ونعرف من تاريخ المغول أنهم استعروا في ضم البلاد واحتلالها طمعا في ثرواتها وخيراتها ، ولكن مذبة أترار كانت بمثابة الشرارة التي نجرت الموقف بين الدولتين ، وعجلت بغزو المغول للدولة الخوارزمية .

اتسمت غارات المغول على الدولة الخوارزمية بالوحشية والهمجية، وتدمير المسكن والقرى ، وهذا يتضح من كتابات المعاصرين ، ويقول ابن الأثير (١١) : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها .. وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة .. وكان مظهر المغول يدعو إلى الفزع والجزع ، ويلقى الرعب في النفوس ، كانوا قساة مع أعدائهم ، لم يبقوا على أحد من قاهريهم ، وأشاعوا الخراب والدمار في كل بلد ملكوه ، وكانوا يستذلوا أسراهم ، بحيث يجعلونهم في طليعة الجيوش التي يحاربون بها ، وإذا بدأت المعركة يقذفون بهم في المقدمة ، ويتخذونهم دروعا لهم ، حتى تحولت المدن العامرة ، والقرى والمزارع الخصبة إلى صحارى (١٢) ، وقد يقذفونهم في الفجوات التي يحدثونها في أسوار المدينة ليملأوا الخنادق بأجسامهم ، وإذا سلم أحد منهم يتخلصون منه بالقتل ، حتى يفسحوا المجال للأسرى الجدد . على كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر ، وتلك القوى الجامحة العالم الاسلامى واتوا على الأخضر واليابس ، وأهلكوا الحرث والنسل .

أعد جنكيز خان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية ، وقسم جنده

(١٠) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٨ .

(١١) الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧ هـ .

(12) Sykes : A Hist of Persia, p. 56.

الى اربعة جيوش ، الأول بقيادة ابنه جفتاي وأوكتاي ، ومهمته فتح مدينة أترار ، والجيش الثاني أسند قيادته الى ابنه جوجي ، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون (١٣) والثالث مهمته مدينتي بناكت وخجند على نهر سيجون . أما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول ، ويقود جنكيز خان ومعه ابنه تولوي ، ووجهته وسط اقليم ما وراء النهر (١٤) .

سارع المغول الى مدينة أترار ، وشددوا هجماتهم عليها ، وقد اعتصم ينال خان — حاكمها — بقلعتها ، ودافع بكل بسالة ، بل انهك المغول واجهدهم شهرا كاملا بضرباته القوية لهم ، حتى فقد معظم رجاله ، ونفذت المؤن والاقوات وشدد المغول حصارهم للقلعة ، فألقى بنفسه الى سقف أحد المنازل ، وظل يقاتل المغول بكل ما أوتي من قوة حتى قبض عليه المغول ، وسيق الى جنكيزخان — وكان أمام سمرقند — فأمر بسبك الفضة وقلبها في أذنيه وعينه ، فقتل تعذبا ، وبذلك انتقم جنكيز خان من قاتل التجار ، وسقطت مدينة أترار — مفتاح بلاد ما وراء النهر سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م بعد أن قتل المغول سكانها ودمروها تدميرا (١٥) .

سار الجيش الثاني بقيادة جوجي الى مدينة جند على نهر سيجون بعد أن استولى في طريقه على المدن والحصون على ساحل سيجون ، ولما بلغ المغول جند ، رأى قائدها أن لا قبل له بالمغول ، ففادر البلدة تاركا أهلها يدافعون عن مدينتهم ، وأغلق أهلها أبواب المدينة ، وشدد المغول هجماتهم ، ورموها بالمنجنيقات حتى اقتحموها ، وبذلك سقطت جند في أيدي المغول (١٦) .

اتجه الجيش الثالث الى منطقة فرغانة والوادي الأعلى من نهر سيجون ، وحاصر هذا الجيش بناكت ، ولم يجد المغول مقاومة من سكان هذه المدينة ، فاستولوا عليها بسهولة ويسر ، وعلى الرغم من اعطائهم الأمان لأهلها ، الا أنهم قتلوا منهم الكثيرين ولم يبقوا الا على من التمسوا

(13) Harold Lamb the Crusades. p. 337.

(14) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tomi. pp. 217-219.

(١٥) النفوسى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٩١ .

(16) D'ohsson : Histoire Des Mongols. 1. p. 77.

نبيهم المقدرة على خديتهم ، ثم سار المغول الى خجند - وهي مدينة جبيلة اشتهرت بحدائقها الغناء وانتعاش التجارة فيها ، وشجاعة أهلها وقوة بأسهم - وقد قاوم حاكمها الشجاع تيمور ملك المغول بكل بسالة ، حتى ضعفت قسوته ، فامتطى جواده ، واتجه الى خوارزم حيث كان يربط السلطان (١٧) ، ومخلت خجند في حوزة المغول .

سارت جيوش المغول بقيادة جنكيز خان الى بخارى ودارت الحرب بين جند المغول ، والجند الخوارزمي ثلاثة أيام هزم فيها الخوارزميون ، وفر الجند الخوارزمي فضعف أهلها ووهنت عزيمتهم ، واعتصم بعضهم في القلعة ، وشدد المغول هجماتهم عليها ثلاثة أيام ، وقاتل من فيها حتى قتلوا جميعا ، وتسلم جنكيز خان القلعة ، وأمر أعيان المدينة وتجارها بالاجتماع معه وجردهم جميعا من أموالهم ، وطردهم من المدينة ، وقتلوا كل من صادفوه في بخارى من أهلها بعد ذلك ، فنهبوا البلدة وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من النساء والرجال والولدان ، وتفرقوا أيدي سبا ومزقوا شر ممزق ، وأحرقت المساجد والمدارس (١٨) وبعد أن استولى المغول على بخارى ساروا الى سمرقند ، وأمامهم الأسرى مشاة على أقبح صورة ، وكل من عجز عن المشي قتل ، وحاصروا سمرقند ، وبها الكثير من الجند الخوارزمي ، وأعد أهل سمرقند العدة لمقاومة المغول ، ودار قتال شديد بين الفريقين ، هلك فيه أكثر الجند الخوارزمي ، الأمر الذي أضعف مقاومة أهل سمرقند ، وطلبوا الأمان ، وأجابهم المغول الى طلبهم ، وفتحوا أبواب البلدة ، وطلبوا من أهل البلدة تسليم أسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم ، ففعلوا تجنبا للقتل ، ولكن المغول كعادتهم وجبهم لسفك الدماء أعملوا السيف في رقاب الأهلين ، حتى أفنؤهم عن آخرهم ، وأحرقوا الجامع ، وبذلك دخلت سمرقند في حوزة المغول سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠ (١٩) .

وبعد أن امتلك المغول بخارى وسمرقند ، أعد جنكيز خان جيشا يتألف من عشرين ألف مقاتل ، وأمر قائده بالتوجه الى خوارزم مشاه والبحث عنه أينما وجد « ولو تعلق بالسما حتى تتركوه وتأخذوه » ،

(17) Howorth : Hist. of the Mongols 1. p. 77.

(١٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٦١٦هـ .

(١٩) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٨ .

فسارت جيوش المغول تتعقب خوارز مشاه الذى أخذ يضرب فى الأرض ، وينتقل من بلد الى بلد ، وجند المغول تطارده ، وانتهى به المطاف الى الاستنداد — وهى من أمنع النواحي فى اقليم مازندران — وباغته المغول فلجاً الى احدى جزر بحر قزوين (٢٠) وقد انتابه اليأس من الحياة ، ومرض ، وكان يقول : « لم يبق لنا مما ملكناه من اقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر ، فما الدنيا لساكنها بدار ، ولا ركونه اليها سوى انخداع واغترار » . واقام بالجزيرة فى عزلة تامة يعانى المرض وكان أهل مازندران يقدمون اليه كل ما يشتهى ، وقبل وفاته سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م أوصى بالسلطنة من بعده لابنه جلال الدين (٢١) .

ولى جلال الدين منكبرى السلطنة بعد أن سيطر المغول على بلاد ما وراء النهر — أهم أجزاء دولته المتداعية — وامتلكوا اقليم مازندران رغم حصايته ومناعته ، ثم اتجهوا الى الرى ، وفى الطريق التقوا بالملكة ترکان خاتون — والددة السلطان علاء الدين — وقد غادرت خوارزم على أثر تهديد المغول ، ولم ترفيه دار قرار واستصحبها ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه ، وقبض المغول عليها ، واستولوا على ما معها من ثروات هائلة . وهكذا قضت الملكة أيامها الأخيرة فى أسر المغول ، وجدير بالذكر أن ترکان خاتون كانت ذا مهابة ورأى ، تنظر فى المظالم ، وتحكم فيها بالعدل ، وتنصف المظلوم من الظالم ، ولها اصلاحات كثيرة ، وكان لها من كتاب الانشاء سبعة من مشاهير الكتاب (٢٢) .

باغت المغول الرى على حين غفلة من أهلها ، وملكوها ونهبوها ، واسترقوا نساءها ، وقتلوا أطفالها ، ثم غادروها فى طلب خوارزمشاه ، وعاثوا فى البلاد التى مروا بها نهبا وفسادا ، واقتربوا من همذان ، فقدم أهلها للمغول الاموال والهدايا ، حتى يكفوا عن قتلهم ، وسيطر المغول على هذه البلدة ، ثم زحفوا الى قزوين ، واملتكوها عنوة وقهرا (٢٣) ، وبذلك سيطر المغول على بلاد العراق العجمى .

(٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .

(٢١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ، ص ١٠٦-١٠٧ .

(٢٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ، ص ٩٩ .

(23) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tom. i. p. 243.

أثار المغول الرعب في بلدان الدولة الخوارزمية حتى ان اقتربهم من مدينة أو قرية ، يثير الفزع في النفوس ، فيهجرون بلدانهم ، أو يقدمون فروض الولاء والطاعة لأعدائهم ، وبذلك استسلمت البلاد الاسلامية للمغول في سهولة ويسر ، الا أن استسلام الأهلين لم ينجيهم من بطش المغول ، وويلاتهم ، وظل المغول يواصلون تقدمهم حتى بلغوا تبريز — عاصمة أذربيجان — ويحكمها أوزيك بن البهلوان ، وهو شيخ بلغ من العمر أرذله ، يقضى وقته في الشراب ، ولا يكاد يفيق ، ولما اقترب

المغول من بلاده ، أرسل اليهم المال والهدايا والثياب والدواب وصالحهم ثم اتجهوا الى ساحل البحر حيث المراعى الكثيرة اللازمة لدوابهم ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقان ، ودخلوا في معارك حامية مع أهالى بلاد الكرج ، وهزمهم ، وامتلكوا مراغة سنة ٦١٧هـ (٢٤) ، وبذلك سيطروا على أذربيجان وبلاد الكرج .

شرع جنكيز خان بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وبلاد العراق العجمى وأذربيجان الى السيطرة على خراسان وخوارزم حتى يتم له السيطرة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة ، فأعد جيشين ، الأول عبر جيحون وقصد مدينة بلخ ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم المغول سنة ٦١٧هـ ولم يتعرض المغول لهم بالقتل والنهب وادخلوا البلدة في حوزتهم ، وواصلوا تقدمهم في بلاد خراسان ، فسقطت البلاد في أيديهم ، البلدة تلو الأخرى (٢٥) ثم حاصروا مرو ، وشددوا عليها الحصار حتى استسلمت وأمعنوا في قتل أهلها ، ونهبوا البلدة ، وضموا اليهم أرباب الحرف والصناعات من سكان مرو ، ويقال انهم اجهزوا على أهل البلدة جميعهم حتى بلغ عدد القتلى سبعمائة قتيل ، ثم ساروا الى نيسابور ، فامتلكوها بعد حصار دام خمسة ايام ، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبه مع غيرهم ، وأقاموا في البلدة خمسة عشر يوما ينهبون ويدمرون ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا طوس ، وامتلكوها ثم ساروا الى هراة ، وبسطوا سيطرتهم عليها ، ومنها اتجهوا الى غزنة ، فالتقوا

(٢٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧هـ .

(25) Howorth : Hist of the Mongols. p. 93.

بالمسلطان جلال الدين منكبرتي ، ودارت معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعدائه(٢٦) .

أما الجيش المغولي الذي اتجه الى خوارزم ، فقد لقي مقاومة باسلة من أهلها ، ودارت بين الفريقين معارك ضارية ، وصعد أهل خوارزم للحصار الذي دام خمسة أشهر ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وبلغ الأمر بالمغول أن أرسلوا الى جنكيز خان يطلبون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير ، وتمكنوا من الاستيلاء على خوارزم بعد لآى وعناء ، وبعد أن امتلك المغول خوارزم بعد هذا الجهد والشاق والتضحيات الكثيرة قتلوا كل من فيه ، ونهبوا كل ما فيه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل فتحوا ماء جيحون على خوارزم فغرقت البلد ، وتهدمت الأبنية ، ولم يسلم من البلدة أحد ، فمن اختفى من النار أغرقه الماء ، ومن سلم من الماء قتله الهدم ، فأصبح البلد خرابا يابا ، كأن لم يكن بالأمس(٢٧) .

ولى السلطان جلال الدين منكبرتي — كما رأينا — فى وقت حرج ، إذ استولى المغول على معظم المملكة ، ونهبت خزائنها ، ومزق جيشها ، وكان جلال الدين شجاعا مقداما ، اعتزم استرداد ملكه للسليب ، وطرد الغزاة المعتدين عن بلاده ، واستطاع جمع شمل جنده البعثين فى البلدان الخوارزمية ، وأقام فى غزنة بعد أن استردها من المغول ، ونظم جيشا قوامه ستين ألف مقاتل ، وقد أزعج ذلك جنكيز خان ، فعول على التخلص من خصمه ، وأرسل جيشا الى غزنة ، ألقتى بالجيش الخوارزمى فى معركة حامية لوطيس ، أنزل الله فيها نصره على المسلمين ، وانهزم المغول شر هزيمة ، وقتل المسلمون منهم كثيرين(٢٨) ، وكان لهذا النصر أهمية كبيرة فى البلاد الإسلامية التى فرقها هزائم المغول المتكررة ، وعاش أهلها فى يأس وقنوط وتمزق فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين ، دتتظنوا وثاروا على المغول ، وقتل أهل هراة واليهيم المغولى(٢٩) .

سار جلال الدين على سياسته الرامية الى طرد المغول من بلاده ،

(26) D'ohsson : Histoire des Mongols. 1. p. 325.

(٢٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٦١٧ هـ .

(28) D'ohsson : Histoire Des Mongois. tom. i. p. 267.

(29) IBID p. 268.

وأرسل إلى جنكيز خان يتوعده ويهدده ويقول : « في أي موضع تريد يكون الحرب حتى نأتى إليه » فلم يتغاض جنكيز خان عن هذا التهديد ، وشن الحرب من جديد على جلال الدين الذي أصبح يشكل خطرا على مملكته المترامية الأطراف ، ولكن السلطان الخوارزمي انتصر مرة أخرى على جيش جنكيز خان ، وقتل الكثير من المغول ، وغنم الخوارزميون ما معهم واسترد للمسلمين أسراهم من العدو ، لكن الخوارزميين انشغلوا بجبع الفنائم ، وكانت تفوق كل وصف ، وتنازع جند السلطان حول الفنائم نزاعا أدى إلى انقسام خطير في الجيش وعجز السلطان عن تداركه ، وفارق فريق من الجيش الخوارزمي المعركة بقيادة بفرق إلى بلاد الهند ، وحاول جلال الدين عبثا أن يثنى هذا الرجل عن عزمه ، وأوضح له خطورة عمله هذا على الاسلام والمسلمين ، والحث عليه في ترك الخلافة والشقاق بل بكى بين يديه (٣٠) ، لذلك ضعف أمر جلال الدين بفارقة معظم جيشه له ، ونهض إليه عدو الله بجيوشه ، ودارت المعركة بين الجمعين على حافة نهر السند ، وكادت أن تدور الدائرة على المغول ، لولا أن نصب جنكيز خان كميناً أدى إلى قتل كثير من الخوارزميين ، وحلت الهزيمة بالمسلمين ، وكان الرجل منهم يأتي النهر فيهبى بنفسه في قباره ، وهو يعلم أنه لابد غريق « وأن ليس له إلى الخلاص طريق » وأسر ولد جلال الدين ، وكان غرا في الثامنة من عمره وقتل بين يدي غريمه جنكيز خان ، ولما عاد جلال الدين إلى حافة السند كسيرا ، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بأعلى صوتهن : بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن ففرقن ، « وهذه من عجائب البالاي ونوادير المصائب » (٣١) . وعبر جلال الدين نهر السند مع أربعة آلاف من رجاله متجهين إلى الهند « حفاة عراة كأنهم أهل النشور » حشروا فبعثوا من القبور ، وقد أعادت الهزيمة التي لحقت بالخوارزميين إلى المغول هيبتهم ، واستردوا قوتهم ، وأمتلكوا غزنة التي كانت خالية من الجند ، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم ، وأسروا النساء ودمروا البلدة تدميرا ، حتى أصبحت غزنة خرابا دمارا (٣٢) .

اعتزم جلال الدين استرداد قوته في بلاد الهند ، واستعان بسلطان دهلي . لكن التمش توجس خيفة من جلال الدين ، وقضى في الهند ثلاث

-
- (٣٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٥ وما بعدها .
 - (٣١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٨ وما بعدها .
 - (٣٢) المصدر السابق .

سنوات ، واشتبك مع سلطان دهلى فى عدة معارك وخشى قباجة — حاكم السند — من اقامة الخوارزميين فى ولايته ، لأنها قد تؤدى الى تعقب المغول لهم ، وما ينجم عن ذلك من خطر داهم على بلاده ، ولكن جلال الدين أوقع بهم للهزيمة ، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم الى الهند ، والنيل منه ، سار الى دهلى ، وسأل سلطانها — التمش — أن يعطى جنده حق الاقامة فى دهلى ، لكن السلطان المملوكى اعتذر بحجة أن حرارة الجو فى دهلى لا تناسب الخوارزميين ، ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم جند الترك فى دولته الى سلطان الخوارزميين جلال الدين منكبرى . وأرسل اليه يراوغه ويوادعه ويقول : ليس بخفى ما وراءك من عدو الدين ، وأنت اليوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم ، ولست أستحل أن أكون عليك عوناً للزمان ، وعدة للحدثان ، ولا يليق بمثلى أن يجرّد السيف فى وجه مثلك الا اذا اضطره اليه دفاع أو ساقه اليه تحرز واقتناع ، وإن رأيت زوجتك بابنتى لتحتمك للثقة (٣٣) .

وعلم السلطان جلال الدين أن التمش — سلطان دهلى — وسائر ملوك الهند وراجاتها وأصحاب ولاياتها قد تأمروا على طرده من ديارهم ، ولم يتفاض جلال الدين عن موقف سلطان دهلى العدائى منه ، فاشتبك مع قواته بالقرب من دهلى ، ثم انسحب الى لاهور ، وكثر جمع جلال الدين بما وفد عليه من الجند التابعين لأخيه غياث الدين — حاكم العراق — كذلك انضمت اليه قبائل الكهكية الهندية — وكانوا ناعمين على قباجة — فكثرت جمعه واشتد بأسه ، وعظم أمره ، وتمكن من انتزاع بعض البلدان من والى السند (٣٤) .

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه الى الهند ، الاقامة فيها ، وإنما كان يهدف الى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته ، ويعود الى بلاده وقد وافته الفرصة للانتقام من المغول ، وشن الحرب ضدهم ، واستعادة ملكه للسلبيح حين توفى جنكيز خان — قاهر الخوارزميين — وأعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل اقاليم الدولة

(٣٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ، ص ١٦٨ .

(٣٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ، ص ١٦٨-١٦٩ .

الخوارزمية الى مواطنها الاصلية ، فعير جلال الدين نهر السند سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ، وقصد ايران ، واشتبك مع المغول في عدة معارك (٣٥) .

عادت معظم بلدان الدولة الخوارزمية الى خوزة للسلطان جلال الدين منكبرتي ، ولجا اليه حكام المدن والبلاد الخوارزمية يعطون ولاءهم ويهتجهم بالتخلص من حكم المغول وأبقى بعضهم على ما بيده ، وعزل بعضهم « وأقربت أيام السلطان عن الناس الكرب ، وأطفأت من نيران الفتن ما التهب ، وتفرقت العمال والوزراء في الاطراف بتواقيع السلطان فضبطوها » (٣٦) .

وبذلك استرد هذا السلطان الشجاع ملكه وسلطانه على اقنايم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، على أن يلاذ ما وراء النهر بقيت في أيدي المغول .

خلف اجتاي Ogtai جنكيز خان ، وعول على استرداد البلاد التي آلت الى جلال الدين ، وسير جيشا كبيرا الى الري فانزعها ، واستولى على همدان سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وطارد المغول للسلطان جلال الدين ، وتعبوه في موقان وتبريز وفي أذربيجان ، واتجسد الى آمد ، فهزمه المغول هناك ، وشردوا رجاله ، وقتل المغول كل من تبعه في فراره ، وظل السلطان يقتل من بلد الى بلد ، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه ، حتى وصل الى جبال كردستان ، وقد شك فيه بعض الأكراد وأخذه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به ، فحين هموا بقتله ، قال لكبيرهم سرا : « انى انا السلطان فلا تستعجل في امرى ، ولك الخيار في احضارى عند المسك المظفر شهاب الدين ، فيفنيك ، أو ايصالى الى بعض بلادى فتصير ملكا » فرغب الرجل فى ايصاله الى بلاده ، وتركه عند امراته ومضى بنفسه الى الجبل لاحضار خيله ، ولكن هاجم المنزل رجل من الأكراد ، وقتله بعد أن تعرف عليه ، ثارا لمقتل اخ له على يديه سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م (٣٧) .

(35) D'ohsson : Histoire Des Mongols. tom. iii. p. 11.

(36) IBID.

(٣٧) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٨١ .

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع ، وبوفاته زالت الدولة الخوارزمية .

تتابعت انتصارات المغول وفتوحاتهم ، واستولوا على أذربيجان وبلاد أران وغالبية مدن جورجيا وأرمينية الكبرى ، وزحفوا الى شمال العراق ، وهددوا أقاليمه الشمالية ، واشتبكوا عدة مرات مع جيش الخلافة العباسية لاختبار قتها .

وبعد أن هز جنكيز خان بفتوحاته أركان الدول مرض سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م وشعر بدنو أجله ، فاستدعى أولاده ، وأوصاهم بأن يخلقه ابنه أكتاي لمزية رأيه المتين وعقله الرزين ، وأوصاهم بقوله : « اعلموا يا أولادى الجياد انه قد قرب سقري الى دار الآخرة ودنا أجلى ، وأنا بقوة الاله والتأييد السماوى استخلفت مملكة عزيزة ... فوصيت اليكم انكم على رأى واحد حتى تعيشوا فى نعمة وعز ودلال » (٣٨) .

لما توفى جنكيز خان شكل أبناءه وأفراد أسرته مجمعا يسمى قور يلتاي ، واجمعوا على مبايعة أكتاي خلفا لأبيه حسب الوصية ، ولقبوه قاتاآن ، أى ملك أو سلطان ، وفى سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م توفى هذا السلطان وخلفه ابنه كيوك ، فقسم المملكة بين أولاده وأخوته ، وأقطع البلاد الغربية وتحصيل الأموال لهولاكو ، وولى أرغون أقاليم الهندوستان وخراسان ومازندران والعراق وفارس وكردستان والموصل والشام ، وفى عهد هذا السلطان نجت بلاد الهند من شر المغول .

عهد منكوقان — خاقان المغول فى قراقورم — لأخيه هولاكو بالتوجه الى العراق والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن ، والسيطرة عليها ، وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيز خان وقوانينه فى الكليات والجزئيات .

زحف هولاكو بجيشه الى بغداد ، وقضى فى طريقه على طائفة الاسماعيلية سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٢م ، وهاجم بغداد وكان الخليفة العباسى المستعصم بالله رجلا لين الجانب ، ضعيف الوطاة ، سهل العريكة ، قليل الخبرة ، واقتحم المغول حاضرة الاسلام الكبرى ، ودمروا وخربوا المساجد

(٣٨) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول - ص ٤٢٨ .

والتصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة ، وأباحوا القتل وسفك الجماء أربعين يوماً ، واندلعت في بغداد السنة الثيران في كل جانب . وأتت على الأخضر واليابس ، ودمرت بغداد وخربت ، ، ويسقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٤م زالت الدولة العباسية ، وضعف أمر المسلمين ، وقصد أمراء المسلمين هولاكو ، وقبضوا له فروض الولاء والطاعة حتى لا يتفرضوا لأعمال المغول التخريبية .

وتعرضت بلاد الهند لتهديد المغول بعد سقوط بغداد ، فقد سمعوا عن ثروتها ، وأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده ، وبقي في دهلي لا يغادرها ، وحصن دهلي حتى لا تتعرض لما تعرضت له بغداد من ويلات وشرور ، وأعاد بناء القلاع التي دمرت على الجحود بسبب غزوات المغول السابقة ، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح ، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات وأسند القيسادات العسكرية إلى رجال أكفاء ، وعين ابنه الشجاع محمد جاكما على الملتان ، وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير في درء خطر المغول عن بلاد الهند (٣٩) .

على أن العلاقات السياسية عادت وتحسنت بين الدولتين المغولية والملوكية في الهند ، وأرسل هولاكو سفارة إلى دهلي محملة بالهدايا ، واتفق الطرفان على احترام السيادة الإقليمية لكل منهما واتسحب المغول من الأراضي الهندية التي كانوا قد احتلوها (٤٠) .

تطلع المغول في فارس إلى السيطرة على بلاد الهند للحصول على ما فيها من ثروات هائلة ، وتقدم عبدالله - حفيد هولاكو - خان فارس - بجيش قوامه ١٥٠ ألف مقاتل إلى بلاد الهند ، وحينما علم جلال الدين خلجي - سلطان دهلي - بذلك أعد العدة لدفع الخطر عن دياره ، وغادر عاصمته دهلي ، واشتبك الطرفان في عدة معارك صغيرة ، قصد منها اختبار كل من الفريقين لقوة الآخر ، ثم وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين ، هزم فيها المغول ، ومزقوا شرمين ، ووقع من نجا من المعركة في الأسر ، ومن بينهم الكثير من فرسان المغول وقادتهم ، ودارت

(39) Munshi : The Struggle For Empire. p. 193.

(40) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193.

مفاوضات بين الفريقين انتهت بترتيب اجتماع بين عبدالله وجمال الدين ، واجتمع الزعيمان ودارت مفاوضات مباشرة ، انتهت باتفاق ودى بمقتضاه عاد عبدالله الى وطنه ، وبقي المغو — وهو من أحفاد جنكيز خان — مع بعض الجند في بلاد الهند ، واعتنق الاسلام وزوجه جمال الدين واحدة من بناته ، والتحق هو وأربعمئة من رجاله بالسلطان الخلجي في دهلي بأسرهم ، واستقبلوا خير استقبال ، وأقام لهم سلطان دهلي مستعمرات يقيمون فيها وهي غازبور — أندرايت — كلغاري — تالوك ، وسميت أرض المغول — مغول بورا — واحتلوا بأهل سلطنة دهلي ، وسموا بالمسلمين الجدد(٤١) .

عاد خطر المغول يدق أبواب الهند من خانات جغتاي في بلاد ما وراء النهر ، وتاريخ أولاد جغتاي ناقص ويحيط به الغموض ، وليس لدينا من المعلومات الصحيحة عنه الا ما ورد بخصوص الغارات على حدود إيران أو الهند ، وكذلك الصراع الداخلى بين أمراء آل جغتاي .

على أن تلك الغزوات المغولية في بلاد الهند لا يمكن مقارنتها بتلك التي حدثت في عهد السلطان علاء الدين ، فقد اتسمت بالعنف والقوة والقهر ، ففي سنة ١٢٩٧ أرسل دلفا — خان بلاد ما وراء النهر — جيشا يتألف من مائة ألف مقاتل الى البنجاب بقيادة قائده كادار Kadar واخترق الجيش المغولى — كما جرت العادة بلاد الهند من ناحية الشمال الغربى — وأحرقوا القرى التي مروا بها ودمروها تدميرا ، ثم دخلوا سهول البنجاب ، وعاثوا حول لاهور فسادا وتخريبا ، وكان زحف المغول في الهند يلقى الفزع والرعب في أرجائها ، فيهجرون قراهم ويتركون ديارهم ، ويخشون من التصدى للمغول اعتقادا منهم أنهم قوم لا يقهرهم ، وأن من يعترضهم لا محالة هالك(٤٢) .

أعد السلطان علاء الدين للعدة لدرء خطر المغول عن بلاده ، وأسند قيادة جيشه الى يلغ خان ، وسيره الى مواقع المغول في الهند ، والتقى الجمعان في معركة حامية الوطيس بالقرب من جيلندهار ، وهزم فيها المغول

(41) Lal : pp. 30-31.

(42) Lane Poole : Muhammedan Dynasties. p. 215.

شر هزيمة ، ويقال أن عدد قتلى المغول بلغ ٢٠ ألفا ، وأسر عدد كبير من مقاتليهم ، قتلوا جميعا في مذبحه مروعة ، وأرسل القائد بلغ خان إلى السلطان علاء الدين رسالة يبشره فيها بالنصر ، وأرسل أيضا إلى دهلي رؤوس قتلى المغول ، والسبي من النساء والأطفال (٤٣) .

ومما لا شك فيه أن هذا النصر المؤزر قد انتقد مملكة دهلي من كارثة مروعة كادت أن تعصف بها ، كما أدى هذا الانتصار إلى تقوية مركز علاء الدين في دهلي أمام أعدائه المتربصين به (٤٤) .

على أن المغول لم يقفوا عن هذه الهزيمة المروعة التي حلت بهم ، بل تحنوا للفرص المناسبة للانتقام من سلطنة دهلي ، ففي سنة ١٢٩٩ ، انتهز المغول فرصة انشغال القائدين بلغ خان ونصرت خان في اخضاع اقليم الكجرات ، واخترق جيش المغول بقيادة سالد Sald حدود الهند ، وشنوا حربا على سلطنة دهلي تحدث عنها فرشته وباراني (٤٥) ، بينما لا يذكر أمير خسرو مجرد إشارة عن هذه الحملة ، ومهما يكن من أمر فقد هاجم المغول اقليم سيفستان فأمر السلطان علاء الدين قائده بالمسارعة إلى سيفستان لصد المغول عنها ، وطردهم من الهند ، وأدى ظفر خان واجبه الوطني خير أداء ، فشدد هجماته على المغول حتى هزمهم وأعلن رجالة السيف في رقابهم كيف شاعوا ولاذ من نجس منهم بالفرار ، ووقع في الأسر كثيرون ، واسترد ظفر خان سيفستان وأرسل إلى دهلي الأسرى من الجنسين ، ومن بينهم القائد سالد وأخيه (٤٦) .

وتتضارب أقوال المؤرخين عن غزو المغول للهند في هذه الفترة فيقول فرشته أن دانا - خان ما وراء النهر - وأخاه سالد استوليا على سيفستان ، بينما لا يذكر باراني أن دانا كان مع أخيه سالد في غزو سيفستان ، والواقع أن دانا كان طسوال هذه الفترة متمشولا بالصراعات السياسية في وسط آسيا ، وأرسل أكثر من قائد من قواده

(43) Lat : Hist of the Khaljis. p. 130.

(٤٤) باراني : تاريخ فيروز شاهي ، ص ٢٥٢ .

(٤٥) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .

باراني : تاريخ فيروز شاهي ، ص ٢٥٧ .

(46) Lat : Hist. of the Khaljis. p. 132.

المخربين لضم سيفستان إلى حوزته (٤٧) ، كما أن دافا لا يمكن أن يستسلم للحرب بسيطة كالتي حدثت أمام سيفستان . ويذكر باراني وفرشته أن سالدي وأخاه أسرا وسيقا إلى دهلي حيث قتل . كما جرت المعادة مع أعداء السلطنة . ومن ناحية أخرى فقد بقي دافا على قيد الحياة حتى سنة ١٣٠٦م (٤٨) . وعلى ذلك فلا صحة لما قاله فرشته بأن دافا كان مع سالدي في الحرب أمام سيفستان . أما المؤرخون فيذكرون أنه كان على رأس المعركة سالدي وأخاه ، ولا يذكرون اسم دافا ، يضاف إلى ذلك أنه لو كان دافا على رأس المعركة لبرز اسمه في روايات الرواة وكتب المؤرخين (٤٩) .

وأثار انتصار ظفر خان في هذه المعركة إعجاب الناس ، غير أن علاء الدين أخذ يتوجس شكاً وريبة من قوة ظفر خان ومقدرته الحربية ، كما أن القائد يلغ خان شعر بنفس شعور السلطان أيضاً ، لأن انتصار ظفر خان على المغول ، قد أنسى الناس انتصاره هو — أي يلغ خان — في الكجرات والملائن ، ومهما يكن من أمر فقد عسكر ظفر خان في سامانا Samana لمراقبة تحركات المغول في الغرب ، لأن المغول لن يتغاضوا عن الهزائم التي لحقت بهم في الهند ، لكن السلطان علاء الدين تناسى فضل هذا القائد الشجاع ، وفكر في سبل عينيه أو إبعاده إلى البنغال (٥٠) ، ولكن التطورات السياسية الجديدة جعلت هذا القائد يعدل عن موقفه البيغض من قائده الشجاع (٥١) .

قلنا أن ما وراء النهر المغولية لا يمكن أن تتغاضى عن الهزيمة المروعة التي لحقت بجيشها أمام سيفستان ، فقرر خانها الانتقام من هذه الهزيمة وإزالة العار الذي لحق به ، ففي سنة ١٢٩٩م أرسل جيشاً كبيراً بقيادة كتنلق وأجى — ابنة — إلى الهند ، وعدة هذا الجيش عشرين ألف مقاتل ، مدرين خبيرين تدريب (٥٢) ، وعبر الغزاة نهر السند ، وحققوا

(٤٧) تاريخ باراني ، ص ٢٥٥

(٤٨) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .

(٤٩) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .

(50) Hist. of the Khaljis. p. 133.

(51) IBID. p. 234.

(٥٢) باراني ، تاريخ فيروز شامي ، ص ٢٥٤ .

بسرعة حتى اقتربوا من دهلي دون أن يزعموا القرى التي مروا بها ،
واقترب خطرهم وشرهم من دهلي ، الأمر الذي أدى إلى فزع وجزع أهل
دهلي والقرى المجاورة لها ، فهجر بلدته كل من تيسر له الهجرة ،
وحاصر المغول دهلي (٥٣) وحشدت الحكومة الهندية عددا كبيرا من
الجند والمتطوعة حتى امتلأت العاصمة بهم ، بل لم تستطع الحكومة تدبير
اقامة الكثير منهم . وفي نفس الوقت تشدد المغول حصارهم لدهلي ،
واستولوا على البضائع والمؤن والمعدات التي حملتها القوافل المتجهة إلى
دهلي (٥٤) . الأمر الذي أدى إلى قلة الأتوات في دهلي ، وبالتالي رفع
الأسعار ، فناشد السلطان علاء الدين ولاية الأتاليم بارسال الميرة والمعدات
إلى دهلي بسرعة وبدون إبطاء ، وفي نفس الوقت بذل جهودا مكثفة لتقوية
وسائل الدفاع عن الحاضرة الإسلامية الكبرى ، وعهد إلى أحد رجاله
المقربين بأن ينوب عنه في حكم دهلي ومنحه سلطاته بصفة مؤقتة ، ريثما
ينتهي من الحرب ، وخرج هو على رأس جيشه إلى Kili ، وعسكر
بالقرب من القوات المغولية بقيادة كتلج خواجي (٥٥) .

وكان الجيش الهندي يعسكر في موضع آمن من Kili وتحصينه
الحشائش والأدغال والغابات من كل جانب ، وانضم حكام البنجاب
والملتان وسامانا بجندهم إلى سلطان دهلي ، وانضم إليه بعض راجات
الهنود من أقدر المحاربين وأشجعهم ، وقسم علاء الدين قواته إلى
فرق ، ووزع القيلة بينها ، وأمر كل جندي بالآي يروح موضعه بدون أمر
منه ، وبث علاء الدين روح الحماس بين جنده ، وحثهم على التضحية
بالنفس لدرء الخطر المغولي عن ديارهم ، وأدار المعركة بكفاءة ومهارة
وشجاعة (٥٦) ، وعلى الرغم من ضغط المغول على قواته ، وشدة عنف
هجماتهم ، فإن الدائرة دارت عليهم ، ومزقوا شر ممزق ، ولم ينج منهم
إلا الشريد ، وأعمل فيهم المسلمون السيف كيف شاءوا حتى أفنواهم ،
وتمكن علاء الدين من فك أسر المسلمين الهنود ، وأنقذهم من شرورهم (٥٧) .

على أن ظفر خان الذي كان يقود أحد أجنحة الجيش قد انفرد

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(55) Lal, p. 137.

(٥٦) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .

(٥٧) تاريخ فرشته ، ص ١٠٣ .

بحرب فريق من المغول يفوق جنده عددا ، لذا أمر رجاله بشن هجوم يائس على العدو وتقهقر المغول أمام هجماته القوية ، فتمكن منهم ونكل بالكثيرين ، وفي نفس الوقت أعد كميناً للمغول أثناء انسحابهم ، سقط فيه حوالي عشرة آلاف ، ومع ذلك كان جيش ظفر خان لا يزيد عن ألف فارس ، وجيش المغول أضعاف عددهم . ولم يكتف ظفر خان بما أحرزه من نصر بل اعتزم الدخول بجنده القليل مع العدو في معركة فاصلة ، ورفض كل الرفض فكرة الانسحاب من المعركة حتى لا يعاقبه السلطان بتهمة الجبن . ودارت معركة يائسة بين الفريقين حمى فيها وطيس القتال (٥٨) ولم يكن الفريقان متكافئين بسبب قلة عدد جند دهلي بالنسبة للمغول ، وقتل مع ذلك من الهنود ثمانمائة ، ولم يبق مع ظفر خان سوى مائتين ومع ذلك ظل يواصل القتال بجنده القليل ، وأظهر من ضروب البطولة والشجاعة ما صار مضرب الأمثال ، فقد قتل من المغول في هذه المعركة الضارية خمسة آلاف مقاتل ، وظل ظفر خان يحارب حتى قتل حصانه فوقف على قدميه ، وواصل الحرب ، وتحدثت المصادر المعاصرة عن شجاعته حديثاً يدعو إلى الإعجاب ، ولم يحظ القائد الشجاع بتقدير الهنود فقط ، بل أعجبت شجاعته ومقدرته القتالية الأعداء أيضاً . ولما ضعف ظفر خان عن المقاومة ، ولم يعد في استطاعته مواصلة القتال ، ولاحظ قائد المغول ذلك ، أرسل إليه يعرض عليه العفو والأمان ، ويطلب منه الدخول في خدمته ، لكن القائد المسلم للشجاع رفض هذا العرض ، وأثر أن يموت في ميدان القتال شريفاً غير خائن ، شهيداً في سبيل الله والوطن ، وفعلاً ظل يقاتل حتى قتل .

وبعد هذا النصر المؤزر عاد علاء الدين من كيلي ولم يزعجه نبأ مقتل ظفر خان ، لأنه يخشى بأسه ويشك في نواياه نحوه ، ومما لا شك فيه أن هذا الانتصار الخلجي الرائع على المغول قد جنب بلاد الهند من ويلاتهم وشرهم المستطير فترة من الوقت ، حتى أن المغول أمضوا وقتاً لم يفكروا فيه في غزو الهند ، بعد أن وقفوا على حقيقة قوة سلطنة دهلي ، وكفاءة سلطانها ، وعظم بأسه ، ومقدرة جيشه القتالية ، وانصرف المغول إلى شؤونهم الداخلية في وسط آسيا .

على أن علاء الدين لم يطمئن إلى فترة الهدوء التي انصرف فيها

(٥٨) المصدر السابق .

المغول عن الهند ، بل ظل يتربص هجوما متوقعا منهم ، ويتتبع الأحداث السياسية في وسط آسيا ، وفي نفس الوقت يعد العدة ، ويتأهب عسكريا واقتصاديا لغزو مغولى مفاجئ (٥٩) .

وباقتراب سنة ١٣٠٢ سار علاء الدين الى دكا عن طريق البنغال ، وهاجم شيتور في مستهل سنة ١٣٠٢ م ، وهناك علم بان المغول أعدوا قوة ضاربة لغزو سلطنة دهلى من جديد (٦٠) .

وجاء الغزو المغولى في وقت حرج للغاية بالنسبة للسلطان علاء الدين ، ذلك ان جيشه قد أنهكه الهجوم على شيتور ، وتبدت الكثير من معداته ومؤنه ، كما ان الجند مات أو مرض أكثرهم أثناء عودتهم الى دهلى عن طريق صحراء الثار القاحلة ، واقترب المغول من دهلى بقيادة تارغى Targhi على رأس ١٢٠ ألف جندي وكان علاء الدين ان يعد العدة بسرعة لانقاذ دهلى من هذا الخطر الداهم (٦١) ، وأصدر أوامره الى ولاية الأتسليم في دولته في الشرق والغرب لارسال النجيدات الى العاصمة ، والاستعداد لقهر الغزاة المغول ، ودفعهم عن البلاد .

واقترب المغول من دهلى ، وأثار قائدهم حماس جنده ، وحثهم على الانتقام مما لحق بكتلخ خواجى وجنده ، ودعاهم الى الحرب بشجاعة وحماس حتى لا تتكرر مأساة الهزيمة المروعة السابقة ، وحتى يمكن الانتقام لقتلهم . وقد فزع علاء الدين من هذا الهجوم لأن النجيدات التى طلبها من ولاية الأتسليم لم تصله بعد ، فجمع جنده في سهول سيري Siri كما أبقي فريقا من الجند في دهلى . ولما كان من الخطورة محاربة المغول في أرض مكشوفة وجها لوجه بسبب قلة جند دهلى بالنسبة للعدو ، فقد قرر علاء الدين تقوية وسائل الدفاع عن المدينة ، وكانت أضعف نقطة دفاعية عن دهلى تقع في شمالها ، أما الجهات الأخرى فتحيط بها الأدغال والغابات والمستنقعات ، وقد أقام علاء الدين خندقا حول دهلى . وبذلك

(٥٩) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٦١ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٦١) Lal : Hist. of the Khaljis, p. 300.

وجد المغول صعوبات بالغة وأهوالاً جسيماً في البحث عن نقطة ضعف تمكنهم من اقتحام دهلى (٦٢) .

وأحكموا الحصار حول دهلى من جميع جوانبها ، وازداد حرج علاء الدين ، النجذات لم تصله ، وجيشه الذى أرسله إلى البنغال عاد ممزقا ، ومنع المغول الماء عن دهلى ، وكذلك الميرة وكل ضروريات الحياة ، وكان المغول يسكرون في جماعات في بلدان سلطنة دهلى ، وينهبون مخازن الحبوب فيها ، بل أرسلوا فرقة نهبت مخزن الحبوب الملكى ، فعم القحط دهلى ، واشتد اليأس ، وقاسى الناس ويلات البؤس والحرمان ، وضعفوا ووهنوا ، على أن الخطوط الدفاعية الحصينة التى أقامها علاء الدين حول دهلى لم تمكن المغول من اقتحامها .

ودارت بين الفريقين عدة مناوشات لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، ولما طال الحصار ، رأى قائد المغول أن اقتحام دهلى أمر صعب ، ويكلفه ما لا يطيق ، بسبب قوة استحكامات علاء الدين ، لذا نجد قائد المغول يقرر الانسحاب بعد شهرين من الحصار (٦٣) ، وبذلك أنقذ الله دهلى من خطر داهم وشر جسيم .

وقد اختلف المؤرخون في تعليل انسحاب المغول على الرغم من تفوقهم الحربى والعددى عن جيش علاء الدين ، وعن احكامهم الحصار لدهلى ، ومنع الماء والقوت عنها . وقد أرجع المؤرخ ياراتى هذا النصر إلى الدعوات المخلصة للشيخ نظام الدين الذى عرف عنه التقوى والورع . وعلى كل حال يمكن تعليل انسحاب المغول إلى عدة عوامل ، منها أن السلطان علاء الدين تصدى للمغول بكل ما أوتى من قوة ، ورفض الاستسلام ، وأحكم خطة الدفاع ، ومن هنا رأى قائد المغول عدم جدوى الاستمرار في الحصار . كما أن تقوية وسائل الدفاع — كما رأينا — قد أحبط محاولة المغول دخول دهلى . ومن ناحية أخرى فإن معارك المغول في الهند كانت خاطفة وسريعة حتى لا يؤثر استمرار الجيش المغولى في الهند على موقفهم الحربى في وسط آسيا .

على أن الغزو المغولى قد دفع علاء الدين إلى تقوية وسائل الدفاع

(62) IBID. pp. 140-141 .

(٦٣) ياراتى : تاريخ فيروز شاہى ، ص ٣٠٢-٣٠٣ .

في مملكته تجنبنا لتكراره من جديد . فقد شيد حصنا وقصرا في سيرى ، ونقل مقر قيادته هناك ، حتى أن سيرى عرفت بالعاصمة ، وشيد علاء الدين أسوارا عالية ، وضخمة حول البلدة لمنع الغزاة المغول من اقتحامها ، وأصلح القلاع القديمة ، وشيد حصونا على حدود دهلي لمنع المغول من اجتياز الهند من جديد ، وحشد الجنود والضباط في القلاع والحصون الشمالية ، لمنع المغول من غزو الهند ودرء خطرهم وأعاد تنظيم الجيش وتسليحه ، بأحدث وأقوى المعدات المتطورة وقتئذ .

وبعد أن أعد علاء الدين عدته لهذا الأمر اطمأن الى أن المغول لن يلحقوا بالهند من الولايات ما حدث قبلا ، بل أصبح مستعدا لتلقيهم درسا قاسيا اذا فكروا في غزو الهند ، وتعريضهم للمقتل والتفكيك والتشريد « ويقع نساؤهم أسرى في أيدي المسلمين ، ويمزق رجالهم سيوف المسلمين وتدمرهم الفيلة » (٦٤) .

على أن المغول قد استاءوا من الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم من سلطنة دهلي ، وعولوا على ضرورة الانتقام من علاء الدين ، فسيروا جيشا كبيرا بقيادة علي بك Ali Beg وتارغى وسارتاك ، وكان تارغى يتعطش للثأر والانتقام مما لحق به سنة ١٣٠٣ من خيبة أمل وهزيمة وقتل كتلغ خواجى . ومهما يكن من أمر ، فقد شن المغول حملتهم على الهند سنة ١٣٠٥ ، في حملة لا تقل ضراوة وشراسة عن حملاتهم السابقة ، ضم جيشهم خمسين ألف مقاتل ، وعبر المغول المنطقة الجبلية في شمال غرب الهند . ويذكر أمير خسرو أن تارغى لقي مصرعه في بداية الحرب ، واتجه الجيش المغولى الى دواب ، وعاث المغول نهبا وفسادا في البلاد التي مروا بها ، وألحقوا بها الخراب والدمار ، وقد تجنب المغول مهاجمة دهلي لمناعتها وحصانتها ، وأيقنوا من ذلك في هجومهم عليها سنة ١٣٠٣ ، وساروا مباشرة الى الدواب وأودة — وهما أعظم بلاد المملكة خصبا ورخاء — ولما اقترب المغول من المدينتين ، أخذ الفزع من سكانها كل مأخذ ، وعمهم الهلع ، فهجروا ديارهم الى القرى والغابات المجاورة (٦٥) .

وحينما علم السلطان علاء الدين بأنباء هذا الغزو المدمر وفزع الأهليين

(٦٤) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٢٧٣ .

(٦٥) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٣٢٠ .

منه ، أعد جيشا من ثلاثين أو أربعين ألف مقاتل لدرء الفزاة عن أرض الوطن والقتى جيش دهلئ مع جيش المغول فى معركة حامية الوطيس ، هزم فيها المغول هزيمة نكراء ، ومزقهم المسلمون كل ممزق فى أواخر سنة ١٣٠٥ (٦٦) ، وقتل فى المعركة أكثرية جند المغول ولاند من نجا منهم بالفرار ، وقد غنم المنتصرون خيولهم ووقع قائدا المغول على بك وتارتاك فى أسر المسلمين وسيقا الى دهلئ مكبلين بالسلاسل والأغلال (٦٧) .

وكان لهذا الانتصار الرائع صدى عميقا فى نفوس أهل الهند ، وعقد سلطان دهلئ مجلسا يضم كبار رجال الدولة من الأمراء والوزراء وقواد الجيش واستعرض الجيش المنتصر بالمغانم التى غنمها من العدو ، وسارت الأسرى فى موكب أمام مجلس السلطان ، واجتمع الناس من كل مكان للمشاركة فى هذا الاحتفال الكبير ، وأمر علاء الدين بعرض موكب الأسرى فى دهلئ ، ثم قتلهم بعد ذلك . ويقول فرشته أن ثمانمائة رأس مغولى استعملت بدلا من الحجارة لتشيد قصره فى سبرى ، على أن السلطان أمر بحبس قائدى الجيش ، وأنزلهما فى دار خصصها لهما ، ولم يلبث أن أمر بقتلهما .

ولم يكد علاء الدين يتنفس الصعداء من هذا الغزو المغولى الذى تحدثنا عنه ، حتى غاد المغول من جديد فى سنة ١٣٠٦ لمهاجمة بسلاده انتقاما من مقتل على بك وتارتاك وجند المغول ، ورجت الحملة المغولية بقيادة كوباك واجتاز بلاد الهند بجيش قوى ، وسار الى رافى Ravi وخرّب البلاد التى مر بها ، وتحرك فريق من المغول جنوبا ، وبلغوا ناجور Nagaur وأحدثوا الرعب فى القرى المجاورة لهذه البلدة .

وكان طبيعيا ألا يتفاضى السلطان علاء الدين عن اجتياز المغول لبلادہ فأرسل جيشا لتبّعهم ، وطردهم من مملكته ، وأسند قيادة جيشه الى ملك نائب كافور وحرص علاء الدين على بث روح الحماس بين جنده الذين أضناهم كثرة الحروب ، بل أمر بدفع منح مرضية لجنده ، وتقّدم جند دهلئ صوب جند المغول ، ووقف الفريقان وجها لوجه ، ودارت رحى معركة بين الفريقين ، انتهت بانتصار جيش دهلئ على جند المغول

(٦٦) تاريخ فرشته ، ص ١١٣

(٦٧) تاريخ فرشته ، ص ١١٣

انتصارا حاسما ، وتقهر جيش المغول مغادرا بلاد الهند نهائيا ، وعاد المغول الى بلادهم يجرون اذيال الفشل والخيبة ، وعاد الجيش المظفر الى دهلي مصحوبا بعدد ضخم من اسرى الحرب . ويقول فرشته ان عدد الاسرى المغول قدر بالآلاف . ولما كان علاء الدين شديد الغضب من غزوات المغول المتكررة والتي اشاعت الخراب والدمار في القرى والبلدان ، فقد كان انتقامه من الاسرى كبيرا ، فأمر بقتلهم تحت أقدام الفيلة ، وبيع نساء وأطفال المغول في أسواق النخاسة بالهند ، وشيد من جماجم المغول برجاً أمام إحدى بوابات دهلي (٦٨) .

وهذه الغزوة ، آخر غزوات المغول في بلاد الهند ، وحدث معظمها في عهد دافا خان الذي ولي عرش بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٧٢ ، وتوفي سنة ١٣٠٦ ولقد اضطربت بلاد ما وراء النهر بعد وفاته ، وتعاقب على العرش في مدى ثلاث سنوات ثلاثة خانات ، ولكن غزوات المغول في بلاد الهند توقفت بعد وفاة دافا وأنقذ الله سلطنة دهلي من ويلاتهم وأعمالهم التخريبية وانتهى الوقت الذي كان يعيش فيه الأهليون في رعب وقزع ، ومما لا شك فيه أن جهود علاء الدين المضنية وشجاعته النادرة هو وقواته كان لها أثر كبير في برء كل محاولة بذلها المغول للنيل من بلاد الهند . ولما كانت غزنة وكابل تشكلان أهمية استراتيجية كبيرة على أمن الهند وسلامته من ناحية الغرب فقد شرع علاء الدين في احتلالهما . . ونعلا بسط سلطانه على البلدين . وبذلك وضع حدا لما كانت تتعرض له الهند من حروب تنش عليها من الحدود الشمالية الغربية وبالذات من غزنة وكابل (٦٩) .

ويجدر بنا أن نناقش أسباب الهزائم المتلاحقة التي حلت بالمغول من جيوش سلطنة دهلي ، وأسباب فشلهم في احتلال بعض أجزاء من الهند ويمكن القول أن اسطورة جيش المغول الذي لا يقهر قد فات أوانها وولت أيامها ، بعد أن فقد المغول قدرا كبيرا من قوتهم ترجع في معظمها الى الانقسامات الشديدة بين خانات المغول ، وإلى انقطاع الصلة بين خان المغول في بلاد ما وراء النهر ، والخان الأعظم في الصين ، فمسلا عن أن خان بلاد ما وراء النهر شغلته الأحداث السياسية في وسط آسيا

(٦٨) تاريخ فرشته ، ص ١١٢

(٦٩) تاريخ فرشته ، ص ١١٤

عن تركيز جهوده في الهند ، ويقال أن دافا غزا وسط آسيا خمسين مرة ، ولما رأى أن حروبه هناك لا جدوى منها ولا طائل ، أنفذ جيوشه إلى الهند ، وكان ينضم إلى جيش المغول في الهند عناصر غير مدربة على القتال ، وهي الكهكية والأفغانية ، وهؤلاء لا يهتم سوى التخريب والتدمير والحصول على منافع شخصية ، يضاف إلى ذلك أن نوعية الجندي المغولي قد اختلفت عنها في الأيام المبكرة لدولتهم والتي اكتسبتهم صلابة وقوة بأس وبالتالي نجاحا وتفوقا ، وفقد جند المغول ما عرف عنهم من سرعة الحركة والصبر على القتال ، وتحمل الشدائد ، ويتجلى ذلك في حروبهم في الفترة ما بين سنتي ١٣٠٠-١٣٠٣م فقد استطاع علاء الدين أن يتصدى لهم ، ويحضر كل محاولاتهم التوسعية ، ويوقف كل هجماتهم ، وتعددت معاركهم معهم ، وانتصاراته عليهم ، حتى نفد صبرهم وفقدوا القدرة على مواصلة غزو سلطنة دهلي ، لذا انسحبوا من ميدان القتال مخذولين مدحورين (٧٠) .

يضاف إلى ذلك أن دافا الذي كان يباشر الحرب بنفسه في وسط آسيا ، لم يفعل ذلك في الهند ، لذلك لم يتعرف على طبيعة الحرب فيها ، ففى الوقت الذي تفوق فيه في وسط آسيا ، هزمت جنوده في الهند مرات ومرات . وبعد وفاة دافا حدث تنافس على العرش في بلاد ما وراء النهر ، صرف المغول عن فكرة غزو الهند ، ولقد فطن علاء الدين إلى أهمية أفغانستان بالنسبة للهند لأنها قاعدة اتخذها المغول لشن حملاتهم على الهند ، فاستولى على غزنة وكابل — كما ذكرنا — وبذلك أمنت البلاد من غزو المغول الذي كان يأتيها من هذه الجهات عادة (٧١) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن علاء الدين كان رجل حرب ورجل دولة ، يضع الخطط الحربية المحكمة ، ويبث روح الحماس في جنده ، ويعد جيشه خير أعداد ، فضلا عن شجاعته وفكائه وصبره الذي لا ينفد .

وتعرضت سلطنة دهلي للغزو المغولي في عهد السلطان محمد بن تغلق عقب وفاة أبيه . ففي سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م اقتحم تومشير خان

(٧٠) تاريخ قرشته ، ص ١١٦ .

(٧١) باراني : تاريخ فيروز شامي ، ص ٣٢٢-٣٢١ .

ابن داود خان — زعيم قبائل الأولوس الجغتائية الذائع الصيت — بلاد الهند على رأس جيش كبير واستولى على لغمان والملتان عند الحدود الشمالية الغربية وواصل زحفه في بلاد الهند متجها الى دهلى .

ولم يكن محمد بن تغلق على استعداد لصد القائد المغولى عن بلاده ، فأرسل وفدا الى القائد المغولى محملا بالهدايا والأموال اليه ، وما زال مبعوثو السلطان يقاض المغول حتى اقتنعوه بالعودة عن الهند ، فانسحب بجيشه الى بلاده .

الفزو التيمورى لبلاد الهند

ينتمى تيمور لنك الى فرع كركن ، ونشأ فى قرية كشى ، وكان أبوه شيخا لاحدى القبائل ، ونشأ تيمور منذ نعومة أظفاره على التمسك بتعاليم الاسلام ، وظهرت شجاعته وتجايبته فى ريعان شبابه الغض ، وقد يت فيه والده تعاليم وطنية بضرورة تقويض أركان الدولة المغولية ، وكان طموحا يتطلع الى المجد والعظمة ، استوعب منذ صغره كتب الحكمة العالية والقوة الخارقة ، وحمل نفسه على الاباء والحذر من المحيطين به ، كان يمضى وقته فى تلاوة القرآن الكريم والصيد والعاب الفروسية والشطرنج .

ارتفع شأن تيمور فى بلاد ما وراء النهر حتى تقلد بعض المناصب الرئيسية واسند اليه الأمير حسين حفيد الأمير الجغتائى قزغان ولاية كشى ، ولكنه لم يستمر فيها فقد طرد منها ، ولم يلبث أن عاد اليها بعد لأى وعناء ، ولم يكتف بولايته ، بل سيطر على سجستان وبلخ ، وبذلك ازداد نفوذه وارتفع شأنه وقوى أمره وكثر رجاله ، واشتبك فى عدة حروب مع أعدائه ، وما زال ينتقل من نصر الى نصر حتى تمكن من طرد الجغتائى نهائيا من بلاد ما وراء النهر بعد موت تغلق تيمور ، ودخل مدينة سمرقند وأعلن نفسه سلطانا سنة ١٣٦٩م .

واتسع ملكه بأن امتد الى ايران والعراق ، وقضى على الدويلات الصغيرة فى تلك الانحاء ، وبرزت فيه آثار القدرة والدهاء والعظمة « بعد أن قارع الملوك ودوخ الممالك » .

تطلع تيمور الى بسط نفوذه على بلاد الهند لما لها من موارد اقتصادية هائلة ، وقد واثته الفرصة بعد وفاة غيروز شاه — سلطان دهلى — والاضطرابات والقتال التى أعقبت وفاته ، وتقدمت طلائع جيشه سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م الى حصن أوكا ، واستولت عليه ، ثم اتجهت الى الملتان ولم يستطع حاكمها دفع التيموريين وسقطت الملتان فى أيدي قوات تيمور ، وتقدم جند تيمور فى بلاد الهند وسقطت فى أيديهم الحصون والبلاد التى مروا بها ونهبوها ثم استولوا على سرستى وأبادوها ،

وسقطت في أيديهم فتح آباد ، ثم جاء دور هراة ، فلما بلغها تيمور نزل إليه ولد ملكها غياث الدين بالامان فاستولى عليها ، واستصحب تيمور معه ملكها الى سمرقند (١) .

أعد تيمور العدة لغزو دهلي ، وسار اليها بجيش كبير ، فخرج سلطانها محمود تغلق من حاضرة دولته لدرء خطر المغول وجمع الخيل والرجال وفرق الأموال وأحضر ما في بلاده من الأفيال ثم حصن مدائنه ، وجد في المسير « حتى كاد يسبق الطير ولم تعترضه صعوبات ، والتقى بجيش دهلي وقدم الهنود الفيول لتفنى الخيول ، وخلف الأفيال الهنود فوارس الحرب وأبطال الطعن والضرب » ولما أطلع تيمور على قوة العدة وشدة بأسه وحسن استعداداته ، عمل الحيلة والمكيده ، فلما تراءى الجمعان ، نكص على عقبيه متظاهرا بالانسحاب ونصب الكمائن لعدوه وسقط الهنود في كمائنه ، فانقض عليهم تيمور وجنده وأبادهم ومزقهم كل ممزق ودخل تيمور دهلي ، وقدم له أعيانها وعلماؤها فروض الولاء والطاعة ، وأقيمت الخطبة له في مساجدها ، وبذلك دخلت دهلي في حوزة الدولة التيمورية (٢) .

على أن جنود تيمور نهبوا منازل دهلي وأسواقها ، واستباحوها ، ووفد على المدينة الكثير من الهنادكة بأسرهم واستاء الهنود في دهلي من جند تيمور ، وأعد الهنادكة العدة لمقاومتهم فقتلوا نساءهم وأطفالهم ، وأغلقوا أبواب دهلي ودارت حروب بين الأهليين والغزاة ، قتل فيها من سكان دهلي ما يقدر بحوالى مائة ألف ، ومتلأت دهلي بجثث القتلى ، وتحولت الى بحر من الدماء ، وأعقب ذلك تفشى الأوبئة ، ونهب جند تيمور كل ما وقع في أيديهم من ثروات دهلي الهائلة وأعقب ذلك سقوط أقاليم سلطنة دهلي في أيدي تيمور ، وزار تيمور عاصمة الاسلام الكبرى بعد ما لحقتها الخراب والدمار ، ونظم أدارتها وعاد الى سمرقند وفي صحبته مهرة الصنّاع والمعماريين .

وذكر تيمور في سيرته بعد أن فتح دهلي : لقد قضيت خمسة عشر يوما في دهلي بين مظاهر الفرح والنعيم ، أعقد مجالس البلاط الملكية ،

(١) ابن عربشاه : عجائب القصور في أخبار تيمور ، ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ، من ٦٩-٦٨ .

وأقيم الاسمطة العظيمة ، ثم ذكرت اننى اتيت الى هندوستان لشحن
الحرب على الكفار وقد بارك الله هذه الحملة ، فجعل النصر حليفى ،
والظفر يتبعنى اينما ذهبت ، ولقد انتصرت على خصومى ، وقتلت بعض
مئات الألوف من الكفار وعبداء الأصنام ولطخت سيف الدعوة بدماء
اعداء الدين . الآن وقد تم هذا النصر المبين ، اشعر أنه لا يحق لى أن
أخلد الى الراحة ، بل ان ابذل جهدى لشحن الحرب على كفار هندستان (٣) .

الحياة الثقافية في سلطنة دهلـى الإسلامية

ازدهرت الحياة الثقافية في بلاد الهند قبل قيام الدول الإسلامية فيها حتى ان المسلمين يعتبرون الهند احدى الأمم الأربع التى لها اهتمامات علمية ، وقد برع الهنود فى الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ، وذكر المسعودى (١) أن جماعة من أهل العلم والنظر اعتبروا الهند الفرة التى فيها الصلاح والحكمة ، وكان الهند كما يقول القفطى (٢) مغدنة الحكمة وينبوع العدل والسياسة .

وكانت قصور الراجبوت غاصة بالشعراء والأنبياء ، وتدور أشعارهم حول قصص البطولات وشرف الأنساب ، والانتصارات على الأعداء وإخلاص النساء ونحو ذلك ، وازدهرت الحياة الأدبية فى شمال الهند ، وظهر شاعر بنغالى اسمه جايا ديفا وقد وضع مسرحية « تشيد البقر » وتدور حول تقدير الإله كرشنا ومحبته للفتيات اللاتى يحلن البقر ، وقد أحب واحدة منهن ، وجذبته بسحرها وجمالها ورفقاتها ، حتى أنه أثار البقاء معها ونسى موطنه (٣) .

ومن الملاحم الشعرية الرائعة كتاب « المخطط من القصص » ويشبه ألف ليلة وليلة وضعه الشاعر سوماديف .

ولما ظهر الإسلام فى بلاد الهند ، انتشرت الثقافة الإسلامية بها ، على أن الفتوحات الفزنوية فى بلاد الهند ، صاحبها ازدهار الثقافة الإسلامية ، ذلك أن السلطان محمود الفزنوى لم يأل جهداً فى تشجيع الحركة العلمية فى بلاده ، فزين غزنة بأجمل ما حصل عليه من نفائس الهند ، وأعاد تشييد مسجدها الجامع على أحسن صورة « وأضاف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل حجراتها من بساط الأرض إلى سقوفها على

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ .

(٢) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(3) Rawlinson : op. cit., p . 206.

تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين منقولة من خزائن الملوك السابقين يتناولها فقهاء وعلماء غزنة بالتدريس « (٤) » .

وبلغ من اهتمام السلطان محمود بن سبكتكين بتشجيع الحركة العلمية أن بعث في طلب جماعة من رجال العلم والفلسفة ، فكان من بين الذين وفدوا إليه أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني ٣٦٢/٤٤٠هـ (٥) . وقضى البيروني بداية حياته في خوارزم حيث ولد فيها — وقرية إليه أميرها ، ونبغ في كثير من العلوم وبخاصة الرياضيات والفلك ، وزار حوالي سنة ٣٩٠هـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير — أمير طبرستان — الذي عرف بتشجيع العلم وأهله ، وألف له « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ويبحث هذا الكتاب في التواريخ التي كانت تستعملها الأمم ، والاختلاف في الشهور والسنين والتقويم عند الأمم ، ونظم الطوائف والجماعات المختلفة ، والاحتفال بالأعياد القومية ، ولما اتصل البيروني بالسلطان محمود الغزنوي ، استفاد من فتوحاته في بلاد الهند فائدة علمية كبيرة ، وجعل ثروة الهند العلمية الكبيرة في الرياضيات والفلسفة والآلهيات في يد العرب والفرنج بما ألفه في ذلك من كتب لا تزال خير مرجع لكل من كتب عن الهند ، وكان البيروني في هذا درة في الدولة الغزنوية كابن سينا في الدولة السامانية (٦) .

نبغ البيروني في كثير من العلوم وخاصة الرياضيات والفلك ، وجدير بالذكر أنه كان يزهد في المال إلا ما يكفيه حاجته وأهدى كتابه « القانون المسعودي » للسلطان مسعود ويبحث في الرياضيات والفلك وفلسفة الهند ، فأجازه السلطان بأموال كثيرة فردها معتذرا بعدم حاجته إليها ، وقيل عن البيروني أن القلم لم يكذب يفارق يده ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر إلا في الأعياد ، لا يمل الاستزادة من العلم ، وقد تعلم عدة لغات ، ففى كتبه عن العقاقير والجواهر اسم الشيء بالعربية واليونانية والسريانية والفارسية والتركية ، ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة ، فيمدح اللغة العربية بحسن أدائها للمعاني ، ويفضلها على الفارسية (٧) .

(٤) العتبي : تاريخ اليميني ، ج ٢ ، ص ٢٩١-٢٩٩ .

(٥) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٧٩-٨٠ .

(٦) أحمد أمين : ظهور الإسلام ج ١ ص ٢٨٧ .

(٧) K. Ali : A New History of Indo-Pakistan. p. 32.

Habib : Sultan Mahmud of Ghazain. 55.

ومن أشهر كتب البيروني « الجواهر في الجواهر » ، وكتاب « تاريخ الهند » وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأخذ ينقل منها إلى العربية ، ومن العربية إليها ، فنقل إلى السنسكريتية نظريات أقليدس وغيره من الفلك ، ونقل إلى العربية من السنسكريتية بعض المصنفات القيمة . ومن أبرزها « تحقيق ما للهند من مقولة في العقل ومردوله » قارن فيها بين رياضة الهند وفلسفة اليونان ، ولقد استقى البيروني معلوماته عن الهند من المراجع السنسكريتية الهندية مباشرة ، ويلاحظ عليه أنه لا يعترض ولا يتقدم مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية ، وبعد ذلك نشر البيروني كتابه بالعربية والفارسية « التفهيم في صناعة التنجيم » وقد أهداه للسيدة ربحانة الخوارزمية ، وأهدى كتابه عن الأحجار الكريمة للسلطان مودود بن مسعود (٨) .

وكان للبيروني علم تام بمدارس بغداد والبصرة العلمية ، إلا أن نظريات أولئك العلماء كانت متأخرة بالقياس إليه ، وظل مؤمنا بالتنجيم ، مشاركا معاصريه في ذلك ، وقد أدرك البيروني أن المعتقدات الدينية ترجع إلى أسباب واحدة في كل مكان ، وكان يهتم بالفارق الكبير بين الخواص والعوام في كل موضع ، فهو لا يعترض ولا يتقدم مطلقا ، حينما يشرح العقائد الدينية ، وإذا قارن دينا بدين آخر ، فانما يقارنهما مقارنة علمية محضة . وعلى ذلك يمكن القول بأن منتجات البيروني العلمية تحتل مكانة ممتازة من حيث وفرة موادها ، وما فيها من الاعتناء بتطبيق الأصول العلمية ، على أن البيروني كتب مؤلفاته بلغة عسيرة جدا ويقول البيروني أنه ألف كتبه للعلماء لا للعوام (٩) .

ولقد أطلال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند من الاعتقاد بالله والموجودات العقلية والحسية ، وتعلق النفس بالمادة ، والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار وكيفية الخلاص من الدنيا ، وقارن بين عقائد الهند والإسلام والصوفية والنصرانية (١٠) . ويذكر البيروني : أن التناسخ من أهم معتقدات الهند ، وإن الروح تنتقل من بدن إلى بدن ، وفي كل بدن تستفيد معلومات وخبرات ، وتنتقل من الأزل

(٨) براون : تاريخ الأدب الفارسي ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٩) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، ص ٢٤ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

الى الأفضل . وقد ربطوا للشواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ ، فقالوا ان الأرواح الشريرة قتردد فى النبات ومردول الطير والهوام الى أن تستحق الثواب ، فتتجو من الشدة ، وتنقل الى ما أرقى (١١) .

وقال البيرونى : أنه رأى أن فلكيى الهند لا يبحثون فى العلل ، وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يقتبس هذا العلم من الهنود ، وقد قال فى هذا الصدد : كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتى فيما بينهم ، وقصورى عما هم فيه ، فلما اهتديت قليلا أخذت أوقفهم على العلل وأشير الى شىء من البراهين ، وألوح لهم بالطرق الحقيقية فى الحسابات فانتالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين ، وكادوا ينسبون الى السحر (١٢) .

وصفة القول أن البيرونى كان من كبار العلماء الذين ظهوروا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فلم يترك علما لم يؤلف فيه ، وكان الى جانب ذلك يؤلف بالعربية لا الفارسية ، لأن العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية (١٣) .

واشتهر من رجال الفلسفة فى الدولة الغزنوية ابن الخمار ، كان نصرانيا ، نقل كتب كثيرة من السريانية الى العربية ، واشتهر بالطب وألف فيه ، كما ألف فى المنطق والإلهيات (١٤) .

وعنى سلاطين دهلى بتشجيع الثقافة الإسلامية ، فقد أنفق السلطان المملوكى الشمس أموالا طائلة فى كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون فى متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها ، وأسس العديد من المدارس ، وزين بلاطه بالشعراء والأدباء وأصبحت دهلى فى عهده مركزا هاما للفنون والآداب

وحرص السلطان بلبن على عقد مناظرات بين الشعراء والأدباء والعلماء ، وكانت تلقى فى بلاطه الأشعار ، وتقرأ الكتب التاريخية القيمة

(١١) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

(١٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٨٧ ، ص ١٨٠-١٨١ .

(١٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص ٢١٦ .

(١٤) تاريخ بارانى ، ص ٣٥٩ .

كالشهنامة للفردوسي وديوان ستائى والخاقانى وخمسة نظامى ، ومن أبرز شعراء هذا السلطان الشاعر خسرو دهلوى .

ازدهرت الحياة الثقافية فى عهد الخلاجيين ، وتميزت بظهور إنتاج أدبى غزير ومتنوع ، وضم بلاط السلطان علاء الدين الكثير من العلماء والأدباء ، وشهد عهده الكثير من الفلاسفة والحكماء والشعراء والمؤرخين والمترجمين والأطباء والفلكيين . ولم يجتمع على باب أحد سلاطين دهلوى من رجال العلم والفقه والأدب ما اجتمع على باب علاء الدين ، وكان يصل كل واحد منهم بأجل صلة ، ويرفعه الى أعلى مرتبة .

والكثير من أدباء ذلك العصر غير معروف لدينا الآن ، إلا أننا نلاحظ أن أدباء ذلك العصر كانوا يكتبون بالفارسية — لغة الثقافة فى ذلك العصر — وكان أمير خسرو — بلا جدال — أعظم شعراء عصره ، وفاق معاصريه من أهل الأدب ، ولقد حظى بتقدير الناس ممن عاصروه وبلغت شهرته الآفاق ، وتعددت مواهبه ، فكان شاعرا جمعت أشعاره فى مجلدات منها الخماسيات وهى أشعار خماسية ذات خمسة أبيات ، ويذكر بارانى أن أمير خسرو أضاف إلى الشعر والأدب الفارسى إضافات على جانب كبير من الأهمية ، ويعتبره أمير شعراء الهند ، ومن أشهر دواوينه « أعجاز خسروى » ، « نهاية الكمال » ، « خزانة الفتوح » .

نشأ خسرو شاعرا بطبيعته ، ونلمس فى شعره عواطفه الانسانية ودقة الإحساس والعواطف. وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب ، وتظهر براعته ، وعمق ثقافته ، وتفوقه فى اللغات فى أشعاره بعضها بالهندية وأخرى بالفارسية وأخرى بالعربية وكان له ثنائيات فى أشعاره تتضمن نظما بالفارسية وآخر بالهندية أو العربية ، ولقيت ثنائيات تقديرا عميقا فى الهند وشغفا كبيرا فى مدارسها ، وكانت بعض ثنائيات تتحمل أكثر من تأويل ، وكان ينفق الألفاظ القوية لأشعاره ، ويختار التركيبات اللغوية الجميلة الوقع . ومما يدل على براعته الأدبية أن أشعاره لم تفقد رونقها وتأثيرها فى النفوس حتى الآن (١٥) .

(15) Lal : op. cit., p. 240.

ومن شعراء ذلك العصر البارزين ، حسن سيحزى ، وكان موهوباً ،
ويقترّب من أمير خسرو في المرتبة الأدبية ، ولقد تفوق في الشعر والنثر
على السواء ، واتصفت كتاباته وأشعاره بالوضوح ، يعبر عن فكرته
بأسلوب سهل ، يدركه القارئ دون عناء ، لذا كانت تسرى أشعاره في
الناس بسرعة سريان الشمس في النهار ، وكان يعيش حياة بسيطة ، وله
ذاكرة عجيبة ، وقلب كبير ، وله أعمال أدبية كبيرة ، غير أن ديوان
Favidul Fuad من أعظم إنتاجه ، وقدّر له الخلود حتى الآن .

ومن شعراء ذلك العصر صدر الدين علي فخر الدين وحيد الدين
راجا ومولانا عارف وعبيد حكيم وشهاب انصاري ، ولكل من هؤلاء
أسلوبه واتجاهه وطريقته في التعبير ، ومن كتاب النثر عین الملك مولتانی
— قاهر مالوا — وكان يكتب بأسلوب رصين والفاظ متممة .

نبغ عدد من المؤرخين في العهد الخلجي ، نخص بالذكر منهم أمير
أرسلان كولاهي ، وكبير الدين بن تاج الدين عراقی ، والاول كان دقيقاً
فيما يرويه من معلومات ، لذا فقد كان مصدرها ما عن تاريخ علاء الدين .
وأما الثاني ، فكان يكتب بالعربية والفارسية ، ونبغ في اللغتين ، وله
مصنفات كثيرة وعلى جانب كبير من الأهمية ، وتعتبر من أدق المراجع
عن حروب علاء الدين ، واغزرها مادة ، وكان يعمل في جيش علاء
الدين (١٦) واتيحت له الفرصة أن يطلع على حروب السلطان الخلجي
مباشرة وينفسه ، لذا اشتملت كتاباته على تفاصيل كثيرة ومعلومات
غزيرة عن تلك العهد ، ووضع كتابه « فتح نامه » على مرأى ومسمع
من السلطان علاء الدين ، وقد أشاد بأعماله وانتصاراته ، وبالبح في مدحه
والثناء عليه ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية هذا الكتاب ، فقد كان أهم
مرجع عن هذه الفترة التي شاهدها المؤلف وعاصرها ، واعتمد عليه
باراني في كتابه « تاريخ فيروز شاهي » وصنف أبو عمرو عثمان منهاج
السراج صاحب « طبقات ناصري » وغلّام يحيى بن أحمد صاحب تاريخ
مبارك شاه .

ومن مؤرخي ذلك العصر أمير خسرو وضياء الدين باراني وقد عاصرا
السلطان علاء الدين ، ولهما مصنفات أدبية وتاريخية يشار إليها بالبنان .

(١٦) تاريخ باراني : ص ٣٦٠ .

وقد وضع بارانى بالاضافة الى كتابه « تاريخ فيروز شاساهى » كتاب « السنة المحمدية » وكتاب « نعم الله وآياته » وكتاب « مآثر السادة » و « تاريخ البرامكة » وله كتاب آخر عن الأحكام السلطانية ويشمل القيم والمبادئ والتبوانين والسياسات والنظم التى يجب على الحكومات الاسلامية اتباعها ، ويرجعها كلها الى الشريعة الاسلامية (١٧) .

أما المؤرخون الذين كتبوا بالهندية أو السنسكريتية فقد فقدت معظم مؤلفاتهم ولكن حفظت الأيام لنا أعمال هامير رازاز سارانجبارا فى القرن الرابع عشر واشعمار مولى داود الذى كتب حوالى أواخر القرن الثالث عشر . وقد لقى هؤلاء الكتاب أضواء ساطعة عن العصر الذى يكتبون فيه ، وإن كانت هذه الكتابات قد تضمنت أساطير وخرافات كثيرة .

ونلاحظ أن الأدب الدينى ازدهر فى هذا العصر ، وكتب علماء الدين عن أسانفتهم ، وترجموا لهم ، وأبرزوا فضلهم ، وتحدثوا عن تراثهم ، فكتب الشيخ فريد شكار جونج عن استاذة الشيخ نظام الدين أوليا . ومن تلاميذ الشيخ نظام الدين أوليا أمير خسرو ، وحسن السجزى والشيخ نظير الدين شيرازى الدهلوى . وجدير بالذكر أن أمير خسرو كتب Afzalul Favaid — وتضمنت مجموعتين الأولى عبارة عن محادثاته مع الشيخ نظام الدين فى الفترة ما بين سنتى ٧١٠هـ وسنة ٧١٣ ، والثانية منذ سنة ٧١٩هـ حتى سنة ٧٢١هـ . أما Favaidul Fuad فهى مجموعة الأحاديث بين الشيخين نظام الدين أوليا وحسن سجزى فى الفترة ما بين ٧٠٧—٧٢٢ .

ولقد لقى هذا الكتاب تقدير المعاصرين : وأقبلوا على قراءته والاستفادة منه بشكل منقطع النظير ، ولم يخف أمير خسرو إعجابه بهذا الكتاب . على أن Miftahul التى صنفها نظير الدين فمن المحتمل أن صاحبها صنفها بعد وفاة الشيخ نظام الدين وكتب نظير الدين شيرازى كتابا آخر أسماه « خير المجالس » كتبه سنتى ١٣٥٢ — ١٣٥٣ . ومن روائع الكتب وأحسنها التى صنفها عن الشيخ نظام الدين أوليا ، كتاب

(17) Lal : op. cit., p. 341.

(18) Lal : op. cit., p. 342.

« سيرة الأوليا » كتبه أمير خورد ، وهو تلميذ وفي للشيخ ترجم عن استاذة في كتابه هذا بعد وفاته بكثير (١٩) .

وهذه الترجمات الرائعة لشيخو العصر وعلمائه التي كتبها تلاميذهم بعناية وحذق ، لها أهميتها الاجتماعية والثقافية ، فهؤلاء الكتاب يمثلون عناصر مختلفة في المجتمع واتجاهات فكرية متنوعة ، لذا عكست كتبهم مظاهر الحياة الاجتماعية في عصرهم ، والاتجاهات الثقافية في هذه الفترة ، وأوضحت الحياة اليومية ، فضلاً عن أنها مصدر غني للمعلومات عن هذا العصر (٢٠) .

أما الكتاب الهنود في القرن الرابع عشر الميلادي ، اشتملت كتاباتهم على نثر وشعر باللغة السنسكريتية ، ويتضمن الفولكلور الشعبي وقصص الأبطال والروايات الأسطورية للممالك والولايات الهندية ، ولقد كتب سار نجهارا (٢١) Sarangdhaar كتابين ، الأول هامير كافيي والثاني هامير رازو الذي وصف المقاومة العنيفة ، وضروب البطولة والشجاعة الخارقة التي أظهرها هامير ديفا ، حينما غزا علاء الدين رائنمبهور ووضع أيضاً ديوان شعر سنة ١٣٦٣ . ومن أبرز شعراء الهند في القرن الرابع عشر الميلادي نالا سنج ومولي دؤاد . ومن المشكوك فيه أن المجموعة الشعرية الكبيرة التي كتبت بالهندية منسوبة إليه (٢٢) .

وتضمن الأدب الكجراتي الفولكلور الشعبي لها وأشعارا في الحب والغزل ، واشتملت على قصص وأساطير وخرافات كثيرة ، ومن أروع ما كتب في عهد علاء الدين كتاب The Prabandhacintamani ويتضمن معلومات تاريخية غزيرة (٢٣) .

أما النشاط الأدبي في البنغال فيبدو اضطرابه في تلك الفترة ، ويوضح الفولكلور البنغالي تطور لغة المنطقة . ومنذ أن غزا سلاطين

(19) Munshi : op. cit., p. 292.

(20) IBID. 293.

(21) Kesy : A. Hist. of Hindi literure. p. 17.

(22) IBID, p. 18.

(23) Lal. op. cit. p. 343.

دهلى بلاد البنغال ، حاول الحكام الترك لهذا الإقليم تعلم لغة البنغال والاندماج بالملايين الكثيرة لهذه المنطقة . ولم يكن عندهم الوقت الكافى لتعلم اللغة السنسكريتية ، وإنما قرأوا الكتب القيمة مترجمة الى اللغة المحلية . وقد أمر ناصر شاه - أعظم حكام البنغال فى ذلك العصر - ١٣٢٣-١٣٢٥ بترجمة Mahabharata وكان راعيا للعلم والعلماء . ويعتد قرن من الزمان بعد الحكم الإسلامى ، ظهر شعراء كثيرون فى البنغال أمثال شاندى داز (٢٤) .

وفى جنوب الهند ، ومناطق أخرى استغرق التأثير الإسلامى فى الحياة الثقافية سنين عددا ، لذا ظل الأدباء يكتبون فى هذه البلاد بالسنسكريتية وظهرت كتب رائعة تبرز الفن الدرامى الأصيل .

ومما لا شك فيه أن قيام الدول الإسلامية فى الهند أثر تأثيرا ملحوظا على تطور الأدب السنسكريتى . ولقد فضل سلاطين دهلى وحكام الهند المسلمين اللغتين العربية والفارسية ، يضاف الى ذلك أن تعدد غزواتهم فى بلاد الهند وضع نهاية لحياة شعوبها السلمية ، وغير طابع للحياة فى هذه البلاد .

فالكجرات مثلا بعد غزو يلغ خان لها سنة ١٢٩٩ ظلت مائة عام لا تنتج أدبا ذات قيمة الا الفولكلور . وفى خلال القرن الرابع عشر الميلادى عموما أخذت السنسكريتية تفقد أهميتها . واستعاضت عنها بلاد الهند باللغات المحلية التى عبرت بها شعوب الهند ، وكتبوا بها آدابهم (٢٥) .

ظلت الحياة الثقافية فى الهند مزدهرة فى عهد بنى تغلق ، ووفد على السلطان محمد بن تغلق الكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة ، وقد قدم اليهم كل عون وتشجيع على ممارسة نشاطهم وإظهار إنتاجهم ، وكان هذا السلطان أدبيا وشاعرا ، كتب باللغتين العربية والفارسية أشعارا وقطعا أدبية تشهد بذوقه الفنى وروعة أسلوبه ، وإجمال تعبيره ، وعمق

(24) IBID, p. 344

(25) IBID. p. 344.

أفكاره ، وكان بالإضافة الى ذلك فيلسوفا وطبيبا حاذقا (٢٦) أشرف على علاج الناس بنفسه ، وأقام الكثير من دور الشفاء وملاجئ العجزة (٢٧) .

ولم يكن فيروز شاه التغلقى أقل من سلفه اهتماما بالعلم وأهله ، وأسس عدة مدارس لعلوم الدين واللغة والتاريخ والحكمة والرياضيات والفلك والطب بلغت الثلاثين (٢٨) ، وقد جلب العلماء المسلمين الى السلطنة للتدريس في مدارسهم ولم يقتصر اهتمام هذا السلطان على الدراسات الاسلامية بل عني بدراسات وعلوم الهند القديمة ، فشجع البراهمة على حل رموز أعمدة آزوكا لما لها من أهمية تاريخية ، وقد استخدم بعضها في منشأته ، وعهد الى علماء الهنود باختيار الكتب السنسكريتية الهامة له ، وترجمتها الى الفارسية ، وكان هذا السلطان ادبيا ، فقد كتب كتابا في التاريخ تضمن حياته وأعماله وسياسته ، ويسمى « فتوحات فيروز شاهى » . وهذه الكتب آلت اليه بعد استيلائه على حصن نكركت ، في الفلسفة والفلك ، وتعرف هذه المجموعة باسم « دلائل فيروز شاه » (٢٩) .

وقد لاحظ ابن بطوطة في رحلاته ببسالاد الهند كثرة المدارس بها ، وذكر ان هناك مدارس للصبية ومدارس للفتيات ، وأوضح أن النساء في الهند أقبلن على التعليم باهتمام بالغ خصوصا العلوم الدينية (٣٠) .

حرص السلطان فيروز شاه على تشجيع أهل العلم وذلك بتيسير سبل المعيشة لهم ، فالذين احتاجوا الى الزاد والنفقة أنعم عليهم بالوظائف ، والاقطاعات والأرض الخصبة بما يزيد عن حاجتهم ، فوجد أهل العلم من العلماء والمشايخ والمدرسين والطلبة والقراء والحفاظين وأرباب المساجد الحياة ميسرة في ظل وكنف هذا السلطان ، وامتلات المدارس القديمة والجديدة التى كانت خالية وبالية بالمدرسين والذاكرين والطلبة ، فراج العلم ، وارتفع شأن العلماء ، والتحق طلاب العلم بالوظائف

(26) Prasad : India. 266-267.

- (٢٧) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، ج١ ، ص ١٢٣ .
- (٢٨) رحلة ابن بطوطة ، ج ٢ ص ١١٠ .
- (٢٩) تاريخ فيروز شاهى ، ص ٧٨٤-٧٨٥ .
- (٣٠) رحلة ابن بطوطة ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

التي يسرت لهم الحياة الرغدة بعد أن كانوا يعيشون على الكفاف ، وقضوا
الأوقات الطوال في دراسة علوم الشرع والدين(٣١) .

أما الخانقات التي كانت مهجورة في المدينة والأطراف فامتألت بفضل
بر السلطان بالصوفية والعباد والزهاد يقضون أوقاتهم في دراسة
الدين(٣٢) .

وأنشأ المدرسة الفيروز شاهية وعنى بعمارتها متعددة الحجرات ،
بها عدة مجالس وأعمدة مرصوفة ، محاطة بالحدائق الفناء . ويقول
بارانى ان الناس أحيوا هذه المدرسة حتى ان من أقام فيها نسي موطنه
وعمله ولم يعد من الممكن مغادرتها لطيب هوائها ، وهجروا ديارهم
وقدموا ليسكنوا بجوارها ، وكان المسافرون يتوقفون عندها لمشاهدة
جمال بنياتها والتمتع بطيب هوائها ، ولذلك فهي نادرة في جمالها وتوازنها
والفقه ويشغل كل يوم بختم القرآن للحافظين ، وكانت تكبيرات المصلين
وجاذبيتها(٣٣) .

والمدرسة الفيروز شاهية منبع الخيرات والحسنات ، فكانت تقام
فيها الصلوات المفروضة والنوافل ، ويؤدى فيها الصوفية صلوات عند
الشروق والغروب والزوال وصلوات التهجد .

ومن استأذنتها الكرام مولانا جلال الدين الرومى الذى كان استاذاً
عظيماً ، وكان يقوم بتدريس العلوم الدينية ، فيعلم التفسير والحديث
والفقه ويشغل كل يوم بختم القرآن للحافظين ، وكانت تكبيرات المصلين
في هذه المدرسة تصل الى عنان السماء ، وكانت تصل الى المقيمين بهذه
المدرسة التبرعات الكثيرة .

وتلك الأيام نداولها بين الناس ...

(٣١) تاريخ فرشته ، ص ١٥٠ .

(٣٢) تاريخ فيروز شاهى ، ص ٧٨٩ .

(٣٣) بارانى : تاريخ فيروز شاهى ، ص ٧٩٠ .

الملاحق والجداول والمصادر

وفهرس الكتاب

أولا - الخلفاء العباسيون في العصر الغزنوي :

الطائع	٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٥-٩٩١ م
القادر	٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣١ م
القائم	٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥ م
المقتدى	٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٥-١٠٩٤ م
المستظهر	٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨ م
المسترشد	٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥ م
الراشد	٥٢٩-٥٣٠هـ/١١٣٥-١١٣٦ م
المقتنى	٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٤٠ م

ثانيا - الطاهريون :

طاهر بن الحسين	٢٠٥هـ
طلحة بن طاهر	٢٠٧هـ
عبدالله بن طاهر	٢٣٠هـ
طاهر بن عبدالله	٢٣٠هـ
محمد بن طاهر الثاني	٢٤٨هـ
طاهر الثالث بن محمد	٢٥٩هـ

ثالثا - الصفاريون :

يعقوب بن الليث الصفار	٢٥٤هـ
عمرو بن الليث	٢٦٥هـ
طاهر بن محمد بن عمرو	٢٨٩هـ

رابعاً — السامانيون :

هـ ٢٠٤	أحمد بن أسد
هـ ٢٠٥	نصر الأول بن أحمد
هـ ٢٧٩	إسماعيل بن أحمد
هـ ٢٩٥	أحمد بن إسماعيل
هـ ٣٠١	نصر الثاني بن أحمد
هـ ٣٣١	نوح بن نصر
هـ ٣٤٣	عبدالله بن نوح
هـ ٣٥٠	منصور بن نوح
هـ ٣٦٦	نوح بن منصور
هـ ٣٨٧	منصور الثاني بن نوح
هـ ٣٨٩	عبدالمك الثاني بن نوح — المنتصر بن نوح

جدول بأسماء السلاطين الفزنويين والحكام السابقين والمعاصرين لهم في الشرق وبسني حكمهم

أولاً — السلاطين الفزنويون :

هـ ٣٥١	البتكين أول من ولى غزنة
هـ ٣٥٢	أبو اسحق إبراهيم بن البتكين
هـ ٣٥٥	بلكاتكين
هـ ٣٦٢	بيرى

بنو سبكتكين :

هـ ٣٨٧—٣٦٧	ناصر الدولة سبكتكين
هـ ٣٨٩—٣٨٧	إسماعيل بن سبكتكين

٣٨٩—٤٢١ هـ	يمين الدولة محمود بن سبكتكين
٤٢١ هـ	محمد بن محمود جلال الدولة المكحول
٤٢١—٤٣٣ هـ	ناصر دين الله مسعود الاول بن محمود
٤٣٣ هـ	محمد بن محمود للمرة الثانية
٤٣٣—٤٤٠ هـ	شهاب الدولة ابو سعد مودود بن مسعود
٤٤٠ هـ	مسعود الثاني بن مودود . حكم بضع اسابيع
٤٤٠ هـ	بهاء الدولة ابو حسن على بن مسعود الاول
٤٤٠—٤٤١ هـ	عز الدولة عبدالرشيد بن محمود
٤٤٤ هـ	طغرل مملوك اغتصب الحكم
٤٤٤ هـ	جمال الدولة فرخزاد بن مسعود
٤٥١ هـ	ابراهيم بن مسعود الملك المؤيد جلال الدين
٤٩٢ هـ	ملاء الدولة ابو سعد مسعود الثالث بن ابراهيم
٥٠٨ هـ	كمال الدولة شيرزاد بن مسعود
٥٠٩ هـ	سلطان الدولة آرسلان شاه بن مسعود
٥١٢ هـ	يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود — فائب سنجر
٥٥٥ هـ	معز الدولة خسروشاه بن بهرام
	الفتح الغوري

خامسا — بنو زيار حكام جرجان وطبرستان :

٣١٥ هـ	مرداويج بن زيار
٣٢٣ هـ	وشمكير بن زيار
٣٦٦ هـ	بيستون بن وشمكير
٣٦٦ هـ	قابوس بن وشمكير
٤٠٣ هـ	منوچهر بن قابوس

- ٤٢٠هـ أبو كاليجار أنو شروان بن منوچهر
٤٢٤هـ دارا بن قابوس
أنو شروان للمرة الثانية
٤٣٤هـ اسكندر بن قابوس
٤٤١هـ كيكافوس بن اسكندر
٤٦٢هـ جهاننشاه بن كيكافوس

سادسا — بنو بويه في فارس وخوزستان :

- ٣٢٢هـ عماد الدولة أبو الحسن على
٣٣٨هـ عضد الدولة أبو شجاع فناخيرو
٣٧٢هـ شرف الدولة أبو الفوارس
٣٨٠هـ صمصام الدولة أبو كاليجار
٣٨٨هـ بهاء الدولة أبو نصر فيروز
٤٠٣هـ سلطان الدولة أبو شجاع
٤١٢هـ مشرف الدولة أبو على حسن
٤١٥هـ عماد الدولة أبو كاليجار
٤٤٠هـ الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز

السرى :

- ٣٦٦هـ فخر الدولة أبو الحسن على
٣٨٧هـ مجد الدولة

ثالثاً - الفوريون :

(أفغانستان و هندستان)

(١) الفرع الرئيسى بفيروز كوه و غزنة :

سنة هجرية

٤٩٣

١- عز الدين حسين بن حسن بن محمد ..

٢- قطب الدين محمد ، (بفيروز كوه ،

٥٤٠

حول

توفي سنة ٥٤١)

سيف الدين سوري ، (بغزنة توفي

سنة ٥٤٣)

بهاء الدين سام ، (بفيروز كوه من

٥٤٣ الى ٥٤٤

٣- علاء الدين حسين جهانسوز ، (غور ثم

٥٤٤

غزنة و فيروزكوه ، خربت غزنة سنة ٥٤٥

٤- سيف الدين محمد بن حسين ، (فيروزكوه

٥٥٦

توفي في رجب سنة ٥٥٨)

غياث الدولة محمد بن سام ، (بغور) ..

شهاب الدين محمد غوري بن سام ،

(غزنة)

٥- غياث الدين محمد بن سام (توفي بهراة

٥٨٨

في ٢٧ جمادى الاولى سنة ٥٩٩) ..

شهاب الدين ، ثم معز الدين ، (عامل

سابق على غزنة

٥٨٢

الاستيلاء على لاهور

٦- معز الدين محمد غوري بن سام ، (توفي

سنة ٦٠٢)

علاء الدين محمد بن شجاع الدين على،

(بغور)

مهاليكه الأربعة الذين اقتسموا الملك

(واتخذ كل منهم لقب المعزى)

سنة هجرية

- (١) قطب الدين أيبك ، (بلاهور شم
دهلى من سنة ٦٠٢ الى سنة ٦٠٧)
- (ب) تاج الدين يلدز ، (بغزنة من سنة
٦٠٢-٦١١-٦١٢-٦١٣)
- (ج) ناصر الدين قباچه ، (بالسند
والمقان وأوج من ٦٠٢ الى ٦٢٤)
- (د) بختيار محمد خلجي ، (في لكهنوتى
٧- غياث الدين محمود بن محمد بن سام ،
(بغور ، قتل سنة ٦٠٩)
- ٨- بهاء الدين سام بن محمود
٩- علاء الدين أنسلون بن حسين ، (سلطان
اسما ، عامل خوارزم شاه)
- ١٠- علاء الدين أو ضياء الدين محمد بن
شجاع الدين على
سلطان اسما ، عامل أتمسز خوارزم
شاه حتى سنة ٦١٢)
- (ب) فرع بياهيان وطخارستان
١- فخر الدين مسعود بن حسين ، (عزله
أبناء أخيه)
- ٢- شمس الدين محمد بن مسعود
٣- بهاء الدين سام بن محمد
٤- جلال الدين على بن سام ، (قتل
خوارزم شاه سنة ٦١٢)
- ٦٠٢
- رابعاً - سلاطين دهلي :
الأتراك :
- ١ - أيبك قطب الدين ، (استولى على
دهلي سنة ٥٩٥ وانتزعها من برثوى
راجا)
- ٦٠٢

سنة هجرية

٦٠٧	٢ — آرام شاه	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٠٧	٣ — أيلتميش شمس الدين القطبى	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٣٣ شعبان	٤ — فيروز شاه الأول (ركن الدين)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٣٤ ربيع الأول	٥ — رضية	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٣٧ ٢٨ رمضان	٦ — بهرام شاه ، معز الدين	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٣٩ ذى القعدة	٧ — مسعود شاه علاء الدين ، (عزل في ٢٢ المحرم سنة ٦٤٤)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٤٤ المحرم	٨ — محمود شاه (الأول) ناصر الدين	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٦٤ ١٠ جمادى الأولى	٩ — بلبان ، غياث الدين أولوغ خان	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٨٦	١٠ — كيقباد معز الدين ، (اغتيل بالمر فيروز خلجى)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٨٩ جمادى الأولى	١١ — كيومراث شمس الدين ، (اغتيل في ٣ جمادى الآخرة سنة ٦٨٩)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

الخلجيون (الأفغانيون) :

٣ جمادى الآخرة ٦٨٩	١٢ — فيروز شاه (الثانى) جلال الدين ، (قتل في ٤ رمضان ٦٩٤)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٩٤ رمضان	١٣ — ابراهيم شاه الأول ركن الدين ، (سملت عيناه وقتل في ١٧ رمضان سنة ٦٩٥)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٦٩٥ ذو الحجة	١٤ — محمد شاه (الأول) علاء الدين ، (توفى في ٦ شوال سنة ٧١٥)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٧١٥ ذو الحجة	١٥ — عمر شاه شهاب الدين	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٧١٦ ٧ المحرم	١٦ — مبارك شاه (الأول) قطب الدين ، (اغتيل في ٥ ربيع الأول سنة ٧٢٠)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٧٢٠ ربيع الأول	١٧ — خسرو شاه ، ناصر الدين	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

خامسا — بنو تغلق شاه :

٧٢٠ شعبان	١٨ — تغلق شاه (الأول) ، غياث الدين ، غازى ملك	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٧٢٥ ربيع الأول	١٩ — محمد (الثانى) جونا بن تغلق ، غياث الدين أولوغ خان ، (توفى في ٢١ المحرم ٧٥٢)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠
٧٥٢ المحرم	محمود بن محمد (بضعة أيام)	٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

سنة هجرية	٢٠- فيروز شاه (الثالث) ، (توفى في
٧٥٢	رمضان سنة ٧٩٠)
٢١ المحرم	٢١- تغلق شاه (الثاني) ، غياث الدين سالار
٧٩٠	شاه ، (قتل في ١٥ صفر سنة ٧٩١)
١٩ رمضان	٢٢- أبو بكر شاه (عزل في ٦ المحرم سنة
٧٩١	٧٩٢ وسجن
١٧ صفر	٢٣- محمد شاه (الثالث)
٧٩٢	٢٤- سكندر شاه (الاول) همايون
١٦ ربيع الثاني	٢٥ - محمود شاه (الثاني) ناصر الدين
٢٩ جمادى الأولى	٢٦- نصرت شاه
٧٩٧	محمود (الثاني) ، (للمرة الثانية)
	اقبال ان بن ظفر ، (مطالب بالحكم :
٨٠١	هزمه خضر خان سنة ٨٠٨
	٢٧- دولت خان لودى (فترة شغور حتى
٨١٦	سنة ٨١٧)
١	٨١٤

سابعاً - الخوارزميون :

٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م	١ - انوشكين
٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م	٢ - قطب الدين محمد
٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م	٣ - آتسز
٥٥٢ هـ / ١١٥٦ م	٤ - آيل ارسلان
٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م	٥ - سلطان شاه محمود
٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م	٦ - علاء الدين تكش
٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م	٧ - علاء الدين محمد
٦١٧ هـ / ٦٢٨ م	٨ - جلال الدين منكبرى
(١٢٢٠ م / ١٢٣١ م)	

يلخانات فارس

(بنو هولاکو)

سنة هجرية

٦٥٤	١ — هولاکو
٦٦٢	٢ — آباقا ، (توفي في ٢٠ ذي الحجة ٦٨٠)	ربيع الثاني
٦٨٠	٣ — أحمد تکوادر	ذو الحجة
٦٨٣	٤ — أرغون ، (توفي في ٧ ربيع الأول ٦٩٠)	٢٧ جمادى الأولى
٦٩٠	٥ — كيختو ، (ارينجين تورجى)	ربيع الأول
٦٩٤	٦ — بايدو	جمادى الآخرة
٦٩٤	٧ — غازان محموسود	ذو الحجة
٧٠٣	٨ — اولجايتو خدا بنده محمد	شوال
٧١٦	٩ — أبو سعيد بهادر	مستهل شوال
٧٣٦	١٠ — آريا كاول (معز الدين)
٧٣٦	١١ — موسى
	المنافسون
٧٣٨—٧٣٦	١٢ — محمد
٧٥٢—٧٣٨	١٣ — طغاتيپور	ولا هم حسن ترك
٧٤١—٧٣٩	١٤ — جهان تيمور	الجلائرى

المصادر والمراجع

- ١ — ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم .
« الكامل في التاريخ » .
- ٢ — أحمد أمين :
(١) ضحى الاسلام (الجزءان الأول والثانى — القاهرة ١٩٣٨) .
- ٣ — (ب) ظهر الاسلام (جزءان — القاهرة ١٩٤٥) .
- ٤ — أحمد الساداتنى :
(١) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية (القاهرة ١٩٥٨) .
- ٥ — (ب) تاريخ بخارى — تأليف أرمنيوس فابرى .
- ٦ — ابن أبى أصيبعة : ت ٦٦٧هـ/١٢٧٠م — أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين .
« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » .
- ٧ — ابن بطوطة : للرحلة .
- ٨ — (أ) بروكلمان : كارل
« تاريخ الشعوب الاسلامية » (بيروت ١٩٤٨) .
- ٩ — تاريخ الآداب الاسلامية .
- ١٠ — البيرونى : (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) أبو الريحان محمد بن أحمد .
(١) « الآثار الباقية عن القرون الخالية » طبعة أدوارد سخاو .
- ١١ — (ب) « الجواهر فى أحوال الجواهر » .
- ١٢ — (ج) « تاريخ الهند » .
- ١٣ — تاريخ البيهقى (ت ٤٧٠هـ) محمد بن حسين ، نقله الى العربية الدكتور يحيى الخشاب وآخرون .

- ١٤ — حتى فيليب .
« تاريخ العرب الطول » .
- ١٥ — حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى .
- ١٦ — حسن أحمد محمود : « الاسلام فى آسيا الوسطى » .
- ١٧ — ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) .
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » (بولاق ١٣٨٤ هـ) .
- ١٨ — ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ / ١٢٧١ م) شمس الدين ابنو العباس
أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى .
« وفيات الاعيان » تحقيق محى الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٤٨) .
- ١٩ — زامبور : ادوارفون .
« معجم الانساب والاسرات الحاكمة » .
نقله لى العربية الدكتور زكى حسن والدكتور حسن محمود
(جامعة القاهرة ١٩٥١) .
- ٢٠ — السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٢٩٥ م) . عبد الرحمن بن أبى بكر
جلال الدين .
(١) « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة »
(القاهرة ١٣٥١ هـ) .
- ٢١ — (ب) « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » .
(جزاءن — القاهرة ١٣١١ هـ) .
- ٢٢ — العقبى : (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م) أبو نصر محمد بن عبد الجبار
« تاريخ اليمىنى » (جزاءن — القاهرة ١٤٨٦ هـ) .
- ٢٣ — ابن العماد الحنبلى : (ت ١٠٩٨ هـ) أبو الفلاح بن عبد الحى
ابن العماد الحنبلى .
« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » (القاهرة ١٣٥٠ هـ) .
- ٢٤ — ابن العميد (٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) الشيخ المكين جرجس ابن العميد .
« تاريخ المسلمين » .
- ٢٥ — القلقندى : (ت ٨٢١ هـ / ١٤٨٨ م) أبو العباس أحمد .
صبح الاعشى فى صناعة الانشا » .

- ٢٦ — ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي .
« البداية والنهاية » (القاهرة ١٩٣٢) .
- ٢٧ — لويون : جوستاف : « حضارات الهند » .
- ٢٨ — متز : آدم .
« الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى » .
(جزءان — القاهرة ١٩٤٠) .
- ٢٩ — أبو المحاسن : (ت ٨٤٨هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » — دار الكتب المصرية .
- ٣٠ — محمد جمال الدين سرور : « تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق » .
- ٣١ — المقرئى : (ت ٧٧٤هـ / ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على .
« المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .
- ٣٢ — ياقوت : « معجم البلدان » .

مراجع فارسية

- ١ — عبدالحميد لاهورى : بادشاهنامه .
- ٢ — علاء الدين عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاي ليدن (١٩٣٧) .
- ٣ — غياث الدين بن همام الدين الحسينى : « حبيب السير فى اخبار افراد البشر » (طهران ١٣٧٣ هـ) .
- ٤ — احمد بادكر : « تاريخ سلاطين افغانى » .
- ٥ — عباس خان سروانى : « تاريخ شيرشاه » .
- ٦ — عباس اقبال : تاريخ عمومى ايران » .
- ٧ — محمد قاسم هندو شاه : « تاريخ فرشته » .
- ٨ — شاه ابو تراب ولى : « تاريخ كجرات » .
- ٩ — رستم على : « تاريخ هندى » .
- ١٠ — غلام حسين سليم : « رياض السلاطين او تاريخ بنفاله » .
- ١١ — محمد اسلام : « فرحة الناظرين » .
- ١٢ — عبدالقادر بن ملوك بدوانى : « منتخب التواريخ » .

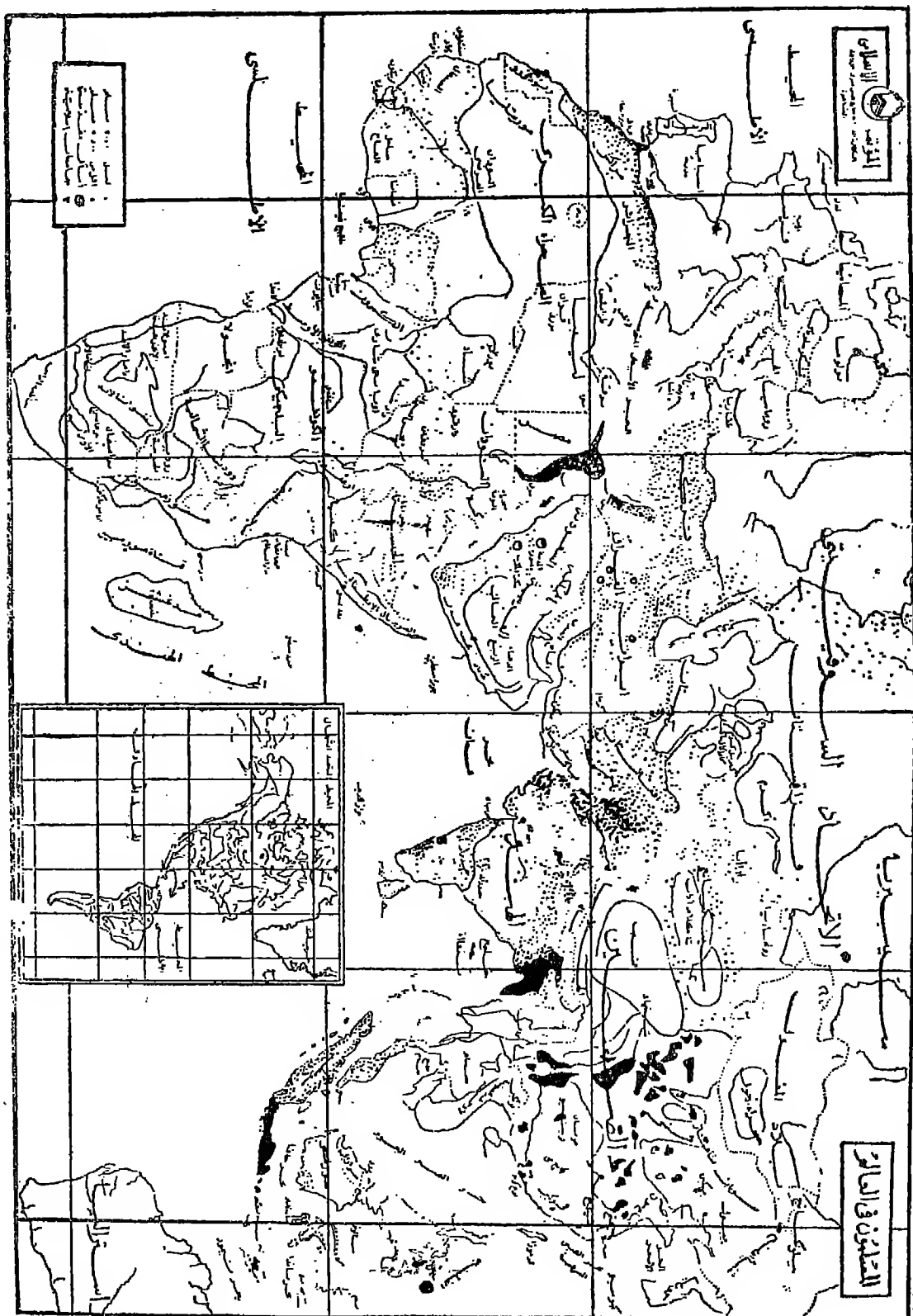
ثالثا : مراجع اوریبیه

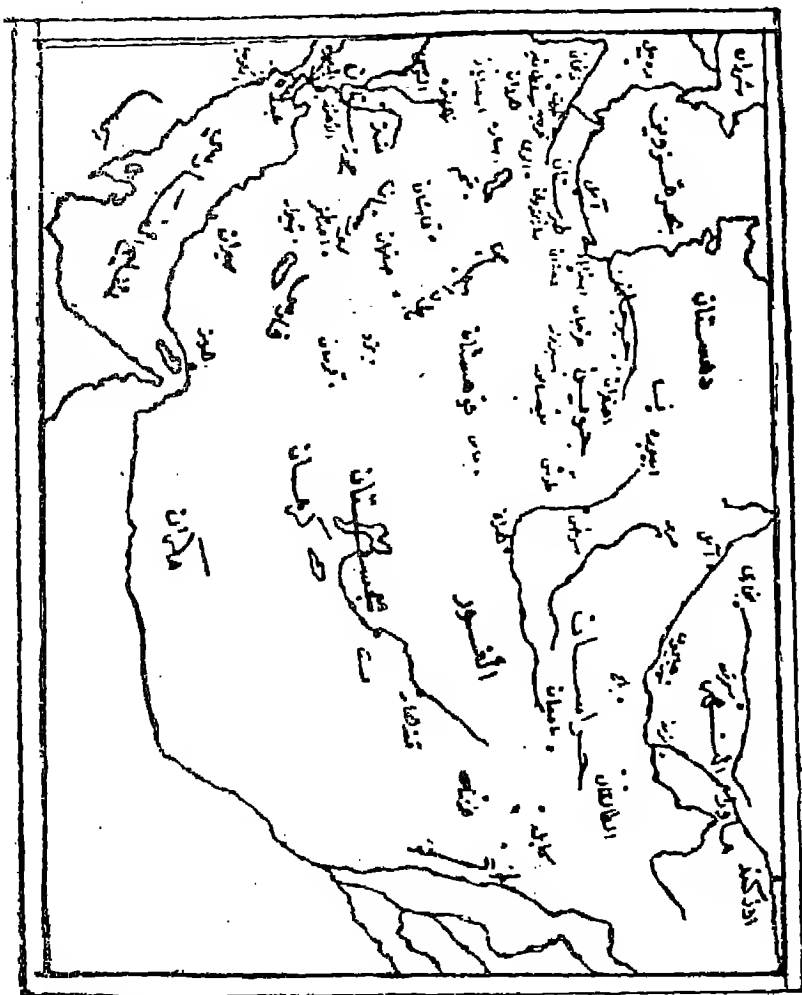
1. Ali, M. A.A. : History of Indo-Pakistan. Dacca, 1970.
2. Amceer — Ali : The Spirit of Islam. London. 1923.
3. Barthold W. : Histoire des Turs. d'Asie. Paris. 1945.
4. Barthold : "Hist of Turkestan".
5. Binyon. Laurence : "The Court Painters of the Grand Moghul".
6. Browne : Edward. "A Literary History of Persia".
7. Czaplika M.A. "The Turks of Central Asia".
8. Defremery : "Histoire des Sameinides".
9. Degwngnes, J. "Histoire eGneral des Huns", des Turs, des Mongols. Paris, 1940.
10. D'ohsson, Baron. C. "Histoire des Mongols".
11. Duff, Grant, "Hist. of the Mahrattas". 1921.
12. Dumbar, G. "History of India From the Earliest Times to the resent Day. London 1956
13. Elliot H.M. Dowson. John. "The History of India as told by Its own Historians The Mohammadan Period. London, 1867.
14. Gait, Edward. "Hist. of Assam. Calcutta. 1929.
15. Garratt. G.T. "The Legacy of India. Oxford 1930.
16. Garret Ed. Mughol Rule in India. 1930.
17. Gibon. "The History of the Decline and Fall of the Roman Empire".
18. Grousset, R. "L'Empire Mongol".
19. Grousset, R. "Hist. de l'Extreme Orient." Paris, 1929.
20. Habib, Mohammed. "Sultan Mahmud of Ghaznin". (New Delhi 1967).

21. Hammer, J.D. "Histoire de l'Empire Otoman, (Paris 1930).
22. Harvel, F.B. "The History of Aryan Rule in 'India'".
23. Howorth, H. "History of the Mongols. 3 vols. London 1864.
24. "The Indian Moslems by an Indian Mohamedan. London 1938.
25. Lal. "A Hist. of hte Khaljis".
26. Lane Poole : The Muhammadan Dynasties". Paris. 1935.
27. "Medieval India under the Mohamedan Rule". (New York 1962).
28. Majundar, R.C. "An Advanced History of India". (New York 1968).
29. Morel. "A Short History of India (London 1890).
30. Munshi. "The Struggle for Empire". (Bombay 1969).
31. Nicholson. A. Reynold. "Literary History of the Arabs." (Cambridge 1960).
32. Noldeke, "Sketches from Eastern History.
33. "A Modern History of India."
34. Prasad : "A short History of Muslim Rule in India". (Allahabad 1933).
35. Sarkar : "Hist. of Aurengzib" (Calcutta 1924).
36. Smith. V.A. "Hist. of fine Arts in India". (Oxford 1930).
37. Spear, P. "Twilight of the Mughuls" (Cambridge 1951).
38. Vambery. A. "A History of Bokhara (London 1873).
39. Weil : "History of the Khalifs".
40. Cambridge Medieval History.
41. Cambridge Hist. of India.
42. Cambridge Hist. of Iran.
43. Ency. of Islam.



أنظر كتاب تاريخ المسلمين
في شبه القارة الهندية









فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١

الباب الأول

الحياة السياسية في شرق الدولة الإسلامية

١ - الدولة الطاهرية	٥
٢ - الدولة الصفارية	٨
٣ - الدولة السامانية	١٢
٤ - الدولة البويهية	٢٠
٥ - الدولة الزيدية في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم	٢٣
ظهور الاسلام في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم	٢٤
الحياة السياسية في بلاد الجبل قبيل أن يحكمها الأكراد الكاكوية	٤٣
قيام دولة الأكراد الكاكوية	٤٤
الحياة السياسية في بلاد الجبل في علاء الدولة محمد	٤٦
دولة الكاكوية الثانية	٦٠

الباب الثاني

١ - الدولة الغزنوية	٦٧
قيام الدولة الغزنوية	٦٩
الأحداث الداخلية	٨٩

الموضوع	الصفحة
العلاقات الخارجية للدولة الغزنوية	٩٧
١ - مع الخلافة العباسية	٩٧
٢ - مع البلاد الاسلامية المجاورة	١٠٢
٤ - مع بلاد الهند	١١٤
نتائج الفتوحات الغزنوية في بلاد الهند	١٣١
٤ - النهضة الثقافية	١٣٤
٥ - ضعف الدولة الغزنوية وانهارها	١٤٥
٢ - الدولة السلجوقية	١٥٤
٣ - دول اتابكة الموصل والجزيرة	١٧٧
العلاقات السياسية	١٨٩
اتابكة المشرق الاسلامي	١٩٣
الأيوبيون	١٠٩
الأتابكة والصليبيون والمغول	٢٢٥
الحياة الثقافية في بلاد الجزيرة	٢٦٩
انحلال دول اتابكة الموصل والجزيرة وزوالها	٢٨٢
٤ - دولة الاسماعيلية في ايران	٢٨٦
٥ - الدولة الخوارزمية	٢٩٧
الخوارزميون والمغول
سقوط الخلافة العباسية	٣١١
المغول بعد سقوط بغداد	٣١٤
دولة المغول الايلخانية بفارس والعراق	٣١٩

الصفحة

الموضوع

الباب الثالث

الدول الإسلامية في الهند

٢٣٤١	الدولة الغورية
٢٤١	الغور وبلاد الهند
٣٤٨	ضعف مملكة الغور وانهيارها
٣٥٢	سلطنة دهلي الإسلامية في عهد الملوك الماليك
٣٧٥	الدولة الخلجية
٣٧٥	قيام الدولة الخلجية في دهلي
٣٧٨	سياسة سلاطين الخلجيين في توطيد سلطاتهم
٤٠١	دولة بنى تغلق
٤٠٦	سلالات المستقلة في الهند على دهلي
٤١٢	العلاقات الخارجية
٤٣٧	مع المغول
٤٦٤	لغزو التيموري لبلاد الهند
٤٦٧	الحياة الثقافية لسلطنة دهلي الإسلامية
٤٧٨	الملاحق والجداول والمصادر والخرائط ومهرس الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب القومية

٨٧/٥٠٤٠٠

الترقيم الدولى

٥٠٠٢٧٧ — ١٠٠٠ — ١٧٧

شركة دار الإشعاع للطباعة

١٤ ش عبد الحميد — جنينة قاميش
السيدة زينب — ست ٣٦٣٠٤٦٩

تطلب جميع هـ شوراتنا من
مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع
الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضي
ت ٣٤٣٦٧٦٥ ٠ ب ٢٢٧٥٤